المركز القومى للترجمة

تريفور كلارك

رجل شريف ماجد

سيرة وأزمان

الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا



المشروع القومى للترجمة

الجزء الأول

ترجمة وتقديم

صبرى محمد حسن

1530

رجل شريف ماجد

سيرة وأزمان الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا

(الجزء الأول)

رجل شريف ماجد

سيرة وأزمان الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا

(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1530
- رجل شريف ماجد: سيرة وأزمان الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا (الجزء الأول)
- تريفور كلارك
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

A Right Honourable Gentleman:

The Life and times of Alhaji Sir

Abu bakar Tafawa Balewa

By Trevor Clark

Copyright © Trevor Clark

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

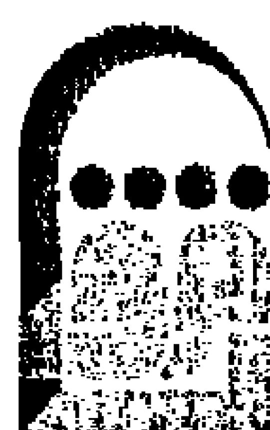
رجل شريف ماجد

سيرة وأزمان الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا

(الجزء الأول)

تأليف : تريفور كلارك

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن



2010

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

كلارك ، تريفور.

رجل شريف ماجد: سيرة وأزمان الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا

(ج١) تأليف: تريفور كلارك، ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن.

ط١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠

٦٢٠ ص ، ٢٤ سم

١ - السياسيون النيجيريون .

٢ - باليوا ، أبو بكر تافاوا ١٩١٢-١٩٦٦

(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)

(ب) العنوان ٩٢٣,٢٠٦٦

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٢٣٤٩

الترقيم الدولى 978-977-479-715-5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة المترجم

أبو بكر تافاوا باليوا : الرجل والأعمال

صبرى محمد حسن

لماذا هذا العنوان الطويل؟ كان بالإمكان الاكتفاء بترجمة عنوان الكتاب "سيرة وأزمان أبى بكر تافاوا باليوا"، لكن بعد قراءة الكتاب وجدت أن الموروث النيجيرى يحتم أن يسبق لقب "حاج" اسم كل من أدى هذه الفريضة سواء أكان رجلاً أم امرأة. وجدت أيضًا أن الموروث البريطانى يحتم وضع لقب "سير" أمام كل من حصل على "نوط الفروسية Knight البريطانى"؛ ووجدت أيضًا أن كل من يصبح عضواً فى المجلس الخاص لصاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا لابد من وضع السابقة Right honourable (بمعنى الماجد أو الموقر) قبل اسمه واللاحقة Pc (بمعنى "مستشار المجلس الخاص") بعد اسمه لتفيد أنه واحد من مستشارى مجلس صاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة الخاص. وقرأت فى الكتاب أيضًا أن أبا بكر عندما قدَّم فى البرلمان البريطانى جرت مخاطبته باللقب Right honourable. ومن هنا آثرت أن أعطى كل ذى حق حقه.

على الرغم من أن أحمد بللو كان حفيداً للشيخ عثمان بن فودى، الذى عرفه المسلمون وغير المسلمين النيجيريين باسم الشيخ المُجَدد، الذى حظى ولا يزال يحْظى باحترام وتقدير كبير لا فى نيجيريا وحدها، وإنما فى سائر أنحاء غرب إفريقيا كله، وعلى الرغم أيضًا من أن أحمد بللو كان يعد ابن الأكرمين، وعلى الرغم أيضًا من أنه كان قاب قوسين أو أدنى من تبوؤ منصب السلطان فى نيجيريا، بحكم كونه حفيداً للمرحوم الشيخ عثمان بن فودى، وعلى الرغم من شغل أحمد بللو لمنصب المستشار

السياسى الرئيسى Sardauna، أعلى المناصب السياسية وأرفعها فى نيجيريا، وعلى الرغم من انتخاب أحمد بللو رئيساً لوزراء الإقليم الشمالى فى نيجيريا، فإن اسم أبو بكر تافاوا باليوا الذى انحدر من أسرة فقيرة متواضعة، ذاع وانتشر فى الأقاليم النيجيرية كلها، مما جعل الشعب النيجيرى كله ينتخبه رئيساً لوزراء الحكومة الفيدرالية؛ ما سر هذا البريق وذيوع الصيت؟ وما هو سر الإجماع على حبه واختياره بالإجماع؟ وما هو سبب اعتباره واحداً من السياسيين الدوليين الأفارقة البارزين؟ وما هى أسباب الاحترام الكبير الذى كان يحظى به فى سائر أنحاء القارة الإفريقية؟

أبو بكر تافاوا باليوا

اسمه بالكامل أبو بكر تافلوا باليوا، **وهو من مواليد شهر ديسمبر من العام ١٩١٢ الميلادى ، وتوفى فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير من العام ١٩٦٦ الميلادى ، هذا يعنى أن الرجل مات وهو فى ريعان شبابه إذ كان عمره حوالى ٤٤ عاماً.** كان أبو بكر سياسيًا نيجيريًا، كما كان أيضًا أول رئيس وزراء لنيجيريا بعد حصولها على الاستقلال ، أبو بكر فى أساسه كان مدرسًا مؤهلاً ، لكنه أصبح زعيماً مفوهًا يدافع عن مصالح الشمال النيجيرى ، باعتبار أن أبا بكر كان واحداً من القلائل النيجيريين المتعلمين فى عصره . يزاد على ذلك أنا أبا بكر كان واحداً من السياسيين الدوليين ، كما كان يحظى باحترام كبير فى سائر أنحاء القارة الإفريقية من منطلق أنه كان من بين الزعماء الذى شجعوا على إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية التى سميت فيما بعد باسم الاتحاد الإفريقى .

مولده وحياته العلمية

ولد أبو بكر فى مدينة باوتشى، وكان والده من الباجيرى ورئيسًا لحى إسلامى يحمل هذا الاسم ويقع ضمن حى ليـر Lere الفرعى التابـع لمقاطعة باوتشى . بدأ

أبو بكر تعليمه فى سن مبكرة فى واحدة من مدارس القرآن الكريم فى باوتشى، وقد درس الصبى فى كلية كاتسنا شأنه فى ذلك شأن السواد الأعظم من معاصريه، وسرعان ما حصل الصبى على شهادته التربوية. ويعود أبو بكر للتدريس فى مدرسة باوتشى المتوسطة (الإعدادية).

مدرسة باوتشى المتوسطة

هذه الوظيفة الشاغرة التى شغلها أبو بكر، جرى إنشاؤها فى تعزيزات الخزانة المحلية فى ظل فرضية مفادها أن أبا بكر سوف ينجح، وذلك على الرغم من الضوائق الاقتصادية فى ذلك الوقت. ولو قدر لأبى بكر أن يفشل فإنه سوف يجرى توظيفه، لكنه سيحصل على أجر أقل من أجر الناجح. وجرى فى العام التالى لتوظيف أبى بكر مراجعة رواتب مدرسى المقاطعات الشمالية التابعين للإدارة المحلية، وجرى أيضًا تثبيت الحاصلين على شهادات عالية من كلية كاتسانا، على أن يزيد الراتب إلى خمسة جنيهات إنجليزية بعد فترة الاختبار.

بقى جيل أبو بكر فترة من الزمان قبل أن تستطيع الإدارة المحلية استخدام أناس أكفاء، إن هى استطاعت دفع أجور مجزية لهؤلاء الناس، يزاد على ذلك أن رواتب صغار الموظفين فى الحكومة المركزية لم تكن أكبر بكثير من هذه الرواتب.

يجب التنويه هنا إلى أن الناس فى هذا المجتمع بدءًا من رؤساء الأحياء، وكبار المسئولين، وصولاً إلى عمال المدارس، يتعين على كل واحد منهم القيام بزراعة قطعة من الأرض تمنح له أو قد يجرى تأجيرها له طبقًا لمنظومة شبه إقطاعية من الناحية التأجيرية، هذه الفئة من الناس كانوا يبنون بيوتهم على قطع الأرض التى كانوا يحصلون عليها على شكل منحة من الأمير أو رئيس الحى، وهم أيضًا الذين كانوا يقومون ببناء مجمعاتهم السكنية بعون من بقية أفراد العائلة والجيران مستهدفين بذلك

تخفيف التكاليف الخاصة بالطين، والجدران الخارجية التى يصنعونها من الحصير وتخفيض تكاليف الأكواخ المصنوعة من الطوب اللَّبن، ومقتصدين أيضًا فى حزم السقف وفى القش، وفى كلفة الأرضيات. كانت النوافذ عبارة عن فتحات صغيرة فى الجدران وكانوا يصنعون لتلك النوافذ شيشًا من الخشب فى بعض الأحيان. يضاف إلى ذلك أيضًا. أن العدد الصغير من مستخدمى الحكومة المركزية القادمين من الجنوب (وبخاصة الكتبة، وعمال البريد والتلغراف الذين يعيشون على أراضٍ خاضعة للتاج البريطانى ومملوكة لإدارة الأشغال العامة، ويدفعون إيجارات عرفية مُعانة للحكومة المركزية) كانوا يتطلعون إلى الحصول على شيء من الحظوة من قبل الإدارة المحلية، وأن تمنحهم قطعًا صغيرة من الأرض، فى أى مكان، لكى يقوموا بزراعتها.

أبو بكر يلاحظ : الفارق الكبير بين رواتب الموظفين البريطانيين فى الحكومة المركزية ورواتب الموظفين المواطنين

كان الموظف البريطانى حديث التخرج ، فى ذلك الوقت يحصل على راتب مقداره ثلاثين جنيهًا إنجليزيًا فى الشهر. ويستطيع هذا الخريج، وبدون الحصول على مزرعة، دفع الضرائب المقررة. كان ذلك المبلغ كافيًا لأن يدفع الخريج منه أجرًا لطباخ، وأجرًا لخادم، الذى غالبًا ما يكون غلامًا صغيرًا، كما يكفى أيضًا لدفع أجر العامل الذى يقوم بتنسيق الحديقة والمجمَّع السكنى. تجيء بعد ذلك فواتير طعام هؤلاء الخريجين، المحلية والمستوردة (والذى لاشك فيه أن تلك الفواتير كانت تشمل كرتونًا من البيرة وقارورة أو اثنتين من المشروبات الكحولية) هذا بالإضافة إلى القسط الشهرى الذى يُدْفَع سدادًا لديونهم المستحقة لمزوديهم بالتموينات الاستوائيين فى لندن، الذين كانوا يقومون بتمويل احتياجات كل واحد من هؤلاء الخريجين طوال رحلة تدوم ثمانية عشر شهرًا يؤدون خلالها خدمة مستحقة للإدارة الاستعمارية فى غرب إفريقيا (بما فى ذلك انتقالات زوجات الموظفين البريطانيين عن طريق البحر). كان أولئك الخريجون

يحصلون أيضًا على بدل انتقال ليلى يقدر بخمسة شلنات عن الليلة الواحدة، كما كان الواحد منهم يحصل أيضًا على بدل الحصان الذى كان يكفى لإطعام الحصان ودفع أجر السايس، بل ويزيد على ذلك.

أبو بكر مدرس

تخلص أبو بكر على وجه السرعة من الجوانب المتبقية من حياة التلمذة التى استمرت إلى العام العشرين من عمر الرجل، ودخل الرجل غرفة الدراسة بصفته المعلم أبو بكر تافاوا باليوا، الوقور، مدرس الفصل الجديد، وهذا تغير كبير لكنه ليس مثيراً. كانت هذه المدرسة قد أنشئت فى الركن الجنوبى الغربى الظليل من تل كوبى Kobi، وتل كوبى هذا عبارة عن منطقة بارزة من الصخر الجرانيتى على سطح الأرض التى جرى بناء بلدة باوتشى حولها.

يتعرف بيرلند Burland باب، المشرف على التعليم **فى الفترة ما بين العام ١٩٣١، ١٩٣٧** فى بلدة كوبى على المعلم أبى بكر باليوا الذى كان يتقاضى منه شلنًا واحدًا عن كل ساعة يقضيها معه فى منزله لتأهيله لاجتياز اختبار لغة الهوسا المتوسط، وكان بيرلند يدخل رواق أكواخ أبى بكر، لكن العادات لم تكن تسمح لأولئك الذين ليسو من الأصدقاء الحميمين للأسرة بالدخول إلى أبعد من ذلك فى أى بيت من بيوت المسلمين.

أثناء حصة اللغة الإنجليزية، التى كان المعلم أبو بكر يقوم بتدريسها، لاحظ بيرلند باب وهو يُصفّر عجبًا وهو واقف خارج الفصل أمام الباب، أنه ربما كان هناك أوروبى آخر ضمن هيئة العاملين بالمدرسة. كان المعلم أبو بكر قد اشترى لنفسه مرآة يد خاصة دفع ثمنها من راتبه الشهرى الذى يقدر بأربعة جنيهات إنجليزية، وكان يتبع الطريقة التى كان جيرالد Gerald باور يتبعها فى جعل تلاميذه يقلدون حركات لسانه،

وحركات فمه، مستخدمًا فى ذلك الهجاء الصوتى بدلاً من الهجاء المعجمى الأنجلو - سكونى العجيب.

هذا التفرد الذهنى من قبل أبى بكر ترك انطباعًا طيبًا لدى الموظفين البريطانيين، الأمر الذى دفع أبا بكر لتحسين التاريخ والجغرافيا اللذين كان يدرسهما أيضًا للطلبة باعتبارهما مادتين إضافيتين، وهنا راح أبو بكر يقرأ عن ابن بطوطة، رحالة العصور الوسيطة، الذى عبر الجزء الأكبر من غربى السودان(*)، وعلى الرغم من أن ابن بطوطة لم يعبر بلاد الهوسا. كان أبو بكر يدخل الفصل ويتأكد من نظافته، ثم يبدأ الحصة بصوت عال وواضح تتردد أصداؤه قادمة من تل كوبى فى الخلف، كان الطلاب يحبون ذلك لأنهم تركوا له حرية اختيار المنهج الذى كان يغطى تاريخ غرب إفريقيا والتاريخ الإسلامى، وكان أبو بكر يفيد من كتاب هوجين المعنون "الإمارات الإسلامية النيجيرية" كما كان يفيد أبو بكر من التاريخ الإنجليزى. يضاف إلى ذلك أن أبا بكر كان مدخنًا .

وقوف أبى بكر على الغش والخداع فى موطنه

بُعيد عودة أبى بكر إلى موطنه بوقت قصير، جاء كبير المفوضين فى مركز التدريب فى بلدة يالوا لحضور حفل الافتتاح الرسمى للمستشفى الجديد الذى جرى بناؤه. ومن سوء الطالع أن المستشفى لم يكن فيه سوى نفر قليل جدًا من المرضى، وكان المسئول الطبى على أحر من الجمر إذ كان يود أن يثبت لصاحب السعادة كبير الموظفين، أن الناس كانوا يُقَدِّرون مهاراته الطبية، وأن المبالغ القليلة التى خصصت للمعدات كان لها مبررها فى زمن الكساد. ظهر الطبيب فى منتصف المدرسة فى اللحظة الأخيرة، وراح

(*) المقصود بالسودان هنا، ليس السودان الحالى، وإنما الكلمة تعد عكسًا لكلمة "البيضان" أى الأرض التى يسكنها السود (المترجم) .

يناشد الحاضرين إيجاد أجسام بديلة حتى يمكن شغل أَسِرَّة المستشفى، ولعب أبو بكر دوراً كبيراً فى هذا الغش والخداع الكبيرين. لم يلاحظ الضيف الموقر على وجه الشاب أى أثر من الآثار التى تدل على وجود عدد كبير من المرضى. كانت تلك واحدة من القصص التى كان أبو بكر يرويها بصورة متكررة، وهو يضحك، ليؤكد فى بعض الأحيان لأولئك الذين كانوا يقولون : إنه يفتقر إلى الحس الفكاهى، أنه لم يكن كذلك .

أبو بكر والسياسة

لم يكشف أبو بكر فى بداية عمله بالتدريس، عن اهتمام كبير بالسياسة. وفى بداية أربعينيات القرن العشرين كانت نيجيريا قد أوشكت على تحقيق أول فائض فى الميزانية بعد سبع سنوات من العجز، الأمر الذى أدى إلى حد بعيد إلى استبعاد شبح المخاطرة بإحداث بعض التغييرات الجذرية فى البلاد.

فى تلك الأثناء أحدث المعلم محمد سانى دنجيادى، إمام سُكتو، هزة فى العام ١٩٣٣، عندما قام بجولة فى المدارس المتوسطة فى كل من سكتو، وكنو، وكاتسنا، وزاريا، التى تعد المعاقل الحقيقية للحركة الإسلامية المحافظة، وراح الرجل فى تلك الجولة، يلقى المحاضرات التى كان ينتقد فيها منظومات وراثة الحكم. كان الرجل يقول: إن السياسة المستقبلية يمكن أن تأتى عن طريق التنظيم الحزبى دون تحديد لنوعية الاقتصاد أو اللوائح والدساتير. ولكن باوتشى لم تتحرك فى ذلك الاتجاه.

عوضًا عن ذلك، كشف أبو بكر عن موهبة جديدة ازدهرت وتألقت ذات يوم، لكن المؤسف أنها لم تتكرر. كان روبرت Rupert أيست، الذى تزوج من زوجة فولانية فنانة، مشرفًا على مكتب الآداب الذى أنشئ فى مدينة زاريا من قبل إدارة التعليم، لكى يقدم شيئًا يقرؤه أولئك الذين تعلموا لغة الهاوسا بأحرف رومانية. قرر روبرت إيست عمل مسابقة لمؤلفى الهاوسا. وتقدم البعض للدخول فى تلك المسابقة ودعى بعض آخر للاشتراك فيها. وحصل المعلم بللو كاجارا، والى كاتسنا المنتظر على الجائزة الأولى فى تلك المسابقة. بللو كاجارا هذا هو "شيخ" من الكلية العالية، جاء بعد أخيه المعلم أبى

بكر إمـام الذى خلف روبرت إيست East، فى منصب كـبـيـر مـوردى المادة القـرائيـة الهوسـاوية، ويجيىء أبو بكر تافاوا باليوا فى المرتبة الثالثة، هذا يعنى أن الرجل كان مبدعًا لأنه فاز فى تلك المسابقة عن طريق روايته التى عنوانها "الشيخ عمر" Shaikh Umar .

فى العـام ١٩٤٤، يجرى اخـتـيـار كلٍّ مـن أبى بكر تافـاوا باليـوا ومـعـه قلة قليلة من المدرسـين الآخـرين للسـفـر إلى لندن للدراسـة لمدة عـام فى مـعـهـد التـربيـة بجـامـعـة لندن. ويعين أبو بكر بعد عودته مـفـتشًـا من قبل الإدارة الاسـتـعـمـارية، على المدارس، ثم يدخل الرجل بعد ذلك إلى مـجـال العـمـل السـيـاسـى، وفـى العـام ١٩٤٦، يجـرى انتـخـاب الرجل عضـوًا فى مجلس جمعية الشمال، ثم انتخابه بعد ذلك فى العام ١٩٤٧ لعضـوية المجلس التـشريعى، ويوم أن كـان أبو بكر عضـوًا فى المجلس التـشـريعى كان مـدافـعًـا عـتيـدًا عن حقوق شمـالى نيجيريا، **وعليه أسس أبو بكر بالتعاون مع الحاج أحمد بللو، الذى كان قـد ورث منصب "المسـتـشـار السـيـاسـى الرئـيـسـى" Sardauna، حـزب المؤتمر الشـعـبى الشمالى.**

أبو بكر تافاوا باليوا والإدارة

دخل أبو بكر إلى مـجـال الحـكم فى العـام ١٩٥٢ الميلادى باعـتبـاره وزيرًا للأشـغـال، ثم أصـبـح بعـد ذلك وزيرًا للنقل، وفـى العـام ١٩٥٧ جرى انتـخـابه رئيـسًـا للوزراء، إذ قـام الرجل بتـشكيل حكومـة ائتـلافـيـة من حـزبى المؤتمر الشـعـبى الشـمـالـى، وحـزب المجلس الوطنى النيـجـيـرى الكاميـرونـى بزعامــة ننامــدى Nnamdi أزكــوى Azikiwe. واحـتـفـظ أبو بكر لنفسه بمنصب رئيس الوزراء عندمـا حصلت نيـجيريا على اسـتقلالها فـى العـام ١٩٦٠، وأعيد انتخابه فى العام ١٩٦٤ .

قبل اسـتـقـلال نيـجـيـريا، كـان المؤتمر الدسـتـورى الذى انعـقـد فـى العـام ١٩٥٤ قـد انتـهـج إطارًا سـيـاسـيًـا إقليـمـيًـا حـتى يمكن تطبـيـقـه فى البـلاد، وكـان ذلك الإطار يعطى الأقـاليم كلهـا قـدرًا كـبيـرًا من الحـرية السـيـاسـيـة. كـانت أقـاليم نيـجـيـريا الثـلاثة فى ذلك

الوقت، مكونة من جماعات ثقافية متباينة. قام الوزراء الأول هم وبعض كبار زعماء الأقاليم بانتهاج سياسة تقوم على توجيه أقاليمهم وإرشادها على نحو يمنعها من احتواء الزعماء الآخرين لها، وقد أثرت هذه البنية السياسية فيما بعد على إدارة أبى بكر تافاوا باليوا، فقد عمرت فترة وجوده بالحكم باضطرابات كثيرة، كما عمرت أيضًا بالانقسامات الطائفية الإقليمية، الأمر الذى كان يهدد حكم الرجل بصورة مستمرة.

يزاد على ذلك أن الرجل، بوصفه رئيسًا للوزراء، كان قد لعب أدوارًا مهمة فى مسألة الحكم الفطرى فى سائر أنحاء القارة الإفريقية. وعلى سبيل المثال، **كان أبو بكر زعيمًا مهمًا فى مسألة تشكيل منظمة الوحدة الإفريقية، وخَلّق نوعًا من العلاقة التعاونية مع الدول الناطقة بالفرنسية. كان أبو بكر تافاوا باليوا عضوًا مهمًا أيضًا فى المفاوضات التى دارت بين مويس Moise تشومبى Tshombe والسلطات الكنغولية أثناء أزمة الكنغو فى الفترة من ١٩٦٠-١٩٦٤، وقد تزعم أبو بكر احتجاجًا قويًا على مذبحة شاربفيل Sharpeville فى العام ١٩٦٠، كما دخل الرجل أيضًا فى تحالف مع وزراء الكمنولث الذين كانوا يريدون خروج جنوب إفريقيا من الكمنولث فى العام ١٩٦١ . على كل حال، نجد أن تهمة الخيانة التى وجهت لواحد من زعماء الإقليم الغربى،** أو بافيمى Obafemi آولوو Awolowo، قد أدت إلى احتجاج الكثيرين من مؤيدى آولوو، كما جعلت أولئك المؤيدين يدينون تلك التهمة إدانة شديدة. وقد أسفرت الانتخابات التى أجريت فى العام ١٩٦٥ فى الإقليم عن قيام احتجاجات عنيفة. وسرعان ما انتشرت المظاهرات وشاع العنف ضد ذلك الذى كان يعد نوعًا من الاحتواء من قبل معارضى آولوو.

شفافية أبى بكر وطهارة يده

تحاشى الحاج السير أبو بكر محاباة ذوى القربى من أهله وناسه. كان لأبى بكر أخ غير شقيق اسمه إينوا فايس. أمضى إينوا وقتًا طويلاً مع أبى بكر، وفتح له أبو بكر محلاً تجاريًا وأعطاه خمسين جنيهًا على سبيل الهدية. تحرك البعض من أجل توظيف

إينوا فى واحدة من شركات المقاولات المقيمة فى البلاد، لكن أبا بكر علم أن أخاه غير الشقيق تحاشى العمل فى هذه الوظيفة لأسباب تتعلق بالقرابة.

المثال الثانى يتعلق بشخص يدعى بالراب تافوا باليوا؛ لم يكن هذا الشخص من أقارب أبى بكر أوأهله، وإنما جرت تنشئته منذ أيام المدرسة بواسطة أبى بكر؛ وكان يُعامل من قبل أولئك الذين يخلطون بين الأسماء على أنه ولد من أبناء أبى بكر. كان أبو بكر يود لذلك الصبى العمل بالتدريس من خلال كلية كاتسنا ثم بعد ذلك كلية إيبادان الجامعية على الرغم من أن ميول هذا الصبى كانت فى اتجاه الطب، ثم بعد ذلك فى الاقتصاد وأخيراً فى الخدمة المدنية الفيدرالية. لم يشجع أبو بكر هذا الصبى على الفوز بمقعد فى البرلمان الفيدرالى، ورفض أيضًا تعيينه سكرتيراً برلمانيًا عندما عرضوا عليه الأمر. وأمام مؤهلات هذا الصبى وافق أبو بكر على التحاقه بالخدمة المدنية ليقوم بالتدريس. وأخيراً أمام إلحاح الأجانب، الإنجليز بصفة خاصة، ومن بينهم سول كاتاجوم الشهير بالكفاءة وعدم المحاباة، وافق أبو بكر على التحاق بالراب بوزارة الخارجية. وبعد تعيينه رفض أبو بكر رفضًا قاطعًا التدخل فى المسائل الخاصة بالراتب وبالدرجة، أو الحوافز أو حتى الدورات التدريبية. وأثبت بالراب أنه أصبح سفيراً بناء على كفاءته ومجهوداته الشخصية ومؤهلاته.

الإطاحة بأبى بكر

جرت الإطاحة بأبى بكر تافاوا باليوا واغتياله فى انقلاب عسكرى وقع فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير من العام ١٩٦٦، كما اغتيل أيضًا كثير من الزعماء الآخرين، بما فيهم رفيقه القديم أحمد بللو. وقد جرى وصف اغتيال أحمد بللو، وصفًا دقيقًا وموثقًا، فى الكتاب الذى ألفه جون بادن بعنوان "أحمد بللو". جرى العثور على جثة أبى بكر على جانب أحد الطرق بالقرب من مدينة ليجوس، بعد ستة أيام من إقصائه عن منصبه، وجرى دفن جثمان الرجل فى باوتشى.

سيرة

الحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا وأزمانه

هذا الكتاب الذى يقع فى ثمانمائة وثمانية وثمانين صفحة مقسمة إلى تسع وأربعين فصلاً يمثل حياة رجل صادق أمين – ذلك أن نيجيريا فى مرحلة من مراحل نموها، تُجْبِر الباحث، وهو يكتب سيرة هذا الرجل ألا يعبأ كثيراً بسير النيجيريين البارزين الآخرين. هذا الرجل، كان محبًا للسلام، ولذلك قبل رئاسة الوزارة فى نيجيريا، وقد اغتاله المجرمون وهو يسعى لتحقيق هذه المثل.

وفى شهر أكتوبر من العام١٩٦٠ الميلادى، قبل أبو بكر تافاوا باليوا، رئيس وزراء جمهورية نيجيريا الاتحادية، دعوة العضوية الكاملة المقدمة من منظمة الأمم المتحدة. **وإن هى إلا دقائق معدودة حتى راحت الجمعية العامة تصغى إلى خطبة رجل صاحب مهارة غير عادية، ويتمتع بكل عوامل الجذب التى تتوفر لرجل الدولة.**

كانت جَدَّة هذا الرجل، قد اكتشفت وفهمت خصائص ذلك الصبى الصغير وسماته، عندما كان طفلاً صغيراً يعيش مع عائلته فى منزل مبنى من اللّبن،وفى بلدة صغيرة من بلاد شمالى نيجيريا. صحيح أن الرجل كان مسلماً ملتزمًا، يؤمن أن قدر الله للإنسان حق ولا فرار منه، وما على الإنسان إلا أن يتعاطى مع هذا القدر، وصحيح أيضًا أن الصبى أبلى بلاءً حسنًا فى المدرسة الداخلية التى التحق بها، والتى كانت تركز على اللياقة الذهنية واللياقة البدنية، لكن آفاق ذلك الصبى كانت محددة وواضحة. فكر هذا الصبى كان يقسم نيجيريا إلى قسمين: الشمال الفاضل المتدين، والجنوب الوثنى. كان الرجل ينظر إلى الاستعمار البريطانى نظرة منفعة عامة إلى حد ما، يغلب عليها إثارة الشكوك لدى المسئولين المحليين. هذه النظرة كانت متميزة عن

نظرة رفاقه وزملائه، وسبب ذلك التميز أنه بدءًا من عهد اللورد لوجارد، ومن جاءوا بعده بدأت نيجيريا تحظى بخدمات إداريين متميزين، كانوا يفسرون ويؤولون "الحكم غير المباشر" تفسيراً وتأويلاً يقومان على التفاهم والتسامح، ومرد ذلك إلى أن أبا بكر تافاوا باليوا تعرف مزايا الديمقراطية البريطانية خلال الزيارة التى قام بها الرجل إلى لندن بعد الحرب العالمية الثانية، وبخاصة مسألة إجماع كثير من الشعوب المختلفة والمتباينة على هدف واحد. هذا الذى شاهده أبو بكر تافاوا باليوا كان يتناقض تناقضاً صارخًا مع الأحقاد القبلية التى كانت تكتنف موطنه نيجيريًا.

ألف أبو بكر تافاوا باليوا، عندما كان فى لندن، كتابًا عن مستقبل نيجيريا، واستطاع فى تلك الدراسة التنبؤ تنبؤًا دقيقًا مفاده أن نيجيريا المستقلة سوف يرجح لها النهوض على الرغم من الخلافات القبلية والفساد القبلى. كانت الشكوك تدور فى ذهن هذا الرجل حول مسألة مواءمة أو عدم مواءمة الديموقراطية البريطانية للظروف النيجيرية القبلية، كان الرجل دائم التساؤل حول إمكانية تحقيق العدالة الإنجليزية فى غياب القانون الإنجليزى، **هذا الشاب الصغير الذى لا يزال غرًا فى المجتمع الدولى، والذى كان لا يزال على طريق اكتساب الخبرة والحكمة، وقُدِّر له تحمل الكثير من الالتزامات المتزايدة، التى تمثلت فى الحكم المحلى فى البداية، ثم بعد ذلك فى الحكم المركزى، وإن شئت فقل: فى العاصمة ليجوس التى كانت غريبة وأجنبية عليه.**

كان أبو بكر تافوا باليوا صاحب فطرة سليمة، ومتسامح الأمر الذى أهله ليكون على قمة السياسة فى بلده. وقد أقر غرماؤه وبخاصة الناشطون منهم فى الخلافات القبلية بكل هذه الشمائل والصفات، كما اعترف بها أيضًا كل من خصومه فى القسم الجنوبى من الشمال وأولئك الذين لم يتفهموا النوايا البريطانية تجاه نيجيريا.

معروف أن الفيدرالية، هى أكثر أشكال الحكم تقدمًا، وعندما تعين تفعيل ذلك النظام، فى ظل حركة القومية التى كانت تجتاح إفريقيا كلها فى زمن أبى بكر تافاوا باليوا، جاء ذلك المشروع مثبطًا للهمم ومخيبًا للآمال. مسألة تعامل هذا الرجل مع تلك المضايقات ووصوله من خلالها إلى قمة السلم السياسى فى بلاده، اللهم باستثناء طلقة الغدر والخيانة التى أودت بحياته، تعد درسًا شائقًا فى فنون السياسة والدولة، ألقاه

على الجمع ذلك الرجل الشهير. من هنا فإن الكتابة عن رجل من هذا القبيل تشرح الصدر وتسر الخاطر.

أصبح أبو بكر شخصية عامة، وعندما جرى تعيينه من قبل الحكومة الاستعمارية، هو واثنين آخرين ممثلين للشمال فى المجلس التشريعى النيجيرى، كان أبو بكر يعمل ناظرًا لإحدى المدارس. وكان من عادة الشباب فى تلك الأيام، إذا ما أرادوا الاستماع إلى **"الصوت الذهبى" الذهاب إلى قاعة المجلس التشريعى، فى مبنى السكرتارية العامة، وليس من العجب فى شىء أن يصبح صاحب ذلك الصوت رئيسًا لوزراء نيجيريا.**

وهذا هو قاضى قضاة نيجيريا الاتحادية يقول: إنه تعرف هذا الرجل شديد التواضع، الذى أصبح له سحر خاص عندما تولى رئاسة الوزارة. كان الرجل مقنعًا وصادقًا ودقيقًا فيما يذهب إليه. ويقول قاضى القضاة أيضًا إنه لا يزال يذكر عبارة الرجل الشهيرة التى كان يرددها بين الحين والآخر "إذا ما أخطأت وأحضرونى أمامك، حاكمنى، وأدخلنى السجن إذا ما تطلب الأمر ذلك..." ترددت هذه الكلمات وجرى التركيز عليها، عندما أصدر المجلس الأعلى حكمه ضد حكومة أبى بكر تافاوا باليوا فى القضية التى رفعها دوهرتى Doherty على كل من أبى بكر تافاوا باليوا وآخرين. وبعد أن التقى قاضى القضاة أبا بكر بعد صدور الحكم والنطق به قال أبو بكر: "أنا سعيد لأنك وضعتنا فى مكاننا، وهذا هو ما حق علينا. وأنا إذا ما ارتكبت خطأ، فلا تتردد فى محاكمتى:".

قاضى القضاة هذا يشير إلى قول آخر من أقوال أبى بكر تافاوا باليوا.. "إذا لم يعد هذا الشعب راغبًا فى وجودى، فكل ما عليه هو أن يعطينى مهلة ساعتين فقط، وهما تكفيان لحزم متعلقاتى هنا ثم الرحيل عن هذا المكان على الفور". ومن سوء الطالع أن الرجل لم يعط هذه الفرصة: فقد كان الرجل يعنى ما يقول.

الكتاب يبرز هذه السمات والشمائل فى شخصية أبى بكر تافاوا باليوا، والقراء الذين يعرفون هذا الرجل يؤكدون على هذه الشمائل، يضاف إلى ذلك أن القراء الذين لم يعرفوا مطلقًا ذلك الرجل، هم والباحثين الجدد سوف يُقَيِّمُون ذلك الرجل ويحكمون عليه من واقع ذلك الذى يقوله المؤلف عن هذه الشخصية.

بقى أن أقول إن هذه السيرة عبارة عن تبصر جديد فى تاريخ أكثر الدول الإفريقية كثافة من حيث السكان، بل إن البعض قد يقولون: إن نيجيريا هى أهم بلاد القارة. هذه قصة فريدة، لرجل فريد يرويها للقارئ واحد من أولئك الذى يعرفون أبا بكر تافاوا باليوا حق المعرفة.

تريفور كلارك، مؤلف الكتاب رجل اسكتلندى تخرج فى جامعة أكسفورد، وهو محام غير ممارس فى مدينة مدل Middle تمبل. عمل هذا الرجل ضمن القوات البريطانية فى كل من سيراليون وجامبيا، وبخاصة قوات الحدود الإفريقية الغربية الملكية، فى فترة الحرب العالمية الثانية، باعتبار هذه القوات جزءًا من الفرقة الحادية والثمانين المتمركزة فى وادى كالدان Kaladan. بعد انتهاء حرب المحيط الهادى، جرى إلحاق تريفور كلارك على الفرقة الثانية والثمانين فى رانجون Rangoon عاصمة بورما Burma برتبة رائد.

التحق تريفور كلارك بخدمة صاحبة الجلالة الإدارية فى نيجيريا فى العام ١٩٤٨، ومارس الرجل وظيفة رئيس حى مساعد ممارسة ناجحة. كان الرجل مساعداً لرئيس حى كاتاجوم Katagum فى بلدة أزار Azare، ثم أصبح بعد ذلك رئيس حى إدارى، ثم بعد ذلك رئيساً لحى باوتشى، ثم أصبح بعد ذلك سكرتيراً منابًا للمجلس التنفيذى، فى مكتب حاكم نيجيريا، فى مجلس وزراء الشمال، ثم أصبح رئيس حى أول فى بلدة إجبيرا فى أوكينى Okene. وفى باوتشى تعرف تريفور على السير أبى بكر تافوا باليوا تعرفًا جيداً والتقاه بعد ذلك مراراً فى كادونا، وأوكينى، وليجوس.

بعد أن تقاعد تريفور كلارك من الخدمة العسكرية فى العام ١٩٧٧ عين مستشاراً لمدينة أدنبره، فى اسكتلنده، وأصبح عضواً فى لجنة اختيار كبار الموظفين. وللرجل، هو وزوجته، صداقات متعددة فى كل من نيجريا، وهونج كونج، ومنطقة المحيط الهادى.

بقى أن أقول إن مؤلف الكتاب أتبع عنوان كل فصل من فصول الكتاب بمثل هوسوى، ليصل إجمالى عدد الأمثال إلى حوالى ٤٩ مثلاً جرت ترجمتها وإعداد هوامش لها فى مواقع ورودها. ترى لماذا لجأ المؤلف إلى ذلك؟ وجدت رداً على هذا

السؤال فى المثل الهوسوى الذى يقول: "أقصد كنو بحثًا عن "المظهر الخارجى"، أقصد سكتو بحثًا عن "السلطة"، وأقصد زاريا بحثًا عن "الشجاعة فى الحرب - وأذهب إلى باوتشى طلبًا "للأمثال"".

Alfarma na kano, sarauta na sakk wato,

Yaki na Zariya, Karin Magana na Baucu

وقد رجع المؤلف فى شرح هذه الأمثال الهوساوية إلى مجموعة الأمثال التى اشترك فى جمعها فى العام ١٩٣٥ كل من بردن **Burdon**، بويل **Powel**، هويتنج **Whit-ting** وأبو بكر تصير. والأرجح أن المؤلف أورد هذه الأمثال لأن المرحوم الحاج السير أبا بكر كان يحب استعمال هذه اللقيمات عن ثقافة أهله وذويه، سواء أكان مدرسًا أم خطيبًا مفوهًا أو مراقبًا للأحداث والمشاهد العابرة. يزاد على ذلك أن حب أبى بكر للسير جوك، والسير جون ويلى، وغيرهم من الاسكتلنديين العاديين، هو الذى دفعه إلى الاهتمام بالأمثال الاسكتلندية المماثلة أو القريبة من هذه الأمثال الهوساوية، والتى قام الشاعر الاسكتلندى آلان رامساى **Ramsay** بجمعها ونشرها فى العام ١٧٥٠ الميلادى.

أزيد على ذلك أن المؤلف استخدم كلمتين للدلالة على معنى رئيس الذى هو لقب من الألقاب **oba, chifi** والكلمة **oba** تعطى هذا المعنى لكنها لا تستخدم إلا فى الجنوب النيجيرى وفى ليجوس أمام الكلمة **chief** فهى تستخدم فى الشرق والشمال والأماكن الأخرى. ولذلك آثرنا وضع النقش الإنجليزى بعد كل كلمة منهما وذلك من باب التمييز بينهما.

ونحن لا نبالغ إن قلنا إن أبا بكر تافاوا باليوا أهم الشخصيات البارزة فى غرب إفريقيا بصفة عامة، وفى نيجريا على وجه الخصوص، وأن الكتاب يشكل مع كتاب أحمد بللو موسوعة وافية عن غرب إفريقيا، بحكم أن الكتابين يتناولان شئون غرب إفريقيا كلها، ناهيك عن نيجيريا، ولا يتركان شاردة أو واردة إلا وتكاملا فى الوصول إلى جذورها الحقيقية.

"إذا لم تفهم أحداً من الناس فلن تستطيع سحقه. وإذا لم تفهم أحداً من الناس فالأرجح أنك لن تفكر في سحقه" .

[جي.كي. شيشترتون]

"تافاوا الأمين العادل / عليك بحكم القطر النيجيري،
لقد أعطاك الله إياه أمانة، وما عليك إلا أن تحافظ على أمانتك وصدقك، وسوف تنتصر على الكاذبين غير الصادقين!"

[ترجمة لجزء من أغنية في العام ١٩٦٠]

"تتمثل المشكلة النيجيرية في عدم استعداد زعمائها للارتفاع إلى مستوى تحدي المثل الشخصية، التي تعد العلامة المميزة للزعامة الحقيقية" .

[شينوا أشيبي، كاتب نيجيري مرموق، ١٩٨٣]

تصديرات

بقلم / اللورد هوم

وكيل الوزارة لعلاقات الكمنولث فى الفترة من ١٩٥٥-١٩٦٠

للشئون الخارجية فى الفترة من ١٩٦٠-١٩٦٣

رئيس وزراء بريطانيا العظمى فى الفترة من ١٩٦٣-١٩٦٤

فى شهر أكتوبر من العام ١٩٦٠ الميلادى، قبل أبو بكر تافاوا باليوا، رئيس وزراء جمهورية نيجريا الاتحادية الجديدة، دعوة العضوية الكاملة المقدمة من منظمة الأمم المتحدة. وإن هى إلا دقائق معدودات حتى راحت الجمعية العامة تصغى إلى خطبة رجل صاحب مهارة غير عادية، ويتمتع بكل عوامل الجذب التى تتوافر لرجل الدولة.

كانت الجدة المتساهلة قد اكتشفت وفهمت خصائص ذلك الصبى الصغير وسماته عندما كان طفلاً صغيراً يعيش مع عائلته فى منزل مبنى من اللبن فى بلدة صغيرة من بلدان شمال نيجيريا. صحيح أن الرجل كان مسلمًا ملتزمًا، يؤمن أن قدر الله للإنسان حق ولا فرار منه، وما على الإنسان إلا أن يتعاطى مع هذا القدر، وصحيح أيضًا أن الصبى أبلى بلاءً حسنًا فى المدرسة الداخلية التى التحق بها، وكانت تركز على اللياقة الذهنية واللياقة البدينة، لكن آفاق ذلك الصبى كانت محددة وواضحة. فكر هذا الصبى كان يقسم نيجيريا إلى قسمين: الشمال الفاضل المتدين، والجنوب الوثنى. كان الرجل ينظر إلى الاستعمار البريطانى نظرة منفعة عامة إلى حد ما، يغلب عليها إثارة

الشكوك لدى المسئولين المحليين. هذه النظرة كانت متميزة عن نظرة رفاقه وزملائه، وسبب ذلك التميز أنه اعتباراً من عهد اللورد لوجارد وما بعده، بدأت نيجيريا تحظى بخدمات إداريين متميزين كانوا يفسرون ويؤولون "الحكم غير المباشر" تفسيراً وتأويلاً يقومان على التفاهم والتسامح، ومرد ذلك إلى أن أبا بكر تافاوا باليوا تعرّف مزايا الديمقراطية البريطانية خلال الزيارة التى قام بها الرجل إلى لندن بعد الحرب العالمية الثانية، وبخاصة مسألة إجماع كثير من الشعوب المختلفة والمتباينة على هدف واحد. هذا الذى شاهده أبو بكر تافاوا باليوا كان يتناقض تناقضًا صارخًا مع الأحقاد القبلية التى كانت تكتنف موطنه نيجيريا.

عندما كان الرجل فى لندن ألفّ أطروحة عن مستقبل نيجيريا، واستطاع فى تلك الدراسة التنبؤ تنبؤًا دقيقًا مفاده أن نيجيريا المستقلة سوف يرجح لها أن تقوم على كل من الخلافات القبلية والفساد القبلى. كانت الشكوك تدور داخل الرجل حول مسألة مواءمة أو عدم مواءمة ديمقراطية وستمنستر **Westminster** بريطانية الطابع للظروف النيجيرية القبلية، كان الرجل دائم التساؤل حول إمكانية تحقيق العدالة الإنجليزية فى غياب القانون الإنجليزى. هذا الشاب الصغير، الذى لا يزال غراً فى المجتمع الدولى، والذى كان لا يزال على طريق اكتساب الخبرة والحكمة ، قدّر له تحمل الكثير من الالتزامات المتزايدة، التى تمثلت فى الحكم المحلى فى البداية، ثم بعد ذلك فى المركز، أو إن شئت فقل: فى العاصمة ليجوس التى كانت غريبة وأجنبية على الرجل.

كانت الفطرة السليمة، والتمييز والتسامح بمثابة الصفات والسمات التى أهلت ذلك الرجل ليكون على قمة السياسة فى بلده، وقد اعترف كثيرون من غرمائه الناشطين فى الخلافات القبلية، بكل هذه الشمائل والصفات، كما اعترف بها أيضًا كل من خصومه فى القسم الجنوبى من الشمال، وأولئك الذى لم يتفهموا النوايا البريطانية تجاه نيجيريا.

معروف أن الفيدرالية هى أكثر أشكال الحكم تقدمًا، وعندما تعين تفعيل ذلك النظام، فى ظل حركة القومية التى كانت تجتاح إفريقيا كلها فى زمن أبى بكر تافاوا باليوا، جاء ذلك المشروع مثبطًا للهمم ومخيبًا للآمال. مسألة تعامل هذا الرجل مع تلك المضاعفات ووصوله من خلالها إلى قمة السلم السياسى فى بلاده، اللهم باستثناء طلقة الغدر والخيانة التى أودت بحياته، تعد درسًا شائقًا فى فنون السياسة والدولة، ألقاه على الجميع ذلك الرجل الشهير بحق وحقيقة. من هنا فإن الكتابة عن رجل من هذا القبيل تشرح الصدر وتسر الخاطر. ليس هناك من هو أفضل من عضو مجلس خدمة صاحبة الجلالة المدنية فيما وراء البحار، الذى سعى ونجح فى إحداث نوع من التصالح بين مصالح الحكومة البريطانية والتطلعات والآمال المشروعة للشعب النيجيرى. وسوف يجنى الكثيرون فى كل من بريطانيا ونيجيريا تشويقًا وإمتاعًا من قصة هذا الرجل.

هوم

هرسل، كولد ستريم، بيرويك شاير

وتصدير

بقلم

السيد "أديتوكوبنو" أدمولا جوكون

قاضى قضاه نيجيريا فى الفترة من ١٩٥٨-١٩٧٢

رئيس مؤسسة الكمنولث

يمثل هذا الكتاب حياة رجل صادق أمين وأنا حظيظ لأنى أكتب هذا التصدير. ذلك أن نيجيريا فى مرحلة من مراحل النمو الخاص بها، تجبر المتعلم، وهو يكتب سيرة

هذا الرجل ألا يعبأ كثيراً بسير النيجيريين البارزين الآخرين. وهذا يعنى أننا لسنا ميالين إلى تمجيد الآخرين.

كان السير أبو بكر تافاوا باليوا رجلاً محبًا للسلام، ولذلك قبل الرجل رئاسة الوزارة فى نيجيريا مستهدفًا بذلك إرساء قواعد السلام، والوحدة والحب بين القبائل والشعوب المتعددة فى نيجيريا، وقد اغتيل الرجل بأيدى المجرمين وهو يسعى من أجل تحقيق هذه المثل.

أصبح أبو بكر تافاوا باليوا شخصية عامة عندما جرى تعيينه من قبل الحكومة الاستعمارية هو اثنين آخرين ممثلين للشمال فى المجلس التشريعى النيجيرى. كان أبو بكر يعمل ناظرًا لإحدى المدارس. وكان من عادة الشباب فى تلك الأيام، إذا ما أرادوا الاستماع إلى "الصوت الذهبى" ، الذهاب إلى قاعة المجلس التشريعى فى مبنى السكرتارية العامة، كان الناس ينعتون أبا بكر " بصاحب الصوت الذهبى" ، عندما كان يتكلم فى غرفة المجلس. وليس من العجب فى شىء أن يصبح صاحب ذلك الصوت الذهبى رئيسًا لوزراء نيجيريا.

وأنا باعتبارى قاضى قضاه نيجيريا الاتحادية، تعرفت إلى هذا الرجل شديد التواضع، الذى أصبح له سحر خاص عندما تولى رئاسة الوزارة. كان الرجل مقنعًا، وصادقًا ودقيقًا فيما يذهب إليه. وأنا مازلت أذكر عبارته التى كان يقولها لى بين الحين والآخر: "إذا ما أخطأت وأحضرونى أمامك، حاكمنى، وأدخلنى السجن إذا ما تطلب الأمر ذلك...".

ترددت تلك الكلمات وجرى التركيز عليها عندما أصدر المجلس الأعلى حكمه ضد حكومة أبى بكر تافاوا باليوا فى القضية التى رفعها دوهرتى Doherty على كل من أبى بكر تافاوا باليوا وآخرين. بعد أن التقيت أبا بكر بعد صدور الحكم والنطق به قال لى:

" أنا سعيد لأنك وضعتنا فى مكاننا، وهذا هو ما حق علينا. وأنا إذا ما ارتكبت خطأ، فلا تتردد فى محاكمتى" .

كشف لى أبو بكر تافاوا باليوا عن شفافية أمانته، وتفاهمه، وتعاونه بعد الانتخابات العامة التى أجريت فى العام ١٩٦٤ الميلادى، وفى الأزمة التى نشأت بعد موافقته وإقناع حزبه بالموافقة على تشكيل حكومة وطنية.

ولا يسعنى هنا إلا أن أشير إلى قول آخر من أقوال هذا الرجل..." إذا لم يعد هذا الشعب راغبًا فى وجودى، فكل ما عليه هو أن يعطينى مهلة ساعتين فقط، وهما تكفيان لحزم متعلقاتى هنا ثم الرحيل عن هذا المكان على الفور." ومن سوء الطالع أن الرجل لم يعط هذه الفرصة : فقد كان الرجل يعنى ما يقول.

مؤلف هذا الكتاب أبرز هذه السمات والشمائل فى شخصية السير أبى بكر تافاوا باليوا، والقراء الذين يعرفون هذا الرجل يؤكدون على هذه الشمائل، يضاف إلى ذلك أن القراء الذين لم يعرفوا مطلقًا ذلك الرجل، هم والباحثين الجدد سوف يُقَيِّمُون ذلك الرجل ويحكمون عليه من واقع ذلك الذى يقوله المؤلف عن هذه الشخصية .

ولا يسع هذه البلاد إلا أن تشكر المؤلف، الذى هب للكتابة عن السير أبى بكر تافاوا باليوا، ولعله بمؤلفه هذا يكون قد فتح الباب على مصراعيه أمام النيجيريين لكتابة المزيد والمزيد عن هذا الرجل العظيم.

ليجوس

أديتو كوبنو أدمولا

هذه أول سيرة ذاتية للحاج السير أبى بكر تافوا باليوا، رئيس وزراء نيجيريا المستقلة، هذه السيرة عبارة عن دراسة شاملة لحياة الرجل وأزمانه، وهى أيضًا عبارة

عن تبصر جديد فى تاريخ أكثر الدول الإفريقية كثافة من حيث السكان، بل إن البعض قد يقولون إن نيجيريا هى أهم بلاد القارة. هذه قصة فريدة، لرجل فريد يرويها للقارئ واحد من أولئك الذى يعرفون أبا بكر تافاوا باليوا حق المعرفة.

مؤلف الكتاب

تلقى تريفور Trevor كلارك Clark تعلمه فى اسكتلنده. التحقق الرجل بأكاديمية أدنبره بعد السنوات الباكرة التى أمضاها فى جلاسجو، كما درس الرجل أيضًا فى كلية مجدالن Magdalen، فى جامعة أكسفورد. وهو محام غير ممارس فى ميدل -Mid dle تمبل Temple. وتخرج الرجل وعمل ضمن القوات البريطاينتة فى كل من سيراليون وجامبيا، وبخاصة قوات الحدود الإفريقية الغربية الملكية، فى فترة الحرب العالمية الثانية، باعتبار هذه القوات جزءًا من الفرقه الحادية والثمانين المتمركزة فى وادى كلدان Kaladan. بعد انتهاء حرب المحيط الهادى، جرى إلحاق تريفور كلارك على الفرقة الثانية والثمانين (غرب إفريقيا)، فى رانجون Rangoon، عاصمة بورما Burma، برتبة رائد.

التحق تريفور كلارك بخدمة صاحبة الجلالة الاستعمارية الإدارية فى نيجيريا فى العام ١٩٤٨، ومارس الرجل وظيفة رئيس حى مساعد، ممارسة ناجحة. كان الرجل مساعدًا لرئيس حى كاتاجوم Katagum فى بلدة أزار Azare، وأصبح الرجل بعد ذلك رئيس حى إدارى ، ثم بعد ذلك رئيسًا لحى باوتشى Bauci، ثم أصبح بعد ذلك سكرتيرًا منابًا للمجلس التنفيذى، فى مكتب الحاكم، فى مجلس وزراء الشمال، ثم أصبح بعد ذلك رئيس حى أول فى بلدة إجبيرا فى أوكينى Okene. وفى باوتشى تعرف تريفور كلارك الحاج السير أبا بكر تافاوا باليوا تعرفًا جيدًا، والتقاه بعد ذلك مرارًا فى كادونا، وأوكينى، وليجوس.

بعد أن تقاعد تريفور كلارك من الخدمة العسكرية فى العام ١٩٧٧ عين مستشاراً لمدينة أدبنره، وأصبح عضواً فى لجنة اختيار الموظفين. والرجل هو وزوجته صداقات متعددة فى كل من نيجيريا، وهونج كونج، ومنطقة المحيط الهادى. وهذا أول كتاب يؤلفه تريفور كلارك كما أن له كثيراً من المقالات .

مقدمة

نصل العشب الذى تحتقره قادر على اختراق عينيك

نيجيريا هى أكبر بلد أسود فى العالم، ويقول البعض: إن نيجيريا هى أهم البلاد الإفريقية كلها. وتصل مساحتها إلى ثلاثة أضعاف مساحة بريطانيا، أما عدد سكانها قد يزيد على ضعف على عدد سكان بريطانيا. وقد حير تاريخها هؤلاء الذين لم يحيوا أو يعيشوا فيها. فى بعض الأحيان كان السواد الأعظم من سكانها يحارون فى تباينهم والمشكلات المترتبة على هذا التباين. وهؤلاء الذين يتمنون الخير لهذا البلد، أو أولئك الذين يحبون هذا البلد، يتشوقون إلى معرفة المزيد عن واحد من أحسن أبناء هذا البلد.

لقد تعرفت موضوع هذا الكتاب تعرفًا جيدًا طوال الأحد عشر عامًا بدءًا من العام ١٩٤٩ الميلادى وانتهاء بالعام ١٩٥٩ . وليس هناك من شك أن النغمة العامة فى الأقسام من الثانى إلى الرابع، تعد صدى لتلك الفترة على وجه الخصوص من منطلق أن الأقسام الأول ، والخامس والسادس، تصبح موجعة فى ظل "قاعدة الثلاثين عامًا" المتعلقة بنشر التسجيلات العامة فى بريطانيا. بعد العام ١٩٦٠ لم نستطع - نحن الاثنين - سوى تبادل قلة قليلة من الرسائل الاجتماعية. كان عدد كبير من أصدقائى البريطانيين يعرفون هذا الرجل، معرفة حميمة قبل معرفتى له بوقت طويل. وشأنى شأن هؤلاء الذين عرفوا ذلك الرجل، وجدتنى أغير حكمى عليه بصورة مضطردة، وبحكم كونى إداريًا مبتدئًا، وجدتنى لا أتأثر إلا بإخلاص هذا الرجل وولائه، وأحسست بعد ذلك بأنه صديق بحق، وفى النهاية وجدتنى معجب بأمانته الفريدة فى الحياة العامة وفى

السياسة. وقد أفزعنى وأخافنى الاغتيال الوحشى لذلك الرجل، مثلما أفزع وأخاف آخرين كثيرين، وجعلنى أحس كما لو كان الرجل واحداً من أهلى أو أقاربى،

أو بالاحرى شخص عزيز على وقريب إلى قلبى. فى ذلك الوقت كانت حياتى قد ابتعدت تماماً عن حياته.

عندما تهيأت لى فرصة الاقتراب من الرجل بعد الإحالة إلى التقاعد، لم يكن أحد من النيجيريين قد كتب عن واحد من أعظم رجال إفريقيا بل ومن أعظم رجال هذا القرن. وعلى العكس من ذلك راح بعض الصغار، والأكاديميين، والسياسيين، يسعون (إن لم يكن دوماً وبصورة مباشرة) إلى تشويه ذكرى ذلك الرجل لأنه لم يحقق ذلك الذى تخيلوا وظنوا أنه يتعين عليه تحقيقه. وهنا وجدت المبرر لردم هذه الفجوة . هؤلاء الذى عرفوا هذا الرجل معرفة حقيقية أصبحوا من بين الموتى والنسّايين، يزاد على ذلك أن جناحى عربة الزمن كانا يرفرفان سراعاً. هذا المبرر كان حافزاً لى أيضاً على أن أعرف بعد أن جمعت حوالى ثلثى المخطوطة، أن لجنة تاريخ شمالى نيجيريا بدأت تشعر بالقلق لأن "أجنبيًا" متحرراً من ضغوط التورط الوطنى العاطفية، شرع فى الكتابة عن أبى بكر تافاوا باليوا.

أنا مدين تماماً لصندوق ليفر هولم **Leverhulme** بالمنحة التى حصلت عليها فى العام ١٩٧٩-١٩٨١ التى جعلت أبحاثى المبدئية أمراً ممكنًا، بما فى ذلك الرحلة التى عدت خلالها إلى نيجيريا للتحاور مع كثير من الأصدقاء القدامى وأولئك الذى عاصروا هذا الرجل، وأنا أعترف هنا أنه لولا هذه المنحة التى حصلت عليها من ذلك الصندوق، لما استطعت تأليف هذا الكتاب. وهذا هو السيد جون هير زميل إدارى سابق، تحول إلى عالم النشر والطباعة، راح يحثنى على إتمام هذا العمل، وهذا هو المعلم محمد **Mamman** دورا **Daura** هو والحاج عبدالله خليل، يسهلان لى تماماً الزيارة الثانية التى قمت بها إلى نيجيريا فى العام ١٩٨٨ الميلادى والتى تحاورت خلالها مع نيجيريين بارزين لا يزالون أحياء، ويعرفون أبا بكر تافاوا باليوا حق المعرفة .

وأنا محزون لأن انشغالي بالحكم المحلى والمجالس المتعددة هو الذى أخّر إكمال الكتاب كنت قد عقدت العزم على تأليف كتاب مختصر، لكنى سرعان ما أدركت ووعيت أنى إذا لم أكدّس الأدلة والبراهين والشواهد قد أسيء إلى ذلك المضاء. قد يقوم البعض حاليًا بتوضيح بعض الحقائق، لكن هوارس قال قديمًا: **العمل المختصر لا ينصف.**

وأنا لا يسعنى هنا سوى القول: إن كل أولئك الذين تحاورت أو رجعت إليهم فى كل من نيجيريا وبريطانيا كانوا شغوفين لمساعدتى بما لديهم من ذكريات عن أبى بكر تافاوا باليوا، كما قدموا لى أيضًا كثيرًا من النصح والإرشاد، ويسعدنى القول أيضًا إن أحدًا من النيجيريين الذين حاورتهم أو اقتربت منهم، لم يتساءل عن بذاءتى أو إن شئت فقل: عدم ارتباطى بموضوع هذا الرجل. صحيح أنى تعرفت "الشمال" تمامًا ووقعت فى حبه. هذا الشمال الذى عرفته حق المعرفة ذاب وتحلل فى العام ١٩٦٧ . هذا التحلل لا يعدو أن يكون مجرد وجهة نظر أوروبية فى شريحة من شرائح القصة الإفريقية – وإلى أن نصل إلى القسم الثالث من الكتاب ـ من خلال العوينات الشمالية وفى ضوء أولويات الشمال فى ذلك الوقت. قد تأتى بعض الكتابات فيما بعد . وأتمنى على أصحاب مثل هذه الروايات أن ينتقوا المعارف الصحيحة الخالصة بدلاً من الآراء المطبوعة أو الأشياء الخرافية، والسبب فى ذلك أن الخرافات يجرى تأليفها فى أكثر من بلد، وتكتسب مصداقية كبيرة. لو قدر لنا سؤال الحاج السير أبى بكر عن ذلك فمن الطبيعى أن يقول: إن رأيى ورأى أى إفريقى آخر ليسا سوى رأيين لمخلوقين بشريين. وهذا هو السبب وراء حتمية احترام البريطانيين والنيجيريين لذلك الرجل. فى ذلك الوقت كان القريبون من الرجل يعربون عن إعجابهم به، وعن شىء من الحب لذلك الرجل. صحيح أن هناك أعدادًا كبيرة من أولئك الذين نشأوا وتربوا فى بيئات شبيهة ببيئة أبى بكر تافاوا باليوا ، ومع ذلك تظل قصة هذا الرجل فريدة .

حاولت تحاشى بعض المغالطات التاريخية التى ارتكبها بعض الباحثين الاجتماعيين – وذلك عن طريق إصدار أحكام بمعايير أزمان لاحقة لزمن ذلك الرجل

(هذا الذى كان مهمًا فى تلك السنوات لا يزال مهمًا باعتباره دليلاً على التطور، بغض النظر عن رؤية طلبة المطلق وباحثيه له فى هذه الأيام) ، وأنا فى استعمالى للمصطلحات والأسماء الشائعة فى تلك الأيام (باستثناء الكلمة Ooni والكلمة Borno والكلمة Igbo: هذه الكلمة الأخيرة جرى استعمالها منذ زمن طويل للإشارة إلى اللغة، لكنى فى ضوء المشورة البحثية المحدودة وجدتنى أستعمل هذه الكلمة نفسها للدلالة على الشعب أيضًا بدلاً من الكلمة Ibo، وهذا يعنى أن الكلمتين لهما دلالة واحدة، وبذلك أكون قد فعلت مثلما يفعل الآخرون، وذلك من باب الحفاظ على الترابط، وفى الوقت التى يتحول فيه ساحل الذهب إلى غانا فى ثنايا هذه القصة، فإن روديسيا الجنوبية لم تتحول مطلقًا من الناحية السياسية إلى زيمبابوى فى زمن أبى بكر تافوا باليوا، كما أن الرجل لم يسمع عن زئير ، أو بوركينا Burkina فاسو Faso أو جمهورية بنين)، وقد فعلت ذلك بغية عكس اهتمامات أبى بكر وبيئته، التى تشمل حزبه السياسى بطبيعة الحال، وليس من باب توقع التأثيرات، والتحليلات الاجتماعية والمواقف الاجتماعية، التى لم يكن أبو بكر والمحيطون به واعين مدركين لها. وكنت حذرًا تمامًا، وواعيًا تمامًا أيضًا لظلال المعنى التي تتولد عن استعمال الكلمات التى من قبيل "القبيلة" ، ومشتقاتها، وكلمة "وثنى" و "زنجى" ، "حضارة"، و "ثقافة" و "وطنى" و "بدائى" و "متخلف" وما إلى ذلك من هذه الكلمات : والمواقع التى وردت فيها هذه الكلمات والمصطلحات، كانت من قبيل واقع ما سجلته اللغة فى ذلك الزمان، وبالدلالة نفسها التى استخدم النيجيريون فيها هذه الكلمات والمصطلحات. عدم التسليم بهذه الحقيقة يعنى إنكار الأبناء للآباء.

الأجزاء المكتوبة بالخط الإيطالى فى متن الكتاب تبين المدى الذى أعطيته لأبى بكر تافاوا باليوا كى يتحدث عن نفسه، الأمر الذى يهيئ للأدلة والبراهين الأولية الفرصة كى تساعد القراء على تأكيد معارفهم وأحكامهم ومراجعتها.

هذا ليس بأى حال من الأحوال تاريخًا بديلاً لإفريقيا، أو نيجيريا أو باوتشى لكن الكتاب ربما يحتوى على الكثير من التاريخ المعاصر الذى يحتاجه أى قارئ من القراء،

الذين قد لا يكونون عارفين بباوتشى ونيجيريا وأبى بكر، الأمر الذى يجعل ذلك القارئ فى وضع يتمكن معه من تقييم هذا الموضوع فى إطاره الصحيح. لم يكن أبو بكر نفسه أقدر من السواد الأعظم من معاصرين، أو السواء الأعظم من القراء الحاليين، على معرفة كل أغراض، الجماعات ونقائصها، واتجاهاتها التى ينتمى إليها الأفراد الذين كان هو يعيش بينهم. أما المؤرخون، والسياسيون، والناس العاديون الذين يهتمون بالإنسانية فلهم أهداف ومقاصد مختلفة، وهذه السيرة هى مجرد محاولة لمساعدة كل هؤلاء على تقييم تلك الشخصية المهمة التى كانت لها أهميتها عند بريطانيا فى أواخر أيام إمبراطوريتها، وكانت مهمة أيضًا لإفريقيا، فضلاً عن أهميتها لنيجيريا وباوتشى وشمال نيجيريا. وأتمنى أن تكون هذه السيرة عونًا لأولئك الذين يحاولون أيضًا فهم الأسباب التى جعلت تحررها الأول قصير الأجل وانتهاء ذلك التحرر انتهاءً مأسويًا: أنا لم أقدم إجابات مباشرة عن هاتين المسألتين، وما فعلته لا يعدو أن يكون تفسيرات وتأويلات كثيرة لأقوال أبى بكر تافاوا باليوا نفسه ـ ولقد اقتبست هذه الأقوال فى كثير من الأحيان لأسباب مفادها أن معنى هذه الأقوال كان مباشرًا ، وأن تواصل الرجل مع الناس كان يتسم دومًا بالصدق .

لم أحاول تهميش علاقات أبى بكر مع مختلف الموظفين البريطانيين ، وبخاصة هذين الاثنين أو الثلاثة من بين هؤلاء الموظفين الذين كان الرجل يطلب منهم النصيحة ، والذين رافقهم رفقة متواضعة اعترف بها وأقرها اعترافًا وإقرارًا صحيحين. يزاد على ذلك، أن دراسة سير معاصريه من الأفارقة، وبغض النظر عن فهم مثل هذه السير فى ضوء المصادر التى اعتمدت عليها، وفى ضوء إهمال تلك التأثيرات المتبادلة وإغفالها، مثل هذه الدراسة يمكن أن تقدم صورة مشوهة لنهاية الفترة الاستعمارية: هناك سياسيون آخرون كثيرون كانوا يعرفون كلاً من روبرت Ropert رايتس Rights، وبريان Byryan شارود ـ سميث Sharwood-Smith وبطرس Peter ستالارد Stallards، عرفوا كل هؤلاء باعتبارهم "أساتذة" ، أو زعماء، أو شركاء أو أصدقاء، لقد تجاهل

المؤرخون الذين كتبوا عن معاصرى أبى بكر تافوا باليوا، هذه الشخصيات ولم يأتوا على ذكرها. وأنا لا أصدق أن قوانين المؤرخ الخاصة بالتطور التاريخى الحتمى يمكن التوصل إليها أو اكتشافها دون معرفة أو الوقوف على التأثيرات " المساعدة " للأفراد المحليين ـ الذين ربما لا يكونون مجرد صور مطابقة.

أوردت فى نهاية الكتاب قوائم تضم المراجع الأدبية والمراجع الشفاهية. قد يلاحظ القارئ "الأوروبى" بعض الإشارات العابرة فى النص إلى بعض الأشخاص المعروفين فى نيجيريا بأنهم ليسو من بين الشخصيات التنويرية فيما وراء البحار، هؤلاء يتعين عليهم قبول الحقيقة التى مفادها أن هذه الشخصيات غير التنويرية لها قيمتها ومغزاها عند كثير من القراء الآخرين. قد يكون الأفارقة غير راغبين فى التسليم بأهمية كثير من الأحداث العرضية ، أو بأسماء صغار المقيمين أو النازحين الذين جرى تسجيلهم . وآمل أن يتسامح هذان الصنفان من البشر مع هاتين النظرتين لرجل، هو فى نهاية المطاف، ينتمى إلى عوالم متعددة. قد يستاء المتحذلقون من ذلك الذى يقولون له : توافر الأمور : التى لا تستخدم إلى فى رسم صورة كاملة لرجل على خلفية بيئيات متغيرة ـ وهذا كاتب حديث من كتاب السيرة (كاتب سيرة تشرشل على وجه التحديد) يقول : " النكات والطرف تعد مصدراً قيمًا من مصادر الصدق والصراحة التاريخية ، كان صامويل جونسون قد كتب، قبل صدور سيرة بوزويل **Boswell** بأربعين عامًا يقول : " يتمثل عمل كاتب السيرة فى المرور مر الكرام على الأعمال والأحداث التى تترتب عليها عظمة مبتذلة، وأن يوجه الأفكار والأنظار إلى الخصوصيات المنزلية، وعرض التفاصيل الدقيقة للحياة الخاصة، فى الوقت الذى يلقى فيه جانبًا بالثانويات الخارجية حيث يتفوق الرجال على بعضهم البعض بفعل الحرص والفضيلة". وأنا يسعدنى أن أورد هنا ما يقوله، آمورى **Amaury** دى **De** راينكورت **Riencourt**، الباحث فى شئون الصين: "جوهر التاريخ لا يكمن فى الحقائق المسجلة، وإنما يكمن فى أفكار، المخلوقات البشرية وعواطفها، وآرائها وآمالها التى صنعت هذا التاريخ. الحقائق ليست سوى القشرة

الخارجية لذلك التاريخ" . كل ما أتمناه أن يكون أصدقائى النيجيريين أقل صموداً فيما يتعلق بالخصوصيات، التى يمكن أن تضفى المزيد من الضوء على موضوعنا، لكنى جاءتنى تحذيرات كثيرة عن ذلك الذى يمكن أن يثير الاستياء حتى بعد مرور جيل من الزمان. يكتب الحاج أحمد قرفى Kurfi حول هذا الموضوع فيقول : " .... سوف أجرح ثيران بعض الناس ... بلا حقد أو ضغينة" .

لقد واجهت بالفعل كارثة حقيقية أضنت السواد الأعظم من باعة الكتب والمعدين المدققين والسفهاء أيضًا. هذا هو السواد الأعظم من الكتاب والناشرين فى العالم الغربى الدنيوى، الذى لابد وأن تنعكس فيه النظريات المتعددة التى بنيت على أساس من نظريات كل من دارون، وماركس وفرويد، حتى بعد تحوير هذه النظريات أو تطويرها أو رفضها، هؤلاء الكتاب والناشرون راحوا يطبقون نظرية العيوب والمحاسن على موضوعاتهم المميزة: هذا يعنى أن الحقيقة والحقيقة المجردة أصبحت هى المحك الرئيسى فى التأليف، وبدأوا ينظرون إلى التواضع الشخصى باعتباره نوعًا من الرقابة التى تقوم على النفاق. وقد ذكَّرنا الجدل الأدبى الذى دار مؤخراً أن حرية التعليق التى تكون من هذا القبيل لا تلقى بالاً لحذر الشعوب التى لم تفقد بعد إيمانها، وكذلك الشعوب التى لا تميز بين ما هو دنيوى وما هو دينى فى الحياة العامة أو الحياة الخاصة. والمرجح أن الشعب الحذر، الذى يكون من هذا القبيل، هو الذى سيقرأ الكتب التى من هذا القبيل. هذه الشعوب ترى أن المسألة لا تنطوى على سلوكيات طيبة أو ذوق راق إذا ما تحتم على الإنسان ألا يتكلم بسوء عن الموتى. وأنا لم أتردد لحظة فى الإشارة إلى النقائض الإنسانية فى كثير من الشخصيات التى صورتها، لكنى يتعين علىّ أن آخذ فى اعتبارى قناعات أولئك الذى يعرفون أن السَّفَّاح الذى يقتل إنسانًا وهو يسير فى طريق الله سبحانه وتعالى ، وليس تنفيذاً لحكم صادر ضده، هذا السفاح سوف تطرح عليه كل خطايا وذنوب ذلك المقتول - وبعد ذلك يواصل الميت حياته ، بلا غُسل ، أو حفاوة إنسانية ، ومنقى من الذنوب عند الله سبحانه وتعالى. أنا على يقين

من أن الآخرين يفهمون ذلك حق الفهم، وأن ذلك الذى دونته، على الرغم من ذلك، من المعارف العامة الخاصة باتباع سفر التثنية لن يغضب هؤلاء القراء أو يسىء إليهم.

الإشارات الكثيرة المقتطفة التى وردت خلال صفحات الكتاب، وتشير إلى الأحداث التى تزامن وقوعها فى أماكن كثيرة من العالم، وبخاصة فى كل من إفريقيا والكمنولث، كلها تهدف إلى تركيز وعى القارئ وأحكامه على المنظور المناسب: هذه الأحداث كلها كانت محل اهتمام أبى بكر تافاوا باليوا. ونحن لا نستطيع فهم أعمال هذا الرجل إلا بأخذ تجربة الرجل كلها على أنها كل لا يتجزأ. هذا يعنى أن المؤرخين، والسياسيين، وعلماء الاجتماع، وكذلك البريطانيين، والنيجيريين، يتعين عليهم جميعًا أن يحددوا عن طيب خاطر، الأمور المسجلة تسجيلاً مفصلاً، أو المواد التى لا تهمهم شخصيًا، والتى يتعين عليهم أن يمروا عليها مر الكرام فى رواية تقوم على التسلسل الزمنى فى المقام الأول، وليست مخططة على شكل فئات. وأنا أتمنى أن يتعامل " القارئ العام" مع الأقسام الكبيرة المتتالية على أنها وحدات مستقلة، وبذلك يتمكن هذا القارئ العام من تبين شجرة البلوط الغليظة ورؤيتها وهى تضرب بقوة دونًا عن سائر شجيرات الغابة. إذا ما أخذنا الأمور الأخرى من هذه الرواية، على انفراد نجد أنها مُذَكِّر، صحى لنا بكثير من الآلام التى عانى الناس منها، فى أجزاء أخرى من هذه الأرض، يوم أن كان أبو بكر تافاوا باليوا على قيد الحياة، والتى نجا منها النيجيريون .

لقد تأثرت كثيراً عندما قام رئيس وزراء ماجد آخر بالاعتراف بأبى بكر (وأعطانى أنا الآخر هذا الفضل الذى لا أستحقه) عندما قرأ مخطوطة هذا الكتاب وكتب له تصديراً. وأنا أتقدم بخالص آيات الشكر أيضًا إلى مستشار آخر كان ضمن اللجنة القضائية، ومحام نيجيرى وقاض مرموق على مستوى العالم، الذى تفضل علىّ بوضع تصديره إلى جانب تصدير رئيس الوزراء. وأنا لا يسعنى إلا أن أعبر عن شكرى وامتنانى لكل من المُعلّم محمد دروا، والدكتور جورج شيبرسون Shepperson اللذين وافقا على قراءة المخطوطة ونقدها، وأشكر أيضًا الحاج بالا Bala أبو بكر، والسيد/

براين Brian باردر Barder، والسيد/ نجل Nigel كوك Cooke، والقاضى تسليم Tas-lim إلياس ، والسيد/ أنتونى Antony كيرك – جرين Kirk-Greene، والحاج ليمان سيروما Ciroma ، والسير كينيث Kenneth مادوكس Maddocks، والحاج مختار تافاوا باليوا، والسير فولى Foley نيونز Newns، والمعلم صديق أبو بكر ، والسيدة شارود - سميث، والسير بطرس ستالارد Stallard، والسيد روبرت رايت Wright، والحاج يحيى جوساو Gusau والمعلم يعقوب أبو بكر، أشكر كل هؤلاء على انتقادهم للأقسام الرئيسية من هذا الكتاب. هؤلاء لا ينبغى تحميلهم بأى قدر من المسئولية عما كتبته أنا، أو عن ذلك الذى قد يغفلونه أو يتغاضون عنه. هذا التغاضى أو التنازل ينطبق بصفة خاصة على السيد/ داوود وليامز (باعتبار أن هذا الرجل حاول فى تاريخ سابق القيام بمهمة سيرة من هذا القبيل، وكان بوسعه استخلاصها من بئر عميقة عامرة ومليئة بالمعلومات والمعارف الشخصية) الذى شرفنى تشريفًا عظيمًا بقراءة مسودة الكتاب كلها، وقيامه أيضًا بنقد هذه المخطوطة بعينى المحرر، ومن حيث الأسلوب، وبعينى الباحث عن التفاصيل، وأيضًا بعينى المحب لغرب إفريقيا. Gratias eis maximas agit pessimus ommium scriba.

تفضل الحاج بابا شتيما Shettima علىّ بتزويد الكتاب بالصور الفوتوغرافية عن طريق مكاتبه اللهم باستثناء ذلك الذى جرى التنويه إليه فى التعليقات الخاصة بتلك الصور.

وأنا أرى ، على الرغم من الافتقار إلى الحواشى والمراجع عن قصد، أن حقائق الفصل الأخير، باستثناء بعض طفيف من الظنون، جرى تسجيلها على نحو يسمح بالتحقق منها، وأرى أيضًا أن كلام أبى بكر، الذى تركته بلا إعداد أو ربط منطقى لن تصرف الانتباه عنه التبريرات المرجعية الكثيرة. تحاشيت أيضًا الإفراط فى استخدام الأحرف الطباعية الكبيرة: هذه الأحرف الكبيرة لها أهميتها عند المحامين، ويُعزّها ويقدرها الموظفون المدنيون، والسياسيون والشخصيات الكبيرة الأخرى التى تستهدف

جذب الانتباه إلى أشكال الخطاب، إلى العناوين، وإلى أحوال بعينها، لكن الحال الذى نحن بصدده فى هذا الكتاب يغلب عليه جعل الصفحة المطبوعة تبدو كما لو كانت فى كتاب من الكتب الزرقاء، أو مجرد صفحة أو ورقة بيضاء ليست موجهة للقارئ بصفة عامة (وعلى سبيل المثال كل إشارة إلى "ممثل مقيم" **Resident** تكتب **The Resident** أى بحرفين كبيرين أحدهما فى الكلمة الأولى والثانية فى بداية الكلمة الثانية، ويقصد بالممثل المقيم هنا المسئول الإدارى الاستعمارى الكبير الذى كان مسئولاً، فى فترة من الفترات، عن المقاطعة النيجيرية، على الرغم من عدم وجود ممثل مقيم **Resident** فى مفوضيه **Residency**، فى كل منطقة من المناطق السكنية الحكومية).

الآراء والاستنتاجات هى من عندياتى، ولقد لجأت إليها فى إحداث موازنة أو مقارنة بين ذكريات أبى بكر يوم أن كان على قيد الحياة وبين التقييم الشخصى الوارد فى المراجع والمصادر عن تلك الذكريات. وفى المواقع التى جرى فيها انتقاد معاصرى أبى بكر راعيت أن تكون تلك الانتقادات صريحة، كما راعيت أيضًا أن تكون تلك الانتقادات أمينة ويتعذر تحويرها أو إطلاقها على أية شخصية من الشخصيات الأخرى أو أية جماعة من الجماعات الأخرى. وأتمنى على من يختلفون معى أن يسامحونى فى كل ما أوردته فى الكتاب لأن ذلك كان من باب الحب ليس إلا. سألونى عما إذا كان هدفى النهائى، فى حقيقة الأمر ، هو الإغراق فى التوق إلى الماضى الذى لا يمكن استرداده. إذا كان الأمر كذلك (الآخرون هم الذين يحكمون على ذلك) فأنا أقول: نعم وأؤكد بلا خجل أنه لا يزال قائمًا. ولنا أن نتخيل أن هدفى الكلى، كان من باب المصادفة، مجرد محاولة للسباحة ضد التيار فى مجرى الأفكار الجارية، مستهدفًا بذلك الإيحاء إلى الشباب النيجيرى بأن جيل الإداريين الإنجليز فى زمن أبى بكر تافاوا باليوا، إنما كان يهتم ببلده، وكان يحترم أيضًا زعماءها الإنسانيين، أن هؤلاء الإداريين كانوا يحبون كل الشعوب التى انحدر عنها هؤلاء الزعماء، كما أردت أن

أوحى أيضًا إلى معاصريهم من البريطانيين ، أنهم فى ضوء ما تعلموه ، يجب ألا يندموا على تاريخ أبائهم.

وترجع العائدات التى حصل عليها المؤلف نيجيريًا إلى جمعية العميان النيجيريين، وترجع فى بعض الأماكن الأخرى إلى الصندوق التمويلى التذكارى الذى أنشأه الحاج السير أبو بكر تافاوا باليوا لمد يد العون إلى المشروعات التعليمية والتربوية النيجيرية، والتى تتمثل بداية فى تكفل المدرسين فى نيجيريا وتنتهى بتمويل الطلاب النيجيريين أصحاب المواهب فى المدارس والجامعات .

وأنا أهدى هذا الكتاب لأهل باوتشى الذين هيأوا لى أسعد سنوات خدمتى المهنية،

كما أهدى هذا الكتاب أيضًا إلى ذكرى المرحوم الدكتور أبى بكر إمام الذى (تمنيت ذات يوم) كان سيترجم هذا الكتاب إلى لغة الهوسا. وأتقدم أيضًا بالشكر إلى زوجتى هيلارى، وهذا من باب العدل والاعتراف بالفضل، وعلى صبرها (فقد قامت بطباعة المسودات الأولى من الكتاب-كما أشكر أيضًا السيد سوجار **Sugar** الذى قام بإعادة كتابة كثير من الأجزاء بعد النقد الذى وجّه إليها) .

رمساي جاردن

أدنبره ، ١٩٨١-١٩٨٢ و ١٩٨٨-١٩٩١ **تريفور كلارك**

فاتحة الكتاب

الزارعة أساس الأشياء ، لكن الحقول بحاجة إلى الماء[*]

كنت ناظراً لمدرسة النيجيرى الشاب ، عند انتهاء تعليمه الدراسى، وقد قال ما يلى فى وصف شعبه. هذا الوصف، كان بمثابة انطباعه وإدراكه الشخصى للمجتمع الذى ولد فيه، وكل كلمة من كلمات هذا الوصف هى من عنديات أبى بكر تافاوا باليوا:

سنقوم هنا بمسح نتبين فيه صواب تبنى القبائل النيجيرية أوخطئه، أو إن شئت فقل النيجيريين، والطقوس الدينية، وعادات حياة الشعوب المختلفة وتقاليدها وأساليبها التى غزت هذه القبائل، فى وقت من الأوقات، وأساليب حياة الشعوب المختلفة التى غزت هذه القبائل، فى وقت من الأوقات، وكان لها تأثير كبير عليها.

فى المناطق الشمالية من نيجيريا، نجد أن تاريخ التغيير الحقيقى فى تلك الأجزاء، وفى حياة أهلها يرجع إلى القرن العاشر الميلادى. وليس فى التاريخ ما يؤكد أى غزو لتلك المناطق قبل ذلك التاريخ، من قِبَل أى شعب أجنبى. لم يكن أهل هذه البلاد يعرفون أى شىء طوال القرن الثالث عشر عندما دخل الإسلام إلى هذه المناطق قادماً إليها من شمال إفريقيا والجزيرة العربية.... نحن على يقين من هجرة القبائل من آسيا إلى إفريقيا. هذه الهجرات كانت على شكل جماعات صغيرة، وهذا يعنى بالتبعية أن تأثير هذه الجماعات كان ضئيلاً على حياة سكان هذه البلاد. والمرجح أن كل قبيلة من هذه

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا ، ومعناه الحرفى "فصل الأمطار، هو واهب الممتلكات .(المترجم)

القبائل، هاجرت إلى الأراضى الجديدة ومعها أفكارها الحياتية، ومعتقداتها الخاصة وعاداتها وطقوسها الخاصة أيضًا، ومع اختلاط هؤلاء القادمين الجدد بالسكان المحليين، ربما يكونون قد تخلوا عن بعض أساليبهم واعتنقوا بدلاً منها بعضًا آخر من أساليب أولئك الناس الذين وجدوا لأنفسهم مأوًى بينهم . والمرجح أيضًا أن هؤلاء السكان المحليين اعتنقوا أيضًا بعض أساليب هؤلاء الغرباء. وهذه الطريقة تؤدى دومًا إلى تبادل الأفكار، والعادات والمعتقدات. وهذا أمر يصدق على بلاد الدنيا كلها.

أسس النبى محمد (ﷺ) الإسلام فى الجزيرة العربية. قبل مولده (ﷺ) (كان العرب فى الجزيرة العربية يعبدون الأوثان، وكانت هناك قلة قليلة أيضًا تدين بالمسيحية واليهودية. واعتبارًا من ذلك التاريخ أيضًا كان هناك بعض المسيحيين فى الجزء الشمالى من إفريقيا، فى كل من مصر والحبشة، لكن هذه المسيحية الباكرة لم تكن قد وصلت بعد إلى الجنوب، وربما كانت الصحراء الكبرى هى التى حالت دون ذلك، وربما كانت فيضانات النيل وكذلك القبائل المعادية سببًا رئيسيًا فى عدم انتشار تلك المسيحية الباكرة فى هذه الأماكن. جاء ذلك على العكس تمامًا من تاريخ الإسلام. لقد قوى الدين الجديد نتيجة تنظيم العرب لأنفسهم على شكل أمة غازية أو فاتحة.... ويرجع الفضل، فى المقام الأول، فى انتشار الإسلام وامتداده ودخوله إلى غرب السودان ووسطه(*) Su-dan إلى فتح العرب لكل من شمال إفريقيا ومصر. وعندما قام العرب المسلمون بغزو شمال إفريقيا هاجرت بعض القبائل الرافضة لذلك الفتح، إلى الجنوب عبر الصحراء الكبرى واتخذت لنفسها مواطن جديدة فى السودان .... وكان طبيعيًا لتلك القبائل أن تحافظ على اتصالها بإخوانها فى شمال إفريقيا، وقد أسفر ذلك عن فتح طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى، وأعقب ذلك قيام التجارة، والحضارة والتعليم – الذى اشتُقّ من

(*) كلمة "السودان" هنا لا تعنى السودان الحالى وإنما يجب أخذ دلالة هذه الكلمة على أنها عكس لكلمة "البيضان" أو بمعنى آخر "أسود" عكس "أبيض" . (المترجم)

تعاليم الإسلام..... وتأسست فى غربى السودان ووسطه بعض الأسر المالكة القوية فى غربى السودان وفى وسطه.... تأسست ممالك مثل مملكة غانا ومملكة مالى وسونغاى Songhay ... وتغير الحكم وأسلوب حياة الناس ليناسب الوضع الجديد. واعتنق الناس فن الكتابة بالحروف العربية، كما درسوا أيضًا اللغة العربية. وبمرور الزمن اعتنقت الولايات كلها تقريبًا الدين الإسلامى. وتأسست المحاكم العادلة، وأنشئت منظومات السيطرة الحكومية الأخرى ـ مثل تحصيل الضرائب ـ وبخاصة الزكاة والجزية ـ وفُرضت ضريبة الرؤس على الممتلكات الإسلامية، وجرى تحصيل الفدية من القبائل غير المسلمة التى جرى غزوها، وذهب ذلك كله إلى الخزانات الوطنية. فى هذا الوقت من الحياة بصفة خاصة، بدأ التأثير يظهر فى غربى السودان، بما فى ذلك الإمارات الإسلامية فى شمال إفريقيا....

لم يؤثر الإسلام أو العادات أو التقاليد الشرقية أو حتى الملابس الشرقية إلى إحداث تغيير كبير فى حياة المواطنين كما لم تغير فهمهم وطابعهم العام تغيراً كبيراً. فقد بقى المواطنون على حالهم التى كانوا عليها، إذ كانوا فلاحين وتجاراً صغاراً، واحتفظوا بالسواد الأعظم من عاداتهم القديمة وتقاليدهم وسلوكياتهم العامة، على الرغم من اختلاط الكثيرين منهم، بطبيعة الحال، بالعادات والتقاليد والسلوكيات التى اكتسبوها من الشرق. والسبب الرئيسى وراء ذلك كله يرجع إلى الحقيقة التى مفادها أن الإمارات المسلمة فى نيجيريا لم يحدث أن فتحها أهل الشرق فتحًا مباشراً. هذا يعنى أن أسلوب الحياة الشرقية بل والدين الإسلامى أيضًا قبلتها تلك الولايات وأهل هذه الولايات عن طيب خاطر. فقد افتتحت المدارس فى سائر أنحاء الإمارات، لكى يتلقى الأبناء والآباء فيها تعاليم الدين. كانت تلك المدارس مختلفة عن المدارس الحديثة غريبة الطابع التى لدينا هذه الأيام. كان النظام صارمًا فى تلك المدارس، وكان يجرى تعلم الدروس فى ظل ظروف صعبة للغاية. كان التعليم فى معظمه يعتمد على العصا. كان المعلمون، وهذا هو الاسم الذى نطلقه على أهل العلم، يحظون باحترام كبير من

قبل الولايات (الإمارات) ومن قبل عامة الناس. الواقع أن المعلمين، فى تلك الأيام، كانوا هم أكثر أعضاء الولايات (الإمارات) تأثيراً ونفوذاً .

يستطرد مدرس التاريخ بعد ذلك موضحًا نشأة النظام والحياة المجتمعية فى سائر أجزاء مختلفة من نيجيريا، فى ظل تأثير غزاتها المحدثين وظِل معلميها من البعثات الأجنبية المسيحية ويقوم مدرس التاريخ بعد ذلك بتصحيح بعض التفاصيل فى ضوء التعليم الموسّع. ويظل الأسلوب النثرى على ما هو عليه دومًا: ذلك الأسلوب الإنجليزى الذى يخلو من الأخطاء عندما يكرر ذلك الذى سمعه (وذلك الذى قرر قبوله) من الآخرين، لكنه يكشف عن هنات صغيرة، عندما يؤكد، فى كثير من الأحيان، وبطريقته الخاصة ذلك الذى يوحى إليه إيمانه وتجربته بأنه هو الحق. الرجل يستعمل لغة خطابية صادرة عن خطيب طبيعى، وهذه اللغة تعكس أنماط لغته الوطنية وتراكيبها. لغة الهوسا، أو بالأحرى لغة هذا الرجل، غزيرة المفردات، وهذه اللغة تقر مسألة تفصيل الوصف والإسهاب فيه، هذه اللغة لا تخشى من استعمال كنى كثيرة، وهى لا تسمح للمشاعر بالشطط قبل أن تصل الجملة إلى نهايتها. هذا يعنى أنه يتعين، قبل الحديث مستفيضاً عن الرجل، المضى قدمًا فى التاريخ الذى ابتدأه الرجل، إلى أن تصل إلى نهايته، مادام أن ذلك التاريخ له تأثير كبير على وطنه.

ويجدر بنا فى البداية أن نوضح للقارئ أن "الهوسا" لغة، وأيًا كانت ممارسات الشعوب التى لها لغات أخرى، وبغض النظر أيضًا عن الثقافات والمنظمات الاجتماعية عندما يشير الهوساويون إلى أنفسهم "فإنهم" ليسو "أعضاء" فى "قبيلة" من القبائل، أو أى "شعب" أو أية "جماعة من الجماعات العرقية" التى قام علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية بوصفها وتحديدها. وعلى الرغم من احتمال اختفاء هؤلاء الهوسايين أثناء مرورهم عبر التاريخ، فإن كثيراً من القبائل التى تتكلم لغة الهوسا فى أرض الهوسا، تقر وتعترف بأنها مكونة من أفراد "هوساويين"، وهذه القبائل تلجأ إلى ذلك تحاشيًا للجدل مع الغرباء، حول عدم الاعتراف ببعض التعاريف العرفية.

وعلى مر القرون، قامت الدول المدنية، ثم انهارت سلطة هذه الدول وأهميتها فى سهول بلاد الهوسا وكانم ومجاريهما وأنهارهما – برنو Kanem-Bornu. وهذا هو شعب حاب Habe المتجانس، الذى انتشرت لغة الهوسا بين أفراده ينقسم بطريقة متدرجة إلى مستويات متميزة - القشده الذين من حقهم الحكم باعتبارهم ملوك، أو بالأحرى شخصيات كبيرة شبه إقطاعية ويحكمهم هم وأقاربهم تسلسل هرمى، ثم بعد ذلك اللبن الذى يمثل الفلاحين، والحرفيين، والخدم وصغار الموظفين : هؤلاء الخدم وصغار الموظفين يطلقون عليهم اسم Sarakuna و Talakawa، على الرغم من أن العامة والماجدين كانوا من الفلاحين. وبدأت الزعامة والحماية فى الظهور على شكل انعكاسات للهدايا القيمة وإسهامات العمالة التى كانت تنتقل بين هاتين الطبقتين. كان هناك أيضاً عبيد المنازل، وعبيد الحقول، وهؤلاء فى معظمهم يكونون من أسرى الحروب الذين لم تختلف معاملتهم أو مكانتهم عن أولئك العبيد الذين تحدث عنهم الباحثون الأوروبيون فى أبحاثهم عن حضارة الدولة المدنية الهيلينية (على الرغم من أن نسبة هؤلاء العبيد لم تكن كبيرة بالشكل الذى كانت عليه بين القدماء). اكتسب هؤلاء العبيد ألقاباً توحى بالمكانة، وكان لهم، فى بعض الأحيان، عبيدهم الخاصون بهم، أو خدمهم الأحرار طوال اعتلائهم سلم الرقى (وهذا ما حدث فى أدماوا Adamawa وبرنو Bornu وباوتشى Bauchi) ليصحبوا من بين أولئك الذين يختارون أو ينتخبون الأمراء الجدد. هذا لا يعنى حلول الإنجاز محل الإرث فى المناصب العالية. وأهل الهوسا يقولون للأمراء Bayin Allah بمعنى (عبيد الله). وقد أدى ذلك إلى غضب تجار العبيد الذين راحوا بعد ذلك، يشجعون على ابتداع أحكام وكنى جديدة. أما الحاشية التى يسميها الهوسـاويون Fadawa، سواء أكانوا من الأرستقراطيين، أم من العامة، أم من العبيد فقد اكتشفوا أن وضعهم العملى يتباين مع وضع الرجل الذى يقومون هم بخدمته.

لكن الأفراد والأسر يمكن أن تنهض وتسقط فى ممخضة الحظ، لم تكن هناك طبقات منغلقة أو متحجرة حتى تقف فى وجه هذا النجاح أو الفشل، يزاد على ذلك أن

المبالغات فى التوجهات يمكن أن تسفر عن الفساد والتحلل. كما أدى الدم العائلى والأسرى إلى إذابة الفروق الاجتماعية عن طريق توحيد كل من الفقراء والأغنياء، والجهلة والمتعلمين، والضعفاء والأقوياء. ولما كان النجاح من عند الله سبحانه وتعالى فإن الفاشلين كانت نظراتهم توحى بالإعجاب بدلاً من الغيرة والحقد، من هنا لا يمكن النظر إلى تقديم فرائض الاحترام والطاعة لذوى الجاه، على أنه شكل من أشكال سلوكيات العبيد والرقيق. كانت مكانة المرأة واضحة أيضًا تمامًا - إذ كانت هذه المكانة مختلفة عن مكانة الرجل من حيث الأهداف والمهارات، كما كانت هذه المكانة تبدو ثانوية فى الكثير من العلاقات القانونية والمنزلية، لكن هذه المكانة كانت بعيدة كل البعد عن الرق والعبودية. ويتعين معاملة الزوجات، اللاتى يجب أن يزيد عددهن عن أربع، على قدم المساواة وبطريقة عادلة. أما المحظيات فكن من منزلة متدنية، ولكنهن كن يحظين بنوع من الحماية إلى الحد أن الزوج لم يكن مسموحًا له بأخذ عدد من المحظيات لا يستطيع القيام على أمرهن أو مساندتهن. كانت البردة أمرًا مطلوبًا ومتوافرًا لدى العائلات الثرية أو الأرستقراطية، لكن هذه البردة لم تكن فاعلة بدرجات متفاوتة فى المزارع التى كانت بحاجة إلى الزراعة، وفى المناطق التى يجرى جلب الماء إليها من مناطق بعيدة. هذه البردة تدور من حولها الشكوك فى النظرية البيئية الحديثة، ونحن ندرس طريقة تغذية هؤلاء الناس حتى يتمكنوا من مقاومة الأمراض، إذ لم تصل الحاصلات الغذائية التى من قبيل الكسَّافا، والفول السودانى، والذرة، والبطاطس، والطماطم، إلى إفريقيا إلا بعد عصر كرستوفر **Christopher** كولمبس **Columbus**. هذه المصادر الغذائية التى تنتج محاصيل أكبر بكثير عن الحاصلات التى سبقتها كانت مقصورة على أمريكا وحدها، وهى التى مكنت من زيادة النمو السكانى زيادة كبيرة وبخاصة بين الشعوب المستقرة التى تخلت عن النظام البدوى الرعوى.

كان المعلمون (الذين ورد ذكرهم فى الاقتباس السابق، أو بالأحرى العلماء المتفقهين فى الموروث الإسلامى) بمثابة العمود الفقرى فى المدينة الدولة حاب **Habe**

الناطقة بلغة الهوسا، وذلك بدءًا من القرن السابع عشر فصاعداً، ولولا هؤلاء العلماء لضاعت وتداعت الإدارة

كلها ومعها اجتهادات المذهب المالكى وخيوطه الذهبية. هؤلاء العلماء اكتسبوا ألقابهم واحترامهم نتيجة رضا الناس عنهم عن طيب خاطر، وليس عن طريق التعيين أو الامتحان. كان نفر كبير من هؤلاء العلماء من "الفولانيين" Fula. والفولانيون شعب رعوى شاحب البشرة، له ملامح وسمات قوقازية، وأصولهم غير معروفة أو مؤكدة، كانوا قد تجولوا على طول حوض نهر النيجر حاملين معهم من السنغال ثقافة الماشية. وقد آثرت تلك الفئة الفولانية، التى تخلت عن عدائها للإسلام، آثرت الاستقرار فى المدن والبقاء فيها، لتبدأ فيها حياة أكاديمية وتوفير الكوادر اللازمة من الديوانيين ورجال الدين فى إطار ثقافة كانت فيها أحجار البناء والأعمال المعدنية أموراً نادرة وقيِّمة فى الوقت نفسه.

بالتدريج بدأ هؤلاء الناس يتزوجون من بعضهم البعض واختفى من بينهم كلام الرعاة والعلامات المميزة لهم. وفى الأماكن التى اختفت فيها معايير التقوى والتقشف، والاستقامة والأمانة الخاصة بالحكام الحاب المسلمين، كانت تظهر الغطرسة والكبر، والطمع والجشع والخرافات الوثنية. والمرجح أن مشروع الانقلابات التطهرية بدأ عند هذه المرحلة. فى ذات الوقت تقلصت أهمية مملكة مالى (التى كان اسم معلمها مالّى Malle)، وتقدمت مملكة سُنْغَاى Songhai بدورها لتتجزأ بعد ذلك تحت وطأة الهجوم المرَّاكشى (المغربى)، وذوت وانطفأت مملكة غانا وبقيت برنو Borno وحدها على قيد الحياة لتكون منافسًا لولايات (دول) الهوسا - لكن على الرغم من عجز هذه الولايات عن التوحد، فإن التهديد الحقيقى لبقائها على قيد الحياة كان يكمن فى داخلها.

وُلد المُعَلّم (العالم) عثمان بن فودى، الذى كان عالمًا فريداً ومتدينًا من الفولانيين فى جوبير Gobir (انظر الخارطة رقم ١) فى العام ,١٧٥٤ قاد المعلم عثمان بن فودى أول حركة ناجحة، والتى سميت باسم حركة الجهاد Jihad ضد ملوك حاب Habe

الهوساويين فى مواصلة الجهود التى كانوا يبذلونها بين أفراد شعوبهم لجعلهم لا يرتدون عن الدين السائد فى ممالكهم، ناهيك عن الجهود التى كانوا يبذلونها بين القبائل المعادية التي كانت تعيش في الجبال التي كانت متاخمة لحدودهم، هذه القبائل هى التى أعاقت وعرقلت انتشار الحجاب والعمامة، بل إن هذه القبائل، ما خلا مثلها الوثنية، راحت تبقى على الطقوس الفتشية وتحافظ على الأحجبة والتعاويذ الخرافية. هؤلاء الملوك (ملوك حاب الهوساويين) شأنهم شأن السواد الأعظم من الحكام فى التاريخ، اكتشفوا أن تجنب الحماس الوطنى الزائد عن الحد يضمن وجود سكان قانعين وراضين ومخلصين: وقد توصل العلماء Mallams (من أمثال أولئك الذين قاوموا إغراءات السلطة المدنية، والقيادات العسكرية والترف) شأنهم فى ذلك شأن الكثير من رسل التغيير، إلى أن عقيدتهم بحاجة إلى إصلاح دنيوى، كما اكتشفوا أيضًا أن الثورة الراديكالية وحدها، بغض النظر عن متاعبها أو سطحياتها، هى وحدها الكفيلة بذلك الإصلاح الدنيوى. والقرآن يسمح للمسلمين بطاعة الحاكم غير المسلم، مادام ليس هناك نية لإقامة دولة إسلامية، وشريطة أن تكون حرية العبادة مكفولة فى الدولة التى من هذا القبيل لا يكون من حقها التدخل فى شخصية المسلم، أو ممتلكاته أو حقوقه. لكن الطاعة للحاكم، سواء أكان مسلمًا أم غير مسلم، تعد أمرًا واجبًا إذا ما حكم مثل هذا الحاكم بالعدل: والشخص الذى يحيد عن مسار العدالة الصحيح يضيع حقه فى المطالبة بالطاعة والاحترام.

يجىء بعد ذلك العصيان المدنى، الذى جرى تفسيره من الناحية العقدية على أنه بديل عن الحرب المقدسة، أو إن شئت فقل الجهاد Jihad، حدث ذلك من خلال تفسير انتقائى حكيم لنصوص القرآن الكريم باعتبار ذلك ردًا على الكافرين الذين غزوا الأراضى التى يحكمها المسلمون، وإطلاق سراح المسلمين وإنقاذهم الذين سقطوا أسرى فى أيدى الكافرين. وجرى العثور على الجنود العاديين وضباط الصف المسلمين بين البدو الفولانيين الذى رفضوا وامتنعوا عن دفع ضريبة الماشية التى يسميها أهل

الهوسا Jangali إلى ملوك الهوسا الذين كانوا يرعون ماشيتهم فى أراضيهم فى موسم الأمطار. وجرى أيضًا تسجيل الكثير من الجنود من بين الخدم وصغار الموظفين الذين أحسُّوا أن بدء أى تواصل رسمى مع أى مسئول أو سيد من السادة الإقطاعيين (وبخاصة إذا كان ذلك المسئول قاضيًا Alkali فى محكمة) عن طريق تقديم الهدايا، قد تحول إلى نوع من المزايدة طلبًا للمحاباة، أو أولئك الذين أحسوا أن الضرائب التى يدفعونها فى الأسواق كانت بلا مبرر أو سند من القانون، أو حتى أولئك الذين أحسوا أن التجنيد للحرب، عندما تفرض أوامره من قبل كافر على مسلم من المسلمين، يعد أمرًا غير شعرى أيضًا. انتشار الآراء التى من هذا القبيل فى مجتمع اقتصادياته النقدية مقيدة، ولا يعرف الرواتب الثابتة التى يتقاضاها الدواوينيون والسادة الصغار، يفضى إلى عدم الاستقرار لكنه يظل مع ذلك جانبًا ويسترعى الانتباه.

فى العام ١٨٠٤ الميلادى، أى قبل عام من معركة الطرف الأغر Trafalgar، اضطر عثمان بن فودى، تحت وطأة الاضطهاد إلى النزوح عن جوبير Gobir، إذ وجد نفسه منتخبًا بحق (مع أنه لم يطلق ذلك اللقب على نفسه) خليفة لهؤلاء المسلمين الذين كانوا قد أجمعوا فيما بينهم على أنهم لم يعد لهم بعد حاكمًا مسلمًا شرعيًا. كَرّم هؤلاء المسلمين عثمان بن فودى باعتباره شيخًا Shehu، وفى ظل قيادة الشيخ عثمان ابن فودى وزعامته خسر كثير من ملوك الهوسا ممالكهم، وباستثناء كل من برنو Borno والصخور الوثنية، أصبح الفولانيون هم المسيطرون بين الأمراء على ذلك الذى قُدّر له أن يكون شمالى نيجيريا وبذلك أمكن التقليل من العمليات الحربية الداخلية المهلكة. وهنا تسلم كل زعيم من زعماء المناطق بيرقًا من يد الشيخ عثمان بن فودى. وفى الأغلب الأعم كان كل واحد من هؤلاء الزعماء رجلاً من رجال هذه الأسر الفولانية المالكة، الذى اعترف به البريطانيون فى يوم من الأيام على أنه أمير من الطبقة الأولى، وأمير من أمراء الولايات الإسلامية الرئيسية، التى بدأت مع بدايات القرن العشرين.

بقى فى زاريا، من بين حملة الرايات هؤلاء، ملك واحد من ملوك الهوسا. كان هناك استثناء آخر من السيادة الفولانية (علاوة على الإمارات التى من قبيل أرجونجو Argungu، ودورا Daura، تلك الدولة المدنية التى كانت تخومها تمتد إلى أن تلامس التخوم الوثنية التى فى الجنوب. بحلول منتصف القرن الثامن عشر كان بعض الوعّاظ من برنو قد هدوا بعض الناس وأدخلوهم فى الإسلام، وفى حوالى العام ١٧٥٢، أى قبل قيام حرب السنوات السبع الأوربية بفترة وجيزة، وُلد شخص يدعى يعقوب Yakub فى قرية يُقال لها ترون Tirwun. يعقوب هذا، كان باجيريا Bageri، وكان الرجل يتحدث لغة شبيهة بلغة البولويا Bolewa، لكنها قريبة جداً من لغة الهوسا، لكن الرجل لم يكن من "الهوسا". كان هذا اليعقوب قد أُوفد عندما كان شاباً صغيراً للدراسة مع معاصره الشيخ عثمان بن فودى، كان هذا اليعقوب أيضاً واحداً من بين أولئك الذين تسلموا الرايات، وطُلب منه العودة لشن حرب الفضيلة فى موطنه، وأن ينشئ مثل إخوانه حملة الرايات أنظمة قضائية مستقلة. وأقام هذا اليعقوب مركز رئاسته فى منطقة إنكيل Inkil فى العام ١٧٩٢، أى فى العام نفسه الذى جرى فيه إلقاء القبض على الأسرة الفرنسية المالكة، ومحاكمة لويس السادس عشر، تنفيذاً لذلك النداء الذى وُجّه إليه من الشيخ عثمان، على الرغم من أن شعب جيراوا رفض إطاعة ذلك اليعقوب والانضواء تحت لوائه.

قام يعقوب بتجميع خمسة عشر مساعداً إقطاعيًا وحوالى مائتين من حملة السهام، وكان هؤلاء بمثابة مجنديه الأول، واستطاع هذا الرجل أن يثبت وجوده العسكرى فى أصقاع بعيدة وصلت إلى نهرى بنيو Benue وجونجلا Gongola وتلال وركوم Wurkum، الأمر الذى أدى إلى دفع تخوم كل من جومبى Gombe، ولير Lere وميساو Misau إلى الخلف، وإنزال الهزيمة بالجيش الذى جاء من برنو Borno. ونقل يعقوب عاصمته فى العام ١٨٠٩الميلادى، أى فى العام الذى أودع فيه نابليون البابا بيوس Pius السابع السجن، وقام ببناء مدينة باوتشى المسوَّرة حول تل كوبى Kobi،

وجعل لها بوابات دفاعية على الطرق الرئيسية المؤدية إلى خارج أنكيل، وترون Tiruwn، وران Ran وبعض الأماكن الأخرى. يعقوب الأول هذا، توفى فى العام ١٨٤٣، عندما قامت بريطانيا بضم بلاد السند Sind، وأعلنت الناتال مستعمرة بريطانية، وباسوتولاند Basutoland محمية بريطانية أيضًا، واعترفت باستقلال هاواى Hawaii، كان يعقوب، فى ذلك الحين، قد بلغ من الكبر عتيًا وأصبح رجلاً موقرًا وخلفه ولده الأكبر إبراهيم، لكن هذه الخلافة جاءت متأخرة تمامًا، نظرًا لأن عددًا كبيرًا من الرعايا الذين جرى غزوهم بدأوا يثورون ويتحركون تحركات ناجحة، وهنا اضطر إبراهيم إلى التنازل لصالح ولده عثمان. حاول هليل Halil عم عثمان، التعجيل باغتصاب الحكم، لكن أمير ميساو Misau مد يد العون والمساعدة لهليل الذى وافته المنية وسط المذبحة الكبيرة والدمار الكبير الذى حل بمدينة باوتشى.

خبت، من جانب آخر، شهرة عثمان بين الناس، ودخلت أيام السلم التى شهدها الناس فى زمن يعقوب عالم النسيان، وقام خلف الشيخ بصفته قائدًا للمؤمنين، وبصفته أيضًا سلطانًا Sarki لسكتو Sototo بعزل الشيخ، وخلف يعقوب نفسه ولدُ عمه المدعو عمر Umaru. وثارت القبائل الوثنية نفسها على عمر، فى الوقت الذى قام فيه مُنَظِّمٌ جديد آخر يدعى جبريل Jibrella بتشكيل قوة تمرد بلغت من القوة حدًا مكنها من مواجهة جيوش كل من جومبى Gombe، وميساو، وهطيجا Hadejja، وكتاجوم، وباوتشى مجتمعة. وقد جرى طرد جبريل من ميساو لممارسته "السِّحْر"، لكن الرجل طال عمره إلى الحد الذى جعل البريطانيين يصفونه بأنه "عجوز لطيف أبيض الشعر" أُعجب الناس بأسلوبه وبشجاعته حتى بعد أن أصبح ضعيفًا واهنًا ولا يشكل أى مصدر من مصادر التهديد. وعلى الرغم من مشاغل عمر، ظل قادرًا على مهاجمة جوارام Gwaram التى كانت ترفض ابتزازاته، وقام الرجل عن طريق الخيانة بنصب مذبحة مروعة لسكان جوارام فى شهر يناير من العام ١٩٠٠،

واستبعد من بقى منهم على قيد الحياة، متحديًا بذلك الشريعة الإسلامية. وهنا يبدو أن الحرب المقدسة التى شنها الشيخ، قبل ذلك بقرن من الزمان، على التجاوزات الوثنية، بدأت تلقى بظلالها على الأعمال المروّعة البشعة التى كانت تُرتكبُ باسم الإسلام، هذه المحرقة الجوارامية، شأنها شأن التضحيات الأوفنرامية Ovenramwem اللإنسانية فى بنين Benin، "مدينة الدم" كانت صورة طبق الأصل لذلك الذى أشار إليه الإنجليز باعتباره أحد مبررات "الزحف الباكر على إفريقيا".

كانت شركة النيجر الملكية قد مُنِحت فى العام ١٨٨٦ عقدًا ملكيًا (يوم انهزام جلادستون فى مسألة الحكم المحلى فى أيرلنده) يعطى هذه الشركة سلطة سياسية بريطانية على هذه المناطق التى كان عملاؤها قد وقَّعوا معها بعض المعاهدات بالفعل. كانت المنطقة الإدارية الفعلية لهذه الشركة عبارة عن شبة دائرة مركزها لوكوجا Loko-ja، أما أصابا Asaba هى وأونيتشا Onitsha فكانتا على محيط هذه الدائرة من الناحية الجنوبية، وكانت بدا Bida على المحيط نفسه من الناحية الشمالية. كان مجال نفوذ هذه الشركة الواسع، الذى لم يجر تحديده بشكل قاطع على أية خارطة من الخرائط، يمتد من يولا "Yola" فى الشرق، ويمتد شمالاً إلى بروُّا Barruwa، ثم يمر بعد ذلك على كل من كنو Kano، وسكتو، وجواندو Gwandu وأرجونجو إلى أن يصل إلى إيلو Ilo، إلى أن يصل إلى كياما Kaiama فى الجنوب ثم إلى إليشا Ilesha فى الغرب - وبقى ذلك النفوذ ساريًا إلى أن راح الفرنسيون يقاومونه من كل الاتجاهات المحيطة به. كان ذلك النفوذ يغطى نيجيريا الحالية كلها، لكنه كان يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك فى اتجاه الشمال والشمال الغربى. كانت المستعمرة هى ومحمية ليجوس الداخلية تلقيان بظلالهما على محيط ذلك النفوذ الخالى من كل من أراضى اليوروبا Yorbua فى الناحية الجنوبية الغربية التى مزقتها الحروب الأهلية. كانت محمية أنهار الزيت (التى كان يجرى تمويلها ذاتيًا عن طريق الرسوم الجمركية وأعيدت تسميتها فى العام ١٨٤٩ باسم محمية ساحل النيجر - إذ كان الزيت، فى ذلك الوقت، من زيت

النخيل، بطبيعة الحال، وليس زيتًا بتروليًا) تغطى الجزء المتبقى من الجنوب بدءًا من وأرّى Warri ومرورًا بكل من براس Brass وأوبوبو Opobo لتصل بعد ذلك إلى كلبار Calabar. كانت قوات التاج البريطانى التابعة للشركة، تحت قيادة العقيد فردريك لوجارد Lugard.

ويوم أن وصلت أنباء هذه القصة إلى الشمال، كانت شركة النيجر الملكية قد سلّمت عقدها، أو بالأحرى امتيازها، وفى اليوم الأول من العام ١٩٠٠، جرى رفع علم المحمية البريطانية على مركز رئاسة هذه الشركة فى لوكوجا. ومن لوكوجا بدأ هؤلاء البيض يتقدمون ومعهم مدافعهم، وفى ظل حماسهم إلى المهادنة والتنظيم: ذلك الذى ادعى الفولانيون أنهم أخذوه عن طريق الغزو والفتح، وذلك الذى أخذه هؤلاء الفولانيون على أنه عرف مسلم به ـ الحكم، والضرائب، وعزل الأمراء وتنصيبهم والذى انتقل بحكم هزيمتهم إلى القادمين الجدد، الذين قيل إن "مقيميهم" جاءوا ليكونوا "مستشارين وأصدقاء". كان لدى السير فردريك لوجارد، باعتباره أول قائد لقوات التاج فى هذه المنطقة، خمسة ضباط إداريين، ومعونة تقدر بحوالى ١٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزى يتعين عليه استعمالها فى تنظيم عدد من السكان يقدر بحوالى عشرة ملايين نسمة. ووعى كبار ضباط السير فردريك لوجارد معتقد قائدهم الذى مفاده "نستطيع على مدى جيل أو جيلين أن نُرِى الزنوج Negro من نكون، وبعدها سوف يطلبون منا الرحيل. عندها سنترك الأرض لأصحابها، وقد تولد لديهم إحساس بأنهم وجدوا فينا أصدقاء طيبين لهم." وقال الجيل الذى جاء بعد ذلك، وكان لديه المزيد من المطامح الجديدة، والإساءات الجديدة، إن السير فردريك لوجارد كان عسكريًا مستبدًا، شأنه شأن زوجته الصحافية فى مسألة التلاعب بالرأى العام.

فى شهر فبراير من العام ١٩٠٢ الميلادى، قام وليام William والاس Wallace، نائب السير فردريك لوجارد، وعميد المقيمين البريطانيين، قام السير من إيبى Ibi إلى يولا Yola ومنها إلى برنو Borno، مخترقًا بذلك "الأرض Terra المجهولة Ingnota فى

منطقة باوتشى "Bautshi" على رأس مفرزة من كتيبة شمالى نيجيريا التى هى جزء من قوة الحدود الإفريقية الغربية. كان الجنود البريطانيون بقيادة العقيد مورلاند Morland يضمون حوالى ثلاثة عشر ضابطًا وخمسة من ضباط الصف (بعضهم يركبون خيولاً)، وثلاثة أطباء، وتعاونهم قوات مشاة إفريقية قوامها ٥١٥ رجلاً، ومعهم مدفعين عيار ٧٥مم. فى ذلك الوقت، لم يكن إجمالى عدد "الأوروبيين" (الذين كان من بينهم بعض الكنديين) فى شمالى نيجيريا يزيد، بأى حال من الأحوال، على مائتى فرد، نصفهم من المدنيين، والنصف الآخر من العسكريين، وكان البعض من هؤلاء الأوروبيين فى مهام عملية خاصة بهم، إذ كانوا يتقاطرون من أو إلى الميناء الساحلى الذى كانت تبدأ أو تنتهى عنده جولاتهم التى كانت تستمر مدة اثنى عشر شهراً. كانت الحدود مع الفرنسيين لم يجر ترسيمها بعد على الأرض، على الرغم من الاتفاق على هذه الحدود فى الخرائط التى اعتمدت عليها المعاهدة الأنجلو – فرنسية التى أبرمت فى العام ١٨٩٨ الميلادى.

كانت مدينة باوتشى، التى كانت محددة تحديداً ضبابيًا على الخرائط القديمة، تحت اسم يعقوبه Yakoba وتيمنا باسم مؤسسها، والتى كانت أيضًا سوقا رسمية لتسويق العبيد الذين كان يجرى أسرهم من جبال أدماوا Adamawa وبيعهم للمشترين فى كل من كنو Kano وسكتو Sokoto، كانت مستعدة للدفاع، لكنها استسلمت دون إطلاق ولو طلقة واحدة. قام وليام والاس بتجميع الأعيان أو بالأحرى الإقطاعيين، وأعلن والاس أن الأمير (الذى عامله والاس على أنه مغتصب للسلطة) سيجرى عزله لسوء إدارته وغطرسته، وتساءل عمن يمكن أن يخلف هذا الأمر. وجرت تسمية محمد حفيد يعقوب، ثم جرى "تعيينه"، طبقًا للعرف المتبع فى الهند البريطانية، طبقًا للشروط المتعجلة التالية ـ أن يحكم بالعدل طبقًا للقوانين المعمول بها فى المحمية، وأنه يتعين عليه إطاعة المندوب السامى وأن يعمل بنصائح الممثل المقيم، وأن تكون المعادن التى يجرى اكتشافها، والأراضى الخالية هى والأراضى البور غير المستصلحة ملكًا للتاج البريطانى، حتى يمكن تحمل نفقات إدارة المحمية.

هرب عمر ومعه قلة قليلة من أتباعه، وبعد تحرك القوة الرئيسية، وجد تمبل Temple الممثل البريطانى المقيم الجديد، أهل المدينة وأهل القرى قد التفوا حوله بسرعة وهم راضون عن النظام الجديد وبحلول شهر يونيو ظن تمبل أن تجارة الرقيق قد انقرضت (على الرغم من بقاء مصادرها الشرقية، فى أدماوا، على قيد الحياة طول سنوات عدة، على الرغم من فرض الحكم الألمانى على "الكاميرون" Kameruns، التى كانت تمثل مع توجو Togo، وفى أقصى غرب داهومى Dahomey، حصة القيصر من البيض المخفوق فى غرب إفريقيا)، وسرعان ما قام تمبل Temple بتوفير الحراس المرافقين للمنقبين الأول عن القصدير فى الهضبة التى فى الجهة الغربية. واصل عمر عمله بؤرة للدس والتآمر، وفى شهر يناير من العام ١٩٠٣ جرى طرده هو وجماعة صغيرة إلى إيلورن Ilorin، وجرى الاحتفال بطرد هذا الرجل، وأطلقت الألعاب النارية وراح الناس يرقصون فى المدينة.

فى أواخر ذلك العام قامت جماعة من الرؤساء Chiefs الساخطين والزعماء الدينيين الذى طردوا من سكتو، بالانضمام إلى جماعة باوتشية صغيرة، وقاموا بطرد القوة التى يقودها البريطانيون فى بورمى Burmi بالقرب من نهر جنجولا Gongola. وهنا قامت قوة الحدود الإفريقية الغربية بالهجوم على باوتشى، لكن الحملة العسكرية التى جاءت من لوكوجا هزمت هذه الجماعة، التى كان من ضمنها سلطان من السلاطين السابقين. جاء هذا العمل بمثابة إكمال "للمهادنة" الرسمية فى الشمال، وتحقيقاً لصفح لوجارد العسكرى عندما تولى أمر شركة النيجر.

لم يكن يتبقى سوى مسألة تقوية الإدارة المدنية وتعزيزها، وقد صاغ لوجارد هذه الإدارة، وأدخل فيها تلك الطرائق التى أطلق عليها اسم "الحكم غير المباشر". وقد شرح فرديرك لوجارد هذا المصطلح فى مذكراته السياسية، شرحاً موجزاً وعلى العكس ممن جاءوا بعده أو المحللين. قال لوجارد "إنه الحكم من خلال الرؤساء Chiefs الوطنيين، الذين يعدهم الناس جزءاً لا يتجزأ من ماكينة الحكم، ولهم سلطات محددة تحديداً

جيداً ومهام تعترف بها الحكومة ويقرها القانون، ولا تعتمد على الأهواء المفاجئة للحاكم التنفيذى". فقد تقرر المحافظة على كل الطاقات والسلطات الإفريقية، التى يرى رجال لوجارد أنها جديرة بالاحترام باعتبارها من "الحكم السليم"، كما تقرر أيضًا إدراج هذه السلطات باعتبارها عاملاً من عوامل "الحضارة"، ينبغى تعليمه للناس، والإشراف عليه ومساندته. كان الأمر يحتاج إلى المهارات المنظمة حتى يمكن إحداث نوع من التغيير فى مواقف الحكام، دون أن يفقدوا السيطرة على رعاياهم. كان هدف لوجارد المحدد، والذى كان محطًا لإيمان الجميع به بلا منازع فى ذلك الوقت، وعلى الرغم من تقليل الباحثين من شأنه فى السنوات التالية، يتمثل فى إقناع الحكام الأفارقة بالحكم الجيد العادل، حتى لا تقودهم مطامحهم إلى القيام بغزوات جديدة، وإنما التركيز على رفاه شعوبهم، وكفاية خدماتهم، لأن هذه الطريقة هى وحدها القادرة على توسيع نفوذ هؤلاء الحكام وزيادته.

كان البريطانيون وهم يعملون إلى جانب السلطات الوطنية ومن خلالها يلمسون مسألة العدالة، والمالية، والاقتصاد لمسًا خفيفًا لكن بيد حازمة، فى الوقت الذى يتولون فيه دور القيادة فى مسألة إدخال جديد النقل الغربى، وجديد التعليم الغربى، وجديد الطب الغربى على النحو الذى تسمح به الدخول. وقد أدت الجغرافيا هى والتوائم الثقافى إلى تقسيم الشمال رسميًا إلى اثنى عشر مقاطعة، لكل واحدة منها رئيسٌ إدارىٌ أساسىٌ مسئولٌ عنها، ويعرف باسم "الممثل المقيم" **The resident**. ويكون مقره فى معظم الأحيان فى بلدة الرئاسة فى كل إمارة من الإمارات المهمة أو رئاسة من الرئاسات. وجرى تقسيم المقاطعات بعد ذلك إلى أقسام أخرى صغيرة يرأسها رؤساء الأقسام. (يتدرج رؤساء الأقسام من رؤساء أحياء أول، إلى رؤساء أحياء، إلى مساعدى رؤساء الأحياء - أو قد يكونون مجرد مبتدئين **Cadets** عندما يكونون تحت الاختبار). كان رؤساء الأقسام، يقومون بتوجيه من ممثليهم المقيمين، بتقديم النصح والمشورة إلى الإمارات الأصغر أو الجماعات الصغيرة من السلطات الوطنية الواقعة

فى نطاق سيادتهم. كان كل عمل يستند إلى قانون (أو قانون محلى). كانت الأهواء الشخصية تتدخل فى تفسير القوانين التى تكون من هذا القبيل، والتى لا يكون الهدف منها واضحًا.

عندما كان لوجارد يتحدث إلى الوزراء ورؤساء سكتو فى اليوم العشرين من شهر مارس من العام ١٩٠٣، بعد الاستسلام، قال لهم: " لن نتدخل فى شئون دينكم ولا فى منصب أمير المسلمين باعتباره رئيسًا للدين. الحكومة الإنجليزية لا تتدخل مطلقًا فى الدين، أما مسائل الضرائب، والقانون، والنظام، والعقاب على الجرائم فتلك مسائل تخص الحكومة، ولا تخص الدين". وفى اليوم التالى، وبعد أن قاموا باختيار السلطان الجديد، قام لوجارد بتنصيبه فى الاحتفال، وكرر مؤكدًا وموضحًا من خلال الترجمة، "لن تتدخل الحكومة مطلقًا فى الدين الإسلامى. والناس أحرار فى أن يعبدوا الله بالطريقة التى ترضيهم. وسوف نحترم المساجد وأماكن الصلاة".

يرى البريطانيون أن محمد، أمير باوتشى الجديد كان "ضعيفًا وغير كفء"، وكانوا يفضلون اعتباره الأحق باللقب. ومع ذلك، توفى الرجل بعد ذلك بفترة قصيرة، وجرى بعد ذلك انتخاب حسَّان Hassan، وهو حفيد آخر من أحفاد حامل الراية، ليكون خلفًا للأمير محمد. وقد اشتهر عهد الأمير حسَّان فى بعض مراحله بالمجاعة الشديدة التى حدثت فى العام ١٩٠٤–١٩٠٥، وافتتاح الطرق المزودة بالاستراحات، والمتجهة شرقًا وغربًا، كما اشتهر ذلك العهد أيضًا بإقامة خط التلغراف الواصل إلى باوتشى فى العام ١٩٠٥، لكن ذلك كان باستثناء الاستياء الدينى الذى حدث فى ربيع العام ١٩٠٦، والذى انتهى بإلقاء القبض على المُعَلّم على Ali، منظم ذلك الاستياء فى إمارة جومبى Gombe فى الشرق، عندما كان على وشك رفع لواء تمرده على تل من التلال المقدسة، التى كانت الجماهير وبخاصة الفولانيون المتحمسون يشدون رحالهم متجهين إليها. ذاع بين الناس أن عليًا Ali كان مبشرًا بواعظ أكبر منه وأن انتفاضته كانت تهدف إلى مصادفة انتفاضة أخرى فى سكتو. بعد ذلك، جرى إلقاء القبض على "مهدى" آخر،

يدعى الحاج ملّى Malle، فى بلده يولا "Yola"، فى الوقت الذى وصلت فيه أخبار عن حدوث تمرد قام به رجل يدعى ولد Dan مكاهو Makaho، وأنه جرت هزيمته فى بلدة ساتيرو Satiru فى سكتو، فى حين ظهر منظم آخر من العرب هو الحاج ElHaj إسحاق Isiaku، وأخذ يهيب بأهل باوتشى أن يطردوا الأوروبيين إلى "المحطة الصغيرة" الموجودة خارج أسوار المدينة. وجرى إلقاء القبض على هذا الرجل، ومحاكمته بواسطة بلاط الأمير، وأخيراً جرى شنقه على شجرة من الأشجار فى ميدان المدينة.

بقيت باوتشى تنعم بالسلام، حتى فى زمن الحرب العالمية الأولى، على الرغم من افتقار بعض سكان الجبال الذين كانوا يعيشون على أطراف المقاطعة، إلى الإقناع الإدارى والإقناع العسكرى كيما يقبلون قيم الاقتصاد النقدى المحبة للسلام، نظراً لأن ذلك الاقتصاد النقدى يُحصِّل الضرائب ويفرض أيضاً القانون والنظام. كان تمبل، لا يزال ممثلاً مقيماً، ومعه هيئته الإدارية المكونة من ثلاثة أو أربعة من الممثلين المقيمين المساعدين، وراح الرجل يقوم بعمل إحصاء وتقييم لما يقرب من مليون من البشر، مستهدفاً بذلك مسح المناطق المنتجة للتصدير فى الغرب من ناحية، وإنشاء منظومة للخزانة الوطنية من الناحية الأخرى فى كل إمارة من الإمارات. كان ذلك العمل الأخير بمثابة المفتاح. كانت الخزانة الوطنية من الناحية الأخرى فى كل إمارة من الإمارات بمثابة العمود الفقرى فى الإدارة عن طريق الحكم غير المباشر، من خلال وسيط "السلطات المدنية"، سواء أكانت هذه السلطات أمراء (يخضعون للتفتيش التقليدى والموازنات التقليدية بالقدر الذى تسمح به الحساسيات والقانونيات الحديثة) أم أنهم قد يشكلون مجالس الكبار فى المناطق القبلية. قامت فى أواخر العام ١٩٠٦ بعض الحملات العسكرية الصغيرة ضد القبائل "الوثنية" فى تلال باوتشى والمقاطعات الأخرى، لمعاقبة أولئك الذين كانوا يُغِيرُون على القوافل، ومعاقبة الخارجين عن القانون. لكن لوجارد فى ذلك الوقت، وإدراكاً منه لاقتصاد محميته المتأرجح، وبحكم اضطراره إلى توفير المتحصلات، فى الوقت الذى كانت الخزانة البريطانية لا تزال

تعين، وعلى مضض، تلك المتحصلات بحوالى نصف مليون جنيه إنجليزى كل عام، كان يوصى بأن حكومتى شمال نيجيريا وجنوب نيجيريا يتعين دمجهما بعد تقاعده على أن تعينا بعضهما (كانت محميه جنوبى نيجيريا قد جرى إخراجها من ساحل النيجر ومن نطاق شركة النيجر الملكية فى العام ١٩٠٠). ثم رحل لوجارد ليحكم هونج كونج فى العام ١٩٠٧، واعتباراً من العام ١٩٠٨ جرى تعيين خلفائه ليقوموا بدور الحكام.

لقى الأمير حسان ربه فى العام ١٩٠٨ وخلفه حفيده يعقوب الثانى. لم يكن هناك أحد على استعداد لتفنيد الحقيقة التى مفادها، أنه على الرغم من احترام عمليات الاختيار التقليدى على المستوى المحلى، فإن التعيين (وحق الاعتراض الضمنى) كان من حق الحاكم، يزاد على ذلك أن سلطان سكتو الجديد لم يكن يشارك فى التعيين، على الرغم من زعامته الروحية للمؤمنين، وسيطرته السياسية باعتباره وارثًا وخلفًا للشيخ الذى سبق أن سلم الرايات للأمراء السابقين. بذلك يكون النمط الذى استمر أربعين عاما قد جرى تحديده. راحت تلك الحفنة القليلة من الإداريين البريطانيين، يختلطون أصلاً بالطبقة المتوسطة، مغامرين لكن ليسو متطرفين، ومعتادين على قيم الشجاعة مؤمنين بالعدالة الفجة السريعة، وراحوا يطورون إطاراً عامًا قويًا للحكم، هم ليسو نادمين عليه. كان هؤلاء الإداريون بلا موارد خارجية وكانت بنيتهم التحتية فى باوتشى عبارة عن سلك تلغراف ونهاية خط سكة حديد يمتد مئات الأميال. لم يكن بصحبة هؤلاء الإداريين سوى قلة قليلة من المساعدين الفنيين، وكان بصحبتهم أيضًا فصيل أو اثنين من الجنود العاديين الذين كانوا يساعدون فى عملية السيطرة على قبائل التلال التى على الحدود عند الأطراف والحواف. وعلى الرغم من أن هؤلاء الإداريين لم يعرفوا، وكان يمكن أن يحسوا بالخجل إذا ما سمعوا ذلك، فإن الكثيرين من هؤلاء الإداريين كانوا يبررون الاستنتاج الذى توصل إليه كيرزون فى العام ١٩٠٨ الميلادى والذى مفاده، "نحن لم نجد فى الإمبراطورية مجرد مفتاح العظمة والثروة، وإنما وجدنا فيها أيضًا نداء الواجب والوسيلة إلى خدمة الجنس البشرى" - باستثناء

أن الثروة تحققت للقلة، وأصاب المرض واعتلال الصحة الكثيرين (فى تلك السنوات كان معدل الوفيات بين الشباب الأوروبيين فى شمال نيجيريا ثلاثة أو أربعة أضعاف هذا المعدل بين سكان بريطانيا كلهم، وكان هذا المعدل فى ليجوس يصل إلى الضعف أو ما هو أكثر من الضعف: ولم تكن أرقام معدل الوفاة بين النيجيريين معروفة، لكن العمر المفترض أو العمر الافتراضى فى الشمال كان يتراوح بين ٢٠ ، ٢٥ عامًا).

جاء تطوير الإقطاعيين أو بالأحرى حملة الألقاب التقليدية واحدًا من التغييرات الرئيسية التى أدخلها الماجد أوليفر Oliver هوارد Howard (أحد أبناء إيرل Earl ليسستر Leicster الصغار، والممثل المقيم فى باوتشى، والذى كتب عليه أن نترك عظامه فى "المدافن الأوروبية"). هؤلاء الإقطاعيون، أو بالأحرى حملة الألقاب تحولوا إلى مجرد متطفلين على بلاط قصر الأمير، وكانوا يجبون كل ما يمكنهم جبايته من إقطاعاتهم المبعثرة، عن طريق جباة الضرائب Jakadas. هؤلاء الإقطاعيون جرى تحويلهم إلى حكام مؤسسين Hakimai، أو إن شئت فقل رؤساء أحياء، كانوا يعيشون فى أحيائهم بطبيعة الحال. أنشأ رؤساء الأحياء هؤلاء مُركَّبات صغيرة صنعوها من الطين وفرشوها بحصير من القش Zana، وكانت لهم حاشياتهم الخاصة، وحاولوا فرض الإحساس بالوحدة والاستقلال على سكان منطقة من المناطق، التى جرى تحديدها على خارطة من الخرائط، وجرى تحديدها أيضًا على الأرض. وعلى الرغم من أن الأمير كان لا يزال هو الذى يعين رؤساء القرى فى احتفالات لبس العمامة، فى حضور مساعد الممثل المقيم، أو بموافقة صريحة من رئيس *الحى*، فإن رئيس *الحى* حاليًا هو الذى يعين رؤساء الكفور (العزب)، الذين يسيطرون على أدنى الأقسام الفرعية فى السجلات الضرائبية.

كان الطاهر Ajiya واحدًا من رؤساء الأحياء الجدد هؤلاء. هذا اللقب القديم كان يطلق بين الحين والآخر على راعى خزانة الأمير، أو على القائد المسئول عن التخلص من أسرى الحرب، لكن هذا اللقب لم يعد الآن مقصورًا على أية مهمة من هاتين

المهمتين. طُلب من هذا الطاهر القيام بتهدئة حى لير Lere، كان حى لير واحداً من خمسة مراكز من مراكز الحكم فى باوتشى قبل عهد يعقوب Yakub الأول، عندما كان يطلق على هذا الحى اسم الزجزيجى Zegizegi. أقام هذا الطاهر مركز رئاسته الأول فى بلدة تافاوا Tafawa باليوا Balewa. كان من بين جباة الضرائب، مع هذا الطاهر، رجلٌ محترمٌ، يعاونه بالنصح والمشورة وفى مراسلاته الأعجمية Ajami (الكتابة بالحروف العربية، التى يجرى تربيعها إلى حد ما عن طريق أقلام الغاب لتناسب لغة الهوسا)، ويدعى يعقوب ولد Dan زاله Zala، ومتزوج من امرأة فولانية، تدعى فاطمة Fatima إنّه Inna، (سُجِّلت فى بعض الأحيان على أنها عائشة A'isha، وتعرف فى بعض الأحيان الأخرى باسم إنه Inna بيلو Pelu، وهى من قرية قريبة من قرية زول Zull التى تعد مسقط رأسها). وبحكم التقاليد والعادات الأسرية، كان والد يعقوب ولد زاله، والمدعو عيسى Isa، من الأسرة الحاكمة فى قرية ترون Tiruwn، وكان محبوباً ومفضلاً عند الناس، الأمر الذى مكنه من أن يخلف رئيس القرية بعد وفاته، لكن عملاء منافسه اغتالوه على مرأى ومسمع من أسرته. كانت فاطمة زوجة عيسى قد هربت هى وطفلها إلى باوتشى، حيث رحب بها رئيس حى من الأحياء الأخرى، ثم قام بعد ذلك بتوطينهم فى مركز رئاسة حَيَّة، جانجوا Ganjuwa، فى كافين Kafin مداكى Madaki. وعندما بلغ الطفل العام الرابع من عمره، كان الطاهر قد زار كافين مداكى، وأعجب بالطفل الصغير، وأقنع رئيس الحى المتردد فى أن يسمح له بتنشئة ذلك الطفل فى أسرته، أسرة تافاوا باليوا، التى أصبحت فيها الأم فاطمة تحت وصاية الطاهر ورعايته.

كان ولد زاله Zala، مثل كل من الأمير هو والطاهر Ajiya، باجيرياً، أى من قبيلة جيراوا. ويقول البعض إنه كان يعمل بالجزارة، وكان يحمل لقبًا وضيعًا هو راعى الإسطبلات Garkuwan Shamaki، لكن منزلة ولد زاله باعتباره عبداً مفضلاً فى أسرة من الأسر، منعته من المطالبة بعتقه رسمياً طبقًا للشرع الإسلامى أو القانون البريطانى

الجديد. كان الأمن الفعلى يفوق كثيراً الحرية الرمزية، وسرعان ما ذابت الفروق الحياتية. اللهم باستثناء إتمام الزواج بين عبد وحرة. كان الطاهر واحداً من الأطهار الشهيرين. كان الطاهر فى ذلك الوقت يقترب من عامه الستين، وَشى به أحد رؤساء الأقسام عند الممثل القيم بأنه من "العصاة الذين لا يرعون دينهم لكنه مع ذلك شخصية عظيمة" .

فى العام ١٩١٠ الميلادى، وعملاً بنصيحة الممثل المقيم، قرر الأمير التبرع بمبلغ ١٠٠جنيه إنجليزى من خزانته الخاصة إلى المدرسة النيجيرية الشمالية الحكومية، التى جرى افتتاحها، فى نصراوا Nasarawa القريبة من مدينة كنو Kano، فى العام السابق (المصادف لإعلان قيام اتحاد جنوب إفريقيا برئاسة لويس Louis بوثا Botha (بواسطة هانز Hans فيشر Vischer. كان فيشر، السويسرى المولد، واحداً من العاملين فى جمعية الكنيسة التبشيرية وموظفًا إداريًا حكوميًا، وهو حاليًا يعد الموجّه الأول للتعليم، وكان الرجل قد تلقى تعليماته الأولى من السير فردريك لوجارد: وأنا أكرر هنا، أن تلك التعليمات كانت محددة تماماً، وتقضى بأن الموظف، أو المسئول الإنجليزى، موجود هنا لكى يتعرف على الناس، وأن يقدمهم إلى عالم جديد، وأن الناس عندما يتعلمون ذلك الذى ينبغى لهم أن يتعلموه، يتعين عليهم أن يفترقوا وهم أصدقاء، وأن يكونوا مشغوفين باستمرار روابط الحب والاحترام فيما بينهم. طبقًا للمبادئ والأسس التى جرى اختبارها فى السودان المصرى، والتى جرى تطبيقها فى كل من ساحل الذهب وليجوس Lagos، التحق مائة واثنان من الصبية بمدرسة نصراوا الابتدائية، درس من بينهم سبعة وتسعون تلميذاً المنهج المخصص لأبناء الرؤساء Chiefs، وتعلم ثمانون من كبار المعلمين الطريقة التى ينقلون بها معارفهم العربية والأعجمية إلى لغة الهوسا مستخدمين فى ذلك أحرفًا هوسوية ذات طابع رومانى، كما تعلموا أيضًا إمساك الدفاتر على الطريقة الأوروبية وفتح السجلات على الطريقة الأوروبية أيضًا، وتعلم واحد وثلاثون صبيًا مهارات حرفية من الورشة التى أقامها جى.إيه.جى بيمنستر -Bea

minster، كما تعلم عشرة أولاد المسح والمساحة. وعلى الرغم من هذه الفروق كلها، كان الهدف الأساسى من ذلك كله، هو اكتساب معرفة الرجل الأبيض. وفى العام التالى، تولت إدارة باوتشى المحلية دور القيادة بين السواد الأعظم من الإمارات، وافتتحت خزانتها الرسمية الوطنية الخاصة، أو بالأحرى بيت Bait المال Ul-mal وبذلك أصبحت الخزانة مكتبًا عامًا منفصلاً عن أسرة الأمير الخاصة، وبدأ الأمير يتسلم راتبًا مقدراه ٢٠٠٠ جنيه إنجليزى بدلاً من الجزية المعتادة السابقة. وتوقف أيضًا اعتماد المحاكم الشرعية على احتجاز جزء من الغرامات، أو من الأتعاب التى يجرى الحصول عليها نظير تقسيم الميراث، لكى تستعمل فى صيانة هذه المحاكم. ووصل الخط الحديدى إلى كنو قادمًا إليها من الساحل البعيد، كما بدأ أيضًا بناء مقياس أنف الجبل الصغير المؤدى إلى ناراجوتا Naragutaعلى الهضبة الغربية فى مقاطعة باوتشى. وجرت إعادة تسمية هذه المنطقة بأن أُطلق عليها اسم المنطقة Province المركزية Centralأو الوسطى، وفى العام ١٩١٢ الميلادى سارت السيارة الأولى على ذلك الطريق سالكة الممر الذى عبَّده هيستنجز Hastingsالممثل المقيم المساعد، على ذلك الخط الذى جرى مسحه والمؤدى إلى مدينة باوتشى.

هذا الخط الحديدى ساعد على نقل الصحف التى تحمل أنباءً عالمية جاءت مفاجئة لكل من هيستنجز Hastings ورفاقه - تسليم سلطان مرَّاكش مملكته للحماية الفرنسية، إعلان التبت جمهورية صينية، إنزال مشاة البحرية الأمريكية فى كوبا، إغراق السفينة تايتانك Titanic - أو الغرائب الداخلية فى المملكة المتحدة، والتى من قبيل الإضرابات التى قام بها عمال النقل وعمال الفحم، والتغذية الإجبارية للمناديات بمنح المرأة حق الاقتراع، والمظاهرات التى جرت فى أولستر Ulster، أو إدخال نظام التأمين الوطنى، والفيلق الملكى الطائر، وأول الأفلام الإخبارية البتهانية(*). لم يكن ذلك

(*) البتهانى : هو الأفغانى المقيم فى لندن . (المترجم)

يعنى شيئًا عند أهل باوتشى، الذين كانوا يشغلون بال ناظر المدرسة فى ذلك الوقت، والذى تكرم بعد ذلك بعشر سنوات، بكتابة المقطوعات الافتتاحية من "فاتحة الكتاب". هذا يعنى أن هيستنجز ورفاقه اعترفوا بذلك المجتمع الذى انبثق عن اعتياد الاستبداد وسفك الدماء، الذى لم يكن الرحالة متأكدين من عودتهم منه سالمين. كانت الحياة فى هذه المنطقة تعتمد على زراعة الذرة العويجة (السرغوم) ، والدُّخن – أما الوثنيون الذين يسكنون التلال (باعتبارهم أعداء مستحكمين، بحكم عدم تدينهم) فكانوا يعتمدون على حبوب الآشا Acha الصغيرة، إضافة إلى المحاصيل البقولية الفرعية، والبصل والبطاطس، والكسافا، فضلاً عن كميات محدودة من الأرز والذرة. كانت هناك أيضًا بعض ألياف الراما Rama والقطن. وتضاعف أعداد الماشية، والخيول، والحمير والأغنام. وكان يجرى استخراج الحديد على نطاق واسع. وكانت الأسواق منتظمة وتحت المراقبة. كان لكل حرفة، شأنها شأن كل سوق من الأسواق، رئيسها أو شيخها الخاص بها، والمعترف به من قبل الرئيس Chief، وكان يجرى تعيين مثل هذا الشيخ لتحديد الأتعاب والضرائب وتحصيلها من أفراد مهنته، وهو الآن يتولى مهام الشياخة والمحافظة على المعايير. وكما هو الحال فى الحكم الملكى، أصبحت مسألة الخلافة فى شياخة المهن مقصورة على أبناء "مشايخ النساجين والحدادين، مشايخ الأسواق" السابقين إلخ.

فيما يتعلق بالمهن والحرف، يمكن للصبية أن يتعلموا ويكسبوا عيشهم من الصباغة، والنسيج، والحياكة، ودباغة الجلود، والمصنوعات الجلدية، والحدادة، والجزارة، والبناء، والحلاقة، وحراسة المنازل. وقد بدأ الشبان الصغار فى القبائل الوثنية الفقيرة يعملون فى مناجم القصدير فى الهضبة الغربية. كانت الضريبة المباشرة تهدف إلى تحصيل ما قيمته معشار القيمة النقدية من إنتاج مزرعة الكفر (العزبة) ومزرعة البلد، فضلاً عن تحصيل القيمة نفسها من الدخول الأخرى، كانت ضريبة الماشية تقدر بشلن واحد وست بنسات عن الرأس الواحدة. وبهذه الطريقة استطاعت

الحكومة الحصول من مواطنيها البالغ عددهم حوالى مليون نسمة، على مبلغ يتردد بين ٢٠ ، ٣٠ ألف جنيه إنجليزى، تاركة بذلك نصيب الأسد للخزانات الوطنية. كان العامل غير الماهر يحصل على أجر مقداره ست بنسات فى اليوم الواحد. فيما عدا ذلك كان الدخل النقدى يأتى من صادرات الفلفل، والحصير، "الحرير" الذى يجرى الحصول عليه من أشجار القطن، والفول السودانى، والجلود، والمصنوعات الجلدية، والصمغ، والماشية. فى ذلك الوقت، كانت الواردات التى فى السوق تتمثل فى الملح الخام، الذى يأتى من برنو Borno ومورى Muri، والملح الأوروبى المعالج، وثمار الكولا، والملابس والأقمشة التى كانت تأتى من الجنوب. كان الدخان المُصنَّع والسكر، والدراجات الهوائية، وماكينات الخياطة، والأطباق والأوانى المطلية بالميناء، والساعات أشياء نادرة، ولم يرها الناس إلا بعد أن تعافت التجارة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (التى تنبأ بها بعض الأوروبيين، لكنها جاءت مفاجأة للجميع).

كان ذلك المجتمع مكتفيًا ذاتيًا، وكان دور المرأة فى ذلك الاقتصاد هو دورها المعتاد فى الإسلام القروى: هذا الإسلام الريفى لا يسمح للفلاحين بالتَّعَدُّد فى الزواج، أو باستعمال البُردة الكاملة، لكنه ينشد الحلول الوسط المحترمة، لكنه يعض بالنواجذ على التقسيم الثقافى والجنسى للواجبات المنزلية. كان التأديب على المستوى المحلى والمستوى القضائى يجنح إلى التأديب البدنى، هذا يعنى أن المفهوم الأوروبى الجديد للتأديب وتوقير المكانة كان حقًا طبيعيًا لأولئك الذين قبلوا الفوارق الاجتماعية الدنيوية، فى ثنايا المساواة الروحية فى الإسلام، الذى هو دين الطاعة الدنيوية، مثلما هو دين الاستسلام لله سبحانه وتعالى. يقول الهوساويون: ديننا Addinimmu هو دين Addinin الطاعة Biyayyane. هذه السمات والخصائص كانت أيضًا أمرًا مقضيًا فى الأماكن التى يحظى الدين فيها باتفاق الجميع وإجماعهم عليه، وكان الناس ينظرون إلى التمرد على المجتمع الإسلامى المستقر، على أنه نوع من الكفر والهرطقة. كان التمرد مساويًا للكفر بالله والابتعاد عن طريقه. حلت الطاعة أيضًا على السواد الأعظم من المعادين من

أهل الجبال، الذين لقوا هزيمة منكرة بأيدى قوة كانت أكبر وأقوى منهم بكثير، هذه القوة فرضت عليهم تفوقها الروحى، ومضت تتعلم منهم أسرار قوتهم عن طريق الملاحظة. حكام هذه الشعوب لم يحدث أن جمعوا أو ورثوا ممتلكات خاصة بهم، سوى السيطرة على المنازل والأرض، على الرغم من أن قوتهم كانت عوضًا كافيًا عن ذلك: هذا يعنى أن التجار الأثرياء كانوا يتفقون مع الحكام، لكن هؤلاء التجار ظلوا يواجهون عائقًا غامضًا كان يحول بينهم وبين الوصول إلى المجتمع الراقى. كان السواد الأعظم من البريطانيين الإدوارديين Edwardian لا يجدون غرابة فى ذلك كله، شريطة أن يسود العدل، هذا يعنى أيضًا أن هؤلاء الإدوارديين لم يستاءوا أو يغضبوا من ذلك.

"فاتحة الكتاب" هذه، لها هدف محدد، والقارئ المتعاطف مع هذا الموضوع والمهتم به أيضًا، يتعين عليه ألا ينظر إليها باعتبارها شيئًا مرهقًا أو نوعًا من الإسهاب.

إذ بدون هذه الفاتحة، يصعب على القارئ أن يفهم تمامًا شخصية من الشخصيات التاريخية العظيمة، أو التطور الذى طرأ على هذه الشخصية فى أواخر أيامها. فى شهر ديسمبر من العام ١٩١٢ ولدت فاطمة Fatima إنه Inna، ليعقوب ولد زاله، خادم الطاهر Attahiru، طفله الوحيد. لم تتوقف تقاليد باوتشى وموروثاته وبيئته عن تكوين رؤية هذا الابن للعالم.

حتى بعد أن كبر ذلك العالم واتسع من حوله. وعندما قام "المُعلِّم" Mallam (العالم) بعمل احتفال تسمية الولد بعد ذلك بأسبوع، قال له يعقوب، إن الاسم الذى جرى اختياره من عائلة النبى (ﷺ) وأتباعه، وبالذات اسم الخليفة الأول، والذى تحتم عليه أن يُهْمَس به فى أذن المولود كان اسم أبى بكر.

القسم الأول

السنوات التشكيلية

١٩١٢ - ١٩٤٧

تعلم القراءة !

بدايتك نبات مر، ونهايتك شهد حلو(*)

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

على الرغم من بداية الزحف الأوروبى إلى إفريقيا قبل مولد أبى بكر تافوا باليوا، فإن خبرة السواد الأعظم من النيجيريين بالبيض تعد خبرة صغيرة إلى حد ما. الواقع أن هؤلاء النيجيريين لم يعرفوا أنفسهم على أنهم "نيجيريين"، ذلك أن هذا المصطلح لم يسمع به أحد من قبل. يزاد على ذلك أن أحداً من البريطانيين غير الرحالة لم تكن لديه خبرة أيضًا بالسود من البشر، كما أن هذه الخبرة كانت من الدرجة الثانية أو الثالثة، بل إن هذه الخبرة ربما جاءت من خلال المخاطرة بتوسيع عائلات هؤلاء الرحالة، أو من خلال المعارف الذين جرت حمايتهم، أو تدريبهم، عن طريق السيادة الأسطولية والبحرية على البحار أثناء الخدمة ضمن المصالح الإمبريالية، أو من خلال البعثات أو الجولات التجارية. توسعت الإمبراطورية البريطانية توسعًا آمنًا، إلى حد أن شهامة السياسيين أدت إلى مصالحة البوير Boers، يزاد على ذلك أن مواطنى هذه الإمبراطوية العالميين متنوعى الجنسيات كانوا يحكمون على هذه الإمبراطورية على أساس من وطنية المستعمرات البيضاء التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى، والتى أوشكت على تبرير تلك العقيدة طوال فترة الحرب العالمية الأولى. كانت آراء البريطانيين فى سكان المستعمرات أو المحميات الأخرى، أو حتى فى الهند بعد مضى ثلاثة قرون، مبنية على الاعتراف بأن هؤلاء الأغراب البعيدين كانوا مختلفين عنهم تمامًا من الناحية البدنية، وأن أساليب حياة هؤلاء الغرباء مختلفة عن أسلوب حياة البريطانيين، وكان البريطانيون يعترفون أيضًا باختلاف معتقدات هؤلاء الغرباء البعيدين وقيمهم: كانوا يدركون أيضًا أن الأيدولوجيات يمكن أن تنبثق عن مثل هذه الملاحظات، لكن المقارنات النوعية المعاكسة – فى الأماكن التى ظهرت فيها – كانت بمثابة النتائج النهائية، ولم تكن أسبابًا أولية. كانت المملكة المتحدة تجىء على رأس، أو بالأحرى فى مقدمة السيطرة الصناعية

والثقافية العالمية من جانب غرب أوروبا، وكان هؤلاء قلة قليلة من الاقتصاديين الذين كانوا يشككون فى أسس هذه السيطرة.

صحيح أن المنافسة الألمانية والحقد الفرنسى لم يكونا غائبين، لكنهما لم يخيفا البريطانيين. هذه القلة القليلة من النيجيريين الذى عرفوا شيئًا ميسورًا عن المقيمين البيض بينهم قد لا يعرفون سوى القليل عن الألمان والفرنسيين، لكن هذه المعرفة القليلة قد تكون بالنيابة عن الآخرين ومن طريق السمعة وذيوع الصيت ليس إلا. كانت روسيا الإمبرالية هى والولايات المتحدة مجرد مفهومين يمكن أن يعرف عنهما بعض التلاميذ النيجيريين أشياءً من خلال المعلمين المسيحيين، وما يعرفه هؤلاء التلاميذ النيجيريون عن كل من الصين واليابان، ربما يكون ذا صلة برؤى الأوبريت الشعبى البريطانى عن كل من "سان San توى Toy" و"الميكادو" The Mikado. لو عاد السواد الأعظم من النيجيريين بأذهانهم فى العام ١٩١٢ الميلادى، إلى مائتين أو ثلاثمائة عام إلى الوراء لما وجدوا شيئًا غريبًا على البيئة. على الرغم من قلة عدد المسئولين الاستعماريين البريطانيين، وقلة الوسائل المتاحة لهم، فقد ظنوا أنهم سيكونون قد حققوا المهمة المكلفين بها إذا ما بدأ السلام والعدل يسودان بين الناس. هذا يعنى أن التغيير والتقدم لا يمكن قياسهما إلا بعد قرون من الزمان. أو هكذا كان يبدو لهم الأمر.

قبل جيل أو أكثر قليلاً من الزمان، وعندما كان أبو بكر شابًا يافعًا، كانت هذه الصورة بكاملها تبدو له ضربًا من الخيال الذى لا أساس له، على الرغم من وجود أناس كانت مخيلاتهم أو بالأحرى عنادهم يسوغ لهم الاستمرار فى ذلك التخيل. كانت القدرة الفنية والعلمية على الاختراع، التى مكنت قلة قليلة من الدول الغربية، من خلق ثروة غير مسبوقة من ناحية، والانتصار سياسيًا واقتصاديًا من الناحية الثانية، قد جرى اكتسابها من قبل شعوب أخرى. هؤلاء الحاضرون المترقبون استطاعوا أيضًا تجنيد المزيد من الكتائب وتشكيلها. وجرى تبديد القسم الأكبر من الثروة التى كدَّسها البريطانيون كما أُعيد توزيعها على أراضٍ أخرى خلال طوفانيين حربيين ظن الناس

أنهما هما اللذان أنقذا تقاليدهم الخاصة بالحرية والتسامح، من براثن نِحَلٍ أخرى أشد قسوة وغير ليبرالية. وعلى الرغم من أن الموارد يمكن الاقتصاد فيها أو ترشيدها، فإن الثروة النسبية لا يمكن استعادتها بأى حال من الأحوال. هذا يعنى أن اليقينيات الأخلاقية التى كانت تستوحيها أدوات انتصارات ما وراء البحار السابقة، ضعفت بسبب التغيرات التعليمية الكاسحة التى طرأت على مساءلة الذات، وهذه المساءلة لم تستطع الصمود فى وجه المعارضة الجديدة، من جانب أناس لديهم تقنيات مساوية لكنهم أيضاً مبرأون من الشكوك.

لم يطرأ أى تغيير يذكر بعد إلغاء الفلسفة الأساسية التى أرساها لوجارد Lu-gard – تلك القوة الحيوية فى السنوات السابقة – هو أتباعه، والتى أطلق عليها اسم "الانتداب المزدوج" أو بالأحرى "الانتداب الثنائى". وبغض النظر عن هذا التعريف (فقد كانت له مثل " الحكم غير المباشر" تعاريف متعددة)، فإن هذه العقيدة حافظت على التبادلية العادلة فى العلاقة الاستعمارية، بأن راحت توازن بين المكاسب الاقتصادية المادية لكل من الحكام والمحكومين مستخدمة من ذلك مجموعة من الموازين الواقعية، هذه العقيدة حتمت أيضاً إشراك المستفيدين من الموضوع، وتثقيفهم فى التمتع، بذلك الذى يراه الجميع على أنه حضارة عالمية. وفى العام ١٩٤٦ دُرِس هذا الأمر دراسة متأنية، وجرت مناصرته، فى أفضل أحواله، على أنه مرحلة تاريخية مهمة.

كان السواد الأعظم من البريطانيين فى الوطن، لا يزالون يعتقدون أنهم وحدهم، وفى ظل التوجيه والإرشاد، قد أصبحوا فى المقدمة، وأنهم قادوا دول الكمنولث، ومن بعدها العالم الحر، إلى انتصار كلى ثان، ومنه إلى الأحقية الثابتة فى مقعد من مقاعد السلطة العالمية الخمس. ظن كثير من النيجيريين أيضاً أن التقدم الضطرد صوب التحسن أصبح أمراً مضموناً، لكن هناك كثيرون أيضاً يرون أن ذلك التحسن لا يمكن أن يجىء مفاجأة، هذا يعنى أن مثل هؤلاء الناس لم ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم أفراداً نيجيريين، على الرغم من أن هذا المصطلح كان أمراً مقبولاً ومسلماً به – من

منطلق أنه مظلة (إذ كان النيجيريون لا يزالون يتقاسمون ما يزيد على ثلاثمائة تجمع لغوى). أقليات هاتين المجموعتين من الناس، قد يكون لها فكر مختلف عن الفكر الجماعى، وقد يغلب عليها الحديث الآسى، عن "الرضا" أو "الإشباع الذاتى" : هذا يعنى أن المتشككين المطلعين فى كل من أمريكا وآسيا كانوا مقتنعين تماماً أن المنحدر فيما بين العام ١٩١٢ والعام ١٩٤٦ فى العلاقات البريطانية مع المستعمرات الإفريقية كان يفضى إلى ما يشبه الجرف، لكن الأطراف الثلاثة لم تكن صديقة راضية عما يدور وآثرت الانتصار ترقبًا للنتائج. لكن، فى النهاية، يجب أن نعرف أن التنبؤات قد لا تتحقق دومًا فى معظم الأحيان.

هذا لايعنى أن نبعد عن الذهن، أو بالأحرى نغفل ذلك المنظور الطويل ونحن نتفكر فى ذلك التطور الذى حدث على امتداد جيل واحد من حياة رجل كان يعيش فى جزء واحد من بلد واحد كان لا يزال مصطنعًا. كان ذلك البلد عبارة عن كتلة مهمة من العملية الإنتاجية الجيولوجية المتعجلة التى نضفى نحن عليها الطابع الإنسانى الذى نسميه نحن الصعود والنزول المتتالى للعوالم والممالك. لكن الخلفية فى القسم الأول من هذه السيرة تقتصر على منطقة باوتشى، ومعروف أن المنظور القصير، هو الذى تكون له قيمة ومغزى فى مطلع حياة أى إنسان من البشر .

الفصل الأول

أبو بكر صبى

إذا ما حصلت على ضمان من الروح الشريرة تصبح قادرًا على دخول الماء آمنًا(*)

تشتق منطقة تافاوا باليوا اسمها من كلمتين فولانيتين Fulfulde هما: كلمة Tafa-ri التى معناها "صخرة" وكلمة Baleri، ذات الـ B الشفطية داخلية الانفجار، والتى معناها "أسود". فى زمن ما من القرن الثامن عشر اتخذت جماعة من الرعاة الفولانيين لنفسها مستوطنة دائمة على مقربة من صخر أسود هائل يقع على بعد مسافة تقدر بحوالى أربعة وسبعين كيلاً متريًا جنوب غربى مدينة باوتشى. هذه القبة الصخرية الجرانيتيه التى ربما يصل عرضها إلى حوالى مائتى متر، تقع فى كوع من كيعان نهر لير Lere. كان القرويون (الذين كان السواد الأعظم منهم من مسلمى قبيلة جيراوا Ge-rawa)، عندما ينظرون عبر النهر فى الاتجاه الجنوبى الغربى، يرون على بعد ثلاثين مترًا، جبال الهضبة "الوثنية" التى يبرز من بينها جبل بانكشين Pankshin. هنا وإلى وقت قريب جدًا، وفى عز موسم الأمطار، كان لباس الرجل المختَّن عبارة عن غلاف مضفور من الأعشاب أو من نبات اليقطين. كانت النساء بحكم العادة، تلبس الواحدة منهن كل يوم مجرد عقدين من أوراق الشجر الخضراء ليسترن بها أعضاءهن السرية

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

ومؤخراتهن. وعلى الرغم من أن نهر لير كان ينزل إلى هذه المنطقة قادمًا إليها من منبعه فى التلال الباردة القريبة، فإن التواصل بين السكان البريين فى هذه التلال وبين سكان الوادى كان جد قليل. نهر لير هذا الذى يجف فى فصل الشتاء، سرعان ما يفيض فى موسم الأمطار، ويتجه مسرعًا نحو الشمال الشرقى لينضم إلى بعض روافد الأنهار الأخرى، ثم ينحرف انحرافًا دائريًا متحولاً إلى ما يسمى نهو جنجولا Gongola فى المنطقة الواقعة خلف جومب Gombe، ويصب ماءه فى نهر بنيو Benue فى نهاية المطاف. تقع جروف داس Dass الشهيرة على الطريق المؤدية إلى باوتشى، وهذه الجروف تدار منذ العام ١٩١٣ الميلادى باعتبارها رئاسة مستقلة من الرئاسات غير المسلمة. لكن على مقربة من تافاوا باليوا، توجد قُنيَّة صغيرة من ذلك المجرى المائى، تمر عبر أراضى قبيلة معادية أخرى، هى قبيلة السيَّاوا Seyawa، وهى فرع جراوا Ja-rawa المستقرين حول بوجورو Bogora . هؤلاء هم الجيران الذين خطروا ذات يوم على بال أبى بكر، ذلك المدرس الشاب، يوم أن كان فى لندن وراح يكتب المقطوعة التالية :

المناطق الشمالية من نيجيريا فيها كثير من القبائل الوثنية، التى لا تزال على حالها البدائى. هؤلاء الوثنيون يكادون لا يلبسون شيئًا، ويندر أن يغادروا منازلهم، احتياجات هؤلاء الوثنيين قليلة جدًا وهم يعيشون فى سعادة قانعين تمامًا بحياتهم. هؤلاء الناس لهم عاداتهم ومعتقداتهم التى يُجلُّونها إجلالاً كبيرًا. تاريخ هؤلاء الناس يقول : إنهم دخلوا حروبًا ضد القبائل الوثنية الأخرى التى تجاورهم. وقد وصلت الحرب مؤخرًا إلى بلاد هؤلاء الوثنيين، فى القرن التاسع عشر، أثناء قيام الإمبراطورية الفولانية – السُكُتيَّة Sokota. هذه القبائل الوثنية، لا تزال متماسكة إلى يومنا هذا على الرغم من استمرار تسلل الهوسا المتقدمين والحضر الفولانيين داخل ذلك المجتمع كى يفسدوا السمات القديمة الجيدة التى حافظت عليها هذه القبائل. هذه القبائل الوثنية لم تعتنق أو تأخذ أى شىء من أشياء الناس الأكثر تقدمًا الذين يحيطون بهذه القبائل.

هذا النظام القبلى لا يزال على حال ممتاز مثلما كان منذ قرون من الزمن. لا يزال الكبار أصحاب سلطة وقوة فى تلك القبائل. لم يحدث مطلقًا أن فكرت تلك القبائل فى تغيير أى معتقد من معتقداتها. يزاد على ذلك، أن هؤلاء الوثنيين أمناء تمامًا لأنهم لم يتعرفوا بعد طرق المكر والخداع التى ينتهجها الإنسان الحديث. وعلى الرغم من أن هؤلاء الوثنيين لا يعرفون شيئًا من قوانين التصحاح فإنهم أحسن صحة من جيرانهم الأكثر تقدمًا، ويعيشون فى بلدان، وفى منازل أفضل من منازلهم، ويأكلون طعامًا أفضل من طعامهم. ويندر العثور على الأمراض الجنسية بين هؤلاء الناس - سوف نعد هؤلاء الوثنيين الشعب الهوسوى الأصيل فى منطقة الهوسا أو فى نيجيريا بشكل عام - هؤلاء الوثنيون لهم مدارسهم الخاصة بهم، والتى يجرى فيها تعليم الأجيال المستقبلية وأسلوب حياة هؤلاء الوثنيين ومعتقداتهم، وقواعدهم. الكبار، هم الذين يقومون بالتدريس فى هذه المدارس. وقد جرت العادة أن يبدأ ذلك التعليم عندما يصل الطفل سن التاسعة. سن التاسعة، هو سن ختان الذكور عند الوثنيين. فى ذلك الوقت يجرى تجميع أطفال القبيلة كلهم، الذين يكونون فى هذه السن، ويجرى نقلهم إلى داخل الغابة، فى مكان منعزل يجرى ختانهم فيه. ويجرى ترك الأطفال، على هذا الحال وحدهم، لمدة أربعة أسابيع. يقومون خلالها بتدبير أمورهم بأنفسهم. وخلال هذه الفترة يقوم أشخاص بعينهم بزيارة هؤلاء الأطفال. وبذلك يجرى اختبار هؤلاء الأطفال فى كثير من الأمور. يجرى اختبار قدرتهم على تحمل الآلام، والجوع والعطش. ويجرى تدريبهم على الشجاعة والعمل الشاق. واقع الأمر، أن الأطفال يجرى تدريبهم خلال هذه الفترة على كل شئون قبيلتهم وأسرارها. بعد هذا التدريب الذى يستمر أربعة أسابيع، جرت العادة أن يقام حفل كبير تقيمه القبيلة وتدعو إليه القبائل الأخرى كلها من القرى المجاورة. يصبح الأطفال المختنون بعد هذا الاحتفال أعضاءً فى القبيلة. وهذا هو الموعد الذى يعطى الآباء فيه الأبناء حرية زراعة مزارعهم الخاصة بعد قيامهم بالعمل المطلوب منهم فى مزرعة العائلة المشتركة. والأبناء يتباهون بالوصول إلى هذه المرحلة من العمر. وتقوم العائلة بإهداء الطفل المختن مريالاً من الجلد إشارة إلى الاعتراف بعضوية الابن

فى القبيلة، ويجرى تسليم ذلك المريال فى يوم الاحتفال الكبير. والأبناء لا ينسون مطلقًا ارتداء تلك المرايل فى المناسبات الكبيرة، وعندما تتهيأ لهم فرصة الذهاب إلى المدينة.

عندما كان أبو Abu(*) فى الرابعة من عمره اضطرته مهام والده إلى العودة للإقامة بصفة دائمة فى مجمع الأطهار Ajiya فى تافاوا باليوا. كان ظهور رجال السَّياوا Seyawa وشبابهم أمرًا مألوفًا فى الأيام التى يقام فيها سوق المدينة، وفى السَّفنَّاء، أو إن شئت فقل الأراضى المعشوشبة القريبة من المجمَّع. فى أيام السوق هذه يرتدى الأبناء كلهم المرايل المصنوعة من جلود الماعز، والتى يجرى ربطها على بطونهم بواسطة الأظلاف الخلفية، بحيث يكون العنق متدليًا إلى الأمام، بين أرجلهم، باعتبار ذلك إشارة إلى التواضع، ثم يعاد العنق مرة أخرى إلى منطقة العقدة، ويجرى تفصيل الجلد وقطعه بطريقة دقيقة وتزيينه بالصبغة والرسوم الجيرية. هذه الصورة الوجدانية البدائية النبيلة نشأت عن مشاهدات الطفولة، ولم تنتج عن قراءة جان جاك روسو Rousseau أو عن قراءة الباحثين الأنثربولوجيين الميدانيين القدامى. كان الطفل آبو Abu إلى فطامه وقيام حلاق القرية بتختينه، يقضى السواد الأعظم من وقته شبه عار من الملابس، اللهم باستثناء أيام الجُمع وأيام الأعياد. كان من عادته الجرى هنا وهناك فى قسم النساء من المجمع، أو حول جدرانه، أو يخاطر بالخروج من المجمع إلى مكان الاجتماع واللقاء فى القرية، حيث الظل الوارف الناتج عن أشجار التين، أو قد يذهب إلى السوق فى رعاية أمه. وعندما كان آبو Abu يتجول هو بنفسه بصحبة الصغار الآخرين، كانوا يتسابقون فى العودة إلى المجمع طلبًا للأمن والسلامة. كان آبو فى ذلك الوقت يحمل على خده الأيسر العلامات الوشمية التقليدية المميزة لشعبه وناسه. وعندما أصبح صبيًا، كان يجد متعه فى مصارعة الصبية، وفى لعبة اللانجا Langa المحببة إلى

(*) أبو Abu: هذا هو الاسم المختصر الذى يشير به المؤلف إلى "أبى بكر تافاوا باليوا" . (المترجم)

الأطفال الصغار، والأطفال فى هذه اللعبة يحجل الطفل، وإحدى يديه ممسكًا بالقدم الأخرى ويحاول كل واحد منهم ملامسة الأطفال الآخرين وجعلهم يحبون على الأرض.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى العام ١٩١٤ الميلادى حتمت ألا يصبح الجنود مجرد حماية لباوتشى، وإنما تحولوا إلى مكتب تجنيد صغير يعمل لصالح الحملة الموجهة ضد الألمان فى الكاميرون Kamerun، أو إن شئت فقل: مستعمرة القيصر الواقعة بين نيجيريا والمستعمرات الاستوائية الفرنسية الواقعة فى الشرق وفى الجنوب. كان الرجال يجرى توريدهم من أجزاء كثيرة من المقاطعة (المنطقة)، على الرغم من أن السواد الأعظم منهم كانوا من "الوثنيين". كانت الموجه الأولى هى قوات الحدود الإفريقية الغربية بين القوات البريطانية والقوات الفرنسية، التى استولت على ميناء دوالا Duala فى شهر سبتمبر. أما الموجة الثانية من تلك القوات فكانت من بين تلك القوات التى قامت فى بداية الأمر باحتلال الجزء المتبقى من المستعمرة الألمانية، بعد أن جلت عنها القوات الألمانية فى العام ١٩١٦ إلى ريو Rio ميونى Muni) أو إن شئت فقل غينيا الإسبانية، التى هى عبارة عن خليج ساحلى فى الأراضى الفرنسية فى الجنوب)، وجرى نقل هذه الموجة بالسفن إلى منطقة الرأس Cape كيما تساعد على تمشيط شرقى إفريقيا وإخلائه وتطهيره من القوات المعادية. كان السير فردريك لوجارد يخشى حدوث أثر معاكس على الإمارات الإسلامية إذا ما أعلن البريطانيون الحرب على الإمبراطورية التركية الإسلامية، التى ادعت وراثتها الخلافة الأولى. واقع الأمر أن هذا الأثر المعاكس لم يحدث. وحدث بدلاً من ذلك ازدهار ورواج فى البداية، فى أسعار القصدير التى وصلت إلى ٤٠٠ جنيه إنجليزى للطن الواحد، وذلك على الرغم من النقص الذى حدث فى السلع المستوردة، ومن ثم ارتفاع أسعارها. يزاد على ذلك، أن "المجهود الحربى" كان له تأثير شعبى كبير على أهل باوتشى، وكان ذلك التأثير أكبر بكثير من التأثير الذى نجم عن توحيد محميتى شمال نيجيريا وجنوبى

نيجيريا مع مستعمرة ليجوس Lagos، وبخاصة أن هذه العملية اشتملت أيضًا على ضم ولاية إجبا Egba، في منطقة أبيوكوتا Abeokuta بعد مذبحة إيجيمو Ijemo التي فتحت فيها القوات النار على المتظاهرين.

ونحن عندما نتطلع قليلاً، نجد أن إعلان ملنر Milner – سيمون Simon في العام ١٩١٩ يُرَسِّم الحدود بين تلك الأجزاء من الكاميرون الألمانية التي تحتلها وتديرها القوات البريطانية والقوات الفرنسية كل على حدة: كانت المنطقة البريطانية تعادل حوالي سدس الكاميرون، وكانت مع شيء من التعديل الطفيف تشكل منطقة الانتداب "ب" التي كانت من نصيب المملكة المتحدة في العام ١٩٢٢ بمقتضى المادة رقم ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم. أما أقصى الجزء الجنوبي من الكاميرون، والذي كان مجاوراً لمقاطعات كل من كالابار Calabar، وأوجوجا Ogoja، وبنيو Benue فقد كان يدار على أنه مقاطعة الكاميرون، ثم أصبح واحداً من المقاطعات الجنوبية، والسبب في ذلك، أن جزءًا صغيرًا من الشمال جرى ضمه إلى مقاطعة بنيو، كما جرى ضم مساحة كبيرة من الأراضي إلى كل من مقاطعة برنو Borno وأدماوا Adamawa. وفي العام ١٩٢٤ الميلادي نجد أن القانون البريطاني النيجيري ينسخ ما تبقى من القانون الألماني.

في العام ١٩١٣ الميلادي، كان المجلس Council النيجيري Nigerian قد أنشئ باعتباره هيئة وطنية داعمة للمجلس التشريعي Legislative في مستعمرة ليجوس، والذي بلغ من العمر خمسين عامًا (والذي كان يمثل منذ سنوات قليلة المحمية الجنوبية، لكنه أصبح الآن متداخلاً مع مجلس المدينة)، كان من بين أعضاء المجلس النيجيري الستة والثلاثين، ستة من الرؤساء Chiefs غير المسئولين الأفارقة، وستة من غير المسئولين الأوروبيين، وكانت مهام ذلك المجلس استشارية ومتروية، ولم تكن له سلطات تشريعية أو مالية. وراح حاكم نيجيريا العام يتحدث في المجلس النيجيري وتوقف عن الحديث إلى المجلس التشريعي. لم يكن المجلس النيجيري يحتوي على أي إفريقي من الشمال، وعليه فإن تعيين لوجًا Lugga حاكمًا Gwammantkko لليجوس، لم يكن له أي

معنى فى باوتشى. لكن سى. أل. تمبل Temple الحاكم المساعد للوجا، وأول ممثل مقيم فى باوتشى، كان مخولاً بعض السلطات بحكم أنه كان حاكماً لكادونا Gwamman Ka-duna (التى انتقلت إليها عاصمة الشمال بعد أن كانت فى زونجيرو Zungeru) على كل شيء فيما عدا الخدمات العامة الضرورية، وإذا ما نحينا جانبًا خدمتى البريد والبرق نجد أن الخدمات العامة لم يكن لها نصيب يذكر فى باوتشى بأى حال من الأحوال. ويجيء اليوم الذى يقال فيه إن الجنوب سوف يُعان من الشمال، لكنه يوم أن حدثت الوحدة يمكن القول: إن هدف لوجارد من تلك الوحدة، كان على العكس من ذلك تمامًا، لكن فى وجود حوالى ٥٠٠٠٠ طفل نيجيرى فى المدارس، وما يزيد على مائة وخمسين سريراً فى المستشفيات، وتسجيل ما يزيد على ١٠٠٠٠٠ مريض خارجى، وفى ظل عدم مجيء إحصائيات من هذا القبيل من الشمال، يظل الجنوب هو المُعين وليس المُعَان.

تُرك التعليم فى المناطق الشمالية غير المسلمة، شأنه شأن المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار، إلى بعثات التبشير المسيحية: ومن جانب آخر، جرى تحديد بعض مناطق النفوذ تحديداً واضحاً، وذلك منعًا للتنافس الخفى على الموالين، الأمر الذى كان يشوه جهود تلك البعثات التبشيرية فى الجنوب. بقى التعليم الغربى فى الإمارات محلاً للشك، وكان يسير ببطء شديد جداً. فى العام ١٩١٥ جرى افتتاح أول مدرسة للسلطة المحلية فى باوتشى، وكانت تلك المدرسة فى منزل رئيس حى جانجوا Ganjuwa . وجرى تعيين هيئة عاملين فى هذه المدرسة من التلاميذ السابقين فى مدرسة كنو الحكومية الذين كانوا قد عادوا إلى موطنهم فى العام ,١٩١١ حدثت أثناء الحرب انتفاضة أو اثنتان مهديتان Mahdism أثناء الحرب العالمية الأولى، لكن السلطان هو والأمراء ساعدوا على إخمادها. فى العام ١٩١٦ تمثل أشهر الحوادث المحلية فى مذبحة الفيلة، التى وافق عليها النقيب Captain لونسديل Lonsdale الذى غضب للتلف الذى نزل بمزارع الجنوب: فى العام التالى كشف البريطانيون عن احتقارهم المعتاد للثبات على المبدأ والاستقامة بأن نقلوا مركز رئاسة الممثل المقيم إلى باوتشى مرة ثانية بعد أن كان

فى مناجم القصدير فى ناراجوتا، وعن طريق فرض احترام القيود الموضوعة للصيد (بما فى ذلك حماية الفيلة). فى العام ١٩١٨، وعندما كان لوجارد يفكر فى مد خط حديدى يمتد خلال باوتشى ليصل إلى الشمال الشرقى، كانت أول مدرسة حكومية على مستوى المقاطعة فى بلدة يالوا Yalwa وكانت تدرس منهجًا "ابتدائيًا" رسميًا، وبلدة يالوا هذه تقع فى جنوبى باوتشى فى اتجاه جبل بيول Bule. ومع حلول العام ١٩٢٠ جرى افتتاح "المدرسة الأولية" الأولى التابعة للإدارة المحلية، فى مدينة باوتشى، وفى تافاوا باليوا، علاوة على بعض الأماكن الأخرى. فى العام ١٩٢١ تخلى الجنوب عن باوتشى ونقلوا الحامية إلى برنو Borno. واعتبارًا من العام ١٩١٧ الميلادى كان الأمير قد بدأ إشرافه على تحويل الطريق القادم من جوس Jos إلى طريق الصخر أحمر اللون، الصالح لسير السيارات، بتكلفة تقدر بحوالى ٤٢ ألف جنيه إنجليزى تحملتها الخزانة المحلية فى العام ١٩٢٥ . فى ذلك الوقت، كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت وعادت القوات إلى أوطانها، مصطحبة معها ثقة جديدة ومهارات جديدة، لكن هذه القوات عادت أيضًا بوعى وإدراك للعالم، مفاده أن العالم أوسع، بل وربما أكثر هولاً مما كان عليه بعد أن قامت تلك القوات بالسيطرة على والتحكم فى الدول الاستبدادية المحلية. أعقبت ذلك فترة قصيرة من الرخاء والبناء. وأصبح النقل بالخطوط الحديدية بمثابة "البنية التحتية" الرئيسة فى مسألة النمو الاقتصادى والتنمية التجارية، وذلك على الرغم من الإضراب الأول الذى قام به عمال السكك الحديدية فى العام ١٩٢١، لكن النقل النهرى ظل مقصورًا بصورة أساسية، على الأسفار والانتقالات الإدارية. وهكذا نرى أن التجديد المهم الذى طرأ على التعليم فى الجنوب كانت له بعض الانطباعات والمضامين لدى الأجيال التى جاءت بعد ذلك: هذا يعنى أن إدخال المعالجة الموحّدة للهجات لغة اليوروبا، جعل الكثيرين من أطفال إليشا Ilesha والأجبو Ijebu يعرفون أنفسهم بأنهم من "اليوروبا" Yorubas، ذلك الاسم الذى كان مقصورًا فى يوم من الأيام على مملكة أويو Oyo القديمة. وفى عشرينيات القرن العشرين أيضًا، وعلى

الرغم من اكتشاف دورة حياة الرّغوى(*)، فإن الجهود المتدرجة، بذلت للمرة الأولى، فى مجال فرض السيطرة على البعوض والتحكم فيه باعتبار ذلك إجراءًا وقائيًا ضد الملاريا فى المناطق الحضرية من غرب إفريقيا.

كان كثيرون من أقارب أبى بكر وأصدقائه، فى شمال نيجيريا يعرفون أشخاصًا كثيرين يحملون هذا الاسم وكانوا يكنونهم جاربا Garba (مثلما فعلنا نحن عندما حولنا أسم إدواردز Edwards إلى نديز Neddies)، لكن ولد يعقوب ولد زاله لم تطلق عليه هذه الكنية مطلقًا، على الرغم من استعمال المختصر "آبو" Abu فى بداية الأمر. وعليه، كان ينضم إلى جماعة كانت تتحلق حول مدرس ملتحٍ يحمل كتاب السِّيَر الشعبية وسوطًا، ويروح آبو يحفظ السورة الأولى من القرآن هى وبعض النصوص الأخرى عن ظهر قلب - بالطريقة نفسها التى حكينا عنها فى فاتحة الكتاب. ومن يمن طالع أبى بكر أنه لم يحدث قط أن غادر موطنه بصحبة أى أحد من علماء القرآن، الذين كانوا يؤثرون القيام برحلات تعليمية بعيدة، بل وخطيرة أيضًا بصحبة مجموعة من الأطفال الشحاذين. كان اسم آبو Abu يذكر الطاهر بجده، وكان رئيس الحى يزداد إعجابًا بالصبى إلى حد كبير. وقد وصل هذا الإعجاب إلى ما يقترب جدًا من "العلاقة المرحة" التى تربط الجد بالحفيد فى الثقافات العالمية كلها التى تحتم رؤية الأحفاد ولا تحتم الاستماع إليهم، (والتى يكون الحب الأبوى فيها مصحوبًا بالتخويف والنظام، الأمر الذى يجعل الطفل يهرب من الأب تجنبًا للوم والتأنيب). كان آبو يحب جَدَّته حبًا جمًا، والتى تكلم عنها فى فترات لاحقة بأنها كانت المصدر الباكر لمعرفته بالفلكلور والموروث المحلى، كما تكلم أيضًا عن رعايتها الرقيقة الحانية له. كانت جدته تجعله يتفكر، فى شىء من الحب، فى كل أولئك المحيطين به، من خلال موهبة التأمل التى جُبل عليها.

(*) الرّغوى : كتلة من البروتو بلازما تتكون من اندماج عدد من الخلايا النُّمُورانية ، أو باختصار جرثومة الملاريا. (المترجم)

حدث في يوم من أيام العام ١٩٢٢، أي بعد عام من هبوط أسعار شراء الفول السوداني (ذلك المحصول الذي تتزايد أهميته في منطقة السفانا) من ٤٨ جنيه إنجليزى إلى ١٢ جنيه إنجليزى للطن الواحد، وبعد أن تبددت آمال الممثل المحلى المقيم في حدوث نوع من الرواج، حدث أن قام أحد المشرفين الإقليميين على التعليم، وهو السيد/ إريك Eric ل. مورت Mort، برحلة على ظهر الحصان، مبتعداً عن طريق باوتشى، وسالكًا طريقًا آخر إلى بانكشين. اصطحب أريك ل. مورت معه حمَّاليه، وصناديق طعامه Chopboxes (هذه الكلمة المهجنة "Chop" التى معناها "طعام" و "يستهلك") وذهب لزيارة مدرسة تافوا باليوا الأولية. كان ولد الطاهر الثانى، المدعو الزبير Zubairu، قد جرى تعيينه أول ناظر لهذه المدرسة، قبل عامين لم يكن أغنياء الشمال يخاطرون دومًا بإتلاف أبنائهم بإرسالهم إلى مدرسة (أجنبية)، كانت هناك إحباطات وفشل كبير بين بعض من أبناء الرؤساء Chiefs، كما لم يكن استبدال أبناء الخدم بأبناء الملوك أمرًا غير معروف. من جانب آخر، كان الطاهر قد علَّم أيضًا وَلَدَه الأكبر يوسف Yusufu، والذى أصبح فيما بعد أمينًا لخزانة جوس Gas، وبذلك يصبح لدى الزبير وظيفة شاغرة في سجله المدرسي. وجد أريك مورت الطاهر Attahiru جالسًا على حصير أمام بوابة منزله المصنوعة من الطين، وكان يلعب مع آبو Abu البالغ من العمر تسع سنوات، وقال له: "أعطنى الولد لألحقه بالمدرسة!" واعترض الطاهر على ذلك الطلب قائلاً: "إنه ولدى !Danane" ؛ ومع ذلك كانت تلك هى الطريقة التى جرى بها إلحاق الولد بالمدرسة.

هذه الطريقة الواضحة لا تنطوى على أية لحظات تاريخية متعارضة أو متضاربة. وعلى العكس مما تروجه بعض الأساطير لم يكن آبو Abu بديلاً عن طفل أمير آخر متردد، وعلى العكس ما تروجه أسطورة أخرى (لم يحدث أن أنكرها آبو قط)، فإنه لم يكن ولد رئيس حى من الأحياء، وإنما كان ولداً لخادم محبوب فى منزل رئيس الحى.

فى ذلك الوقت كان كثيرون من الجيران والأصدقاء يعطفون على الصبى ويشفقون عليه لأنه وقع الاختيار عليه للقيام بشىء غريب تماماً من هذا القبيل. لم يخطر ببال أحد من الناس الحظ المحتمل لقاء كون هذا الصبى واحداً من الثلاثة أو الأربعة آلاف، وكلهم من الذكور، الذين التحقوا بالمدرسة فى شمال نيجيريا دونًا عن سائر السكان الذين يقدر عددهم بحوالى عشرة ملايين نسمة. كان عدد المعلمين الحكوميين البريطانيين فى الشمال لا يزيد على أربع وعشرين معلماً. وفى بريطانيا أيضًا جرى رفع سن الانتهاء من المدرسة إلى سن الرابعة عشر اعتباراً من الحرب العالمية الأولى، كانت المرأة الأولى Mp لا تزال أعجوبة، وكانت مسألة الحصول على فرصة مساوية أمراً صعبًا مثل الحظ المتساوى. كان بوسع آبو أن يقضى أيامه كما لو كان ابنًا لواحد من رؤساء الأحياء أو حتى مجرد "صبى" لذلك الرئيس، أو البقاء كفلاح. وبفضل التدخل العارض الذى جاء مصادفة من جانب إريك مورت تمكن آبو من تمضية ثلاث سنوات فى تعلم القراءة والكتابة بلغة الهوسا باستعمال الحروف الرومانية، كما تعلم أيضًا العمليات الحسابية البسيطة، وتعلم أيضًا عناصر التدريب البدنى الغربى، وجرى تذكيره بدروسه القرآنية كما جرى تعليمه عمليًا (بفضل حديقة المدرسة) طريقة نمو الزهور والطعام. لم تكن اللغة الإنجليزية تدرَّس فى المدرسة، ولم يجر تعليمه أى نوع من أنواع السلوك أو التصرفات التى يمكن أن تباعد بينه وبين أقاربه غير المتعلمين أو جيرانه غير المتعلمين. كان آبو لا يزال صبيًا قرويًا، من أولئك الذى يستحمون فى النهر، ويتسلقون الأشجار: حدث أن سقط آبو ذات يوم من فوق فرع من الأفرع، وهوى إلى الأرض على الصخر دون أن يصاب بأى كسر من الكسور.

فى العام ١٩٢٣ جرى استبدال المجلس النيجيرى هو ومجلس ليجوس التشريعى القديم بمجلس تشريعى واحد، جرى فيه انتخاب ثلاثة أعضاء عن ليجوس وعضو واحد عن كلبار Calabar عن طريق الذكور المسيحيين والذين يصل دخل الواحد منهم مائة جنيه إنجليزى فى العام. أما باقى المقاطعات الجنوبية التى يقل أو يندر فيها المتعلمون

بحوالى خمسة عشر عضواً جرى تعيينهم بصورة مباشرة. وقد شجع ذلك هربرت Her-bert ماكولى Macaulay على تأسيس الحزب الديمقراطى الوطنى النيجيرى. كان الحاكم لا يزال هو الذى يُشَرِّع بصورة مباشرة فى المقاطعات الشمالية، وكان يساعده فى ذلك واحد وثلاثون مسئولاً عن الإجراءات التى تتخذ فى الجنوب. وبذلك تمضى التغييرات قدمًا فى باوتشى دون أن يلاحظها أحد. وجرى إبعاد الممثل المقيم مدة عامين مرة أخرى، إلى جوس Jos فى العام ١٩٢٤، لكن الأهم من ذلك كله هو إلغاء ضريبة الرءوس فى الأسواق، وضريبة المكوث السوقية أيضًا، وذلك من باب تشجيع التجارة الداخلية لمواجهة الكساد العالمى الذى وصلت آثاره إلى المناطق البعيدة، ومن باب مواجهة ارتفاع معدلات الوفيات بسبب الأوبئة والأمراض المعدية، وأنواع مختلفة من الحمى الرجعية. وفى العام ١٩٢٥ الميلادى تعيَّن على ذلك الطاهر العجوز أن يتقاعد، فقد قسم حَيَّه إلى أجزاء: لير Lere، وبيولا Bula، كما خسرت تافاوا باليوا مكانتها. وجرى سحب الزبير المدرس العالم، ليقيم مدرسة فى ليمان Liman كاتاجوم Katagum الأكثر قربًا من باوتشى.

من يمن الطالع، فى تلك الأيام التى سبقت مسألة إدخال امتحانات "الالتحاق العام" التحريرية، أن يقوم مساعد المشرف العام على التعليم أثناء جولته التفتيشية، بإلقاء نظرة على سجلات المدرس العالم الزبير وتوصياته، ثم يتخذ بذلك إجراءً عمليًا سريعًا، وجد المشرف العام على التعليم أن من المناسب اختيار آبو Abu، الذى كان يومئذ، فى الثانية عشر من عمره، وصاحب الضمير الحى، ليضمه إلى مجموعة التلاميذ الذين جرى انتقاؤهم لينضموا إلى تلاميذ المدرسة الابتدائية فى يالوا Yalwa، التى تبعد مسافة قصيرة عن عاصمة الإمارة فى اتجاه الجنوب. كانت تلك المدرسة تعرف باسم مدرسة باوتشى الحكومية الإقليمية، وكانت تلك المدرسة مساوية لمدرسة المستوى الثانى المتوسطة. ويصطحب أبو معه صُرَّة تحتوى على أبهى ملابسه التى يرتديها أيام الجمع، ومصباحًا زيتيًا فاخرًا، وبعضًا من ثمار الكولا التى يقتات بها

أثناء الرحلة، ووسط وداع الأسرة الحزين، يركب مفرشخًا على سرج غير مريح له قربوس(*) عال ومؤخرة مرتفعة، ليقطع مع المراسل مسافة تقدر بمسير يومين، يصل بعدها إلى المدينة. كان ذلك مصادفًا للعام الذى قام فيه سمو أمير ويلز بزيادة كنو Kano أثناء رحلته الإفريقية، ذلك الحادث الذى استحوذ على الخيال وأصبح مُمَيزًا للعام ١٩٢٥، عند كثير من الناس الذين لا يزال التقويم الغربى غريبًا عليهم. العام ١٩٢٥ هو أيضًا العام الذى نشر فيه ريتشموند Richmond بالمر Palmer، حاكم نيجيريا المساعد التعبير الإدارى القانونى "السلطة الوطنية (المحلية) الوحيدة"، والذى جرى إدخاله فى قانون السلطة المحلية لتمييز الرئيس Chief عن أى شكل آخر من أشكال المجالس. كان الحاكم الجديد، السير جرايم Graeme تومسون Thomson معنيًا بتحسين الاتصالات، كما كان معنيًا أيضًا بتوسيع فرض الضرائب المباشرة وهيئات الإدارات المحلية المسئولة فى الجنوب الشرقى من البلاد. وفى بريطانيا أنشأ المكتب الاستعمارى لجنة استشارية قوية، لتقوم على أمر إدارة الحكومات الإفريقية وتقوم بالتفتيش على مدارس البعثات التبشيرية ومساعدتها، وذلك بديلاً عن إنشاء مكاتب وإدارات تعليمية مكلِّفة.

أبو بكر تافاوا، كان هو الاسم الذى سُجِّل به الصبى فى كشوف المدرسة الجديدة (ولم يعد أحد يقول له آبو Abu إلا أثناء اللعب، وبخاصة بعد أن أصبحت الدراسة تمتاز بالجدية)، لم يكن أبو بكر تلميذًا بارزًا فى الفصل. كان الصبى جيدًا تمامًا فى الحساب، وأجود من ذلك فى الألعاب الرياضية، لكنه بشكل عام لم يكن من البارزين تمامًا: كانت تلك هى أحكام معلمه المدعو المُعَلم بابا Baba سيدى Sidi، وأحكام رفاقه فى الفصل. كان حسن التصرف مع رفاقه ومن هم أفضل منه، لكن الصبى لم يكن يضيع وقته فى المزاح مع الصغار الطائشين. كان أبو بكر يفضل التجوال وحيداً فى

(*) القربوس أو الحنو : قسم من السَّرج مرتفع من قدَّام المقعد ومن مؤخره . (المترجم)

الغابة المحيطة بالمدرسة، أو يروح يستمع ويراقب مراقبة لصيقة تجمعات الكبار من بعد. كان أبو بكر، ينام ملفوفًا فى بطانية من القطن، مع ولدين آخرين هما: رفاعى Rufa'I وباباجى Babaji ميجارى Maigari، فى غرفة من اللَّبن فى مجمع المدرسة. كانت ملابس المدرس المعتادة تصنع من قماش قطنى محلى خشن يعرف باسم جوادو Gwa-do. كان يجرى نسج ذلك القماش على شكل شرائح يجرى بعد ذلك إخاطتها مع بعضها البعض لتكون شريحة أعرض، وكانت تتخلل هذه الشرائح فى بعض الأحيان شرائح رفيعة زرقاء اللون، وقلنسوة ضيقة بيضاء اللون تُخاط فى الرداء، كانت الملابس الرياضية عبارة عن تونك قصير بلا أكمام وبنطال قصير، وفى المناسبات الرسمية كان التلميذ يلبس تونكًا طويلاً وبنطالاً فضفاضًا، لم يكن التلاميذ يرتدون أحذية أو يعرفون الأزرار.

أمضى أبو بكر السنوات الثلاثة التى تلت ذلك بلا تمييز، على الرغم من أنه بدأ فى تحسن درجاته الدراسية فى الصف الخامس، عندما بدأ يتعلم على يدى المُعَلم محمد طانجيكا Dangikka. على العموم، لم تكن هذه الفترة مهمة فى تاريخ الشمال، على الرغم من افتتاح أول مدرسة مهنية فى المدينة أول العام ١٩٢٦ لتدريب المهنيين الذين يمكن أن ينافسوا الحرفيين الجنوبيين الذين كانوا، يحتكرون فى ذلك الوقت، الأعمال الإنشائية على اختلاف أنواعها. كان السواد الأعظم من المشرفين على أعمال الإدارة حتى الخمسينيات، من خريجى هذه المدارس المهنية، كما تحولت هذه المدرسة المهنية بوجه خاص، إلى مدرسة باوتشى الإدارية المحلية. ذات يوم التقى آبو Abu أول امرأة بيضاء - حددها هو بعد ذلك على أنها كانت طالبة علوم سياسية بريطانية تدعى مارجرى Margery برهام Perhan، والتى كانت تدرس "الإدارة المحلية" (لكن حدث هنا نوع من الارتباك لأن زيارتها لم تتم إلا بعد العام ١٩٣١). فى العام ١٩٢٧، حدث تطعيم شامل للماشية، الأمر الذى أضاف سببًا آخر، إضافة إلى الضرائب، مما جعل المسئولين يواصلون الاتصال بالبدو الرُّحَّل الفولانيين، وقد زاد ذلك من شكوك البدو

الرُّحل في طبقة الموظفين. كانت هناك قلة قليلة من كبار الإداريين الذين كانوا ينظرون إلى تقرير أورمبسى - جور Ormsby-Gore عن غرب إفريقيا نظرة اللا إداريين، كان هؤلاء اللا أدريين يحبذون الاهتمام الذاتى المستتير فيما يتعلق بالمناطق الإفريقية النائية باعتبار ذلك مغايراً أو بديلاً عن الانتداب الثنائى، كان هناك أمل فى أن تؤدى التنمية الاقتصادية القائمة على المساندة والمعاونة الطبية، والتعليمية والزراعية إلى ظهور منتجين أصحاء وأذكياء يعملون على إنتاج السلع العالمية، ويصبحون أيضًا مشترين للسلع الاستهلاكية العالمية.

فى يوم الهدنة، من العام ١٩٢٧ الذى يعد هو الآخر عامًا شهيرًا، قامت طائرتان من طائرات سلاح الجو الملكى بالهبوط فى باوتشى. لم يكن فى ذلك ما يثير تلاميذ المدارس - لم تكن هناك سينما، أو لاسلكى أو مجلات، وإنما كان هناك فقط مسجد صلاة الجمعة، ثم بعد ذلك التجوال فى البلدة فى أبهى الثياب المتيسرة. كانت هناك أيضًا الأعياد السنوية التى منها على وجه التحديد: تجوال رؤساء الأحياء على ظهور الخيل ومعهم كبار رجال الإدارة المحلية ومعهم مستخدموهم، الذين يلبس البعض منهم سلاسل قديمة ورثوها عن أهليهم الذين شاركوا فى صد الحملات الصليبية على الأراضى المقدسة، والذين يروحون يدقون الطبول ويطلقون نيران البنادق المصوّنة(*) أمام بوابة الأمير، بمناسبة أيام الصلاة - والمقصود بأيام الصلاة هنا هو أيام عيد الفطر بعد انتهاء شهر الصوم (يحظى الأطفال الصغار فى مثل هذه المناسبات بمشاهدة الحكماء كبار السن، أو اللافتات التى تعلق بواسطة خدم هؤلاء الحكماء، على المرتفعات والجبال الخاصة بأولئك الحكماء)، وقد تتمثل هذه الاحتفالات أيضًا فى أيام الخصام التى يسمح الأمير بإقامتها بالقرب من السوق، والتى يقوم خلالها غنادير الفولانى من الشبان البدو المترحلين باستعراض شجاعتهم على طنين أجراس دون أن

(*) المصوّنة : بندقية قديمة ذات زند مصوّن . (المترجم)

ترمش عيونهم (ويروحون يحملون فى مرايا الأيدى ليؤكدوا هذه الشجاعة لأنفسهم)، أو قد يكون الاحتفال ببداية العام، ويكون ذلك فى اليوم العاشر من الشهر الأول من العام الهجرى، والذى يأكل كل واحد فيه ضعف ما يأكله فى اليوم العادى، وقد يواصلون ارتداء أبهى ملابسهم إلى أن يدخلوا للنوم بعد ذلك.

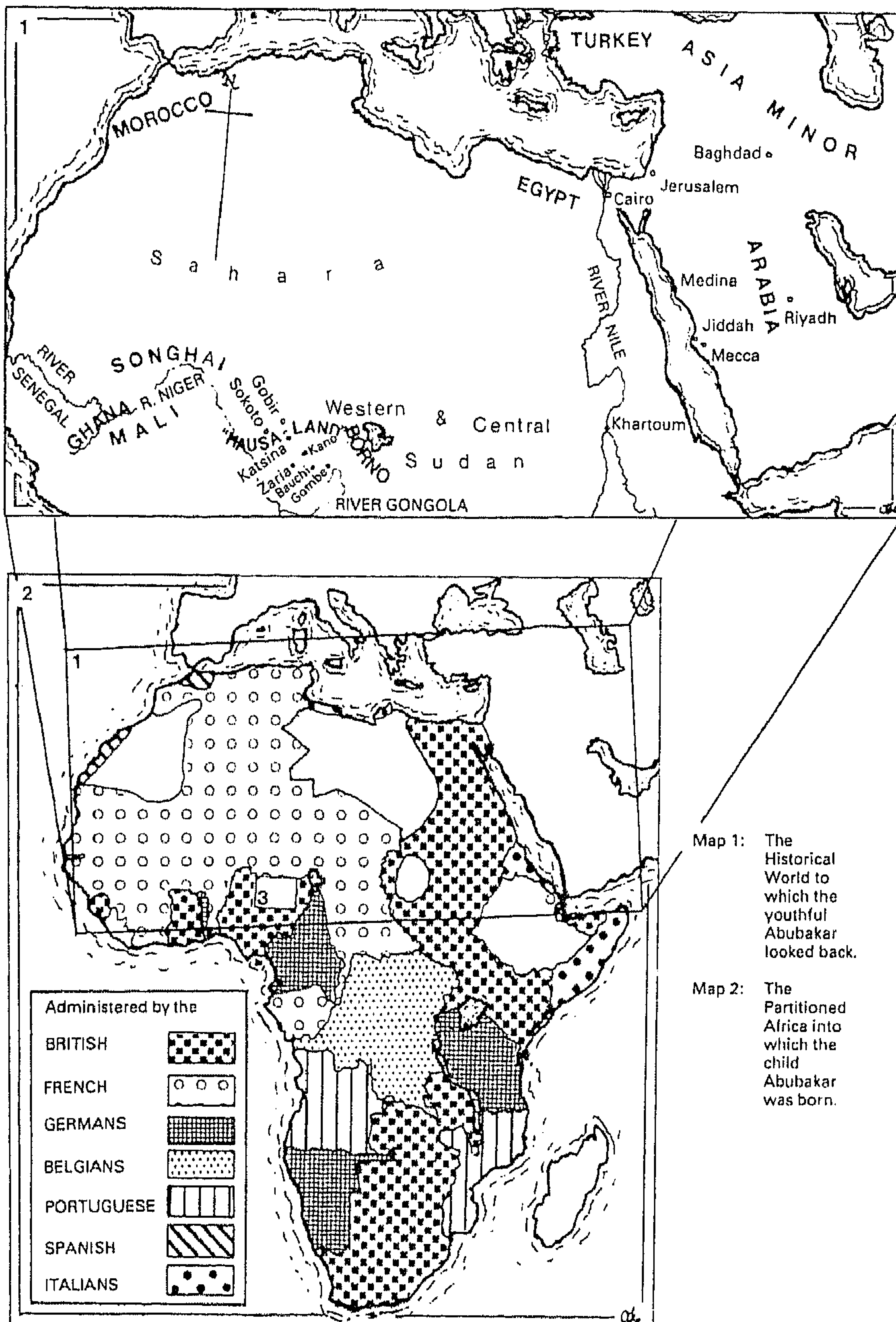
أيام الاحتفالات هذه تعَدُّ استثناء فى حياة هؤلاء الناس. وبعيداً عن نظام المدرسة (جرى الإمساك بأبى Abu بكر، ذات مرة بصحبة آخرين فى المدينة، فى ساعة غير مصرح بها، ومما زاد الأمر سوءاً أنهم كانوا يدخنون - وجرى جلدهم كلهم باستعمال السوط التقليدى المصنوع من الجلد، والذى يطلقون عليه اسم Bulala)، وقد تجلت قوة المعايير المعيشية الحياتية بحلول شهر رمضان. وإلى أن جرى قبول التقويم الغربى كان يتحتم إقناع كل من الأمير والإمام بالدليل القاطع بأن الهلال الجديد قد جرى مشاهدته أو ترائيه (فى بعض الأماكن الأخرى، كان الهلال يُرى منعكساً على صفحة الماء فى أحد الأبيار) قبل أن يصدر الأمر بقرع الطبول إيذاناً بدخول الشهر الإسلامى التاسع، وبعد شيوع الساعات والمنبهات بوقت طويل، كانت لحظات الغسق والشفق، التى لا يضع مسن أو مريض شيئاً فى فمه إلا بعد تحديدهما، كانت تتحدد عن طريق تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود فى ضوء السماء. وعلى الرغم من إحداث بعض التغيرات والتعديلات الطفيفة فى الجداول الدراسية، فإن المدرسين والتلاميذ ينوسون قبل انتهاء الحصص الدراسية. هذا لا يعنى أن الصوم يعنى التساهل فى الحياة.

كان آبو Abu يُمضى جزءاً من عطلته فى مجمع والده فى تافاوا باليوا (حيث كان يساعد فى عملية الحصاد وبذر الحبوب، وزراعة نخيل الزيت الذى لا يزال يزرع إلى يومنا هذا) وكان يقضى قسماً آخر من هذه العطلة فى بيت الطاهر الحضرى فى باوتشى، الذى أصبح منزله الفعلى بحق وحقيقة. فى باوتشى كان أبو بكر يستمع أيضاً إلى حكايات جدته الحبيبة: وبعد ذلك بثلاثين عاماً، كان أبو بكر لا يزال يقول لمستمعيه من الأوروبيين إن تلك الحكايات كانت تنتهى دوماً بالعبارة التى تقول: "تذكر

يا ولدى، أنك عندما تكبر، سيتعين عليك قتل الفولانيين أو طردهم من البلاد!" فى العام ١٩٢٩، تقرر نقل مدرسته الابتدائية إلى المدينة لتنضم إلى المدرسة المهنية. كانت مديرية التعليم الأساسية قد جرى توحيدها مع مديريتى التعليم فى كل من المستعمرة وجنوبى نيجيريا، وقد حدث ذلك التغيير فى إثر القرار الذى اتخذه المدير العام للتعليم، والذى يدعى هوسى Hussey، ويقضى هذا القرار بتوحيد المدارس الابتدائية الحكومية كلها أو تجميعها هى والمدارس الفنية وتحويلها إلى مدارس متوسطة، وزيادة المستويات إلى المستوى الرابع. لم تنجح محاولة صهر كل المعلمين والحرفيين المتدربين فى بوتقة واحدة شاملة، فى المناطق التى فيها قدر كبير من المحافظين، والتى منع الرؤساء Chiefs فيها أولادهم من الالتحاق بالمدارس المهنية، وبالتالى حالوا بينهم وبين التحاقهم أيضًا بالمدارس الجديدة. وجف أيضًا مصدر توريد الحرفيين الشماليين المبدعين الأكفاء، والسبب فى ذلك هو ضغط المنهج المهنى فى المدارس المتوسطة. كان مخيم الفهود الإقليمى على وشك القيام، وكان مركز التدريب الأولى لمدارس السلطة المحلية غير المسلمين، على وشك الافتتاح فى بلدة تورو Toro على الطريق المؤدية إلى جوس Jos. فى العام ١٩٣١ تقرر تسليم المبانى المدرسية القديمة فى يالوا Yalwa إلى الحكومة، ليجرى فيها بناء مركز تدريب حكومى جديد للمعلمين، وذلك عوضًا عن مستشفى الإدارة المحلية التى بنتها الحكومة فى بلدة باوتشى. بحكم أن المدير المساعد هناك كان يتحتم عليه أن يكون مسئولاً أمام الحاكم العام المساعد، لكنه كان مسئولاً أمام مدير التعليم فى ليجوس.

لكن أبو Abu خطا، فى الوقت نفسه، خطوته الثانية فى العام ١٩٢٨، وكانت خطوة مهمة، وعلى الرغم من تقرير المعلم الذى أورد ضمنه واقعة التدخين، قال المعلم فى تقريره: "هذا الصبى لن يذهب مطلقًا إلى مسافة بعيدة"، لقد تحسن الصبى تحسنًا كبيرًا فى دراسته الأمر الذى أدى إلى اختياره كى يلتحق بكلية كاتسنا العالية. أما بقية الأولاد الذين خلفهم أبو بكر وراءه قد أحدثوا تأثيرًا محليًا أو بقوا مطمورين

تمامًا. أما الشباب الذين انضم إليهم أبو بكر فقد كانوا أصحاب امتياز يصعب الوقوف عليه بلا تحيز. وسواء جرى الانتصار أو الانكسار فى معركة وترلو Waterloo على ملاعب إينون، فإن القسم الأكبر من إفريقيا تشكل بفعل أولئك الذين التحقوا بالمدرسة الداخلية التى أنشئت فى كاتسنا على غرار المدارس الداخلية البريطانية.



Map 1: The Historical World to which the youthful Abubakar looked back.

Map 2: The Partitioned Africa into which the child Abubakar was born.

الفصل الثانى

أبو بكر الطالب

الإنسان لا يستطيع أن يطوى الشجرة إلا عندما تكون خضراء أو غضه ، لأنها تطول بشكل مستقيم(*)

جرى فى العام ١٩٢١ الميلادى افتتاح كلية كاتسنا لتدريب المعلمين على تدريس المناهج المطورة الخاصة بالمدارس الإقليمية أو المحلية. وفى الخطاب الذى ألقاه السير هوغ Hugh كليفورد Chifford، الحاكم الجديد عقب وصوله، راح يحث التلاميذ على التمسك بواجباتهم الدينية، والتمسك بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة، بما فى ذلك احترام أولى الأمر (والعجيب، أن بعض رؤساء الأحياء التابعين لهذا الحاكم، اعتقدوا أو صدقوا أن الرجل يود من إدارته أن تتجنب، بأى حال من الأحوال، الانطباع الذى مفاده أنهم أصدقاء الشعب). ولولا العجز الشديد فى هيئة التدريس والذى تفاقم بسبب الحرب العالمية الأولى، لكانت كلية كاتسنا قد افتتحت فى تاريخ أبكر من هذا التاريخ. كانت عينا المدير الذى عينه لوجارد مديراً للتعليم فى شمال نيجيريا مركزتين على السابقة المتمثلة فى الهند، هذا المدير كان يدعى هانز Hanns فيشر Vischer. هذا المدير، تخيل أن الهدف من هذه الكلية هو تدريب أبناء الرؤساء Chiefs، مستهدفًا بذلك جعل هؤلاء الأبناء لائقين بدنيًا وذهنيًا بغية مساعدة الحكومة فى إدارة البلاد،

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

وجعل هؤلاء الأبناء على اتصال وثيق بالحكومة، حتى يمكن لهم أن يتفهموا على نحو أفضل السياسة التى تتبعها الحكومة، وأن يكسبهم معرفة أولية بالتصحاح والصحة العامة، وأن يفتح أعين هؤلاء الأبناء، أولاً وقبل كل شىء، على كل إمكانيات البلاد التجارية. وفى ضوء المال القليل المتاح، وفى ضوء النقص الشديد فى هيئة التدريس لم يجد الرجل بداً من البدء بالقمم الاجتماعية، ثم يترك الآثار بعد ذلك تتقاطر ببطء على الجماهير مع مرور الزمن. كان الرجل مقتنعاً بترك المبادرات التعليمية فى المناطق غير المسلحة للبعثات التبشيرية المسيحية المتحمسة والنشطة.

كان فيشر Vischer، الذى اشتهر بلقب ابن Dan الهوسا Hausa (ذلك المصطلح الذى يوحى بالإعزاز والتقدير، والذى لم يعط إلا لقلة قليلة من المسئولين البريطانيين الذين تسودوا اللغة وموسيقاها، وجرى قبولهم على أنهم من أبناء هذه الأرض)، قد أُعفى من منصبه فى العام ١٩١٩ . أما نائبه إيرلنج Uerling سميث Smith فقد واكب هذه الرؤية إلى أن اكتملت فى مجال تدريب المعلمين وليس فى مجال التدريب الأكاديمى للحكام الطبيعيين المستقبليين، وأصبح مألوفاً أن تصبح هذه الكلية جزءاً من محاولة بريطانية متعمدة لبث منطوقة مصطنعة وغير ديمقراطية تقوم على التراكيب الطبقية، وتهدف بالدرجة الأولى إلى إطالة أمد الحكم غير المباشر. وهنا يمكن القول: إن المسئولين أخذوا ذلك الذى عثروا عليه، وتعاملوا معه مثلما يتعاملون مع نظيره فى مجتمعهم أو المجتمعات الأخرى المألوفة لهم، ولم يحاولوا إحداث أى نوع من التغيير فى معدل التنمية الطبيعية سوى التشجيع على الثورة الراديكالية فى مواطنهم، أما فيما يتعلق بتدريب الأرستقراطين، فقد علق عليه أبو بكر فى السنوات اللاحقة قائلاً: إن "الرئيس" Chief إذا ما "نُصِح" بإرسال ولده إلى كاتسنا Katsina، فإن عملية الاختبار المتبعة فى مثل هذا الحال، تقوم على جعل مثل هذا الولد ينظر من النافذة ويلقى نظره على طفل مار فى الشارع: "هل هذا واحد من أهلى؟ أرسلوه، فإنه يكفى"

ولعل هذا يفند الأسطورة التى وردت فى الفصل الأخير، قيمة هذه الأسطورة يفندها أيضًا كثيرون من خريجى كلية كاتسنا.

تقول الموروثات إن كاتسنا كانت موطنًا لأهل العلم والعلماء والمتدينين قبل مجىء الإنجليز، وأن أمير كاتسنا، محمد دكُّو Dikko (الذى كانت الإدارة المحلية تسميه فى غيابه محمد دِكْ Dic) كان يجلس فى منزل عطلته القريب من كاتسنا ويروح يراقب المدرسة الحكومية الفاخرة هى ومن فيها. ليس معنى هذا أن موقع المدرسة أصبح يبدو مناسبًا بعد التغيير الذى طرأ على وسائل النقل، وإنما لم يحدث أن وجدت هيئة العاملين فى المدرسة أو حتى طلبتها أية غرابة فى حتمية تقاطر هؤلاء وهؤلاء أو مجيئهم إلى المدرسة: ويدخل ضمن هؤلاء أيضًا أولئك الذين يقطعون جزءًا من الرحلة بطريق السكك الحديدية، بما فيهم أولئك الذين يأتون من باوتشى، كل أولئك وهؤلاء كان يتعين عليهم قطع المسافة التى تستغرق خمسة أيام، معظمها داخل الأراضى الفرنسية، وبذلك يقطعون مسافة ٢١٥ كيلاً متريًا سيرًا على الأقدام أو راكبين على ظهور الخيل قادمين إلى المدرسة من كنو Kano. فى العام ١٩٢٥ الميلادى قطع صبى من برنو Bor-no، هذه المسافة التى تقدر بحوالى ٦٤٠ كيلاً متريًا راكبًا حصانًا. كان أبناء الشخصيات المهمة يصطحبون معهم خدمًا وزوجات، أما الأبناء الآخرين فكانوا يكتفون بما لديهم. كان كل واحد من هؤلاء الأبناء يتقاضى مبلغًا يقدر بحوالى ثلاثين شلنًا كل شهر، من سلطته المحلية لتغطية نفقات الإعاشة والمصاريف الطارئة الناجمة عن الانتقال. وما أن يصل هؤلاء الأبناء إلى الكلية حتى يبدأوا يعيشون فى بيئة واحدة، هى بيئة المدرسة الداخلية، وذلك بغض النظر عن الحالة البدنية أو الظروف الاجتماعية. كانت غرف التلاميذ، والفصول الدراسية، وأماكن هيئة إدارة المدرسة، كلها مبنية من اللَّبن السميك البارد ومعروشة بأغصان الأشجار والقش. كان ناظر المدرسة إلى العام ١٩٣١ هو السيد باينمان Bieneman الذى تخرج فى المدرسة المهنية فى كنو، وقد بقى منزل هذا الرجل، والذى كانوا يطلقون عليه اسم "منزل Gidan باينمان Bieneman

فترة طويلة فى العصر الجمهورى، بمثابة أثر من الآثار المهمة. كانت المدرسة خالية من الماء الجارى أو المعالج، ولم يكن الناس يسمعون مطلقًا عن الكهرباء أو يعرفونها إلا من الكتب. فى بداية الأمر لم تكن الألعاب منظمة، ومع ذلك كان هناك ملعب للعبة الخماسيات Fives. كان المعلم نجواماتسى Naqwamatse وأصله من سكتو Sokoto، هو المدرس الأول النيجيرى فى المدرسة، وكان الرجل مسئولاً أيضًا عن النظام فى المدرسة، كما كان مسئولاً أيضًا عن مستودعاتها، وكان هو المشرف أيضًا على التعليم الإسلامى الذى كان يقوم به معلمون من خارج المدرسة. وكان يقوم بتعليم اللغة العربية ولغة الهوسا رجل يدعى المعلم Bello كاجارا Kagara، الذى كان البريطانيون يسمونه شيخ Chaplain المدرسة.

كانت لغة التعليم فى كلية كاتسنا هى لغة الهوسا، التى كان المدرسون البريطانيون الأربعة يستخدمونها فى تدريس الرياضيات، والجغرافيا، والتاريخ ونظرية التعليم، لكن الإنجليزية كانت هى الأساس فى التعليم. كان الموضوع برمته بين يدى السيد/ جيرالد باور Power، المدير المستقبلى للتعليم فى جامبيا، ألف جيرالد باور أيضًا كتابًا عن قواعد لغة الهوسا، لكنه أصر على أن تكون الإنجليزية المحكية بالجودة نفسها التى على ألسنة البريطانيين أنفسهم. وجرى فى بداية الأمر تعليم الإنجليزية المحكية عن طريق توضيح وظائف الفم والشفتين واللسان فى إنتاج كل صوت من الأصوات، وسرعان ما أصبحت المحاكاة والتقليد أمرًا مهمًا وضروريًا، نظرًا لنقص خبرة جيرالد باور فى مسألة التحدث بالإنجليزية كلغة ثانية (ونظرًا أيضًا لجهله باللهجنات اللغوية والكربولات(*) الأخرى فى غرب إفريقيا).

(*) الكربولى: أبيض منحدر من نزلاء بعض الولايات الفرنسيين أو الإسبانيين الأولين لكنه لا يزال يحتفظ بلغته وثقافته الأصليتين. (المترجم)

كان جيرالد باور يمضى ساعة كاملة فى تدريس حرف a القصير، وساعة أخرى فى تدريس حرف o. سمع الناس شارلز.جى. هويتنج whitting، وهو من أصدقاء جيرالد باور ، وهو يقول: إن الكمال يمكن أن يأتى عن طريق استعمال طرق جاكبوت Jack-boot فى التدريس. كان بعض تلاميذ شارلز هويتنج يصلون إلى حد البكاء بسبب مطالب الرجل، لكنهم كانوا يتسودون دروس الرجل فى نهاية المطاف. أسفر ذلك عن لغة إنجليزية نقيه، نسمعها بين أولئك البريطانيين السابقين للحرب العالمية الثانية، والذين لم يعولوا على المولد، أو الطبقة، أو الثقافة الإقليمية، وإنما كانوا يعولون بالدرجة الأولى ويؤمنون بالمستوى العالى، للتعليم الجيد.

وجاءت المفاجأة والمكافأة بعد ذلك بسنوات، عندما تفوق المتكلمون على زملائهم فى الدبلوماسية الدولية وفى المفاوضات الدولية أيضًا. فى ذلك الوقت كان المدرسون من وراء البحار، يقبلون ويسلمون، إلى حد بعيد، بالامتيازات التى كان أبناء أرستقراطيى الشمال وأغنياؤه ينتظرونها من مجتمع الإمارة، وكانوا يفرحون "باقتسام تلك المزايا"، التى كانت تصيب المدرسة، يزاد على ذلك أن هؤلاء المدرسين كانوا يفرحون فى دواخلهم، مخافة أن يكشف ذلك عن أى شكل من أشكال المحاباة، بالنجاحات التى كان يحققها الأبناء المغمورون الذين كانوا يرتقون السلم الاجتماعى – مادام أنهم كانوا غير مغرورين، ومصطلح الغرور هذا هو ترجمة للمصطلح الهوسوى girman kai، الذى يعكس عدم رضا الخدمة العامة البريطانية أو وثوقها بمسألة الغرور.

عندما وصل أبو بكر إلى المدرسة فى العام ١٩٢٨ الميلادى، باعتباره الطالب رقم ١٤٥ فى سجل الالتحاق بالمدرسة، ولم يكن معه زوجة أو خادم، كان عدد طلاب المدرسة قد تجاوز العدد الأصلى المقدر بخمسين طالبًا، وأصبح للمدرسة فى ذلك الوقت ستة مجمعات كانت تدار إدارة "المنازل" فى المدارس البريطانية العامة: المنزل الشمالى، والمنزل الجنوبى، والمنزل الشرقى، والمنزل الغربى، ومنزل شجرة الكاشيو، ومنزل الغراب. فى هذا العام وصل كاشيم Kashim على دراجته الهوائية. أحس

أبو بكر بالحرج إزاء ما كان يعده ضعف لغته الإنجليزية ولذلك راح الرجل يحفظ عن ظهر قلب النسخة المصغرة من معجم أكسفورد، ومن حسن طالع هذا الصبى أنه لم يصل مطلقًا إلى حرف "الباء" B. كان كل من محمد حبيب الدكوى Dikwa، وهارون بشير الجواندى Gwandu، وعلى الزَّارى Zaria رفاقًا لأبى بكر فى صفه الدراسى، وكان من بين رفاقه فى الصفوف الأخرى أسماء كثيرة وشهيرة ستظهر بألقابها المفضلة فى الفصول القادمة، ومن بين هذه الأسماء أحمد رابا Raba، ذلك الأرستقراطى السُّكتى Sokoto الذى كان يقيم فى منزل شجرة الكاشيو، وكان من بين هذه الأسماء أيضًا صبيَّان من كاتسنا هما، موسى ولد عدوا Adua وعيسى كيتا Kai-ta، وهما من منزل الشمال. فى ذلك الوقت لم يكن هناك كلام معسول أو تملق للهدف الذى أنشئت من أجله هذه المدرسة – كان الهدف وبلا أى خجل يتمثل فى تدريب "القادة" ، وبناء "الشخصية"، وبناء عليه، وبطريقة غير مباشرة، تخريج المعلمين الذين كانوا "رجالاً بحق" وعلى استعداد لمضاعفة أنفسهم. وراح الشباب المسلم من سائر أنحاء الشمال النيجيرى يختلطون ببعضهم البعض فى المُجَمَّعات بغض النظر عن الأصل، وجرى أيضًا إبعاد الأتباع والأنصار عن النشاطات الرسمية وأماكن الاجتماعات. لم يكن الكسل أمرًا مقبولاً فى العمل أو اللعب، ولم تكن التفرقة واضحة أو بَيِّنة بين الكثيرين – كانوا يطلقون على الوقت المخصص لتنظيف المجمع اسم aikin tsabta، أو Aikin datti وكانوا يطلقون على الوقت المحدد للألعاب اسم aikin kirkit.

لم ينس مطلقًا التلاميذ من أمثال أبى بكر تقاليد اللياقة والكياسة المعمول بها فى المدرسة البريطانية العامة. كان أبو بكر بعد مضى ثلاثين عامًا لا يزال يذكر المدرس الذى أيقظ تلميذًا كان يغالبه النوم فى الصف الأخير، بسبب إرهاق شهر الصوم، بقطعة من الطباشير صوبها إليه تصويبًا جيدًا، وأردف ذلك بقوله: "يا ولد! أعد ذلك الصاروخ!" كان أبو بكر أيضًا واحدًا من خمسة طلاب قاموا بفك فرامل اليد فى سيارة

المدرس التى كانت من طراز موريس Morris، والتى كانت أول سيارة فى الكلية، الأمر الذى جعلها تتدحرج نازلة من المنحدر إلى أن اصطدمت بشجرة من الأشجار. "أعيدوها حيث وجدتموها!" أصبح أربعة من هؤلاء الخمسة وزراء، أما الخامس الذى فك الفرامل بالفعل فقد أصبح كبيراً لموظفى التعليم، ولكن رفاقه كلهم يقولون: إن أبا بكر لم يكن يعرف إلى أين سيذهب.

تحولت عيادة الكلية إلى مستشفى صغير، وأصبح كل صبى من الصبية يحصل على جرعة أسبوعية من الكنين والأملاح التى تنقذ حياة البعض من الأمراض الجسمانية الشائعة بين الأطفال الأفارقة فى ذلك الحين. ولم يفلح الدم الأرستقراطى فى إنقاذ الأطفال الأشقياء الكسالى من العقاب البدنى البدئى بأيدى رقيب المدرسة، وعلى الرغم من أن أبا بكر كان ينجو من الجلد فى كاتسنا، فإن الآخرين لم يحظوا بذلك على مرأى ومسمع من قائمة الوزراء، والأمراء وكبار أعضاء الحزب وكبار أعضاء الإدارة المحلية، أو بالأحرى أولئك الرجال الذين قُدِّر لهم أن يملأوا الحياة العامة فى شمال نيجيريا فى خمسينيات القرن العشرين، وذلك من باب تحدى الجنوبيين الذين هم مدينون بتعليمهم الباكر فى الفترة من عشرينيات إلى أربعينيات القرن العشرين، للبعثات المسيحية التبشيرية. كل هؤلاء كانوا يَدَّعون فى سنوات النضج، عندما كان يراودهم الحنين إلى الماضى، أنهم التحقوا بكلية كاتسنا ولم يكن الواحد منهم قادراً على صياغة جملة واحدة كاملة، وأنهم بفضل المدرسين المنكرين لذاتهم، والمهرة والموهوبين، استطاعوا أن يكتسبوا النظام، ومنطق العمل والقيادة – ولم يكن أولئك المدرسون ينتظرون أية مكافأة مادية لقاء ما يقومون به من عمل. هذا أسلوب قديم – والأسوأ من ذلك أن يبدو ذلك الأسلوب برجوازياً ومفتقراً إلى الحافز الدنيوى، لأن أحداً من المدرسين لم يخطر بباله، أو بالأحرى لم يتخيل أنه كان يدرس السَّاسة المستقبليين. والناقد المغرض هو الذى ينكر، أن هذين المجتمعين الأجنبيين، أو بالأحرى المدرسين الذين جاءوا من بريطانيا والتلاميذ الذين جاءوا من سائر أنحاء شمال نيجيريا، عندما

التقوا سوياً استطاعوا العثور على أهداف ودوافع مشتركة، واستلهموا أشياء كثيرة من بعضهم البعض، بطريقة مباشرة أو من خلال هيئة الموظفين المحلية. من بقى من هؤلاء على قيد الحياة، كانوا يؤكدون ذلك، ومن بينهم أولئك الذين كانوا يَطَّلِعون على كشوف غياب التلاميذ وحضورهم مثل أحمد رابا وأبو Abu باوتشى.

هنا فى كلية كاتسنا كان أبو بكر مثلما كان فى المدرسة الابتدائية، خجولاً ومنطوياً، ولم يكن ورفاقه فى الفصل، ينظرون إليه فى بداية الأمر، على أنه ألمعى ومن الأذكياء. كان التنافس أمراً واضحًا تمامًا بين هؤلاء الطلاب، كما أن أصول الصبى المتواضعة لم تكن تكسبه شعبية سهلة أو رخيصة. ومع ذلك، لم يكن أمام كبار الطلاب أو أقدمهم متسع من الوقت يسمح لهم بتدبر الأصول. كان جرس المدرسة (عبارة عن قضيب عادى جداً من المعدن) بعد شروق الشمس مباشرة، يقوم الطلبة بأداء صلاة الصبح، بطريقة فردية لكن شبه رسمية، وبذلك يكون النشاط اليومى قد بدأ، عند الساعة السابعة والنصف يحين موعد طابور التربية البدنية بقيادة الرقيب سيل Sale الذى لم يكن يحظى بشعبية بين الشبان الصغار الذين تنظر ثقافتهم إلى الملابس القصيرة أو الأقصر من اللازم على أنها أشياء محرجة اللهم إلا إذا كان ذلك فى المزرعة أو عندما يرتديها العمال، لكن قواعد اللياقة البريطانية هى التى كانت سائدة فى مثل هذه الأمور - فقد جرى الأمر بارتداء البنطال القصير الواصل إلى الركبة والذى يرتديه سكان التلال فى نيبال Nepal، هذا البنطال جرى تعميم ارتدائه فى سائر أقسام الجيش الهندى والبريطانى، بل وفى الجيش الفرنسى أيضاً، وكانت تلك البناطيل مريحة أثناء القيام بالأعمال الاستوائية وفى اللعب أيضًا فضلاً عن أنها كانت مريحة واقتصادية، مسألة ارتداء البناطيل القصيرة هذه، كانت يومًا عصيبًا للشباب الرياضيين فى البلدان الغربية كلها، وكان الشبان من أمثال أبى بكر يقاومون ارتداء هذه البناطيل القصيرة، لأن التربية البدنية فى الجو الإفريقى الحار لا تعد أمراً سخيفًا. لم تكن مقاومة أبى بكر لتلك البناطيل ناتجة عن النشاط الزائد: نظراً لأن

التدريبات السائدة فى تلك الأيام كانت عبارة عن تمارين سويدية بدلاً من التمارين الفردية، وكانت تلك التمارين تحت بصر الرقيب سال Sale، وكان الطلبة ينظمون أنفسهم على شكل فرقة من فرق الباليه، تردد على شكل جوقة لازمة مكونة من أربع عدات : " واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة"، وكانوا يغنون هذه اللازمة باللغة العربية. وهنا يبدأ المدرسون فى الدخول، ثم يجيء بعد ذلك البريطانيون الباقون قادمين من المحطة الحكومية راكبين خيولهم، أو على دراجات نارية، ثم تبدأ الدروس بعد ذلك. يحضر الطلبة حصتين دراسيتين قبل تناول وجبة الإفطار عند الساعة التاسعة تقريبًا، ثم يستأنف الطلبة دراستهم إلى الساعة الواحدة والنصف موعد الغذاء.

قلة قليلة من هذا المجتمع المدرسى هم الذين ينامون أو يرتاحون بعد تناول وجبة الغداء، حتى فى الأيام الباردة فى أواخر الشتاء عندما تهب ريح الهرمتان Harmattan قادمة من الشمال وتغطى العالم كله بغبار الصحراء الكبرى رمادى اللون. وفى أيام الجفاف وعندما تصل الرطوبة إلى أقصى حد من حدودها، وعندما تتشقق الشفاه، عند ذلك تحتد الأمزجة وينفد الصبر أيضًا فى بعض الأحيان، ويصبح الانسحاب الهادئ من الجماعة بعد صباح طويل عملاً من أعمال الحكمة والعقل، مثلما تكون التعسيلة Siesta أمرًا مقضيًا فى الصيف الحارق. وفى أواخر فترة العصر تبدأ الاستعدادات، واعتبارًا من أواخر عشرينيات القرن العشرين أصبحت تنظم مباريات كرة القدم، والكريكت، والهوكى، ولعبة الخماسيات Fives، التى تشارك فيها هيئة العاملين بالمدرسة إلى أن توشك الشمس على الغروب. كان التدريب الرياضى الدورى يحتم على كل طالب من الطلبة المشاركة فى اختراق الضاحيه أو "الدوران حول المدينة" الذى يبلغ طوله اثنى عشر كيلاً متريًا، يمشيها الطالب خارج أسوار كاتسنا، ثم يخترق المدينة عائدًا من جديد إلى الكلية. قام فصل أبى بكر ذات يوم، "بزيارة تعليمية" ذات يوم إلى قرية دُربى Durbi تاكوشى Takusheyi، لمشاهدة قبر طويل من قبور القدماء، والذى

يمكن أن يعلن عنه فى يوم من الأيام، بأنه واحد من الآثار القديمة، وهنا خطر ببال الطلبة الاستنتاج الذى مفاده أن أسلافهم كانوا أطول منهم بكثير جداً. وقام فصل آخر من فصول الكلية برحلة من رحلات توسيع الأفق، إلى ميناء هاركورت Harcourt، ذلك الميناء الأجنبى الموغل فى القدم عن الماضى المحلى البعيد.

يعود الجميع فور غروب الشمس إلى مناطق السكن والإعاشة. هذه المناطق تختلف عن بعضها البعض من حيث الحجم والتجهيزات، لكنها جميعًا تشترك فى أنها مبنية من الطين المخلوط بالقش، ومعروشة بالقش الذى يجذب النمل إليه، كما يجذب أيضًا الخفافيش والثعابين، كما أن مصابيح الإنارة الزيتية البسيطة تجذب إليها الحشرات المجنحة. الكل يقرأون فى الكتب. وكان البريطانيون يسلّون أنفسهم بلعب البولو polo مع أفراد أسرة الأمير وهيئة العاملين فى الإدارة المحلية، فى النادى الصغير مع قلة قليلة من رفاقهم الإداريين ورؤساء الأقسام، أو قد يسلون أنفسهم بلعب البررج فى منازلهم، أو فى الحديث مع بعضهم البعض، أو فى تناول المشروبات أو بصحبة أجهزة الجرامفون النقَّالة. كان المدرسون النيجيريون جزءاً من المجتمع المحلى، وكان من الطبيعى لهم أن يقتادوا الطلبة إلى المسجد الكبير فى البلدة لأداء صلاة الجمعة. كان الطلبة (ويحق ألا يغيب عنا أنهم يكونون فى العشرينيات عندما يغادرون مواطنهم إلى كلية كاتسنا) يدرسون، ويقرأون، ويثرثرون ويلعبون اللُّعب مع بعضهم البعض. كان الميسر والقمار أمرين ممنوعين، لكنهما لم يكونا مجهولين.

كان هناك شخصان شهيران يقدمان المزيد من الأعمال الدنيوية المُلِحَّة. كانت هناك امرأة يعرفها الجميع، وتدعى ماعى A'i ماى Mai وينا Waina، كانت تصحو عند الساعة الثالثة ليلاً لتصنع بعض الفطائر المصنوعة من السرغم (الذرة العويجة)، وعندما يطلع النهار ويبدأ الناس فى التحرك ينهال عليها طابور من الطلبة الجياع، وهم يرتعدون من البرد، وتراهم داخلين أو خارجين من منزل هذه السيدة لشراء بعض الطعام للحصول على قبس من دفء المكان. كان هناك أيضًا صبى يدعى ولد Dan

كويدو Kwaido، ويقوم بغسل ملابس الطلبة - لم تكن التنشية أو الكوى أمرين شائعين فى ذلك الزمان، وبخاصة بعد أن جرى استبدال قماش الجوادو الذى كان ينسج محلياً بقماش آخر يسمونه البفتة، لكن غسيل ولد كويدو كان ناصع البياض على نحو كان يسترعى انتباه عميد الكلية. هذا الاهتمام بالنظافة والأناقة، تنفيذا للمقولة البريطانية التى تقول: إن الفضائل من الإيمان، يصل إلى ذروته أثناء التفتيش الأسبوعى على مجمع الكلية بالكامل. والمنزل، الذى يتفوق فى ذلك التفتيش، يكافأ بأن يصبح من حقه رفع العلم، وعلى الرغم من منح بعض الجوائز الفردية فى نهاية العام تقديراً للشجاعة أو التفوق فى الدراسة وفى الألعاب، فإن هذه التقاليد الهيلينية فى المدارس البريطانية كانت أمراً شائعًا من منطلق أن ذلك يرمز إلى النجاح المشترك أو الجماعى الذى يجب إبرازه بمثل هذا الشعار.

تحول الهدف من كلية كاتسنا إلى تخريج نُظّار للمدارس المحلية، أو مدرسين للمدارس الثانوية، وكان هؤلاء الخريجون الأوائل يوقعون تعهداً أخلاقيًا، يتعهدون بمقتضاه بالتدريس لمدة خمس سنوات، بعد التخرج، فى الإدارات المحلية التى دفعت مصروفات تعليمهم. وفى العام ١٩٢٩-٣٠، عندما كان أبو بكر أمضى عامين فى المدرسة، جرى توحيد إدارات التعليم فى سائر أنحاء الإقليم الشمالى، طبقًا لما أوردناه فى الفصل الأخير من الكتاب. وترتب على ذلك تغيير اسم المدرسة إلى "كلية كاتسنا العالية"، على الرغم من أنها لم تكن مساوية لكلية يابا Yaba الجنوبية العالية، النتيجة الثانية تمثلت فى تقسيم المنهج بعد العام الثانى - واستمر منهج المدرسين على ما كان عليه من قبل، وقبل أبو بكر خيار أساتذته وخيار الحكم المحلى فى باوتشى، الذى يقضى ببقائه فى قسم المعلمين: أما الطلاب الآخرون فقد انخرطوا فى التعليم الثانوى الأكاديمى البديل ووقعوا تعهدات بالعمل فى الحكومة أو الإدارة المحلية بعد التخرج. لم يكن هناك فى الحاليين عدد كاف من المدرسين نظراً لأن السياسة والإدارة كانتا تنطلقان من هذه المهنة.

كان أبو بكر، فى ذلك الوقت، لا يزال جاداً، لكنه لم يكن طالبًا واعدًا تمامًا. كان أبوبكر يعمل المطلوب منه فى الألعاب وكان يفضل لعبتى الكريكت والهوكى، لكنه لم يكن يراهما على أنهما هدفان بحد ذاتهما. كان أبو بكر مشغوفًا بالتاريخ والجغرافيا، وأصبح أكثر من واثق بنفسه فيهما. وعندما أُدخلت العلوم فى العام ١٩٣١ مادة من مواد الكلية، لم يتخصص فيها أبوبكر، الواقع أن هذه المادة كانت بدائية ولم تكن هناك "أجهزة" حتى يمكن استعمالها فى تدريس هذه المادة. حلَّ المدرس م.و. أوكس **Oakes** محل باينمان **Bieneman** مدة عام.

فى العام ١٩٣٠ جرى توحيد قوات الشرطة الشمالية والجنوبية: كان هناك حوالى خمسة وثمانين ضابط أوروبى، ومعهم بعض كبار المفتشين من الأفارقة، يقومون على أمر القانون والنظام فى البلاد، كما كانت تساندهم فى ذلك بعض القوات التابعة للإدارة المحلية، وبعض المراسلين، فضلاً عن بعض الحراس **dogaris** فى الغابات والذين كانوا تحت إشراف الإدارة المحلية. فى العام ١٩٣١ لم تكن مسألة تجاهل العالم الدولى، واردة فى ذلك المجتمع النائى المنطوى على نفسه، ذلك المجتمع الذى كان ينشد الامتياز دون إسراف ويُعَوِّل كثيراً على هذه المسألة. كان الاسترخاء قد طال نيجيريا كلها بلا استثناء، دون أن يطال مظاهر التقدم المادية المهمة - كانت المستشفيات لا تزال تزيد أعداد أسرتها، وكانت المدارس لا تزال تزيد من عدد الأماكن المتاحة فيها، وتواصلت أعمال مد السكك الحديدية، وتواصلت مسألة تحسين الزراعة المختلطة فى الأماكن التى ثبت نجاحها فيها. فى باوتشى، كانت الإدارة المحلية تبنى مكتبًا رئيسيًا جديداً وخزانة جديدة، كما كانت تبنى أيضًا بوابة أسمنتية وشرفة لقصر الأمير. كان يجرى بصورة مستمرة أخذ الموظفين من أعمالهم للعمل فى مقاومة جحافل الجراد. لكن، لم يكن كل شيء على ما يرام. فقد بدأت تنتهى الصادرات البريطانية من الرجال والاستثمارات الجديدة. ولم يقتصر الأمر على التوظيف لشغل الأماكن الاستثمارية الشاغرة التى توقفت، وإنما فوجئ الشاغلون للوظائف بتخفيض نسبة

عشرة أو عشرين فى المائة من رواتبهم، بلا تفاوض أو مقدمات. يزاد على ذلك أن طلبة كاتسنا جرى تخفيض الشلنات الثلاثين التى كانوا يحصلون عليها، إلى اثنين وعشرين شلنًا وست بنسات فى العام الأول، ليرتفع ذلك التخفيض إلى حوالى نصف كراون فى الأعوام التالية، ثم يعود المبلغ إلى سابق عهده فى العام الرابع. وهنا تبددت آمال كل أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى وجود ثلاثة أو أربعة كليات عالية فى كاتسنا.

وعلى الرغم من أن أبا بكر كان مُطوِّرا متأخرًا وبلا طموح واضح، فقد تحول الصبى تحولاً بطيئًا إلى شخصية بارزة عندما وصل إلى الصف الخامس أو بالأحرى العام الأخير فى الكلية. لقد أصبح أبو بكر يشكل سابقة فى المنزل الشرقى من الكلية، كان أبو بكر يحمل لواء دعوة كان فيها غليظًا وصارمًا من منظور من هم دونه فى العلم، ولم يكن أبو بكر ينسى مسئولياته بأى حال من الأحوال. لم يكن الرجل كثير المزاح، وضرب مثلاً جيداً على الجد والاجتهاد. كان الرجل يتعامل مع اللئام بما يليق لهم وفى الحال. عثر أبو بكر ذات مرة على القمامة الناتجة عن كنس المنزل، بجوار سلة القمامة وليس بداخلها. وعلى الفور كتب أبوبكر الإعلان التالى :

الصِّبية سيظلون صبية! وبدءًا من اليوم

أتطلع إلى وضع القمامة فى هذه السلّة !

أبو بكر تافاوا باليوا

فسَّر غلمان الهوسا المراهقون ذلك الإنذار بأنه شديد اللهجة. لكن الذى بهر أساتذته الإنجليز هو شغف هذا الصبى وتساؤلاته العميقة التى من قبيل: "ما هى المملكة؟ وما هى "الأرستقراطية"؟ هل ينبغى تعليم المرأة ؟" كانت هذه الأسئلة تنطلق من فم الرجل قبل المحاورات، أثناء تأليفه خُطَبِة بعناية على الورق، ثم يروح يحفظها عن ظهر قلب أثناء الليل، وقد داوم أبو بكر على هذه الطريقة طوال حياته، وقد تمسك بها أكثر عندما علم أن تشرشل كان يفعل الشىء نفسه أيضًا. كانت بعض أسئلة أبى بكر

محرجة تمامًا، يزاد على ذلك أن إحراج هيئة العاملين ولطفهم، حتى فى غياب اللاسلكى والصحف الدورية، كل ذلك كان يعجز عن قمع الإلمام بمعرفة الأحداث المضطربة فى العالم الواسع.

فى العام ١٩٢٩ أصبح موضوع إضراب النساء مثارًا لحديث الناس كلهم، إذ كانت هناك شائعات تفيد أن النساء فى مدينة أبا Aba فى جنوب نيجيريا، كُنَّ سيقمن بالإضراب والتظاهر احتجاجًا على ضريبة مزمع فرضها على النساء (طبقًا لنظام جديد أرساه الرؤساء Chiefs، فى الوقت الذى لم يكن لمثل هذه الضريبة مثيل فى تقاليد المجتمع السابقة)، وربما كان مؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد فى الهند سببًا آخر من أسباب هذا الإضراب، فقد جرت فى ذلك المؤتمر مناقشة مكان من الإمبراطورية يخصص لغير البيض، لكن من غير المرجح أن يكون إنشاء صندوق طبقًا لقانون التنمية الاستعمارية فى المملكة المتحدة، لم يلاحظه الناس فى كاتسنا، وأن هناك أيضًا حقيقة مفادها أن هذا الصندوق يهدف إلى الإقراض ومنح النقود للتخفيف من البطالة البريطانية والحث على التنمية الاقتصادية الاستعمارية، وأن هذين الهدفين لم يكن لهما سوابق حكومية أخرى، ومن المؤكد أيضًا أن لا أحد كان يعرف آن العام ١٩٢٩، هو العام الذى جرى فيه استخدام مصطلح التفرقة العرقية apartheid فى جنوب إفريقيا.

قامت الأميرة ماريا Marie ـ لويس بزيارة غرب إفريقيا، وكان ذلك من قبيل المخاطرة من جانب سيدة صاحبة مقام رفيع ومن الأسرة المالكة. وفى العام ١٩٣٠ بدأ المهاتما غاندى حملته التى تقوم على العصيان المدنى، وأدت الثورة التى حدثت فى الحبشة إلى أن يحل راس Ras تافارى Tafariمحل الإمبراطور هيلاسلاسى Haile se-lasse، كما جرى أيضًا فى المؤتمر الإمبريالى رفض المقترح الكندى الخاص بأولويات مناطق إنتاج القمح. وفى العام ١٩٣١ التحق بالكلية صبى جديد هو يحيى Yahaya جوساو Gusau، الذى سرعان ما أصبح صديقًا لأبى بكر، وجرى أيضًا افتتاح جسر

Bridge كارتر Carter، وأصبحت ليجوس فى نهاية المطاف متصلة بالأرض النيجيرية الأم بواسطة طريق معبد تسير عليه السيارات، وجرى أيضًا القيام بمسح للطرق للوقوف على احتمالات مد الخطوط الحديدية النيجيرية إلى منطقة الشمال الشرقى، وذلك من باب إحياء بعض أفكار السير فردريك لوجارد. وفى الهند وافق كل من غاندى ومؤتمر الهندوس على الاعتراف بمقررات مؤتمر المائدة المستديرة الخاصة بالتقدم الدستورى، لكنهما لم يتفقا على حقوق الأقليات الدينيه، بما فى ذلك الملايين العديدة من المسلمين، كانت لائحة مجلس الوزراء البريطانى قد حددت " وضعية الممتلكات " dominion بأن صاغت مفهوم الارتباط الحر داخل كومنولث Commonwealth من الدول المتساوية والمستقلة تشترك كلها فى الولاء للتاج.

لكن فى الوقت الذى كان السياسيون الهنود بعيدين فيه عن الحياد الطائفى والتسامح الدينى، كانت هناك قلة قليلة من المسئولين البريطانيين الذين كانوا يرون أن مسألة وجود ممتلكات إفريقية سوف تتحقق إبان حياتهم. فى العام ١٩٣٢ جرى على الورق ضم الإدارات والخدمات المدنية المُستعْمَرة فيما يسمى الخدمات الاستعمارية الموحدة، وكان وزير الخارجية هو المسئول عن تنسيق هذه الخدمات وتنظيمها، بل إنه كان المنظم الوحيد لكل هذه الخدمات، ومع ذلك بقيت هذه الإدارات والخدمات تدار وتحصل على رواتبها طبقًا للظروف المحلية المتبعة فى كل حكومة من حكومات ما وراء البحار، والتى تستخدم كل العاملين فى تلك الإدارات والخدمات، فى العام ١٩٣٢ جرى أيضًا إبطال حزب المؤتمر الهندى من الناحية القانونية، وألقى القبض على السيد/ غاندى، وفى العام ١٩٣٢ أيضًا جرى الاتفاق أيضًا على بعض الأفضليات الإمبريالية المتواضعة، وذلك فى المؤتمر الذى عقد فى أوتوا Ottawa. شهد العام ١٩٣٣ زيارة عودة قصيرة "لقبر الرجل الأبيض" فى غرب إفريقيا، وقد قامت الأميرة ماريا لويس بهذه الزيارة، وماريا هى ابنة عم الملك الكبيرة وأكثر أفراد الأسرة المالكة أسفارًا، وعادت نيوفوندلاند Newfoundland لتصبح واحدة من المستعمرات المعانة نظرًا لأنها لم

تستطع تحمل تبعات الاستقلال، وأدت معارضة الولايات المتحدة، هى ومسألة نظرية "شراء" القومية البريطانية إلى فشل محاولة عقد مؤتمر نقدى واقتصادى عالمى فى لندن أملاً فى إحداث نوع من الاستقرار فى أسعار العملات. وفى العام ١٩٢٦ جرى إنشاء هيئة التسويق الإمبراطورية، وهى إحدى الهيئات البريطانية الرسمية العالية، فى ظل سيطرة محدودة غير مسبوقة من قبل الخزانة البريطانية، كانت تلك الهيئة تهدف إلى تطوير التنمية الاقتصادية الإمبريالية المتبادلة من خلال أبحاث إنتاج الغذاء، ومن خلال التسويق والإعلانات، وقد فعلت تلك الهيئة الكثير لنشر هذه العقيدة خلال الأرض الأم، والتى مفادها أن الصفة "بريطانى" تضم إمبراطورية من الممتلكات والمستعمرات متعددة الأعراق، وغير عسكرية، ومحبة للسلام وتستفيد من بعضها البعض، هذه الإمبراطورية جرى ضربها فى العام ١٩٣٣، وذلك من خلال السيطرة السياسية من جانب أولئك المقتنعين بمزايا إصلاح، التعريفة (أى، رفض التجارة الحرة) أو تخفيض الإنفاق الحكومى الذى لا لزوم له. من جانب آخر، كانت معظم الحوارات تدور عن موضوعات مجردة، وكان السواد الأعظم من الأداء منحازًا، الأمر الذى أثار حفيظة ملكات أبى بكر النقدية، كانت المسائل الدولية والسياسة الوطنية أمرين يندر الحديث عنهما فى أى مكان من المدارس فى الدنيا كلها فى ذلك الوقت، وكانا متروكين لكبار السن والخبرة. يزاد على ذلك، أن الاقتصاد فى الجامعات لم يكن يُنْظَرُ إليه نظرة احترام وتقدير، وكان التاريخ الحقيقى ينتهى عند العام ١٩١٤ فقط.

على أى حال، لم تكن مباهج أبى بكر من النوع المبالغ فيه، وكان فخره الأكبر يتمثل فى حصول منزله المدرسى على جائزة الكريكت. فى عام أبى بكر الدراسى الأخير فى الكلية قام عميدها توم Tom بالدوين Baldwin فى ذلك الحين، والذى خلف تى . اس . فيلبس Phillips فى العام ١٩٣٢ بشن هجوم على الحواجز الثقافية المتبقية، ورتَّب لقيام زوجين شابين بدعوة قدامى الطلاب لتناول الشاى. وقامت مابل Mable وتونى Tony شلنجفورد Shillingford بإقامة أول حفل من حفلات الشاى، الذى وجد

السواد الأعظم من الشباب أنفسهم يتحدثون فيه أول مرة حديثًا اجتماعيًا إلى امرأة أوروبية. لقد سبق لهم لقاء هذه المرأة وتحيتها مرات عدة، وكان الأمر طبيعيًا تمامًا، كان الغريب حقًا في ذلك الحفل هو ذلك الطابع البريطاني العام الذي تحكمه السلوكيات. بعد ذلك بعشرين عامًا، وعندما أصبح شيلنجفورد مفتشًا عامًا للتعليم في الاتحاد، كتب له رئيس الوزراء المعين الجديد ليذكّره أنه أكل في تلك المناسبة نوعًا "من الحلوى العجيبة التي يسمونها مئات والآلاف" ويجرى فرده على الخبز مع شيء من الزبد، والذي لم يسبق له أن أكله قط قبل هذه المرة. تذكر الرجل أيضًا قدرته في تلك السنوات على تقليد المدرسين البريطانيين الذين كانوا في كلية كاتسنا، والذين كان من بينهم أيضًا كل من أريك Eric مورت Mort، وإي E إي E نيكولسون Nicolson، الذي كان صاحب سلوكيات خاصة دونًا عن سائر المدرسين الآخرين.

في العام ١٩٣٣، أي العام الأخير للعميد، استرعى انتباهه صبي من الطلبة الجدد اسمه عبد الرحمن مورا Mora. وجرى في ذلك العام إدخال الامتحانات التحريرية في منهج المدرسة لأول مرة، باعتبار أن ذلك جزء من مشروع موازنة المعايير بين شمالي نيجيريا وجنوبها. حتى ذلك الحين، كانت هيئة التدريس بكاملها توافق على عمل تقييم عام للوقت الذي أمضاه الطالب في الكلية، وكانت الشهادات تمنح في ضوء هذا التقييم: من يحصل على أقل من ٥٠ في المئة يكون في عداد الراسبين، ومن يحصل على ٥٠-٧٥٪ يكون ترتيبه الثالث، ومن يحصل على ٧٦-٩٣٪ يكون في المرتبة الثانية، ومن يحصل على ٩٤-١٠٠٪ يكون في المرتبة الأولى. حصل أبو بكر على شهادة من المرتبة الثالثة، متميزًا في الإنجليزية، على الرغم من تركيز آماله كلها على التاريخ والجغرافيا، لأنه كان يكره الرياضيات. يذكر أصدقاء أبي بكر أن أحدًا منهم لم يستطع الوصول إلى المرتبة الأولى. ومع ذلك، اختاره زملاؤه لإلقاء خطبة الوداع في الحفل Wasa الذي يقام بهذه المناسبة. وكان من بين الطلبة الأصاغر، صبي من زاريا

يدعى نوح Nuhu بامالّى Bamalli، وهو من طلاب الصف الأول، راح يستمع إلى أبى بكر من مسافة بعيدة، وهى يلقى خطبة الوداع.

عاد أبو بكر إلى موطنه فى ظل ظروف متغيرة. فقد أدى الكساد إلى حدوث نقص فى العملات والنقود. فقد جرى فى إثر وقف التوظيف، وتخفيض الإدارة، وتخفيض الضرائب أيضًا الذى سبق الإشارة إليه (١٠٪ بشكل لعام، ٢٠٪ لبعض العاملين)، وجرى إدخال ضريبة الدخل وضريبة رأس المال. أدى التحديد الواقعى للنقد إلى تخفيض الإنفاق العام، وقد أصاب الضرر الأكبر برنامج هيئة العاملين فى التعليم، الذى تحملت فيه كل من ليجوس وكادونا نصيبًا متساويًا من الأولويات. وعندما وجدت الإدارة الزراعية نفسها مهددة بالإلغاء الفعلى سارعت إلى استحداث اهتمامات جديدة فى غابة الشمال وراحت تحث على المزيد من الزراعة المختلطة، كما سارعت إدارة الجولوجيا إلى تنويع عملها ودخلت فى مسألة حفر الأبيار. حدث ذلك كله، لأن حاكمًا جديدًا عاد ثانية إلى ليجوس وهو السير دونالد Donald كاميرون Cameron الذى جاء من تنجانيقا Tanganika. كانت تقاليد "الحكم غير المباشر" تلقى أيضًا نوعًا من الهجوم. كان من رأى كاميرون، مثل بعض المحليين الخارجيين، أن أسلوب الإدارة اللوجارى Lugardian، أصبح على أيدى القلة يعنى أن نظام الولايات الإمارتية الحالية فى الهند، التى يحكمها ملوك إقطاعيون، هو نظام محمى من العالم الخارجى، ومحمى أيضًا من الوصول التى اتفاق مع الجنوب المسيحى الآخذ فى التزايد والاتساع. وعلى الرغم من أن اضطرابات أبا Aba ومتاعبه نشأت بطريق غير مباشر، عن الاعتقاد الذى مفاده أن النساء ستفرض عليهن ضريبة، فإن هذه الاضطرابات والقلاقل يمكن ردها بواسطة المحليين الآخرين إلى الانهيار الذى أصاب وول Wall ستريت Street فى أمريكا وإلى الانخفاض الذى طرأ على أسعار الزيوت النباتية. هذه المتاعب هى التى أجبرت كاميرون Cameron على فرض السلطة والتحكم، بدون مبرر، فى بعض، مناطق الشمال على سبيل المثال، التى لا يعد الإسلام فيها أسلوبًا للحياة. واقع الأمر أن

كاميرون كان يبالغ فى قدرات الكادر الإدارى الصغير، على تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى غياب الثروة الحقيقية التى يتعين استثمارها، يضاف إلى ذلك أن الرجل كان متغاضياً عن مسألة تردد الآباء فى إلحاق أبنائهم بالمدارس.

انترع كاميرون السلطات القضائية من الممثلين المقيمين المسئولين عن المقاطعات ومدّ أجل المحكمة العالية، التى لم يكن قضاتها يتحدثون بالإنجليزية، أو يفهمون أساليب الشعوب المختلفة. تسبب كاميرون فى تنزيل درجات الحكام المساعدين فى الشمال والجنوب، وجعلهم مجرد موظفين مفوضين، هذا يعنى أن هذه الوظائف لم يعد لها طابع "وظائف قصر بكنجهام". لقد أقدم كاميرون على ذلك (وذلك على حد قول المحيطين به)، لأنه استاء عندما اكتشف أن الترجمة الهوساوية للمصطلح لا تفرق بين الحاكم ، والحاكم المساعد – لكن لقب حاكم كادونا بقى كما هو، بدلاً من مصطلح أو لقب الحاكم العام للشمال. وأعاد كاميرون أيضًا تسمية السكرتير المركزى (ذلك المنصب الذى شغله هو فى عهد لوجارد) إلى كبير أمناء الحكومة، كما أنشأ الرجل أيضًا سكرتارية مركزية حقيقية فى محاولة منه للتحكم فى السياسة وفى التنفيذ فى المقاطعات شبه الذاتية - كما أدخل الرجل أيضاً بعض الإصلاحات العقابية الصغيرة، تسبب البعض منها فى إثارة الكثير من الانتقاد من منظور اعتبار ذلك نوعًا من التحسين . لم تكن المناصب العالية موافقة على التجديدات كلها التى أدخلها كاميرون، على الرغم من أن تلك التجديدات كانت تروق لكثير من أولئك الذين يتطلعون إلى استمرار التغيير - عندما أوصى الحاكم بتوبيخ بعض الموظفين بل وطردهم الذين لهم علاقة بمظاهرات أبا **Aba** وإضراباته، كان اللورد باسفيلد **Passfield** وزيراً للداخلية (باسفيلد هذا هو كان هو السيد/ سيدنى **Sidney** ويب **Webb**، الذى سبق أن أجاز فلسفة "الانتداب الثنائى" فى ورقة بيضاء عن أولوية المصالح الوطنية، عند تنمية موارد سكان منطقة من المناطق وازدهارهم :

إذا كاودا هناك من يستحق الطرد، فهو الحاكم ـ السير دى كاميرون باسفيلد.

هذا المبدأ لم ينقذ أى رئيس من رؤساء الأحياء ـ الذين قال عنهم رؤساؤهم إنهم أبلوا بلاءً حسنًا فى الظروف بالغة الصعوبة، لكن جرى انتقادهم فى التقرير الرسمى ـ من فتح النار على أنفسهم بسبب الظلم البين الواقع عليهم بعد أن نُقلوا إلى أماكن نائية لا تحتاج إلا رجلاً واحداً. ومع ذلك كشف كاميرون عن شيء من الحذر فى البداية، عندما عكس العملية ووضع القبائل الوثنية تحت إمرة رؤساء الأحياء المسلمين، على الرغم من وجود ذلك فى بعض مناطق إمارة باوتشى، وبخاصة قبائل تل الجراوا Jarawa وقبائل اللير Lere المجاورة لأبى بكر، والذين يسمون السّياوه Seyawa، وذلك فى خمسينيات القرن العشرين. هبت ريح التغيير المركزية هذه بشكل لطيف جداً على بلدة باوتشى، على الرغم من أنها أثارت شيئًا من القلق فى مكتب الممثل المقيم الصغير المبنى من اللّبن، لكن بلدة تافاوا لم تستشعر تلك التغييرات. كانت ليجوس لا تزال عالمًا قائمًا بذاته، وكانت أساليب الحياة فيها باقية على ما كانت عليه من قبل، وليتبعها بنو آدم حيث قَدَّر لهم الخالق أن يكونوا.

الفصل الثالث

المُعَلّم أبو بكر الطالب - مشروع كاتب روائى

الحصوة الواحدة لا يمكن أن تُسوّى أرضية كاملة(*)

حقق كثيرون من المشاهير نجاحًا ولقوا حتفهم بعد سنوات طويلة من العمل "عبيدًا فى قوارب القادس"، بلا مكافأة، ومطمورين، دون أن يتأكدوا من أن آراءهم الشخصية فى قيمتها لا تقوم على أى أساس. لم يحدث مطلقًا أن حدث حتى ولو مرة واحدة أن فكر أبو بكر فى السنوات الاثنى عشرة التالية على أنها سنوات الكدح والعرق. هذه السنوات هى التى حققت الإحساس الذى كان يعتمل داخل أبى بكر عن الحياة. عاد أبو بكر إلى موطنه حيث عين مدرسًا فى مدرسة باوتشى المتوسطة. هذه الوظيفة الشاغرة جرى إنشاؤها فى تقديرات الخزانة المحلية فى ظل فرضية مفادها أن أبا بكر سوف ينجح، وذلك على الرغم من الضوائق الاقتصادية فى ذلك الوقت - ولو قدر لأبى بكر أن يفشل، فإنه سوف يجرى توظيفه، لكنه سيحصل على أجر أقل من أجر الناجح. جرت فى العام التالى مراجعة رواتب مدرسى المقاطعات الشمالية التابعين للإدارة المحلية، وجرى وضع جداول موحدة للرواتب فى ظل تلك المراجعة: وجرى تثبيت الحاصلين على شهادات عالية من كلية كاتسنا على راتب يقدر بأربعة جنيهات إنجليزية فى الشهر لفترة اختبار تمتد من عام إلى ثلاثة أعوام، على أن يزيد الراتب إلى خمسة جنيهات إنجليزية بعد فترة الاختبار. وحصل أولئك الذين يحملون

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

شهادات من المدرسة الإلزامية على جنيهين إنجليزيين فى الشهر الواحد، وبعد فترة الاختبار يحصل المدرس على راتب مقداره ثلاثة جنيهات فى الشهر إن **تيسر ذلك** - كان الجميع يعرفون أن الخزانات الفقيرة قد لا تستطيع توفير هذه المبالغ. كان الراسبون يحصلون على مبلغ لا يزيد على ثلاثين شلنًا فى الشهر، وذلك لمدة ثلاث سنوات على أقل تقدير. ويقضى جيل أبى بكر فترة من الزمان قبل أن تستطيع الإدارات المحلية استخدام أناس أكفاء، إن هى استطاعت أن تدفع لهم أجورا مجزية، وذلك على الرغم من أن رواتب العاملين الصغار فى الحكومة المركزية لم تكن أكبر بكثير من هذه الرواتب. يزاد على ذلك، أن ضغوط العمل تكون أقل بكثير عندما يعمل الموظف فى موطنه.

هنا يتعين علينا القول: إن الناس فى هذا المجتمع، بدءًا من رؤساء الأحياء وكبار المسئولين، ووصولاً إلى عمال المدارس، يتعين على كل واحد منهم القيام بزراعة قطعة من الأرض تمنح له، أو قد يجرى تأجيرها له طبقًا لمنظومة شبه إقطاعية من الناحية التأجيرية. لكنها تفتقر إلى الجوانب العسكرية التى فى منظومة التأجير الإقطاعية البريطانية. كانت مسألة إنتاج المحاصيل النقدية أو المحاصيل الغذائية لا تزال تحظى بكثير من الأخذ والرد بين أفراد الطبقة الرسمية المحلية. أفراد هذه الطبقة هم الذين كانوا يبنون بيوتهم، عادة على قطع من الأرض التى كانوا يحصلون عليها على شكل منحة من الأمير أو رئيس الحى، وهم أيضًا الذين كانوا يقومون ببناء مجمعاتهم السكنية بعون من بقية أفراد العائلة والجيران، مستهدفين بذلك تخفيف التكاليف الخاصة بالطين، والجدران الخارجية التى يصنعونها من الحصير، وتخفيض تكاليف الألواح المصنوعة من الطوب اللبن، ومقتصدين أيضًا فى حُزَم السقف وفى القش، وفى كلفة الأرضيات. كانت النوافذ عبارة عن فتحات صغيرة فى الجدران، وكانوا يصنعون لتلك النوافذ شيشًا من الخشب فى بعض الأحيان. يضاف إلى ذلك أيضًا ذلك العدد الصغير من مستخدمى الحكومة المركزية القادمين من الجنوب (وبخاصة الكتبة، وعمال البريد والتلغراف الذين يعيشون فى أراضٍ خاضعة للتاج ومملوكة لإدارة الأشغال

العامة، ويدفعون إيجارات عرفية مُعَانة للحكومة المركزية) كانوا يتطلعون إلى الحصول على شىء من الحظوة من قبل الإدارة المحلية، وأن تمنحهم قطعًا صغيرة من الأرض فى أى مكان لكى يقوموا بزراعتها.

نستطيع مقارنة ذلك "بكبار الموظفين" (أى الموظفين البريطانيين الذين يعملون فى الحكومة المركزية)، الذين كانوا يحصلون فى ذلك الوقت، وهم لا يزالون خرِّيجين جدداً، على راتب مقداره ثلاثين جنيهًا إنجليزيًا فى الشهر. ويستطيع هذا الخريج، وبدون الحصول على مزرعة، أن يدفع الضرائب و"الجباية المقررة على رأس المال"، وكان ذلك المبلغ يكفى أيضًا لأن يدفع الخريج منه أجر الطباخ، وأجر رئيس الخدم، "الذى غالبًا ما يكون غلامًا صغيراً"، كما يكفى أيضًا لدفع أجر العامل الذى يقوم على أمر تنسيق الحديقة والمجمع السكنى. تجىء بعد ذلك فواتير طعام هؤلاء الخريجين المحلية والمستوردة (والذى لا شك فيه أن تلك الفواتير كانت تشمل كرتونًا من البيرة وقارورة أو اثنتين من المشروبات الروحية)، هذا بالإضافة إلى القسط الشهرى الذى يدفع سداداً لديونهم المستحقة لمزوديهم الاستوائيين فى لندن، الذين كانوا يقومون بتمويل احتياجات كل واحد من هؤلاء الخريجين طوال رحلة تدوم ثمانية عشر شهراً يؤدون خلالها خدمة مستحقة للإدارة الاستعمارية فى غرب إفريقيا (بما فى ذلك الانتقالات البحرية لزوجات كبار الموظفين البريطانيين). هؤلاء الخريجين، إذا ما أمضوا القسم الأكبر من جولتهم فى السفر والتجوال، وحصل الواحد منهم على مبلغ الشلنات الخمسة، المخصصة بدلاً للانتقال الليلى، يستطيع الواحد منهم ادخار مبلغ لا بأس به يستفيد به فى عطلته التى يمضيها فى إنجلترا. فى المناطق التى من قبيل باوتشى، والخالية من ذباب التس تسى، إذا ما جنَّب الخريج بدل الحصان، ولم يضيعه فى لعبة البولو، فإن ذلك المبلغ يكفى لتغذية الحصان ودفع أجر السايس، وقد يكفى أيضًا لسداد القسط الشهرى للمقدم الذى تدفعه الحكومة لشراء الحصان ومستلزمات سرجه. والنيجيريون يحصلون أيضًا على ميزة الحصان هذه – الأمر الذى كان

يجعلهم مدينين لجهة من الجهات. كانت هناك بعض البعثات التبشيرية التى كانت تتهرب من الضرائب بأن يُحصلُوا المائة جنيه الأخيرة بطريقة قانونية تفيد أنها

كانت : $\frac{٣}{٤}$ بنس ١١ شلن ١٩ جنيه ٩٩ .

وعلى الفور تخلص أبو بكر، وعلى وجه السرعة، من الجوانب المتبقية من حياة التلمذة التى استمرت إلى العام العشرين من عمر الرجل، ودخل الرجل غرفة الدراسة بصفته "المعلم أبو بكر تافاوا باليوا" الوقور، مدرس الفصل الجديد، وهذا تغيير كبير لكنه ليس مثيراً. كانت هذه المدرسة قد أنشئت فى الركن الجنوبى الغربى الظليل من تل كوبى Kobi، وتل كوبى هذا عبارة عن طبقة بارزة من الصخر الجرانيتى على سطح الأرض التى جرى بناء بلدة باوتشى حولها، وهذا التل يسهل تسلقه وأقل وعورة من السواد الأعظم من السمات الصخرية الأخرى فى الإمارة، على الرغم من أن هذا التل لم يكن ناعم الملمس أو شبيهًا بالقبو الذى فى تافاوا باليوا. وأُعْطى أبو بكر سكنًا باعتباره من أعضاء هيئة التدريس، بل إن هذا المسكن كان هو المسكن نفسه الذى كان يقيم فيه مُدَرِّسه القديم بابا Baba سيدى Sidi، أُعْطى أبو بكر السكن حتى يسهل الاتصال به، لكنه مثل رفاقه كان يعرف الأخطار المترتبة على "الأكواخ المربوطة"، وراح الرجل يتخذ من الترتيبات ما يمكنه من إنشاء مُجَمَّعِه السكنى فى مكان آخر من المدينة، على الطريق المؤدية إلى بوابة ران Ran. وجدَّد أبو بكر صداقته مع مُدَرِّسه محمد دانجيكا Dangikka، الذى كان يُدَرسه يوم أن كان فى المدرسة الإلزامية، والذى أصبح الآن مدرسًا زائرًا.

سارع أبو بكر مثل السواد الأعظم من أقرانه أصحاب الدخل المضمون، إلى الزواج. وعندما مضى عليه ستة أشهر، وبالتحديد من اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر، تزوج الرجل من حفصة Hafsatu، ابنة المُعَلم هليل Halilu، الباحث الفولانى الذى ينتمى إلى إحدى عائلات باوتشى، والذى أصبح قاضيًا شرعيًا فى بلدة آرى Ari فى زمان شياخة Chiefdom النَنجى Ningi. كان ذلك الزواج تقليديًا لكنه كان سعيداً

جداً. وقبل نهاية العام ١٩٣٣، أصبحت حفصة، التى كان البعض يعرفونها باسم زينب، حاملاً، وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس من العام ١٩٣٤ أسفر ذلك الحمل عن الطفلة عائشة، التى ظلت دومًا شهيرة ومحبوبة ويطلقون عليها اسم تلِّى Talle (وهذا اسم هوسوى معناه "اليتيم")، بمعنى الطفل الذى يشبه والده إلى حد بعيد جداً. كانت الولادة بمثابة مأساة، إذ توفيت حفصة، وفى ظل الفوضى والبؤس الذى ترتب على ذلك الحادث نُسيت الطفلة، ليجرى العثور عليها بعد إتمام عملية الولادة، ويتم الاعتناء بها بعد ذلك فى الوقت المناسب. ربما تكون وفاة الزوجة الأولى قد أثرت على أبى بكر تأثيراً كبيراً. وعلى الرغم من أن الرجل كان يحب زوجاته وأبناءه (الذين كان له عدد كبير منهم) حبًا جمًا، فإن الكثيرين من رفاقه وأصدقائه لم يكونوا ينظرون إليه باعتباره رب عائلة كامل: كان الرجل يُقدِّم عمله دومًا على كل شىء، وذلك من باب الواجب وليس من باب المتعة، وعندما كان يجد عذرًا قويًا يجعله ينسلخ عن العمل، فإنه كان يذهب، فى أغلب الأحيان، إلى مزرعته بدلاً من مجمع أسرته منعًا لإحداث المزيد من التوترات. كانت الزيجات الست التى جرى عقدها تحت إشراف الطاهر، الذى أبقى أبو بكر وحافظ على اتصاله وتواصله معه، تنتهى بالطلاق الإسلامى، الذى يجرى تسجيله أمام القاضى بعد أن تبذل المحكمة الجهد المطلوب للتوفيق بين الزوجين. كانت عائشة هى الزوجة الأولى، وجاءت بعدها هريرة Huraira، ثم متار Matar مالام Malam (التى اشتهرت باسم فاطمة)، ثم تسلا Tasalla، وكاندى Kande وأخيراً كابوه Kabo.

لم تستطع إحداهن محو ذكرى حفصة من ذاكرة أبى بكر، كل الزوجات الأخريات اكتشفن أن مسألة إقامة علاقات طيبة مع الزوجة الأولى أمر صعب التحقيق، وإلى حد ما لم تستطع إحداهن أن تكون أمًا بديلة صحيحة لابنته تلِّى (عائشة) الحبيبة. وتلقى هؤلاء الزوجات الست ربهن عبر السنوات العشر التى تلت ذلك. صحيح أنه كانت هناك قلاقل واضطرابات وعدم استقرار أو بالأحرى خلافات شخصية، لكن ذلك أمر يسير

عند الذين يعرفون أهمية التسلسل فى سلالة الذكور. لم تكن تجربة الرجل أو خبرته مختلفة أو شاذة عن خبرات الناس الآخرين، ونظراً لأن هذه المسألة تعد من الشئون المنزلية الخاصة فإنها لم تكن محطًا للملاحظة أو التعليقات الخاصة. ومن غير المرجح، ألا يكون لدى مشرفى التعليم فى محطة باوتشى، واللذان كانا يتقاسمان فيما بينهما مهام كل من مدرسة كوبى المتوسطة، ومركز تدريب المعلمين فى يالوا Yalwa، فضلاً عن جولات التفتيش على المدارس الإلزامية أو الأولية، من الطبيعى أن يكون لديهما من الأسباب ما يجعلهما يستمعان إلى مشكلات أسرة ذلك المدرس الصغير ومتاعبها، يزاد على ذلك أن المعلومات التى لدى رئيس الحى المدعو أر.إس.دافيز Davies، أو رئيس الحى الجائل، المدعو جون John إى.بى.هول Hall، الذى كان أبو بكر يتردد على الاجتماعات التى كان هذا الرجل يعقدها فى "المنطقة السكنية الحكومية"، وكان أبو بكر يخاطر بأطراف ثيابه التى كانت تتلفها عوارض من عجلات عربة ذلك الرجل، هذان الرجلان كانت معلوماتهما عن حياة أبى بكر ومشكلاته العائلية جد قليلة. زد على ذلك، أن المشرف الإقليمى على هيئة العاملين فى التعليم، والذى كان مقيمًا فى تورو Toro فى ذلك الوقت، على بعد حوالى ٩٦ كيلاً متريًا فى الناحية الغربية، على الطريق المؤدية إلى جوس Jos، فى منطقة مركز تدريب "المعلمين اللهجيين" من غير المسلمين، هذا المشرف لم يكن على علم كامل بأحوال أبى بكر الأسرية. وهذا هو السيد/ ب.إيه.باب Babb، المشرف الذى أمضى القسم الأكبر من وقته فى الفترة ما بين ١٩٣١ و ١٩٣٧ فى بلدة كوبى، كان يعطى المعلم أبا بكر تافاوا باليوا شلنًا عن كل ساعة يقضيها معه فى منزله لتأهيله لاجتياز اختبار لغة الهوسا المتوسط، وكان الرجل يدخل رواق أكواخ المعلم، لكن العادات لم تكن تسمح لأولئك الذين ليسو من الأصدقاء الحميمين للأسرة بالدخول إلى أبعد من ذلك فى أى بيت من بيوت المسلمين.

كان بيرلند Burland باب Babb أول من شارك فى مصاحبة زائر وهو يتجول فى المدرسة، أثناء حصة اللغة الإنجليزية التى كان المعلم أبو بكر يقوم بتدريسها، وراح الرجل يصغى وهو واقف خارج الفصل أمام الباب، ليحسب أن هناك أوروبيًا آخر ضمن هيئة العاملين بالمدرسة. كان المُعلم أبو بكر قد اشترى لنفسه مرآة يد خاصة دفع ثمنها من راتبه الذى يقدر بأربعة جنيهات إنجليزية، وكان يتبع الطريقة التى كان جيرالد Gerald باور Power يتبعها فى جعل تلاميذه يقلدون حركات لسانه وحركات فمه، مستخدمًا فى ذلك الهجاء الصوتى بدلاً من الهجاء المعجمى الأنجلور سكسونى العجيب. كان أبو بكر يعلم "الإزالة" Remove. و"الإزالة" هو الاسم الذى يطلق على فصل الالتحاق بالمدرسة، الذى يجرى فيه تجميع التلاميذ القادمين من المدارس الأولية، أو إن شئت فقل: المدارس الإلزامية، التى لم يتعلموا فيها النظر إلى مستقبلهم باعتباره منفصلاً عن حياة القرية، هؤلاء التلاميذ يجرى تعليمهم فى فصل الالتحاق هذا، أنهم من الآن فصاعدًا يتعين عليهم الخضوع لمعايير غير تقليدية من النظام، ومستويات غير عادية من التركيز والإبداع الذى يميزهم عن زملائهم، وأن الهدف من ذلك هو أيضًا زيادة آمالهم وأهدافهم المرتقبة. وعلى الرغم من أن السواد الأعظم منهم لن ينضم إلى الصفوة المختارة الحقيقية التى سوف تلتحق بالكلية، شىء شبيه بالجو الإنجليزى الذى يشيع فى المدارس العامة فى كاتسنا، فإن التركيز على الامتياز، والعمل السريع على تجنب الفشل، أصبحا يسيطران على المدارس المتوسطة.هذا كله أدى إلى عدم جعل كلمة "الإزالة"، التى يحتمل أن باوتشى لم تعرفها إلا بمحض الصدفه، فى ثنايا رواية من روايات ثاكارى Thackeray، التى كانت على رف من رفوف كتب أحد المسئولين، محطًا للسخرية والاستهزاء.

هذا التفرد الذهنى من جانب المعلم أبى بكر ترك لدى الموظفين البريطانيين، الذين عرفوه لأول مرة فى ذلك الوقت، انطباعًا أن ذلك الشخص فريد وليس له سوى قله قليلة من الأصدقاء الحميمين. لكنه بحكم أنه جديد وقليل الخبرة، وبحكم إدراكهم أن التلاميذ يعرفون ذلك أيضًا، فإن الرجل لم يستشعر أن بوسعه الاسترخاء فى وجود رفاقه فى

المدرسة. ولذلك آثر أبو بكر إشغال نفسه بتحسين التاريخ والجغرافيا اللذين كان يدرسهما باعتبارهما مادتين إضافيتين، وهنا راح أبو بكر يقرأ عن ابن بطوطة رحالة العصور الوسيطه، الذى عبر الجزء الأكبر من غربى السودان Sudan(*) (على الرغم من أنه لم يمر عبر ولايات الهوسا). كانت حصة التاريخ مزدوجة، تبدأ بها دروس يوم الأربعاء، وكانت بمثابة أفضل المواد التى أحب التلاميذ تلقّيها من أبى بكر. كان أبو بكر يدخل الفصل ويتأكد من نظافته، ثم يبدأ الحصة بصوت عال وواضح كانت تتردد أصداؤه قادمة من تل كوبى. كان الطُلاب يحبون ذلك لأنهم تركوا له حرية اختيار المنهج، الذى كان يغطى تاريخ غرب إفريقيا والتاريخ الإسلامى، وكان أبو بكر يفيد من كتاب هوجبن المعنون الإمارات الإسلامية النيجيرية، فى تقديم المزيد من التفاصيل المحلية، كما كان يفيد أيضًا من التاريخ "الإنجليزى" (أو بالأحرى التاريخ الغربى) متمثلاً فى نصوص قصيرة ومحددة. كان الرجل يتكلم بهدوء كامل فى حصص الجغرافيا واللغة الإنجليزية، وكذلك حصص الصحة العامة، لكن حماس الرجل ويقظته كانا يضمنان له النظام نظراً لأن عدداً كبيراً من التلاميذ كانوا يودون التعلم بلا تهديد بالعقاب ـ هذا هو ما قاله التلاميذ فيما بعد. كان أبو بكر يفضل بعض التلاميذ، شأنه فى ذلك شأن المدرسين العاديين كلهم، وكان يحثهم على الفوز بمدحه وثنائه: كان مراقب (رائد) الفصل على أبو بكر هو الذى يقوم بجمع كراسات التدريبات ويحضرها من منزل أبى بكر بعد تصحيحها، وكان على أبو بكر يسعد تمامًا عندما يذهب إلى السوق لشراء السجائر للمعلم أبى بكر (كان أبو بكر يفضل السجائر ماركة القرصان Pirate على ماركة الدراجات Bicycles أو السيارات Motors)، كان الصبية يحترمونه، لكنهم لم يكونوا يجدونه بعيداً عنهم مثلما يفعل الكبار.

(*) كلمة "السودان" هنا هى عكس كلمة "البيضان"، أى أسود وأبيض .(المترجم)

بعد عودة أبى بكر إلى موطنه بوقت قصير، جاء كبير المفوضين فى مركز التدريب التربوى فى باليوا لحضور حفل الافتتاح الرسمى للمستشفى الجديد الذى جرى بناؤه، مثلما أوردنا فى الفصل الأخير من هذا الكتاب. من سوء الطالع أن المستشفى لم يكن فيه سوى نفر قليل جداً من المرضى، وكان المسئول الطبى على أحر من الجمر إذ كان يود أن يثبت لصاحب السعادة كبير المفوضين أن الناس كانوا يقدرون مهاراته الطبية، وأن المبالغ القليلة التى خصصت للمعدات كان لها ما يبررها فى زمن الكساد. ظهر الطبيب فى منتصف المدرسة فى اللحظة الأخيرة، وراح يناشد الحاضرين إيجاد أجسام بديلة حتى يمكن شغل أسِرَّة المستشفى، ولعب أبو بكر دوراً كبيراً فى هذا الغش والخداع الكبيرين. لم يلاحظ الضيف الموقر على وجوه الشباب أى أثر من الآثار التى تدل على وجود عدد كبير من المرضى. كانت تلك واحدة من القصص التى كان أبو بكر يرويها بصورة متكررة، وهو يضحك، طوال حياته، ليؤكد فى بعض الأحيان لأولئك الذين كانوا يقولون إن الرجل يفتقر إلى الحس الفكاهى.

لم يكشف المعلم أبو بكر عن اهتمام كبير بالسياسة فى ذلك الوقت. كانت نيجيريا قد أوشكت على التمتع بأول فائض فى الميزانية بعد سبع سنوات من العجز، الأمر الذى أدى، إلى حد بعيد إلى استبعاد شبح المخاطرة بإحداث تغييرات جذرية. على جانب آخر، أحدث إمام سكتو المُعلم محمد سانى دنجيادى، هزة فى العام ١٩٣٣ عندما قام بجولة فى المدارس المتوسطة فى كل من سكتو، وكنو، وكاتسنا، وزاريا، التى تعد من المعاقل الحقيقية للحركة الإسلامية المحافظة، وراح الرجل، فى تلك الجولة، يلقى المحاضرات التى كان ينتقد فيها منظومات وراثة الحكم. كان الرجل يقول: إن سياسة المستقبل يمكن أن تأتى عن طريق التنظيم الحزبى، دون تحديد لنوعية الاقتصاد أو اللوائح والدساتير. لكن باوتشى لم تتحرك فى ذلك الاتجاه. وعوضًا عن ذلك كشف أبو بكر عن موهبة جديدة ازدهرت ذات يوم، لكن المؤسف أنها لم تتكرر.

كان روبرت Rupert إيست، الذى تزوج من زوجة فولانية فنانة، مشرفًا على مكتب الأدب، الذى أنشئ فى زاريا من قبل إدارة التعليم، لكى يقدم شيئًا يقرأه أولئك الذين تعلموا لغة الهاوسا بأحرف رومانية. قرر روبرت إيست عمل مسابقة لمؤلفى الهاوسا. تقدم البعض للدخول فى تلك المسابقة ودُعى بعض آخر للاشتراك فيها. وحصل المُعلم بللوكاجار هو "شيخ" Chaplain من الكلية العالية، جاء بعد أخيه المعلم أبو بكر إمام الذى خلف روبرت إيست East، فى منصب كبير موردى المادة القرائية الهوساوية، ويجيء فى المرتبة الثالثة المعلم أبو بكر تافاوا باليوا. لم تسفر هذه المسابقة إلا عن خمسة كتيبات صغيرة جرى نشرها، وبيع الواحد منها بست بنسات، ونصف البنس الذى كان بمثابة حق المؤلف. تأليف رواية الشيخ عمر Shaihu Umar، جاءت حدثًا فريدًا: لم تكن حياة المدرسة حافزًا كافيًا لإنتاج عمل من هذا القبيل. هذا يعنى أن ناظر المدرسة لم يكن لديه الفرصة كى يكتب أدبًا بعد ذلك، لكن هذه الرواية كشفت عن قريحة هذا الشاب الناضجة، والقيم التى تحكم عالمه. تغير السواد الأعظم من هذه المعايير بعض الشيء خلال الأعوام الثلاثين التى تلت ذلك تغيرًا كبيرًا على الرغم من نمو عالمه وتغيره.

[**تتمركز قصة أسفار** الشيخ عمر الرومانسية تمركزًا تامًا حول حب الرجل المفرط لأمه. شخصية الشيخ الإسلامية هى وتعليمه الإسلامى أيضًا، وكذلك إنسانيته وقبوله من المجتمع باعتباره "عالمًا" Mallam، كل ذلك يرسم صورة ذاتية للمؤلف نفسه. هذه الرِّواية، أو إن شئت فقل: الرواية الصغيرة ترسم صورة مثالية لحياة الأسرة الهوسوية، فى إطار خلفية السودان الغربى، التى يقيم فى ظلها، الأوروبيون البعيدون حكمهم بصورة مضطردة محاولين الهيمنة على العالم المعروف والمألوف، وذلك بدءًا من الخلافة التركية ومرورًا بمصر إلى الأراضى التى كانت تعرف ذات يوم باسم مالى Mali وسونغاى Songhai، كما يدفع المهدى بيرقه فى وجه السيطرة المصرية فى السودان.

هناك أيضًا أخ شرير يحذو حذو الحاكم المحترم، لكنه فى نهاية الأمر يحتفظ بمكانته الملكية. والمؤلف يصف فى هذه الرواية دسائس حياة الصفوة البلاطية المختارة واستبدادها، يصف ذلك كله وهو غاضب وغير راض عنه، ويقول: إن هذه الحياة، أو هذه المنظمة جاءت إلى الحياة، عرفتها الإنسانية دون الوقوف على الخطر المترتب عليها. يصور أبو بكر تجار العبيد، فى هذه الرواية لا بوصفهم مخلوقات لا تعرف الفضيلة وإنما بوصفهم بشر مثل سائر الناس، وكل ما فى الأمر أنهم قد لا يعيرون مشاعر الآخرين أى شكل من أشكال الاهتمام، ويصفهم أيضًا فى بعض الأحيان على أنهم قادرون على التفكر والتأمل والتدبر. العبودية حقيقة من حقائق الحياة، يسلم الناس بها باعتبارها جزءًا من المجتمع الذى يصفه المؤلف فى هذه الرواية الصغيرة، دون تشويه انفعالى من خلال المشاهد والمناظر الأجنبية؛ الإسلام يدعو إلى الرفق والشفقة على العبيد، ويشجع على عتقهم. وضع النساء واضح أيضًا؛ مهمتهن تتمثل فى قبول سلطة أزواجهن، وأن يرعين أطفالهن، وذلك بالتعاون مع قريباتهن، وصديقاتهن من أفراد العائلة، لكنهن لا يفقدن كراماتهن أو شخصياتهن. الأطفال يجرى فطامهم بعد حولين، والطفل الأول تقوم بتنشئته والدة الأب. وتنجح هذه الرواية الصغيرة فى رسم صورة للمراحل المهمة فى حياة أى إنسان من البشر مثل المولد، والزواج، ثم رحيل الزوجة بعد ذلك بثلاثة أيام إلى بيتها، كما تتناول الرواية أيضًا مسألة السحر، وبعض الطقوس السائدة بين الوثنيين، والجنازات، وإرضاع الطفل، والهجوم من قبل الغزاة، والأحداث التى تعرض على محكمة الرئيس، ووصف الطبيعة فى الإحراج، والعواصف الرملية.

الدرس الذى يستفيده القارئ من هذه الرواية هو أن الإنسان يجب أن يحتاط للخيالات التاريخية - التى مفادها أنه مادام الواقع البيئى وواقع الثقافة الموروثة يجعلان من الألم أو التعاسة أمرًا مقضيًا لا مفر منه، فلن يكون هناك مغزى للبحث عن

المجرمين حتى نلقى عليهم باللوم. ولا يجب أن نعلق الألم أو تلك التعاسة على المجتمع الذى أقيم على أساس من طاعة الله، وتشريف نبيه (ﷺ) وشريعته. حتى أسوأ الناس وأكثرهم شراً فى هذه الدنيا يمكن أن يرضى الله ويصفح عنهم. يزاد على ذلك أن القوافل البريئة يمكن أن تهلك فى العواصف الرملية. هذا يعنى أن الناس يرضخون لبيئتهم، وأن هذه البيئة لا تشكل شخصيات هؤلاء الناس، وأن الحب فطرى أو غريزى، أو بالأحرى لا يمكن تعلمه. الواقع أن ذلك التعاطف كان ملهمًا لذلك المُدرس المثقف المتان، الذى كان يعبد ربه ويحب أمه. وقد ينظر منافسوه ونقاده إلى ذلك، فى يوم من الأيام، باعتباره نقطة ضعف عند أبى بكر، نظراً لأن أولئك المنافسين والنقاد كانوا أكثر وحشية وأكثر طموحاً.

فى الوقت نفسه، كانت الرواية القصيرة، التى عرضت للبيع فى العام ١٩٣٤، قد نفذت من السوق، على الرغم من أنها جرى نشرها بعد ذلك من قبل مكتب الأدب، فى جريدة جاسكيا Gaskiya (الحقيقة) الهوسوية، لسد فراغ فى المادة المنشورة. وجرى نسيان هذه الرواية إلى حد بعيد، إلى أن امتدت إليها الأيدى فى أحد الأيام وحولتها إلى فيلم للتسلية والمتعة. هذه السهولة فى الكتابة استمرت مع أبى بكر طوال حياته، سواء فى اللغة الإنجليزية أو لغة الهوسا، وتمثل ذلك فى الرسائل الطويلة (التى كانت على العكس من رسائل الهوسا) تحتوى على الكثير من الحقائق المؤكدة، والآراء المدروسة، والتساؤلات المحددة، أكثر من الصيغ الطقوسية والتحيات التقليدية. لكن الوقت لم يكن قد حان بعد للذهاب إلى ما هو أبعد من تفهم الأسباب التى جعلت الأشياء تئول إلى ما آلت إليه، وكيف يمكن التحكم فى هذه الأسباب. لم يكن المعلم أبو بكر، مثل الشيخ عمر، على استعداد لتحدى إرادة الله التى تجلت فى خلقه وفى الأشياء. وفيما يتعلق بالروائى، الذى كان يجب أن يكونه أبو بكر، يجب ألا يغيب عنا أنه على الرغم من المسابقة التى أقامها روبرت Rupert إيست East، فإنها لم تبرز فى

دائرة الضوء سوى بعض الأسماء التى كان يمكن أن تتميز فى حياة الشمال العامة تحت أى ظرف من الظروف، هذه المسابقة لم تسفر أيضًا عن جمهور قرائى يعشق الفن القصصى الهوسوى أو عن مجموعة من الكتاب الذين يركزون على هذا النوع من الأنوا ع الأدبية الغربية. وبذلك يبقى التعبير الفنى الشفاهى بمثابة العمل الأساسى فى السوق أو مغنى الحفلات، أو بالأحرى بين الأميين. صحيح أن الشعر المدون كان موجودًا، لكنه خاص بالصفوة، وهو من قبيل الممارسة السياسية.

الفصل الرابع

المدرس الصغير

الماء الذى يكفى لاستحمام الجماعة، لا يعرفه المرء إلا إذا وقع فيه(*)

أدت الأحداث الدولية التى وقعت خلال السنوات القلائل التى تلك ذلك، إلى حدوث سلسة من التحركات، التى يقر القراء الحاليون من أصحاب العقول والأذهان التاريخية، أنها استقرت ووصلت إلى نهايتها. فقد بدأت الزعامة الصناعية وهى تتبوأ مركز الزعامة أيضًا فى الاختراعات، بدأتا تنتقلان من أوروبا إلى الولايات المتحدة فى المقام الأول (فى الوقت الذى كانت تتباهى فيه بريطانيا بأن لديها ثلاثة آلاف ثلاجة منزلية و ١,٧ مليون سيارة خاصة)، وكان لدى الولايات المتحدة مليونا ثلاجة منزلية و ١٩ مليون سيارة خاصة، وكان عدد سكان الولايات المتحدة ثلاثة أضعاف سكان بريطانيا). بدأت الهيمنة البريطانية (والهيمنة الفرنسية أيضًا لكن بصورة ضمنية) فى كل من آسيا وإفريقيا تلاقى أولى التحديات الكبيرة. ربما استطاع أصحاب البصيرة النافذة التوصل إلى الاستنتاج الذى مفاده أن لندن لن تكون الوحيدة، أو لن يقتصر عليها وحدها الاعتراف بهذه المستعمرة أو تلك، أو هذه المحمية أو منطقة الانتداب التى يمكن أن تنضم إلى العراق، أو بالأحرى إلى أسرة الدول التى تتمتع بالحكم الذاتى - ناهيك عن القرار الذى اتخذته باريس، والذى يسمح بأن تتجاهل فرنسا الفجوة الطبيعية فى

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

المكان والزمان، وأن تقوم بضم أراضٍ بعيدة، وشعب وثقافة أو استيعابهم وذلك من باب إرضاء غرورها. وهذه هى عصبة الأمم، التى يتزايد حرمانها من أهم الأصوات العالمية، الأمر الذى يجعلنا نقول إن عصبة الأمم تزيد من ارتكابها لخطأ التجسيم(*) المتمثل فى "السيادة العليا، أو الصوت الواحد"، فى ظل الفكرة الوهمية الخادعة التى مفادها أن الأحكام الأخلاقية المحددة إنما هى أمور واضحة وبينة، وأن الحق والصواب سوف يسودان الكون كله مع مثل هذا التجسيم. يزاد على ذلك، أن السيطرة على الأمراض، وإجراءات الصحة العامة بدأت تطلق شرر النمو السكانى، الأمر الذى لا يمكن احتواؤه فى كل مكان عن طريق الموارد التى يجرى اكتشافها أو تطبيقها.

ومما يدعو إلى السخرية أن الانفتاح على التبادل الدولى للمعلومات، والمعتقدات، والجهود، ومواد آخر غابة مغلقة وآخر الثقافات الجبلية صادف انفجاراً من انفجارات الشك الدينى. بذلك يتراجع الأمل المرتقب فى عالم متحد وعقيدة روحية واحدة، كما تراجعت أيضًا فكرة وجود منظومة سياسية توحيدية مُخلّفة، ينشد الناس من خلالها الخير للجميع، هذه الفكرة بدت بعيدة المنال وتثير الكثير من التساؤلات - اللهم باستثناء قلة قليلة داخل كل منظومة من المنظومات القائمة.

إذا ما نظرنا من باوتشى (حيث توجد قلة قليلة من البشر خارج الدائرة البريطانية ولديهم إمكانية الحصول على الأخبار اللاسلكية أو الحصول على الصحف بصورة دورية)، وكلما تحولت الرؤية بعيداً عن الأوامر المحلية الخاصة بالحصار، والعبادة، والولاء الرسمى، والدس الرسمى، نجد أن أهم الحركات فى ذلك الوقت تتمثل فى قيام هتلر. وعلى الرغم من تحذيرات تشرشل، عندما كان يعرب عن تخوفه وينذر البريطانيين بالتهديد المتزايد الناتج عن القوة الجوية الألمانية، فإنه كان يرمى من وراء تحذيره وإنذاراته هذه إلى توصيل شىء للنيجيريين، ألا وهو أن ذكر ألمانيا باعتبارها

(*) المقصود بالتجسيم ، هنا هو عزو الصفات البشرية إلى غير العاقل . (المترجم)

العدو الذى جرت هزيمته منذ أكثر من ستة عشر عاماً، كانت لا تزال ماثلة فى الأذهان. لم يتبين أحد من الناس وجود أية علاقة بين عودة النشاط الاقتصادى إلى بريطانيا التى ضربها الكساد والبدايات المترددة لإعادة التسلح، لكن التخوف من احتمال نشوب حرب جديدة تخوضها أطرافها فى مناطق أجنبية، وللأسباب الغامضة السابقة انتقل من البريطانيين إلى النيجيريين. وهنا نجد أن الموظفين الاستعماريين كانوا هم أول من تبين التهديد الذى تشكله الهيمنة السلطوية لذلك الذى يرى هؤلاء الموظفون أنه هو الإدارة الجيدة والمفيدة للدول الأقل حظاً وتبينوا أيضاً أن ذلك التهديد تتعين مقاومته.

هذه الآراء، نادراً ما كان أهل الصفوة فى باوتشى يعترضون عليها أو يقاومونها نظراً لأنهم لم تكن لديهم الأدلة التى تمكنهم من المناداة بآراء أخرى غير هذه الآراء. ذكريات هؤلاء الذين عرفوا الحكم الألمانى فى الكاميرون مختلطة ومشوشة: كبار السن من الجهلة كانوا لا يمانعون فى الاعتراف باحترامهم للألمان الأسطوريين الذين كانوا يعبرون عن نواياهم بصورة محددة دون أن يُتعبوا أنفسهم فى تقديم المبررات، وكانوا ينفذون تلك النوايا تنفيذاً حرفياً، وكانوا ينزلون العقاب الشديد بكل من يقف فى طريقهم. كانت الأساطير التى من هذا القبيل تدعم وتؤكد السمعة التيوتونيه(*) فيما يتعلق بالقسوة والغلظة، كما أزعجت تلك الأساطير البريطانيين أيضاً، من منطلق أن اليقين يعد بصورة أو بأخرى، أفضل من الشكوك المتصلة المزعجة حول الهدف الرئيسى الذى تسعى إليه ألمانيا، والذى غلَّف وطغى على الكثير من التجديدات الإدارية البريطانية. والذى لا شك فيه أن الشماليين رأوا فى التناقضات الظاهرية شيئاً من التقلب عندما أصبح بعض الضباط البريطانيين يميلون إلى جانب العدالة، والرحمة، والعطف. هذه المقارنات عادة ما تنطوى على عنصر كاريكاتورى انتقادى، يكون

(*) التيوتونى : شعب جرمانى أو سلتى قديم . (المترجم)

مقصوداً فى معظم الأحيان. ومن الصعب التسليم بأن الكثيرين كانوا يفضلون حكم القيصر Kaiser، ومن المؤكد أيضًا أن مشروع هتلر كان يُقَوّى من مسألة الموافقة عن طيب خاطر، على الممثل المقيم، ورئيس الحى، والمشرف المحلى على التعليم من بين التمسك بأشباه حقائق الحياة فى الثلاثينيات من القرن العشرين.

فى الوقت الذى استولى فيه الإيطاليون على الحبشة Ethiopia، كان الألمان قد أعادوا احتلال أرض الراين Rhineland، وكانت الحرب قد نشبت بين اليابان والصين. كان المعلم أبو بكر واحداً من العناصر المهمة فى مدرسة باوتشى المتوسطة. وقد وصل عدد الملتحقين بالمدرسة إلى حوالى ١٢٠ طالبًا فى مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، ثم تخرج الصف الأول من الفصل الرابع (وكان على أبو بكر من بين طلابه) فى العام ١٩٣٤ . كان أبو بكر أصغر قليلاً من الرجل الذى قُدر له أن يكون صديقًا مخلصًا لأبى بكر إلى أن وافته المنية، وهناك أبو بكر آخر اسمه جاربا Garba كافن Kafin مداكى Madaki، صاحب منزل رئيس الحى، كانت طريقة المعلم جاربا مختلفة عن طريقة أبى بكر، وكان لديه إحساس طفيف وخفيف بالفكاهة، وكان يعى أيضًا مدى محدودية اللوائح التى من وضع البشر. كان جاربا أيضًا مدركًا لمدى تعرض الأحياء وانكشافهم كل يوم أمام الشخصيات الراسخة المتصلبة، سواء أكان ذلك التحدى مبنيًا على التفاخر الروحى أم الطموح الذاتى الأنانى. كان هذان الاثنان طوال حياتهما يناقشان كل شىء: كانا يناقشان محضر ملف السلطة المحلية أو الحكم المحلى إن شئت، وسلالة رئيس حى جانجوا Ganjuwa النسبية، وبخاصة أن هذا الرجل قَبِل ارتقاءه سلم الإدارة المحلية المتدرج بشىء من الشك باعتبار أن ذلك حق له، وجد نفسه يُحَمَّل بالمسئوليات التى كانت تلقى على عاتقه دون أن يسعى هو إليها، وكان يتحمل هذه المسئوليات بلا مراوغة أو مماحكه. كانت النصيحة والعزاء اللذان كان أبو بكر ينشدهما عند صحبه، الذى ظل يصيح مناديًا بالعلاقات الإنسانية على امتداد ما يزيد على ثلاثين عامًا، وقد بقيت بلا تسجيل إلى آخر أيام الرجل، لكن هذه النصيحة وذلك العزاء منعا الرجل (أبو

بكر) من الترنح والتداعى. كان مديرا شئون المنازل الآخران هما : المُعَلم حسينى Hu-saini دورا Daura، مدير شئون منزل ومباى wambai، والمعلم محمد زايام Zayam مدير شئون منزل أمير Sarkin الحرب Yafi. كان المعلم محمد هو الأقدم، لكن بعد أن نشبت الحرب، أصبح المعلم أبو بكر مديراً لشئون منزل جلاديما Galadima، ومن ثم أصبح المساعد الأول لناظر المدرسة. كان المعلم فات Fate يُدرس المواد الإسلامية، وكان مسنــوداً فى ذلك مــن كبير قضاة باوتشى المُعَلم سامبو Sambo، وكان المُعَلم أبو بكر يتعلم الكثير منهما عن الإسلام لكن بطريقة غير مباشرة.

كانت الألقاب التى من قبيل "النائب" Madaki، "ومباى" Wambai، و"أمير الحرب" Sarkin yafi، و"الوزير الرئيسى" Galadima، شأنها شأن لقب "الطاهر" Ajjya كلها ألقاب تقليدية يحملها رؤساء الأحياء فى الإمارات فى سائر أنحاء البلاد. كان النظام المدرسى يفرض بصفة أساسية من خلال مديرى شئون المنازل، الذين كانوا يخاطرون بالتحول إلى فتوات، ما لم يكن أباؤهم أنفسهم حكاماً طبيعيين"؛ كان ناظر المدرسة، المعلم برايا Baraya جومب Gombe، هو الذى يقوم على أمر هذه الأشياء بشكل عام. كانت اهتمامات أبى بكر الشخصية اهتمامات أكاديمية، الأمر الذى كان يندر معه أن يلتقى الأمير أو هرم السلطة المحلية، أو الحكم المحلى إن شئت. عندما قامت الحرب كان أبو بكر لا يزال يُدَرِّس الفصول العالية، إلى حد أن بعض الصبية الذين التقوا أبا بكر فى فصول المستجدين، كانوا يسعدون به عندما يلقونه فى السنوات النهائية. فى الوقت نفسه كانت هناك مبادآت تعليمية أخرى تجرى على مقربة من المدرسة. فى العام ١٩٣٥ (ومن باب قلة احترامه لصغار الموظفين البريطانيين) اقتنع بالقيام بزيارة إلى كنو Kano وأن تعليم البنات أصبح أمراً مقبولاً – لكنهن ستكون معهن وصيفة فى المبنى الذى يُقمن فيه، وأن التعليم لن يكون مختلطاً: كان الناس لا يزالون لا يتصورون أن الأطفال العاديين من الجنسين، والذين تخطوا مرحلة المراهقة يمكن أن يختلطوا ببعضهم البعض ويظلوا أبرياء. من هنا تصبح عملية المنع، من خلال الفصل بين البنين

والبنات، عملية فعالة وليس فيها أى شكل من أشكال القمع أو الضغط، مادام أنه لم يجر تلفيق أى أحد من الناس أو تعليمه التشكيك أو التساؤل فى صحة هذا الفصل. وهنا راح آباء كثيرون، من أولئك الذين كانت تتملكهم الشكوك والظنون يقاومون كل الأفكار الداعية إلى تعريض بناتهم لعملية التعليم.

فى العام ١٩٣٧ كان خريجوا مدرسة باوتشى مطلوبين لواحدة من مدارس البنات المحلية فى سكتو، ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء الخريجون من بين طلاب هذا الفصل الخاص، الذى حقق خريجوه نجاحًا كبيراً. كان من بين تقديرات الخزانة المحلية مبلغ يقدر بحوالى ٥٠٠٠ جنيه إنجليزى، هذا المبلغ كان مخصصًا لإعادة بناء المدرسة المتوسطة نفسها. وبدأ تشكيل لجان أولياء الأمور فى المدارس كلها، على الرغم من أن الأمر كان يتطلب إيمانًا كبيراً بالبحث عن مساندة كبيرة للمدرسين، أو نفوذ فعال، قائم على التروّى، من جانب أولياء الأمور على التلاميذ. كان السيد/ فيلبس هـ.د، مسئول التعليم، يضغط ويعمل جاهداً من أجل قيام لجنة المدرسة المحلية، المكونة من موظفين بريطانيين، ورؤساء Chiefs، وقضاة بمناقشة تعليم المجتمع، وأفلح فيلبس فى نهاية المطاف فى ضم ناظر المدرسة المتوسطة وكبير المدرسين الزائرين، لكن هذين العضوين الأخيرين، لم يحضرا قط، وعلى امتداد سنوات عدة، تلك الاجتماعات التى كان الممثل المقيم يهتم بالحضور والمشاركة فيها. عاد مسئول التعليم إلى باوتشى قادمًا إليها من مركز تدريب تورو Toro، الذى أصبح يخدم مقاطعات أخرى كثيرة تضم سكانًا من الوثنيين، وكان المركز على استعداد أن يصبح مؤسسة حكومية، كان هناك ظرفان ساعدا على هذا التحرك – أول هذين الظرفين يتمثل فى مركز التدريب الأولى فى يالوا، الذى بدأت تتزايد أهميته، والذى كان يخدم الشمال المسلم كله بدءًا من إغلاق مركز كاتسنا فى العام ١٩٣٦ (لم يجر فتح المركز الذى كان مقترحًا لبلدة بدا Bida)؛ وعلى الرغم من ترك إدارة المدرسة المتوسطة تنصرف كما لو كانت ثغرة بين مشرفين

بريطانيين، جرى تعيينهما "للإشراف" على هذه المدرسة فى العام ١٩٣٧، فإن الشكوك كانت تدور حول النظام الهرمى الذى كان يدير هذه المدرسة فى ذلك الوقت.

الواقع أن هذا التنظيم كان مثالاً مهمًا على تضاربات الحكم غير المباشر. الواقع أن المدرسة كانت، وبلا أدنى شك، مؤسسة من مؤسسات الحكم المحلى فى باوتشى، وكانت بشكل من الأشكال من ممتلكات أمير باوتشى، مادام بقى هذا الأمير الشخص الوحيد الذى جرى إدراج اسمه فى خطاب التعيين الصادر عن الحاكم وموقع منه طبقًا لقانون الإدارة المحلية. فى الوقت نفسه، كانت المدرسة تعد مؤسسة من مؤسسات الإدارة المحلية (كان يرمز إليها بالمختصر Na الذى يدل على الإدارة المحلية)، والسبب فى ذلك أن الخزانات المحلية كلها فى المقاطعة كانت تساهم فى خزانة باوتشى - داس، لدعم هذه المدرسة، وكانت تدفع أيضًا أتعاب التعليم عن التلاميذ المرشحين من قبلها. المشرف البريطانى يعد مسئولاً عن إدارة المدرسة، شأنه فى ذلك شأن رئيس الحى (باستثناء حق رئيس الحى فى التدخل بمقتضى القانون، لمراجعة المحاكم المحلية)، هذا المشرف البريطانى لم يكن له حق أو سلطة التدخل وتحديد أعمال المرءوسين. لكن رغبات ذلك المشرف البريطانى كانت بمثابة النصائح الفنية، بما فى ذلك تعليقاته أيضًا على تقديرات كشوف المدفوعات والتوقيع عليها. ومع ذلك، كانت الاتفاقات غير المدونة هى والخبرة من كلا الجانبين لا تحدد فقط المواضع الصعبة والسريعة التى اتخذ بشأنها المشرف الاستعمارى، شأنه شأن السلطة المحلية، قرارات سريعة وعاجلة (إذ تعد رغبة المشرف الاستعمارى أمرًا فى مثل هذه الأحوال)، وإنما كانت تلك الاتفاقات تحدد أيضًا المناطق الرمادية التى قد تبدو فيها الأفكار التقدمية الخاصة بالعادات والثقافة، وكذلك الأفكار الوقائية التى تقوم على أمر كل ما هو مألوف ومريح، متعارضة مع بعضها البعض.

هذه الأعراف والطقوس، شأنها شأن العلاقات الإنسانية غير المخططة، كانت تصيب نجاحًا أفضل حال توفر حسن النية، حتى وإن كانت يتخللها بعض فورات

الضيق والغضب، وعلى نحو أفضل من كثير من قواعد الهيئات الرسمية التى تجرى مناقشتها والتفاوض حولها ثم الاتفاق عليها. هذه الحقيقة المربكة لم تحرف النقاد الذين لم يكونوا مطلقًا أجزاء من هذه المنظومة عن محاولتهم تبرير مطالباتهم بخطأ هذه الأعراف وتلك الطقوس. ويجب ألا يغيب عنا هنا أن المعلم أبا بكر كان هو الآخر يعرب ويعبر عن انتقاده لتلك الأعراف والطقوس، إذ كانت هذه هى باكورة خبرته بالحكم غير المباشر فى إطار حدود التعليم المحلى، والشىء المحرج بحق فى مسألة باوتشى المتوسطة فى ذلك الوقت تقريبًا هو أن السلطات المحلية كانت تنتظر على مضض نظريات الإدارة الجماعية الخاصة بالجيل الغربى القادم (تلك النظريات التى تتزايد شكوكها فى نظرية السلطوية أكثر منها فى النظرية (الشمولية)، كان متوقعًا أن يعتمد ناظر المدرسة الحديث نسبيًا اعتمادًا كبيرًا على نصائح المدرس المهنى غير المتعلم إلى حد ما، الذى سبق وأن دخل الخدمة قبلهم جميعًا بوقت طويل. ساد الشك هذه الأجواء، فى ظل وجود وولر Waller وود Wood ومن بعده دينس Dennis هيبرت Hibbert، حيث لم يتجرأ الاثنان على تخطى المناطق الرمادية. كان أحدهما يرحب بمشورة الأمير، وبعد أن عمل مدة عامين ملتزمًا السلوك المدرسى، سمح بالتعليم المختلط لمرحلة ما قبل المراهقة فى المدارس الأولية أو الإلزامية كلها، وعلى أن يحل ذلك محل الفصول المستقلة المخصصة للبنات - وهذا لا يعنى السماح بالتحاق المزيد من البنات بالتعليم، وإنما يعنى أيضًا السماح بانتشار هيئة التعليم على نطاق أوسع.

فى ذلك الوقت تشتت انتباه الإدارة الاستعمارية البريطانية جراء نشر مقال نقدى عنيف لكنه لم يكن قاسيًا، كتبه زميل صغير سابق (المقال بعنوان نيجيريا، وبقلم ولتر Walter راسل Russell، أو "رستى" Rusty كروكر Crocker). هذا المقال، أو إن صح الكتاب بناه صاحبه إلى حد كبير، على خبرته ويومياته التى دوَّنها عن باوتشى وتجواله فيها، ولم يتخلف عن بعثرة المفاتيح التى تُمكِّن من تعرُّف الشخصيات. وجرى فى بداية الأمر تصنيف ذلك الكتاب على أنه عمل أو كتاب من كتب عدم الولاء الفج، وجرى

تفنيده على أنه غير عملى ويصعب تطبيقه: فقد درجت مقاطعات الشمال كلها أثناء فترة الكساد على أساس أن دخل كل فرد من أفراد هذه المقاطعات هو ١٢شلن و ٦ بنسات فى العام - كيف استطاع واحد من هيئة إدارة المدرسة تغيير كل شىء، وتغيير المواقف المحفورة فى الأذهان أولاً وقبل كل شىء، فى الوقت الذى كان فيه كل إنجاز يعد معجزة من معجزة الارتجال؟ ومع ذلك فإن وعى الناس الكتيم باستشراء نظرية السلطوية فى الخدمة العامة وفى الإدارات أو السلطات المحلية على حد سواء، ووعى الناس الكتيم أيضًا بانتشار الفساد والغش والخداع فى الإدارة أو السلطات المحلية، وأن الهُوَّة واسعة بين سكرتارية الحاكم وسكرتارية المفوضين فى فنون الرئاسة العامة وفى أدوات الممثلين المحليين المقيمين فى منطقة الغابات، وعندما وعى الناس أن بريطانيا، فى الداخل، لم تعد تشغل بالها بما يمكن أن تفعله بإمبراطوريتها فى المستقبل فيما وراء البحار، كل ذلك أكد بما لا يدع مجالاً للشك أن كتاب رستى Rusty كروكر Crocker كان واسع الانتشار، وأن الناس سيتحدثون عنه إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. قرأ المعلم أبو بكر هذا الكتاب فى مرحلة من مراحل حياته، لكنه لم يرق له، هذا لأن الكتاب لم يكن ميالاً إلى الأفارقة بقدر ميله إلى الإداريين الاستعماريين.

وقع فى ذلك العام حادث مهم فى باوتشى لكن لم يلاحظه أى أحد من الناس. حدث أن عاد إلى نيجيريا فى ذلك العام الدكتور ننامدى Nnamdi أزكوى Azikiwe، الذى لا يزال الكثيرون يعرفونه باسم بنيامين Benjamine، اسم العمادة، الذى يكرهه. كان أزكوى قد أكمل دراسته فى الولايات المتحدة، شأنه فى ذلك شأن كثير من الشبان الذين شقوا طريقهم فى التعليم وفقًا للتقاليد الأمريكية، فقد شق الرجل لنفسه طريقًا فى كلية ستورر Storer، ثم بعد ذلك فى جامعتى هوارد ولينكولن Lincoln، كانت خبرة الرجل صغيرة بحكم أنه كان عاملاً من عمال المناجم، كما عمل أيضًا فى شق الطرق، وعمل أيضًا حَمّالاً، ثم غسَّالاً للأطباق. كانت لدى الرجل فى ذلك الوقت حاسة صحافية هشة عندما كان فى ساحل الذهب الذى برأ نفسه فيه من تهمة التحريض على

العصيان. ونقلاً عن كلام الرجل مع جون Jon ماكفرسن Mackpherson، السكرتيرالإداري المالاى Malayan السابق فى سكرتارية ليجوس، فى الاجتماعات المتكررة التى حدثت بينهما، كان آزكوى يود لنفسه الحصول على وظيفة كبيرة فى إدارة التعليم. صحيح أنه كان هناك دومًا متعلمون ووطنيون مشهورون فى الجنوب. لكن أزكوى، أوزيك، على سبيل التدليل، كان أول من ترك انطباعًا شخصيًا على أهل الشمال العاديين، وأن ذلك لا يمكن تأجيله إلى عقد آخر من الزمان. فى ذات الوقت، لما كان آزكوى من مواليد زونجيرو Zungeru فى الشمال، حيث كان والده يعمل جنديًا، وأصبح الآن واحدًا من الأيبو Igbo القادمين حديثًا إلى ليجوس، فقد التحق الرجل بالأسر المستقرة التى تعيش فى ليجوس القديمة، كما تعرف أيضًا على بعض من شباب اليوروبا المغامرين الذين جاءوا من منطقة نائية من العاصمة، ونجح هؤلاء الشباب فى اكتشاف عقبتين تقفان فى وجه طموحاتهم. أول هاتين العقبتين تتمثل فى أن الخدمة الاستعمارية تحدد معايير للالتحاق بها وبخاصة فى "الوظائف الكبرى"، وأن هذه المعايير موضوعة ومحددة من قبل وزير الخارجية فى لندن. أما العقبة الثانية فتتمثل فى أن المعينين يجب أن يكونوا مستعدين وموافقين على النقل إلى أماكن بعيدة فى ضوء الخبرة التى يكتسبونها خلال حياتهم العملية. لم تفكر الخدمة فى أنها وارثه، بأى حال من الأحوال، لإدارتى مستعمرة ليجوس أو محمية أنهار الزيت عديمتى القيمة فى أيام المغامرات السياسية والتجارية فى زمن قبر الرجل الأبيض White Man's Grave، الذى كان فيه الأفارقة الأجلاء رؤساء فى الإدارات الفنية، وفى الوكالات التجارية، وفى الكنائس - الأرجح أنه لم يكن بينهم أحد سواء أكان أبيض أم أسود، يحمل درجة معتمدة (من جامعة بريطانية، وبالقطع غير أمريكية). والسؤال المطروح فى ذلك الوقت كان يدور حول ما إذا كان النيجيريون يعدون أنفسهم أندادًا ونظراء متساوين مع الموظفين المراوغين والمؤهلين، والدبلوماسيين، والمهندسين، والأكاديميين والخبراء العسكريين الذين يخدمون أتباع ستالين، وأتباع روزفلت، وأتباع هتلر، وأتباع موسولينى، وأتباع بلوم Blums وأتباع فرانكو فى العالم الخارجى الذى لا يرحم -

وكانت الإجابة الصادرة عن السواد الأعظم من المسئولين البريطانيين، فى ضوء وعيهم لافتقارهم النسبى إلى الحداثة فى مجال مهنة ليست لها جاذبية فكرية إلا لدى قلة قلية من الناس، نقول إن هؤلاء المسئولين لا يستطيعون القيام بذلك فى ظل القوانين الاستعمارية – ومع ذلك – قد يجىء اليوم الذى يمكن فيه القيام بمثل هذا العمل.

كان واضحًا للسواد الأعظم من المسئولين البريطانيين، أنه إلى أن يجىء ذلك اليوم فإن منظومتى التعليم والإنتاج الاقتصادى يتعين عليهما أن يخلقا مجتمعًا لا يساند فقط الحكومات المحلية التى ليست بحاجة إلى الإلهام الفنى أو النصيحة من موظفى الحكومة المركزية، وإنما يساعد أيضًا ويساند حكومة مركزية قادرة على اختيار كبار موظفيها من بين عدد كبير من المرشحين النيجيريين، مثلما فعلت حكومة صاحب الجلالة فى هوايتهول Whitehall وراحت تختار كبار موظفيها من الجامعات البريطانية. عندما يجىء ذلك الوقت ستكون الخدمة الإدارية النيجيرية قد ذوت على عودها ـ وذلك على حد ما كانت تكتبه الآنسة برهام Perham فى ذلك الوقت، وهى تؤكد أن المقصلة البريطانية سيجرى سحبها دفعة واحدة عندما يحين الموعد المحدد لذلك. وعليه لم يكن هناك مكان للنيجيريين المتعلمين فى إطار المنظومة الهرمية الإدارية الأجنبية والمؤقتة، حتى وإن كان أولئك النيجيريون يحملون درجات علمية "معترف بها": وأن مستقبل أمثال أولئك النيجيريين لابد أن يكون فى المهن الدائمة التى لا تحصى ولا تعد الموجودة والمتمثلة فى الأماكن الحرفية والإدارات المحلية والتى لا يمكن أن تزيد عن الحد فى أى يوم من الأيام.

من السهل الآن أن نتساءل عن الأسباب التى أدت إلى تطبيق هذا الرأى، الذى يمكن تبريره فى إطار الحكم غير المباشر من خلال الحكومات المحلية فى المناطق الريفية، أيضًا على الوظائف الأقل جاذبية وبريقًا لكنها مريحة فى السكرتاريات التى أدت إلى شىء من التورط فى رسم السياسات وإمكانية امتداد هذه الخدمة إلى سائر أنحاء العالم. كان هناك عدد كبير من الأفارقة يودون العمل فى السكرتاريات، ومن

بينهم أولئك الواهنون الذين يعملون فى المقاطعات، إذ كانوا يفضلون هذا النوع من الأعمال على العمل رؤساء أقسام فى الغابة. الناس فى هذه الأيام يعيشون فى عالم معتاد على الحكومات التى تضم مختلف الأجناس، وتخدمها وزارات كثيرة تغصُّ بالعاملين، الذين يتدخلون بصورة مستمرة فى حيوات مواطنيهم اليومية. وليس من السهل على جيل من هذا القبيل تصور التقاليد والموروثات التى تقوم عليها سياسة عدم التدخل - كان الحكام ورؤساء الأحياء يعرفون أن نجاحهم الشخصى ربما يكون نابعًا من عدم ارتباطهم بالمتاعب، أو التحريض على التغيير، وإنما باتخاذهم القرارات التى من غير المحتمل أن تثير الهرج والمرج فى الأسفل أو تنقلب إذا ما جرى تحديها من أعلى، "السياسة" معناها تفسير القانون، وهى عادة ما تغطى موضوعات محددة من قبيل تأجير الأراضى، وتعرية التربة، والتعليم الفنى أو العقوبات الجنائية، هذا يعنى أن السياسة لا تقترب مطلقًا من أى أمر من أمور "السياسة" فى إطار الدلالة التى كانت لهذه الكلمة فى ذلك الوقت. كانت السكرتاريات صغيرات بشكل مضحك، ولم تكن تهتم إلا بالنفوذ الذى يعتمل فى خيالها، والغيرة التى كانت تولدها فى نفوس السواد الأعظم من "موظفى الغابة". وحتى عندما كانت تلك السكرتاريات مراكز لتدريب الخدمة المدنية المتجانسة والمتداخلة، فإنها لم تكن مؤهلة أو مناسبة تمامًا للقيام بهذا العمل، وإنما كانت تُصلِّح كتبة تسجيل فى "الخدمات المدنية الصغيرة"، ولهم خبرة سابقة بالمعلومات التى فى الملفات التى لديهم. هذه النوعية من البشر توجد لمساعدة الحاكم فى مسئوليته الشخصية عن إدارة المنطقة من خلال موظفيه المحليين.

لكن كانت هناك عقبة أخرى أمام المواطنين فى ليجوس، الذين كان عدد كبير منهم منخرطًا فى حركة شباب ليجوس اعتبارًا من العام ١٩٣٤، وقد تحولت تلك الحركة فى العام ١٩٣٦ إلى ما يسمى حركة الشباب النيجيرى. وهناك مجموعة أخرى أكبر سنًا من المجموعة الأولى وأكثر خبرة، كانت تواجه المشكلة أو الكارثة نفسها، بقيادة هربرت Herbert صمويل Samuel هيلاس Heelas ماكولى Macaulay، المولود فى العام

١٨٦٤، الميلادى، والذى أسَّس الحزب الوطنى الديمقراطى النيجيرى. كان ماكولى حفيداً لأول أسقف إفريقى، من غرب إفريقيا على وجه التحديد، أما أبوه فكان أول ناظر إفريقى لمدرسة الجرامر الأولى فى نيجيريا. كان ماكولى يمتهن مهنة المساحة فى الحكومة، ولم يكن الرجل يجد سبباً يمنع الآخرين من أن يشاركوه الوضعيَّة التى كان عليها.

كان هـ.أو.دافيس Davies زعيماً لحركة الشباب النيجيرية، يسانده ويؤازره الدكتور جى.س فون Vaughn (الذى أصبح رئيساً للحركة، وخلفه الدكتور كوفو Kofo أبايومى Abayomi)، ومن بعده إيرنست Ernest سيسى إيكولى. كان إيكولى Ikoli من مواليد العام ١٨٩٣ وبالتالى لم يكن شاباً، وكان كبيراً لمحررى جريدة الديلى Daily تايمز Times فى العام ١٩٢٦، وبمساعدة من شاب صغير يدعى صمويل Sameul أكنتولا Akintola استطاع اعتباراً من العام ١٩٣٨ إصدار جريدة الديلى Daily سرفيس Ser-vice الناطقة باسم حركة الشباب النيجيرية.

كل هؤلاء كانوا يريدون، على الرغم من تكلُّف ذلك واصطناعيته، أن تكون لهم الأولوية، فى ذلك الذى يبدو لهم أولاً وقبل كل شىء، على أنه بلادهم، غير أن ذلك الحاجز ازداد عسراً على عسره ومرارة على مرارته. ونظراً لأن الموظفين البريطانيين كانوا يعرفون أنهم مجرد أمناء مؤقتين وليست لديهم آمال مرتقبة فى البقاء فى البلاد والاستقرار فيها باعتبارهم مستوطنين حقيقيين، ونظراً أيضاً لأن هؤلاء الموظفين كانوا يعرفون أيضاً أن نيجيريا عبارة عن مُرَكَّب مُكوَّن من كثير من المجتمعات المتجاورة، وفيها عدد لا يحصى أو يعد من اللغات، والنِّحل المختلفة، والممارسات والمنشآت الاجتماعية المختلفة، التى ليس بينها أصل تاريخى واحد مشترك، ونظراً أيضاً لأن هؤلاء الموظفين البريطانيين كانوا يحترمون ويسعون إلى المحافظة على العادات والتقاليد والأعراف التى لا تتعارض مع فكرة هؤلاء الموظفين عن الإنسانية، فقد عجزوا عن معرفة نيجيريا على أنها وحدة قوية باكرة وذلك على العكس من تعرفهم غرب أوروبا

الفيدرالى الذى لديه ميراث مشترك بدءًا من روما الإمبريالية. استقوى النيجيريون بفضل هؤلاء الموظفين البريطانيين وأصبحوا أعضاء كاملين فى أسرة واسعة كبيرة، لكنهم فى الوقت نفسه يتقبلون أن أى شعب من الشعوب فى أى جزء من أجزاء نيجيريا يمكن أن يسمح بقبول التوجيه السياسى أو الإدارى من أى إفريقى من الأفارقة الذين فى الأجزاء الأخرى.

الشىء المضحك المبكى فى هذا الأمر يتمثل فى أن العلاقات الثقافية كلها، تجرى صياغتها وتشكيلها عن طريق إقامة أقوى العلاقات والروابط الشخصية بين أفراد لا يجمع بينهم سوى مشترك ضئيل جداً: والمشارك، أو بالأحرى الشريك الناهض إذا ما ركَّز على مسألة الدين، ومسألة اللغة والملابس، وأعراف المسيطر المؤقت، وعندما يجد طرقًا أخرى يستخدم بها هذه المسائل ويستفيد منها، فإن ذلك يؤدى إلى تحويل الفروق الأخرى إلى منغصات وتشتتات. كان البريطانيون، طوال فترة الاستعمار، يشعرون بالقلق وعدم الارتياح إزاء أولئك الذين كانوا يحاكون الأوروبيين (ويظهر التهكُّم بشكل واضح فى فترة ما بعد الاستعمار عندما تعين على الكثيرين من متطوعيهم، أو بالأحرى أولئك الذين كانوا يقومون على أمر المساعدة الفنية بعد رحيل البريطانيين، إحراج الأجناس الأخرى عن طريق المحاولات المقصودة التى كانوا يتقمصون فيها أساليب حياة مُضَيِّفيهم وعاداتهم الشكلية، بدلاً من التمسك بمعتقداتهم وثوابتهم). أدى ذلك إلى تقوية، الاعتراف الفطرى، بل وتشويهه وتشتيته إلى حد بعيد، الذى مفاده أن أهل الشمال سوف يستمرون فى رفض أى اقتراح بالقيادة أو الرفقة من جانب المفكرين الجنوبيين، والسبب فى ذلك أن الجنوبيين الذين عادة ما نلقاهم فى الشمال، يندر أن يكونوا أكثر من مجرد تجار أو كتبة يقتصر ولاؤهم تمامًا على عائلاتهم الكبيرة، وعلى اتحاداتهم القبلية، وعلى كنائسهم بغض النظر عن ولائهم لمستخدميهم. خلاصة القول، أن الوطنيين الجنوبيين، كُتِبَ عليهم لسنوات طويلة، الإحساس بأنهم يعاملون باعتبارهم أجانب معتدين فى الشمال النيجيرى، وليسوا موظفين تابعين

للسلطة الإمبريالية. ولم يكن لوم هؤلاء الموظفين للبريطانيين على تشجيعهم الانفصال، عملاً مدهشًا أو مفاجئًا، وبخاصة أن مثل هذا الانفصال يجعل الحكم الأجنبى سهلاً من الناحية الظاهرية. ومن سوء الطالع، أن هذه التفسيرات الشكلية للإحباط، جعلت الشماليين فى غير حاجة للتشجيع، وفى ظل انعدام الفهم المتبادل، أحكمت الطوائف والطبقات كلها صفوفها، وراحت ترفض غطرسة الجنوبيين واحتكارهم الواضح لأساليب حياتهم وتطلعاتهم المادية. أهل الشمال هؤلاء ينتظرون من الجايلز Gaels والسلاف Slavs الاعتراف بأخوتهم واحترام مؤسساتهم. كان المعلم أبو بكر واحداً من المشاركين فى ذلك الرفض الثقافى الذى يتقمّص شخصية "المستر جونسون John-son". (ذلك المثال المشهور فى رواية الكاتب الروائى العظيم جويس Joyce كارى Cary). كانوا يتقمّصون هذه الشخصية تقمُّصًا كاملاً، وأيضًا شخصية "زيك" Zik التى لم يسبق لهذا الكاتب أن قابل شبيهًا لها.

يجدر بنا هنا أن نعود إلى تافاوا باليوا لنتبين مثالاً مهمًا فى أن فصول المعلم أبى بكر الجديدة كانت مستعدة فى ذلك الوقت للانتقاء والاختيار منها، وأن واحداً من الأطهار الذين جرى تعيينهم فى العام ١٩٣٤، سبق أن غضب واستاء خلال عامين، جراء الاختلاس والتلاعب برواتب ومرتبات رؤساء القرى. هذا الطاهر، كان له أخ يصغره اسمه عمر، عمل رئيسًا لحى أنجاز Angas فى قسم بانكشين الوثنى إلى أن بدأت الإصلاحات فى الكاميرون، خَلَفَ عُمَر أخاه الطاهر وتقرر بقاء الرجل فى مركز الرئاسة السابق فى تافاوا باليوا.

ومع عودة الطاهر ومعه قاضى شرعى فى العام ١٩٣٧ أصبح الجو مهيأً مرة أخرى لإعادة بناء مدرسة إسلامية فى جنوب إمارة باوتشى، كانت مدارس البعثات التبشيرية الداخلية فى السودان موجودة فى حى أو اثنين من الأحياء الوثنية، لكن هذه المدارس كانت تدار من هضبة جوس Jos. فى ذلك الوقت كان يُسْمَحُ بارتداء أبسط الأزياء، والذى كان يتكون من سترة بلا أكمام وبنطال واسع مزموم عند الركبة. كان

المدرس المسئول يتولى أمر ثلاثة فصول بلا مساعد أو معين (كان الوضع يتغير مع مطلع كل عام بين الصفين الأول وكان يُنْتَظَرُ من المدرس المسئول أيضًا تقديم العلاج الطبى للأطفال، والمضرورين أيضًا، وكان ينتظر منه أيضًا القيام بتنظيم فصول دراسة للكبار إذا ما قبل السكان المحليون هذه الفكرة، كان ذلك المدرس أيضًا يتولى إدارة بساتين الخضراوات فى فصل المطر وفى فصل الجفاف أيضًا، كما كان مسئولاً أيضًا عن إدارة مزرعة المدرسة والتى قد يفيد المدرس منها أكثر من التلاميذ أنفسهم، الأمر الذى كان يجعل التلاميذ يتأففون)، كان يُنْتَظَرُ من ذلك المدرس أيضًا أن يلقى بالا لعملية التصحاح فى القرية، فضلاً عن اهتمامه أيضًا بالأعمال المجتمعية الأخرى، هذا المدرس كان مسئولاً أيضًا عن متابعة حضور التلاميذ، وعلاماتهم، وثوابهم وعقابهم، ومتابعة الزوار والشكاوى متابعة دقيقة. كان هناك أيضًا تهديد باحتمال تعامل مثل هذا المدرس مع أمرين فى وقت واحد. ولم تكن مسألة "تطوير المجتمع" أو "العمل الاجتماعى لتنظيم الجماعة" أمرًا جديًا، عندما أدخلت فى سنوات ما بعد الحرب، نظرًا لأن القسم الأكبر من هذه المسألة كان معروفًا لأصحاب الخبرة والمتمرسين. وليس هناك ما يدعو إلى العجب، فى أن بعض نظار المدارس كانت سلطتهم تتزايد كلما كبروا فى السن، وقد وصل البعض منهم إلى مناصب رؤساء الأحياء، وذلك على الرغم من أن الكثيرين منهم اكتفوا بالعلاقات التى أقاموها مع الآخرين. كان المعلم محمد ببان موتوم، الذى نُقِلَ إلى تافاوا باليوا فى ذلك الوقت وذاعت هيبته باعتباره خلفًا للمعلم الزبير، كان واحداً من رفاق المعلم أبى بكر الذين احتفظوا بكرامتهم واحترامهم ووقارهم المدنى. وجرى أيضًا افتتاح ستة مدارس غير إسلامية تابعة للإدارة المحلية فى أماكن أخرى، حتى لا يُتْرك الأمر كله إلى البعثات التبشيرية.

جرى فى ذات الوقت إدخال دستور جديد فى الهند البعيدة فى العام ١٩٣٧، وحقق حزب مؤتمر الهند كلها انتصاراً كاسحًا فى الانتخابات، لكنه رفض أن يلعب دوراً فى الحكومة، مصراً على السيطرة الكاملة كشرط مسبق. كانت إمبراطورية الهند،

تدار منذ أيام بواسطة شركة الهند الشرقية المكرمة، باعتبار الهند منفصله تماماً عن الممتلكات Dominions البريطانية، وعن المستعمرات، وعن المحميات ومناطق الانتداب والمستعمرات الأخرى. لم يكن مرد ذلك إلى أن الحضارات، والفارق الكبير بين الثراء والفقر في الهند كانت أموراً لا يمكن القياس عليها وهو ما جعل إداريي إفريقيا ينظرون إلى مقياسهم الزمنى الخاص بهم، باعتباره شيئاً مختلفاً تماماً. الواقع، أن هؤلاء الإداريين كانوا يتساءلون، إذا كانت الهند لم تستطع المضى قدماً بطريقة سليمة وحٌبيه، فكيف لذلك المختلط النيجيرى المتأخر المكون من أنواع عدة ومختلفة أن يكون على "استعداد" للمضى قدماً؟ لكن الواقع هو أن الهند كانت فى عالم مختلف تماماً، يزاد على ذلك أن المعلم أبا بكر كان مدركًا تماماً لأنه لم يكن يتصور تماماً أن الهنود قد لا يعرفون ما هو أكثر من ذلك. والمعلم أبو بكر، شأنه شأن الكثيرين تناهت إلى مسامعه شائعة فى العام ١٩٣٨ الميلادى مفادها أن نفل Neville شامبرلين Chamber-lain كان قد قدم نيجيريا إلى ألمانيا على سبيل الترضيه والمهادنه، وهو مقتنع برفض ذلك من سكرتير الدولة. تعلق أبو بكر بمهنته وركز على تعلم الكثير من ذلك الذى يمكن أن يُعلِّمه لتلاميذه فى الفصل. وخلال فترة قصيرة من العام ١٩٣٨ تبين أبو بكر أن مدرسة شلنجفورد Shillingford العجوز فى كاتسنا قد استغنت عن فيلبس Phillips، وبدأت تعتمد على أبى بكر وتثق به، إلى أبعد الحدود، فى مسألة توفيقه فى دعم المعلم برايا Bayaya، مدرِّسه الأول فى التغلب على كُساحه الثلاثى. كان شلنجفورد يعرف ويكشف عن احترامه لرؤسائه ومن يكبرونه، وكان الرجل يستعمل ويفيد من ذلك الاحترام على النحو الذى يسمح بسير الأمور دون النزول إلى مستوى الدس والدسيسة.

لم يكن الحادث العظيم فى العام ١٩٣٨ متمثلاً بطبيعة الحال، فى عودة بريطانيا الواضحة إلى الازدهار الصناعى، الذى جاء تدشين عابرة المحيطات، الملكة Queen

إليزابيث Elizabeth رمزًا عليه، أو الاحتفال بالذكرى المئوية لهجرة الإفريقان(*) الكبيرة، أو الهزيمة التى أنزلها هـ.أو.ديفس Davies، أو أحد أعضاء حركة الشباب النيجيرى بحزب ماكولى الوطنى النيجيرى فى الانتخابات التى جرت فى بلدية ليجوس، وإنما تمثل ذلك فى تنصيب سلطان على سكتو، هو عبارة عن أمير Commander جديد للمؤمنين. فى العام ١٩٣٩ جرى تأسيس رابطة خريجى كلية كاتسنا والتحق أو انضم أبو بكر إلى هذه الرابطة انضمامًا شرفيًا. جرى فى صفوف تلك الرابطة شىء من النقاش المفكك لبعض الأخطاء التى جرى ارتكابها فى الإدارة المحلية، والسيطرة المحلية من قبل الجنوبيين، لكن ذلك الحوار كان بلا أساس أو هدف. وإن هى إلا فترة قصيرة، حتى دخلت الرابطة بعدها، منزلقة إلى ذلك الحوار، لا من خلال الإحباط الرسمى، وإنما من خلال اللامبالاة الفطرية ومشاغل زمن الحرب، وانقضت سنوات قبل أن تستعيد تلك الرابطة عافيتها. أما الحادث الذى غيَّر مستقبل نيجيريا فقط من دون أن يلاحظه أحد، فى ظل انتصار النظرية الاجتماعية الوطنية فى كل من ألمانيا، وإيطاليا وإسبانيا: وفى العام ١٩٣٨، ومن باب التسهيل الإدارى جرى تقسيم المقاطعات الجنوبية إلى الشرق والغرب، وأضيف إليها مفوض رئيسى وسكرتارية فى إيبادان Ibadan وفى إينوجو Enugu. واكتمل ذلك التقسيم فى شهر أبريل من العام ١٩٣٩، كان ذلك يعنى ترقية قلة قلية من الموظفين الإداريين، والموظفين المسئولين عن الإدارات، كما أبرز ذلك التقسيم الفروق والاختلافات العرقية بين ممالك اليوروبا فى الغرب، وشعوب الغابة المجزأة التى يهيمن عليها الأيبو فى الشرق. عمل ذلك التقسيم أيضًا على تأكيد المارد التوحيدى فى الشمال باعتباره شيئًا مختلفًا اختلافًا كبيرًا عن الجنوب أكثر من ذى قبل، يزاد على ذلك أن مكونات هذا الشمال المارد كان عليها أن تتعلم كيف تتكلم وكيف تختلف بأكثر من صوت.

(*) الإفريقان : أفراد من جنوب إفريقيا من أصول أوروبية . (المترجم)

المرجح أن النقص فى هيئة العاملين هى والمشكلة المالية ربما كانا سيقفان حاجزاً أمام مسألة تقسيم الشمال على النحو الذى جُرِّب به تقسيم الجنوب فى ذلك الوقت. لم تكن المناطق التى جرى تنصيرها، أو بالأحرى الجماعات المعادية فى الوسط، لها منافذ طبيعية متبادلة، وكانت السكرتاريات لا تزال تنظر إلى هذه المناطق باعتبارها من الناحية الإدارية الحقيقية، مناطق تعتمد على منظومة الإمارات المنظمة والمتطورة: بل إن باوتشى نفسها جرى وصفها رسمياً فى تقرير ضحل المعلومات صدر عن ليجوس بأنها "بلدية من الوحدات القروية الصغيرة بلا مراسيم تقليدية". لكن فكرة التقسيم لم تكن قائمة بشكل حقيقى، وبذلك نرى أن تقسيم بورديللون Bourdillon للجنوب يمضى دون أن يأتى أحد على ذكره فى بعض التواريخ النيجيرية. فى ذات الوقت تقريباً جرى إنشاء وظيفة (السكرتير المالى، ووظيفة زميل السكرتير الرئيسى أو العام، كما أنشئت أيضاً وظيفة المحامى العام، تمييزاً له عن المحاسب العام فى المسميات التى سترد فيما بعد.

ونحن عندما ننظر إلى المستقبل نجد أن الأمير هو وقاضى القضاة فى باوتشى اتفقا فى اجتماع من اجتماعات لجنة المدرسة المحلية، على المقترحات التى تقضى بإضافة الصفين الخامس والسادس إلى التعليم فى المدرسة المتوسطة الإسلامية، واتفقا أيضاً على أن الوقت قد حان لإعادة التفكير فى التعليم ما بعد الأوَّلى للمسلمين، والذى لا تهتم به البعثات التبشيرية، نظراً لأنه كان فى باوتشى فى ذلك الوقت حوالى أربعة عشر مدرسة محلية لغير المسلمين، فى مقاطعة باوتشى، وأن التعليم فى تلك المدارس كان يصل إلى الصف الثالث - كان مركز تخريج المدرسين غير المسلمين فى تورو Toro آخذاً فى النمو، وكانت أقرب المدارس المتوسطة المناسبة الخاصة بالوثنيين تبعد مسافة كبيرة عن كل من مقاطعة بنيو Benue وكباً Kabba. لم يكن ذلك يعنى أن هذين الرجلين كانا يرغبان فى إحداث اضطرابات فى البنى الاجتماعية الوثنية عن طريق تخريج تلاميذ متوسط ٢ بحيث لا يجدون عملاً يلتحقون به، ولذلك راحا يتدبران

هذا الأمـر بشيء من الحـرص - ومن يدرى، هل يسـتـطيع مـركـز تدريب تورو تطوير مدرسـة أوليَّة على درجة أعلى من الكفاية فى مثل هذه الظروف؟ وهنا يرى أصـحاب الحساسية البالغة أن المصطلح "وثنى" Pagan أصبح مصطلحًا محرجًا وعقيمًا فى ذات الوقت، وأن غيـر المسلم المقيم فى المناطق المسلمة، أصبح يفـهم ذلك المصطلح فـهمًا منحـازًا. لكن الحـرب وضـعـت حـدًا لهـذه الأفكار التـقـدميَّة كلهـا، تمامًا مثلمـا أحبطت الحرب العالمية الأولى مصطلح Vischer ومثلما أحبط الكساد مـصطلح "هسى" Hussey.

على الجانب الآخر، لم يكن كل شيء على ما يرام فى الإدارة المحلية فى باوتشى طوال تلك السنوات. وفى الوقت الذى كانت الحداثة تنعكس فـيـه على تخطيط "أرض" جديدة "للطائرات"، تحتوى على مصارف ومهابط صلبه تُسَهِّل تسلم البريد الأسبوعى القادم من كنو، كان يعقوب الثانى فى سدة الحكم فى ظل اختلاس جرى فى الخزانة المحليـة، وكـان السـواد الأعظم من مـسـئـولى الإدارة المحليـة مـدينين للمـرابين الذين يتعيشون من إقراض النقود.

كان بعض هؤلاء المسئولين مدينين بما يقرب من راتب عـامين لكل واحـد منهم، وسبب ذلك أنهم قبلوا عن طيب خـاطر الملابس المبالغ فى قيمـتهـا والأشيـاء الأخرى المبالغ فى قيمتهـا أيضًا من جانب من يبيعونهـا. كان كوارا Kwara كبير المرابين، صـاحب نفـوذ كبير، إلى حد أن أمير باوتشى كان يود أن يجـعله وزيرًا Waziri له، أو بالأحرى كبيـر المسـتـشـارين، أو عـضـوًا رئيسـيًا فى المجلس. وقـد أحـبطت الإدارة البريطانية ذلك كله، وخططت مع قاضى القضاة من أجل تقييم كل البضـائع والسلع محل النزاع تقييمًا حقيقيًا، وجرى أيضًا تنظيم خصم أقساط دورية مناسبة من رواتب هؤلاء الموظفين، لكنهم لم يستطيعوا منع كوارا Kwara من التجوال فى سيارة الأمير (التى كانت الإدارة المحلية تدفع تكلفتـهـا)، ونجحت الإدارة البريطانية ولكن بصـعوبة بالغـة فى منع الأمـيـر من اصطحـاب كـوارا مـعـه إلى مـؤتمرات الرؤسـاء فى كـادونا.

الأعمال التى من هذا القبيل لم تكن تظهر للعيان أو على جداول الأعمال الرسمية، أو جداول أعمال الاجتماعات التى كان كل من الممثل المقيم ورئيس الحى يعقدانها مع الأمير بصورة دورية فى يوم الأربعاء، وكانت تلك الاجتماعات تنعقد إما فى مقر الممثل المقيم، أو بالأحرى فى القصر الذى يقيم فيه الأمير، هذه الأمور كانت تستحوذ على القسم الأكبر من المناقشات، إلى أن أصبحت مثاراً لثرثرة أصل المدينة وحديثهم (وكان ذلك يعتمد على نوعية المستشار الذى يحضر تلك الاجتماعات من ناحية وعلى مزاج الأمير من الناحية الأخرى.

لم ينشرح صدر أبى بكر لذلك الذى كان يجرى فى البلد وبخاصة أن رفاقه فى ذلك الوقت كانوا ينظرون إليه باعتباره صاحب سلطة من ناحية وصارمًا من الناحية الأخرى، فضلاً عن مشاركته فى ابتكار كل أنواع العقاب التى تناسب الجرائم التى يرتكبها التلاميذ الأشقياء، ومع ذلك كان تلاميذه ينظرون إليه على أنه شخصية مهمة ويحظى بينهم بشعبية كبيرة. كان هناك طفل من بين الأطفال قُدِّر له أن يلعب دوراً مهمًا فى مستقبل أبى بكر وحياته الخاصة. هذا الطفل هو أحمد كارى Kari. كان فى المدرسة ٢٥ تلميذاً فى القبول، وستة وسبعين تلميذاً فى بقية المدرسة، كان ذلك فى العام ١٩٣٩ (فى ذلك الوقت كان يعيش على مساحة باوتشى التى تبلغ ٦٧٠٠٠ كيلاً مربعًا، حوالى مليون نسمة). وأضيفت إلى مسئوليات أبى بكر الأخرى، مهمة أمين المكتبة المدرسية، الأمر الذى جعله يقرأ كل الكتب التى كانت فى حوزته. لم يعرف أبو بكر فى ذلك الوقت أن اسمه على قائمة قصيرة تضمن المدرسين الأجواد، الذين سيصبحون محررين هوساويين فى جريدة لهجية جديدة تصدر أسبوعيًا لتوزع فى المناطق الشمالية. هذه الجريدة اسمها بلغة الهوسا: Gaskiya Ta Fi Kwabo (ومعنى هذا الاسم "الحقيقة تساوى أكثر من بنس واحد"، هذا الاسم الملفت للانتباه، والذى يسرى مسرى الأمثال الهوسوية، يترجمه البعض، لسوء الحظ على أنه "الحقيقة أفضل من رأس المال"). وقد صدرت هذه الجريدة أول مرة فى شهر يناير من العام ١٩٣٩،

عن مكتب الدكتور روبرت Rupert إيست East فى زاريا Zaria. ومما زاد من استياء أبى بكر تافاوا باليوا من حماقة الحكم المحلى وفساده، وبخاصة عندما دارت الحرب، أنه اكتشف أن شهادة مدرِّسه الأعلى منه كانت شهادة من المستوى الثالث، الأمر الذى أثار وأزعج رفاقه بعض الشىء. وبذلك يكون أبو بكر قد اجتاز مرحلة أخرى من مراحل حياته: فقد توفى والده يعقوب Yakubu ولد زاله Zala فى العام ١٩٣٩ مخلفًا وراءه أبا بكر فى رئاسة الأسرة التى لم يكن فيها سوى والدته التى راحت تذكره بأحداث وأيام خلت.

Map 3: Bauchi Province where Abubakar grew up after World War 1.

	Provincial Boundaries
	Boundary of old Central Province
	Principal Roads (some not all season)
	Nigerian Railway
	"Bauchi Light Railway"

100 Kilometres

FR. NIGER
KATSINA TOWN
KATSINA
SOKOTO
HADEJIA
KATAGUM TOWN
KANO
KANO CITY
Katagum
AZARE
JAMA'ARE
MISAU
Road to MAIDUGURI
BORNO
BURMI
Road to SOKOTO
ZARIA CITY
NINGI
NINGI
KAFIN MADAKI
BAUCHI EMIRATE
Gombe
Road to South
KADUNA
ZARIA
RAN
TIRWUN
BAUCHI TOWN
YALWA
INKIL
GOMBE TOWN
TORO
NARAGUTA
JOS
DASS
LIMAN KATAGUM
DASS
TAFAWA BALEWA
LERE
BOI
BOGORO
TULA
PANKSHIN
PLATEAU
MURI
ADAMAWA
YOLA
NIGER
3

الفصل الخامس

صحوة زمن الحرب

الله (سبحان وتعالى) هو الذى جعل الشجرة القطن الحريرية جميلة
يتعين على شجرة التين (الكئيبة) أن تُوقف غضبها(*)

دارت رحى الحرب العالمية الثانية، وخافتها أطرافها، وتأججت أفراحها، وتوجهت أتراحها، وانتصر المنتصرون فى هذه الحرب، فى أماكن بعيدة عن باوتشى. وراح القادمون الجدد إلى الساحل الغربى من إفريقيا يسيئون، تفسير باب الرومانسية (أو بسبب جهلهم الجغرافى) يسيئون تفسير البرق الصفيحى والرعد الصَّفيحى أيضًا، اللذين يأتيان من الصحراء الكبرى Sahara باعتبارهما تأثيرين مرحليين من تأثيرات الدراما المستمرة فى الحملات الصحراوية فى أقصى الشمال الشرقى. وغاب عن هؤلاء المفسرين أن هذين التأثيرين هما جزء من "الحرب الزائفة" التى دارت فى المستعمرات بعد الحرب الخاطفة التى دارت فى النرويج، وفى البلدان المنخفضة، وبعد أن وضعت فرنسا حدًا لإشارات العبور المدنى التى خدعت الهاربين فى أول شتاء وأول ربيع بعد اندلاع الحرب. لكن ألمانيا هى وروسيا كانتا قد اقتسمتا بولنده بالفعل، هذا يعنى أن دول البلطيق الثلاثة لم تعد تظهر على قوائم الدول المستقلة ذات السيادة، وأن أى طرف ثالث لابد أن يحترم هذه الحرية المستقلة، وكانت محاولة فنلنده النائية البطولية، التى

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا ، وهو قريب من القول المأثور "لله فى خلقه شئون". (المترجم)

كانت تقوم على مواجهة المارد Goliath السوفيتى بما لا يزيد، بأى حال من الأحوال، عما يشبه المقاليع والأحجار، والأحذية الثلجية، تُذكِّر العالم المضطرب، بين الحين والآخر، بأن الحرب العادلة تُحَتِّم على بعض الناس الطيبين، بل والمتضررين مواجهة بعض التضحيات. كانت تأثيرات الحرب على نيجيريا، وعلى أماكن أخرى مثل باوتشى، قد جرى وصفها، فى كثير من الأحيان فى ضوء تحرير زعماء هذه البلاد أو فرض الليبرالية عليهم، لكن هؤلاء الذين كانوا يحاولون فرض هذه النظريات كانوا عبارة عن قلة من البشر، كما أن الزعماء أنفسهم كان من بينهم قلة قليلة، هم الذين خاطروا بالقيام بتضحيات عنيفة، وذلك بغض النظر عن المتاعب التى شهدوها أو سمعوا عنها من أطراف أخرى.

من الناحية النظرية، كانت الإحلالات والتدعميات التى جرت فى زمن الحرب، تنصب "بشكل محدد على الخدمة مع القوات الوطنية فى المناخ الاستوائى". اختيار الضباط فى زمن الحرب يفقد معانيه الإضافية (التى تكون غير عادلة فى معظمها) القديمة التى تقوم على تهيئة الفرصة لأولئك الذين لا يستطيعون الوفاء بفواتير الطعام والمطالب الاجتماعية لقواتهم المحلية حتى يتمكنوا من تعويض ما يخسرونه بسبب تلك الأوامر العسكرية، التى يترتب عليها رخص الترفيه من ناحية ويكون فيها التحدى البشرى لأولئك الذين يهتمون برجالهم مجزيًا من الناحية الأخرى. عندما اتفق كل من الجنرال السير جورج George جفارد Giffard، القائد العام لغرب إفريقيا هو ورؤساؤه العسكريون فى الحكومة البريطانية Whitehall، عقب النجاح الذى أصابه اللواءان النيجرى ولواء ساحل الذهب، ضد الإيطاليين فى الحبشة، تقرر أن يساهم غرب إفريقيا البريطانى بفرقتين فى جنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى فيلق وقوات قاعدية خاصة بالنقل، والمهندسين، وقوات مضادة للطائرات، وقوات للوحدات الطبية، فضلاً عن قوات خاصة بالترانزيت وإخلاء المعسكرات، وهنا أصبحت مسألة اختيار المجندين الجدد أمرًا بالغ الأهمية فى مراكز التدريب حتى يمكن إلحاق خرِّيجيها بالعمل فى خدمة قوافل النقل البحرية. يضاف إلى ذلك أن اختيار ضباط الصف البريطانيين

الذين سيقومون بتدريب "القوات الوطنية" على النظام، واستخدام السلاح، والتدريب التكتيكي، وعلى القيادة المحلية، ظل مقصوراً على قوات المشاة، التي يعد فيها اختيار القوات وقت السلم تمهيداً لعمل القوات الاستعمارية، شرفًا لكل من يحظى به، لكن بعض الأسلحة المتخصصة التي نشأت من قوات أساسية بسيطة، كانت تعاني عجزاً في التحركات الإفريقية التي كانت تطول بعض الرتب البريطانية الأخرى، من الذين وصلوا إلى رتبة رقيب محارب، الأمر الذي كان يؤدي إلى نشوء بعض المشكلات. ونشأت أسطورة، لم تصل إلى أولئك الذين كانوا سيقومون بالقضاء عليها، مفادها أن فرد الإشارة الأوروبي أو فرد المدفعية يعد أرقى من الرقيب الأول الإفريقي (الذي يحتمل ألا يثير أية مشكلة حول هذا الموضوع بسبب أميته)؛ يزاد على ذلك أن بعضًا من الشبان الصغار الذين حصلوا على رتب عسكرية شرفية تسهيلاً للعملية الإدارية في كشوف القوات، كانوا يستحقون الرتب العسكرية المؤقتة مدفوعة الأجر، وبخاصة عندما يصل مثل هؤلاء الأفراد إلى وحدة استعمارية في زمن الحرب، المقصود منها هو شغل الشواغر التي ترتبت على الحرب.

من هنا يمكن القول إن الحرب جَرَّت على غرب إفريقيا التقييمات العِرْقية المتبادلة، وعلى الرغم من أن التجربة المباشرة اقتصرت على البلدان التي بها حاميات مثل ليجوس، إيبادان، وأينوجو، وكانو، وكذلك المحطات الأصغر من ذلك، والقريبة من مناطق التدريب الخاصة بالتجمعات التي تعيش في الغابات والإحراج، فإن الوحي انتشر في بداية الأمر بطريقة غير مباشرة إلى مختلف أماكن باوتشي. وباعتبار باوتشي مركزاً من مراكز المرور، ومركزاً أيضًا من مراكز التدريب، فقد كان مطلوبًا منها في بعض الأحيان، مساندة مفرزة صغيرة دائمة من الجنود تحت قيادة ضابط واحد ومعه صف ضابط بريطاني واحد أيضًا، ثم تحول ذلك المركز بعد ذلك إلى مركز كامل من مراكز تدريب المشاة. وعلى الرغم من تعظيم زيارات الكتيبة بالزي الكامل، بين الحين والآخر، وبمرافقة الفرقة الموسيقية، إلى المدينة ابتغاء تشجيع الشبان على

الانضمام إلى قوات الجيش ورفع الروح المعنوية بين المدنيين، فإن ذلك العرض البهيج، الذى كان مقبولاً ويحظى برضى شعبى، والذى كان الزى فيه عبارة عن طربوش أحمر، وسترة زواوية(*) صفراء وقرمزية اللون، وبنطال كاكى طويل، قد تحول إلى قبعة من اللباد وبنطال قصير - أما الأرجل فكانت تجرى حمايتها من الأشواك والحصى، لكن الأقدام ظلت حافية ومكشوفة. هذا يعنى أن الخوف من غاز الخردل، قد أحال إلى التقاعد الصنادل الجافة المفتوحة، التى جرى إدخالها، جلبًا لها من الهند، لحماية الأرجل أثناء المشى فى الغابة، جاء البديل عن تلك الصنادل المفتوحة، عبارة عن حذاء طويل العنق books، من تصميم هيئة الإمداد والتموين فى بلد بعيد، لكى يناسب ذلك الذى ظنوا خطأ، أنه يناسب القدم الإفريقية المتوسطة، والتى لم تكن معتادة على لبس الجوارب، أو الأحذية، الأمر الذى جرى رفضه من قبل السواد الأعظم من الجنود الذين أجازت وحداتهم لبس ذلك الحذاء (اللهم باستثناء قلة قليلة من الجنوبيين المتعلمين، الذين أصبح ارتداء الحذاء عندهم علامة من علامات احترام الذات.

كانت هناك فروق واختلافات أخرى، لكنها لم تكن ملحوظة تمامًا: أول هذه الفروق هو أن القوات البريطانية كلها كانت ترتدى أحذية برقبة طويلة، وكانت قمصان تلك القوات مزودة بياقات، ولم تكن القوات ترتدى الطربوش الأحمر مطلقًا على سبيل المثال (على الرغم من أنه حدثت محاولة ناجحة فى فترة ما بعد الحرب للترخيص للضباط بارتداء الطربوش الأحمر من النوعية المصرية). لكن كان هناك مفهوم واحد خاطئ ينبغى تجنبه. صحيح أن الجنود الأفارقة ذهبوا إلى الحبشة بعد الحرب العالمية الثانية، كما ذهبوا أيضًا إلى كل من مصر والهند وبورما Burma، ثم عادوا إلى الوطن وهم يتفاخرون بأنهم شاركوا فى الانتصار على كل من الإيطاليين واليابانيين. لقد شاهد

(*) الزواوى: جندى من فرقة مشاة فرنسية كانت تتألف فى الأصل من جنود جزائريين يرتدون ملابس شرقية مزركشة. (المترجم)

هؤلاء الجنود الهنود الذين يعيشون فى شقاء وفقر مدقع لا يمكن تصوره فى بلادهم. وفوق كل ذلك، شاهد هؤلاء الجنود نظراءهم من الجنود البريطانيين والأمريكان وهم يقومون بأعمال وضيعة ويدوية وهم لا يتصرفون كما لو كانوا ينتمون إلى عرف أسمى أو أرقى من عرفهم. يزاد على ذلك أن هؤلاء الجنود الأفارقة كانوا يتقاضون أجوراً أكبر عندما يخدمون خارج أوطانهم، كما أن زوجاتهم الرسميات (لم يكن مسموحاً سوى بزوجة واحدة لكل واحد منهم) كن يتلقين حصصاً صغيرة بصورة منتظمة، وشجع ذلك الكثيرات من هؤلاء الزوجات على تجميع مبالغ كبيرة من أجور أزواجهن ليضفن تلك المبالغ إلى المكافآت التى يحصل عليها أزواجهن. والشىء غير الصحيح يتمثل فى أن هذه الخبرات أدت بصورة مباشرة إلى حدوث انتفاضة وطنية مضادة للاستعمار، عندما عاد هؤلاء الجنود إلى أوطانهم، على الرغم من حساب الأجور الأساسية لهؤلاء الجنود على أساس من الاقتصاديات النقدية فى أوطانهم وفى الهند وليس بالمقارنة مع الاقتصاد النقدى فى المملكة المتحدة. وعلى العكس من ذلك، وكما هو الحال فى السواد الأعظم من القوات المحاربة القوية والناجحة، فإن الذى ظهر كان عبارة عن استشعار لمعنى الجندية فى إطار أسرة ذكورية موسعة وممتدة وخالية من العرقية، تأسست على مستوى الفصل ومستوى السرية، وشملت الكتيبة أيضاً (أو معادلات هذه التشكيلات فى الأسلحة الأخرى غير جنود المشاة)، يزاد على ذلك، وبعيداً عما تتطلبه حياة الغرباء فى زمن الحرب، أن الولاء الشخصى للضباط والقادة الذين نصَّبتهم المصادفة على هؤلاء الجنود كان واضحاً جلياً، الأمر الذى جعل هؤلاء الضباط والقادة يبادلونهم ذلك الولاء.

أعداد قليلة من القوات الإفريقية هى التى خدمت وعملت فيما وراء البحار، وأعداد أقل من هذه الأعداد هى أيضاً التى شهدت المعارك والقتال، لكن أفراد هذه القوات كانوا من الرجال الذين تعلموا تعليماً جيداً، ومن أصول راقية ومعروفة. كان عدد كبير من هذه القوات من المستعمرات الفرنسية، وقد عادوا كلهم تقريباً إلى ظروفهم الريفية

أو المتواضعة عندما جرى تسريحهم من الخدمة العسكرية. كان من بين الحرفيين وأفراد الإشارة، وأفراد الطبابة، والصُنّاع والكتبة، أفراد كانوا قد بدأوا الانخراط فى المرحلة الثانوية من التعليم، وجرى أيضًا تحويل بعض المدرسين المؤهلين إلى نُظّار فى الجيش، لكن لم يحدث مطلقًا أن حُوِّلوا إلى حملة بنادق أو مدفعيين. بانتهاء الحرب كانت قوات غرب إفريقيا كلها لا تحتوى إلا على قلة قليلة من الضباط الأفارقة المقاتلين الذين عهد إليهم بمهام الحكام ، وكان ضباط ساحل الذهب من بين هذه الفئة القليلة، هم الذين حاربوا فيما وراء البحار (على الرغم من وجود بعض الضباط من سيراليون ضمن القوات الجوية الملكية، وكانوا يتمتعون بكامل الامتيازات). كان هناك بعض قليل من غير المقاتلين الذين كانوا يحملون رتبًا أعلى، وكان البعض منهم يلبسون رداء قساوسة من الفئة الخامسة ويضعون على أكتافهم شارات الملازمين - هؤلاء الملازمون كانوا يتناولون طعامهم مع الضباط البريطانيين، وقد استطاعوا التغلب على كل أنواع المفاجآت أو الخجل المتبادل إلى حد أن أفراد العرقين كانوا مؤهلين من الناحية العاطفية للتكيف مع بعضهم البعض - كان النيجيريون متكيفين مع المراهقين من البيض، الذين لم يكونوا من الأنواع التى درج الأفارقة على معرفتها فى محطات المهام أو فى المكاتب الحكومية، وكان ضباط الطوارئ متكيفين أيضًا مع السود الذين كانت لغتهم الإنجليزية مقصورة على المفرادت العسكرية، أو لغة الملك جيمس أو إنجيل دُوائى Douai، أو حتى اللغة المُهجَّنة - بعض آخر من هؤلاء الأفارقة كانوا يمثلون الأئمة المسلمين، وكانوا يرتدون ثياب المفتى، وكانوا يترددون فى ارتداء قميص الغابات أخضر اللون وبنطال الغابات أخضر اللون، أثناء إطلاق النيران، هؤلاء الأئمة كانوا يتناولون طعامهم لوحدهم أو مع الرقباء الأول لأنهم لم يكونوا يتكلمون اللغة الإنجليزية. كان الأئمة بصفة محددة لا ينتمون إلى "المجندين" أو "المتطوعين"، كانوا مجرد "مستخدمين". لم يلعب أى أحد من رجال الدين هؤلاء أى دور فى التطور الحزبى السياسى فى نيجيريا فى فترة ما بعد الحرب.

لم يحدث مطلقًا أن سافر جندى نيجيرى واحد ضمن حملة مكونة من جنود غرب إفريقيين ومكلفة بالعمل فيما وراء البحار، والسبب فى ذلك أنه كان هناك وعى كامل بأنه لا الأوروبيون المعروفون فى المكاتب الرسمية أو المقاصف التجارية، أو النوادى، أو البعثات التبشيرية، أو المدارس والورش - على الرغم من تأكيد وجودهم وإثبات نفوذهم، سواء كانوا مشفقين ومتعاونين، وراعين وبعيدين، أم متغطرسين ووقحين – ولا البعيدون عن الله هم ومدمنوا المسكرات الذين كانوا يضايقون الناس المحترمين (بأن يأتوا أشياء مخزية فى أماكن غير محترمة، ثم يحصلون بعد ذلك على العفو والصفح لأنهم "بشر") يُعَدُّون مواطنين بريطانيين حقيقيين. هذا يعنى أن السذاجة السيكلوجية (النفسية) أو بالأحرى الأحكام المستعجلة نتج عنها فى فترة ما بعد الحرب، إعادة تقييم، لكل من الإمبراطورية المستعمرة بواسطة مواطنى المملكة المتحدة العائدين، وإعادة تقييم القوات الاستعمارية بواسطة النيجيريين الوطنيين، إعادة التقييم هذه لا علاقة لها بالهزائم البريطانية الباكرة التى حدثت فى الشرق الأقصى، أو بالانتصار الإفريقى الذى تحقق فى أركان **Arakan**، لكنها ترجع إلى وعى الطرفين الكامل لبعضهما باعتبارهما غرباء واقعين تحت ضغوط فى نيجيريا نفسها. هناك، فى نيجيريا، وطوال بقاء المستعمرات الفرنسية المجاورة تحت إمرة فيكى **Vichy**، جرى تخصيص مجموعة من الضباط البريطانيين الإداريين الشبان لخدمة الطوارئ العسكرية فى دوريات الحدود والعمل فى الاستخبارات، وكانت مجموعة قليلة من السكان المحليين المنتقين تقوم بمساعدة هؤلاء الضباط البريطانيين: منهم محمد سنوسى **Sanusi**، أكبر أبناء أميركنو، وربما كان وارثه أيضًا، كان محمد سنوسى واحداً من الجنود الذين كانوا يرتدون زى التدريب الكاكى أثناء قيامه بهذا العمل.

كان الوجود المكثف للبولنديين المنفيين، والروديسيين الجنوبيين فى قوات الحدود الإفريقية الغربية يظهر بشكل واضح فى التأثيرات الناجمة عن العمل بهذا التقييم من الجانبين، وبخاصة أن القوات الرئيسية من بين هذه القوات كانت تعانى من وفرة

الضباط. كان البولنديون قد طعَّموا كلاً من أفكار مدرسة الجرامر Grammar الإنجليزية وأفكار المدرسة الأستكندلندية العالية الخاصة بالواجبات، بمسحة من المسئولية الأرستقراطية الإقطاعية فيما يتصل بالفلاحين والعاملين فى زراعة الأرض، كما كانوا يرفعون أيضًا شعار الحرب وشارتها ضد الألمان. كان الروديسيون قبل الحرب يتملقون الحضر البريطانيين ويداهنونهم فى مسألة تأقلمهم مع حياة الغابة، كان هؤلاء الروديسيون يقرون الفروق السائدة فى أرض الطابور(*) بين كوادر القادة والمرءوسين، وبخاصة أن هذه الفروق جرى تعلمها على عجل، فى زمن الحرب، فى وحدات التدريب (وبخاصة أن هذه الفروق جرى الخلط بينها وبين الممارسات الاجتماعية المحلية الخاصة بنظام الأولوية فى نظام الخدمة المدنية)، هؤلاء الروديسيون استطاعوا إفهام البريطانيين أن الخبرات البريطانية الناتجة عن التعليم هى والخبرات الإفريقية المكتسبة من غير طريق التعليم يمكن أن تساند بعضها بعضًا فى سبيل المنفعة المتبادلة فى الظروف العصيبة. وبهذه الطريقة تداخلت العلاقات الثقافية والعلاقات الشخصية مع بعضها البعض أثناء فترة الحرب. وليس من المدهش، أن يعود، الجيل الجديد، فى زمن السلم، وكله من المغتربين إلى الحياة المدنية فى غرب إفريقيا، لينضم إليه الكثيرون الذين شكلوا آراءهم عن الأرض وعن شكلها من خلال تقاسم الأمور المستجدة الناتجة عن الحرب هى والأمور الوافدة من أهل هذه الأرض، الذين كانوا يريدون استمرار هذه الخبرة والتجربة السعيدة.

تأثر المدنيون الذين يقطنون فى بلد مثل باوتشى بالحرب من منطلق اعتيادهم على الكماليات التَّرفية المستوردة. انخفضت واردات الملابس المستوردة (وهذا من مصلحة كوارا الذى يحابيه الأمير)، واحتفظت المنسوجات المحلية التقليدية بوضعها أمام الأذواق الراقية تمامًا، فى حين ذاع انتشار طرز الملبوسات البسيطة، وجرى أيضًا

(*) المقصود بأرض الطابور: المنطقة التى يصطف فيها الجنود. (المترجم)

تحديد نوعيتها وإطالة أعمارها. وأصبح الطعام، إذا ما تجاهلنا السوق السوداء الصغيرة، ومشروعات التقنين غير الرسمية الخاصة بالشركات المستوردة، والتى يجرى الإشراف عليها من قبل سكرتارية ليجوس، نجد أن الطعام أصبح مسألة من مسائل الحياة عند البريطانيين غير العاملين فى الجيش وعند النيجيريين أيضًا. هذا يعنى أن بطاريات الكشافات، كانت لا تزال نوعًا من الترف فى القرى. ولم يكن سهلاً الحصول عليها اللهم إلا فى المناطق التى توجد بها مقاصف تابعة للجيش، حيث كانت تخلق نوعًا من السوق السوداء فى هذه النوعية من البطاريات. وهذه هى المشروبات الروحية، محدودة الكمية، تأتى من خلال طريق بحرى آمن وبكميات متزايدة من مصادر غير معتادة فى جنوب إفريقيا. وطال أيضًا أمد جولات الخدمة أو ورديات ودورياتها فى المواقع التى تعانى نقصًا فى عدد الأفراد. وطوال القسم الأكبر من زمن الحرب لم يكن هناك سوى سبعة من ضباط التعليم فى سائر أنحاء الشمال النيجيرى كله، وفى بعض الأوقات، كان كبير ضباط التعليم يجد نفسه مسئولاً أيضًا عن مقاطعة برنو Borno. هؤلاء المسئولون المغتربون، الذين لم يكونوا بحاجة إلى السفر إلى بريطانيا لتمضية الأجازة، كان يجرى تشجيعهم على أن يسلكوا الطريق الآمن ويذهبوا إلى جنوب إفريقيا، التى جرى إجلاء عدد كبير من الزوجات إليها أثناء الحرب. ومع ذلك كانت هناك أيضًا بعض الخسائر نظرًا لأن السواد الأعظم من سفن أسطول الدر Elder دمبستر Dempster جرى إغراقها الواحدة بعد الأخرى، عن طريق الغواصات أو الألغام، أثناء سيرها أو عند وقوفها فى المنافذ الغربية. كان عدد كبير من الرحلات البحرية بين أى ميناء من الموانى البريطانية وميناء فريتون Freetown فى سيراليون Sierraleone، تسلك طريق الدائرة القطبية وأمريكا الشمالية بحثًا عن الأمن النسبى وتجنبًا للبحريه الألمانية أو الهجوم الجوى. لكن هذا الذى جرى الحديث عنه هنا فى هذا الفصل لم يحدث دفعة واحدة: فى العام ١٩٤٥، اتضح أن كثيرًا من الأمور قد تغيرت، وأصبح الموقف يسمح بالعودة إلى اليقائن التى كانت سائدة قبل ستة أشهر، هذا يعنى أن الناس لم يعودوا يرون الأحداث التى كانت تؤثر عليهم بشكل عام، هذا

يعنى أيضًا أن الأحداث التى من هذا القبيل لم تعد تشكل نقاط تحول فريدة فى ذلك الزمان. كان أبو بكر تافاوا باليوا واعيًا بكل هذه الأحداث والأمور.

فى العام ١٩٤٠ جرت ترقية المعلم أبى بكر إلى المرتبة الثانية: فى ذلك العام، كانت أخبار إجلاء القوة البريطانية عن دنكرك Dunkirk بسبب هزيمة الحلفاء فى فرنسا، تتصدر نشرات الأخبار، لكن شهد ذلك العام أيضًا صدور أول قانون من قوانين التنمية والرفاه الاستعمارية وجرى تمرير ذلك القانون إلى البرلمان (عن طريق الحكومة الائتلافية) للموافقة عليه، لقد أعد هذا القانون من قبل المحافظين فى وقت السلم، يوم أن كانت تجربة جزر الهند الغربية ماثلة فى أذهانهم، أدى ذلك القانون إلى الانفصال عن التقاليد المالية، التى بلغت من الكبر عتيًا، وقضى باستقلالية المستعمرات ماليًا وأن تكون مكتفيه ذاتيًا. لم تكن أنباء إغراق البحرية الملكية للأسطول الفرنسى فى إيران Oran بعيدة عن أذهان النيجيريين، وكذلك أنباء فشل القوات البريطانية الفرنسية المشتركة فى احتلال داكار Dakar، ولجوء البقية الباقية من ذلك الأسطول إلى فريتون. انضمت قوات الحدود الملكية الإفريقية الغربية إلى حملة شرقى إفريقيا فى الوقت الذى جرى فيه الجلاء عن الصومال. رفض حزب المؤتمر الهندى العمل بنصائح مجلس الحاكم المناب. وعانت إفريقيا معاناة شديدة وبطريقة لم يسبق لها مثيل من الحمى الصفراء. فى ذلك العام، حصل المعلم أبو بكر على إجازة وقام بزيارته الأولى إلى ليجوس. ويجدر بنا هنا استعراض ذكريات هذا الرجل عن هذه الزيارة لاعتبارات عدة. كتب أبو بكر فى سياق حديثه عن أسفه لافتقار برامج التعليم فى مدارس البعثات التبشيرية وفى المدارس الحكومية إلى التركيز على العادات والأعراف "البدائية" وإعلاء الأساليب والطرق "الأوروبية" يقول الرجل:

"يقلد كثير من الأفارقة، فى كل الأحوال تقريبًا الرجل الأبيض تقليد الأعمى. هذا الإفريقى المتعلم يقلد الرجل الأبيض فى لباسه، الذى لا يناسب مطلقًا مناخ بلادنا. وبدلاً من هيامه

وعشقه للموسيقى الوطنية والرقص القبلى، تراه يفضل البيانو Piano، والأوركسترا، والرقصات الأوروبية الاصطناعية وكذلك حفلات السمر والترفيه الأوروبى. إنه يقلد الأوروبى تقليد القردة فى كثير من الأمور الكبيرة والصغيرة، وينظر إلى بنى جلدته أو قبيلته الذى لا يقوم بتلك المحاكاة وذلك التقليد على أنه ليس تقدميًا. أذكر أنى مررت بتجربة من هذا القبيل عندما زرت ليجوس لأول مرة فى العام ١٩٤٠ . طلبت إلى بعض أصدقائى الهوساويين القيام معى بجولة إلى الشاطئ لأنى لم يسبق لى أن رأيت البحر مطلقًا، ولذلك فأنا أود رؤيته. كانوا أصدقاء صيادلة يدرسون للحصول على دبلوم من كلية يابا العاليه فى ليجوس. كان أصدقائى يرتدون الملابس الأوروبية، أما أنا فكنت أرتدى ثيابًا فضفاضه وبنطالا، وأضع على رأسى عمامة كبيرة. ولم يشغل أصدقائى بالهم بلباسى ورحنا نتجول فى المدينة، وكنت ألاحظ الناس وهم ينظرون إلىّ وهم يتعجبون، إلى أن التقينا فى نهاية المطاف مواطنًا ليجوسيًا، أو بالأحرى كاتبًا جنوبيًا، صديقًا لأصدقائى. نظر الرجل إلىّ فى البداية نظرة احتقار واستهزاء، ثم راح بعد ذلك يسأل أصدقائى عن مقصدهم فى هذه الصحبة الغريبة. كان ذلك الكاتب الجنوبى يتكلم إنجليزية غير سليمة. قالوا له : من أكون، وأصيب الرجل بالدهشة، وراح يطلب منه العفو والسماح. لامنى ذلك الكاتب الجنوبى على عدم ارتداء الملابس الأوروبية، وقال إن "أحدًا" لن يفكر فى أنك من "المتعملين" بسبب اللباس الذى كنت أرتديه. بوسعك الآن التقاط صور لنوعية البشر الذين تخرجهم مدارسنا لقد دُهشت تمامًا لما يقوله ذلك الكاتب الجنوبى، لأن تلك كانت أول مرة أستمع فيها إلى ملاحظة من

هذا القبيل. قال أصدقائى الهوساويون: إنهم وجدوا أن من الضرورى عليهم ارتداء اللباس الأوروبى أثناء العمل، وإلا رفض المرضى قبول الدواء الذى يعطونهم إياه. قالوا : إن ذلك كان يحدث بالفعل. لقد انتهجوا أيضًا بعض العادات الجنوبية التى جرت "أوربتها" Europenised، حتى لا يعرف المرضى أنهم من أهل الهاوسا. كانت تلك مجرد أمثلة قليلة من فيض كثير ومع ذلك نجد جيراننا الجنوبيين يصيحون وينادون بالاستقلال لنيجيريا بأكلمها".

فى الوقت الذى كان يغلب فيه، على ذوق أبى بكر اللباس الوطنى الأقل تموجًا، وبخاصة عندما يكون خارج الشمال، فإن الرجل لم يستسلم لأية ضغوط تدعوه إلى تجنب الحرج فى البيئات الأجنبية نتيجة ارتدائه الزى الوطنى، وذلك عن طريق ارتداء الزى الأوروبى. كان الرجل، على العكس من ذلك كله، وباعتباره المستشار السياسى الرئيسى المستقبلى، يُسَرُّ عندما يرى الأسكتلنديين، على سبيل المثال، يرتدون زيهم الوطنى فى وجوده فى المناسبات والأعياد. كان أبو بكر يعى تمامًا أن الاختلافات الثقافية إنما تعد فوارق مقبولة، وينبغى ألا تتحول إلى رموز للاحتقار والازدراء والدونية، لكن الوعى الليجوسى العالى من منظور الهاوساويين إليه، أعاد أبا بكر إلى موطنه ولديه إحساس قوى بذلك توصّل إليه نتيجة ملاحظته للجنوبيين العاملين فى باوتشى، وكاتسنا والأماكن الأخرى. كان أبو بكر منتقداً أيضًا لتخطيط المدن غير الطبيعى، الذى أدى، حسب تقديره هو، إلى ازدحام جزيرة ليجوس. ضاعف أبو بكر دراساته الخاصة، وقوّى قناعاته وثوابته التى مفادها أن التعليم ينبغى ألا يعزل الأطفال عن علاقاتهم التقليدية مع من يكبرونهم سنًا، وألا يقلل من شأن اتساق البنات مع مجتمعهن الإسلامى. علق أبو بكر بعض الشىء مسألة تزويد الأطفال بشىء من المهارات الحرفية العملية. ونظراً لأن الحرب كانت تدور فى أماكن بعيدة، يصعب ألا

نلاحظ أن ذلك الشاب الصغير بدأ يتحول إلى شخصية رجعية أو إن شئت فقل شخص متزمت فى أضعف الأحوال.

فى العام ١٩٤١، توفى أمير باوتشى بعد حكم دام ثلاثة وثلاثين عامًا. وكما هى العادة، كانت آمال كثيرة معلقة على الرجل الذى جرى اختياره عن طريق حملة الألقاب، ليكون وارثًا أو خلفًا للأمير الراحل يعقوب Yakubu الثالث، هل يمكن أن يؤدى شباب ذلك الأمير الجديد إلى تطوير نظرة خارجية تقدمية؟ كان الأمير الجديد، رئيسًا لحى فالى Fali ثم حى تورو Toro اعتبارًا من العام ١٩١٣، وكان الرجل فخورًا بانحداره من قبيله الجيراوا الوثنية، وكان الرجل لا يخجل من أنهم كانوا من العراة، الذين لا يرتدون الملابس، وكان الرجل يدعى أيضًا التعاطف المتفهم للقبائل المعادية التى تحت إمرته وتخضع لحكمه. سلَّم رفيق أبى بكر المدعو باجيرى Bageri مُعَلِّم أبى بكر بذلك الاختيار على أنه عُرف أو عادة سليمة وصحيحة، لكنه احتفظ لنفسه بحكمه على الرجل. كان يعقوب يتمتع بشىء من الفكاهة وخفَّة الظل، واستطاع مسايرة المسئولين البريطانيين. كانت كفاءة الرجل فى الإشراف على إنتاج القمح للاحتياجات العسكرية، وكفاءته فى توفير المجندين المناسبين لمواجهة أخطار الجيش ومواجهة المخاطر الصحية فى مناجم القصدير، فضلاً عن كفاءته أيضًا فى جمع التبرعات فى كثير من الأحيان وذلك من باب مساندة المجهودات الحربية، كل ذلك كان أكثر من مجرد دليل على أن محاسنه كانت أكبر بكثير من نقائصه. صحيح أن توليه الحكم كان إيذانًا بأخبار الحرب. ومع ذلك كانت أخبار الحرب تحمل فى طياتها أخبارًا طيبة من قبيل الاستيلاء على الحبشة وإريتريا، واحتلال كل من جزيرة مدغشقر Madagascar وسوريا، والتقدم لملاقاة روميل Rommel فى الصحراء البعيدة فى أقصى الشمال، كان هناك أيضًا حدث توقيع ميثاق الأطلسى، وتأكيده التام على " الحرية" - هل كان ذلك يعنى تفسير روزفلت Roosevelt السخى لمصطلح "الاستقلال" للمستعمرات الدستورية التى كانت مشاركة فى الحرب من أجل القضاء على العبودية، والاستعباد، أم أن ذلك التفسير كان يعنى الصورة الأكثر

دقة التى رسمها تشرشل عن حكم القانون؟ فى ذلك الصراع اضطرت الأعراق المتعددة العاملة ضمن قوات الحدود الملكية الإفريقية الغربية الجنرال جيفارد Giffard قائد هذه القوات فى أكرا Accra إلى الإصرار على أن كل حاملى الرتب من الأفارقة يتعين عليهم تعلم الحديث والكتابة باللغة الإنجليزية، الأمر الذى يُسَهِّل عملية قيادة العناصر البريطانية الغربية لحاملى هذه الرتب وبخاصة فى ميدان القتال، عندما يجرى استعواض من الخسائر: واحتجت وزارة الحرب بأن ذلك سيكلف الكثير، ويقال إن سيدة من الخزانة البريطانية كانت على حق عندما قالت: إنها لا تفهم السبب الذى يمنع الاسنادات البريطانية من تعلم "لغة الأفارقة". كان الأوربيون كلهم الذين كانوا ضمن الجنود النيجيريين الشماليين يواصلون تعلم لغة الهوسا المستعملة فى الثكنات العسكرية، وكانوا يكابدون آلام العقاب فى بعض الأحيان لأنهم كانوا يخيبون أمل الجنرال جيفارد ويحبطونه. انتظرت قلة قليلة من المسئولين البريطانيين ليتبينوا ما إذا كان تردد الشماليين فى تعلم اللغة الإنجليزية (وبخاصة إذا ما كان البريطانيون قد تعلموا لغة الهوسا) هو السبب فى عدم قبول مواقف الجنوبيين السياسية أو انعكاسها، على أهل الشمال، على الرغم من التعبير عن تلك المواقف باللغة الإنجليزية - وحتى عند قبول هذه المواقف، كان لابد من معرفة السبب الذى أدى إلى معاملة تلك القلة من الشماليين الذين قبلوا هذه المواقف على أنهم مرتدون.

لم يؤد جو الحرب إلى خنق المحاولة المدنية من أجل إيجاد نقابة عمالية تابعة للحكومة المحلية، ولذلك تأسس الاتحاد الفيدرالى لأفراد الإدارة المحلية، الذى كان يهدف إلى ردم الفجوة بين جداول مرتبات الحكومة المركزية والحكومة المحلية، وأن يحذو حذو كل من جون هولت Holt وشركاه، وشركة إفريقيا المتحدة فى مسألة تقديم المعاشات، وعلى الرغم من ذلك، بقيت قوة ذلك الاتحاد متواضعة فى الشمال. ثم ساءت الآمال المرتقبة بعد ذلك لكنها سرعان ما تحسنت على الفور مرة ثانية – قامت ألمانيا بالهجوم على روسيا، التى تحولت من دوله غير متحاربة إلى حليف شارك فى مواجهة

عدو واحد، استولت اليابان على هونج كونج، واكتسحت كل الإمبراطوريات البريطانية، والفرنسية والهولندية فى جنوب شرق آسيا، أدت خسارة الحلفاء لجزيرة جاوة التى يأتى منها القسم الأكبر من الكنين، إلى تكريس الجهود لإيجاد بديل للكيماويات المضاده للملاريا، إلى اكتشاف الأتبرين atebrin، الذى يعرفه المغتربون هم وأفراد قوات الحدود الملكية الإفريقية باسم "الميباكرين" Mepacrine، الذى كان يحول لون البشرة إلى اللون الأصفر. لكن الولايات المتحدة دخلت الحرب بالطريقة التى كان يريدها روزفلت. وهنا كان لابد من تعلم بعد جديد من أبعاد الجغرافيا. وكان آدم أحد أبناء الطاهر واحداً من أولئك الذين تعلموا ذلك البعد الجغرافى الجديد، آدم هذا كان موضوعًا تحت وصاية المعلم أبى بكر فى المدرسة، وكان يَنْظَرُ إليه باعتباره أخيه الأصغر. كان هناك فى بداية الأمر، طفل شرس يدعى تيجر Tiger فيلبس Phillps سارع إلى وضع آدم داخل الصف طالبًا إليه أن يكون مشرفًا لراعيه وليس شيئًا له. مسألة ضياع ماء الوجه هذه كانت أمرًا مهمًا فى باوتشى مثلما هى فى الشرق الأقصى. وسرعان ما عرف آدم أن الآخرين ربما كانوا خجولين أيضًا، وأن أخاه الأكبر، المعلم أبا بكر، كان مشغولاً بعمله للتأهل لشىء أفضل من مدرس للصف الثالث. أصبح عمل آدم Adamu يتمثل فى إشعال مصباح المعلم أبى بكر، من طراز تيلى Tilley كى يتمكن الرجل من الدراسة والمذاكرة أثناء الليل، فى وقت اكتفى الرجل فيه بكمية الكيروسين التى كانت محددة بسبب الحرب. كان أبو بكر يقوم بإلقاء دروس خصوصية فى إحدى المدارس الليلية على أفراد عائلته ومن يعتمد عليه من زملائه، وبدأ الرجل أيضًا يكتب مقالات رصينة كانت تنشر فى المطبوعة المسماة المدرس Teacher النيجيرى Nigerrian، وكانت تلك المقالات تتعلق بقواعد اللغة الإنجليزية، التى ابتكر فيها تقنيات جديدة خاصة به هو، وكان يستعملها عندما يقوم بالتدريس للأطفال الصغار الناطقين بلغة الهوسا.

الفصل السادس

نضج زمن الحرب

الرَّعد الذى يهزم يعنى غليانًا شديدًا(*)

كان العام ١٩٤١ ـ ٤٢ عام اضطراب وعدم استقرار للإدارة البريطانية فى نيجيريا. كانت هيئة العاملين البريطانيين فى باوتشى قد استُنْفِذَت بصفة خاصة. وحتى عندما كان كبير موظفى التعليم له مساعد، فإن اهتمام الرجلين، عندما يكونا فى وقت الراحة، يكون مشتتًا عن احتياجات مدارس الغابة بسبب تقلبات الحرب المتضاربة. كان حزب المؤتمر الهندى قد رفض مهمة السير ستافورد Staford كريبس Cripps التى عرضت شروط الحكم الذاتى مقابل المشاركة فى المجهود الحربى ضد القوات الفاشية. وتراجع جيش الصحراء البريطانى إلى حافة حدود مدينة القاهرة، ثم جرى تقدمه مرة أخرى إلى الأمام من العلمين، فى حين قام الحلفاء الجدد القادمون من أمريكا، بعملية إنزال فى جزيرة غير معروفة تمامًا من جزر سلومون Solomon البريطانية، هذه الجزر عبارة عن محمية تدعى "جواد لكنال" Guadalcanal، وراح الحلفاء الأمريكيون يطهرون جزر المحيط من اليابانيين جزيرة بعد أخرى.

لكن بورديللون Bourdillon، حاكم نيجيريا، عندما استرجع أيامه فى الهند، وسيلان، وأوغنده، اكتشف أن الوقت قد حان للموافقة على خطة تعليمية مدتها عشر

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

سنوات، وأن يقوم بتعيين عضوين إفريقيين فى مجلسه التنفيذى (مثلما فعل زميله فى أكرا)، وأن يتطلع إلى إحداث تغييرات فى زمن السلم. وأمر الرجل بعقد مؤتمر فى إيبادان Ebadan لبث الثقة، دون أن تكون هناك مشاركة رسمية فى ذلك المؤتمر، وقد أوصى ذلك المؤتمر بتعيين عدد يتراوح بين اثنين وستة من المرشحين الأفارقة، بالشروط نفسها الخاصة بالمؤهلات والخدمة، التى يجب أن تتوفر فى المرشحين البريطانيين: كان التحفظ الوحيد فى ذلك المؤتمر يتمثل فى أن هؤلاء المرشحين يتعين تسكينهم فى الأقسام التى يكونون فيها مقبولين من قبل كل من الرؤساء والناس أيضًا، على ألا يخدموا فى الأقسام التى هى مواطن لهم. هذه النقطة الأخيرة، كانت تعد صدى لنظام الخدمة الصينية الإمبريالية القديمة، مع الإبقاء على المرشحين كلهم فى وضع يكونون فيه بعيدين عن القوط فى الانفعالات المحلية. اتبع حاكم نيجيريا ذلك الأسلوب، بأن قام بزيارة بعض كبار الأمراء فى الشمال، للتشجيع على تطوير وجهة النظر الجديدة التى تتسم بالطابعين العرقى والسياسى. وبعد أن أبلغه كل من أمير ياورى Yauri وأمراء آخرين أنهم لن يوافقوا بأى حال من الأحوال، أو تحت أى ظرف من الظروف على تعيين رؤساء أحياء أفارقة فى إدارة نيجيريا، نظرًا لأن رؤساء الأحياء هؤلاء سيكونون من الجنوبيين وقابلين للتنقل بوظائفهم فى الشمال، وهنا تحول حاكم نيجيريا عن قراره بعض الشىء متسائلاً: أنه على الرغم من أنهم لا يودون لأهل الجنوب التدخل فى شئون الشمال، فإنهم يقدرون بكل تأكيد أن الشماليين يتعين أن يكون لهم قول مساو أيضًا لقول الجنوبيين فى مسألة التشاور مع الحاكم بشأن الشئون النيجيرية كلها؟ هذا يعنى أن حاكم نيجيريا لا يمكنه إصدار قوانين بشأن الشمال معتمدًا فى ذلك على تقديره الشخصى، وعلى المسئولين وحدهم. ألا تستطيع المجالس الإقليمية، التى تضم ممثلى الحكم المحلى، وبعض الأعضاء المنتقين، الاضطلاع بسلطات الحكم فى عملية التعيين؟.

حمل كبير المفوضين الرسالة إلى باوتشي، وألَّف أمير ميساو Misau التقدمى أغنية احتفاء بهذه المناسبة، لكنه هو وأمير باوتشى قالا: إنهما لن يجلسا فى مجلس واحد مع الجنوبيين. افصلوا مجلس الشمال عن مجلس الجنوب، بمؤتمر للرؤساء Chiefs، ومجلس أعلى للتنسيق والحلول الوسط بحيث يحتوى على ممثلين للشمال وممثلين للجنوب، وبذلك يمكن أن يكون أمراً مقبولاً - مادام الحاكم يحتفظ لنفسه بسلطة التشريع فيما يتعلق بالدين والأعراف والتقاليد (بما فى ذلك أيضًا شئون الرؤساء Chiefs). وبذلك تكون بذور الشك قد جرى بذرها باعتبار ذلك استجابة فاعلة لتشكك الكاميرون Cameron فى نظام الإدارة المحلية ويبدو أن الكاميرون هى التى أحيت محاكاة الولايات الهندية، من منطلق أن كل ولاية من الولايات تتمتع بنظام حكم متباين تمامًا عن الإدارة المركزية، وأن تكون عمليات تملك الأرض، وسن القوانين منسقة عن طريق سكرتارية ليجوس. لو كان كبار الأمراء مثل المهراجات Maharajas متساوين فى الداخل فى وندوسور Windsor أو كان Cannes، لاكتشف حاكم نيجيريا أن هذا القياس كان مقبولاً ومفهومًا. كانت المشكلة الوحيدة التى تمنع إنبات تلك البذور، تتمثل فى أن سياسات البلد كله لابد من تسويتها والبت فيها عن طريق ليجوس، ذلك المكان الذى لم يسبق أن رآه أى أحد من غالبية أمراء الشمال وأفراد شعبه، فضلاً عن عجز هؤلاء عن تخيل الشكل الذى تكون عليه ليجوس أو تصوره، والذى وجدت فيه تلك القلة القليلة (كما سبق أن أوضحنا) من أمثال المعلم أبى بكر، أنفسهم غرباء تعساء فيه من الناحية البدنيه والنفسية. كان عكس ذلك تمامًا، ينطبق بطبيعة الحال على أولئك الأفارقة الذين مواطنهم فى الجنوب، وينطبق أيضًا على بعض الأوروبيين العاملين فى ليجوس.

كان على الشماليين فى الجنوب والجنوبيين فى الشمال على حد سواء، أن يتعلموا التكيف مع تملك الأرض الأجنبية، والتكيف التام مع عمليات العقوبات الغريبة عليهم تمامًا فى المحاكم المحلية – "جرى الاعتراف بالقانون المحلى والأعراف المحلية"

مثل الأعراف التى تتفق عليها الأغلبية المحلية، وذلك على الرغم من إعطاء شىء من الاعتبار والاحترام لإجراءات الأفراد المحلية فيما يتعلق، على سبيل المثال، بتوزيع الميراث بين أفراد العائلة، شريطة أن يتم الالتزام بالإجراءات المحلية المتبعة فى أتعاب المحاكم. كان الأوروبيون يجرى التعامل معهم من خلال المحكمة العالية أو محاكم القضاة، نظراً لأن أحداً، لم يقل أن أى مقترح من مقترحات ردم هذه الفجوة يعد أمراً غير منطقى. وجرى تشجيع السوريين واللبنانيين والنازحين التجاريين الآخرين، وبخاصة المسلمين منهم، على الاحتكام إلى محاكم القضاة والشريعة الإسلامية. قد يبدو الأمر سخيفًا إذا ما وجدنا منظومات قانونية مختلفة ومنظومات مختلفة خاصة بالنظام والانتظام، وفى حال وجود قوات شرطية للحكم المحلى وقوات شرطية وطنية أو قومية، كلها تعمل فى خطوط متوازية جنبًا إلى جنب، لكن مادام أن القائمين على أمر السلطة، هم والأغلبية المحلية راضون عن صحة ذلك، فإن ذلك لم يؤد إلى وجود أى نوع من أنواع الصراعات، كما أدى أيضًا على صعيد التسويات الدولية فى كل من تانجاير Tangier أو شنغهاى Shanghai. على أى حال فإن بعد المسافة، وعدم الارتياح، والمصروفات كانت تعنى أن رحلات التقاضى التى يمكن تحاشيها كانت من الأمور النادرة تمامًا. وحتى فى بريطانيا نفسها التى كانت تتباهى فى الأربعينيات بأن لديها أفضل الاتصالات فى العالم، كان السواد الأعظم من مواطنى لندن وجلاسجو، اللتين تبعدان عن بعضهما مسافة ستمائة وأربعين كيلاً متريًا، كان يندر أن ترى بيئتيهما، على الرغم من خبرتهما البارزة فى مجال الحياة العامة المحلية. كانت كل من كنو Kano وباوتشى بعيدتين عن ليجوس بعد براغ Prague عن باريس، بل إنهما كانتا فى واقع الأمر بعيدتين بُعد موسكو عن مدريد.

كان روبرت Rupert إيست East يحاول مستميتًا تقليل الجهل بين أهل الشمال، وذلك عن طريق زيادة توزيع جريدة جاسكيا، وذلك على الرغم من التقنين الشديد لتوزيع المطبوعات المستوردة فى زمن الحرب، كان الموزعون يحصلون على عمولة على

مـبيعاتـهم، ومـعـروف أن هؤلاء الموزعين هم المسئولون فى الحكم المحلى، لكن الرجل اقترح إعطاء مكافأة إنتاجية ربع سنوية، وقد أطلق على هذه المكافأة بلغة الهوسا La-dan Kokari بمعنى (مكافـأة المحـاولة). يزاد على ذلك، أن مـحـرر هذه الجـريدة، وهى شـخص تقدمى يدعى أدو Ado هوغ Hugh إليوت Eliott، كان يعير اهتمـامـه للرسـائل التى كـانت تصله من أناس مـتعلمين مـثل أبى بكر تافـاوا باليوا. قـال هـوغ اليوت: إن هذه الخطابات والرسـائل، لم تكن تبحث عن الشـهرة أو تسعى إليها، وإنما كانت تنتقد بعض نقـاط الضـعف فى الإدارات المحلية. هـذه الرسـائل كـانت تبـرز النفـوذ الجنوبى الزائد عن الحـد، وكانت تتنـاول أيضًـا مسـألة توسـيع التـعليم الإلزامـى وفتحـه قبل أن ينادى الرأى العـام بذلك، وكانت تبـرز أيضًـا حـاجة البـلاد إلى شـروط رسـميـة مـوحدة للخـدمة على مستويات المحليـات، وعلى مسـتوى "الأوامـر العـامة"، والحـاجـة إلى سـد الفجوة بين الحـكومـات المحلية الغنية والحكومات المحلية الفقيـرة. كـانت تلك الرسـائل تنتقد الأميين من رؤسـاء الأحياء، والذين كـانوا يودون التـعلم عن طريق الأسـفـار. وبدأ يظهر شىء من التردد على "عملية الانحناء" عند تـحية الرؤسـاء أو الكبراء. قال أدو هـوغ إيليوت: إن هـذه الرسائل لم تكن تطالب "بديمقراطية التصـويت"، وإنما كانت تدعو إلى الاحتكام والرجوع إلى الرأى العام.

تأسيسـاً على ذلك، مادام بقى المفوض الرئيسـى فى كادونا هو المصـدر الرئيسـى للسلطة، لم يكن أحـد يلقى بالاً للتـفكك الذى كـان يجرى فى العـاصـمـة الوطنيـة لحزب حركة الشبـاب النيجيرى الذى سبق أن أتينا على ذكره فى الفصـل الرابـع. تأسـس هـذا الحـزب فى العـام ١٩٣٦، بـواسطة كل من إيرنست Ernest إيلكولى Ikoli و هـ H. او O . ديفيز Davies، وازدادت حـيوية هـذا الحـزب وعـافيتـه فى العـام التـالى بفضل زيك Zik، الأمر الذى أدى إلى إزاحة الحـزب الديمقراطى الوطنى النيجيرى الذى أسـسه ماكولى Macaulay؛ لكـــن بعـد خـلاف فى الرأى فى العـام ١٩٤٠ انـفـصـل أيكوثى عن الحـزب وفاز فى الانتـخابات الفرعية التى جرت فى ليـجوس. استقال كل من آزكوى وديفيز من

حزب حركة الشباب النيجيرية، التى أصبح يتزعمها مفكر من اليوروبا، كان مفترضًا أن يعمل بالمحاماة، ويدعى السيد/ أوبافيمى obafemi أولوو Awolowo الذى ينحدر من مناطق الأيجيبو Ijebu فى الغرب. وسرعان ما جرى تفسير ذلك الانفصال الرئيسى على أنه نتيجة حتمية للمنافسة الشخصية بين الأفرع المختلفة من شعب اليوروبا، وأن هذه المنافسة تفاقمت بفعل أحد أطرافها الذى كان يحظى بمساندة الدكتور آزكوى Az-ikiwe هو وأتباعه، وأزكوى نفسه كان ينحدر من شرق نيجيريا. وعندما تناسى كل هؤلاء الفوارق التى بين مساقط رءوسهم، أصبح واضحًا فى ذلك الوقت من شباب هؤلاء الرجال، أن مشاغل الدكتور أزكوى السياسية كانت تسير فى اتجاه إيجاد اتحاد فيدرالى بين مستعمرات غرب إفريقيا البريطانية وإحداث إصلاح دستورى جذرى فى هذه المستعمرات كلها، واتضح أيضًا أن ذهن أوو Awo كان يتطلع إلى التنمية الاقتصادية، والتعليم، وإحلال الوطنيين محل الأوروبيين فى المؤسسات الحكومية، ومجال المال والأعمال وكذلك فى مجال الحرف والمهن.

كان شيئًا طيبًا لواحد من مدرسى باوتشى فى العام ١٩٤٢ أن يصل إليه من كنو Kano طالب غير عادى، كله حماس لقضاء فترة تدريبه العملى الذى سيدوم خمسة أشهر. لقد انتقلت كلية كاتسنا إلى كادونا فى العام ١٩٣٨، وأصبحت تطلق على دور الإقامة فيها أسماء من قبيل لوجارد Lugard، كليفورد Clifford (الذى افتتح هذه الكلية)، وولد الهوسا (أى هانز Hanns فيشر Vischer) والمعلم سميث (أيرلنج Urling smith، المدير الثانى للتعليم فى الشمال). كان من رأى أى E إل. مورث Mort أن وصلة السكة الحديد هى والعاصمة الإدارية الاصطناعية أصبحتا مكانين مقيتين، وأعرب الرجل عن شكره وامتنانه لأن الحرب هى التى هيأت الظروف التى تسمح بنقل هذه العاصمة مرة ثانية. كان العسكريون يصدرون الأوامر إلى بناياته المدرسية) من محل مؤقت للإقامة عبر نهر كادونا بالقرب من "وصلة" السكة الحديد. خطط الرجل لنقل العاصمة الإدارية إلى منطقة زاريا حيث الجو أكثر نقاء من الناحية الأخلاقية، والذى

تقام فيه حاليًا كلية باريوا التى حلت محل كلية كاتسنا. كان و.س. رانكن Rankin قد نقل الفصل الخاص بتدريب المدرسين إلى زاريا، لكنه عاد بالفصل مرة ثانية طلبًا للتدريب العملى، كان أمين كانو Kano واحدًا من هؤلاء المدرسين المتدربين. وأمين كانو أرستقراطى وواحد من أبناء قبلية الجناوه Genawa. كانت أسرة أمين كانو واحدة من الأسر المتعلمة، المتدينة، والماهرة أيضًا، ولم يكن أمين كانو قادرًا على الصفح عن الأسرة المالكة فى كانو، نظرًا لأن والده جرى تخطيه تمامًا فى الترقية من وظيفة مفتى، أو مستشار قاضى ومسجل إلى وظيفة قاضى شرعى مسئول عن محكمته الشرعية المحلية. واعتبارًا من ذلك الوقت فصاعدًا، نشأت علاقة متوترة دامت مدى الحياة، وكانت تقوم على الاحترام المتبادل المبنى على التوتر والاختلاف بين الثائر أمين كانو طيب المحتد، الذى كان يهاجم التقاليد والامتيازات المتحجرة، والمتواضع الواثق بنفسه أبى بكر البراجماتى (النفعى) محدث النعمة، الذى كان يؤمن بأن التحسن المتدرج يمكن سحبه من النبلاء والوجهاء أصحاب السلطة الراسخة.

عاد أمين كانو فى اليوم التالى لتولى العمل فى مدرسة باوتشى المتوسطة باعتباره مدرسًا مؤهلاً. وسرعان ما تبين أن التفكير السياسى المتطور يمكن أن يعمل عمله فى بلد مريض صغير بعيد تمامًا عن الكهرباء، والطرق المسفلتة، والماء الصحى، وعن السكة الحديد، وعن المطابع، كما أن الأعيان فيه يعيشون فى منازل مبنية من اللَّبِن. أثبت أمين كانو أنه كان مدرسًا موهوبًا يعرف كيف يحافظ على مستوى ذكاء فصله وقدرته على التحصيل. وقُدر لأمين كانو أن تكون زوجته الثانية منحدرة من الأسلاف والأجداد فى باوتشى. اتصل أمين كانو بأبى بكر (الذى رحّب به ودعاه لزيارته فى بيته) كما اتصل أيضًا بمدرس شاب ثالث يدعى يحيى Yahya جوساو Gu-sau، وهو رجل من إمارة سكتو، وكان يعيش فى باوتشى اعتبارًا من العام ١٩٤١، وبذلك كون هؤلاء الرجال ثلاثى من هيئة التدريس الأذكياء والتقدميين، الذين كانت لهم أفكارهم الخاصة، ولم يكونوا يشاركون الضباط الإنجليز الفكرة التى مفادها أن شيئًا

لا يمكن إنجازه قبل انتهاء الحرب. ازدهر متحف المدرسة. وأصبح المعلم أمين كانو متيمًا بالكشافة، وكان متيمًا أيضًا بعُرى الساقين، عندما جاء السير تيورد Theodore آدامز Adams فى زيارة الوداع فى شهر يناير من العام ١٩٤٣ (ذاع صيت تيودور تحت اسم آدم، Adamu، كان الرجل قد أصدر أمرًا بنقله من ولايات الملايو بدلاً من المرشح بورديللون Bourdillom المفضل، وأمضى الرجل سنوات فى مقاومته لتصميم الحاكم على معاملة الإمارات باعتبارها سلطات ثانوية أو فرعية، وليست ولايات أميرية أو سلطنات مستقلة داخليًا). كان آدامز Adams قد أصدر أوامره لنائب مدير التعليم السيد/ بى أ جى. سى. بايليس Baylis للقيام بتشكيل وحدة كشفية من ستة صبية من المرحلة الانتقالية. وهنا سارع كل من المعلم يحيى جوساو والمعلم أمين كانو بالاستجابة لتوجيهات وW جون John رانكين Rankin وراحا يملآن حياة الأولاد (الطلاب) بالكثير من الدراما التلقائية والدراما المسرحية المكتوبة، سواء أكان ذلك على شكل انتقاد الأطفال (الطلبة) للسلطة، أم عن طريق الشخصيات الروائية الجادة مثل شخصية الشيخ Shaihu عمر Umar.

كان المعلم أبو بكر يولى هذه الروح الشابة موافقته، لكنه لم يكن يشارك فيها فى معظم الأحيان. المجتمع الهوسوى بحكم التقاليد يقسم نفسه (مثلما حدث فى عهد الإمبراطور التِّنين، عندما انقسم المجتمع الصينى إلى طبقات تنازلية تبدأ بالمسئولين، يليهم الفلاحون، ثم الجنود وأخيرًا أصحاب المحلات) تقسيمًا هرميًا على النحو الذى أشرنا إليه فى فاتحة الكتاب. كان ذلك التقسيم الهرمى يبدأ بالحكام الأرستقراطيين بحكم مولدهم (وكان من بينهم المعلم أمين كانو)، يليهم الأرستقراطيون عن طريق التعيين، ثم مدرسوا القرآن الكريم، ثم التجار الناجحون، والفلاحون الفالحون، ثم الحرفيون، ثم التجار الصغار، والتجار الأقل نجاحًا، ثم الوسطاء، والفلاحون البسطاء، ثم الحدادون، والصيادون، ثم الخدم، ثم الحمالون، ثم الموسيقيون، ثم القصابون فى نهاية القائمة. وعلى الرغم من أن مدرسى البوكو، كانوا يطالبون بمكانة شرفية قرب

القمة، وعلى الرغم من أن الحراك الاجتماعى كان أمرًا ممكنًا ومعترفًا به، فإن أصول العائلات التى انحدر منها هؤلاء المدرسون لم تغب عن أذهان الناس. وعليه فإن أصحاب المكانة المكتسبة من هؤلاء المدرسين كانت تدور من حولهم الشكوك، فى حين كان أصحاب المكانة الاجتماعية الموروثة يسمح لهم بالاستقلالية والعبث والطيش: كان الشباب من أصحاب المظاهر الخادعة يستقلون بأنفسهم فى ظل قواعد اجتماعية من النوع الذى يربط بين أفراد الطبقة الدنيا من المجتمع.

فى كلية كاتسنا تداخل المعلم يحيي مع المعلم أبى بكر، لكنه كان واحدًا من أوائل الذين تأهلوا طبقًا لسياسة التدريب الجديدة. بعد أن بدأ الرجل فى ظل حكم شمولى، راح يواجه العقبة التى أصبحت تعترض الزيادة فى أعداد المدرسين، وفى العام ١٩٣٤ جرى تحويل الفصل المسجل فيه يحيى إلى مجموعة تخصصت فى العلوم والرياضيات. وفى العام ١٩٣٦ جرى تعيين الرجل للتدريس فى مدرسة كنو Kano المتوسطة، التى كان أمين كانو فيها فى الفصل المتفوق (الأمر الذى كان يسد فراغًا فى مسألة "الأولاد الكبار" الذين قدر لهم أن يعملوا على تماسك الحياة السياسية فى الشمال فى السنوات التى تلت ذلك)، وعندما التحق أمين كانو بالكلية وجد أنهم حددوا له التخصص فى اللغة الإنجليزية، إضافة إلى مادة أخرى.

وجد هذا الثلاثى نفسه أحدث من المعلم محمود Mamudu صيام Zayam، الذى كان ناظرًا للمدرسة، كما وجد ذلك الثلاثى نفسه أحدث أيضًا من المعلم جاربا Garba كافن Kafinمداكى Madaki، لكن كانت هناك قلة قليلة من الناس الذين لم يروا المعلم أبا بكر بصفته مدرسًا بارزًا، ومساعدًا ومعاونًا فى كل شىء، على الرغم من قلة أصدقائه الحميمين من أمثال جاربا كافى.

قبل تقاعد آدم Adams بوقت قصير، فى شهر مارس من العام ١٩٤٣، قام السير برنارد Bernard بورديللون Bourdillon بجولة فى الشمال لإقناع الأمراء والمقيمين بأهمية تعليم اللغة الإنجليزية، وأهمية تعليم البنات، وأهمية الإصلاح الدستورى، بغض

النظر عن آراء أدم. وفى شهر أبريل أرسل الحاكم رسالة إلى مؤتمر المقيمين أكد فيها مصراً على أن الشمال "يتعين عليه النزول من خلف النوافذ الزجاجية، التى ينظر من خلالها نظرة احتقار وازدراء إلى غرائب جيرانه من الرعاع، وأن يشمر عن ساعديه وينضم إلى المشاركة فى العراك".

وصف المتحمسون لتشكيل أول هيئة سياسية فاعلة فى شمال نيجيريا، وصفوا ذلك التشكيل مرات عدة بأن أثره وتأثيره فيه مبالغة كبيرة. تورط فى ذلك الوصف بعض من شبكة هؤلاء المتحمسين، لكن ذلك التورط لم يشكل حلقة أسياسية فى سلسلة الأحداث. عثر أمين كانو على مشترك كبير بينه وبين واحد من سلالة الليمان Liman فى باوتشى، هو أحمد محمود سعد زنقر، الذى كان راعياً وقيماً على مدرسة الصيدلة فى زاريا، التى كان يجرى فيها تدريب الصيادلة وتعليمهم، لكن ذلك القيّم كان مصاباً بمرض السلّ الرئوى، الأمر الذى جعله يمضى وقتاً طويلاً فى بيته فى باوتشى اعتباراً من العام ١٩٤٢، وهو حائر بين المرض والشفاء. وراح المعلم سعد زنقر ينادى بذلك الذى يسميه الاجتماعيون السياسيون "الفوضى instability المقنّنة Controlled"، فى عملية التقدم، وكان سعد زنقر ماهراً فى تلوين معتقداته باللون الذى يروق لجمهوره. كان سعد زنقر، شأنه شأن السياسيين الناجحين يناشد المفكرين من خلال العقيدة وقوة حججه وأسانيده، وكان الرجل يناشد الحضر التقليديين باستخدام نيرانه الشعبية التى كان يضرمها فى قلوبهم. يزاد على ذلك، أن سعد زنقر اكتسب اسماً بين أصحاب السلطة وصفوه به بأنه مثير الدهماء. كان البريطانيون ينظرون إلى سعد زنقر على أنه يفتقر إلى السحر الطبيعى أو الجاذبية الطبيعية. فى العام ١٩٣٩، وعندما كان سعد فى الرابعة والعشرين من عمره، قام بتأسيس اتحاد التحسين العام الشمالى، هذا الاسم يرجع إلى استعمال الجنوبيين للغة، أكثر من رجوعه إلى تقاليد لغة الهوسا أو اللغة الإنجليزية. زعم المعلم سعد زنقر فى الاجتماع التأسيسى لذلك الاتحاد أن نظام الحكم غير المباشر أمر غير ضرورى للحياة التى يعيشها الفلاحون، وأن هذا النظام

يفتقر إلى المطالب الدينية والدنيوية أيضًا. ولم يندهش أحد لبعثرة أعضاء ذلك الاتحاد عن طريق التغيير الإدارى الروتينى للوظائف والمهام. وعلى سبيل المثال، وجد المعلم سعد زنقر نفسه فى أنشاو Anchau، مركز رئاسة مصلحة مرض النوم.

كان سعد زنقر شاعرًا ومفكرًا راديكاليًا(*) أيضًا، وفى بحثه عن الثورة الملهمة، كان الرجل يأسى لغياب التغيير السياسى والتقنى عن الإدارة المحلية بالشكل التى هى عليه فى ذلك الوقت، وكان الرجل يخشى تمامًا أن يؤدى ذلك إلى سيطرة الجنوبيين على الشماليين سيطرة كاملة، وكان يخشى أيضًا أن يصبح الإسلام مجرد ملجأ لمقاومة التجديد العمياء. وقد أكسبته فلسفته التشككية التى تقوم على التغيير الكلى، أو إن شئت فقل: تغيير الأصل والفرع، عددًا كبيرًا من الأصدقاء فى الجنوب، الذين لم يفهموا أنه بعد إزاحة النظام، الذى ظن أنه وحده هو الذى يبقى على الحكم البريطانى، لم يفهموا أيضًا أن الرجل كان يؤمن ويثق أن الجنوبيين هم والمسيحيون سوف تضيع منهم وظائفهم فى الشمال. كان حاله البدنى وشخصيته الصارمة يعنيان أن أحدًا من الضباط البريطانيين لم يستطع إقامة علاقة تفاهم مع هذا الرجل. كانت اقتصاديات المجتمع الإسلامى الصافى، الذى كان الرجل يتطلع إليه، حبيسه صدره، وبدا للبريطانيين أن من السهل تجاهل هذا الرجل باعتباره مشاغبًا غير عملى، لا يروق كلامه إلا لقلة قلية جدًا من بين الأقلية التى تقرأ وتكتب فى الشمال. يضاف إلى ذلك أن إخفاء الرجل التكتيكى (المرحلى) لمعتقداته الحقيقية عندما كان يواجه مختلف الجماهير. كان يشكل عند أصدقائه المتعلمين نوعًا من أنواع الرَّدع، على الرغم من وجود سوابق لذلك فى بلدان كان يجرى فيها اضطهاد الإسلام. لقد أزعج ذلك كله أبا بكر تافاوا باليوا.

(*) نـزّاع إلى إحداث تغييرات متطرفة فى الفكر والعادات والسائدة، أو فى الأحوال والمؤسسات القائمة. (المترجم)

بدأ المعلم سعد زنقر هو والمعلم أمين كانو يكتبان رسائل إلى الصحف التى تنشر فى ليجوس، وبخاصة الصحيفة التى يصدرها آزكوى بعنوان القبطان الإفريقى الغربى West African Pilot، وإلى الجرائد المهمة التى أغفلتها السلطات البريطانية، بسبب صنفها السيئ، وتحريرها الضعيف، وطباعتها الرديئة فى زمن الحرب، إضافة إلى الأمية ومن ثم الجهل. وعلى الرغم من ذلك، كان توزيع هذه الصحف والجرائد على نطاق واسع تماما. بعض هذه الصحف فى باوتشى كانت تنشر بعض المساهمات التى كانت تأتى من باوتشى على أنها آتية من قبل أناس "معتبرين"، كانت هناك أيضًا بعض المساهمات والمقالات التى تطالب بالإصلاح والهجوم على "السُّخرة"، التى لجأت الإدارة المحلية إليها، لتوجيه الشباب العاطلين نحو الجيش، ونحو مناجم القصدير، وإنتاج القمح من باب دعم المجهود الحربى. كانت السلطات الفرنسية، التى تلقت تعليمها فى السوربون، والتى تحن شوقًا إلى باريس، تطلب دومًا وبصورة قانونية تمامًا، قدرًا قليلاً من عملة السُّخرة من خلال منظومة الإغراء بالنقود، فى ظل توترات الحرب وجد البريطانيون رابطى الجأش، مضطرين إلى تحقيق الغرض نفسه مثل الفرنسيين، وذلك من خلال الضغوط الإرشادية، التى كان مسئولوا الإدارة المحلية، يمارسونها لاسترضاء الإنجليز، واسترضاء الفلاحين الذين يرغبون فى كسب المال، ولم يرفضوا أو يقاوموا تلك الجهود. قام بعض رفاق سعد زنجر من المعلمين، ومن بينهم أبو بكر تافاوا باليوا بالشكوى لدى سكرتير التعليم الرئيسى من بعض أنشطة المعلم أمين كانو التخريبية والآثارية.

] راح الضباط الإداريون، الذين كانوا يعرفون أن النزاع أخلاقى لكنه وطنى الدوافع، راحوا يبحثون عن الوسائل التى تؤدى إلى إخراج الجدل إلى العلن على المستوى المحلى، أملاً فى إحداث نوع من التوازن بدلاً من إذكاء نيران ذلك الذى يمكن أن تفسره سكرتارية ليجوس على أنه فتنة أو عصيان. كان إيه A جى J نوت Knott قد استشار الممثل المقيم فى مسألة كبح جماح نقاد الصحف المقلقين كبحًا حقيقيًا،

وشجعه الممثل المقيم على تشجيع تشكيل ما يسمى حلقة نقاش باوتشى أو إنشائها فى العام ١٩٤٣ . ولعب إيه. جى. نوت دوراً كاملاً فى أنشطة هذه الحلقة العامة. وهنا راح تايجر Tiger فيلبس Phillips الذى كان لا يزال قائمًا بعمل سكرتير التعليم الرئيسى ، يحث المعلم أمين كانو أن يصبح سكرتيراً لتلك الحلقة، وانضم المعلم سعد زنقر إلى هذه الحلقة بالقدر الذى كانت تسمح له ظروفه الصحية، وأصبح المعلم آدم Adamu، الذى قدر له أن يكون رئيسًا Chief فى وشيشى Wushishi، كاتبًا تنظيميًا فى تلك الحلقة، كما ساهم كل من المعلم أبى بكر جيدادو Gidado هو والمعلم يحيى جوساو Gusau مساهمات كبيرة فى النقاش الذى كان يدور فى تلك الحلقة. كان المعلم أبو بكر يداوم على حضور هذه الحلقة بصفته عضواً اجتماعيًا وليس عضواً سياسيًا فاعلاً، ومع ذلك، ونظراً لأن أبا بكر كان يطيق هؤلاء الراديكاليين إلى حدما عن بعد لكن بطريقة لافتة للنظر، فقد كان المسئولون ينظرون إليه باعتباره واحداً من هؤلاء الراديكاليين. كان أبو بكر فى ذلك الوقت فى الثلاثين من عمره، مجرد شاب ليس إلا. كان المعلم أمين كانو ينظر إلى أبى بكر تافاوا باليوا باعتباره فرداً متواضعاً من أفراد الشمال، على استعداد لقول الصدق فى وجود السلطة، لكن ليس من منطلق الزعامة.

كانت تلك الحلقة، فى بداياتها، تنعقد فى المدرسة المتوسطة مساء الجمعة من كل أسبوع: كان يوم المسجد هذا فرصه سانحة للمسيحيين ليمارسوا فيه اهتماماتهم شبه الرسمية دون أن يقاطعها أحد، مثلما كان يوم الأحد فرصه تسنح للمسلمين بالإحساس بالأمان وعدم التدخل المكتبى من قبل موظفى الحكومة. فى بعض الأحيان كان الممثل المقيم يحضر اجتماعات هذه الحلقة، بل إنه كان يتحدث فيها فى بعض الأحيان. كانت رئاسة الحلقة تتم بالانتخاب، وكان ذلك يعتمد فى معظم الأحيان، على صلاحية الفرد للكلام عن الموضوع المطروح. كانت موضوعات الحلقة تضم عدداً من الموضوعات الاجتماعية الجدلية، التى تدور فى الاجتماعات التى من هذا القبيل والتى كانت تمثل قمة الأسبوع الفكرية قبل مجىء وسائل الاتصال الجماهيرية. ناقشت تلك

الحلقة ذات مرة مسألة "الحكم غير المباشر" ، والناس جميعًا يذكرون أن أبا بكر كان يساند ويؤيد "كالمعتاد" وجهة النظر البريطانية، وكان الرجل يسوق من الحجج ما يؤكد إمكانية القيام ببعض الإصلاحات التى يمكن أن ترتكز على قاعدة راسخة ومنظمة بالفعل. سمع سعد زنقر عن ذلك وهو فى سرير مرضه ولذلك أعطى الرجل أمين كانو رسالة يقرأها على الحلقة فى اجتماعها التالى، وكانت تهدف إلى دعوة أبى بكر إلى تدبر الأمر من جديد عله يكون مخطئًا، لكن الرسالة لم تعز أو تنسب أى شىء سوى دوافع الأنانية عند الأمراء وضباط الأحياء على حد سواء، كما تشير الرسالة أيضًا إلى المعلمين بأنهم "صُفْرة الحثالة ومقامرون طائشون". لم يكن جون **John** نوت **Knott** يعتقد أن حكام الإدارة المحلية كلهم ومعهم المسئولون، من الأشرار أو الأغبياء، ولم يكن جون نوت يحتكر الفلاحين، ولم يكن منتظرًا من جون نوت كل ذلك النقد الجائر الذى ورد فى هذه الرسالة، لقد سعد المعلمون الراديكاليون بتلك الرسالة، دون أن يعملوا حسابًا أو يقيموا وزنًا للتكلفة الاجتماعية والمالية للديمقراطية القائمة، كان المعلم أبو بكر ممزقًا بين الطرفين، ولم يكن سعيدًا أيضًا. لكن حلقة النقاش واصلت نشاطها، وبذلك يصبح الوقت المحدد لطرح الأسئلة هو أفضل الأوقات، حيث يستمع الموظفون البريطانيين فيه إلى نشرات الأخبار الصادرة عن اتحاد الإذاعة البريطانية، والاستماع إلى برنامج "ثقة المخ" الذى كان يذاع على الموجات القصيرة.

جاءت الذروة، أمرًا مقضيًا ومحتمًا مثلما يحدث فى المأساة الإغريقية. فى أحد أيام الجمعة، كان أمير باوتشى جالسًا فى كرسيه، وكان المعلم سعد زنقر، بإيعاز من أمين كانو، يود أن يعرف الطريقة التى يجرى بها حساب مرتب الأمير. وهنا أشار رئيس الحى إلى سلم درجات الرؤساء ورواتبهم **Chiefs** وإلى مناطقهم، وعدد سكان هذه المناطق، والثروة النسبية ومتحصلات كل رئاسة من الرئاسات، وسلطة إنزال عقوبة الإعدام، والسوابق التى حدثت فى هذا الصدد ونفذها الشيخ بن فودى هو وخلفه سلطان سكتو. ثم جاء بعد ذلك السؤال الذى كان الجميع يعرفون أن أمير باوتشى يود

أن يُطْرح عليه (واقع الأمر أن السؤال الذى طرحه سعد زنقر لم يكن مفاجأة للأمير) - لماذا يحصل رئيس أدماوا Adamawa على راتب أكبر، فى حين أن باوتشى تجىء فى المقدمة بكل المعايير: وبغض النظر عن المرتبة "أ" التى يحملها الأمير، قامت المحكمة الوطنية (على الرغم من عدم محدودية درجة الأمير) بتخويل نفسها سلطات كاملة وأعدمت عدداً أكبر من الذين أُعدموا فى أدماوا، ولماذا جمعت خزانة باوتشى مبلغًا من ضريبة الأفراد يزيد على المبلغ الذى جمعته خزانة يولا Yola، كان الشيخ عثمان بن فودى قد وضع جواندو فى البداية، تليها باوتشى ثم كنو، أى أنه وضعها بعد نفسه وقبل أدماوا Adamawa هى والإمارات الأخرى (واقع الأمر أن بن فودى وضع برنو Borno أولاً بعد سكتو، ثم تليها جواندو Gwandu، ثم وزارات سكتو، وكنو، لكن باوتشى كانت قبل أدماوا). وهنا انفض الاجتماع قبل الوقت المحدد له، ووصل إلى نتيجة محرجة بعد أن تكلم أربعة فقط من أعضاء الحلقة.

تقدم بعد ذلك هـ H س S برايدل Bridel، الممثل المقيم، الذى كان راتبه أقل من راتب الأمير، مرتدياً عباءة التعليق، وطلب من جون نوت أن يوضح ويشرح للمعلم أمين كانو الأسباب، إن كان يريد بحق أن يعرف شيئًا عن أمور المصلحة العامة، التى جعلت من الأفضل ترفيعهم إلى مناصبهم بطريقة استثنائية. وهنا جاء رد أبى بكر المغيظ الذى يقول: "**إذن فالمسألة لم تعد ديموقراطية. نحن نحاول وضع الأمور على المسار الصحيح، نحن نحاول تطبيق الديمقراطية**". لم يكن ذلك كافيًا لمنع جون نوت صاحب الذهن الليبرالى من اعتصار ذهنه الطفولى ويقول: لقد تحولت حلقة نقاش باوتشى إلى جمعية للمحاضرات برئاسة رئيس الحى، وحرمت الناس من النقاش وطرح الأسئلة، وهنا توقفت الحلقة فترة قصيرة – وقيل: مادامت الحلقة بعدت عن المسار الصحيح، فإنها ذهبت إلى حد "الخروج عن القضبان"، والمعروف أن البريطانيين الموالين والمسئولين لا يسألون عن قائمة المخصصات الملكية فى وجود الغرباء، وأنه لمن قبيل إساءة الأدب أن يفعل الهوساويون الشىء نفسه عندما يسألون عن رواتب الأمراء - يزاد على ذلك ، أن

أحداً لا يستطيع أن يقطع بالأسباب التى تجعل الممثل المقيم فى مقاطعة أدماوا النائية، أكثر أهمية، فى عيون الإنجليز، من الممثل المقيم فى مقاطعة باوتشى، وعليه لن يكون هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا ما حصل رئيسها، الذى يحمل الدرجة الأولى، والذى هو فولانى قبل كل شيء، على راتب أعلى من غيره. يرى السواد الأعظم من البريطانيين أن باوتشى كانت "آخر محطات الرجال الأمجاد": والمؤسف أن باوتشى كانت تعنى أنها آخر الأماكن التى يمكن أن تقع فيها أشياء مثيرة، على الرغم من أن جون نوت Knott كان يتوقع حدوث البقية فى المكان الذى حدده هو.

واقع الأمر أن أنصار حلقة النقاش ومؤيديها أعادوا إحياءها بلا كفالة رسمية، كما بدأ اتحاد التحسين العام فى باوتشى اجتماعاته فى "غرفة المطالعة" التابعة للإدارة المحلية. ولم يحدث أن يصبح لذلك المبنى سقف من الحديد المضلَّع وأرضية من الأسمنت إلا بعد حلول السلام. هذه الغرفة، كانت فى ذلك الوقت عبارة عن مجرد كوخ من اللَّبِن وأغصان الأشجار ويقع مباشرة أمام مكان التجمع البعيد عن المدخل المؤدى إلى القصر، هنا فى هذا المكان يرى الرائى صحفًا، ومطبوعات المكتب الأدبى، والملصقات الحكومية، وكذلك الواردات الورقية كلها ملقاة فى التراب، ويرى أيضًا أسراب النمل الأبيض، والخفافيش، والسحالى، كما يرى أيضًا فضلات أبو بريص فى كل مربعات هذه المكتبة (التى جرى إنشاؤها بمنح جرى الحصول عليها بصعوبة بفضل ركس Rex نايفن Niven، موظف العلاقات العامة فى ليجوس، من الحاكم الجديد ريتشادرز Richards: كان ركس نايفن واحداً من المنفيين من الشمال، والذى قُدر له أن يعود إلى الأضواء من جديد باعتباره كبيراً للمثلين المقيمين ورئيساً للمجلس الأدبى - كان ركس نايفن واحداً من سلالة الباليول Balliol، وكان معاصراً أيضًا لجيمس James روبرتسون Robertson). لم يكن أبو بكر متورطًا فيما حدث لكنه لم يعترض على الحركة، بقى أبو بكر تافاوا باليوا على موقفه باعتباره ناقداً مدافعًا عن النظام القائم والمستقر، موافقًا بذلك على المعنى المتضمن فى الكلمة الهوساوية Gyara التى

تعنى "التحسين"، وقدرة ذلك التحسين على شفاء الأمراض كلها وتصحيح المعوجّ، بدلاً من التغيير المادى. واعتباراً من تلك الأيام فصاعداً راح أبو بكر تافاوا باليوا ينعت المعلم أمين كانو، الذى كان شبه حليف لباليوا، بأنه "مولوتوف" Molotov (جاءت تلك الكنية رداً مباشراً على تلك الإهانة التى حدثت عندما قُدّر لشخص يدعى ل L. ن N بريبت كوفسكى Pribytkovsky الذى كتب الفصل النيجيرى فى أكاديمية العلوم فى اتحاد الجمهوريات السوفيتيه الاشتراكية، عن تاريخ إفريقيا فى الفترة من ١٩١٨-٩٧، ولم يورد اسم "أبى بكر تافاوا باليوا" فى ذلك الفصل سوى مرة واحدة باعتباره "زعيماً لحزب المؤتمر ويترأس حكومة ائتلافيه"). لم يحصل أى أحد منهم على اللقب "رابنتروب" Ribbentrop، الذى ربما كان اسماً غامضاً وربما كان أيضاً لعنة أو إهانة.

الفصل السابع

المُعَلّم أبو بكر، ناظر المدرسة

إذا تعيَّن عليك أن ترتاح، وجب عليك الارتياح فى ظل كبير(*)

حدث ذلك عندما شجعت معركة ستالينجراد Stalingrad النداءات السياسية فى بريطانيا على المطالبة بفتح "جبهة ثانية"، فى الوقت الذى عبرت فيه قوة غرب إفريقيا الملكية قادمة من تلال شتَّاجونج Chittagong إلى بورما Burma، وعندما رسمت وزارة المستعمرات Office خطة لفتح كليات جامعية بعد الحرب فى كل من الملايو، السودان (الذى كان يعد احتياطيًّا آخر للوزارة)، شرق إفريقيا، غرب إفريقيا (معهد واحد لنيجيريا وساحل الذهب). جزر الهند الغربية (تقرر لهذه الكلية أن تكون "متعددة الأعراق") ووسط إفريقيا.

وسرعان ما أسفرت الدعاوى المنافسة التى كانت تصدر عن كلية خليج فوره Fou-rah فى سيراليون، وزهو ساحل الذهب بكلية أشيموتا Achimota، عن قمع الاقتراح الاقتصادى وإفشاله الذى كان يقضى بإنشاء جامعة واحدة للساحل البريطانى الغربى كله. كانت هناك محاولة باكرة للتنوير الشعبى فى كنو Kano، إذ راح واحد من مدرسى الإدارة المحلية، هو إينو Inuwa وادا Wada، يستمع إلى اتحاد الإذاعة البريطانية لما وراء البحار، وبخاصة الأخبار التى كانت تصدر عنها بواقع ثلاث مرات فى اليوم

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

الواحد، من جهاز محمد السنوسى Sanusi اللاسلكى، وكان أينو يعيد تحرير الفقرات الرئيسية من تلك الأخبار بلغة الهوسا على شكل نشرة أخبار تحت عنوان (حال الحرب اليوم) Yadda Yafi Yake Yau. وقام ل.سى، جايلز Giles، ضابط الحى، الذى كان يسكن فى منزل وطنى فى المدينة القديمة المسوَّرة، بتحرير هذه النشرة، وأصبحت مطبعة الإدارة المحلية تطبعها طوال أيام الأسبوع فيما عدا يومى الجمعة والأحد ـ وصلت بعض نسخ من هذه النشرة إلى باوتشى فى بعض الأحيان.

تلقت التقسيمات السياسية فى نيجيريا ضربه غير متوقعة. فقد تمكن وفد من صحافة غرب إفريقيا من القيام بالرحلة البحرية الخطرة إلى لندن، التى كانت وزارة الإعلام هى ووزارة المستعمرات تتطلعان فيها إلى مزيد من التشجيع والمساندة لجهود الحلفاء الحربى، على أن يجىء ذلك التشجيع وتلك المساندة من الصحف الإفريقية المحلية. كانت تقارير تلك الصحف تخضع للرقابة فى واقع الأمر، لكن آراء هذه الصحف ظلت مستقلة فى هذا الجانب من العصيان والتحريض – وهنا انتهز الدكتور آزكوى الفرصة لتقديم مذكرة إلى وزير الخارجية، وحدد فى تلك المذكرة الإصلاحات التى يراها مناسبة لوضع الدمينيون dominion بعد انتهاء الحرب، ولفت آزكوى الانتباه إلى توصيات إيبادان Ibadan التى تبناها بورديللون Bourdillon. وسرعان ما قام أبو بكر أمام، الشمالى الوحيد ضمن الوفد، والمحرر الهوساوى لجريدة "جاسكيا" بنقل خبرة تلك المذكرة المتعارضة. كان أبو بكر إمام يعى أن آزكوى استطاع الحصول على أسرار إيبادان، وعلى الرغم من أن الرجل بحكم المهنة كان يتعين عليه أن يكون أكثر تعاطفًا مع الجنوبيين عن السواد الأعظم من رؤسائه، وعلى الرغم أيضًا من أنه كان يرافق آزكوى فى كابينة السفر وفى الغرفة التى كانا ينزلان فيها فى الفندق، فقد رفض الرجل أن تكون له أية صلة بالمذكرة.

يزاد على ذلك، أن أبا بكر إمام تحدى فى شجاعة اجتماعًا لما كان يسمى فى ذلك الوقت باسم اتحاد طلاب غرب إفريقيا، الذى هو فى معظمه من اليوروبا وليس من

الأيبو، فى لندن. طالب أبو بكر إمام متسائلا هل يمكن أن ينكروا أن صحف الجنوب استهزأت بالهوساويين، واحتقرت الأمراء، وهل ينكرون أيضًا أن الكتبة الجنوبيين كانوا يمارسون نوعًا من التمييز ضد الشماليين فى أمانة (سكرتارية) كادونا وفى مراكز رئاسة المقاطعات، وفى مكاتب حجز تذاكر القطارات وفى الشركات التجارية، وهل ينكرون أن المفكرين الجنوبيين من أمثالهم ينظرون إلى الشمال باعتباره قضية منتهية، وأنهم ينظرون إلى الشمال أيضًا فى إطار الدومين النيجيرى سيكون مجرد محمية متخلفة يحكمها الجنوبيون، فور خروج الرجل الأبيض؟ وربما كانت تلك المرة الأولى التى يجرى فيها التعبير بطريقة علنية أمام اجتماع شعبى معادٍ من هذا القبيل، عن غيظ الشماليين واستيائهم على مختلف طبقاتهم، وأردف أبو بكر إمام قائلاً: "نحن نحتقر بعضنا بعضًا. نحن نصف بعضنا بعضًا بالجهل. الجنوب يزهو بمعرفته وثقافته الغربية – ونحن نزهو بثقافتنا الشرقية. أقول لكم بصدق، عامة الناس فى الشمال يثقون بالرجل الأبيض أكثر من ثقتهم بالجنوبيين السود أو المتعلمين الشماليين" (كانت هناك إضاءة جانبية مهمة تمثلت فى نصيحة معاصرة قدمها السيد/ أوبافيمى Obafe-mi أولوو Awolowo ومفادها: أن أفضل الطرق أمام النيجيريين غير المسلمين تتمثل فى التخلى عن أية فكرة من أفكار فرض التقدم على التعاون أو عدم التعاون مع الشمال.

لم يكن ذلك، فى واقع الأمر، أكثر مما دار بخلد ضابط الحى البريطانى، الذى كان يعمل بين القرويين فى الشمال فى ذلك الوقت، على الرغم من أن الرجل، فى ذلك الوقت، كان على علم تام بأن السياسيين البريطانيين والأفارقة التقدميين كانوا جميعًا يتشككون فى استمرار هذه الحالة النفسية أو عدم استمرارها. لم تكن أمانة (سكرتارية) ليجوس ترحب باستقبال تقرير من هذا القبيل، نظرًا لأن هذه الأمانة كانت تتشكك دومًا فى التحريريين الوحدويين فى إدارة الشمال، ولم تكن ترتاح أيضًا لوجود هؤلاء التحريريين الوحدويين بين جماهير الشعب. ومع ذلك ارتفع صوت آخر من الأصوات

الأكثر نفوذًا وتأثيراً، وهو السلطان نفسه، عندما علق تعليقًا باردًا على نص التغيير الدستورى الذى اقترحه آزكوى، والذى صدر ضمن التقرير الصادر عن اتحاد طلاب غرب إفريقيا، قال السلطان:"هؤلاء الناس الذين لا يقيمون فى بلد من البلاد، لا يكونون فى وضع يسمح لهم بمعرفة عادات أهل هذا البلد وتقاليده وتطلعاته - ولا يمكنهم وضع مقترحات لحكومة مثل هذا البلد. هؤلاء الجنوبيون الذين يتطلعون إلى نيجيريا الموحدة يتعين عليهم اعتناق دين النبى (ﷺ). وقد اغتاظ كل من المعلم سعد زنقر والمعلم أمين كانو من هذه المضامين، لكن المعلمين أبا بكر، والمعلم يحيى جوساو، وكذلك المعلم جاربا **Garba** كافن مداكى **Madaki** وافقوا على ما يجرى وأقروه.

قبل أن يغادر المعلم أبو بكر إمام إنجلترا فى رحلته البحرية عائدًا إلى الوطن خلال الألغام والغواصات، كان الرجل قد التقى كلاً من اللورد لوجارد **Lugard** والسير هانز فيشر **Vischer**، وهما رجلان من أصحاب السلطة إلى يومنا هذا، وكانا رجلين كبيرين، كما كانا أول من أدخل الإدارة البريطانية والتعليم البريطانى إلى الشمال، فضلاً عن أنهما فى فترة تقاعدهما كانا يتحدثان دومًا إلى وزارة المستعمرات دون أن يسألهما أحد. كان لوجارد قد سأل أبو بكر إمام، "إذن، فالأمراء لا يعرفون أن أفضل الوسائل لإدخال السرور إلى نفس الممثل المقيم، هى إرضاء الفلاح العادى؟" ورد عليه أبو بكر إمام رداً محدداً "لا، لم يعرفوا ذلك!"، لكن أبا بكر إمام واصل حديثه زاعمًا أن فكرة أريك مورت **Mort** عن إنشاء اتحاد لخريجى كلية كاتسنا القدامى، أصبحت مثاراً للشك من وجهة نظر الأمراء، وهذا هو السب وراء فشل هذه الفكرة على الرغم من أنها كانت تحظى بمساندة الضباط الأوروبيين. كان السير هانز فيشر قد سبق أن سأل أبا بكر إمام عن موعد تحول شمال نيجيريا إلى هند أخرى، وأجابه الرجل أنه يتوقع حدوث ذلك التغيير، لكنه لن يكون عاجلاً. انتقد أبو بكر إمام عمله بقوله إن المحررين يعرفون كيف يطالبون بذلك الذى يمكن أن تعطيه الحكومة، على أن تقوم بعد ذلك بالمطالبة بالجزاء أو الفائدة، وقال أبو بكر إمام لهذين الرجلين البارزين الموقرين، إن الأوروبيين

كلهم وليست مجرد قلة قليلة منهم، يتعين عليهم احتضان العناصر الشمالية المتعلمة ـ وبخاصة أولئك الذين لا يمانعون فى مصافحة أى رجل يلبس ياقة ورباط عنق، لكنهم سيندهشون إذا لم ينحن الرجل الذى يلبس رداء وطنيًا، كى يعبر عن الاحترام والتقدير. كان لوجارد قد قدم أيضًا كلا من أبى بكر إمام هو ومحررين آخرين إلى رئيس بنك باركليز وبعض مديريه، كان الرئيس ومدراؤه يودون تعرف الطريقة التى يستطيع بها مُشكِّلوا الرأى العام، مساعدة البنك فى تطوير المستعمرات الإفريقية ـ كان أبو بكر إمام واحداً من أتباع الطريقة التيجانية الأشداء، لكنه على الرغم من شطاحته اللندنية، فإن عدداً كبيراً من كبار موظفى كادونا كانوا يعرفون أن الوقوف إلى جانب القوى يعطيه إحساسًا أو انطباعًا عن أهميته، وفى الوقت المناسب قام كبير المفوضين بالتعبير عن استيائه من مستوى لباقته وحرصه الشعبى.

سرعان ما ذاع صيت هذه الاتصالات والمصالح وأصبحت معروفة للجميع، وقد سرّع ذلك من استمرار المراسلات والصداقة بين المعلمين أبى بكر إمام وأبى بكر تافاوا باليوا، الأمر الذى أسفر عن توسيع أبى بكر تيفاوا باليوا لقراءته لتشمل الكتيبات السياسية التى أوصى بها المحرر. كان أبو بكر تيفاوا باليوا لا يزال مصممًا على الحصول على درجته الأعلى، وليلة بعد أخرى، وبعد أن قام حارسه آدم بتنظيف المصباح بعد تناول وجبة المساء، كان الرجل يسترخى على كرسيه ذى المسندين سانداً رجليه. (وهم يسمون هذا الكرسى باسم "كرسى الأطفال" Kujera Mai "ya"ya) ويستغرق فى القراءة، ثم يتوقف برهة كى يتسامر مع الخادم المعجب به. فى بعض الأحيان كان أبو بكر تيفاوا باليوا يستقطع وقتًا يروح يستمع فيه إلى الأغانى التقليدية التى يتغنى بها مغنى متجول، اسمه ساركن Sarkin مجنا Magana باتور Bature، كما كان يلعب الشطرنج مع الخادم أيضًا فى بعض الأحيان، أو بعض ألعاب المربعات الأخرى (قال أبو بكر تيفاوا باليوا، ألعاب الألواح تجعل اللاعب يمارس التركيز الذهنى، كما أن هذه اللعب تمنع العاطلين من المجىء إليك وتعطيلك بمزاحهم والقيل

والقـال، هذا يعنى أن المرء يجب أن يظل دومًا مشـغـولاً، ويجب ألا يصـدق مطلقًا القـصص التى تدور حـول عـداء س أو ص من الناس لك أو أولئك الذين يحـاولون أن يطرحوك أرضًا.

اجـتـاز أبوبكر القسم الأول من شـهـادة التدريس العالية فى تخصص التـاريخ (وبذلك يصبـح أبو بكر تيفاوا باليوا واحدًا من أربعة فقط من مدرسى الشمال الذين اجـتـازوا أو نجـحـوا فى تلك الشـهـادة التى كـانت تعد، فى ذلك الوقت، أعلى شـهـادة يحصل عليها المعلم، إلى أن تم إلغاؤها فى العام ١٩٥٣: هناك أيضًا اثنان آخران هما، يحيى جوساو الذى حصل على هذه الشهادة فى الرياضيات، وعبد الرحمن موره Mora، *الذى حصل عليها فى الجغرافيا*). يزاد على ذلك أن أبا بكر تيفاوا باليوا تزوج زوجة أخرى فى العام ١٩٤٣، فقد تزوج من فتاة تدعى زينب Zainab، وتشتـهـر باسم إنى Inni، وهى شقيقة لعضو من أصحاب الألقاب. فى إحدى الأسر، هذا العضو اسمه أحمد كارى Kari، وكان تلميذًا من تلاميذ أبى بكر فى المدرسة. وقد دام ذلك الزواج سعيدًا. وجاءت الترقية بعد ذلك عن جدارة لكنها كانت تتويجًا غير مناسب لإنسان عظيم فى مستقبل عملى محلى عديم القيمة. وشغل أبو بكر الوظيفة التى أنشئت فى العام ١٩٤٤، بطريقة مألوفة ومعروفة فى عالم الإدارة المحلية، فقد حلّ الرجل محل آخر طرد من الوظيفة.

كان المعلم بارايا Baraya قد أخل بمسألة اعتماده بصفته ناظرًا للكلية، على الطرفين الآخرين من ذلك "الثالوث" القديم. كان الرجل أيضًا قد قل تعاطفه مع مظاهر الحماس الإصلاحى عند المعلم أبى بكر والمعلم جاريا، كما قل تعاطفه أيضًا مع صبرهم الجميل مادام كان لا يتعارض مع العادات والأعراف القائمة الخاصة بصخب التلاميذ، لم يكن لدى المعلم بارايا أحد يتصف بالراديكالية التى كان عليها كل من المعلم يحيى جوساو والمعلم أمين كانو. لكن الناظر قد يتحول إلى وحش، إذا ما كان وحشًا عادلاً، على كل حال، فإن الحزم الذى يرى الطلاب أنه نوع من القـهـر، لا يدوم أو تكتب له

الحياة وبخاصة عندما يوسم بالفساد. لم يحدث مطلقًا أن كانت المبالغ المخصصة للإعاشه والمعدات كافية أو وفيرة، لكن المدرسة أصبحت على قناعة من أن رئيس المدرسين كان يسيء التصرف في الأرصدة التي كان يمكن استغلالها في توفير بطاطين وأغطية أفضل لبرد موسم رياح الهرمتان harmattan، وتوفير طعام أفضل للتعيينات (التي كانت ترسل إلى منزله)، وتوفير المزيد أيضًا من الكيروسين. حدث أن قام القسم الأكبر من طلاب المدرسة بمسيرة عبر الطريق المؤدي إلى جومب Gombe، وكان من بين زعماء الطلبة رجال كبار من أمثال سول Sule كاتاجوم Katagum، تاتاري Tatari علي، وآدم Adamu تيفاوا باليوا، ولم يكن هدف الطلاب من هذه المسيرة سوى التلويح بإشارة يتعين ألا تغيب عن البال أو يتجاهلها الآخرون. وتبع تلك المسيرة كل من المعلم أمين كانو والمعلم يحيى جوساو وكانا على دراجتيهما، وكان بصبحبتهما أيضًا المعلم إيرو Iro جاو Gawo، الذي كان من قبل مدرسًا زائرًا من كاتسنا، لكن جرى التعاقد معه من جديد للعمل في باوتشي، وقد لحق الرجل بهؤلاء الثلاثة بعد أن قطعوا مسافة تقدر بحوالي أربعة عشر كيلاً متريًا، واستمع منهم حكايات صبيانية عن مصاريف الجيب المنقوصة، وعن الحرمان والقسوة. كما انضم الأمير هو والمعلم أبو بكر إلى هذا المشهد.

دارت الشكوك طوال فترة زمنية، حول أن هؤلاء المدرسين الذين من مقاطعات أخرى كانوا هم المحرضين على ذلك التمرد، لكن هذه السحابة الشفافة انقشعت، وتوصل كل من الأمير، والإدارة المحلية ومسئولا التعليم (كانا هـ H جي G بتلر Butler و إيه A جي G إير Eure) إلى أسباب كافية لطرد المعلم بارايا. واقع الأمر أنهم لم يتوصلوا إلى أسباب تمنعهم من ذلك الطرد. الواقع أنه كان هناك شجار من خلال الرسائل بين كل من لورانس Laurence سي، جايلز Giles (الذي كانوا يسمونه "أفو" Afo – والمعروف أن الكلمة afu هي الكلمة الهوساوية الدالة على نصف قطعة النقود التي قيمتها ثلاث بنسات، وكانت تلك إشارة إلى طول قامة الرجل الفارعة)، ورئيس

الحى الملحق الذى كان يعمل فى ذلك الوقت محرراً فى صحيفة جاسكيا، والسلطات التعليمية، التى منها بتلر، كان ذلك الشجار حول التقارير السابقة لعملية الطرد من ناحية وعن بعض التجاوزات الصحفية من ناحية أخرى. قالت السلطات : إن ذلك لم يسفر عن زيادة تعيينات الطلبة، على الرغم من حصولهم على كميات كبيرة من الطعام، وجرت أيضًا معاقبة الطلبة - وجرى احتجازهم جراء خروجهم من المدرسة. وسرعان ما راح المعلم بارايا يجعل من كل من أمين كانو هو ويحيى جو ساوكبشى فداء لإخفاقه، لكنه لم يوجه اللوم مطلقًا إلى أبى بكر. لم يدر جدل كبير حول مسألة من سيأتى بعد المعلم بارايا أو يخلفه. كان المعلم محمود صيام Zayam أيضًا يفتقر إلى قوة الشخصية، على الرغم من أنه من مرتبة بارايا، كان المعلم جاريا كافن مداكى، على حد قول الطبقة المتوسطة الإنجليزية، لطيف جداً، أما المعلم أبو بكر تافاوا باليوا، وعلى الرغم من أنه كان فى الثانية والثلاثين من عمره، كان يتمتع بالجدية والإخلاص. يزاد على ذلك، أنه قال لحارسه، بعد تعيينه ناظراً للمدرسة: "اسمعنى يا آدم، أن لا أقبل على المخاطرات مطلقًا".

قام أبو بكر تافاوا باليوا، على الفور، بإصلاح الأخطاء المالية التى ورثها، وتعلم الكثير من نصائح الأيرلندى هربرت Herbert جورج George بتلر Butler وصداقته. وبعيداً عن التركيز على العمل الأكاديمى، ومع اللمسة العملية التى تجلت فى سماحه للمجموعات الكبيرة باستعمال كل جماعة لمصباح من مصابيح التلى Tilley التى تعمل بالضغط، بدلاً من مصابيح الهوريكان Hurricane التى يتكالب عليها التلاميذ أثناء الليل، نجد أن الحياة المدرسية لم يطرأ عليها أى تغيير جذرى. ويعود فيلبس Phillips من إجازته ليواصل تقاليد "الحكم غير المباشر" عن طريق مساعديه البريطانيين (تقاليد الحكم غير المباشر هذه هى التى هيأت أولاً وقبل كل شىء، الفرصة للمعلم بارايا كى يحزن ويندم على الوقت الضائع)، والتى تقضى بعدم التدخل فى مسئوليات ناظر المدرسة، وكانت مهمة فيلبس ومساعديه تتمثل فى المجىء إلى المدرسة للتفتيش أو

الإشـراف على التـعليم فى الفـصـول، أو التـدريس لفـتـرات قـليلة، أو للتـحكيم فى اللعب والألعـاب، لكنهم كـانوا يجـدون مـتـعـتـهم الكبرى وسـعـادتهم المهنية فى القـيـام بزيارة المدرس الزائر، وكانوا يسعدون أيضاً مثل المدرس الزائر بقيامهم بالتجوال فى مدارس المقـاطعـة الإلزامـيـة (الأوليـة). واقـع الأمـر أنهـم كـانوا يتـسـامـرون مع هيـئـة التـدريس الإفريقية. حكى واحد منهم ذات يوم وهو مستاء ومسرور فى آن واحد، أنه حاول شراء بعض الطوابع من مكتب البريد على الطريق المؤدى إلى المدرسة، لكن نظراً لأن الساعة كانت الثامنة إلا عشر دقائق، رفض كاتب المكتب، وهو جنوبى، خدمة الرجل وإعطاءه الطوابع المطلوبة، على الرغم من أن الرجل كان واقفًا أمام طاولة ذلك الموظف.

هذا الالتزام الصارم بالقواعد كان يضايق أبا بكر، على الرغم من أن الفظاظه لم تكن تفـاجـئـه أو تدهشـه. كـان بوسع أبى بكر إذا مـا أراد ذلك، أن يقـول عن إضـراب التلاميذ فى كليـة الملك فى ليجوس فى ذلك الوقت، إن هـذه الأشياء أو الأمـور يسـتـحيل أن تحدث فى الشمال: لكنه لم يقل ذلك أو يقو على قوله.

أصبح المعلم أبو بكر، بعد ذلك مديراً لمدارس السلطة الوطنية، أو إن شـئت فقل: الإدارة المحليـة فى باوتشى، إذ أصـبح مـسـئـولاً عن التـوقـيع على الأوراق والوثـائق الخـاصة بالحصـول على المنح الحكومية. تعلم الرجل أن يقرأ كل مـا يقدم له وألا يوقع على أية ورقة من الأوراق بطريقة "عميانية". كان هذا الأمـر يحتم على أبى بكر الظهور بين الحين والآخر أمـام مـجلس السلطة المدنية، أو إن شـئت فقل المجلس المحلى، وأن يقوم بمراجعة الأمور مـع مسئول التعليم ومسئول الخزانة المحلية. جرت العادة أن يعقد الأمـيـر اجتـمـاعـات مـجلسه فى الغرفة المبنية من اللبن الواقـعة خلف الرواق المؤدى إلى داخل القصـر، كان سـقف هذه الغرفة سـقفًا مـحمولاً على أربعة أعمـدة، ومكونًا من الخشب وجـريد النخل الذى يقاوم النمل الأبيض بشـكل أو آخر. هذه الغرفـة هى وذلك السـقف جـرى بنـاؤهمـا قـبل أن يسـمع الناس عن الإنجليز أو يعـرفـوهم بوقت طويل، وكانوا يعرفون هذا المكان باسم babbangwani أى "صالة المهارات العظيمة". حدث فى

ذلك الوقت تقريبًا، أن عُقد اجتماع للمجلس "الداخلى" فى هذه الصالة. فى ذلك الوقت كان اتحاد تحسين باوتشى العام الذى أسسه سعد زنقر، يترأسه المعلم بابا Baba هالا Hala، أحد كبار موظفى الطب البيطرى فى الإدارة المحلية، وكان المعلم أمين كانو يشغل منصب الأمين أو السكرتير، فضلاً عن بعض آخر من مسئولى الإدارة المحلية، ومن بينهم المعلم بارايا (الذى كان يتسود الأمور بشكل أو آخر، الواقع أنه كان يشغل منصب رئيس الحى فى البلدة)، وكبير الأئمة والمشرف على الأعمال، مثلما يفعل الرعاة "الشرفيون". جرى عقد ثلاثة اجتماعات لذلك الاتحاد، حتى يصبح الأمر معتادًا ومألوفًا، ثم جرى بعد ذلك الإعلان بصورة جيدة عن نشاطات ذلك الاتحاد، وراح بعض الأعضاء الجدد يتوسلون إلى طلب العضوية عن طريق صحيفة "جاسكيا" Gaskiya، وصحيفة "وست west أفريكان African بايلوت Pilot" التى أسسها الدكتور آزكوى. وخاطر واحد أو اثنان من مستشارى الإدارة المحلية بالانضمام إلى ذلك الاتحاد، لكن الأمير لم يكن راضيًا عن فريق لا يكون رئيس القسم عضواً فيه. سبق وأن ناقش الأمير هذه المسألة معربًا عن معارضته للممثل المقيم، فيما أصبح يعرف بزيارته الأسبوعية الدورية التى كان يقوم بها إلى ممثليه، وكان الرجل يتوقع بل وينتظر الموافقة على ما ينتويه هو. أثار الأمير ذلك الاعتراض مرة أخرى أمام اجتماع عقده المجلس لهذا الغرض فى وقت انعقاد اجتماع اتحاد التحسين العام فى باوتشى. كان الاتحاد يناقش الطرق والوسائل اللازمة لإنشاء مدرسة إسلامية مستقلة تقدم تعليمًا وتثقيفًا متقدمًا للصبية والشباب الصغار فى أفكار سعد زنقر التقدمية ومعتقداته، وإيمان أمين كانو بتلك المعتقدات والأفكار. ترتب على ذلك تفويض أحد المستشارين بأن يأخذ معه كونستابل Constable من الشرطة المحلية ويذهبا سويًا إلى مكان انعقاد الاجتماع، الذى تجيزه وتؤيده "الأعراف المحلية والقانون المحلى" وأن يعلنا للمجتمعين أن الأمير الذى يحضر انعقاد المجلس قد أرسلهما لإبلاغ المجتمعين أن الجمعية (الاتحاد) غير مسموح به، ومن ثم يتعين عليهم التفرق، وأن الأفضل لهم هو التفرق.

هنا أصبح معروفًا أن الاجتماعات العامة تحتاج إلى تصريح، وقد جرت العادة أن تصدر شرطة الحكم المحلى مثل هذا التصريح، بعد الرجوع إلى المستشار المسئول فى الحكم المحلى أو من خلاله، أو من خلال المجلس بكامله. وقد أسر المعلم سعد زنقر إلى بعض الناس بأنه كان هناك نوع من التمييز بين الاجتماع العام والمناقشات والحوار الذى يجريه اتحاد التحسين العام فى باوتشى، وتساءل سعد زنقر عن ما إذا كان المستشار حاملاً للمعلومة أم أنه جاء بصحبة الشرطى مخولاً تنفيذ أمر الأمير. وهنا رد المستشار قائلاً: "أنا مجرد رسول - لكن حقيقة الأمر هى أن هذا الاجتماع لابد أن ينفض – والآن!" وهنا رد عليه سعد زنقر قائلاً: "اذهب وأبلغ الأمير والمجلس، مع عميق احترامنا لهما، بأن الاجتماع لن يتفرق!" إعادة سرد هذه الحكاية بطريقة مغرضة كان ينطوى ويلمح إلى أن المستشار المقصود هنا هو المعلم أبو بكر، لكن الرجل لم يكن بعد مستشاراً. هذا يعنى أن الحادث كان مشاعًا، وأن أبا بكر كان نادمًا عليه، فى الوقت الذى أقر فيه أن اتحاد التحسين العام فى باوتشى كان يشكل تهديداً بشكل أو آخر للحكم المحلى، أو إن شئت فقل السلطة المحلية.

قام الاجتماع بتحرير رسالة إلى الممثل المقيم بعد انصراف المستشار، كان هـ. هوارد ولكنسون Howard Wilkinson فى ذلك الوقت، يشغل منصب الممثل المقيم، وأعرب الاجتماع فى رسالته عن ذلك التدخل فى شئون الحرية وحقوق الإنسان، وجرى طبع هذه الرسالة وتسليمها إلى الممثل المقيم فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى. بعد ذلك بأسبوع، وبعد تشاور الإدارة عن طريق التلغراف مع سكرتير المقاطعات الشمالية وكادونا Kaduna، أرسل الأمير إلى مبعوثى اتحاد التحسين العام فى باوتشى، ليقدم لهم صيغة بريطانية لحل وسط ينقذ ماء الوجه مفاده: حدث شىء من سوء الفهم، ليست هناك ممانعة لحظر الاجتماعات غير الجنائية، لكن الخطأ يتمثل فى استخدام الموارد العامة فى الأغراض الخاصة - هذا يعنى أن من يقومون بذلك يتعين عليهم عدم استغلال وقت الإدارة المحلية أو ممتلكاتها، هذا الاجتماع، إذا ما عقد

مستقبلاً، لابد أن يكون فى غير ساعات الدوام، وليس فى مبنى من مبانى الإدارة المحلية، وطبيعى أيضًا أن يستعملوا آلتهم الكاتبة الخاصة بهم وكذلك الخردوات والأدوات الكتابية الأخرى اللازمة لذلك. كان المعلم سعد زنقر بحاجة ماسة إلى معرفة ما إذا كان يصدق رسالة الأمير الجديدة، أو الرسالة التى حملها المستشار الذى أصر على أنه كان ينفذ ذلك الذى أمره المجلس بتنفيذه. وعلى الفور بادر الأمير بفض اللقاء وطرد المندوبين وهو يقول : "نحن لا نبحث عن المتاعب!" كان ذلك درسًا من دروس الحلول الوسط فى السياسة، ولم يحدث أن استعاد الاتحاد مطلقًا ثقته بنفسه بعد ذلك، وذلك على الرغم من تصميم زعمائه.

لم تنطلق أيضًا المدرسة الإسلامية، التى كانت تجاور السوق مباشرة، أو رابطة الشباب، على الرغم من أن مستشار الإدارة المحلية المعلم وزيرى Waziri أعطى المدرس والرابطه كوخًا غير مسقوف كيما يقوما بإصلاحه، وأطلقا عليه من باب التحلق اسم مركز جالية باوتشى. جاء دعم هذه المدرسة وتلك الرابطة من قبل قله قليلة من العمال العاملين فى الإدارة المحلية وفى مجال المال والأعمال الذين كانوا على خلاف مع السلطات المحلية. يبدو أن المدرسة أخفقت تمامًا بسب قاضى القضاة، الذى لم يعترض على القيام بتعليم تلاميذ المدرسة المتوسطة الذين يجلسون على مقاعد خلف طاولات (قمطرات)، وإنما ليس مستعداً لمواجهة مدرسة إسلامية يجلس الصبية فيها على الحصير.

تزامن ذلك مع شجار تافه فى المكتب الأدبى. فقد حاول المعلم أبو بكر إيجاد نوع من التنافس فى صحيفة جاسكيا Gaskiya، بحيث يكون ذلك التنافس قائمًا على تعبير المساهمين عن آرائهم فى كثير من الموضوعات العامة التى لا تخضع للرقابة. كان بعض الأمراء يعرفون أن أبا بكر نفسه قدم آراء جرى قمعها، وأنهم أنفسهم لم يبلغوا من المقدرة حداً يجعلهم يفهمون فحوى تلك الآراء. وهنا بدأ يلوح فى الأفق استعمال

الأمراء قضاة فى هذا التنافس. وهنا تحركت أيدى خفية لإحباط هذا المشروع بكامله قبل أن تصبح الارتباكات أمرًا عامًا وشائعًا.

قام العقيد أوليفر Oliver ستانلى Stanley، وزير الداخلية، وفقًا لسياسة مكتبه فى عمليات القمع، بتعيين عقيد جديد، هو عقيد الشرطة العسكرية الأسكتلندى ولتر Walter إليوت Eliot، رئيسًا للجنة خاصة بالتعليم العالى فى المستعمرات (يرى بعض النقاد أن ستانلى كان سلبيًا إلى حد ما فى معاملاته الشعبية والعامة، لكنه كان ذائع الصيت فى شغله لمنصب الوزير. على المستوى الشخصى، كان الرجل صاحب ألمعية كبيرة، وكان صديقًا وناصحًا أمينًا لشخص آخر يدعى أوليفر Oliver، ويكنونه ليتلتون Lyultelton (وخلال أسفارهما بحثًا عن الحقائق، وصل إليوت ورفاقه (الذين كان من بينهم آرثر كريش Creech جونز Jones وجوليان هكسلى)، إلى باوتشى فى شهر مارس من العام ١٩٤٤ لدراسة نوعية التعليم الثانوى. ولاحظ ناظر المدرسة لأول مرة العاملين فى الهيئة الإدارية، وهيئة التعليم فى المقاطعة، وهم يرقصون أمام حاشية من كبار شخصيات البلاد، وراحوا يستمعون ويصغون إلى هذه الشخصيات الكبيرة وهم يشوهون أيضًا سمعة السياسيين الصغار. كان ذلك أيضًا درسًا عمليًا آخر من دروس العلاقات الإنسانية، بل إن هذا الدرس كان أبلغ كثيرًا من انتصار الحزب الوطنى الديمقراطى النيجيرى عندما كسب إلى جانبه مجلس مدينة ليجوس من حركة الشباب النيجيرى، وكان هناك "جدل كبير حول هذا الموضوع فى باوتشى بين كل من تويدلدم Tweedledum وتويدلدم Tweedledee". كانت هناك أيضًا أنباء من المستعمرات الفرنسية مفادها: أن فيلكس Felix إيبوى Eboue، الحاكم العام الزنجى، هو ورفاقه فى برازافيل، احتفلوا بتجمع إفريقيا الاستوائية حول ديجول وفرنسا الحرة، ووضعوا خططًا مستقبلية للمشاركة الكاملة مع البلد الأم.

وقع فى شهر مايو حادث مفاده أن إدارة الشمال الواثقة ذاع صيتها بعض الشىء فى صحيفة جاسكيا، لكن ذلك الصيت ذاع وانتشر عن طريق المشافهة. قام

رئيس حى سكتو الشاب البارز، حفيد الشيخ عثمان بن فودى، وزميل أبى بكر فى الدراسة، وقريب السلطان قرابة بعيدة، والذى يدعى أحمد رابا Raba، بارتكاب ثلاثة اتهامات نجح الناس فى نسبها إليه، وتتعلق بسرقة مبلغ يقدر بحوالى مائة وسبعة وثلاثين جنيهاً إنجليزيًا وسبعة عشر شلنًا من متحصلات ضريبة الماشية. وعندما علم أر. R دى D روس Ross الممثل المقيم، بالشكوى الأولى، أمر بإجراء تحقيق إدارى كامل بواسطة لغوى يدعى إيه A نيل Neil سكنر Skinner، الذى أمر بدوره بإعادة القضية إلى محكمة السلطان، التى حكمت على المستشار السياسى الرئيسى -Sardau na بالسجن مدة عام. استأنف المستشار السياسى الرئيسى الحكم، والتمس إلى السلطان إحالة القضية إلى المحكمة العليا، واستخدم المستشار السياسى الرئيسى محاميًا من الجنوب، يدعى بود Bode توماس Thomas. كان هناك قاض بريطانى ضمن قضاة كنو وزاريا فى شهر يوليو عندما كانت تنظر القضية فى زاريا، وأطلق ذلك القاضى سراح المستشار السياسى الرئيسى بكفالة، وأعاد القضية مرة أخرى إلى السلطان حتى تتاح للمتهم فرصة حلف يمين البراءة طبقًا للمذهب المالكى. وبعد إطلاق سراحه من المحكمة جرى تعيينه على الفور مسئولاً عن المكتب الرئيسى للإدارة المحلية فى سكتو، نظرًا لأن الرجل سبق أن درّس قبل ذلك مدة ثلاث سنوات فى المدرسة المتوسطة. كان شيروما Chiroma كنو يقف تمامًا إلى جانب المستشار السياسى الرئيسى. كان ملخص ما قاله روس يدور حول أن خطأ المعلم أحمد يتمثل "فى زهوه بنفسه، الأمر الذى كان يتزايد تمامًا بفضل الإعلان". كان أحمد رابا Raba (رباح)، يراسل صحيفة "وست west أفريكان African بايلوت Pilot" فى ليجوس، لكنه توقف عن ذلك حاليًا. وعلى الرغم من عداء أحمد رابا (رباح) للسلطان، فإنه اعتبارًا من ذلك الوقت بدأ يركز صراعه على البروز داخل إطار المنظومة الإماراتية التقليدية. لكن صديقه أمين كانو الذى وقف إلى جانبه، بقى خارج هذه المنظومة الإماراتية التقليدية. وسرى اعتقاد، شارك فيه بعض البريطانيين، مفاده أنه كانت هناك محاولة متعمدة "لتحييد" أحمد رابا (رباح) ومنعه من تولى السلطنة، التى كان لا يزال شابًا صغيرًا

عليها. ومع مرور السنين، يبدو أن الاستخارة أكدت لأحمد رباح (بللو) اقتناعه بأنه يستحيل عليه تولى منصب السلطان مطلقًا، الأمر الذى جعله يقوى من مطامحه السياسية الدنيوية.

قام المفوض الرئيسى السيد/ باترسون Patterson، بزيارة إلى باوتشى، بعد ذلك بوقت قصير، والتمس إلى مسئولى الإدارة المحلية، الاعتراف بحاجة بريطانيا إلى التضحية بالنفس فى وقت تضع فيه بريطانيا تحت السلاح عدداً من الرجال والنساء يصل إلى حوالى ٤,٥ مليون نسمة، فى حين تضع بقية الكمنولث (وأغلبها من الهنود) حوالى ٤,٢ مليون نسمة، وقال أيضًا إن هجوم الحلفاء على الجبهة الثانية قد بدأ بالفعل، وقال أيضًا: إن شمال بورما، وجزر سليمان وكذلك روسيا جرى تطهيرها من العدو، لكنه قال: إن شرق أوروبا وشرق آسيا لم يتم بعد إخلاؤهما من العدو. ورفض الرجل أيضًا مقترحات المجلس الخاصة بحتمية العفو عن المعلم بارايا Baraya جومب Gombe وإعادة استخدامه مرة أخرى فى مكان آخر. وبدلاً من ذلك، راح باترسون يحث على نشر التعليم بين الجماهير، رافعًا بذلك شعار "كل واحد يُعلِّم واحداً"، قال باترسون لأهل باوتشى إن كل واحد ممن يقرأون ويكتبون يتعين عليه تعليم خمسة تلاميذ، على أن يقوم كل واحد من هؤلاء الخمسة بتعليم خمسة آخرين فيما بعد (كانت المشكلة تتمثل بطبيعة الحال فى "تفسير تأثير كرة الثلج" فى هذه البيئة المدارية). كان أفضل خبر حمله باترسون إلى باوتشى يتمثل فى أن مشروع الرفاه والتنمية الاستعمارى يسمح بسياسة جديدة لشق الطرق، وتمهيد شبكة الطرق الوطنية وتصنيفها من المستوى "أ" وشبكة أخرى من الطرق الإقليمية من المستوى "ب"، فضلاً عن شبكة من الطرق المغذية التى تستخدم فى نقل المنتجات إلى مراكز المواصلات. وهنا كتب باترسون إلى جميع الممثلين المقيمين ليخبرهم أنه على الرغم من أن صحيفة جاسكيا تعد مطبوعة حكومية، فإنها بدأت تصطبغ أكثر بالصبغة السياسية، كما قال أيضًا: إن الجنوبيين ليسو هم وحدهم المسئولين عن نشر الأفكار السياسية فى الخارج بين

شباب المعلمين. وتمنى باترسون لو أن الصحيفة ساعدت الرؤساء Chiefs والأمراء أيضًا على فهم التغييرات التى طرأت على المواقف الشعبية.

أخيرًا، أصبح لأبى بكر مولود فى العام ١٩٤٥ أسماء بابا Baba يعقوب، وقدّر لذلك الابن أن ينشأ ويتربى فى باوتشى. ودخل العام، لينعقد فيه مؤتمر يالتا Yalta الشهير، ويشهد أيضًا الانتصار، الذى دام انتظاره طويلاً، على هتلر ألمانيا، لكن على الرغم من انتصار الجيش الرابع عشر فى هجومه على بورما، فإن الحرب التى كان الجنود النيجيريون مشاركين فيها كانت لا تزال تهدد بسنوات من الصراع الدامى فى جنوب شرق آسيا، وفى أعلى المحيط الهادى. كانت نيجيريا مشغولة بوباء من أوبئة الجفاف وهو الالتهاب السحائى، وهنا وجد كل أولئك الرجال الذين جرى إعفاؤهم من الخدمة الإلزامية، أنفسهم وهم يقومون بالإشراف على المظلات المنعزلة فى الغابة، والتى يجرى فيها تمريض المصابين بالمرض، وبقيت الراحة السريرية بمثابة العلاج الوحيد المتيسر لذلك المرض. فى شهر يوليو سارع نانامدى Nnamdi آزكوى بالانتقال من ليجوس إلى أونيتشا، نظرًا لفرض الحظر على صحفه، وادعى الرجل أنه جرى تهديده بالقتل (لم يكن ذلك آخر ادعاءات ذلك الرجل، لكنه فى هذه المرة حدد المحافظ ريتشارد Richards بالاسم، هو ومفوضى الأحياء باعتبارهم شركاء فى هذه المؤامرة). فى بريطانيا، توفى هانز Hanns فيشر Vischer، وانعقد مؤتمر لمناقشة مستقبل الإذاعة المسموعة باعتبارها دعامة من دعامات الكمنولث، لم يجر التفكير فى الأقلام باعتبارها بديلاً أو موصلاً موازيًا من موصلات الأفكار، مادام أن الإرسال التليفزيونى أصبح مقصورًا على دائرة قطرها مائة وثلاثين كيلاً متريًا. كان العقيد ستانلى (الذى سبق أن كان عضوًا فى عشرينيات القرن العشرين، فى جماعة صغيرة من الشباب التقدميين فى الشرطة العسكرية، تضم كلاً من هارولد Harold ماكميلان) قد أبلغ الأمريكيين أنه ليس من المتصور أن تكون سينت ST هيلينا Helena، أو جزر الفوكلاند Falkland، أو عدن أو جزر سيشل، فى وضع يكون الاستقلال معه حقيقة واقعة فى هذه الأماكن،

وحتى فى حال حدوث ذلك فهو لا يتصور أن يكون ذلك الاستقلال فى مصلحة هذه الأماكن. وفكر قادة الحلفاء فى الطريقة التى يمكن بها التخلص من أوروبا التى جرى استردادها، وراح أولئك القادة يخفون خلافاتهم خلف أشكال متباينة من الكلام والكلمات. ويَلْقَى روزفلت Roosevelt ربَّه بعد ذلك بأيام قلائل، ويتوفى من بعده لوجارد أيضًا عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، ويُوضع على قبره شاهد من اختيار زوجته، وشاهدته فلورا Flora شاو Shaw مراسله جريدة التايمز الإفريقية، يقول ذلك الشاهد: "فعلت كل ما فعلت كيما تستقيم أحجارى".

انتهت الحرب الأوروبية بعد ذلك بأسابيع قلائل، وبعد ذلك بثلاثة أشهر، وبعد عقد مؤتمر مهم آخر فى بوتسدام Potsdam، أُلقيت أول قنبلة ذرية على اليابان. وفى الوقت الذى يئس فيه الضباط من إقناع القوة المنتقاة من غرب إفريقيا، والتى أُعيد تجميعها فى ذلك الوقت فى رانجون وجنوبى الهند، بأن سفن نقل الجنود التى كانت جاهزة لنقلهم من أوطانهم فى العام ١٩٤٣، لم تعد متيسرة لإعادتهم إلى أوطانهم (وأنها لم يجر تخصيصها من باب التفضيل، لنقل القوات البريطانية التى كانت فيما وراء البحار منذ أكثر من خمس سنوات)، بدأت حملة حزب المؤتمر، التى اتخذت لنفسها شعار "ارحلوا عن الهند!" تزداد استعارًا وغليانًا، راح اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية يطالب هو الآخر بوصاية الأمم المتحدة على إفريقيا (الوصاية على ليبيا Tri-politania)، وراح الوطنيون المصريون يطالبون بمراجعة معاهدة حقوق بريطانيا وإعادة السودان واخراجه من السيادة المشتركة، واندلعت أيضًا المظاهرات فى الكاميرون الفرنسية. جرى بعد ذلك نشر ما توصلت إليه لجنة إليوت Elliot، وأدرجت ضمنه أيضًا ذلك الذى توصل إليه كل من جوليان هكسلى وآرثر كريش جونز، والذى يفيد أن إنشاء الكليات الجامعية الإفريقية التى ترغب فيها وزارة المستعمرات، والتى ينبغى أن تكون كلية منها فى نيجيريا، ستكون كافية لتخريج الكوادر المتعلمة التى يمكن أن تكون زعماء لولايات الحكم الذاتى أو دوله خلال خمسين عامًا. لم يكن فى المملكة المتحدة فى ذلك الوقت سوى ستة عشر جامعة فقط.

الفصل الثامن

السلام ولندن : تغيير فى نيجيريا

"مهما طال الليل، لابد من طلوع الفجر"(*)

حلول السلام، كان معناه أن الأمانات (السكرتاريات) النيجيرية، بعد انكماشها وإصابتها بالإرهاق، كان يتعين عليها تحويل أذهانها تحويلاً جديًا صوب المستقبل الذى شغل بال بورديللون Bourdillon. كان رالف Ralph فيرست Furst لا يزال فى وزارة المستعمرات مسئولاً عن التجنيد الإدارى، بالطريقة التى اتبعها الرجل فى العام ١٩١٠، وكان الرجل لا يزال يستعمل طريقة شخصية بحتة تقوم على المقابلة الشخصية والحكم الممتاز الذى لا علاقة له باختبارات المنافسات فى الخدمة المدنية والتى تقوم أصلاً على الأصول والتقاليد التى وضعها كل من نورث كوت Northcote وتريفلين Tre-velyan، ومع ذلك كانت تلك الطريقة التى يتبعها رالف فيرست تنتج على مستوى العالم خدمة استعمارية فريدة مكونة من رجال تحملوا المتاعب والأجور الضئيلة المتواضعة مقابل امتياز ممارسة السلطة، وتقديم خدمة مهمة ومبنية على الطاعة، لرؤسائهم بطريقة مباشرة، وبطريقة غير مباشرة إلى أولئك الذين كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم حراسهم الأمناء.

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

إذا ما استثنينا الحرب الناجمة التى بثت الثقة فى نفوسهم فى حين ولّد السلام المشكوك فى نتيجته الإحساس بالذنب فى نفوس من جاءوا بعدهم، نجد أن دوافع هؤلاء الأمناء كانت هى دوافع الشبان الصغار نفسها، الذين سوف يتنافسون مع بعضهم البعض، بعد عقدين من الزمان، على العمل خارج البلاد متطوعين أو فى مشاريع المعونة والمساعدات، وبذلك يصبح السودان Sudan مجرد مركز من مراكز المراحل(*) لعدد محدود من البشر الذين يتمنون أو يتطلعون إلى النقل إلى أماكن أخرى فيما بعد. لم يكن كبار الضباط الذين بقوا على قيد الحياة، بعد الأيام القليلة التى سبقت الحرب، سواء أكانوا من كلاسيكيي أوكسبردج Oxbridge أم من ضباط الجيش النظاميين الذين غيروا حيواتهم العملية، راضين أو يرحبون بهؤلاء المجندين الأصاغر الذين كانوا يخاطبون الضباط الكبار بكلمة "سيدى" لكنهم كانوا يفتقرون إلى الخوف فى واقع الأمر، كان روبرت Robert هيبرن Hepburn رايت Wright، الذى كان واحداً من رجال ما قبل الحرب الذين استطاعوا الهرب من بيروقراطية الحرب إلى القوة الجوية الملكية، وبذلك استطاع الرجل سد الفجوة التى بين أجيال المغتربين، عندما عاد روبرت هيبرن وضعته يد القدر فى منصب ضابط من ضباط الأحياء فى بلدة باوتشى. كان روبرت هيبرن أعزب، لم يضع الرجل وقته فى قراءة الملفات التى يمكن أن يناقشها مع الناس، وسرعان ما وجد الرجل فى ناظر المدرسة المتوسطة شخصية مبدعة يمكن التحاور معها حول الإدارة المحلية والعاملين فيها. وقُدِّر لهذه العلاقة أن يصيبها نوع من الحرج فى تلك القصة.

فى أواخر أربعينيات القرن العشرين، كان فى محطة باوتشى حوالى عشرين أوروبيًا (بينهم زوجة واحدة)، كان كل هؤلاء يقومون على توفير العاملين المطلوبين

(*) مركز المراحل ، أو منطقة المراحل : منطقة تُجمَّع فيها القوات العسكرية وتعد للقتال قبل تكليفها بمهمة جديدة . (المترجم)

للوظائف الإدارية والمصلحية في مراكز الرئاسة فى المقاطعات وفى فرقة باوتشى، كان كل من آذار Azare وجومب Gombe يتفاخران بأن كل واحد منهما جنَّد ما بين اثنين وأربعة مجندين للفرقتين أو القسمين الآخرين، وكان هناك أيضًا ضابط جائل فى بلدة تولا Tula يقوم على أمر الوثنيين الذين يقال لهم "التانجال – واجا" Tangale - waja. وجرى ببطء استعادة الروتينيات، الخاصة بالتفتيش على دفاتر الخزائن المحلية، والموازنات الحسابية، وجرت أيضًا مراجعة إحصاء أعداد قطعان الفولانيين الذين يعملون بالرعى ويترحلون وذلك تمهيدًا لتحصيل الضرائب التى تفرض على الماشية، وجرى أيضًا التفتيش على المحاكم الوطنية والمحلية طلبًا للعدالة ومنعًا للاختلاس، وجرى أيضًا وضع الصيدليات، والمدارس، والورش، والطرق، وكذلك المزارع التجريبية هى والبساتين ومناطق الغابات المشتركة، والأسواق، ومناطق صناعة الجلود تحت المراقبة المنتظمة. وقامت وزارة المستعمرات، التى كانت قد أعفت إدارة زمن الحرب من عملية جمع العوائد السنوية الشاقة لمصلحة العسكريين، قامت بإدخال هذه العوائد مرة أخرى (وترتب على ذلك مطالبة وزارة الحرب بإرسال إحصائيات عن أعداد الذين عوقبوا عقابًا بدنيًا فى زمن الحرب، لأن الضغط على صغار العاملين هو الذى أدى إلى إلغاء تلك العوائد السنوية.

يجب ألا يغيب عنا أنه كان هناك على مستوى المقاطعة ضابط مهنى (طبى، أو زراعى أو تعليمى، أو بيطرى، أو من الأشغال العامة أو الشرطة) يشرف على أنشطة الإدارات المحلية كلها وأنه كان يقوم أيضًا بالعمليات التأديبية. كان فى كل قسم من أقسام المقاطعة مالا يقل عن موظف (ضابط) إدارى واحد خاص بذلك أو هذا القسم، وكان مسئولاً أيضًا عن تطوير مصالحه الخاصة فى الجانب الصحى العملى، وفى التعليم، والعلوم، والهندسة، أو الخدمات الأخرى، كان القسم كلما بعد عن مركز الرئاسة الإقليمى زادت أيضًا مفاجآت مؤسسات الإدارة المحلية فى ذلك القسم من قبل

ضابط الحى، وعلى نحو أكبر مما كانت تنتظره تلك المؤسسات المحلية من مستشاريها الإقليميين المباشرين.

كانت الضرائب المباشرة تخص الحكومة. ومن الناحية الفعلية كان انفاق هذه الضرائب المباشرة بأيدى السلطات المحلية التى كانت تجبى هذه الضرائب، وكانت الهيئة تستشير الإدارة المحلية فى هذا الصدد. كان الجنود الأفارقة قد بدأوا فى ذلك الوقت يعودون إلى مواطنهم، وعندما بدأت المصاعب تتراكم بسبب إعادة تسكين هؤلاء الجنوب فى اقتصاداتهم الزراعية، أو البحث لهم عن وظائف حضرية، بدأ الناس يشاهدون تكرار تردد واحد أو أكثر من الضباط الإنجليز على مكاتب السلطة المحلية أو سلطات الأقسام كيما يستمعوا وينصتوا إلى نداء هؤلاء الجنود طلبًا لتقديم يد العون والمساعدة لهم أو توجيههم (على الرغم من أن الشماليين الذين يقرأون ويكتبون كانوا يتحاشون الأجور الناجمة عن العمالة الدائمة، وبخاصة مع أصحاب الأعمال من التجار، وذلك لوجود شبهة من العبودية فى العمل فى الوظائف والخدمة المستديمة). فى باوتشى، وفى الأماكن الأخرى كلها على وجه التقريب، كان الشبان من أصحاب الخبرة العسكرية يتطوعون للعمل مشرفين محليين فى رابطة رفاه العسكريين النيجيريين السابقين، التى فُرض لها مبلغ ٢١٠٦ جنيه إنجليزى، على المستوى المحلى فى الاحتفال بأول يوم من أيام ما بعد الحرب، كان الشاب الذى يتطوع للقيام بهذا العمل يجد فى خدمته كاتبًا كان من قبل يعمل ضمن قوات الحدود الملكية الإفريقية الغربية، يعاونه فى القيام بالأعمال الحسابية الخاصة برابطة رفاه العسكريين النيجريين السابقين.

كانت وزارة المستعمرات قد أهابت بالإدارات الاستعمارية، بعد انتهاء الحرب، تقديم خطط تنمية عشرية للاستفادة البناءة من صندوق الرفاه والتنمية الذى أنشأه وأقره البرلمان البريطانى، والذى حمل "باترجون" Patterjohn أنباءة إلى باوتشى. لم تكن تلك المرة الأخيرة، التى كانت الخطة النيجيرية فيها مكونة من خليط بسيط من

آمال الإدارات والسكرتاريات، ولما كانت تلك الخطة واحدة من أكبر الخطط فقد تقرر إخضاعها للتحليل الكامل من قبل مجلس العموم، وبخاصة اللجنة الخاصة بانتقاء التقديرات، لاحظ العسكريون أن تلك الخطة كانت عبارة عن عينة من المشروعات الفردية، التى لا ترتبط بأية أهداف اقتصادية عامة، كما لاحظوا أيضًا أن هذه الخطة بحكم تكوينها، لا تعكس الأصداء التى يمكن أن تكون عليها هذه المشروعات الفردية، فى مسألة إحداث تأثيرات منظورة على الاقتصاد ككل. وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها، على الرغم من أن الآثار المنظورة للخطط المستقبلية المحسوبة حسابًا جيدًا، سواء أكانت خططًا اجتماعية أم توجيهية، قد لا تكون كبيرة إذا ما تحققت.

فيما يتعلق بباوتشى Bauci، أسفرت التنمية والرفاه الاستعماريان عن نتيجتين مهمتين يمكن النظر إليهما باعتبارهما أمرين مهمين: جرت ببطء عملية توسعة الطرق الرئيسية التى جرى شقها فى الصخور الحمراء، والتى تغضنت وتجعدت بفعل حرارة الشمس وحركة النقل الثقيل، هذه الطرق كانت تؤدى إلى كل من جوس، وآزار، وميدوجورى، وإلى جومب، وجرى أيضًا تحسين برابخ تلك الطرق، كما جرى أيضًا تركيب جسور على تقاطعاتها المائية. وقامت إدارة الأشغال العامة، شأنها شأن إدارة الخدمة العامة بالعمل فى مناطق الغابات مستخدمة الإدارات المحلية وكلاء لها فى مسألة توفير الورش والعمالة المباشرة أو الإشراف بعقود قصيرة الأجل، كانت تنمية ما بعد الحرب قد استفادت أيضًا من الدماء الجديدة التى شقت طريقها فى مواجهة العدو، وفى المقاومة البرية فى جنوب شرق آسيا وفى أوروبا، والتى جرى تجميعها أيضًا عن طريق زملاء فيرس Furse ومستشاريه الفنيين. تمثل التغيير الثانى فى وصول نوع جديد تمامًا من الموظفين الاستعماريين: "ضابط التنمية"، وهو موظف بعقد (كانت تلك النوعية من الموظفين نادرة فى تلك الأيام، فيما عدا بعض الفنيين الذين كانوا يعينون بعقود قصيرة الأجل من قبل وكلاء التاج أو ممثليه). كان أولئك الفنيون من الجنود السابقين لكنهم لم يكونوا مؤهلين أو راغبين فى البحث عن عمالة تقوم على المعاشات،

لكنهم كانوا على استعداد "للسفر إلى أى مكان وفعل أى شىء". ودونًا عن سائر الرتب بدءًا من العميد إلى ضابط الصف (وبحكم ميلهم أكثر من إخوانهم، إلى الاحتفاظ برتبهم وألقابهم الشرفية) تمكن هؤلاء المجندون من الناحية النظرية من إدارة مشروعات التنمية والرفاه الاستعمارى وتسريعها، التى كانوا يحصلون منها على رواتبهم، لكن ذلك كان فى واقع الأمر- باعتبارهم رجالاً يؤدون عملاً فريدًا راقيًا- يساعدون به الإدارة والمهندسين عندما تكون هناك حاجة ماسة إلى شخصية نشيطة لتحريك الأمور. بعض هؤلاء الفنيين كانوا لا يقدرون بثمن، بعض آخر منهم كان جلفًا وغليظ القلب، يذكرنا دومًا بشقاء زمن الحرب، الأمر الذى لا يجعله مقبولاً من مسئولى الإدارة المحلية الذين جرت حمايتهم من التغييرات السريعة، ومنهم المعلم أبو بكر. وجرى تعيين مائة فرد فى مشروع مدته عشر سنوات يبدأ الراتب فيه بحوالى ٤٠٠جنيه إنجليزى (وبدل اغتراب مقداره ١٥٠ جنيه إنجليزى).

قد تبدو هذه العودة على مستوى العالم كله إلى العمل الاقتصادى الإمبريالى البريطانى، منطوية على عدم فعالية اقتصادية. من هنا لم ترحب روسيا بتلك العودة، وذلك على العكس تمامًا من الصين المقسمة حديثًا إلى صين وطنية وأخرى ثورية، كانت الولايات المتحدة هى الأخرى متشككة فى تلك العودة، وكانت تلك العودة مصدراً واضحًا للغيرة بين الدول الاستعمارية التى أسال الاحتلال النازى دمها واستنزفها. تمثل جزء يسير جداً من هذا العمل فى تقديم أربع منح لأربعة من مواطنى الشمال للدراسة فى لندن فى منحة مدتها عام لدراسة منهج يمنح المدرسين الأجانب شهادة مهنية. جاء اختيار طلبة تلك المنح بواسطة إريك Eric مورت Mort، الذى لم يستصعب القيام بهذه المهمة، كان الذين حصلوا على تلك المنح هم: يحيى جوساو من الشمال الغربى، وعبد الرحمن موره Mora من الجنوب، وبللوه Bello ولد عمار Amar من شمال كنو (رقمه ١٢ فى قائمة كاتسنا فى عامها الأول) وأبو بكر تافاوا باليوا من الوسط الشرقى Central East؛ كان الأربعة مدرسين بطبيعة الحال، وخاب أمل أمين كانو، لكن

مورت Mort أحس أن بإمكانه انتظار مدة عام. وانتهز المعلم أبو بكر الفرصة فى هدوء مثلما انتهز الفرصة أيضًا فى الاختيار الذى قام به إريك Eric مورت Mort فى العام ١٩٢٢ . وبتواضعه المعتاد، تعامل أبى بكر مع هذه الفرصة وكأنها نوع من التكريم (لكنها كانت فرصة كان يتعين عليه تقديمها عن طيب خاطر للمعلم جاربا كافين Kafin مادالكى بين رؤسائه المباشرين). واتخذ أبى بكر الترتيبات اللازمة لإدارة شئونه العائلية والأسرية أثناء غيابه. كانت أسرة أبى بكر تضم أخاه الأصغر منه البالغ من العمر اثنى عشر عامًا، الذى كانت زوجاته ترسله إلى السوق لشراء اللحم، والزبد، والخضراوات، والفاكهة، والمكونات الأخرى اللازمة للحساء، كما كان يأخذ قمح الأسرة كل يوم إلى مدشّات القمح، وكان يقوم أيضًا بإحضار الحطب، وبذلك كان على اطلاع دائم على المدفوعات كلها (قالت واحدة من الزوجات لذلك الصبى، إنه بعد أن يكبر ستكون له زوجة خاصة به وتطهى له طعامًا جيدًا ـ رد عليها الصبى قائلاً : "هذا مستحيل!" "ألا ترين كيف ينفق الزوج مبلغًا كبيرًا على الزوجات! سوف أظل أعذب وبذلك أبقى متحررًا من مصاريف الزوج!"). كان الأقارب والأصدقاء يساعدون راعيه أبا بكر، لكن الضيق والألم نزل بهم عندما علموا أنهم سيبقون فى نيجيريا.

طلب أبو بكر النصيحة والمشورة من أولئك الذين أحس بأنهم أفضل من يمكن أن يساعدوه على الاستعداد لتلك الرحلة التى كان ينظر إليها باعتبارها مغامرة بعيدة كل البعد عن الراحة. دعاه ولكاى Wilkie، الممثل المقيم هو وضابط القسم إلى تناول الوجبات معهما، وقدما له النصح فيما يتعلق بآداب المائدة الأوروبية، لكن ضباط التعليم هم الذين حذروه مما يمكن أن يحدث له أثناء الإعاشة فى الدرجة الثانية من واحدة من بواخر إلدر Elder دمبستر Dempster القليلة التى لم يتم إغراقها، التى لا تزال خاضعة لمستويات زمن الحرب ومعاييره، وبخاصة فى ظل تعطيل العمل بالشروط الموضوعة من قبل مجلس التجارة، وكون تلك الباخرة لا تزال معرضة للألغام الشاردة، وأن هذه الباخرة تستحق عمل عَمْرة ميكانيكية كاملة منذ أكثر من ست سنوات، فضلاً

عن عدم إصلاح التلفيات الموجودة بها. كان ضباط التعليم يعرفون ما سيلاقيه أبو بكر مع سلطات الجمارك والهجرة فى ليفربول، كانوا يعرفون ذلك الذى يمكن أن يلاقيه فى القطار المتجه للجنوب، ليصل بعد ذلك إلى لندن، التى ستظل محتفظة بشكائر الرمل، والوقود المقنن، والغذاء المقنن، والكساد المقنن، تلك المدينة المهلهلة التى لا يمكن الحصول على أى شىء فيها إلا من خلال الطوابير.

كان الأجانب الغرباء، باستثناء الجنود الزنوج الأمريكيين، لا يزالون أشياء غير لافتة للانتباه عند الجماهير اللندنية، لكن الواضح أن قوات الحلفاء كانت أكبر بكثير من القوات البريطانية من حيث العدد، والذين لم تكن عودتهم إلى الوطن وإنهاء التعبئة قد بدأ بعد. وعلى الرغم من إسداء النصح إلى أبى بكر أن يرتدى الملابس الأوروبية طلبًا للدفء والتمويه، فإن أبا بكر استعاد تجربته فى ليجوس وأصر على المضى قدمًا فى عاداته وتقاليده: وكما فعل ابن عمار Amar، استعمل أبو بكر بدل اللبس النقدى فى شراء زى وطنى Riga، هذا الزى الوطنى كان مكونًا من قفطان وبنطال مصنوع من قماش الفانيلا رمادى اللون، ولم يحدث مطلقًا أن رآه أحد وليس على رأسه طربوش أحمر اللون أو طاقية Skullcap من القطن الأبيض. أما الاثنان الآخران عبد الرحمن ويحيى فكانا على استعداد لقبول الحلول الوسط. واستخدما كوبونات الزائرين، وقررا أن يلبسا لباسًا مختلطًا أو لباسًا غربيًا خالصًا، وبخاصة فى فصل الشتاء. كان أبو بكر قد دون فى الطلب الذى تقدم به للحصول على جواز السفر أن والده كان من رجال "الحاشية"، وعندما استلم الرجل جواز السفر (رقمه ١٨٢٠٨) باعتباره شخصًا "يتمتع بالحماية البريطانية"، كان من الطبيعى أن يصدر مثل الجوازات الأخرى التى تصدر من نيجيريا، لكن جواز أبى بكر تافاوا باليوا كان الجواز الوحيد الذى وقع عليه الحاكم Governor. وأثناء التجوال فى العاصمة علم المعلم أبو بكر أنه جرى اختياره رئيسًا شرفيًا لرابطة رفاه مدرسى الشمال فى كل من ليجوس ولندن. وكان أبو بكر قد شارك فى تأسيس هذه الرابطة (وليس فى ذلك ما يثير الدهشة لأن أمين كانو كان السكرتير

الأول فى تلك الرابطة). هذه الهيئة كان يُنْظَرُ إليها فى بداية الأمر على أنها رابطة أعضاء، وكان تأثيرها متواضعًا مثل أى اتحاد من الاتحادات المهنية، كانت تلك الرابطة تعد نفسها هيئة مهنية وأخلاقية فاعلة، وسرعان ما أسقطت تلك الهيئة كلمة "رفاه" من اسمها، فى الوقت الذى أعادت تسمية الرئيس وأطلقت عليه اسم "الرئيس العام". كانت الرحله مثيرة بالفعل، إذ جرت بطريق الجو: كانت الوقفات الليلية فى كل من تاكورادى Takoradi، باتورست Bathurst، ولشبونة Lisbon، وكانت الطائرة من طراز سندر لند Sunderland، وهى من طائرات زمن الحرب، وكانت عبارة عن قارب طائر جرى تحويله إلى ناقلة للأفراد من طراز هيث Hythe.

وصل الرجال الأربعة إلى بريطانيا فى اليوم الرابع عشر من شهر أكتوبر من العام ١٩٤٥، أى بعد شهرين من يوم الانتصار فى اليابان، وقبل وقت قصير من قيام اللورد سونتون Swinton بإبلاغ مجلس اللوردات أن "نيجيريا بدأت تنظر إلى نيجيريا باعتبارها كلاً واحداً". قام ضابط الاتصال الخاص بطلاب المستعمرات بتسكين الرجال الأربعة فى بيت الضيافة الرسمى، المسمى نتفورد Nutford بالقرب من ماربل Marble أرش Arch، الذى رضى به كثير من طلاب البعثات وحملة المنح المالية من سكان المستعمرات، والذين لم تقم مؤسساتهم بتوفير السكن المطلوب لهم. هؤلاء المبعوثون رضوا بتمضية وقتهم فى لندن، فى غرف نوم مشتركة، وتناول الوجبات الجماعية. كان عدد الطلاب الذين شاركوا فى هذا المقرر الدراسى الذى يعد الأول من نوعه بعد الحرب، يقدر بحوالى ٤٨ طالبًا، وانضم إليهم خمسة عشر آخرون فى الفصل الدراسى الثانى. قام بعض هؤلاء الشبان المغامرين بشق طريقهم إلى "المهاوى"، لكن الشبان الأكثر خجلاً وحياء، الذين لم يكونوا متأكدين من أن الحظ قد يوقعهم فى قبضة سيدة حانية أم فى قبضة تنين سليط اللسان، آثروا البقاء فى الأمن المحدود فى ذلك البيت الحكومى الرسمى. مسألة خدمة الفرد لنفسه ضمن شركاء السكن، لم تكن أمراً معروفًا اللهم باستثناء "الطلبة الكبار"؛ مسألة أو عبارة "الطلبة الكبار" هذه لا تزال

تعنى الأشخاص متوسطى العمر الذين جاءوا إلى بريطانيا لمزيد من الدراسة بعد أن أمضوا فترة طويلة فى فهمهم، لم يكن هؤلاء المبعوثون قد سمعوا بعد عن مسألة خدمة الإنسان لنفسه ضمن مجموعة من الشبان يستأجرون أو يقيمون فى شقة واحد. كان الشماليون ناضجين، لكنهم كانوا أيضًا خجولين ولم يعتادوا على أى أحد فى طهى طعامهم سوى زوجاتهم. فى منزل نتفورد Nutford، وبينما كان أولئك الشبان يؤثرون البقاء مع بعضهم البعض ويتحدثون فيما بينهم بلغة الهوسا، كان محتمًا على أولئك الطلاب الالتقاء بالصينيين (بما فى ذلك النساء اللاتى كن يدرسن علم الاجتماع وعمل الأخصائيات الاجتماعيات). وطلاب آخرين من جزيرة الملايو، ومن الهندوس، ومن المسلمين الهنود، ومن جزر الهند الغربية، وطلاب كثيرين آخرين من أقاليم الغابات فى ساحل الذهب، من سيراليون، ومن نيجيريا. هذه العلاقات الوجيزة أو المقتضبة وسَّعت مدارك هؤلاء الطلاب وزادت وعيهم الإنسانى، وهيأت لهؤلاء الطلاب زوايا أخرى ينظرون منها إلى البريطانيين كما عرفوهم فى بلادهم، لكن هذه العلاقات زادت ومتَّنت إحساس هؤلاء الطلاب وفخرهم بذواتهم.

كان هؤلاء الشباب يدركون أن جيرانهم الساحليين ينتظرون منهم تقبل أساليبهم الجنوبية والالتزام بها، فضلاً عن التزامهم أيضًا بالآراء الجنوبية قبل قبولهم حلفاء لهم فى النقاشات والصراعات والتوضيحات التى تترتب على التواصل بين هيئة الطلاب والسلطة. لم يحظ اتحاد غرب إفريقيا، تلك الهيئة التى تأسست فى لندن منذ زمن بعيد، بالدعم من قبل بعض المؤيدين الناشطين، بل إن هذا الاتحاد كان يتعرض للهجوم فى بعض الأحيان، هؤلاء المؤيدون كانوا يشكلون جماعة صغيرة من الشماليين، وسبب عدم حصول اتحاد طلاب غرب إفريقيا على الدعم أو المساعدة يرجع إلى أن هذا الاتحاد كان ينظر إلى السياسة الإمبريالية نفسها على أنها هى بحد ذاتها هدف للمصالح السياسية البريطانية اليسارية، وعلى الرغم من الدور الذى لعبه الاتحاد السوفيتى فى الحرب، فإن أسلوب الحياة الروسى، بالشكل الذى جرى به توضيح هذا الأسلوب

وتفسيره وشرحه، لم يحظ بقبول أناس كانت مجتمعاتهم الضرورية وأسرهم الموسعة والممتدة تحس بالسعادة والرضا عما هى فيه. توقف البعض ليسألوا حول ما إذا كانت روسيا والشيوعية قبلها سوف لا يمتدان على نطاق واسع. ولم يكن سهلاً أو يسيراً فهم الفلسفة الأساسية، أو بالأحرى المفاهيم الاقتصادية فى الماركسية – اللينينية، نظراً لأن الصيغ اللغوية الإنجليزية العامية، كانت لا تزال هى المستعملة فى إفريقيا، وأن هذه الصيغ كانت متأصلة فى التعليم الذى تقدمه البعثات التبشيرية، وفى التعليم الحكومى، وفى التجارة، كما كانت تلك الصيغ متأصلة أيضاً فى الكريول(*) واللغة المهجنة. وفيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية ظن هؤلاء الشباب الفرديون أنها يمكن أن تتحقق بلا منافسة.

كانت الصداقة المعروضة من قبل الفابيين Fabians والمفكرين الليبراليين تقوم على المزيد من الخداع، على الرغم من قصدية ذلك الخداع وعدم إخفاء دوافعه، وتفسير ذلك من قبل الزائرين شديدى الحساسية أو غير الواثقين منه بأى نوع من المناصرة أو المظاهرة. كان يندر على الناخبين العماليين والمحافظين، فى ذلك الوقت، وبحكم ترددهم فى الخوض فى مياه مجهولة، الخروج عن طريقهم بغية تعرف طلاب المستعمرات، على الرغم من أن الكثيرين من هؤلاء الناخبين العماليين والمحافظين كانوا يحسون بالغرابة عندما تجمعهم الظروف بعضهم إلى بعض. ساهمت الدعوات المباشرة إلى حفلات أعياد رأس السنة، فى منزل من المنازل، وفى الأمسيات "الاجتماعية" الكنسية، أو الدعوات إلى المشاركة فى حفلات الرقص الأسكتلندية، وكذلك الدعوة إلى حفلات السمر البرىء، ساهم ذلك كله فى إيجاد روابط صداقة قوية بين هؤلاء الطلاب، كانت الاحتجاجات غير المبررة على العرق وعدم المساواة، يجرى سترها

(*) الكريولى: أبيض منحدر من النزلاء الفرنسيين والإسبانيين السابقين الأولين لكنه لا يزال يحتفظ بلغته وثقافته الأصليتين . (المترجم)

فى أغلب الأحيان بابتسامة مفتعلة أو بشىء من الشك المستور، وبخاصة إذا كان المقصود بتلك الاحتجاجات هو إحداث وقيعة، أو بالأحرى إيجاد هوة، بين المتحدثين وأبناء بلادهم فيما وراء البحار.

تراجع النيجيريون الشماليون، بصورة أساسية، عن القيام بهذه الأشكال من التورط. وقد مكنهم استقلالهم العاطفى الذاتى والانفعالى من التقليل من الإحساس بالوحدة، لكنهم كانوا يتمتعون بين الحين والآخر بالمقابلات أو العلاقات السابقة التى سبق أن أقاموها مصادفة فى نيجيريا. هؤلاء الشماليون لم يكونوا معرضين لاحتمالات "الانهيارات العصبية" (على حد تسميتها فى تلك الأيام) التى كانت تضايق كثيراً من طلاب المستعمرات فى ذلك الوقت، لكنهم كانوا يلاحظون العداء والعداوة التى بين بعض المبتعثين الذين جاءوا من شبه جزيرة الملايو، وبين بعض المبتعثين الصينيين، وكانوا يتعجبون من اهتياج مبعوثى جزر الهند الغربية ورثائهم الشديد لذواتهم عندما جرى حرمانهم من النجاح المباشر. شهد الطلبة النيجيريون الشماليون أيضاً الحاجز النفسى بين أولئك الذين يشبهون بعضهم بعضاً إلى حد بعيد لكن ثقافة المزارع هى التى قَسَّمتهم وأبعدتهم عن الثقافة القبلية. وقدر لواحد من هؤلاء أن يكون رئيساً لوزراء جاميكا، يزاد على ذلك، أن آخرين كثيرين ربما كانت لديهم تفرقة من نوع آخر ولم يقتصر الشماليون على كشف الفجوة التى بين بعض الهندوس والمسلمين الهنود، وبدأوا بعد ذلك يقرون ويتعرفون الخصائص الوطنية والإقليمية للبشر من مختلف أجزاء المملكة المتحدة.

كان هؤلاء الطلبة الشماليون يشكلون أقلية صغيرة بين فئات من الأقليات المختلفة، هذا يعنى أن هؤلاء الطلبة الشماليين كانوا فى موقع يسمح لهم بالاحتفاظ ببعدهم عن التورط، ومن يصلون إلى استنتاجاتهم الخاصة بهم عن الأُخُوَّه بين بنى الإنسان، دون أن يؤثر ذلك على سلوكياتهم أو تسامحهم.

عندما بدأ هؤلاء الشماليون يتعودون على مواصلات مترو الأنفاق، وعندما بدأوا يعرفون الانتقالات المطلوبة للوصول من مكان إلى آخر، وعندما بدأوا يعرفون أيضاً أن مترو الأنفاق كان الناس يتخذون منه ملجأ من الغارات الجوية (كان مترو الأنفاق هو والمصاعد شيئًا غريبًا على أولئك الشماليين الأمر الذى ولّد فيهم انطباعات كبيرة)، وبعد أن تعلم هؤلاء الشماليون أرقام الحافلات التى تخدم احتياجاتهم وتلبيها أثناء انتقالهم إلى بلومزبرى Bloomsbury، أصبحت الحياة بالنسبة لهم، فى لندن، أمراً روتينيًا. كان المعلم بللو Bello ولد Dan عمار Amar يقضى معظم وقته فى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، التى كان يدرس فيها اللغة العربية مع ثلاثة من المسلمين الهنود وفتاة بريطانية واحدة. كان العالم القدير جى G بى P بارجرى Bar-gery، مؤلف المعجم الهوسوى العظيم، والذى عمل من قبل مدرسًا مبتعثًا فى كنو، وفى بعض الأماكن الأخرى اعتباراً من العام ١٩٠٥، قد حاول استبقاء بللو ولد عمار ليكون مساعداً له فى تعليم لغة الهوسا، للعاملين المرشحين للخدمة فى المستعمرات، لكن بللو كان متردداً فى مسألة إطالة بقائه فى الخارج، وقد أدى ذلك إلى فتح الطريق أمام المعلم حسان، الذى كان يرتبط بقرابة مع أمير أبوجا، كما كان يرتبط بعلاقة أيضاً مع توكور Tukur، ولد ووارث أمير ياورى Yauri. وفيما عدا ذلك كان كل من المعلم بللو هو والمعلم أبو بكر يغلب عليهما تمضية القسم الأكبر من وقت فراغهما مع بعضهما، وكان الاثنان طالبين مجتهدين ومجدّين تماماً.

كان المعلم أبو بكر، مثل زميليه الآخرين، يمضى محاضراته، ومناقشاته، والأمور الخاصة بتعليمه فى معهد التربية والتعليم، حيث كان مدرسه السابق إريك Eric مورت Mort، هو المدرس نفسه الذى التقطه من براثن الريفية من بين ذراعى الطاهر. كان أريك مورت قد تقاعد بعد انتهاء الحرب بمكافأة مجزية من إدارة ضباط الإمبراطورية البريطانية. كان راعى أبى بكر يحضر الدورة نفسها فى موضوع سيكولوجية الفن والتعليم فى المناطق المدراية (الاستوائية) شأنه فى ذلك شأن المعلم يحيى جوساو، لكنه

فيما عدا ذلك كان يركز على تعلم الإنجليزية باعتبارها لغة أجنبية، كما كان يركز أيضًا على التاريخ والجغرافيا، مثلما كان يركز المعلم يحيى على العلوم والرياضيات. وقام أصدقاء بللو ولد عمار بتقديم كل من أبى بكر ويحيى جوساو إلى المسجد اللندنى، الذى جرى بناؤه بمبالغ جرى جمعها من الهند ومن أغاخان، وكان الرجلان يداومان على الذهاب إلى المسجد بصورة منتظمة. وتأثر أبو بكر أيما تأثر بمعرفة الإمام ومهاراته؛ هذا الإمام كان يدعى الشيخ عبدالله، الذى كان يعرف الكثير أيضًا عن الإنجيل المسيحى، وكان يستشهد به فى خطبه. أقام الأربعة قلة قلية من الصداقات مع الهنود المسلمين، لكن حياتهم الاجتماعية كانت محددة، فى الإجازات وفى أوقات الدراسة، والسبب فى ذلك هو الدافع إلى الاستذكار، إذ كان مستحيلاً أن يفكر أحدهم فى مسألة الإخفاق فى هذه الدورة.

على الرغم من ذلك فإنهم حضروا الاستعراض الذى أقيم بمناسبة الانتصار، وكانوا يرتعدون بردًا مثل باقى جنود المستعمرات الآخرين، عندما كانوا يتجولون فى شوارع لندن وهم يرتدون الزى الخفيف المصنوع من القماش الكاكى، بدلاً من ارتداء زى القتال المناسب. كان أبو بكر الذى تشكلت صورة الجيش فى ذهنه اعتبارًا من زمن كتيبة زمن الحرب ومركز التدريب فى باوتشى، قد تأثر كثيرًا بمنظر القوة العسكرية المتمثلة فى القوة البشرية الضخمة التى استخدمت فى استعراض الانتصار. ذهب أيضًا كل من المعلم عبد الرحمن موره Mora هو والمعلم يحيى جوساو مرتين للإقامة مع أريك Eric مورت Mort، فى حين ذهب المعلم بللو هو وأبو بكر سويا باعتبارهما ضيوف الدار على النقيب سلوان Sloan، والنقيب سلوان هذا مدرس متقاعد من مدرسة العلا Ala المتوسطة فى كاتسنا، والذى عرفاه بإعاقته الكلامية، الناجمة عن الحرب العالمية الأولى، بسبب جرح أصاب حنجرة الرجل عندما كان فى سلاح القوة الجوية الملكية. تسلم هؤلاء الرجال دعوات أخرى كانت تأتيهم بين الحين والآخر، مثلما حدث عندما اصطحب تونى Tony إير Eyre إلى حفل غداء وراح يستغرق فى ذكريات طرد المعلم

بارايا Baraya من منصب النظارة فى المدرسة فى العام , ١٩٤٤ لكن ظروف ما بعد الحرب وتقنين صرف الوقود ربما يكونا قد أعاقا تحركات الرجلين إلى مسافات بعيدة، حتى وإن كانوا على شاكلة من قدر لهم أن يأتوا بعدهم فيما بعد. قام أبو بكر بزيارة عائلة ضابط من ضباط التعليم السابقين فى باوتشى، والذى تحول إلى عامل من العمال العاملين فى مجال تعدين القصدير، لكن شغف أبى بكر الرئيسى كان يتمثل فى قراءة الروايات، وزيارة المتاحف عندما بدأت تستعيد أحوالها بشكل بطىء وتخرج كنوزها من الأماكن الآمنة التى جرى تخزينها فيها. وجرى تشجيع أبى بكر للقيام بزيارات "رسمية" إلى نادٍ من نوادى الشباب فى "هامر سميث" Hammersmith، وفى كاتدرائية كانتربرى، وقلعة وندسور، وإلى مصانع فورد فى داجنهام Dagenham وإلى المركز الصحى فى بكهام Peckham. والتقى الرجل السيد/ أوبافيمى Obafemi أولوو Awolowo لقاءً قصيراً، كان كافيًا تمامًا إذ استطاع أبو بكر تكوين حكمه على ذلك الرجل ورأيه فيه. استفاد أبو بكر أيضًا كثيراً إذ عرف الطريقة التى يستطيع الغرباء بها الوصول إلى مجلس العموم، وحدث أكثر من مرة أن شاهد أبو بكر تشرشل Churchill وهو يخطب ممثلاً المعارضة فى المجلس.

عندما تزايد اهتمام أبى بكر بالسياسة البريطانية، وعندما تعرف المصادر التى انفتحت أمام فضوله، وأمام حبه الشديد للقراءة، أصبح الرجل على يقين من أن النقد الموجه للاستعمار لم يكن مقصوراً على الجناح اليسارى الراديكالى: عندما استعاد أبو بكر ذكريات قراءته لبعض أعداد الدورية المسماة "غرب west إفريقيا" اكتشف الرجل فى إحدى المناظرات التى دارت فى زمن الحرب، فى المجلس عن شمالى نيجيريا، أن المتحدث اللورد رنيل Rennell قال : " الحكم غير المباشر مطبق فى الشمال، والجاليات والطوائف سعيدة بذلك، (وأنا لا يخامرنى فى ذلك أى شك)، وهذه الجاليات والطوائف تدار إدارة حسنة، لكن هذه الجاليات والمجتمعات ليست تقدمية – وأن النصح والإرشاد والتوجيه الذى تحصل عليه هذه المجتمعات يجىء فى كثير من الأحيان، من أناس يبدو

أن همهم الوحيد هو الإبقاء على الإدارة الإفريقية التى عرفوها فى صوف القطن وفى الكافور، كما لو كانت هذه الإدارة أمرًا من الأمور المتحفية، وأنهم كانوا يفعلون ذلك من باب المحافظة على هذه الإدارة بشكل يحول بينها وبين تلوثها، تحت أى ظرف من الظروف، بأى شكل من أشكال التطور أو تحسين ظروف الصناعات الفرعية أو المكملة". كان المعلم أبو بكر يعى أن التغيير كان قد بدأ فى وطنه بالفعل، لكن الرجل تحمس عندما وجد بعض الكلمات الكاميرونية تتردد على ألسنة الزعماء البريطانيين الأمر الذى عزز من آرائه ومواقفه. كان أبو بكر على يقين من أن هؤلاء الناس المهمين لا يمكن أن يعرفوا شيئًا عن بلاده بلا شىء من التحيز والتعصب، نظراً لأن هذا الذى يعرفونه لابد وأن يكون قد بلغهم عن طريق رفاقهم الإداريين والمركنتليين (التجاريين) الذين كانوا يعملون فى نيجيريا.

مع ذلك، حافظ أبو بكر على تحفظه وحرصه فى تعامله مع الحقائق. ونادراً ما كان الرجل يشارك مع جماعات النقاش العام داخل المعهد، ولم يكن الرجل يتدخل إلا عندما يحس أن أحداً ما ارتكب خطأ لا يمكن تمريره أو التجاوز عنه. كان ذلك انعكاسًا لثبات الرجل واعتداده بنفسه. لم يكن الرجل يشجع شطحات رفاقه الخيالية بطريقة سلطوية متواضعة بشكل كبير جداً. وعلى العكس من كثير من طلاب المستعمرات، ولم يكن الرجل يتسبب فى المشكلات لنفسه أو لأى أحد من الناس، وبخاصة فى الأمور العاطفية الخاصة التى كان فيها غاية فى الوضوح. ساهم الرجل فى واحدة من الأفكار التعليمية مفادها أن المدرسين المسلمين تجب الاستفادة من مهاراتهم وخبراتهم فى مدارس البعثات التبشيرية، لكن الرجل لن يكن متحمساً للزعم الذى مفاده أن البعثات التبشيرية قد تهتم ببِدْع(*) المسلمين المتعلمين والأذكياء الذين

(*) البدع : بكسر الباء وتسكين الدال ، وهو الشىء الجديد غير المألوف . (المترجم)

ينحدرون من جماهير محافظة. وليس من الغرابة فى شىء أن يتكلم أبو بكر كلامًا حزينًا ومحزنًا عن "الشمس الباردة" البريطانية - هذا يعنى أن الرجل لم يتمتع مطلقًا بالطقس.

من ناحية أخرى، تهيأت الفرصة عندما كتب أبو بكر إمام لواحد من الزعماء الوطنيين، من جريدة "جاسكيا" Gaskiya، عن الإدخال المقترح للمجالس الإقليمية لتعزيز دور المجلس التشريعى النيجيرى. وقد هيأ ذلك الفرصة للمعلم أبى بكر تافاوا باليوا، الذى جرى اختياره عشوائيًا للتعليق على هذا الأمر من خلال الإذاعة الموجهة بلغة الهوسا من اتحاد الإذاعة البريطانية، إلى ما وراء البحار، تهيأت الفرصة لأبى بكر تافاوا باليوا كى يقول:

"أنا ناظر مدسة هوسوى أدرس فى إحدى الجامعات فى لندن. وقد وقعت فى يدى وثيقة بالغة الأهمية، - أنا أرى أننا فى الشمال وصلنا إلى النقطة التى ينبغى عندها تهيئة الوسيلة القانونية التى تعطى الشباب المتعلم من الجيل فرصة التعبير عن أفكارهم." قد يبدو ذلك أمرًا محمودًا، كان الكثيرون فى العام ١٩٤٥ ينظرون إلى ذلك باعتباره عملاً ثوريًا. وسرعان ما جرى التعليق على ما قاله ذلك الزعيم، جرى التعليق عليه فى الصحافة النيجيرية الجنوبية التى تصدر باللغة الإنجليزية، لأن ذلك كانت فيه إشارة إلى مناظرة دارت فى حزب صغير من أحزاب ليجوس عن رحلة الحاكم التى قام بها إلى لندن فى شهر مارس من العام ١٩٤٥، والتى تضمنت بعض المقترحات عن تعديل الدستور.

فى ضوء صياغة الدستور التى جرت بعد ذلك، وقدر لها أن تكون عملية بيروقراطية ثقيلة، كانت للأصول البسيطة التى انطوت عليها تلك الرسالة أهمية كبيرة. كان السير آرثر Arthur رتشاردز، الذى خرج من مهنة صغيرة فى الملايو إلى حكم الجزء الشمالى من جزيرة بورنيو Borneo، وجامبيا، وفيجى بلا معارضة أو اعتراض

(حسب تعليق أحد المتهكمين) قد أُجبر على القيام بإجازة بعد أن تخلى عن منصبه حاكماً لجاميكا Jamaica. كان آرثر ريتشاردز قد أجرى بعض المحادثات الخاصة مع اللورد لوجارد، الذى كان واحداً من أبطاله. فيما عدا ذلك، كان ريتشاردز قد برز ليخلف بورديللون فى العام ١٩٤٣، وعندما جاء الرجل إلى نيجيريا لم يكن ذهنه محشواً بأية مقترحات من وزارة المستعمرات، حول الطريقة التى يحكم بها نيجيريا على أفضل نحو ممكن. كان ذلك هو العرف السائد: كان الحكام الجدد يقومون بتقبيل يد صاحبة الجلالة فى حال وجود الجمهور قبل أن تبحر الباخرة، وكانوا يتسلمون تكليفات غير رسمية على شكل صيغ ونماذج موحدة، وكانوا يحظون أيضًا بإطلاق دانات المدفعية تحية لهم، وكان يسمح لهم أيضًا بالدخول إلى سفن صاحبة الجلالة، وكان أولئك الحكام يعرفون أيضًا النفقات المطلوبة لاستخدام ياور وسكرتير خاص، وكانوا يعرفون أيضًا المبالغ التى سيحصلون عليها مقابل الإجازات طوال المهمة التى تستمر مدة خمس سنوات، لكن السلطات كانت تحرص على ألا يلتقى الحكام الجدد الحكام السابقين، أو من ناحية أخرى القيام بمهامهم بلا تحامل، ولا أقول بلا تثقيف. وقد سبق أن رأينا أن ريتشاردز Richards سبق له تولى منصب الحاكم أربعة ولايات تعلم خلالها مهنته. ومن الخطأ أن نهمل تأثير القيود التى كانت مفروضة فى زمن الحرب، على بورديللون Bourdillon، الذى أبدى ملاحظة مفادها أن السير برنارد Ber-nard كانت لديه أكداس من الملفات التى تعج بأفكار الآخرين، بما فى ذلك التنازلات التى قدمها (الحاكم إيسى Essay برايز Prize - كان بورديللون، فى سابقة لا مثيل لها، قد دعا الإداريين كلهم، بغض النظر عن صغر سنهم، لكى يقدموا آراءهم بلا تحفظ بشأن التغييرات المطلوبة للمضى قدمًا على الطريق)، وطالب الرجل بإيفاد لجنة ملكية تكون مهمتها ابتكار الحلول، لكن الرجل لم يخلف وراءه أى تسجيل محدد بآرائه التى توصل إليها حول مسألة التقدم الدستورى.

استنتج ريتشاردز استنتاجًا ظالمًا مفاده أن من سبقه كان ينتهج سياسة عدم التدخل(*). ولما كان الرجل صاحب ذهن قوى، فقد اقتنع أن الخبرة التى يكتسبها الناس من جامعة الحياة لابد وأن تفوق النظريات كلها، وكان الرجل قد عقد العزم على إحداث تغيير يؤدى إلى هدم الحواجز القبلية التى واجهته، على ألا يكون ذلك من باب العجلة أو التسرع. هذا لا يعنى أن الرجل كان يعتنق الكثير من آراء بورديللون Bour-dillon أكثر مما صرَّح واعترف به، كان سلف ريتشاردز فى حقيقة الأمر قد استشرف السواد الأعظم من تلك الآراء مع وزير الخارجية أوليفر Oliver ستانلى Stanley، أثناء عطلة التقاعد، والمعروف أن مكتب أوليفر ستانلى كان يفضل إعطاء المبادأة كاملة لذلك الرجل الجديد الفظ. كان هناك "رائد" من كمبردج هو أندرو Andrew كوهين Cohen، هذا الكوهين كان يشغل منصب وكيل وزارة، ولم يكن يعجبه أو يروق له الحكم غير المباشر الذى كان يمارسه لوجارد، كما كان متشككًا أيضًا فى نظرية التدرج التى اتبعها بورديللون، باعتبارها تطبيقًا مثاليًا لمبدأ عدم التدخل: كان أندرو كوهين يود من ريتشادرز Richards أن يكون راديكاليًا ومباشرًا. كان وزير الخارجية نفسه متأثرًا تمامًا بالدكتور آزكوى، لكنه لم يتأثر بما رآه من الأمراء، لكن وزير الخارجية، شأنه شأن سونتون Swinton الوزير المقيم فى غرب إفريقيا فى زمن الحرب، كان يرى الحل فى تربية الموظفين المدنيين المحليين وتعهدهم وليس تعليم السياسيين.

كان ريتشاردز يتطلع إلى المزيد من الوقت الذى يسمح للتجمعات القبلية الرئيسية أن تتعرف بعضها بعضًا، جنبًا إلى جنب، على أن تلتقى تلك التجمعات فى "العواصم" الأربع بصورة دورية (ليجوس، كادونا، إيبادان، إينوجو)، وكان الرجل يسعى على أمل أن يجد شيئًا من الفكر النيجيرى الذى يتفق معه على أن (تسع سنوات تعد فترة

(*) المقصود بسياسة عدم التدخل هنا هو : مبدأ يقاوم التدخل الحكومى فى الشئون الاقتصادية إلا بمقدار ما يكون ذلك التدخل ضروريًا لصيانة الأمن وحقوق الملكية الشخصية. (المترجم)

قصيرة فى حياة أية أمة من الأمم). فى البداية كان الرجل يتطلع إلى وجود حكومة فيدرالية قوية، تحتفظ بباقى السلطات على المستوى المركزى، ويجرى من خلالها التقاء الشمال بالجنوب، وفضلاً عن رجوع الرجل إلى الزعماء الجنوبيين فى ليجوس طلبًا للرأى والمشورة، دعى الرجل (ريتشاردز) أيضًا سلطان سكتو للمجىء والإقامة فى مقر الحكومة هو وكبار مستشاريه، وأن يُعْمل فكره فى إحداث تغييرات عملية. قامت الحكومة بعد ذلك بالتشاور مع المفوضين الثلاثة الذين وافقوا، فى شىء من التردد، على مقترحات ريتشاردز الرئيسية. وقد اشتملت تلك المقترحات على سلسلة من المجمعَّات الانتخابية التى يمكن عن طريقها ربط أقصى الدوائر الانتخابية بالتشريع النهائى. تباطأ المفوضون فى الموافقة على أن مجتمع المقاطعات الغربية كان مؤسسًا على منظمة "شبه إقطاعية" مثل منظومة الشمال، ومن هنا قاوم المفوضون رغبة ريتشاردز فى رؤية مجلس الرؤساء جزءًا من المجلس الإقليمى الغربى. هذا لا يعنى أن هؤلاء المفوضين اعترضوا على سلطات المجالس الإقليمية (على حد تسمية ريتشاردز لتلك البراعم التشريعية الناشئة) لاقتصارها على تقديم التساؤلات الخاصة بالقرارات والحوارات التى تدور من حول هذه القرارات.

انطوت رسالة الحاكم على طلب مفاده أن رأى لوجارد يتعين أخذه بعين الاعتبار، لكن مديرى وزارة المستعمرات من الجيل الجديد، الذين تعلموا الشك فى الأساس الذى أقام لوجارد عليه خارطته، قاموا باجتزاء هذه القيم من النص المنشور، معتمدين فى ذلك على حجة غير قاطعة، مفادها أنهم تجنبًا للحقد والغيرة سوف يتعين عليهم التشاور مع الحكام السابقين كلهم. واعترض ريتشاردز فى شىء من المنطق أن انتقادات لوجارد المعارضة وحدها، هى التى يمكن أن تتسم بالمصداقية فى عالم صناع الرأى العام، وأصر أكثر من ذلك على الرغم من عدم ارتياح وزارة المستعمرات إلى ذلك، على أنه سوف يستشير ذلك الرجل العظيم بشكل خاص. وقد أيد لوجارد تلك المقترحات، مؤكداً على القيام بعملية مراجعة كل ثلاث سنوات. وقد وافق بورديللون على ذلك أيضاً.

من هنا نجد أن النقطة الرئيسية فى ذلك الوقت، كانت تتمثل فى أن ريتشاردز فى شهر ديسمبر من العام ١٩٤٤، قام بالمبادأة من تلقاء نفسه، دونما ضغط من الوزير الذى كان مشغولاً بالحرب، ولم يكن هناك توجيه محدد من قبل مسئولى الحكومة البريطانية Whitehall، قام ريتشاردز بذلك لأنه تَعَرَّف السيطرة غير العادلة من جانب ليجوس هى وشئونها، على أعمال المجلس التشريعى القديم وعلى عضوية هذا المجلس، كما وقف الرجل أيضًا على عشوائية مصالح مقاطعات الشمال وعدم منطقيتها، التى لا يحميها سوى الحاكم وكبير المفوضين. لم يكن أبو بكر إمام وحده الذى رأى فى المقترحات ردوداً على جميع الشكوك، ونظراً لأن آراء هذا الرجل راقت فى أواخر العام ١٩٤٥ لأبى بكر تافاوا باليوا، وإلى عدد كبير من "أعضاء الجيل الأصغر المتعلمين" فإن ذلك يحتم تلخيص هذه الآراء، نظراً لأن هذه الآراء استغرقت ما لا يقل عن ثلاثين عاماً قبل أن تتوقف عن عكس فكر الأغلبية المحافظة فى الإمارات الإسلامية.

كان ما يريده أبو بكر إمام على النحو التالى. كيف يمكن، فى ضوء تقسيم المجتمع الشمالى إلى ستين منطقة من مناطق الحكم المحلى، تعى كل واحدة منها خلافاتها وتدركها تماماً، كيف يمكن فى ضوء ذلك، وفى ضوء أن كل منطقة من المناطق يعد ثلث سكانها أو أكثر من الثلث من غير المسلمين، أن يكون الأربعة عشر عضواً الذين اقترحهم الحاكم لوجارد ممثلين حقيقيين لكل هذا العدد الكبير من السكان؟ سيكون لكنو Kano صوت بصورة مؤكدة، لكن هل سيكون لداس Dass أو تنجال واجا Tangale waja صوت؟ الناس لا يعترضون على نظام الحكم القائم عن طريق السلطات المحلية (الحكم المحلى) لكن الناس ينتقدون البوابات والمداخل التى تركها ذلك النظام مفتوحة، الأمر الذى قد يؤدى إلى دخول القمع والحماقة من خلال تلك البوابات والمداخل. فى زمن ما قبل الاستعمار، كان الحل الإسلامى يقضى بالإطاحة بالطاغية وخلعه. لم تكن الحكومة البريطانية لتطبق أو تتحمل الثورة، لكنها عن طريق استخدام السلطة فى عزل الرؤساء Chiefs، تكون قد مكنت الحاكم من تولى زعامة التمرد

الصحيح **(كان الحاكم فى هذا الصدد يستعمل مفهومًا إسلاميًا)**. كان من حق الحاكم الدفاع عن مصالح الشعب، لكن أليس من الخطأ أن يقوم الحاكم بواجب هذا الشعب نيابة عنه؟ هذا يعنى أن الأمراء ورعاياهم يتعين عليهم التوحد حتى يمكنهم القضاء على الفساد ومحاباة الأقارب، إذا ما تحقق ذلك فإن الأمراء هم ومسئوليهم سوف يتعاونون بلا قيد أو شرط. كان الناس ينظرون إلى الأمراء عندئذ باعتبارهم ممثليهم، خارج حدودهم الأقليمية وفى المحادثات التى تجرى مع السلطات الحاكمة، ولو قدر للناس عندئذ أن يطلب منهم اختيار الناطقين بلسانهم، فإنهم بالقطع كانوا سيختارون حكامهم الطبيعيين الذين درجوا على احترامهم. لكن إذا لم تتهيأ الفرصة "لأعضاء المجتمع المتعلمين من الجيل الأصغر، كى يعبروا عن أفكارهم" **(هذه العبارة أصبحت، لسوء الحظ، مصدراً دائمًا من مصادر القلق والبلبلة)** وبالتالى يشاركون فى الحكم، فإن النتيجة التى ستترتب على ذلك هى الأحزاب السياسية والزُّمَر **(كان هناك فارق طفيف بين الاثنين فى العام ١٩٤٥)**، التى يغلب عليها معارضة السياسات الحكومية القائمة كلها من حيث المبدأ، وذلك بغض النظر عن المزايا، وأن تكون فى موقف العداء المتبادل فى حال عقد الصفقات. يزاد على ذلك أن القيود المفروضة على إرسال الرسائل من قبل المسئولين إلى الصحافة شجعت من ناحية على السفاهة والبذاءة الجاهلة أو إن شئت فقل، انعدام المسئولية، كما قمعت من الشكاوى المشروعة إلى أن زاد القمع عن حده وانتشر على نطاق واسع مما أدى إلى إحساس كتلة كبيرة من البشر بأنها يتحتم عليها الإعراب عن احتجاجهم والنجاح فى ذلك، الأمر الذى يجعل تلك الكتلة البشرية تنجح فى إزاحة المخطئ دون أن تخاطر بالثأر أو الانتقام الفردى. كانت تلك هى فلسفة أبى بكر إمام بعد انتهاء الحرب.

كان واضحًا من هذا كله أن الديمقراطية البرلمانية لم يكن المفكرون الشماليون ينظرون إليها باعتبارها الرد على ما يجرى. كان الوطنيون الجنوبيون أقل حماسًا للمسألة التشريعية أو بالأحرى المجلس التشريعى الذى سيجرى اختياره بطريقة غير

مباشرة عن طريق الأطر المتعددة للمجمعات الانتخابية التى تقوم أصلاً على التعيينات من القاع فى الوحدات المحلية، زعماء هذه المجمعات الانتخابية يتعين عليهم المشاركة فى السلطة السياسية مع الموظفين الحكوميين التابعين للحكام التاريخيين. وهنا تقدم المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، الذى هو اتحاد خليط من التجمعات الثقافية والتجمعات الأخرى، والذى أسسه الدكتور أزكوى فى شهر أغسطس من العام ١٩٤٤، وكان سكرتيراً له، فى حين كان البطل هربرت Herbert ماكولى Macaulay البالغ من العمر ثمانين عامًا، يشغل منصب الرئيس فى هذا المجلس، تقدم ذلك المجلس لشغل الفراغ الناجم عن اختفاء حركة الشباب النيجيرى وراح يتولى قيادة الهجوم. وجرى فرض آراء المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى بالقوة على السلطات اللندنية، وحمل الإعلان لأول مرة لكثير من الزعماء البريطانيين ما مفاده أن التغييرات التى تحدث فى الإدارة النيجيرية إنما يجرى تفكّرها بصورة مستمرة. كان المسئولون البريطانيون مشغولين أيضًا بالآمال الكبيرة التى برزت مع إنشاء الأمم المتحدة. وباستثناء كل من الهند وفلسطين (التى كان التهديد بإنشاء دولة يهودية فيها يثير الكثير من الحفائظ فى كل من مصر، والعراق، وسوريا، ولبنان الأمر الذى كان ينذر بحتمية الحرب)، كانت المستعمرات بمثابة أماكن تتمثل مشكلات بناها الأساسية فى تعرية التربة، وسوء التغذية، وعدم كفاية موارد المياه للأعداد المتزايدة من السكان، والمواصلات، واستئجار الأراضى وزراعتها - وقد أسفرت التجارب التى أجريت على مادة أل د.د.ت DDT، تحت الإشراف والسيطرة العلميين، عن نهاية واعدة للمشكلات الصحية التى ينقلها البعوض وذباب التس تسى Tsetse. والمؤكد أن هذه الموضوعات كانت تتفوق وتَجُبُّ برامج التدريب الخاصة بالقانون الدستورى السائد والسياسة السائدة فى ذلك الوقت، وكان الأكاديميون فى كل من جامعة أكسفورد، وكمبردج، ولندن هم الذين ابتكروا تلك البرامج تحت إشراف وزراء العمل، لكى يجرى تدريسها لطلاب فيرس Furse ساعدت التغطية الصحفية لمسألة تأبين الذكرى السبعين لوفاة الدكتور ألبرت Albert شويتزر Schweitzer، التى أقيمت فى مستشفاه فى الجابون، على دعم الآراء البريطانية عن

غرب إفريقيا باعتباره مكانًا يصعب على الرواد العيش فيه، أن لم يكن "لا يزال بمثابة مقبرة الرجل الأبيض". في الوقت الذى عرف فيه المعلم أبو بكر أخبار الإضراب العام الذى استمر سبعة وثلاثين عامًا في ليجوس، في الوقت الذى عرف فيه المعلم أبو بكر أيضًا أخبار الحظر على الصحيفتين: بايلوت Pilot وكوميت Comet (اللتان سرعان ما حلَّت محلهما جريدة نيجيريان Nigerian ديفندر Defender "المدافع النيجيرى"). وعندما علم أيضًا بالحكم بالحبس مدة تسعة أشهر بسبب التشهير والقذف فى حق بورديللون Bourdillon من جانب شاب صغير يدعى أنتونى Anthony إينها هارو Enaharo، فإن الرجل لم يقرأ الكثير عن هذه الأحداث فى صحفه البريطانية اليومية. وعلى الرغم من ذلك، وعندما أهابت الاتحادات السبعة عشر بأعضائها البالغ عددهم حوالى ٣٠٠٠٠ عضو، الإضراب عن العمل، وبخاصة عمال الخدمات العامة فى السكك الحديدية وفى مكاتب التلغراف التابعة لليجوس Lagos، وعندما ساندت صحيفتا الدكتور آزكوى هؤلاء العمال، أعرب أبو بكر تافاوا باليوا عن رفضه التام لهذا العمل وعدم موافقته عليه. وهنا لاحظ أبو بكر تافاوا باليوا، ولأول مرة، اسم الشاب ميخائيل Michael إيمودو Imoudu، منظم الإضراب، وهو أصلاً من سلالة اليوروبا. هذا العمل الراديكالى الذى لم يفرق أخلاقيًا بين الإضرابات الصناعية ضد صاحب العمل فى القطاع الخاص، وبين التخريب السياسى ضد حكومة مسئولة عن رفاه قطاعات المجتمع كلها، بل وتوفير المرافق العامة كلها، أثار احتقار أبى بكر تافاوا باليوا وازدراءه. ترتب على ذلك، أن الرجل لم يبدأ اهتمامه بوفد المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، الذى كان يتجول فى البلاد، لكنه كان يحظى باهتمام طفيف جدًا من جماهيره البريطانية التى لم تفهم الأمور فهمًا جيدًا. سوء الفهم هذا، كان متبادلاً فى بعض الأحيان، وذلك مثلما حدث عندما راح المبشرون المتقاعدون الذين لم يعرفوا سوى المحطات النهرية أو بالأحرى المحطات الغابية البعيدة، يتبادلون الاعتراضات مع أعضاء الوفد الذين لم يعرفوا سوى الحياة فى ليجوس.

فى مطلع فصل الشتاء سافر أبو بكر إلى مدرسة وسكس Wessex جاردنز Gar-dens للتدرب على التدريس، كما سافر أيضًا إلى واتفورد Watford للاطلاع على أحدث "وسائل الإيضاح" فى واحدة من المدارس الخاصة بالتلاميذ الصغار، كما سافر مع عبد الرحمن للتدريس فى مدرسة "بترسى" Battersea المركزية. وطوال العام الأول من أعوام السلام كان الرجل يقوم بين الحين والآخر بزيارة بكهام Peckham، جنوبى نهر التيمز Thames، لاكتساب الخبرة العملية فى مدرسة البنات الرئيسية، التى بها فصول مختلطة، وفى فصل الصيف ذهب الاثنان إلى مدرسة بكهام (المركزية) للبنين. كان أبو بكر والتلاميذ يشعرون بالخجل تجاه بعضهما، لكن الرجل تغلب على خجله وتمتع بالحصص المقررة له، ولم يتظاهر مطلقًا بأن يحل محل مدرس الفصل فى مادتى التاريخ والجغرافيا. كانت خطط الرجل وأساليبه مدروسة دراسة دقيقة، وكان يقوم بتنفيذ هذه الخطط تنفيذًا دقيقًا، لكنه تطور شيئًا فشيئًا من أسلوب "المحاضر" القصير الذى جاء به من باوتشى. لم يحدث أن أحس أبو بكر تافاوا باليوا بالرضا عن الجو الليبرالى فى غرفة الدراسة الإنجليزية، ولم يكن الرجل مقتنعًا تمامًا بالتعليم الذى "يتركز على الطفل" بصورة أساسية. كان الأطفال يرون أن الرجل الأسود الرشيق والمحترم، والذى يرتدى طربوشًا وقفطانًا والذى يسأل الأسئلة ويكتب على السَّبُّورة، إنما هو زائر وفد عليهم من "ألف ليلة وليلة". كان المدرسون الآخرون أكثر تحضرًا وعونًا للرجل، لكنهم كانوا أيضًا يحسون أن الرجل يلفت أنظارهم ويسترعى انتباههم، كانت هناك قلة قليلة من المدرسين الشبان الذين اكتسبوا خبرة زمن الحرب، قد جرى تسريحهم من الخدمة فى القوات المسلحة، وتعين عليهم العودة إلى الوطن، فى ظل مبدأ الأولوية (ب)، الخاصة بأولئك الذين يتعين عودتهم إلى الأعمال المهمة. هذه التبصرات فى البريطانيين العاديين، وبخاصة البنات والبنين منهم، الذين يحيون حيواتهم "العملية" دون تفكير أو وعى بمسئولياتهم الوطنية فى الخارج، عندما راح أبو بكر يكشف لهم عن ملامح ثقافته التى بنى عليها القسم الأكبر من معارفه، ساعدت على تقوية قناعته أن العلاقات السعيدة هى تلك التى تبنى فى بدايتها على الصراحة

المتبادلة التى تقوم على تحديد نقاط الاتفاق – الأمر الذى يقلل من حدة نقاط الاختلاف.

ولما كان أبو بكر تافاوا باليوا مهتمًا بتحسين لغته الإنجليزية، فقد طلب الرجل إلى معلمه الدكتور مارجريت Margaretريد Readتخصيص بعض الوقت لجلسات الحوار والمحادثة. وهنا طلب الدكتور ماجريت من السيدة/ بنلوب Penelope وليامز Williams، زوجة ديفيد David (داود) الطالب البريطاني، لتصحبه خلسة إلى حفل تناول الشاى، وهذا يعد اختبارًا غير مباشر لبيئة غير بيئة الفصل الدراسى. وهنا قال آل وليامز للسيدة بنلوب أن الرجل لم يكن بحاجة إلى ذلك النوع من التعليم الخاص. هناك أيضًا ذكرى أخرى من ذكريات الرجل الرمزية فى هذا الصدد، وهى أن هذا المدرس أو المعلم الجامعى احتفظ بهذه الذكرى التى كان أبو بكر يحكيها لنفسه فى كثير من الأحيان. هذه التجربة اكتسبها أبو بكر عندما كان يسير بجوار سور المدرسة، وراح يرد على أسئلة واحدة من البنات، وهى تسأله وجهًا لوجه: **"لماذا ترتدى قبعة طريفة؟" – هذه هى عادتى، ولماذا لا تلبسين أنت قبعة؟" – "آه! لماذا بشرتك سوداء على هذا النحو؟" – "ولماذا بشرتك بيضاء؟ الله الذى خلقها، وهذا هو حال إخوانى الموظفين كلهم. لقد جعلكم الله أناسًا مختلفين. إنه الله (سبحانه وتعالى). هنا غضبت الطفلة وهربت وهى تنظر إليه فى حيرة.**

فى مطلع العام ١٩٤٦ استقال الجنرال ديجول زعيم فرنسا الحرة فى زمن الحرب، وألقى السيد/ تشرشل زعيم بريطانيا المطرود فى زمن الحرب خطابًا مثيرًا فى فولطن Fulton فى أمريكا، وسك فى ذلك الخطاب مصطلح "الستار الحديدى". وعقب ذلك بفترة قصيرة جرى الإعلان عن دستور جديد لساحل الذهب، ونص ذلك الدستور على أن تكون الأغلبية غير الرسمية إفريقية فى المجلس التشريعى، وقد أغضب ذلك الوطنيين النيجيريين، لكنه لم يغضب الشماليين المتعلمين، الذين كانوا ينظرون إلى ساحل الذهب على أنه أصغر من ذلك بكثير، وأنه بلد زاهر فيه سكان ساحليون

متعلمون ومنطقة داخلة متخلفة لا تذكر. وهذا هو واحد من أبرز رؤساء الشمال، والذى يدعى عطا atta الأجبيرى Igbirra، الذى دخل فى الإسلام، يرسل أبناءه إلى أشيموتا لتلقى العلم فى الكلية التى يحمل شعارها مفاتيح آله البيان (البيانو) السوداء منها والبيضاء. يزاد على ذلك أن قلة قليلة من كتبة ساحل الذهب وقلة قليلة أيضًا من رجال أعماله مشهورون فى الشمال ويحظون بثقة الناس. لم ينظر الناس إلى التقدم الذى فى أكرا Accra على أنه ذو صلة بالشمال النيجيرى. والذى لا شك فيه أن هذا التغيير لعب دورًا صغيرًا فى البيان المهم الذى قدمه اللورد سوينتون Swinton لمجلس اللوردات فى ذلك الوقت، وأنه فى الوقت الذى كان هناك سبب طيب لتجميع إدارتى سيراليون Sier-raleon وجامبيا، فإن اللورد سوينتون كان يرى أن الأمر ليس له ما يبرره فى ذلك الوقت، هذا يعنى أن مسألة توحيد نيجيريا وساحل الذهب لم يكن لها مبرر فى ذلك الوقت. يزاد على ذلك أن تعيين الحاج عثمان Usman ناجوجو Nagogo، أمير كاتسنا، وأكثر حكام الشمال ترحالاً وتأوربًا Westernised، فى المجلس التشريعى النيجيرى، ثم إتباع ذلك التعيين بتعيينه فى المجلس التنفيذى (على الرغم من استدعائه للجنوب فى الاجتماعات المهمة)، الذى انضم فيه إلى كبار المسئولين وإلى اثنين من كبار رجالات ليجوس، وبذلك يصبح من حق الرجل إسداء النصح والمشورة فيما يتعلق بالتغييرات السياسية المقترحة، وحق العفو عن أحكام الإعدام، والحق فى تأديب كبار الموظفين المدنيين.

حضر شاب من ساحل الذهب، يدعى نيكروما مؤتمرًا فابيًا بريطانيًا عُقد فى "كلاكتون أون – سى" Clacton - on - sea، وأدى القانون الذى صدر باسم فرنسى إفريقى هو "هوفوت ـ بواجنى" Houphouet - Boigny إلى إنهاء السُّخْرة فى كل من غرب إفريقيا وإفريقيا الاستوائية الفرنسيين، وراح المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى يجوب نيجيريا بدءًا من شهر أبريل إلى شهر ديسمبر لكى يذيع صيته فى الوطن. توفى المحارب هربرت Heirbert ماكولى Macaulay فى كنو عن عمر يناهز

الثانية والثمانين عامًا أثناء قيامه بجولة مع زعماء المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، (الذى أصبح رئيسًا وطنيًا له)، الأمر الذى أحزن كل من يعرفونه. فى الوقت نفسه، لابد أن يكون أبو بكر قد سمع أن إيرك Eric هوسى Hussey، مدير التعليم المتقاعد قد تحدث إلى الجمعية الإمبراطورية الملكية، واقترح قيام ضباط التعليم الحكوميين، مثل فيشر، بلعب دور نشط فى الشئون الإدارية العامة لأقاليمهم أو أحيائهم، وألا يقتصر دورهم على المهام التعليمية وحدها. وهو إذا كان لم يفعل ذلك، فقد فعله بعض التعليميين الذين كانوا معه. وهنا بدأت جريدة وست West أفريكان Af- rican بايلوت Pilot تسبب لنفسها المتاعب من جديد، وسحب ريتشاردز امتياز هذه الصحيفة ومنعها من حضور المكتب الصحفى للمجلس التشريعى، جراء ذلك الذى اعتبره انتهاكًا صارخًا لما قاله هو بصفته حاكمًا، واعتبره محاولة مزعومة للاعتداء على حياة المدير الإدارى للجريدة ("أنا على يقين من أنه لم يكن لديه ما يخشاه أو يخاف منه سوى الظلال السوداء التى تدور فى مخيلته" : وقد بقى ريتشاردز إلى نهاية حياته مقتنعًا أن تلك المحاولة المفتعلة، لم تكن الأخيرة، كانت من اختراع الدكتور آزكوى نفسه).

أدى قانون الرفاه والتنمية الاستعمارية، الناتج عن تحالف زمن الحرب، إلى مضاعفة المعونة المالية فى العام ١٩٤٠ إلى حوالى ١٢٠ مليون جنيه إنجليزى خصصت لنيجيريا، التى دبرت هى أيضًا مبلغًا يقدر بحوالى ٣٢ مليون جنيه إنجليزى أخرى من أجل خطتها العشرية (ويمكن الحكم على قيمة هذه الأرقام الآن بمقارنتها بمدخل مرتبات الخدمة المدنية الذى يقدر بحوالى ١٢٤ جنيهًا إنجليزيًا فى العام، فى سن السابعة عشر، ليرتفع بعد ذلك إلى ١٥٢ جنيهًا إنجليزيًا فى سن الثامنة عشر). وأصبح العمل النشط من قبل الدولة بمثابة العقيدة الجديدة عند صنّاع السياسة الأكاديميين، الذين لم يعودوا يهتمون بالمشروعات الخاصة أو يشجعونها. وهنا نجد المجلس الخاص يقر ويعترف بتفكك روابط كومنولث الأمم البريطانية المستقلة، وبخاصة أن

المجلس الخاص اكتشف القانون الكندى الذى يقضى بعدم مواصلة الالتجاء إلى اللجنة القضائية هو قانون صحيح وسارى المفعول. وخطا جنوب إفريقيا خطوة محزنة مختلفة مبتعداً بذلك عن وحدة الكمنولث عندما أجاز قانون امتلاك الأرض الآسيوية وقانون التمثيل الهندى.

قبل أن يُنْهى المعلم أبو بكر دراساته فى لندن، وجد أنه قد طُلب إليه حضور اجتماع يعقده الطلبة الأفارقة الراديكاليون، والذى حضره أحد الجنود البريطانيين السابقين الذى لاحظ هذا الاهتمام الشمالى الواضح، لكنه رفض التورط فى الحوارات الساخنة. بعد ذلك بسنوات كثيرة، وبعد أن أصبح ذلك البريطانى أستاذاً لتاريخ الكمنولث فى جامعة أدنبره Edinburgh، أعاد الرجل هذه الذكرى على أحد الحاضرين – " ألم تعرف من كان ذلك الشخص؟" تساءل السيد/ س S أو O بايوباكو Biobaku، "ذلك على رئيس وزرائنا!".

كان آخر ما عمله أبو بكر هو كتابة أُطروحة من ١٢٠٠٠ كلمة تقدم بها إلى معهد التربية، واختار لتلك الأطروحة عنواناً هو، **"تطور الأفكار الحديثة الخاصة بحياة المجتمع والتأديب مع الإشارة بصفة خاصة إلى العلاقات التى بين هيئة التدريس والتلاميذ"**. مخطوطة هذه الأطروحة واضحة وضوحاً جلياً، ومقروءة كما لو كانت مطبوعة تماماً. وقد أوردت من تلك الأطروحة ثلاثة مقتطفات فى التمهيد وفى الفصل الأول والفصل الخامس من هذا الكتاب، وهذه الأطروحة هى وتلك المقتطفات تشهد أيضاً على شخصية الرجل فى تلك الفترة من حياته العملية، وبخاصة فى الفصل التالى لهذا الفصل. أوردت أيضاً اقتباسين من اقتباسات الاستحسان الصادرة عن كُتَّاب أكاديميين، كما أوردت أيضاً مساندة الرجل الكاملة لتعليم الإناث، ومن يرد الاستزادة عليه بقراءة تلك المقطوعات التى أوردها الطالب من باب معرفته لذلك الذى يود أساتذته أن يروه. القسم الأكبر من تلك الأطروحة يشتمل على أفكار الرجل الأمينة، ويُعَوّض عن طريق الإقناع التام ذلك الذى يسميه الكثيرون، ممن لا يعرفون بيئة الرجل السابقة، بأنه رد فعل إسلامى مُشَبّع بشىء من نظرية العم توم UncleTom-ism .

لم تكن مادة هذه الأطروحة تناسب درجة الدكتوراه بمعايير العام ١٩٤٦، لكنها كانت مبتكرة على نحو ولَّد انطباعًا لدى كل من الدكتور مارجريت Margaret ريد Read والسادة جون لويس وهاريسون وهما الأستاذان المسئولان عن أبى بكر فى معهد التربية. ومع ذلك، ظن هذان الأستاذان اثنين آخرين من جماعة أبى بكر تافاوا باليوا كانت أعينهما مفتوحة بفعل عالم ما بعد الحرب. وهذا لم يؤد إلى كبت التقرير المرحلى التى ورد فيه ما يلى:

"استطاع المعلم أبو بكر تافاوا توجيه دراساته لتحقيق الأهداف التى حددها تحديدًا دقيقًا فى بداية الدورة الدراسية، وبالتحديد فى تقييمه للطرق المستخدمة فى تدريس التاريخ واللغة الإنجليزية فى بريطانيا، وفى عملية تنظيم المدارس وإدارتها فى هذا البلد. وقد كشف الطالب عن استعداد طيب فى التوصل إلى اقتراحات عملية.... لقد حدد أبو بكر مفاهيم العناصر شديدة المحافظة من بنى شعبه، حدد هذه العناصر بصورة واضحة وحيوية ساعدت الكثيرين على معرفة أن النظرة المحافظة لا يتحتم أن تكون رجعية. وفى الوقت نفسه اعترف أبو بكر بالحاجة إلى إحداث نوع من التكامل بين الأساليب الفكرية الجديدة والقديمة... وبذلك يكون الطالب بطريقته هذه وأسلوبه هذا قد ترك لدى أولئك الذين كان على اتصال بهم، انطباعًا ممتازًا عن نوعية الثقافة الهوسوية".

فى شهر يوليو من العام ١٩٤٦ عاد كل من المعلم أبى بكر تافاوا باليوا، والمعلم بللو Bello إلى نيجيريا عن طريق سفينة البريد التى استقلاَّها من منطقة كلايد Clyde فى جلاسجو Glasgow، نظرًا لأن الرجل كان مشتاقًا لصوم رمضان فى بلده (بقى الطالبان الآخران، اللذان كانا "أكثر تحديثًا من الناحية الذهنية" فى ملابسهما الغربية،

للتفرج والفسحه طوال ثلاثة أشهر). لم يكن هذان الرجلان قد فقدا حياءهما، إذ كانا يتناولان طعامهما فى كبينتهما وعلى الرغم من التشجيع الذى لقياه من أحد المسافرين ومن ضابط التعليم، فإن جون John دجبى Digby كلارك، لم يكن على علاقة وثيقة بهذين الرجلين. وقد جرى استبقاء هذين الرجلين فى كادونا نظراً لأن المفوض الرئيسى، السير جون John فى ذلك الوقت كان يود التحدث إليهما. التقى أبو بكر فى موطنه حارسه وأخاه بالتبنى المدعو آدم، الذى كان يتوق فى ذلك الوقت إلى الحصول على إذن بترك المدرسة. وفور وصول أبى بكر إلى باوتشى التقى عائلته، وراح الرجل يكتب رسائل شكر لأساتذته، وبخاصة الدكتور مارجريت ريد والسيد/ لويس Lewis. كان أبو بكر من النوع المتأدب، المعروف بحسن الخلق، وعليه هنأ أمير باوتشى على ميدالية الملك التى منحها للرؤساء Chiefs.

وطبقًا لما جرى عليه العرف بين أمم وشعوب ما بعد الحرب، لم يعد للمهارات الفصلية الدراسية التى كان يجرى دعمها وتقويتها على نطاق واسع، تلك الأهمية التى كانت لها من قبل، وبخاصة فيما يتعلق باستعمال الطباشير والطلاَّسة لفائدة التلاميذ الصغار. لكن أبا بكر يقول إنه **"عاد إلى نيجيريا بأعين جديدة، لأنه رأى أناسًا يعيشون بلا خوف، أناسًا يطيعون القانون باعتباره جزءًا من طبيعتهم، أناسًا يعرفون الحرية الفردية".**

الفصل التاسع

الوطن والتقدم : تقرير مرحلى

الشخصية علامة يرسمها الحجر، لا يستطيع أحد محوها(*)

فى الوقت نفسه كان المعلم أبو بكر إمام قد هيأ أو شرع فى سلسلة أخرى من الفرص التى كان لها تأثير كبير على مستقبل أبى بكر تافاوا باليوا. بعد عودة الرجل من زيارة الصحفيين إلى بريطانيا فى زمن الحرب كتب رسالة مطولة إلى لوجارد -Lu gard. هذه الرسالة تعد استجداءً لأفكار رجل شمالى مستقل عن النتائج المترتبة على "الحكم غير المباشر، نظراً لأن هذه الرسالة جرى تفسيرها تفسيرات مختلفة من قبل كثيرين ممن جاءوا بعد لوجارد وبخاصة طوال سنوات الركود. حدث ذلك أولاً فى فترة هبوط الأسعار، ثم بعد ذلك فى فترة الإحباط الذى فرضته الحرب التى كانت لا تزال مستعرة. تحولت تلك الرسالة إلى رسالة مفتوحة، وأصبح تأثيرها على مقر الحكومة فى ليجوس مثاراً للجدل والنقاش، فى بداية الأمر حسبت السلطة فى كادونا تلك الرسالة على أنها نوع من التجرؤ والوقاحة، أو هكذا قالت. وعلى الرغم من ذلك سلم لوجارد هذه الرسالة إلى السير آرثر ريتشاردز Richards عندما التقاه. واقتبس المفوض الرئيسى، السير جون John باترسون Patterson عن هذه الرسالة، تلك الملاحظة التى أوردها أبو بكر إمام عن الزيارة التى قام بها باترسون إلى لوجارد فى شهر نوفمبر

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا. (المترجم)

من العام ١٩٤٣ وأعاد الرجل تفكيره في الرسالة مرة أخرى، ثم قام بعد ذلك بإرسال ذلك الجزء من الرسالة إلى الممثلين المقيمين كلهم وفي سرية تامة، وأهاب بهم جميعًا العمل على منع انتشار شخصية أبي بكر إمام أو أفكاره في الإمارات: "هذه العبارات ليس فيها شيء شديد التشدد: وإنما هي عبارة عن استكشافات شاب يحاول أن يجد لنفسه طريقة وسط متاهة من الانفعالات المتصارعة والمرتبكة، وأن هذا الشاب يبحث عن التعلُّم". قدم باترسون هذا التفسير في: شهر يوليو من العام ١٩٤٦ ورجى الرجل ممثليه المقيمين على التأكيد على أهمية الاتصالات الشخصية الإنسانية بين الإدارة و"العناصر الشابة المتعلمة".

على الفور، جرى الأخذ بواحدة من أفكار أبي بكر إمام المبدئية، عندما تأمل أبو بكر إمام تعيينات الإدارة المحلية في المجمعات الانتخابية وفي المجلس التشريعي، حدَّد الرجل نظار المدارس، الذين يشكلون قلة قليـة، على أنهم هم الأعضاء الصرحاء أصحاب الذكاء الحكيم في الطبقة المتعلمة، وأنهم هم القادرون على إحداث نوع من التوازن مع أولئك الذين يتمتعون بقدر كبير من الفكر أكثر من المسئولية، كان أبو بكر إمام أيضًا من أولئك الذين يرون عدم إعطاء السلطات المحلية شيئًا على بياض. وتأسيسًا على ذلك، أصبح الناس ينظرون إلى نظار المدارس المتوسطة في الشمال من حيث الوظيفة بغض النظر عن أصولهم الأسرية أو أعمارهم، من منطلق أنهم جراثيم التفكير الشبابي الحديث التي ينبغي حقنها في الناس، شأنها شأن غدد القردة في مجرى الدم الفاسد في المجالس المحلية. قبل أمير باوتشي هذه الفكرة، بعد شيء من التحفظ، وأمام نصح ممثله المقيم بتعيين أبي بكر ذائع الصيت ضمن مجلسه الاستشاري. على أي حال، كانت هناك درجة شاغرة: كان مسئول باوتشي، أكبر أعضاء المجلس الاستشاري قد توفي في شهر أغسطس من العام ١٩٤٦ .

لم يحدث جَيَشَان أو فوران مباشر. كان المعلم أبو بكر يقر أن المستشارين الأرستقراطيين، الذين كانوا أميين في الإنجليزية حتى وإن كان البعض منهم، إضافة

إلى قاضى القضاة، متفقهين فى الإسلام ويجيدون العربية إلى حد ما، لن يرحبوا كلهم بالقادم الجديد. لم يكن فى ذلك إضعاف للعرف الذى اتبعه يعقوب الثالث عندما أرسل إلى مجلسه ليعلن له ذلك الذى يود هذا الثرى القيام به ويحصل على موافقة المجلس العاجلة، وفى بعض الأحيان لم تكن تجرى استشارة أفراد المجلس الاستشارى كلهم. ولم يكن أولئك الأعضاء (كما هو الحال فى مجلس الوزراء البريطانى قبل الحرب العالمية الأولى) يحتفظون بسجل خارجى غير ذاكرتهم المشتتة. كان اجتماع المجلس الأسبوعى مع الممثل المقيم وضابط القسم قد بدأت تتضح معالمه بعض الشىء. عند هذا الحد قام الحاضرون بمناقشة مصالح الحكومة بل وموضوعات أكبر من ذلك، لكن تلك المناقشة جرت فى إطار فرض القانون وابتغاء التغيير، بدلاً من التقاليد والموروثات، وكان الممثل المقيم يغادر المجلس بعد مناقشة البنود الرئيسية وتسويتها، لكن الممثل المقيم، أو ضابط الحى يحاول وهو جالس على كرسيه فى المعسكر، إقناع المستشارين الجالسين على الأرض على الحصير، بالمشاركة الفعلية فى الجدل والنقاش الدائر، بدلاً من التلصص من خلال رموش أعينهم أملاً فى استكناه العلامات التى تبدو على وجه أميرهم وهو جالس على عرشه الخشبى. كان المعلم أبو بكر قد عرف بصورة متدرجة طريقة الرد على مثل هذه التصرفات، وكان الرجل يشجع الاستنتاجات الخلاقة المبدعة دون أن يُجْبر الأمير أو يضطره إلى المقاومة باعتبارها رد فعل، لكن الرجل بقى لسنوات عدة هادئًا وحذرًا اللهم باستثناء الخطر الذى يهدد التعليم. كان الممثل المقيم هو وضابط الحى، ممنونين لأن الرجل لم يكن من الأنانيين الباحثين عن المصالح الذاتية، وتغليب مصالح أسرته.

لم يكن أبو بكر راديكاليًا فى ذلك الوقت، بل إن البعض كانوا ينظرون إليه باعتباره رجعيًا. قام الممثل المقيم باستدعاء جى J دى D كلارك Clark من مركز تدريب المدرسين اللهجيين فى توره Toro الذى جرى تسكينه وظيفيًا فيه بعد عودته من إجازته، وعرض عليه رسالة وصلته من أبى بكر يعارض فيها التحاق البنات بالمدرسة

المتوسطة، من منطلق أن التعليم ما بعد التعليم الابتدائى لم يكن أمرًا ضروريًا للمرأة المسلمة. وعلق ولكنسون Wilkinson على ذلك بقوله: إن الحكومة، يبدو أنها ضيعت الأموال التى صرفتها عليه عندما أوفدته إلى لندن، وبخاصة إذا كان قد تجرأ وكتب هذا الذى كتبه بعد عودته مباشرة. أدى تعاطف جى دى كلارك مع الوثنيين إلى حديث طويل مع المعلم أبى بكر، الذى أصر على التزام العدل فى تعليم نصفى السكان، ونجح أبو بكر تافاوا باليوا فى إقناع جى.دى.كلارك بالموافقة على فصل مستقل للبنات وذلك من باب التجربة فقط. كان جى.دى.كلارك مقتنعًا بحتمية فشل هذه الفكرة، لأنه من واقع خبرته يعرف أن المدرسين المسلمين سوف يحبطون تمامًا فكرة عزل البنات، فى حين أن الفصول المختلطة سوف تحبط مغالاتهم الوطنية. وتُرك الأمر للزمن. وبقى المعلم أبو بكر باعتباره العضو العامى الوحيد فى المجلس، محتفظًا بحساسيته بوضعه الاجتماعى باعتباره متطفلاً Chigegge. وافق الرجل أيضًا على رفع سن الزواج من الإناث إلى سبعة عشر عامًا، لكنه كان يعرف أن هذا التحديد سوف يجرى تجاهله عندما يعرف الأمير أو المجلس أن طالب الزواج ذو حيثية أو رجل مهم. وقال إن زواج الأطفال ممنوع فى الإسلام منذ زمن النبى (ص)، وأصبحت هذه المسألة أكبر العقبات التى تواجه العاملين فى تعليم المرأة.

فى أواخر العام ١٩٤٦ خلف آرثر Arther كريش Creech جونز Jones هول Hall فى منصب وزير المستعمرات، وقد أشار الرجل بصورة واضحة تمامًا فى واحدة من المطبوعات الفابية Fabian عن سياسة حزب العمال الاستعمارية إلى "بطء العمل فى بناء الأمة". كان الناس خارج نطاق الحزب معجبين بالرجل تمامًا، لكن موظفيه المدنيين لاحظوا أن الرجل كان منعدم الشخصية فى خوض معارك مجلس الوزراء وإحداث التغيير المادى المطلوب. بعد فترة قصيرة من تعيينه تحدث إلى بعض المتدربين الإداريين فى جامعة أكسفورد، وقال: إن استقلال غرب إفريقيا مضى عليه حوالى مائة عام، وقاسمهم الرأى الذى مفاده أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية يجب أن تسبق

الحرية السياسية. كان ريس Rees وليامز، وكيل آرثر كريش البرلماني، قد قال الشيء نفسه أمام دورة مرشحي جامعة أكسفورد وجامعة كمبردج، الموحدة، عندما جرى توحيد هؤلاء المتدربين طلبًا لمصطلح أكاديمي واحد في لندن. في تلك الأثناء أجرى في ليجوس سيدني Sudney فيليبسون، وزير المالية، تحرياً دقيقًا للوضع المالي والآمال المرتقبة للإدارات المحلية، وبقي التقرير الذي أعده الرجل عن تخفيض العوائد من خلال منح مساعدات، ومن خلال المشاركة في ضريبة الرءوس في نطاق قانون تحصيل الضرائب المباشرة، مسألة أساسية، بل وقاعدة أساسية للإجراءات المالية حتى العام ١٩٥٤، بل إن مفعول ذلك التقرير بقي إلى ما بعد ذلك التاريخ بفترة طويلة. وفيما يتعلق بالسياسة، أخذت الحكومة الاستعمارية مستجدات زمن الحرب التي تهدف إلى السيطرة على النشاط الاقتصادي، مأخذ الجد، بل اعتبرتها قاعدة مسلمًا بها، وأنها لابد من استمرارها، وقد أسفر ذلك عن إحساس لم يسبق له مثيل مفاده أن الحكومة الاستعمارية مسئولة بعض الشيء عن الحظر على أحداث تغيير اقتصادي.

على الصعيد الاجتماعي اختفت آخر الإشارات المرئية الدالة على زمن الحرب، مع غلق معسكر إنهاء التعبئة سيئ السمعة في أكيجا Ikeja، في الأرض الرئيسية بالقرب من ليجوس، الذي سجل فيه الجنود المتبرمون زيادة كبيرة في الجرائم الصغيرة، كما سجلوا أيضًا انحدارًا كبيرًا أيضًا في الأخلاق والشرعية المحلية. فقد جرى تسريح آخر الرجال رسميًا كي يعودوا إلى الوطن ومعهم مكافآتهم، وملابسهم الرسمية ليرتدوها في الحياة المدنية بعد أن نزعت عنها رسميًا الشارات والشعارات (لكن هذه الأزياء الرسمية كانت تستبدل في كثير من الأحيان بعنصر من العناصر الخيالية)، كما كانوا يصحبون معهم أيضًا حكايات عن عجائب خيالية شاهدوها. عاد القسم الأكبر من الرجال المسرَّحين إلى الشمال، إلى مواطنهم في نهاية المطاف، عن طريق المعسكرات المرحلية التي على الطرق المؤدية إلى قراهم، حيث كان أقاربهم يصطحبونهم معهم. هربت أعداد من هؤلاء المسرَّحين حيث جرى استيعابهم في

الأعمال مدفوعة الأجر فى البلدان الكبيرة، فى أعمال الإدارة المحلية، وكانوا يعملون سعاة أو خدمًا فى المنازل، أو فى العالم التجارى الجديد الآخذ فى التوسع مرة أخرى، عمل هؤلاء المسرحون فى كل الأعمال التى يمكن أن تخطر على البال، بدءًا من العمل على مضخات الوقود اليدوية، أو محصلين فى الحافلات أو سائقين للسيارات. وخلال فترة قصيرة، أصبح من السهل اكتساب الثروة فى الشمال عن طريق زراعة القطن والفول السودانى، أكثر من الأعمال التى يتولاها المتعلمون، وذلك على الرغم من عدم استيعاب المتعلمين أو الجنود المسرحين لذلك الدرس. ومع ذلك جاء الوقت الذى اتضح فيه أنه إذا كانت الجنيهات التسعة التى كان يباع بها طن الفول السودانى قد حفزت الناس على زيادة الإنتاج فى زمن الحرب، فإن السعر ٣٠جنيهًا إنجليزيًا للطن فى زمن السلم يمكن أن يؤدى أيضًا إلى زيادة الإنتاج.

كانت حياة الحضر تجربة أكثر شيوعًا وذيوعًا فى الجنوب، وكان الحضر ميالين إلى كسب المال كى ينفقوا منه على استهلاك السلع التى من قبيل الأقلام، والورق، والدراجات، وماكينات الخياطة وساعات اليد، والبيرة ومشروبات ستاويت(*) والمشروبات المصنوعة من الشعير المُنقَّع فى الماء، والجرامفونات(**) التى تعمل بالزنبرك، والملابس القطنية المطبوعة. فى الجنوب وجد قسم كبير من الجنود القدامى أنفسهم غير قادرين على التكيف ويحسون بالملل لعدم قدرتهم على تكييف أنفسهم مع الطقوس الريفية والاقتصاديات المعاشية، ولذلك هب هؤلاء الرجال عائدين إلى المدن بحثًا عن الأجور. لكن يجدر بنا عند هذا الحد أن نتذكر، ذلك الذى ألمحنا إليه فى الفصل الخامس، وهو أن الجنود السابقين، لم يتزعموا المطالبة بالتغيير السياسى، على الرغم من الفرصة التى أتيحت لهم لمشاهد منظومات أكثر تقدمًا من منظومتهم فى الخارج، أو بالأحرى

(*) الستاوت : نوع من الجعَّة القوية الداكنة. (المترجم)

(**) الجرامفونات : يقولون لها ماكينات الغناء. (المترجم)

فيما وراء البحار. الواقع أن تلك الحفنة القليلة من قوات الحدود الإفريقية الغربية الذين كانوا فى مصر، وعشرات الآلاف من الجنود الذين كانوا فى الهند وبورما، كل هؤلاء رأوا بالفعل أعراقًا أخرى، وأديانًا وعادات أخرى، ولابد أنهم لاحظوا أيضًا الأمريكان الأحرار السلسين، ولابد أنهم شاهدوا أيضًا الأوروبيين ذوى المراتب المنخفضة، ولابد أنهم وعوا أيضًا النزوع المتقطع إلى القلاقل والاضطرابات المدنية فى المدن الأجنبية الغريبة عليهم، لكنهم على الرغم من ذلك كله، وباستثناء قلة قليلة منهم، أبقوا على طاعتهم لضباطهم، ولم يروا أى شكل من أشكال التحدى الناجح للحكم البريطانى قبل العودة إلى وطنهم. الواقع أنهم عادوا إلى وطنهم وهم يشعرون بسمو عرقهم على العرق الهندى. وقبل أن يصل " المحارب" النيجيرى، على حد التعبير الأمريكى، فى السياسة إلى مرتبة تعلو مستوى قريته أو مجلس الكبار. هذا يعنى أن الدروس التى استقادها هؤلاء الجنود السابقون من زمن الحرب فى كل من الشرق الأدنى وفى آسيا، كان قد استفادها أولئك المتعلمون من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة، الذين بقوا فى البلاد وكانوا يقرأون الأخبار، وقلة قليلة من هؤلاء المتعلمين استطاعوا السفر إلى بريطانيا أو الدراسة فيها أو فى الولايات المتحدة، إما قبل الحرب أو بعدها مباشرة. وسوف نلتقى وزيرًا مستقبليًا كان جنديًا من قبل.

فى شهر أكتوبر أسس المؤتمر الذى انعقد فى باماكو Bamako فى السودان الفرنسى حركة سياسية أسماها التجمع rassemblement الديمقراطى democratique الإفريقى Africain، وفى شهر ديسمبر نشبت الحرب فى الهند الصينية الفرنسية ضد الإدارة التى أعيدت. وقبل حلول أعياد الميلاد أصبحت الكاميرون الواقعة تحت الانتداب البريطانى، الكاميرون الواقعة تحت وصاية المملكة المتحدة، وذلك بناء على اتفاق جرت الموافقة عليه فى نيويورك من كل من الجمعية العامة التابعة لمنظمة الأمم المتحدة التى تشكلت مؤخرًا. فى ذات الوقت قام المفوض الرئيسى، بزيارة مدرسة باوتشى المتوسطة أثناء رحلة الوداع. قام السير جون John بمناقشة "المقالة المهمة جدًا" التى كتبها ناظر

المدرسة على أثر عودته من لندن، مع كل من النقيب أى E جى J (بوب pop) باولر Bowler كبير ضباط التعليم وفى ذلك الوقت، والسيد/ أم M فى V باكهوس Back-house، الممثل المقيم المُناب. واصطحب المفوض الرئيسى معه نسخة من تلك المقالة، وأصدر تعليمات بإرسال نسخة أخرى من هذه المقالة إلى نائب مدير التعليم فى كادونا، ولم يسجل الرجل أية ملاحظات أخرى على الأعمال التى جرت بعد ذلك. اشتهر ماكس Max باكهوس Backhouse بإشرافه على تنفيذ مثلث الطرق الرئيسية الجديدة التى جرى شقها خلال البنايات الطينية فى بلدة باوتشى، كانت تلك الطرق تربط بوابتى ونتى Wunti وران Ran بالقصر هو والمكتب المركزى: إذن لماذا دُفع المبلغ الضخم الذى يقدر بحوالى ٧٥٠٠ على سبيل التعويض للحضر المعنيين، الذين كان يمكن أن يقبلوا هذا الأمر صاغرين لو أنه صدر عن الأمير؟ لم يكن باكهوس صاحب سلوكيات شهيرة: لقد أدت الإساءة الاجتماعية إلى خلاف كبير فى المبادئ، وأدى أيضًا إلى سعى رايت Wright، ضابط الحى، إلى النقل إلى إدارة التعليم (وقد جرت تلبية ذلك الطلب فى أواخر العام التالى بعد نقل دام فترة قصيرة فى جومبى Gombe، وإجازة قصيرة إلى الوطن، وقد تم ذلك النقل على سبيل البدل مع ولر Waller وود Wood، مسئول التعليم السابق ثم أصبح ضابط قسم بعد ذلك.

بدأ العام ١٩٤٧ بتفعيل دستور نيجيريا الجديد، كان يقصد بهذا الدستور، كما سبق أن أوضح فى رسالته، لا إلى فصل نفوذ ليجوس السخيف هى وكبار سكانها، وإنما لإحداث نوع من أنواع التكامل أيضًا بين السلطات المحلية فى سائر أنحاء البلاد والحكومة عن طريق المجمعات الانتخابية والمجالس الإقليمية، وضمان مشاركة أكْبر من الأفارقة فى مناقشة أمورهم. ويبدو أن فكرة فصل العاصمة التشريعية والإدارية والقضائية عن المحور التجارى الاتصالاتى، ونقلها إلى مكان رئيسى آخر لا يدور من حوله جدل ثقافى، ولم تخطر مطلقًا ببال أى أحد من الناس. لكن كثيرًا من المراقبين فى ذلك الوقت أخذوا تلك التغييرات على أنها "حكم ذاتى معدل"، وذلك بالقياس على

الإدارة التقليدية لواحدة من مستعمرات التاج. تحتم أن يكون هناك ستة عشر مسئولاً رسمياً مقابل ثمانية وعشرين من الشخصيات غير الرسمية، وتقرر انتخاب أربعة فقط من الشخصيات غير الرسمية، وأن يكون الانتخاب مباشراً وبأعباء تقدر بحوالى خمسين جنيهاً إنجليزياً، فى حين يجرى انتخاب بقية الأعضاء بطريق غير مباشر (بواسطة المجالس الإقليمية الاستشارية التى لا حول لها أو طول، أو قد يقوم الحاكم بتعيينهم لتمثيل المصالح الخاصة المهمة التى ستكون بلا تمثيل بغير هذه الطريقة). فى ذلك الوقت كان المعلم أبو بكر عضواً فى لجنة صندوق التنمية الذاتية الشمالى، هذا الصندوق أنشئ قبل ما يسمى بلغة الهوسا Kudin Taimakon Arewa أى حركة (نقود مساعدة الشمال) التى ظهرت بشكل واضح فى السنوات التى تلت ذلك، عندما أحس الرأى العام القيادى الشمالى أن الإدارة البريطانية لم تكن تفعل شيئاً من شأنه مساعدة الشماليين فى مواجهة التقدم الجنوبى. يزاد على ذلك أن أبا بكر تافاوا باليوا كان واحداً من بين خمسة من كبار المدرسين على مستوى الإدارات المحلية (أما الأربعة الآخرين فهم بللو Bello ولد عمار Amar كنو Kano، وشتيما Shettima كاشيم Kashim من برنو، ويحيى Yahya إيلورين Elorin وأحمد Ahmadu كوماسى Coomas-sie) الذين جرى ترفيعهم إلى وظائف جديدة فى سلم الإدارة المحلية، وبذلك أطلق على الرجل لقب "مساعد التعليم"، هذه الترقية كانت مساوية من حيث الدرجة لكبير الكتبة من الدرجة الأولى وبراتب سنوى يقدر بحوالى ٢٤٠ جنيهاً، يزيد بمقدار ١٢ جنيهاً انجليزياً ليصبح ٣٠٠ جنيه سنوياً.

كان أ. AA شلنجفورد Shllingford يشغل ولأول مرة منصب نائب مدير التعليم لشئون المقاطعات الشمالية فى كادونا Kaduna، وقد سبق للرجل استقبال وفد "يصعب إرضاؤه" يضم كلاً من المعلمين بللو Bello وأبى بكر، جاء يطالب بشىء من الترقيات لأصحاب المؤهلات العالية التى حصلوا عليها من لندن (وأولئك الذين لهم خبرة متخصصة أو مسئولية مثل عضوية مجلس الإدارة المحلية). وهنا تذكر شلنجفورد

تأييده لشيخ من شيوخ إدارة التعليم فى السودان عندما كان فى برنو Borno فى العام ١٩٣٦، هذا الشيخ جرى منحه راتبًا يناسب وضعه ومهامه الوظيفية، وكان شلنجفورد قد اقترح على إريك Eric هَسى Hussy، مدير التعليم فى ليجوس فى ذلك الوقت، عمل شىء قانونى مماثل لأفضل خريجى كلية كاتسنا، على أن يكون ذلك عقب الحصول على تدريب فى الخارج. كان ذلك المقترح قد أصبح فى طى النسيان بعد أن دخل الرجل معركة ضد الحاكم برنارد Bernard بورديللون Bourdillon، الأمر الذى أدى إلى تقاعده مدحورًا لأنه طالب بمبالغ إضافية لمشروع تعليمى آخر. وهنا أحيا شلنجفورد المشروع القديم وتغلب على شكوك المفوض الرئيسى، الذى كان معنيًا بألا تؤدى مسألة الأمراء إلى تحسين أوضاع نظار المدارس وحدهم. دار حوار ونقاش حول شتيما Shettima كاشيم، الذى لم يكن يود السفر إلى بريطانيا لحضور دوره تدريبية، كما دار حوار ونقاش أيضًا حول أحمد Ahmadu كوماسى Coomassie الذى لم يكن مؤهلاً، كما دار النقاش أيضًا حول بديل العضوية الشرفية قليل التكاليف، والذى يعد من أفضل أوسمة الإمبراطورية البريطانية، ويناسب أحوال هؤلاء المعلمين.

أسفر ذلك عن حصول هؤلاء المعلمين عن استحقاق، الترقية والوسام، مثلما فعل المعلم روانج Rwang بام Pam الذى كان على وشك أن يصبح شيخًا (رئيسًا) لقبيلة باى Bi روم Rom الوثنية فى هضبة جوس Jos، وهذه الوظيفة موازية لوظيفته تورتيف Tor Tiv، الرئيس الجديد للتيف Tiv (أو "المونشى" على حد قول أهل الهوسا من باب الاستظراف والفكاهة) الذين يحيطون ببلدة جبوكو Gboko فى بنيو Benue. وعلى الرغم من فشل نظام الرؤساء Chiefs المُؤَيدين الذى جرى فرضه فى عشرينيات القرن العشرين على الجماعات القبلية المبعثرة ذات القرابة فى الأحياء الجنوبية الشرقية، التى فشل فيها نظام الحكم غير المباشر اللوجاردى Lugardian، فى العمل من خلال وسيط "المحاكم الوطنية" التى تضم كتبة من أصحاب النفوذ، فقد راح الرسميون يعيدون التفكير من منطلق أن تعيين رؤساء Chiefs لقبائل الشمال يعد أمرًا مناسبًا وقدّر لذلك

أن يُنفَّذ بعد الانتخابات، عن طريق شكل من أشكال التهليل والتصويت فى الأماكن التى تتساوى فيها التقاليد والأعراف، أو عن طريق التجمعات الأسرية فى أغلب الأحوال. كان المفوض الرئيسى يؤمن بأن ذلك سوف يعطى الأحياء "الوثنية" المهمة مكانًا فى المجلس الأعلى من المجلس الإقليمى، وبذلك يصبح لهم نوع من المساواة أو التكافؤ مع الإمارات، التى أصبحت الإدارة المحلية فيها رمزًا حيًا منظوراً وتحظى باعتراف طيب بها من جانب البريطانيين. وفشل ذلك التحرك فى تحاشى المشكلات التى ظهرت بعد ذلك عندما هبَّ الأقارب المهتمون بالأمر وراحوا يطالبون بأن الرئاسة Chiefiancy يجب أن تنطوى على شىء من مبدأ الوراثة.

فى الوقت نفسه سلّم المعلم أبو بكر تافاوا باليوا نظارة مدرسة باوتشى المتوسطة إلى المعلم الكانورى عثمان Othman جعفر Ja'afar الذى كان زميلاً طوال العام السابق. وفيما عدا أمور الإشراف الروتينية، ترك أبو بكر زميله ليكون ممثلاً له فى كل شىء، اللهم باستثناء النصيحة العامة التى مفادها: "أنه يتعين عليه أن يكون عادلاً قدر الإمكان". ومن بين المهام الأخيرة لذلك الرجل، هو أن يكون مُضيفًا كريمًا مع المفوض الكشّاف الرّحال، المعلم سابقًا أينو Inuwa وادا Wada، الذى هو من أهل الشمال،و الذى كان يأكل كمية كبيرة من البودنج المصنوع من البطاطا المخلوطة بالزبد الفولانى Fulani، والذى كان يأسف لذلك العمل ويندم عليه. كان التقرير الذى يعد عن الفرقة الكشافة جديراً بالاهتمام.

لكن الأهم من التلاعب بالوضع العام، هو نشوء صلة جد نادرة بين المعلم أبى بكر وضابط الحى فى باوتشى، المدعو روبرت Robert هبرن Hepburn رايت Wright، وبخاصة بعد نقل هذا الضابط إلى إدارة التعليم. كان رايت شابًا مؤدبًا حلو الصحبة بشكل عام، كان الرجل من خريجى مدرسة هارو Harrow وينحدر من أسرة ناجحة فى "وروكشير" Warwickshire، وكان لديه من الوسائل ما يجعل استقلاله الذهنى والروحى الطبيعى أمراً فاعلاً. كان رايت سكرتيراً خاصًا لبورديللون فى زمن الحرب، ونجح

رايت من خلال هذا النفوذ فى إطلاق سراحه أو بالأحرى تسريحه من الخدمة فى سلاح الجو الملكى. لقد تعلم رايت الكثير من بورديللون ومن الحرب، تعلم أشياء سرمدية القيمة. ولما كان الرجل كريمًا فى ضيافته وإنسانًا فى شخصيته، وطيب الملامح، فقد ذاع صيته بين الناس ذيوعًا كبيرًا. كان الرجل متيمًا بإقامة مباريات الكريكت، والاحتفالات الموسمية، والرحلات الخلوية التى تبدأ مع الفجر، ويصلون خلالها إلى قمة جبل بيولى Buli، وكان الرجل أيضًا يساعد على عرض مشهد الأوغاد من مسرحية شكسبير الشهيرة "حلم منتصف ليلة صيف" التى اقتبسها المعلم أمين كانو، وجرى تمثيلها بواسطة الحرفيين المغتربين (فى ذلك الاقتباس جرت ترجمة الكلمة Bottom الدالة على "قاع" بكلمة Buhu الهوساوية التى معناها "جوال" أو "زكيبة"، وكان "بوتوم" Bottom يرتدى بنطال أمين كانو البوجى ذى الحِجْر الواسع جدًا)، اشتهر رايت أيضًا بتوفير النقل وكميات كبيرة من بيرة القمح وذلك من باب إقناع فرقة كبيرة من الوثنيين وتحريضهم الذين جاءوا من ميا Miya، على الرقص حول النار: هذه الأشياء التافهة واللعوبة كانت تعطى انطباعًا بأن الحياة مع ضابط حى من هذا القبيل أو ضابط تعليم من هذه النوعية، إنما تعد مرحًا وشيئًا محببًا إلى النفوس. كان مظهر الرجل الهادى يخفى خلفه مبادئ صلْبة.

كان الرجل لا يكل أو يمل، كانت قدرة الرجل على التحمل تجعله دومًا لا يقبل رد الكرم أو الضيافة، التى كان ينذر على أصدقائه القيام بها أو مجاراتها. وكان الرجل يبدو للبعض وكأنه يتخذ موقفًا واحدًا فى واجباته الاجتماعية. كان الرجل يحتفظ بطاقاته وأفكاره الرئيسية للجانب الأقل ذيوعًا من مسئولياته، وكان من عادة الرجل أيضًا تقليل المطالب الورقية المكتبية إلى أقل حد ممكن، وكان دائم التجول أيضًا بالسيارة الصغيرة أو بالحصان لكى يضع تحت بصره رؤساء الأحياء، والمحاكم، والمدارس، والصيدليات، وفوق ذلك كله الحديث ثم الحديث، ثم الحديث مع مسئولى الإدارة المحلية، وأصحاب الشكاوى، وبذلك كان الرجل يستوعب آراء أهل باوتشى،

وينشر وعيًا متحضراً بفلسفة، صارمة لكنها حانية وأبوية، متسامحة، تقبل الرأى الآخر، لكنها ليست مفرطة فى العواطف، هذه الفلسفة لم يكن لدى أحد أية مخاوف من الإقبال عليها. كان مكتب رايت Wright شبيهاً بالإسطبل إذ كانت جدرانه مصنوعة من اللَّبن المدهون باللون الأبيض، وكان سقف ذلك المكتب من (الصاج المجلفن المجعَّد) الذى تعلوه طبقة من القش، وكان النمل الأبيض فى كل مكان من ذلك المكتب، وبخاصة فى الخزينة ودولاب (خوان) الخردوات.

كان روبرت Robert رايت Wright هو والمعلم أبو بكر يتبادلان الآراء المتماثلة أحيانًا هنا فى هذا المكتب، وأحيانًا فى منزل ضابط الحى، وأحيانًا أخرى فى مكتب المدرسة المتوسطة حول الأمراء Emirs باعتبارهم السلطات الوطنية الوحيدة، وحول الفساد بين موظفى الإدارات المحلية التقليدية أو مفتشيها أو الذين يتعاملون مع المداخيل الحكومية، كما كانا يتبادلان الرأى أيضًا حول متى وكيف يمكن سحب اليد البريطانية من السيطرة الاستشارية على الشئون المحلية. بدأت سجون الإدارة المحلية وشرطتها، شأنها شأن المدرسة المتوسطة، والمكتب الزراعى والمكتب البيطرى، بدأت كلها تعتاد على حتمية حضور الموظف الحكومى المختص وموافقته على أية معاملة من المعاملات المهمة، الأمر الذى جعل خدمات هذه المكاتب أموراً غير مرجحة بعد إبعاد المغترب الذى حكم حكمًا غير مباشر، والذى كانت سلطاته فى واقع الأمر سلطات محدودة جداً أو معدومة.

فى مكتب الممثل المقيم، كان المعلم أبو بكر يصر دومًا على الجلوس بطريقته التقليدية على حصير الأرض، وفى منزل روبرت رايت وجد أبو بكر أن من المناسب الجلوس على الكراسى منذ البداية. كان ذلك راجعًا فى بعض الأحيان إلى أن الاثنين كانا ينظران من خلال طرفى التلسكوب المتضادين، وبالتالى لم يتفقا مطلقًا على ضرورة التعجيل بإحداث تغيير من التغييرات، لكن الرجلين كانا يتمتعان بثقة لا تعرف الحدود ببعضهما البعض. هذه الصداقة لم تكن فريدة بين مسئولى الإدارة

المحلية والموظفين المغتربين، وكانت تقوم على علاقات الثقة فى السنوات الماضية بين كل من أبى بكر شلنجفورد Shillingford، فيلبس Phillips وبتلر Butler، لكن لم تكن هناك صداقات أخرى لها مثل عمق هذه الصداقة والنتائج المترتبة عليها. فى ذلك الوقت، وعندما كان الشيخ Shehu عواك Awak، تلميذًا صغيراً فى المرحلة الانتقالية التى تسبق الالتحاق بكلية كاتسنا، يتذكر الرجل ذلك الذى قاله المعلم أبو بكر للطلبة فى الفصل، وأنه لم يكن قويًا من الناحية البدنية، وعليه فإنه يحقق ما يريده عن طريق الفكر والذكاء - يزاد على ذلك أن جلسات المعلم أبى بكر مع روبرت رايت، صاحب البنية الجسمانية الشبيهه ببنية أبى بكر، كانت مرانًا قيمًا على الجدل والإقناع حول مسألة أن ما يبدو خطأ واضحًا لقلة قليلة من الناس قد يستغرق إصلاحه زمنًا طويلاً، وأن وجهة النظر المختلفة قد تؤدى إلى علاج مختلف لكنه قد يكون علاجًا مناسبًا: أى أن القواعد المتضاربة وأن مؤسسات الدين والثقافة قد تنظر إليها الشعوب الغربية على أنها تلبى كثيراً من التعاريف المعنوية التى من قبيل "العدالة"، أو "الحرية" أو "الحياد".

هذه الثقة التى نشأت بين الرجلين لم تكن منبتة العلاقة أو الصلة بالمبادئ الدينية، فقد كان روبرت رايت أنجليكانى، أو إن شئت فقل: أحد أتباع الكنيسة الإنجليزية، ولم يكن هناك فى باوتشى كنيسة تقليديه ناطقة بالإنجليزية حتى يداوم الرجل على حضورها أو الذهاب إليها بأى حال من الأحوال، لكن الرجل كان يحتفظ معه بإنجيل الملك جيمس، أى النسخة المعدلة، كما كان لديه أيضًا نسخة من الإنجيل مزودة بالصور التوضيحية "والمخصصة لقراءتها كنوع من الأدب" هذان الإنجيلان كانا متأثرين بالرطوبة فوق أرفف هذا الرجل. فى يوم السبت، وفى موعد تناول الغداء جرى الاحتفال بشلنجفورد عند عودته من جولته فى كادونا، وجرت عزيمته أيضًا على يخْنة من الفول السودانى، ومع كئوس مشروب الجن القوى راح شلنجفورد يناقش مع رايت، مُضيِّفه، نسخ الإنجيل المختلفة أو طبعاته، وكان أبو بكر وهو يحتسى مشروب الليم الحامض حائراً ومبهوراً عندما علم أن هناك إصحاحات كثيرة للإنجيل، وتأثر أيضًا لأنه وجد أن

المسئولين الحكوميين يمكن أن يكونوا أولاً وقبل كل شيء أناسًا من أهل الكتاب (أهل الكتاب Ahlil Kitab . هم اليهود، والنصارى، والسبئيون، الذين يؤمنون بإله واحد وبيوم القيامة، وبالعمل الصالح، وأنهم سينالون أجرهم من الله (سبحانه وتعالى) – هم أناس شهدوا معظم أنبياء الإسلام، لكنهم حرَّفوا بعض نصوصهم، ولم يقبلوا نصوص المؤمنين الحقيقيين، وعليه بقوا كفارًا).

فى ظل قانون ريتشاردز Richards أجْبرت السلطات المحلية فى مقاطعة باوتشى على انتخاب ممثل لها فى الجمعية التشريعية الشمالية فى المجلس الأدنى من " المجلس الإقليمى". كانت سلطة باوتشى المحلية التى فيها رئيس من الدرجة الأولى، تعد من السلطات المركزية الرئيسية، وكانت فيها أيضًا الرئاسات الإقليمية، فضلاً عن كونها أغنى السلطات المحلية كلها: لم يكن هناك أحد يشك مطلقًا فى انتخاب ممثل من أهل باوتشى. كانت هناك بعض الإيماءات البسيطة التى توحى بموافقة ضمنية، كانت تلك الإيماءات صادرة من وراء ستار عن كل من جيفرى Geoffrey هارلاند Harland بيتون Payton الممثل المقيم الجديد، ومن روبرت Rupert رايت Wright، لكن كان هناك إحساس عام، حتى وإن لم يلاحظه المديرون أو يتوقعوه، وهو أن المعلم أبا بكر كان هو الخيار الواضح الذى ارتضاه أمير جومب Gombe وكتاجوم Katagum باعتباره أقدم مسئولى الإدارة المحلية فى باوتشى، والتى تساهم خزانتها فى راتبه الشهرى. كان من رأى الممثل المقيم أن المسئول الوحيد الآخر الذى لا يمكن التفريط فيه أو الاستغناء عنه هو مسئول الخزانة الوطنية، الذى يلقبونه بالمعاجى ma'agi بابان Baban إنَّا Inna، الذى استطاع أن يخفى معرفته الممتازة للغة الإنجليزية. لم يخطر ببال أمراء المقاطعة أنهم كانوا يساندون ويؤيدون حاكمًا مستقبليًا سيكون أقوى وأعظم منهم، وكان متشاور هؤلاء الأمراء يغلب عليهم أن يحذو حذو هؤلاء الأمراء. وبذلك تكون حياة أبى بكر العملية قد بدأت بتأييد قوى من الأقسام المجاورة أكثر منه من الداخل: كان البعض يودون رؤية هذا التعيين وكأنه موازٍ حديث لتعيين الأمير يعقوب الأول من قبل الشيخ عثمان. كانت اللحظة مواتية، إذ كان لابد من تقييم الموقف، وهنا يتحتم على أبى بكر

بحكم كونه مدرساً، التوقف لتقييم الحال التى أصبح عليها، وهو يقترب من العام الرابع والثلاثين من عمره، وبعد أن برز من بين الخلفية التى سبق أن وصفناها، ومديناً بعض الشيء للتأثيرات الفردية، ومتمسكاً شديداً بالأفكار التى سجلها فى أطروحته اللندنية.

فى العام ١٩٤٧ أصبح أبو بكر تافاوا باليوا مسلماً مؤمناً ملتزماً، ومتعاطفاً مع الطريقة القادرية التى كان الشيخ عثمان بن فودى Fodiyo والأمراء الرئيسيون (ماعدا كنو) ينتمون إليها، كان ذلك يعنى أن الرجل يميل إلى التدين والتواضع، أكثر من التشدد فى الدين، كما كان الرجل يعارض الطقوس المتشددة أو المسرفة فى توهجها، هذا التدين والتواضع هو الذى جعل الرجل يحترم ولا يحتقر أولئك القائمين على إرساء قواعد ضبط السلوك والعمل من خلال النِّحل غير الإسلامية؛ لكن اللا أدرى(*) والملحد كانا يشكلان لغزاً عند الرجل، وكان يصعب عليه تفسير ذلك الغموض أو الصفح عنه. كانت نقطة الضعف فى المسيحية، من وجهة نظر أبى بكر تافاوا باليوا هى (أن المسيحيين لابد من تذكيرهم بأن يسوع كان نبياً فى الإسلام، وأنه كان آخر الرسل فى الكتاب المقدس قبل أن يرسل الإله الواحد برحمته ورحمانيته، محمداً ليكون خاتم أنبياء هذه العقيدة) تلك السهولة التى فصل المسيحيون بها الكنيسة، والقانون و "الدولة"، لم يقبل أبو بكر تافاوا باليوا فكرة علمنة التعليم، والعدالة، والآداب العامة، أو المساندة المتبادلة، فى ضوء أسلوب الحياة الذى يتطلب الخضوع لله (سبحانه وتعالى) ومشيئته. يرى أبو بكر تافاوا باليوا أن الأفارقة اعتنقوا المسيحية باعتبارها مجرد وسيلة إلى المناهج الدنيوية فى العالم العربى. صحيح أن أوامر القرآن والحديث أمور لا غنى عنها، لكن أهل الكتاب الآخرين يتعين أن ينظروا إلى هذه الأمور باعتبارها فطرة دنيوية سليمة.

(*) اللا أدرى : من يعتقد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها. (المترجم)

تعلم أبو بكر من والديه ومن تنشئته الصبر، وسعة الأفق، والتسامح مع معارضيه، شريطة أن يخشى هؤلاء المعارضين الله (سبحانه وتعالى) ويخافونه، وأن يكونوا متحفظين. ونظراً لأن الرجل لم يدلل فإن غضبه كان يبرد بسرعة، ومع ذلك كانت شخصية الرجل البسيطة تبرز فى أى جمع من الجموع. وبصفته متزوجاً من زوجات عدة، فقد وجد سعادته وراحته مع زينب Zainab أنى Inni وعائشة جومّاى Jummai اللتين تزوجهما فى العام ١٩٤٧، ثم تزوج بعد ذلك زوجتين أخريين. ويصر المقربون إلى أبى بكر تافاوا باليوا أن زوجاته شاركن مشاركة كبيرة فى فلسفة الرجل فى الحياة أكثر من الغرباء الذين يشككون فى الأسر المسلمة التقليدية. وعلى الرغم من عدم الإتيان على ذكر هؤلاء المتشككين فى صفحات هذا الكتاب، فإن هناك صديقاً إفريقياً من أصدقاء هذا الرجل أبدى ملاحظة مفادها أن الرجل الذى بقى طوال عشرين أو ثلاثين سنة صابراً وحميماً مع زوجاته لابد أن يعرف فن القيادة معرفة جيدة هذا يعنى أن تلك الزوجات كن ينصحن له وكانت لهن سلطاتهن أيضاً. ولم يحدث مطلقاً أن قامت إحدى زوجاته بأية حرفة من الحرف المنزلية أو أى عمل من الأعمال التجارية الصغيرة الشائعة التى تمارسها نساء أخريات كثيرات، ولم يحدث مطلقاً أن عملت أية زوجة من هؤلاء الزوجات على زيادة ثروة العائلة الصغيرة، لكنهن كن يحافظن على استقرار الأسرة.

كان أبو بكر تافاوا باليوا يحس بالفرح والسرور فى الوقت المخصص للعب مع الأطفال، ونظراً لتحفظ الرجل الذى جعل من استرضائه أمراً صعباً، ونظراً أيضاً لمسئولياته المتزايدة، لم يحدث مطلقاً أنه كان قريباً جداً من أسرته، على الرغم من قيام هذه الأسرة على الحب. كان يقضى فترة استرخائه المحببة التى نفسه فى قراءة الكتب بنهم شديد، وكان الرجل يخلع رداءه الخارجى عن طيب خاطر كيما يشارك فى مباريات الكريكت التى كان روبرت رايت ينظمها، ومع ذلك كان الرجل فلاحاً أصيلاً،

وكان يجد متعة كبيرة فى زراعة النباتات وتربية الماشية. كان الرجل صاحب نكتة أيضًا. لكنه كان صاحب مرح كتيم : أما مسألة الضحك من الأعماق التى يشتهر بها أهل غرب إفريقيا لم تكن أمرًا معروفًا عند أهل الرجل. كان صوت الرجل خفيضًا دومًا عند الكلام، وكان بطىء الكلام، كما كان كلامه موزونًا. وعلى الرغم من أن الهوسا كانت لغة الرجل، فإنه لم يكن "هوساوى" الأصل. كان ولا يزال مذاقه فى الطعام بسيطًا ولم يتغير. كانت بنية الرجل الجسمانية توحى بالوقار على الرغم من ضعفها، وكانت يداه تناسب ملامح وجهه الجميلة. كانت ملابس الرجل نظيفة بصورة دائمة، ولا توحى بالهرج وعادة ما تكون بيضاء اللون. كان الرجل يتطلع إلى التغيير من خلال التدرج، وليس عن طريق الفورات.

لم يكن أبو بكر تافاوا باليوا خاليًا من التناقض: إذ كانت رؤية الرجل للتاريخ لا تزال مصطبغة بصبغة التقاليد والمعرفة المستقاة من الماضى المحلى، أكثر منها بصبغة الدروس التى تعلمها ولا يزال يعلمها فى مدارس البوكو boko. اكتشف أبو بكر أن العبودية والمحظيات أمور تستحق التوبيخ، لكنه على الرغم من عدم إحساسه مطلقًا "بمركب النقص"، كان يعرف تمامًا أن أصوله المتدينة سوف لا تغيب عن ذاكرة الناس حتى وإن كان يجرى تجاهلها من الناحية الظاهرية، وأنه يتعين عليه أخذ ذلك بعين اعتباره عندما يشغل منصبًا اجتماعيًا، ويحسب لهذا الرجل أنه بعد أن تربى طفلاً فى أسرة الطاهر، لم يستشعر مطلقًا القلق أو الاستياء بعد أن أصبح مدركًا لحقيقة أنه لم يكن أصلاً من رئيس الحى من حيث الأصل، وأن هذه الميزة لا تعدو أن تكون الميزة التى تميز العبد عن الابن الحقيقى. يضاف إلى ذلك أن خبرة الرجل بالتعليم البريطانى والضباط الإداريين البريطانيين كانت خبرة سعيدة ومبهجة بشكل عام، كما كانت خبرته بالنيجيريين الجنوبيين أكثر تباينًا وتنوعًا. أما مسألة أن شمال نيجيريا كان خليطًا من الأرض الإسلامية والأرض الوثنية الواقعة تحت الحكم البريطانى، وأن هذا

الشمال كان يتمتع بأفكار باوتشى الطبقية بالمقارنة مع كنو أوسوكتو Sokot، فكانت حقيقة واقعة فى ذهنه، لكن مسألة نيجيريا ككيان كانت لا تزال لا تعدو أن تكون مجرد خيال تاريخى - جغرافى ملفق. كان الرجل يعض بنواجذه على التراث المعروف له. انتقد الرجل البعثات التبشيرية المسيحية فى فشلها فى أوربة Europeanise أتباعها، بدلاً من أن تقوم بدراسة عاداتهم وتمكين الأفارقة من تطوير الجوانب الطيبة واعتناقها هم بأنفسهم، واحتفاظهم بفخرهم بتقاليدهم كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا. وعلى العكس من النيجيريين الجنوبيين كان أبو بكر لا يسلم بالحقيقة التى مفادها أن المتعلمين أصحاب حق شرعى خاص فى الحكم.

انتقد أبو بكر تافاوا باليوا إدارة التعليم الحكومى لأن الناس كانوا لا يزالون لا يعتبرون المدارس جزءًا من عالمهم الخاص، شأنها فى ذلك شأن المكاتب التابعة للإدارات التى يعمل فيها الأوروبيون: والسبب فى ذلك أن أطفال الناس إذا ما عبروا الحدود ودخلوا إلى ذلك العالم الغريب، فإنهم يحتقرون العمل فى مزارعهم الخاصة، ولن يشعروا بالخجل إذا ما أصبحوا عمالاً أو خدمًا للأجانب. لم يكن هناك طلب على النجارة مادام أن الجمهور لا يريد الكراسى، والطاولات، والخوانات (الدواليب)، ومع ذلك كان الأطفال يكرهون العمل فى مزارع المدارس باعتبار ذلك جزءًا من تعليمهم. يجب عدم إرسال الأطفال إلى مواطنهم للمشاركة فى الاحتفالات القبلية - ومع ذلك كان الأطفال يبلون بلاءً حسنًا فى المدارس، ولم يكونوا يتسببون فى المشكلات إلا فى فترة الإجازات، أو عندما يتخرجون من المدرسة، كما لو كان الهدف الوحيد للتعليم هو تخريج كتبة والمزيد من المعلمين للعمل فى المكاتب وفى المدارس. كانت كارثة التربوى ومصيبته تتمثل فى تناقضه مع نفسه: وهو مع إصراره على أن المدرسة ينبغى ألا تلغى التدريب الطيب الذى حصل عليه الأطفال من بيوتهم، كان يتعجب فى شىء من التردد ما إذا كان المعلمون لا يتعين عليهم توجيه هؤلاء الأطفال أن يفكروا هم أنفسهم فى ذلك الذى يمكن أن يفيد أو لا يفيد مجتمعهم المستقبلى.

كان الرجل يدرك أن ذلك الذى يمكن أن يفكروا فيه قادم لا محالة. كانت سرعة النقل الحديث وحدها كافية لإقناعه بالنتيجة السيئة التى قد تنتج عن التغيير، هذا يعنى أن هؤلاء الذين ناضلوا وكافحوا من أجل المحافظة على حسنيات الماضى أصبح الناس يَسِمُونهم "بالبدائية". أخذ الرجل مأخذ الجد، الجدل المعاصر الذى دار فى جامعة أكسفورد والذى مفاده أنه مادامت الدول شديدة التحضر استغرقت مئات السنين كى تصل إلى تقدمها الحالى من التنمية الاقتصادية والديمقراطية، فإن مطالبة الدول التى من قبيل نيجيريا بفعل ذلك خلال عقد واحد من الزمان، يمكن أن تسبب الكثير من القلاقل والمتاعب والاضطرابات. كان الرجل يتشكك فى النيجيريين المتعلمين الذين يودون إدخال منظومات الحكم المحلى البريطانية والأساليب البرلمانية البريطانية بلا تغيير أو تعديل، لأنهم عرفوا هذه المنظومات من خلال الكتب وأنهم يندر أن يكونوا قد سافروا خارج نيجيريا. كان الرجل يخشى ألا تناسبهم تلك المنظومات والأساليب الإنجليزية، فى حين أن الوقت كان متاحًا لهم كى يُحَسِّنوا تلك المنظومات التى لديهم بالفعل - وأنهم ينبغى أن يلتزموا الحرص عندما يقبلون حتى على ذلك التحسين.

كانت آراء الرجل فى الأوروبيين باعتبارهم عرقًا مسيطرًا سيطرة مادية، وفيهم كأفراد متشبعة برأيه أو رؤيته للتطور الاجتماعى. كان أبو بكر تافاوا باليوا يرى أن الشخص غير المتحضر يحيا ضمن جماعات أسرية صغيرة، وكان ينظر إلى حياته هذه وكأنها حياة فى جنات عدن، وأن هذا الرجل كان يوافق من حيث المبدأ على الفكرة التى مفادها أن "زيادة التحضر تزيد الحماقة" كان أبو بكر تافاوا باليوا مؤمنًا بأن البيئات هى التى خلقت الفروق العرقية مع مرور الزمن، وأن القوى هو الذى يحتل أكثر البيئات تفضيلاً، تاركًا البيئات غير المفضلة أو السيئة لكى يتراجع إليها الضعفاء، وفى ظل مثل هذا الحال تظل السعادة مجرد احتمال مادامت قدرة الإنسان على التدمير محدودة. كان الرجل قد سبق له أن قرأ على نفسه معنى القنبلة الذرية. هذا يعنى أن العلم هو

والتقنية خلقا القلق والجشع منذ البداية، لكنهما أيضاً أوحيا بالتطور الفكرى الذهنى، وأن هذا التطور حدث بصورة فاعلة بين الأوروبيين، كما استشعر الإنسان فى كل مكان افتقاره إلى طاعة الله (سبحانه وتعالى)، التى آثر الأوروبيون القيام بها والوفاء بها من خلال الطريق المسيحى. كان الرجل الأبيض صاحب أكبر نفوذ وتأثير على بقية الإنسانية، من منطلق أن البيض كانوا يقومون بدور المستوطنين والحكام، والتجار ويروحون ينشرون تفانيهم ودينهم، ومباهجهم خارج بلادهم، لكن الثورة الرئيسية كانت تجرى بأيدى المبشرين، الذين فعلوا خيراً عندما أدانوا مسألة التضحية بالإنسان، وأدانوا أيضاً السحر، والهمجية، لكنهم تسببوا فى إحداث الفوضى والاضطراب عندما أوجدوا طبقة مختلفة من الناس، نصفها من الوطنيين ذوى الثقافة الوطنية والنصف الآخر من الأوروبيين ذوى الثقافة الأوروبية كان ذلك هو السبب وراء تصنيف لوجارد Lugard نيجيريا إلى ثلاثة فئات - الفئة المتقدمة، والفئة المتأوربة، وأخيراً الفئة البدائية، مع ذلك لم يقبل أبو بكر الحضارة الأوروبية على أنها الكلمة الأخيرة فى مجال التقدم، ربما كان الرجل يجد صعوبة فى التسليم بهذه الفكرة، ولولا الفرص التى تهيأت للنفوذ الأوروبى والمؤسسات الأوروبية لبقى الرجل على موقفه.

لم يكن الرجل على استعداد للحكم على البريطانيين من واقع المقابلات والاجتماعات العارضة فى شوارع لندن، لكن الرجل كان ينظر إليهم من منطلق أنهم صناعيون عظام يتمتعون بمستوًى عالٍ جداً من المعيشة، وأنهم يعون أن الإنسان يتعين عليه العمل بجد حتى يكسب عيشه. وكان الرجل يقتبس عن بعض الروايات الساخرة التى قرأها عبارة من قبيل ("الرجل الأسود مُسَخَّرٌ لخدمة الرجل الأبيض، والرجل الأبيض مُسَّخرٌ لخدمة الساعة") كان الرجل منسجماً من استعباد الرجل المتحضر للوقت والآلات، وكان من الذين يفضلون بدء العمل عندما نكون بحاجة إليه، وكان أيضاً من الذين يؤمنون بعدم إضاعة الوقت سدى. كان أبو بكر تافاوا باليوا يحس أن

المنظومة الديمقراطية البريطانية تنتج قدراً كبيراً جداً من الحرية (بل إنها تتيح أيضاً قدراً كبيراً جداً من الأشياء الطيبة التى تصبح سيئة نظراً لقلتها)، وذلك من منطلق أن الناس لا يمكن أن يتفقوا جميعاً على شيء واحد وعلى كل شيء. وفيما يتعلق بحرية الكلام كان الرجل ينظر إليها باعتبارها أمراً محبوباً وسيئاً أيضاً، وكان الرجل يؤمن أن حرية الكلام هذه تسبب لصاحبها فى الدول المتخلفة ضرراً أكثر من المنفعة، والسبب فى ذلك أن حرية الكلام هذه، فى المجتمع المتخلف تكون معرضة لسوء الفهم والنوايا. كان يؤمن أيضاً أن أحكام الناس قد تُصيب وقد تخيب، وكان يرى أيضاً أن قدرات الناس الذهنية، ووسائلهم وفرصهم ليست واحدة، بعض الناس فى بحبوحة، وبعضهم من الطبقة المتوسطة، وبعضهم فقراء (وقد لاحظ ذلك فى روسيا)، بعض آخر من الناس لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة، وبعضهم يعمل من أجل المصلحة العامة، وعليه، إذا ما سُمِح لواحد أن يفعل ما يريد، مثل الأطفال، فإن ذلك لن يكون أمراً طيباً أو مستحباً. لكن الرجل عندما يتدبر هذا الأمر من منظور المجتمع شديد التخلف، فإنه يرى على الفور أنه يُكنُّ احتراماً كبيراً للتنظيم البريطانى للمجتمع.

كان الرجل ميالا ميلا شديداً إلى انتقاد الاتحادات المهنية الغربية من الناحية التطبيقية. كان الرجل يوافق على سهر تلك الاتحادات على أمن أعضائها، لكنه لم يكن يوافق على سوء استعمال مسألة الأمن هذه على مستوى البلد. كان الرجل ينظر أن الإضرابات التى تؤذى العاملين أنفسهم، أو التى تحول دون التبادل الحر للبضائع والسلع، التى تؤذى العمل فى المستشفيات، أنها تزيد ما نسميه الحماقة، كما توقع الرجل للاتحادات المهنية التى تشكلت حديثاً فى نيجيريا أن تكون مصادر للقلق والمتاعب. هذا يعنى أن أعضاء هذه الاتحادات يؤمنون بقواعد هذه الاتحادات أكثر من إيمانهم بشرائع الله (سبحانه وتعالى).

يعترف أبو بكر تافاوا باليوا أن العلم جعل الالتزام الدينى الصارم أمراً صعباً، لكن الرجل كان يحترم الرأى الذى مفاده أن الدين هو مسألة أخلاقيات وعلاقات مسالمة

ضعيفة وصائبة، والقول بعدم الصلاة أو الذهاب إلى المسجد أو الكنيسة إنما هو عذر واهٍ. وأن خشية الله عندما خرجت من قلوب الناس، بدأ الشر فى الظهور بعدها. يقول أبو بكر: إن الله كان يعاقبنا، واستشهد الرجل بسنوات الحرب التى دامت ست سنوات وأسفرت عن دمار كبير أنصب على رأس مجتمع متقدم لم يكن يخشى الله أو يخافه. قال أيضًا: إن إحياء الدين أمر ضرورى، وأن ذلك الأحياء يجب أن يضرب جذوره اعتبارًا من المدرسة. التبكير فى إعمار قلوب الشباب بالتقوى ومخافة الله يؤدى إلى نظام وانتظام أفضل من ذلك الذى تحققه الأساليب النفسانية الحديثة.

كان أبو بكر تافاوا باليوا متحمسًا دومًا لتعليم الأطفال أكثر من حماسه لتعليم الكبار. وعلى الرغم من المحاضرات الكثيرة التى حضرها واستمع إليها فى معهد لندن، عن علم النفس، فقد رفض الرجل الفكرة التى مفادها أن الطفل ينبغى أن يكون حرًا فى أن يعيش فى "عالم طفولته" الخاص به، وأن ينمو بطريقته الخاصة، وكان الرجل يرفض أيضًا إعطاء الطفل حرية تعلم مسئوليات الكبار فى سن مبكرة، وعلى سبيل المثال، بقاء الطفل بصحبة الكبار، وفى الوقت الذى يواجه هؤلاء الكبار فيه المصاعب وقسوة المشكلات أو الإحباط. كان الرجل يرى أن الدروس التى يجرى تعلمها عن طريق القدوة أو المُثُل يجب أن تكون دروسًا موجَّهة: هذا يعنى أننا يجب أن نترك الطفل حرًا فى لعبه، وأن نتركه يختار رفاقه وأصحابه، لكن ذلك لا يجب أن يكون فى الأوقات التى يحددها هو أو بالطريقة التى يراها هو، وذلك بغض النظر عن البيئة التى يعيش فيها الطفل. هذا يعنى أيضًا أن أساليب التعليم الرسمية أمر لازم لتعليم الأطفال وتدريبهم على الخير وأن يكونوا مواطنين صالحين. هذا يعنى مسألة جعل الأطفال يكتشفون أخطاءهم ومحدداتهم وتصحيح أخطائهم بأنفسهم قبل أن يكبروا وتضر بهم ضررًا بالغًا. كان أبو بكر يعارض ضرب الأطفال إذا كان الهدف من ذلك الضرب هو جعل الأطفال ينصاعون لأساليب الكبار، لكن الحرية لابد أن يكون لها حدود، وكان يرى

أيضًا أن سوء السلوك المقصود يستحق التصحيح البدنى. كان يرى أيضًا أن الحب والرحمة والصداقة يجب أن تكون أساسًا للتربية والتنشئة، لكن يتعين على الأطفال بنين وبنات طاعة الكبار وألا يسخروا من آبائهم. كان يرى أيضًا أن التربية والتعليم يجب ألا يستخدما فى تغيير المجتمع، ويجب أن يفصلا الصغار عن المجتمع الذى هم وارثوه. كان يرى أيضًا أن المعلمين يجب ألا يكسبوا ثقة الآباء، وأن يهتموا بحل مشكلات المجتمع، وأنهم يتعين عليهم زيارة منازل التلاميذ فى أيام العطلات. وكان يرى أيضًا أن الأطفال الكبار يجب أن يوجهوا الصغار منهم، وبذلك يكتسبون الإحساس بالواجب فى الحياة فيما بعد - والمعروف أن السوابق الفائتة تقلل من متاعب الصغار إلى أبعد حد ممكن.

هذا الملخص المقتضب لآراء الرجل فى بداية نضجه ليس فيه ذلك الكثير الذى يمكن أن يثير دهشة من يقرأ الفصول السابقة، وليس من المناسب انتقاد سلوك أبى بكر المحافظ، أو مغالاته الوطنية فى بداية حياته العملية. لكن هناك جانب آخر لابد من تغطيته فى شخصية هذا الرجل، هذا الجانب هو موقف أبى بكر تافاوا باليوا من المرأة. لم يكن هناك أى شك فى ذيوع صيت حب هذا الرجل للتفسيرات الليبرالية للآراء الإسلامية التقليدية. هذا الرأى تولد لدى هذا الرجل بعد دراسة وتمحيص، ولم يتغير مطلقًا مع نموه ونضجه، بقى أبو بكر متشككًا سنوات عدة فى النتائج المترتبة على تعليم المرأة طلبًا للسعادة، واستقرار المجتمع، ومن أجل التعدد القائم على أسس سليمة. كان رد أبى بكر تافاوا باليوا المبدئى على أسلوب الحياة البريطانى نابعًا من معتقدات الرجل الطبيعية: هناك "**أشياء كثيرة مشتركة فى العلاقة التى بين الذكور والإناث**"..... لقد خصص للأنثى دورها الذى يجب أن تلعبه فى تكوين المجتمع وهى لا يمكن أن تشارك فى كل شىء،..... ونظرًا لضعف الرجل البدنى، فإنه لم يكن يحبذ مشاركة النساء للرجال فى المهام السياسية، وعلى الرغم من أن إنجلترا تعد منبت

birthplace الديمقراطية، فقط كان الرجل يخشى أن يزيد، فى يوم من الأيام، عدد النساء فى البرلمانى على عدد الرجال،... الذكر فى أى نوع من أنواع الحيوانيات هو حامى الأنثى،..... لقد حصلت المرأة الإنجليزية على حريتها بسبب الاقتصار على زوجة واحدة فقط monogamy وحتمية المحافظة على مناخ معتدل للحياة، التى يتعين على الرجال والنساء فيها كسب العيش (إن الحضارة الحديثة لم تجعل الحياة صعبة أو شاقة فى شمال نيجيريا، حيث الحياة والمعيشة رخيصة تماماً)،.... وإذا كانت النساء تتساوى مع الرجال فى كثير من أفرع الحياة، فإن الرجل كان يعارض منح المرأة حقوقاً متساوية مع حقوق الرجل فى بعض المجالات السياسية والعلاقات الأجنبية،...... فى زمن الحرب يستحيل على النساء أن يتبوأن مناصب القيادة والقادة،.... لأنهن **"مخلوقات رقيقة، كما أن طبيعتهن النسائية لا تمنحهن الشجاعة اللازمة ليفعلن ما هو مطلوب فى الأزمات الكبيرة والخطيرة"**.

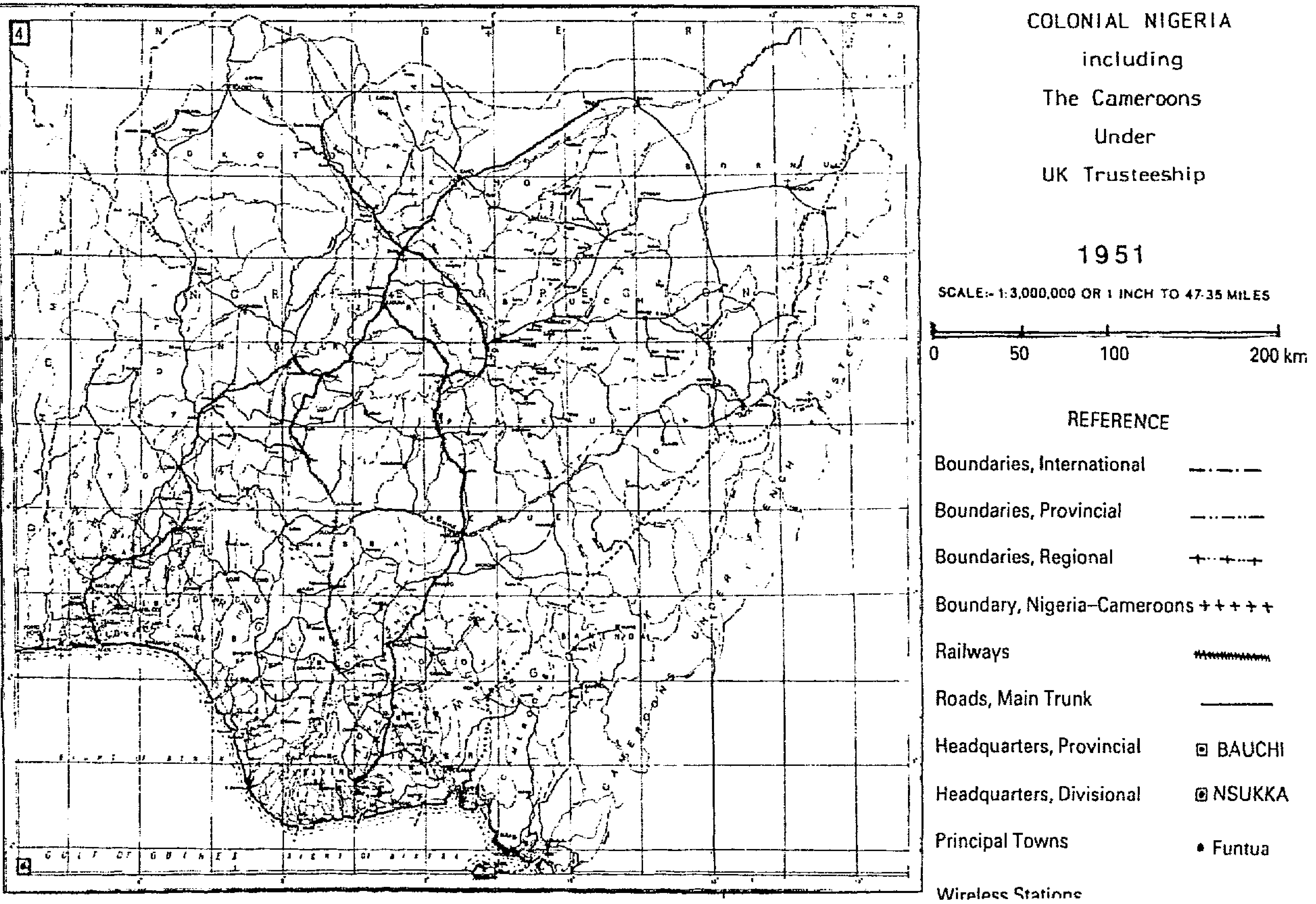
ويخفى أبو بكر آثار أقدامه بعد ذلك عندما يروح يأسى ويأسف على الطريقة التى ينظر الناس بها إلى المرأة فى نيجيريا باعتبارها "نوعاً من العبيد أو أشياء يمكن تملكها"، ويروح بعد ذلك يعبر عن إعجابه بالدور الذى لعبته المرأة فى إدارة المجتمع البريطانى، وعلى الرغم من أن الرجل لم يتولَّ أى دور قيادى حماسى فى باوتشى، فقد أوصى وحبذ تعليم النساء والبنات "من أجل الحياة الإفريقية الحديثة وباعتبارهن زوجات لمواطنين إفريقيين عصريين وأمهات لأطفال أفارقة عصريين أيضاً"، يقول الرجل: ليس من الضرورى أن يتزوجن كلهن أزواجاً جامعيين، الواقع أن السواد الأعظم منهن يجب أن يتزوجن من أناس لا يزيد تعليمهن عن المرحلة الأولية. فى تكافؤ الضدين هذا وفى ظل تعليم الرجل، ثبت أن ذهنه، قبل فطرته، كانت تحكمه التجربة والخبرة. وفى مرحلة لاحقة نجد أن الخبرة تجتمع مع الفطرة.

بدءاً من هذه المرحلة فصاعداً، نجد أن حياة المعلم أبى كبر تافاوا باليوا، هى عبارة عن سجل عام، وسنجد أيضاً أن بعض الأحداث والشخصيات فى خبرة هذا

الرجل قد تكون حميمة، وبخاصة عند القراء النيجيريين. ولذلك فإن القصة سيغلب عليها أن تكون عن تأثير هذا الرجل على الأحداث، بدلاً من أن تكون عن ذلك الذى كوَّن شخصيته وقناعاته. لقد كبر وأصبح يافعًا وناضجًا، ولم يتبق له سوى الوقوف على الطبائع البشرية غير المألوفة، والتعرف إلى أساليب السلطة والسيطرة على النتائج المترتبة على التقنيات الجديدة، وكان عليه أيضًا أن يُحكم قراره، وأن يكون ليِّن العريكة، أو بالأحرى لا يكون سيئ الظنون. كانت تقارير ناصح أبى بكر الأمين، بدءًا من صخرة تافاوا باليوا السوداء، وبدءًا من جبل kobi، تقول دومًا:

كان متواضعًا ، ومتسامحًا، ولا يعرف الغرور

أو مثلما قال أمير باوتشى نفسه وهو يبتسم: "yah au doron kasa (إنه يسير فى الطريق الذى رسمه لنفسه)".


COLONIAL NIGERIA
including
The Cameroons
Under
UK Trusteeship
1951
SCALE:- 1:3,000,000 OR 1 INCH TO 47·35 MILES
0
50
100
200 km
REFERENCE
Boundaries, International
Boundaries, Provincial
Boundaries, Regional
Boundary, Nigeria–Cameroons
Railways
Roads, Main Trunk
Headquarters, Provincial
BAUCHI
Headquarters, Divisional
NSUKKA
Principal Towns
Funtua
GULF OF GUINEA

القسم الثانى

السياسى المستعمر فى الشمال

١٩٤٧ - ١٩٥١

ضربة واحدة لن تسقط شجرة(*)

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

السنوات الأخيرة التى تلت ذلك، فى هذا السجل، يمكن النظر إليها فى أيامنا هذه، من منظور أن أحداثها كانت مغلّفة بالوصول إلى اتفاق مع الواقع من جانب هؤلاء الرجال البارزين والبعيدين والمتأملين فى الأمور، والذين كانوا غارقين فى مصادر صناعة القرار السياسى العالمى. كان من الصعوبة بمكان، فى ذلك الوقت جعل هؤلاء المشغولين بالأمور الدنيوية اليومية يتفهمون مثل هذا الأمر. كانت بريطانيا قد أنفقت رأسمالها وكذلك مواردها الأخلاقية فى حربين عالميتين، وأصبحت فى ذلك الوقت تعانى من آلام ثورة اجتماعية مبرحة، جعلت الكثيرين من مواطنيها المخلصين يؤمنون أن بنية إنجلترا الأساسية القديمة تستطيع تحمل تلك الآلام المبرحة.

كان تشرشل Charchil قد أقرض اسمه فى العام ١٩٢٧ إلى جريدة بيضاء كان يجرى فيها المادة تفسير "الانتداب الثنائى" الذى جاء به لوجارد Lugard: واعتباراً من ذلك الوقت فصاعداً أصبح "الانتداب الثنائى" يعنى أن التنمية الاقتصادية وأولوية الاهتمامات الوطنية يجب أن يسيرا فى خطين متوازيين، حتى تتحقق زيادة الإنتاج - وأن تلك المصالح المقيمة المهاجرة التى جعلت نفسها مرتبطة بازدهار المناطق التى اختارتها يجب أن تكون مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتلك الوصاية القائمة على الشرف. بعد ذلك بعشرين عامًا، وفى ظل الممارسات السياسية الحزبية البريطانية، أسفر ذلك الانتداب الثنائى المعدل فى إفريقيا عن التزام صارم بوضع الدمينيون dominion فى تاريخ لاحق، صحيح أن التاريخ المحدد لذلك لم يتحدد بعد، لكنه قادم لا محالة، ولن يتعدى ذلك بضع أجيال قليلة جداً.

فى نيجيريا البريطانية، كان ذلك يعنى أن هؤلاء الضباط الذين كانت قلوبهم معلقة بالإدارة المنظمة على استعداد لمسايرة رؤسائهم ويشغلون أنفسهم بالتنمية الاجتماعية، كان ذلك يعنى أيضًا أن هؤلاء المغامرين الذين يؤمنون بالتنمية (تلك الكلمة التى أصبحت تحظى بكثير من التعاريف) تشجعوا بدورهم على الدخول إلى مجال التجريب فى إطار التجديد الاقتصادى المفروض، كان ذلك يعنى أيضًا أن هؤلاء المفكرين الذين قطعوا شوطًا كبيرًا فى الوثوق بالثورة الإنتاجية المخططة لم يستطيعوا المضى قدمًا فى مقاومة الطلب على المشاركة السياسية المحلية، وكذلك السيطرة السياسية المحلية. هذا يعنى أن النتائج التى ترتبت على ذلك لم يكن بالوسع مقاومتها.

هذا يعنى أن فك المفصلة الاستعمارية أصبح أمرًا أكيدًا فى ذلك الحين، وأن هذا التفكيك كان مقدرًا أن تزداد وتيرته اللهم إلا إذا جرت مداهمته بفعل تجدد النزاع العالمى. هذا اليقين لم يؤد إلى تجريد تلك الشخصيات العامة المحلية الذين كانت قلوبهم عامرة بقلق الشباب، هذا اليقين لم يؤكد أيضًا للقادة الكبار الذين كانوا يخشون سقوطهم من الأفرع قبل أن يجنوا ثمار الحرية الحلوة. أما عملاء الاستعمار على المستوى الميدانى فكانوا مشغولين بإعادة تجميع المواد الصغيرة التى أدت الحرب إلى تخفيضها، وبالتالى راحوا يبحثون وسائل للنمو العضوى بدلاً من الطوفان الديناميكى الحركى.

لم يكن أبو بكر تافاوا باليوا الشخص الوحيد الذى وجد نفسه، من خلال تضافر كل من الفرصة مع بعض السمات الشخصية، محصورًا وموضوعًا وسط دوامة من الهموم التى لم يسع هو إليها، لكنه لا يمكن أن يرفضها بوازع من ضميره الحى. كان أبو بكر واحدًا من أولئك، حتى ولو بصورة جزئية، الذين أفسدهم الفرح والابتهاج. ومع ذلك، ظل الرجل أكثر قبولاً للانفعال والإثارة من بنى وطنه الآخرين (ووكلاء حكامهم الأجانب) الذين تهيأت لهم فرصة التقاط الأنفاس بين الحين والآخر، ويتعجبون من

سير الأحداث ووقتها. لم يحاول أبو بكر وقف هذا الدفع، لأنه كان يعرف أن ذلك خارج عن نطاق قوته، لكن الرجل كان مصراً على وضوح الهدف وألا يكون غامضًا. ومع ذلك ظلت المرحلة التى قطعها أبو بكر فى إطار مقاطعات الإقليم الشمالى من نيجيريا.

الفصل العاشر

مستشار التعليم : فضلاً عن الماجد العضو الثانى

فى المقاطعات الشمالية

طول قامة المرء ليس هو السبب فى رؤيته للقمر(*)

بعد فترة قصيرة من الحرب وقع فى باوتشى حادث كريه أثَّر على كثير من الشخصيات الشمالية البارزة. ولولا ذلك الحادث لبقيت تلك الشخصيات لا تلقى بالاً للمواقف الجنوبية المعروفة، والتى ربما كانت تقوم على العداء لأوروبا بدلاً من العداء للاستعمار. قام أورجل Orgle، مفتش الأشغال البريطانى، سواء كان ذلك عن طريق التبجح أو المزاح الثقيل، أم من باب الغباء، قام بتهديد المعلم سعد زنقر zungur وفتح النار عليه من بندقيته، وذلك ليحذره من الدخول إلى ساحة مصلحة الأشغال التى كان يدور فيها شىء من الحوار والنزاع. وفى الوقت الذى كان أناس كثيرون يرون أنه كان ينبغى أن توجه إليه تهمة محاولة القتل، جاءت النتيجة على شكل غرامة مقدارها خمسة جنيهات إنجليزية لحيازته سلاحًا غير مرخص. كانت نتيجة ذلك أن رفع المعلم سعد زنقر مرئياته إلى أهداف أكبر من الأمراء الأوتوقراطيين، وأصبح الرجل أمينًا (سكرتيراً) عامًا لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، الذى يرأسه الدكتور أزكوى، هنا تجدر الإشارة أيضًا أن شكوك المعلم أمين Aminu كانو وسَّعت من

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

مجالاتها. وتوصل المعلم أبو بكر هو وبعض مسئولى الإدارة المحلية إلى ما مفاده أن هناك فى القانون الإنجليزى مراوغة أو مخرج، سمحت فى أحيان كثيرة، للمذنب بالعثور على مهرب فنى، لكنهم لم يكونوا راضين عن ذلك تماماً. فى الوقت نفسه بدأت الراديكالية المبتدئة تنظم نفسها بصورة أكثر دقة ووعياً فى بعض الأماكن الأخرى.

فى كانو، على سبيل المثال، قام رجل من الأجبيرا Igbirra، هو المعلم فى حبيب Habib راجى Raji عبد الله (الذى جرى تجنيده هو وأنتونى Anthony إيناهورو Ena-horo بواسطة سعد زنقر ليعملا ضمن طلائع الدكتور آزكوى الوطنية، التى تُمَثِّل جناح الشباب فى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى الذى أسسه سعد زنقر)، بتأسيس رابطة العناصر الشمالية التقدمية فى العام ١٩٤٧، وساعده فى ذلك المعلم أنتونى هويدى Howeidy ورجل من البدا Bida يدعى المعلم أبو بكر زوكوجى Zukogi، وتبع ذلك بتأسيس فرع لحركة طلائع الدكتور آزكوى الوطنية، التى أصبح رئيساً وطنياً لها، كانت فلسفة رابطة العناصر الشمالية التقدمية تقوم على أن العدو ليس هو الجنوب والجنوبيين، وإنما العدو هو الأتوقراطية فى كل أشكالها، وأن العلاج الناجح لتلك الأتوقراطية يكمن فى تكوين حركة وطنية تضم نيجيريا كلها. وعلى الرغم من انضمام ابن من أبناء أمير كنو إلى هذه الحركة فإنها فى أساسها كانت مكونة من الكتبة وطبقة الحرفيين. كانت حركة الدكتور آزكوى أكثر راديكالية من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، واستفادت من اسمها استفادة كبيرة نظراً لأن الدكتور آزكوى نفسه لم يتبرأ منها. هذه الحركة هى وحركة رابطة العناصر الشمالية التقدمية اصطدمتا بالإدارة المحلية فى كنو (التى سرَّحت بعض أعضائها)؛ يزاد على ذلك أن تعاطف الحركتين الواضح مع الجنوب أفقدهما الكثير من المساندة الحضرية الشمالية. يضاف إلى ذلك أن إدارة كنو الإقليمية لم تكن سعيدة بهاتين الحركتين. وعلى الرغم من ذلك كله، مضى التغيير الدستورى قدماً دون التأثر بأى شيء.

الاجتماع الافتتاحي للمجلس الإقليمي الشمالي الجديد بدأ باجتماع جمعية الشمال فى المبنى المؤقت لمركز كادونا التجارى، وكان ذلك الاجتماع فى اليوم العشرين من شهر يناير من العام ١٩٤٧ الميلادى، ولكى تقوم الجمعية فى ذلك الاجتماع بمهامها المحدودة المتمثلة فى طرح الأسئلة والتشاور فى الأوراق والوثائق الخاصة بالسياسة. كان تونى Tony شلنجفورد Shillingford قد ودّع المعلم أبا بكر فى محطة جوس Jos وهو يقول له: "لا تنس، أنك تصنع التاريخ!" وابتسم أبو بكر ورد عليه قائلاً: "لن أنسى ذلك" واقع الأمر أن الرجل سارع إلى المشاركة فيما يدور: كان سؤال أبى بكر، أول سؤال صغير يطرح بلغة الهوسا، وذلك تأسيساً على القواعد والأوامر المستديمة. قام السيد/ إريك Eric و W تومبستون Thompstone، كبير الممثلين المقيمين (والذى كان مفترضاً أن يحل محل باترسن Patterson فى منصب المفوض Commissioner الرئيسى، وكان العامة يعرفونه باسم Tombstone "حجر القبر") بإلقاء خطاب أوضح فيه أن الهدف الرئيسى من الدستور الجديد هو تطوير تلك الوحدة المفروضة من قبل بريطانيا، إلى شىء حى، يمكن أن يتطور بعد ذلك إلى أمة من النيجيريين. اختارت الجمعية بعد ذلك أسماء كل من المعلم بللو Bello كانو Kano، وأبى بكر تافاوا باليوا، إيرو Iro كاتسينا Katsina، وعلى (البداوى Bida الذى شارك أبا بكر ميزة الحدين فى كونه واحداً من العامة، لكنه ظل طوال خمس سنوات رئيساً لأبى بكر) وحيى أيلورين Ilorini، لكى يقوم بتقديم هذه الأسماء للحاكم كيما يجرى تعيينهم أعضاء غير رسميين فى المجلس التشريعى المركزى. كان رسوخ أقدام هؤلاء الرجال فى المقاطعات التى يقيمون فيها، وتسودهم لإنجليزية كلية كاتسنا يجعلهم خارج المنافسة، على الرغم من أن بللو Bello كنو Kano كان لديه شاب صغير جداً يدعى ميتا ما Mailama سول Sule، ابتدأ مستقبلاً سياسياً عملياً طويلاً استهله بمساعدة بللو كنو فى إعداده لخطبه.

فى المناظرة العامة الرئيسية التى أعقبت ذلك، جاء ترتيب أبى بكر تافاوا باليوا (الذى كان يجلس مثل الآخرين، بجوار ولكنسون Wilkinson ممثله المقيم، ولم يخرج

أحد منهما إلى ما بعد قُمطرات المدرسة، بمعنى أنهما لم يسبق لهما المشاركة فى اجتماعات عامة) الثالث فى الحديث، بلغة الهوسا، ثم استغنى عن المترجم، عندما بدأ الحديث بالإنجليزية. وفيما يلى نورد بعض كلمات هذا الرجل المختصرة، والمدوية التى تؤكد أنه الصوت الممثل للسواد الأعظم من زعماء الشمال، وقد وقف الرجل موقفًا سياسيًا أثر تأثيراً كبيراً على مراقبيه فى أواخر الخمسينيات، لكن هذا الموقف كان يتطلب من بريطانيا والبريطانيين ردود أفعال مرنة، وَيُحذِّر الجنوبيين من أن الأمة النيجيرية لا يمكن أن تُطَوَّر على أساس من الموروثات الجنوبية وحدها:

"بدءًا من سنى الحرب أخذت الأمور تتحرك بسرعة مذهلة. نحن لدينا قوانيننا ونظم الحكم الخاصة بها، لدينا موروثاتنا الخاصة بنا وعاداتنا التى تحظى منا باحترام كبير. وأنا أعرف تمامًا أن الكثير من هذه الموروثات والتقاليد بحاجة إلى إصلاح وأن البعض منها يجب إلغاؤه تمامًا إذا أردنا منافسة بقية العالم فى التسابق على التقدم الحديث. نحن محظوظون بوجود البريطانيين هنا ليكونوا مرشدين ومعلمين لنا. البريطانيون إداريون استعماريون كبار ولهم خبرة كبيرة فى تطوير مستعمرات استوائية كثيرة وإدارتها. أنا أود من كل موظفينا البريطانيين أن يدركوا أننا فى هذا الوقت، وباعتبارنا تلاميذ لهم، نحتاج منهم إلى كل البصر وكل الشجاعة، وأننا بحاجة إلى الإفادة من معرفتهم وخبرتهم. وإذا قدر للمقاطعات الشمالية أن تتغير، وأنا أعرف أن ذلك أمر حتمى، فأنا أود لهذه المقاطعات التغير إلى شمال نيجيرى حديث، ولا أريد لها أن تتحول إلى شكل من الأشكال الحضارية التقليدية، الذى لا هو أوروبى ولا إفريقى. المقاطعات الشمالية تواجه خطراً كبيرًا فى الوقت الحالى. الأفكار الشريرة تتسرب إلى الشمال من مصادر خارجية. أنتم تجدون فى بلاد الدنيا كلها رجالاً متعطشين للسلطة والقوة، يضايقون الحكومة ويقطعون على الناس سعادتهم بمطامحهم الشخصية الخاصة. أنا أعرف أن لدنيا هذه الفئة من الناس فى نيجيريا. ولست أعرف بأى حق يدعى هؤلاء الناس أنهم الناطقون باسم الشمال. يتعين علينا فى الشمال التعجيل بعمل

شيء لنثبت به لبريطانيا والعالم أن هؤلاء الزعماء الأنانيين ليسو ولا يمكن أن يكونوا ممثلين لنا بأى حال من الأحوال. نحن لدينا زعماؤنا الذين اخترناهم. وعلينا أن نبذل قصارى جهدنا فى سبيل إنجاح الدستور الجديد عن طريق التعاون مع الحكومة وأن نخلق فيما بيننا جواً من التفاهم والثقة المتبادلة".

جاء التعليق الوحيد المباشر على هذا التحدى الموجه إلى مسئولى ما وراء البحار (رفض هذا التعليق لأحزاب ليجوس) من قبل وزراء سكتو Sokoto، الذين أوضحوا أن الأمثال تؤكد أن من الصعب مطاردة شخص واللحاق به فى يوم واحد، وبخاصة عندما يكون مثل هذا الشخص مسافراً منذ ثلاثين يوماً: "ونحن نعلم علم اليقين أننا متخلفون كثيراً عن هؤلاء الناس من الناحية التعليمية، لكن لعله يدرك أن الأوروبيين هم الذين عطلونا وتركونا وحدنا فى موروثاتنا التقليدية لكن قطار المعلم أبى بكر كان بمثابة أكثر البيانات العملية العامة التى كانت تعكس آراء الزعماء التى كانت تنشر فى جريدة جاسكيا Gaskiya، بفضل أبى بكر إمام، فضلاً عن نشرها أيضاً لبعض الكتابات الأخرى، جاء عمود سكتو أيضاً بمثابة الشكوى العامة الأولى فى منتدى رسمى، ومفاد هذه الشكوى أن الإدارة البريطانية، على الرغم من مصادرها الدقيقة، ربما تكون قد أقبلت على القيام بمخاطرة تؤدى إلى قلب المجتمع الشمالى رأساً على عقب، بدلاً من احترام ذلك المجتمع والمحافظة على الاستقرار الذى هى تؤكد عليه. هذا الصراع الذى دار بين هؤلاء الذين يودون البناء بطريقة انتقائية على الأسس القديمة القائمة (وبالشكل الذى هى عليه)، وأولئك الذين كان يمكن أن يخاطروا بمحو الموروثات كلها، ويخططون لبناء مدن جديدة من الثقافة التقدمية، قُدّر له أن يستمر إلى ما بعد الاستقلال.

واقع الأمر أن الأفكار الراديكالية بدأت تعمل عملها. وهذا هو السيد/ أُبافيمى أولوو Obafemi Awolowo، المدرس اليوروباوى الجنوبى والصحفى أيضاً، أصبح يعمل بالمحاماة، وقد لفت كتابه الأول الانتباه فى الوسط الأكاديمى البريطانى، يقترح على

الحاكم تأسيس ما يتردد بين عشرة واثنتي عشرة "ولاية" States. وكان من رأى الحاكم أن تقديم مثل هذه الإطار الأمريكى الغامض من الحكومات المسئولة أمر سابق لأوانه. كان المؤتمر الذى عقده الممثلون المقيمون الشماليون المسئولون عن المقاطعات قد قرَّر حتمية تطوير مجالس الأحياء ومجالس القرى على نحو يجعل الإدارة المحلية على اتصال بالرأى العام. وقد جاء ذلك القرار متوافقًا مع التوجيه الذى أصدره وزير الخارجية فى شهر فبراير إلى الحُكام الأفارقة كلهم، والذى عاصر الجولة التى قام بها صاحب الجلالة فى جنوب إفريقيا، من أجل إقامة مرتكز ديموقراطى من الحكومات المحلية المنتجة، ومن النقابات التجارية والجمعيات التعاونية. كان العام ١٩٤٧ بمثابة العام الذى بدأت تختلف فيه نظرة بريطانيا فى فترة ما بعد الحرب إلى مسئولياتها الاستعمارية، عن نظرتها البسيطة قبل الحرب والتى كانت ترمى إلى العودة إلى أساليب ما قبل الحرب التى كان روزفلت Roosevelt يخشاها ويخاف منها. وجرى تعيين موظفى التعليم الجماهيرى (الذين كان يطلق عليهم فى بعض الأحيان اسم موظفى التنمية الاجتماعية) فى كل من ساحل Coast الذهب Gold، وفى نياسلاند Nya-saland وفى نيجيريا، وجرى استعمال التقنيات الجديدة فى زراعة الفول السودانى فى غابة تنجانيقا Tanganyikan البكر، وجرى أيضًا إنتاج البيض على ضفتى نهر جامبيا Gambia) ونظراً لأن الهدف الرئيسى من وراء ذلك هو تسهيل التموينات الغذائية فى بريطانيا، فإن وزارة الغذاء الموجودة فى لندن كان لها حق المراقبة والإشراف المطلق على محاصيل الفول السودانى، بدلاً من المديرين المحليين، أو الضباط الزراعيين الاستعماريين)، وهنا نجد "مكتب رابطة علاقات الكمنولث" يحل محل "مكتب الأملاك الأميرية" ونرى أيضًا تأسيس مؤسسة التنمية الاستعمارية، (التى كانت تشرف على إنتاج البيض فى جامبيا وتراقبه). وعلم مجلس العموم بحاجة اتحاد الإذاعة البريطانية إلى تقديم إذاعة على الموجة القصيرة بلغة الهوسا، اقترح أحد أعضاء حزب العمال بيع جزر الهند الغربية، حتى يمكن استعواض خسائر إنجلترا من الجنيهات الإسترلينية واستثمارات ما وراء البحار أثناء دفع تكاليف الحرب، واقترح أيضًا إعادة

نيوفوندلند Newfoundland إلى حكومة مسئولة (بسبب الكساد الذى حدث فى العام ١٩٣٤) وجرت مناقشة هذا الموضوع فى الوقت الذى دخلت فيه الهند والأمة الباكستانية المقسمة إلى قسمين مرحلة من الاستقلال الدامى والفوضوى على يدى كل من اللورد مونتباتن Montbatten وحكومة آتلى Attlee، وجرت دراسة الأساليب المتيسرة، ولم يثبت نجاح أى منها، وبخاصة فى مسألة ربط الممتلكات الأميرية القديمة بإدارة الأرض الأم لمستعمراتها، فضلاً عن تجنيد مواطنى الأملاك الأميرية للعمل ضمن قوات صاحب الجلالة الاستعمارية، وجرى أول اجتماع لمجلس غربى إفريقيا (الذى يضم الحكام، وكبار مستشاريهم، أو الأعضاء الممثلين للمجلس التنفيذى فى المناطق البريطانية الأربعة، وبرئاسة حاكم نيجيريا) فى مدينة أكرا Accra، طلبًا لتحسين مسألة التعاون الدولى والتعاون بين مختلف الأقاليم، وجرى وضع خطة لاجتماع لجنة جنوب الباسفيكى (المحيط الهادى) على أن يتم ذلك الاجتماع فى العام ١٩٤٩ وكانت فرنسا قد بدأت تواجه إضرابات ومظاهرات فى كل من مدغشقر والدار البيضاء. كما كانت هناك أيضًا تحركات وتألبات فى روديسيا الجنوبية التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى، وكانت تلك التحركات والتألبات تهدف إلى حرمان الأفارقة من حق التصويت وإبداء الرأى.

حظيت عودة أبى بكر تافاوا باليوا من كادونا بترحيب كبير. كان الرجل يشعر بالحرج لأن شحاذه القيثارى العجوز(*) ساركن Sarkin ماجانا Magana، كان قد بدأ يتغنى بمناقب الرجل فى المناسبات الشعبية العامة، وراح يربط بين الرجل والأمراء والنبلاء غير المتواضعين، لكن ذلك الشحاذ كان يمتدح أعمال هذا الرجل امتداحًا كبيرًا. يزاد على ذلك، أن ساركن مجانا هذا كان يمتدح أيضًا بعضًا من المعلمين القياديين فى باوتشى من أمثال أمين كانو ويحيى جوساو بمدائح أخرى لكن فى السر

(*) الشحاذ القيثارى : شحاذ يغنى باستعمار القيثار. (المترجم)

وليس فى العلن، استطاع هذا الشحاذ، بفضل فنه التقليدى أن يكسب أبا بكر إلى جانبه، والمعروف أن هذا الفن له علاقة بأغانى الفلامنكو Flamenco والفادو Fado ذائعة الصيت فى إيبريا. هذا الشحاذ لعب دوراً كبيراً بعد ذلك فى كثير من الحملات الانتخابية، عندما انتصرت السياسة على الشكوك، وذلك على حد قول الأغنية الشعبية الهوساوية التى تقول: daaóin a ke yin aiki (أنت تفعل معظم الأشياء العملية بإتقان)، كان ذلك يحدث فى الزمن الذى لم يكن فيه موظفون يعملون فى مجال العلاقات العامة. وجرى تسريب بعض التلميحات التى مفادها أن أبا بكر لا يزال مشغولاً ببعض المهام فى موطنه. حدثت لحظة من لحظات الاحتكاك الخفى عندما قام أحد موظفى التعليم المحليين، يدعى جاك Jack سبايسر Spicer، والذى كان بديلاً عن أحد أعضاء مركز يالوا Yalwa لتدريب المعلمين، بإحضار زوجته إلى المكتب للقيام بمهمة قصيرة الأجل كان أبو بكر يرى أنه لابد من قيامه هو بإنجازها. وصلت هذه الإهانة إلى مدى كبير من الاستغلال. وربما كان هناك عذر لذلك كله. بقى أبو بكر فى وظيفة مساعد التعليم التى تقلدها، مسئولاً عن إدارته المحلية، لكنه كان ينتظر من الرجل الخروج من باوتشى بصورة متدرجة، لكى يقوم بالتفتيش والإشراف على بعض جوانب العملية التعليمية فى الإدارات المحلية الأخرى، داخل المقاطعة (والتى كانت الإدارة المحلية تشارك فى تمويلها)، وباعتباره أيضًا أمين سر مسئول التعليم الابتدائى طوال السنوات الأربعة التى تلت ذلك، ندم الممثلون المقيمون (باستثناء أحمد كوماسى Coomassie) على انشغالات مساعد التعليم الجديد بالسياسة الابتدائية، ناهيك عن تغيبهم الدورى عن حضور جلسات التشريع والمجالس الأخرى، كل ذلك جعل هؤلاء الممثلين المقيمين يقبعون فى مكاتبهم فى الرئاسة العامة وبعيداً عن جولاتهم التفتيشية على مدارس الإدارات المحلية البعيدة.

بعد عودة أبى بكر من اجتماع كادونا الذى انعقد فى شهر يناير اسْتُدْعى الرجل على الفور إلى ليجوس لحضور الجلسة الأولى من جلسات المجلس التشريعى الجديد،

ومناقشة قامة المخصصات فى الميزانية. قام الثلاثة الذين جرى انتخابهم بصورة مباشرة لحضور اجتماع ليجوس بمقاطعة الاجتماع نظراً لأن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى آثر رفض دستور ريتشارد Richards، لكثرة عدد الأعضاء المعينين فيه من المقاطعات. كان خادم أبى بكر المدعو آدم Adamu برفقة الرجل أثناء جولته التى قام بها فى الجنوب، هذا الآدم جرى تدريبه بعد ترك المدرسة، على الالتحاق بمكتب التعليم الحكومى الرئيسى فى باوتشى فى وظيفة كاتب من الدرجة الثالثة. وزادت حدة عدم تعاطف أبى بكر مع السياسيين الجنوبيين، والسبب فى ذلك أن الرجل عندما استقل القطار من بلدة جوس Jos كان قد جرى حجز مكان له فى كابينة من كبائن الدرجة الأولى مع محامٍ شهير من الأجبو Igbo . كان المحامى، بحكم العادة السائدة، يرتدى اللباس الأوروبى، ولم يكن لباسه الأوروبى مكتملاً، وهاج وماج لإركاب شخص يرتدى اللباس الشمالى، وحسبه جاهلاً لا يتكلم الإنجليزية. وعلى الفور، وفى ضوء هذه الإهانة والغضب، أجرى أبو بكر بعض الترتيبات التى أسفرت فى النهاية عن تقاسمه إحدى الكبائن مع المعلم يحيى إيلورين، ووصل الرجل ومعه آدم الكاتب، إلى فندق كونتننتال القديم، خلف المقر الحكومى، وبالقرب من ورشة إصلاح ستاندارد Standard فانجارد Vanguardفى ليجوس. وفى المسافة ما بين أجيج Agege وإيدو Iddo، التقاهما مراسل من جريدة كوميت Comet التى يصدرها الدكتور آزكوى، هذا المراسل هو إسماعيل جوس Jose، وقد وجد أبا بكر شخصية أبوية، تسر الخاطر، وكان شديد الأسف على دستور ريتشاردز، ومن غير المحتمل أن يكون أكثر من مجرد واحد من تلك الأصوات المجهولة فى الشمال. كان أبو بكر فى حواراته العابرة يقول للجنوبيين الذين كانوا يتكلمون عن التحرير والتحرر من نير الاستعمار إن عامة شعب الشمال اعتبروا أنفسهم محررين عندما جاء الأوروبيون إلى البلاد، وأن الجنوبيين يتعين عليهم أن يدركوا أنهم كانوا محظوظين لأن الأوروبيين وصلوا إليهم قبل أن يقوم حكام الشمال باستعبادهم جميعاً. ويردف أبو بكر بعد ذلك، فى رسالة لاحقه أرسلها

إلى إحدى الصحف فى ليجوس. **"ليعلم الجنوب أننا لن نتعاون مطلقًا مع هذه العصابة من المثيرين الذين لا يعرفون ذلك الذى يقومون به".**

ليس من الدهشة فى شىء ألا يكون أبو بكر تافاوا باليوا فى حال نفسى يسمح له بالهدوء والتعلم، ليكون شأنه فى ذلك شأن أعضاء البرلمان الجدد. وبعد أن قام الحاكم بالتفتيش على حرس الشرف خارج قاعة المجلس التشريعى أثناء انهمار المطر، عاد أعضاء المجلس إلى أماكنهم قبل حلف يمين الولاء، وانزعج الخرافيون نتيجة فأل انفجار مصباح كهربى أثناء العاصفة. جلس الشماليون العامون الخمسة مباشرة خلف ممثليهم الرؤساء الأربعة، أمير جواندو وأمير كاتسنا، وعطا الأجبيرى، ثم أمير أبوجا Abuja، كان الأربعة مهندمين تمامًا، وكانوا مصرين على أن تتوجه إليهم الأنظار فى تلك البيئة غير المعتادة. وكان بصحبتهم كبير مفوضيهم وكبير المندوبين المقيمين فى الشمال.

كان الحاكم، فى الاجتماع الختامى، الذى جرى فى ظل الدستور القديم، قد ذكر أن ٥٤٪ من السكان الذين يعيشون فى مقاطعات الشمال قد شاركوا بنسبة حوالى ٤٦٪ من إجمالى المتحصلات الإقليمية (بما فى ذلك أنصبة الإدارات المحلية)، وأن هذه الحصة كانت بنسبة أربعة شلنات وست بنسات لكل ممول من الممولين المباشرين، وأن مقاطعات الشمال حصلت على ٣٦٪ من إجمالى الإنفاق، وصرح أيضًا أن ٢٠٪ من الغرب النيجيرى ساهموا بنسبة ٣٠٪ بمعدل شلنين وست بنسات عن كل ممول، وحصلت على ٢٦٪ من الإنفاق، وأن المساهمة التى تقدر بحوالى ٢٦٪ فى الشرق النيجيرى أعطت حوالى ٢٤٪ بواقع شلن واحد وتسع بنسات عن كل ممول، وحصل الشرق على ٣٨٪ من الإنفاق. لم يلفت الحاكم الانتباه إلى بعض الحقائق الأخرى، التى من قبيل توفير الماء والكهرباء والمستشفيات فى الجنوب، وأن ذلك كان بمبادأة من الحكومة المركزية، لكن هذه المرافق فى أماكن توافرها فى الشمال كان الباعث عليها والممول لها هو الإدارات المحلية الكبيرة. كان سؤال أبى بكر الأول فى المجلس الجديد

يتعلق بأنصبة عادلة من المتحصلات للشمال، وتعويض الخسائر السابقة. وأكدوا له أن الإنفاق الحكومى لم يكن من قبل محسوبًا بهذه الطريقة عند تخصيصه للتجمعات المختلفة – لكن ذلك ستجرى مراعاته وأخذه فى الحسبان مستقبلاً. وطرح أبو بكر أسئلة أخرى عن أحقية طلاب الشمال فى كلية التعليم العالى فى إيبادان ("جامعة غرب إفريقيا المقترحة" التى تقرر تأسيسها فى العام التالى)، كما طرح الرجل أسئلة عن التعليم العام، وعن رسوب طلاب الشمال الأحد عشر الذين التحقوا بكلية يابا العالية فى الفترة ما بين ١٩٢٣ و ١٩٤٦ . ومضى الرجل فى كلامه مطالبًا بتعديل القانون الجنائى الذى يطالب عمال الخدمات الضرورية العاملين فى المرافق العامة بإعطاء مهلة مقدارها أسبوع قبل القيام بالإضراب عن العمل، وكان من رأيه أيضًا أن الذين يحصلون على أجورهم مشاهرة ينبغى أن يُعْطوا مهلة مقدارها ثلاثة أسابيع. ولم يغير الرجل موقفه الذى مفاده أن عمال الخدمة العامة يشكلون مجموعة مختلفة عن عمال التجارة والصناعة، وأن هؤلاء العمال بحكم أنهم يتميزون بخدمة الجمهور، يحتم أن تكون مصالح الجمهور فوق حقوق المُسْتخدمين.

ونحن نرى أن القراء المشغوفين بقراءة الصفحات التالية بحاجة إلى شىء من الطمأنينة. نحن لا ننوى هنا تسجيل كلمة قالها أبو بكر تافاوا باليوا فى مساهماته البرلمانية طوال السنين، لكن الكثير من هذه الكلمات كانت مهمة ولا يمكن أن يتغاضى عنها الكاتب الذى يريد لموضوعه التحدث عن نفسه. مساهمات الرجل البرلمانية الباكرة عن طريق المداخلات تؤكد ذلك الذى أوردناه فى القسم الأول من الكتاب، كما أن الخطاب الذى ألقاه فى المجلس التشريعى، يعد مناسبة من المناسبتين اللتين لا يمكن نسيانهما، وأثبتا أنهما كانتا أساسيتين فى قصة نيجيريا، يزاد على ذلك أن الإيجاز سيكون أفضل من التعليق. والمرء يمكن الحكم عليه من كلماته غير المنمّقة أكثر من التأويلات التى يسهل الإتيان بها . بعد أن عاد أبو المجلس، المكرم تى إيه جى أوجنبيى Ogunbiyi، تلك الشخصية كبيرة السن المحبوبة من سكان مستعمرة ليجوس، وجلس

فى مقعده، أصبح أبو بكر تافاوا باليوا ثانى المتكلمين فى مسألة المخصصات. بدأ أبو بكر بالتعليق على التقرير الذى قدمه هاراجين Harragin عن مراجعة المرتبات. كان السير ولتر Walter هاراجين، كبير قضاة ساحل الذهب قد جرى استدعاؤه باعتباره وسيطًا أمينًا، إذ لم يستطع المكتب الاستعمارى ولا الحاكم النيجيرى العثور على المفوض المناسب الذى يمكن أن يترأس هذه المراجعة. كانت النتائج التى توصل إليها هذا القاضى تتعلق بتحسين صافى راتب عامل الخدمة العامة، وبالتالى رفع مستوى معيشة هؤلاء العمال، وذلك للمرة الأولى بعد فترة الكساد العظيم نتيجة هبوط الأسعار. اعترف هاراجين Harragin رسميًا بوجود فاصل بين الخدمات "الكبرى" والخدمات "الصغرى"، وأدخل أيضًا فكرة التقاعد "الطوعى" أو إن شئت فقل "الاختيارى" فى سن الخامسة والأربعين (وقدم أيضًا فكرة المتأخرات لتكون حافزًا أو مثبطًا للطرفين)، ووضع لوائح عامة للرواتب الأساسية لكل العاملين فى الخدمات الكبرى، مع صرف بدل الاغتراب (وذلك بتوصية من الحكومة البريطانية Whitehall) (أو إن شئت فقل البيت الأبيض البريطانى)، وعلى أن يصرف ذلك البدل للضباط والعاملين فيما وراء البحار حتى يمكن تعويضهم عن فتح منزلين أحدهما فى الوطن والآخر فى مستعمرة الخدمة. وطالب أبو بكر بمساواة ظروف العاملين فى الإدارة المحلية بظروف العاملين فى الحكومة المركزية (فى ذلك الوقت كان كبير كتبة من الدرجة الأولى فى الإدارة المحلية، كما سبق أن رأينا، يحصل على الراتب الذى يتقاضاه مساعد التعليم، وكان يحصل على أجر سنوى مقداره ٢٤٠ جنيهًا إنجليزيًا، ويزداد بناء على العلاوة السنوية إلى أن يصل إلى ٣٠٠ جنيهًا إنجليزيًا فى العام، وكان مدرس اللغة العربية يحصل على اثنى عشر جنيهًا، فى حين كان الإدارى المعين حديثًا يتقاضى ٤٥٠ جنيهًا إنجليزيًا،وبدل اغتراب مقداره ١٥٠ جنيهًا، لكنه كان يدفع من ذلك المبلغ نسبة مئوية من الراتب نظير الإيجار والإقامة الرسمية، على الرغم من حصوله على نصف هذا المبلغ إذا كان يعيش فى مبنى "مؤقت" جرى بناؤه من قبل باللِّبِن والقش. ثم انتقل الرجل إلى موضوع

خطبته، التى كتب مسودة القسم الأكبر منها فى باوتشى الهادئة المتخلفة، وذلك بتشجيع من روبرت Robert رايت Wright ضابط الحى فى أشهره الأخيرة قبل أن يصبح ضابطًا مسئولاً عن التعليم؛ يزاد على ذلك أن إلقاء أبى بكر تافاوا باليوا لخطبته، وموسقة كلامه، ونطقه السليم فى ذلك أكسبه أعجاب الناس جميعًا بما فيهم المُهَيِّجون(*).

"نحن لا نزال بعيدين عن كوننا بلدًا واحدًا، على الرغم من قطار السكة الحديد والسيارة اللذين هيئا لنا فرصة التفاهم فيما بيننا. هذا بحد ذاته ليس كافيًا. نحن هنا ممثلون لمجتمعات مختلفة، لنناقش مشكلاتنا المشتركة وتحديد مصائرنا المستقبلية. نجاح أو فشل دستور ريتشاردز يقع أصلاً على عاتق الأعضاء غير الرسميين. ولا ينبغى علينا أن نغمض أعيننا عن الحقيقة التى مفادها أن اليوروبا والأجبو وكذلك الهوسا، الذين يشكلون القبائل الأساسية فى البلاد، لا يتفقون على شىء واحد. الجماهير الشعبية لا تزال أمية، ويجب أن لا يغيب عنا دومًا وضع شعبنا الذى ليس لديه امتياز التعليم الغربى، ولا يمكن أن يكسب أفراده عيشهم عن طريق الجلوس فى المكاتب. لدينا كثير من القبائل البدائية التى تعيش على شكل مجتمعات صغيرة فى التلال وفى القرى على الكفاف. يتعين علينا تعليم نسائنا. بعض الناس ينظرون إلى البلدان الأوروبية والآسيوية ويحاولون إجراء المقارنات. وهم فى ذلك يتناسون الزمن الطويل الذى استغرقته تلك البلدان كى تصل إلى مراحل نموها الحالية. مجتمعاتنا البدائية يتعين علينا أن نصل بها إلى مستوى معقول من التعليم قبل أن نطلق على نيجيريا اسم البلد المتحضر".

(*) المهيج : بضم الميم وتشديد الياء وكسرها : داعية يستهدف إثارة الشعور العام فيما يتصل بقضية سياسية إلخ . (المترجم)

"الأمية المطبقة حاجة من احتياجات المقاطعات الشمالية، ونحن بحاجة أيضًا إلى أن يسير تعليم أبنائنا وبناتنا جنبًا إلى جنب. ليس لدينا سوى مدرسة ثانوية واحدة – ونحن نطالب بخمسة مدارس أخرى، ثلاثة منها للأولاد واثنتان منها للبنات. فيما يتعلق بمسألة المنح التعليمية، يتعين حصول المقاطعات الشمالية على المزيد منها، والسبب فى ذلك أن المقاطعات الغربية والشرقية تتمتع بهذه الفرص منذ زمن طويل. لقد جاء الدور على الشمال، ونحن يتعين علينا تعويض ما فاتنا. نحن سعداء أن الحكومة لاحظت أن مقاطعات الشمال لم تحظ باستعمال حقها فى الحصول على حصتها كاملة من الحكومة النيجيرية. حسن نحن لا نريد الخسارة مطلقًا، ونحن نطالب بتنمية الشمال بحيث يستوعب القسم الأكبر من المبالغ المخصصة لنيجيريا من قبل التنمية الاستعمارية، وبذلك تستطيع تلك المقاطعات تعويض خسائرها من الدخل الحكومى. نحن نطالب بإجراء تحسينات فى القرى التى بقيت فى أماكنها التى كانت تقيم فيها قبل الاحتلال البريطانى، كما نطالب أيضًا بأسعار أفضل للحاصلات الزراعية، الأمر الذى يعنى رفع مستوى المعيشة. الزراعة وحدها لا يمكن أن تنقذنا، لابد أن يكون هناك تصنيع. وأنا أحب أن ألفت انتباه سيادتكم إلى تخفيض الطعام المخصص للاستهلاك المحلى: ستحدث مشكلة فى الغذاء مستقبلاً.

هنا نرى الرجل يعكس القلق الذى انتاب الإدارات المحلية والذى مفاده أن انتهاء "تشجيع" زمن الحرب على زراعة المزيد من المحاصيل لصالح المجهود الحربى، والفرص التى هيأها ذلك التشجيع لملء صوامع غلال المسئولين بأسعار محددة، قد لا يكون مفيدًا فى رأى المنتجين الفرديين.

...... فيما يتصل بالإدارات المحلية ـ نحن نود تحديد وضع أمرائنا ورؤسائنا بصفتهم حكامًا لشعوبهم وأهليهم، وأن يكون ذلك التحديد واضحًا جليًا، السواد الأعظم منهم أصحاب خبرة. خبراتهم ومعرفتهم بشعوبهم والظروف المحلية لها وزن كبير.

جاءت إثارة ذلك لموضوع على درجة كبيرة من الجدل بين الضباط البريطانيين الميدانيين، ناهيك عن المسئولين العاميين فى الإدارات المحلية، ولم يثر الرجل هذا الموضوع بعد ذلك فى هذه الفترة المبكرة.

"...... نحن لا نزال بحاجة ماسة إلى الرعاية الطبية، لكن يجب أن لا ننسى أن الطفل يسارع فى الوصول، إلى سن الرشد والتمييز، وهو الآن يطالب بتهيئة الفرصة لنموه نموًا سريعًا. أخطاؤنا يمكن تصحيحها بسهولة لأننا سوف يتعين علينا طلب النصح والإرشاد من الضباط البريطانيين.....

"أخذ بعض الناس فى نيجيريا على عاتقهم مسألة الحديث عن البلاد كلها على أنها شيء واحد. قام وفد من هؤلاء الناس بجولة فى المقاطعات الشمالية. نحن لم نفهم فى ذلك الوقت الهدف الحقيقى من وراء تلك الجولة، وأخطأنا لأننا أخذناها على أنها جولة من جولات الصداقة. ونحن لم يخطر ببالنا أو نحلم مطلقًا بأن يصبح مثل هؤلاء الناس ناطقين باسمنا. ونحن نود من العالم أن يعرف أننا فى الشمال لدينا زعماؤنا، الذين اخترناهم بأنفسنا، ليكونوا حكامًا علينا وناطقين باسمنا. ونحن لا نريد من جيراننا الجنوبيين التدخل فى نمونا وتطورنا. ونحن لم يحدث أن ربطنا أنفسنا بأنشطة هؤلاء الناس. نحن لا نعرفهم، نحن لا نعترف بهم، ونحن لسنا مسئولين عن أعمالهم أو تصرفاتهم.

"سنطالب بحقوقنا عندما يحين الأوان. وإذا ما غادر البريطانيون نيجيريا الآن، فى هذه المرحلة، فإن شعب الشمال سيواصل وبلا توقف غزوه إلى أن يصل إلى البحر".

قام الحاكم على عجل بتدوين ملاحظة تهنئة للمعلم أبى بكر مستخدمًا فى ذلك قلمه الملىء بالحبر الأحمر، وقام بتمرير هذه الملاحظة عن طريق حاجبه من المكان الذى يجلس فيه. هذا المنظر الفاتن هو والخاتمة الكهربية، بما فيها من إشارة مقنعة إلى

المحاربين الشماليين الماضين الذين سبق أن شقوا لأنفسهم طريقًا فى جنوب أوفا Offa، كان بمثابة تحدٍ مباشر لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى. هذا الحزب لم يكن معتادًا على الهجوم عليه بلغة إنجليزية سليمة وخالية من الأخطاء، بل إنه كان معتادًا على ربط المسئولين البريطانيين فى عقد الجدل والنقاش. هذا الهجوم كان بعيدًا كل البعد عن الترحيب به فى الدوائر السفلى من السكرتارية النيجيرية. وبذلك تكون أيام ترك الأمور إلى مثل هؤلاء الأعضاء العجيبين فى إدارة الشمال (الذين كانوا يكرهون إلحاقهم بين الحين والآخر على ليجوس) لكى يحافظوا على النظام فى المقاطعات الشمالية الشاسعة والبعيدة، فى الوقت الذى مضوا هم فيه إلى ألغازهم التمويلية، مع كل من ليجوس ووستمنسر Westminstor، ومع جيرانهم المجحفين المتمركزين فى كل من أينوجو Enugu وإيبادان Ibadan، بذلك تكون تلك الأيام قد ولَّت وانتهت تمامًا. يزاد على ذلك أن روح القتال التى جسَّدتها تلك الخطبة أعادت إلى تلك الإدارة الشمالية عنصرًا من عناصر الثقة والفخر التى سبق أن تآكلت بفعل الآثار الوخيمة التى ترتبت على الحرب وانخفاض الأسعار، وبخاصة بعد أن وجدت بعض الأمور المفضلة لديهم انعكاسها فى هذا المصدر غير المنتظر.

هذه الخطبة النارية كان لها أثرها المستديم فى ذاكرة كبير سكرتيرى (أمناء) الحكومة. وهذا هو السيد/ هوغ Hugh ماكنتوش Mackintosh فوت Foot، الذى رُقِّى مؤخرًا وهو فى ريعان شبابه من فلسطين إلى شرق الأردن، إلى سيرلانكا Cyrenaica، ثم إلى قبرص، ثم إلى جاميكا ليخلف السير جورج George بيرسفورد Beresford ستوك Stook (الذى انتقل ليحكم سيراليون)، هذا الرجل حظى بامتياز الاستماع إلى كل من لويد Loyed جورج Geoge، وبيركنهد Birkenhead، وبيفان Bevan وتشرشل، ولكنه يضع خطبة أبى بكرتافاوا باليوا على قدم المساواة مع خطب هذه الشخصيات البارزة. كان الجو مشحونًا بالانفعال، حتى بين "رجال المحطة الأخيرة كريمى المحتد"

من أهل باوتشى التى بدأت فيها هذه الأمور كلها. واقع الأمر أن هذا الانفعال دام عشرين عامًا، وبمرور الوقت غير المعلم أبو بكر رؤيته لنيجيريا.

فى الوقت نفسه، وقبل أن ينفض المجلس، استطاع أبو بكر أن يحصل من هوغ ماكنتوش قوت، فى الوقت المحدد لطرح الأسئلة، على تعريف جديد "للحكم غير المباشر": "وعليه يمكن تشكيل المؤسسات الإدارية الطبيعية وتحسينها على نحو يمكن معه تشكيل إدارة كفؤة تقوم على المفاهيم الحديثة، يمكن أن تتحمل مسئولية العمل الإدارى فى المنطقة، كان الأمر لا يعدو مجرد كلمات جرت على ألسنة ضباط التنفيذ فى الغابة، على الرغم من أن الأمر كان يسمح باللجوء إلى استعارة برهام Perham التى أوردها عن الإدارة المحلية باعتبارها واحدة من المفاصل: هذه الاستعارة هى التى أعانت أبا بكر على أى ضابط من ضباط الأحياء فى المستقبل، الذين كانوا يؤثرون القيام بالعمل بأنفسهم طلبًا للإنجاز الاقتصادى، بدلاً من أن يتركوا الإدارة المحلية تتعلم من أخطائها باهظة التكاليف أو أخطائها نتيجة الفساد.

جاءت جلسة المجلس بمثابة إحداث تغييرات تنظيمية أخرى مستوحاة من ريتشاردز Richards. كانت اللجنة المالية الدائمة التابعة للمجلس التشريعى قد استسلمت وأذعنت لسيطرة الأغلبية غير الرسمية فيما يتعلق بالإنفاق المالى، فى الوقت الذى ليس لها فيه أية سلطة أو مسئولية على الأذرع التنفيذية فى الحكومة. أدى ذلك أيضًا إلى عرقلة التنمية المتزامنة لمجالس الخدمة المدنية التى أدخلها هوايتلى Whitely، نظرًا لأن رؤساء هذه المجالس لم يكونوا قادرين مطلقًا على الإشراف على المفاوضات من منطلق علم سابق بذلك الذى يتعين على الحكومة الموافقة أو عدم الموافقة عليه ـ كان ذلك كله مُعرَّضًا للأعضاء غير الرسميين فى اللجنة المالية الدائمة، الذين لم يكونوا خاضعين لأى سوط من أسواط التأديب أو النظام. وجرى أيضًا إنشاء منصبين جديدين: سكرتير (أمين) التنمية، على أمل تسريع وقع التقدم الاقتصادى عما كان عليه يوم أن كان فى الأيدى السياسية الممسكة بحكم الأعراف والتقاليد، ممثلة فى كبير

الأمناء (السكرتيرين) والأيدى المالية الخاصة بالأمين (السكرتير) المالى، وقد بقى هذان الأمينان فى مَنْزِلةٍ أعلى من منزلة أبى بكر، كما أنشئت أيضًا وظيفة مفوض الخدمة المدنية الذى كان ينتهج التقاليد والموروثات الكاميرونية سعيًا إلى مقاومة المحاولات الدامية إلى التنازل عن السلطة للمقاطعات (كان المفوض يقوم بذلك من خلال توجيه مساعديه المتمركزين فى ثلاث سكرتاريات إقليمية). أدت هذه الجلسة أيضًا إلى تقديم أبى بكر إلى كثير من وجهاء الصحافة، وكان من بين الزائرين المنتظمين على مر السنين رجل يدعى جبريل Gabriel فاجبور Fagbure الذى قُدر له أن يكون رئيسًا لتحرير جريدة وست West أفريكان African بايلوت Pilot، بعد ذلك بعشر سنوات.

بعد انتهاء شهر رمضان فى العام ١٩٤٧، وجد المعلم على Aliyu أبو بكر، الذى تخرج فى مدرسة القانون فى كنو، بعد أن ترك فصل أبى بكر تافاوا باليوا فى باوتشى، وانتظم فى سلك التدريس اعتبارًا من ذلك التاريخ، وجد نفسه مشدودًا ومنجذبًا إلى ابنه أبى بكر تالى Talle، وبتشجيع من أمين كانو قام المعلم على أبو بكر بمصارحة أبى بكر بهذه المشاعر بعد أن عاد أفراد المجلس التشريعى كلهم إلى موطنهم. كان المعلم أبو بكر تافاوا باليوا سعيدًا بأن وعد المعلم على أبى بكر أن يفضله خطيبًا لابنته على أى خطيب آخر.

بعد ذلك بفترة قصيرة قامت بعثة الطِّفلة (البعثة الثانية من بعثات البحث عن حبوب الزيت) بزيارة غرب إفريقيا البريطانى، بحثًا عن وسائل إحباط المجاعة أو منعها التى يخشى الكثيرون حدوثها نتيجة حدوث انفجار سكانى إفريقى. صادف ذلك أو تزامن ذلك مع تأسيس أول مجلس من مجالس التسويق باعتبار أن ذلك المجلس كان بديلاً عن المجالس السلعية الطارئة التى أنشئت فى زمن الحرب، وتأسست المجالس الأخرى خلال العامين التاليين: كان منها مجلس خاص بالفول السودانى، ومجلس آخر خاص بالقطن، وثالث خاص بالكاكاو ومنتجات نخيل الزيت، كانت تلك المجالس تغطى الثروة الأولية فى الأقاليم الثلاثة، وأدخلت مسألة الأسعار المضمونة أمام

المنتجين من الفلاحين، كما أدخلت أيضًا مسألة الشراء المحلى والتسويق التصديرى، كما أدخلت هذه المجالس أيضًا فكرة توفير الأرصدة الحاجزة حتى يمكن التغلب على التقلبات العالمية. كان السيرجون ماكفرسن، الحاكم الجديد، سعيداً وفخوراً بإنشاء هذه المجالس التداخلية، سعادته وفخره بالتغييرات الأخرى التى حدثت فى حكمه الذى استمر سبع سنوات. كان ماكفرسن ينظر إلى هذه المجالس على أنها تحتفظ بالأرصدة والمبالغ المطلوبة للزراع والفلاحين فى الأوقات العصيبة. العاملون فى هذه المجالس كانوا ينظرون إليها باعتبارها فرصة لتجميع رأس المال المطلوب للبحث وتمهيد الطرق الفرعية، وذلك الذى لم يكن يطلق عليه حتى ذلك الحين اسم "تنمية البنية التحتية"، وأن ذلك سوف يؤدى بالتبعية إلى اتفاق سياسى قد لا يفيد الفلاحين الذين ينتجون المحاصيل. يزاد على ذلك أن الشركات الحرفية التجارية التى من قبيل الشركة الزراعية المتحدة وعلى الرغم من انشغالها بهذا الأمر من خلال الترخيص لوكلاء الشراء، كانت مترددة منذ البداية حول المآل الذى ستئول إليه كل هذه المزايا.

قام الحاكم هو والسلطان بوضع حجر الأساس فى كادونا لمقر انعقاد المجلس التذكارى فى عهد الحاكم لوجارد، وبذلك يصبح هذا المبنى أول مقر لكل من المجلسين المُكَوَّن منهما المجلس الإقليمى الشمالى. كان الحزب الوطنى النيجيرى الكاميرونى، بعد حملته الواسعة فى سائر أنحاء البلاد وجمع التبرعات والأموال، والذى استخف به المعلم أبو بكر فى المجلس التشريعى، قد قام بزيارة أخرى إلى بريطانيا العظمى فى شهر أغسطس، احتجاجًا على دستور ريتشاردز وللترويج "لميثاق الحرية" فى الحزب: وقد أدخل ذلك الترويج إلى السياسة فكرة تقسيم نيجيريا إلى "ولايات" States. وفى بريطانيا أيضًا، قام الوفد الذى كان يضم النقابى التجارى ميخائيل Michael إيه أو إيمودو Imudu، وسيدة تدعى رانسوم Ransome كوتى Kuti، ومدرس برنى Borno يبلغ من العمر ثلاثين عامًا قاموا بعقد اجتماعات فى المدن الإقليمية، وقد لقى هذا الوفد شيئًا قليلاً من التفاهم والتفهم وذلك على العكس مما لقيه الوفد الذى جاء فى

العام ١٩٤٥ إلى بريطانيا، على الرغم من حضور واحد أو اثنين من الرؤساء من الفرع لتنشيط مشاركة المحامين. والمؤسف أن هذين الرئيسين اكتشفا أن وزير الداخلية، كريش Creech جونز Jones، لم يكن متعاطفًا أو متفهمًا لهما مثل ريتشاردز Rich-ards نفسه. وقد طلب وزير الخارجية من ذلك الوفد تجربة الدستور الجديد. وليس هناك ما يدهش فى عدم استجابة أبى بكر للاقتراحات التى قدمت إليه كيما ينضم إلى بعثة الدكتور أزكوى. فى أواخر العام حضر السير ستافورد Stafford كربس Cripps، مستشار حزب العمال أول اجتماع عقده الحكام الأفارقة بعد الحرب، لتعبئة موارد مناطقهم للمساعدة فى إعادة إعمار غرب أوروبا وتقويته، والذى أصبح ممكنًا بفضل مشروع الجنرال مارشال الأمريكى، الذى أُعلن فى شهر يونيو. واضطر كربس إلى إنهاء تحويل الجنيه الإنجليزى، بسبب فشل الاقتصاد البريطانى فى التَّعافى.

أزعجت الجولة التى قام بها حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى العام ١٩٤٥-٤٦ لجمع الأموال والتبرعات، الكثيرين من أهل الشمال، وذلك على الرغم من الطابع الأجنبى لتلك الجولة، التى أدت فى باوتشى، على سبيل المثال، إلى عثورها على مترجم هوساوى واحد كُفء (هو المعلم سعد زنقر): وكان تلك بحق المناسبة التى التقى فيها كل من الدكتور أزكوى Zik وأمين كانو لأول مرة. فى مقاطعة النيجر، طلب أمير أبوجا من ممثله المقيم مساعدته فى الوقوف فى وجه السياسيين الجنوبيين، وهنا اقترح السيد/ برايان Bryan شيرود Shrwood سميث Smith، على أمير أبوجا قيام المعلم حسًّان Hassan (شقيق الأمير الذى كان على وشك السفر لمساعدة الدكتور بارجرى فى تدريس لغة الهوسا فى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية فى لندن) بالكتابة إلى مكتب العلاقات العامة فى الحكومة المركزية فى ليجوس. وجرى نشر الرسالة على شكل قائمة إخبارية رسمية، أحدثت ضجة أدت إلى قفل المراسلات حول هذا الموضوع. وقد أدى ذلك، بطبيعة الحال، إلى إزعاج الكثيرين من الشماليين، بما فى ذلك المعلم على Aliyu، موزع المهام Makama فى بدا Bida، كما أحدث ضجة أيضًا فى مقاطعة النيجر

(اللقب "موزع المهام" Makama، هو لقب رسمى فى الإدارة المحلية ويطلق على المسئول الذى يوزع المهام على كبار رجال الحى). أبلغ شارود Sharwood سميث Smith مُوَّزع الأعمال Makama الذى كان رئيسًا لمدرسة بدا Bida المتوسطة، أن الشمال يتعين عليه اللجوء إلى الوسائل الدستورية، وأن يجاهر بذلك فى المجالس، أما هو شخصيًا فلم يكن يعرف كيف سينجح الشمال إذا لم يتمكن من جمع الفئات الأربعة كلها فى تنظيم واحد، مثل اللفظه الأوائلية SMAT (التى معناها الرؤساء Sarakuna، والمعلمون Mala-mai، والتجار Attajirai، والفلاحون Talakawa). فكر مُوزع المهام فى ذلك الأمر مليًا، وتحتم عليه مشاورة زملائه أعضاء المجلس التشريعى الشماليين فى الأمر.

كان المعلم أمين كانو قد تبع المعلم أبا بكر للدارسة أيضًا فى لندن، التى لعب فيها دورًا سياسيًا كبيرًا، كما عبث فيها أيضًا بعضوية الحزب الشيوعى (وقد أدى الدليل المادى على هذه العضوية بعد ذلك بسنوات عدة إلى إغضاب واحد من رؤساء الوزراء الشكوكين)، فى ذلك الوقت كانت مسألة إعادة تشكيل هيئة "الكومنترن" Co-mintern للترويج للثورة الماركسية العالمية، والتى جرى حلها فى العام ١٩٤٣ لتصبح هيئة "الكومينفورم" Cominform، التى هى هيئة تنسيق شيوعية أوروبية، قد انتهت واكتملت. تولى أمين كانو أيضًا مهامه باعتباره سكرتيرًا لرابطة رفاه معلمى الشمال، وأخذ هذه المهام مأخذ الجد، على الرغم من بعد المسافة. وبعد عودة الرجل إلى مدرسة باوتشى المتوسطة، أعاد تأسيس هذه الرابطة تحت اسم رابطة معلمى الشمال، التى عقدت أول اجتماع لها فى زاريا فى حضور أمير زاريا باعتباره راعيًا لهذه الرابطة، وألقى النقيب مونى Money سكرتير رئيس الحى، كلمة الافتتاح، وانتخب شتيما Shet-tima شيهو Shehu عجيرام Ajiram، ناظر مدرسة برنو المتوسطة، رئيسًا للرابطة، وجرى أيضًا انتخاب أبى بكر تافاوا باليوا نائبًا للرئيس. وحضر هذا الاجتماع أيضًا كل من الدكتور راسل Russel على باراو Barau ديكو Dikko (الضابط الطبيب الوحيد فى حكومة الشمال) وهو من الفولانيين وقد تربى فى الجمعية الكنسية التبشيرية فى

وساسا Wusasa، بالقرب من زاريا (Zaria، والمعلم دى إيه رافى Rafi (أحد مسئولى السكك الحديدية)، كما حضر أيضًا المعلم أبو بكر إمام ذلك الاجتماع أيضًا. وقد غلب على رابطة معلمى الشمال قبول أعضاء رابطة العناصر الشمالية التقدمية الأساسية، وسرعان ما أصبح لهذه الرابطة خمسة وعشرين فرعًا، وسرعان ما كوفئت أيضًا بتعيين ممثل لها فى مجلس التعليم من باب الاعتراف بعناصرها المحافظة. فى ذلك الوقت المصادف لعودة المعلم أبى بكر تافاوا باليوا لمهامه الوطنية، قامت المدرسة المتوسطة، التى لم يعد ناظراً لها بمسيرة أخرى إلى جوبى Gubi، وجاءت تلك المسيرة بمثابة إضراب وُجِّه اللوم فيه إلى أناس من خارج المدرسة حرَّضوا التلاميذ على القيام بتلك المسيرة. وأعيد الطلبة إلى المدرسة، وهددهم المعلم عثمان جعفر بعقاب شديد، وقال إن الشبان الذين جرت رعايتهم على هذا النحو ينبغى أن لا يعاملوا أساتذتهم بمثل هذه الطريقة.

عاد المعلم أبو بكر بعد ذلك مباشرة إلى كادونا فى البداية، ثم بعد ذلك إلى ليجوس، بعد تسوية المسائل الروتينية الاستشارية والوطنية شبه السنوية. وأقام الرجل بضع سنوات فى مسكن على الطريق فى جوس Jos مع واحد من كبار رجال المال والأعمال وزميل من المشرِّعين، هو محمد ولد كرفلاه Karfalla، ثم أقام بعد ذلك فى منزل أمير باوتشى فى منطقة تودون Tudun وادا Wada فى كادونا، وهى المنطقة التى بنى الرؤساء فيها مساكنهم، لكن الرجل كان يمضى الليل بطوله بصحبة المعلم يحيى جوساو فى الكلية عند تغيير القطار فى محطة كادونا للذهاب إلى ليجوس أو المجىء منها. لم يكن الرجل يتعجل مسألة التخصص. قام أبو بكر فى المجلسين بتقديم انتقادات مُسْهبة للسلطات المقترحة لمجلس يتم إنشاؤه بناء على قانون تراخيص سيارات النقل. صحيح أن أجور الشحن والنولون قد تفيد الحكومة إفادة كبيرة، لأنها لن تتكلف سوى المعدلات القانونية، لكن عامة الناس سيُعصَّرون كى يدفعوا ما هو أكثر من المعدلات القانونية وبذلك يسمحون للمنقذين بجنى المنافع بصورة مستمرة دون

مناقشة، يزاد على ذلك أن الترخيص سيحتاج إلى عدد كبير من رجال الشرطة. لكن الرجل في جمعية المجلس الاستشاري كان هو الشخص الوحيد الذي صوَّت مع المسئولين على اقتراح تقدم به أحد الأعضاء ويقضي بأن يكون هناك ممثل في المجلس لملاّك النقل، وبذلك يمكن إبطال مسألة صوت الرئيس الترجيحي. اعترض أبو بكر تافاوا باليوا أيضًا على مسألة المفتشين أو الفاحصين الذين يخولون سلطات إلقاء القبض بناء على التشريع الخاص بمجالس التسويق، كان أبو بكر يريد أيضًا بل ويطالب بتحذير الفلاحين الجاهلين بدلاً من عقابهم في المرة الأولى في مناطق الإنتاج، وكان من رأي الرجل أيضًا مناقشة مقدرات الخزانات المحلية في المجلس الإقليمي، وحثَّ الرجلُ من جديد على مسألة تحسين الخدمات على مستوى الإدارات المحلية، وكان الرجل يتمنى معرفة الطريقة التي يمكن بها تعليم الممثلين الإقليميين كيف يتعرفون مقاطعاتهم، وكان الرجل يبحث أيضًا عن مدرس أو مدرسين شماليين من أصحاب الخبرة حتى يقوم بتعيينهما في مجلس التعليم الشمالي (وبذلك يكون قد توقع أن يكون ذلك الترشيح من رابطة معلمي الشمال سالفة الذكر)، وتساءل الرجل واستفسر عن أهم الصناعات التي ينبغي تنميتها في الشمال، وكانت تراود الرجل أيضًا بعض الشكوك حول مقدار احتياطيات الخزانات المحلية المودعة واستثماراتها والهدف منها لدى وكلاء التاج في لندن لحساب المستعمرات. وكان الرجل يتساءل حول القوانين التي كانت تجاز من قبل المجلس التشريعي دون أن يعرف سكان الغابة شيئًا عن الأهداف والأسباب وتوضيحها لهم قبل صدور مثل هذه القوانين. وهاجم الرجل في المناظرة العامة التي جرت في كادونا مسألة توفير البيرة في المدن الإسلامية: في الأماكن التي من قبيل جوس Jos وكادونا Kaduna قد يكون ذلك أمرًا مقبولاً تمامًا، أما في باوتشي، وكنو، أو سكتو Sokoto، **"فلا طائل من الحدث عن رفاه المراهقين، إذا كنا سنسمح بشيء من هذا القبيل في المدن المحلية"**.

بنهاية العام ١٩٤٧ كان ذهن الرجل قد تفتق عن كثير من الموضوعات التى يمكن أن يثيرها فى الجمعية، أو إن شئت فقل المجلس التشريعى، تحسين القرى، العلاقات بين الكبار، والقضاة، والمحاكم الوطنية والمحاكم المختلطة، وتداخل التنفيذ مع المحاكم الوطنية، واستخدام مدارس القرآن فى تعليم الجماهير، أجور عمال مناجم القصدير، والرفاه الاجتماعى. وفيما يتصل بالتعليم التقليدى، رحَّب الرجل بمقترحات السياسة الجديدة فيما يتعلق بمراكز التدريب المهنى، باعتبارها علامات فى تطوير التعليم الفنى، لكن الرجل اعترض على فتح المدارس كلها أمام الأطفال بلا تمييز من الناحية الدينية، نظراً لأن الإسلام ومختلف النِّحل المسيحية الأخرى يمكن أن تتصادم مع بعضها البعض "بلا شك على حد اعتقاد الرجل". لكن فى معركة التساوى مع الجنوب **"لم يعترض الرجل على إجبار الناس على فعل أشياء لصالحهم".**

عاد الرجل من جديد إلى مسار " الحكم غير المباشر" المطروق تمامًا، الذى كان لايزال حائراً بين الموافقة على المبدأ، وعدم الموافقة على المنفذين أو الممارسين لذلك الحكم من ناحية وعدم التَّيقُّن من الاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه. بدأ الرجل يتشكك فى أميره وفى فساده المادى، وتمنى لو أن الإدارة اتخذت موقفًا حاسمًا من ذلك الفساد، ومع ذلك كان الرجل يقدر حب الأمير التقليدى لشعبه، بما فيه القبائل الوثنية، وكان الرجل يقر أيضًا ولاء هذه القبائل التقليدى للأمير؛ اعترف الرجل أيضًا بتكافؤ الضدَّين عند الأمير فيما يتعلق بضباط الأحياء الذين كانت نصائحهم تقبل بلا نقاش، وضباط الأحياء الذين كانوا يترددون تمامًا فى الإساءة إلى الإدارة المحلية من خلال أى شكل من أشكال النصائح على الإطلاق، قال الرجل وهو يشق طريقه إلى الأمام (وقد جرى تدوين ما قاله الرجل على النحو التالى):

لا شك أن الحكم غير المباشر بشكله القديم لابد أن يستمر. لم يحدث أن نجح أى بلد من بلاد العالم فى الإتيان بمنظومة حكم كاملة، وأنا واحد من هؤلاء الذين يعتقدون أن المنظومات الأوروبية فى أشكالها الكلية لن تناسبنا. التغييرات السياسية كلها يجب

أن تأخذ فى الحسبان الأسس القديمة. لا عيب فى نظام الحكم غير المباشر مادام أنه سيحاول دومًا تعديل نفسه بما يناسب الظروف المتغيرة فى العالم الحديث. هناك حديث دار فى الجنوب حول تعيين موظفين إداريين من الأفارقة. لقد تناسى الناس يا سيدى أننا فى الشمال لدينا مثل هؤلاء الموظفين تحت اسم "رؤساء الأحياء"، لكن لم يجر تدريب أىٍ من هؤلاء الرؤساء. أود أن أقول ثانية: إن الحكم غير المباشر هو أفضل منظومة لنا.

الفصل الحادى عشر

ترسيم الخطوط الدفاعية الشمالية

"إن أبصرت عدوك جالسًا فى الشمس فأشعل المزيد من ألسنة اللهب بالقرب منه"(*)

فى الوقت الذى كان المعلم أبو بكر تافاوا باليوا يتحدث، كان ثلاثة نيجيريين آخرين يحضرون المقرر أو الدورة المدرسية التى تعقد فى ديفتشاير Devonshire فى بريطانيا، باعتبار ذلك جزءًا كبيرًا تمامًا من مسألة تصريف الطلاب، وكان ولد الطاهر Atta الإجبيرى، أحد رؤساء الشمال وعضو المجلس التشريعى من بين هؤلاء الثلاثة. زعم السيد/ رالف Ralph فيرس Furse، الذى كان على وشك التقاعد، إنه استطاع فى الفترة ما بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧، أن يجند لصالح الخدمة الإدارية الاستعمارية، بما فى ذلك مستخدمى العقود، عددًا من الناس يزيد على العدد الذى جرى تجنيده على امتداد أحد عشر عامًا: هذا يعنى أن حوالى ٤٧٠ طالبًا جرى إيفادهم إلى نيجيريا، ساحل الذهب، وإلى الأراضى الإفريقية الشرقية الثلاثة، ويزعم الرجل أيضًا أن ثلاثة فقط من هذا العدد هم الذين استقالوا قبل انتهاء فترة الاختبار. ويزعم الرجل أيضًا، أن ٧٠٪ من هذا العدد التحقوا بتلك الدورة بسبب دوافع مثالية مزعومة، لكن الرجل كان يرى أن هؤلاء الطلبة كانوا من العاملين المثاليين. إذا كان الرجل قد عجز عن خلق الثقة فى مستقبل الخدمة الاستعمارية، فإن هذه الخدمة، معرضة لأن تعانى وتقاسى ذلك الذى

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . (المترجم)

عانت منه وقاسته مؤخراً الخدمة المدنية الهندية، ألا وهو التخوف من إلغاء خدمة تعيين الموظفين (الضباط) البريطانيين قبل الأوان، أى قبل أن تؤمن هذه الخدمة بأنها قامت وحققت الدور المطلوب منها. هذا الكبح النفسى للتقدم السياسى، من منظور البعض إلى وعود المستقبل العملى الزاهر للموظفين (الضباط) البريطانيين، جرى رفعه فيما بعد فى أواخر العام.

أنشأ حاكم نيجيريا لجنة Commission النَّجرنة Nigeranization فى شهر مايو العام ١٩٤٨ برئاسة هوغ Hugh فوت Foot، أمين عام الحكومة. كانت تلك اللجنة تضم كلاً من الدكتور/ آزكوى Azikiwi، ومسئول الخزانة فى سلطة أدماوا المحلية، والمعلم محمد رباط Ribadu، باعتباره ممثلاً عن الشمال. طالب آزكوى بأفرقه الإدارة على وجه السرعة كان الكثيرون من المقاطعات الغربية، الذين ألفوا ودرجوا على حكم الرؤساء Chiefs لوحدات السلطة (الإدارة) المحلية، يرون أن مسألة الإدارة الإقليمية شر مؤقت، وأن هذه الإدارة لابد أن تظل بريطانيــة ـ نظراً لأن هؤلاء الناس لا يطيــقــون رؤية أُباتهم(*) Obas، وهم يقدمون فرائض الطاعة والاحترام لكبار المفوضين الأفارقة فى تلك الأيام ـ عجَّل فوت Foot فى اليوم العاشر من شهر أغسطس، بكتابة تقرير، من بين مقترحاته العملية، عن مجالس الاختيار، وأن تكون المنح الدراسية التدريبية قائمة على المساواة بين أفراد الإدارات المحلية، وتوصل الرجل إلى نتيجة مفادها أن لابد من الاستمرار فى توظيف النيجيريين فى الإدارة، ويجب عدم تعيين غير النيجيريين إلا فى حال عدم وجود النيجيرى المؤهل والمناسب. وقد يكون من المناسب هنا القول: إن اللجنة بتركيزها على وظائف الإدارة العليا، لم تعط الوظائف الفنية والمتوسطة الاهتمام الكافى. وواصل فوت Foot إقناعه لحاكم نيجيريا بضرورة تجزئة المناصب السياسية

(*) واحدة : "أبا" بضم الهمزة وفتح الباء ، وهى شخصية محلية فى منزلة الملك . (المترجم)

الحساسة، واكتشف الرجل أن رئيسه أقر بالفعل الحاجة إلى تجنب أى شكل من أشكال الحث على الرغم من عدم ميله إلى ذلك.

لم يكن التدريب حتى ذلك الوقت أمراً غير معروف وحسب، نظراً لأن المجلس البريطانى كان ناشطاً بالفعل فى مسألة دورات التآلف وتوسيع آفاق مواطنى المستعمرات فى بريطانيا، وفى شهر يناير من العام ١٩٤٨، كان المعلم جاربا Garba كافن Kafin مالاكى، أحد أصدقاء المعلم أبى بكر تافاوا باليوا، والذى كان يشغل منصب كبير الكتبة فى باوتشى، قد واصل تدريبه على نظام الحكم المحلى بصحبة أحمد رباح Raba (أحمد بللو)، زميله فى كلية كاتسنا، وآخرين، كان أحمد رباح (أحمد بللو) فى ذلك الوقت مستشاراً فى الإدارة المحلية، ومشرفاً على رؤساء الأحياء، وكان فخوراً أيضاً بلقب Sardauna أى "المستشار السياسى الرئيسى". والمعنى الحرفى لهذا المصطلح أو اللقب هو "رئيس Captain الحرس الخاص of bodyguard"، وكان آخر حامل لذلك اللقب فى ذلك الوقت هو السلطان. وبصورة أو بأخرى، يبدو أن المعلم جاربا Garba جرى اختياره للعودة إلى بريطانيا بعد ذلك بحوالى أربعة أشهر، لكنه فى هذه المرة كان بصحبة أمير كاتاجوم Katagum، وكان الرجل مسافراً إلى بريطانيا فى تلك المرة لدراسة "أسلوب الحياة فى بريطانيا" (كانت أقوى انطباعات الأمير متمثلة فى إعجابه بالمصاعد العاملة فى الأنفاق، واستعراض الخيول الملكى، كما كان الأمير متأثراً أيضاً بتلك القلة القليلة من الناس الذين يمشون الهوينا فى بريطانيا - إذ كان الناس جميعاً مشغولين ويسارعون فى الوصول إلى مكان ما، مما بدا أمراً غريباً على الأمير). قام المعلمان أبو بكر وجاربا بمناقشة تلك الزيارات مناقشة مستفيضة قبل القيام بها وبعد القيام بها. بدأ تشريع القومية الجديد الصادر عن حزب العمال فى إدخال بعض المضامين الصغيرة. طبقاً لقانون المواطنة البريطانى الصادر فى العام ١٩٤٨، كان سكان ممتلكات الكمنولث المستقلة يُعَدُّون "رعايا بريطانيين"، لكن جرى ابتكار مصطلح "مواطن المملكة المتحدة والمستعمرات" ليطلق على أولئك الذين ينتمون

بصفة محددة إلى بريطانيا ومستعمراتها، وسرعان ما بدأت تختفى من الناحية العملية أهمية ليجوس باعتبارها مستعمرة، والسواد الأعظم من نيجيريا باعتبارها محمية من المحميات، وأن مواطنى نيجيريا كانوا "يدخلون ضمن الحماية البريطانية" لكن هذه الأهمية لم تختف فى مسألة استكمال الأشكال الحكومية الرسمية.

فى الوقت نفسه، وبالتحديد فى شهر ديسمبر من العام ١٩٤٧ وقع حادث مهم فى ساحل الذهب، تمثل فى عودة من كان يمسى من قبل باسم فرانسس Francis نويًا Nwia كوفى Kofi من التعليم، ومن إلقاء المحاضرات بصورة غير رسمية فى الولايات المتحدة، وبعد أن ساعد أيضًا فى الحركات المعادية للاستعمار فى بريطانيا، فرانسس هذا هو ابن لصائغ كان يعيش فى بلدة آنكروفل Ankroful التى تقع على الحدود مع ساحل العاج. وذاع صيت فرانسس، فى تلك الأيام، تحت اسم الدكتور كوامى Kwame نكروما Nkrumah، ذلك القومى الذى كشف عن اهتمامه بالفابيين البريطانيين. طُلب من هذا الرجل أن يكون أمينًا لتنظيم حزب ساحل الذهب المتحد فى شهر نوفمبر، لم يكن جى بى دنكواه Danqah البرجوازى، على علم بالأفكار الثورية اكتسبها نكروما من مصادقته للحزب الشيوعى فى بريطانيا العظمى. وقامت بعض المظاهرات حول قلعة كرستيانبورج Christiansborg، مقر الحاكم فى أكرا Accra، فى شهر فبراير، والمعروف أن "كرستيانبورج" تؤدى إلى بعض مفارز اثنتين من كتائب المشاة النيجيرية التى جرى نقلها جوًا إلى أكرا للقيام بعمل الدوريات طوال شهرين وتقوم أيضًا بمهام الحراسة من باب مساندة فوج ساحل الذهب والسلطة المدنية. وتشكلت بعد ذلك لجنة تحقيق آيتكن Aitken ـ واتسون Watson، التى لعب فيها كيث Keith مورای Murray دورًا مهمًا، وجرى إبلاغ السلطات عنه فى شهر يونيو. لم يُقْصر المحامون المفوضون تحرياتهم على منغصات الجنود السابقين، واعتبرهم القائمون على الحكم فى كل من ساحل الذهب ونيجيريا، أنهم قاموا بمسح الموقف كاملاً فى ساحل الذهب وأنهم أرسلوا رسالة مشفرة يطلبون فيها التعجيل بالتحرك صوب الحكم الذاتى. تسلسل

الأحداث على هذا النحو هو الذى هيأ لنيكروما فرصة هزيمة منافسه الأقل منه راديكالية. وزادت شهرة نيكروما نتيجة سفره إلى أبيدجان Abidjan وبعض الأماكن الأخرى، لكن على المستوى الوطنى ركز الرجل على بناء الحزب عن طريق صبغ الشبان بالصبغة الراديكالية، ومطالبتهم بالولاء له شخصياً. واستيقظت الطبقات المتوسطة مؤخراً فى ساحل الذهب، بعد أن انفصل نيكروما عن حزب ساحل الذهب المتحد، وقام الرجل بتأسيس حزب المؤتمر الشعبى فى شهر يونيو من العام ١٩٤٩. انتبه الأشخاص المهتمون بالأمن الداخلى فى نيجيريا إلى ذلك الأمر، لكن السواد الأعظم خارج منطقة ليجوس لم يكونوا ميالين لتبيُّن مدى علاقة بلادهم الشاسعة بالتوترات الإقليمية التى تدور داخلها.

فى بعض الأماكن الأخرى، كانت هناك محاولة لتجربة النظام الفيدرالى مع إنشاء المجلس التشريعى المركزى التابع للجنة شرق إفريقيا العالية فى نيروبى، لكى يتولى الإشراف على الخدمات العامة (البريد، السكك الحديدية، الموانئ) الخاصة بالمناطق البريطانية الثلاثة. وفى زخم هذه الأمور، كانت الحكومة البريطانية قد وجهت مبلغ ٢٣ مليون جنيه إنجليزى، الذى سبق أن وعدت به، من المبالغ المخصصة لصناديق التنمية الاستعمارية والرفاه، إلى الخطة النيجيرية التى قدرت أموالها بحوالى ٥٥ مليون جنيه إنجليزى. كان وزير الخارجية قد بدأ يَلْقى مواجهة عامة من الحكومات الاستعمارية التى بدأت مؤسساتها تمتلئ بالعاملين بشكل سريع، لكن الرجل اكتشف أن وزارة المستعمرات عندما رفضت فكرة التخطيط الإمبريالى المركزى الشبيه بالتخطيط السوفيتى، وبدأت تبحث عن مخططات لندنية، يمكن أن تعطى المستعمرات مساحة كبيرة من الحرية فى تنفيذ برامجها التنموية الخاصة بها (وبرز فى ذلك الوقت انتقاد البرلمان للجهود النيجيرية الكبيرة فى مرحلة سابقة)، إنما تكون قد فشلت، شأنها شأن السلطات الأخرى، وفى توقع تزايد النقص فى الموارد فى فترة ما بعد الحرب، راح ضيقوا الصدور يوجهون اللوم لنقص الموارد، وتعثر الخطط بسبب العجز فى هيئة

العاملين. وكانت هناك أمثلة طيبة على ذلك، فى المواصلات النيجيرية: كانت هناك أكوام هائلة من الفول السودانى الذى لم يجر تصديره، وبخاصة فى محطات السكك الحديدية فى كانو، وذلك بسبب المتاعب والاضطرابات التى حدثت فى السكك الحديدية النيجيرية والعجز عن استبدال الجرارات والعربات التالفة التى لا تصلح للعمل. وهنا بدأت الأنظار تتجه إلى إحياء النقل النهرى من ميناء بارو Baro النهرى. وجرت الموافقة أيضًا على مشروع تجربة السدود الصغيرة، لمساعدة ماشية البدو الرعاة على البقاء فى فصل المطر فى مراعيها بدلاً من الانتقال إلى المناطق الزراعية وتعريتها: لم يحدث أى شىء من هذا القبيل فى باوتشى. وفى مطلع هذه الخطة جرى فى ليجوس تأسيس إدارة للتجارة والصناعة فى باوتشى، وأسفرت تلك الإدارة بدورها عن إنشاء إدارة للتسويق والصادرات.

فى ذلك الوقت، جرى تعيين المعلم أبى بكر فى مجلس المراقبين فى مؤسسة جاسكيا فى زاريا Zaria التى جرى فصلها عن مكتب الآداب الشمالى التابع لإدارة التعليم. رفض أبو بكر تافاوا باليوا العرض السخى الذى قدمه الدكتور إيست East، مفضلاً عليه التعريشة المصنوعة من القش الخاصة بالمعلم أبى بكر إمام، أو تلك التعريشة التى يمتلكها زميل دراسته فى كاتسنا على طنكيارى Dankyari. كانت هيئة العاملين فى المؤسسة حائرين فى مسألة "رضا" رؤسائهم المغتربين، عن ظرف الخدمة الحكومية، وأنهم كانت تحميهم الأوامر الحكومية كما كانوا يُؤَدَّبون أيضًا بأوامر من الحكومة، فى الوقت الذى كانوا هم فيه متساوين مع درجات الحكم المحلى، وسلم مرتباته، وإجراءات التوظف، كانت مؤسسة جاسكيا تنظر إليهم باعتبار أن السلطة العليا لا يمكن أن تتوقع وجود الشماليين وهم يرتدون ثياب الحكومة المركزية أو خارج نطاق وحدات الإدارة المحلية. لكن فكرة وجود معايير أخرى علاوة على المعايير الحكومية، وخارج معايير الإدارة المحلية وخارج المعايير التجارية كانت أمرًا لا يخطر على البال، لقد ولى عهد الخمول إلى غير رجعة. فى شهر فبراير أرسلت هيئة العاملين

عريضة حلقية[*] إلى الدكتور إيست East، وإلى السلطان، وإلى الدكتور ديكو Dikko، وإلى ليسلى جوبل Goble (سكرتير المقاطعات الشمالية)، وإلى هنرى جى فارانت Far-rant (السكرتير الميدانى لبعثة السكان المتحدة) وإلى المعلم أبى بكر تافاوا باليوا.

قام أبو بكر الذى كان الناس ينظرون إليه باعتباره وسيطًا أمينًا، بتسهيل العلاقة بين البريطانيين الذين كانوا ينتظرون التعاون، وهيئة العاملين من أهل لغة الهوسا الذين كانوا يخشون من عملية التهميش ويخافونها. كان ذلك يعنى القيام بالمزيد من الرحلات بعيداً عن مسئوليات باوتشى، على الرغم من أن الرجل كان بعيداً تماماً عن مسألة حضور اجتماعات المجلس بصورة منتظمة.

على الجانب الآخر، نجد أن أبا بكر تافاوا باليوا شارك فى وضع الخطط اللازمة لصدور جريدة جاسكيا مرتين كل أسبوع فى العام ١٩٤٩، ثم صدورها بعد ذلك بواقع ثلاث مرات أسبوعيًا فى العام ١٩٥٠ مع صدور ملحق معها فى يوم السبت، وبحلول العام ١٩٥٣، كانت الجريدة، قدر المستطاع، يومية، مع صدور ملحق أسبوعى للقراء فى المناطق البعيدة عن مراكز التوزيع. يضاف إلى ذلك أن أبا بكر كان له دور رمزى فى صدور جريدة المواطن Citizen النيجيرى Nigerian الأسبوعية التى كانت تصدر باللغة الإنجليزية، كما كان للرجل أيضًا دور رمزى فى صدور جريدة جاكاديا Jaka-diya، التى كانت تصدر كل أسبوعين وكانت تخاطب القارئ الريفى، وكان أبو بكر توناو Tunau يقوم بتحرير هذه الجريدة، كما ساهم الرجل أيضًا فى إصدار جريدة شهرية للتيف Tiv، كان يقوم على تحريرها شاب غير مدرب هو بنيامين Benjamin أكيجا Akiga. فى مطلع العام، يغادر جوردون Gordon ولسون Wilson، ضابط الحى الملحق، المؤسسة، وانشرح صدر أبى بكر تافاوا باليوا عندما وجد بعد فترة زمنية

(*) العريضة الحلقية : عرضية احتياجية تذيل بتوقيعات متخذة شكل دائرة لكى لا يعرف الذى وقعها أولاً . (المترجم)

قصيرة، أن هارى Harry س سيفورد Seaford حل محل جوردون ولسون لم يجر جعل سيفورد محرراً اسمياً فى جريدة جاسكيا، وانشرح صدر الرجل أيضاً أن وجد أبا بكر إمام شاغلاً منصب المحرر طوال الوقت. ومع ذلك، بدأ المعلم أبو بكر تافاوا باليوا فى سن السادسة والثلاثين يواجه كارثة "العظيم والجيد" مع تقدم العمر فى الدول المتقدمة - كان الرجل عضواً فى كثير من الهيئات التى كان يوليها قدراً كبيراً من اهتماماته.

التقى أبو بكر تافاوا باليوا، أثناء الاجتماع الصيفى للمجلس الإقليمى، مسئولاً (ضابط) إدارياً لأول مرة هو بطرس Peter ستالارد Stallard، الذى عين كاتباً مشتركاً فى كل من مجلس الرؤساء وفى الجمعية التشريعية. جمع ستالارد بين هذين العملين بطريقة رائعة، إضافة إلى عمله مع أول ضابط استخبارات شمالى، وكان المعلمان عيسى والى Wali وسول Sule كاتاجوم يساعدانه على إنجاز هذا العمل الأخير. وانتهز الفرصة ليعزم أبا بكر على الغداء، الذى التقى فيه بأمير جواندو Gwandu وشتيما كاشيم من برنو Borno. طالب أبو بكر فى الجمعية التشريعية باستعمال المحاريث بدلاً من الجرارات، وأعرب الرجل عن أسفه لفقدان الكبار سيطرتهم على الشباب فى الشمال، وحذر من انتشار الاعتقاد الذى مفاده أن الحكومة لن تستمع إلا لهؤلاء الذين يُهيِّجون الناس بسبب الأشياء التى يريدونها. فى ذلك الاجتماع، كان المستشار السياسى الرئيسى Sardauna أول من جلس على كرسيِّه، نظراً لأنه خلف كبير المستشارين Waziri عباس الذى وافته المنية.

تقدم أبو بكر تافاوا باليوا هذا العام للحصول من الخزانة المحلية على مُقَدم لشراء سيارة طراز مارون Maroon أوستن Austin 16 (وعلى العكس من أغلبية مسئولى الإدارة المحلية فى ذلك الوقت) نجح الرجل فى الحصول على موافقة ضابط الحى الاستشارية. وقد علَّمه سائقه الأول المدعو جاريا Garba ولد كوارا Kwara، كيف يقود السيارة بنفسه، لكن أثناء توجه الرجل إلى بلدة كافن Kafin مداكى Madaki لافتتاح مدرسة أولية فى النصراوية Nasarawa، وقع للرجل حادث عند عبوره نهر

جوبى Gubi فى موسم الجفاف. وجرى إصلاح التلفيات التى حدثت فى السيارة، لكن ثقة الرجل فى قيادته لم تتزعزع، وبدأت عنده هواية حب الجلوس خلف عجلة القيادة التى استمرت معه طوال حياته. كان الرجل يهوى المحافظة على نظافة سيارته وبريقها، لكن على الرغم من أسئلته المستمرة عن الأجزاء المتحركة فى السيارة، والتى يغطيها الزيت المحروق واللطريط(*) بحكم وجودها تحت غطاء مقدم السيارة، فإن الرجل لم يحاول مطلقًا التَّنقُّل بين كادونا وباوتشى فى سيارة من سيارات النقل العادية حتى وإن خذلته السيارة.

كان السير آرثر Arther ريتشاردز Richards قد تقاعد من منصب الحاكم فى أواخر العام ١٩٤٧، وحصل على مكافأة عن حياته العملية فى الخدمة الاستعمارية، حصل الرجل على المكافأة التى يحصل عليه البارونات فى مثل هذا الظرف، وأصبح للرجل مقعد فى مجلس اللوردات، لكن الرجل تحول فى السنوات الأخيرة إلى اليمين بصورة متدرجه (رد آرثر فى المؤتمر الأخير الذى عقده الحكام الأفارقة، فى شهر نوفمبر، أثناء أجازة التقاعد، رد الرجل على الخطبة الافتتاحية التى ألقاها كريش Creech جون Jone بإشارة كلاسيكية عندما قال: "هدفنا هو تعقب أنتايوس Anteaus، ولد زيوس Zeus الذى كان محصنًا ولا يمكن اختراقه مادام أنه كان على سطح الأرض، الهدف هو أن تتأكد وأنت فى الخدمة الاستعمارية أن أحد قدميك على الأرض"). كان السير/ جورج George بيرسفورد Beresford ستوك Stooke، قد ترأس، بصورة موفقة الجلسة الثانية من جلسات المجلس التشريعى للمرة الأخيرة، وقد انعقدت تلك الجلسة فى المركز التجارى فى كادونا وذلك من باب الوفاء من جانب ريتشاردز بتعهده بنقل جلسات المجلس التشريعى إلى المقاطعات وجعل الأعضاء يرون بعضهم بعضًا بالتناوب فى ظل خلفيات أقرب إلى مواطنهم المتضاربة. كانت كادونا، باعتبارها

(*) اللطريط : تراب الصخر الأحمر. (المترجم)

عاصمة اصطناعية يسيطر عليها المغتربون، وبحكم أنها أنشئت حول مبنى الأمانة العامة المبنية بالترميد، وحول المضمار(*)، لم تكن تستهوى الجنوبيين أو تروق لهم، وبخاصة فى ذروة موسم الجفاف، إذ تكون خالية تمامًا من الرطوبة، وتكون الحشائش الجافة والأشجار المبعثرة لا تزال مغطاة بغبار الصحراء وترابها الذى تحمله رياح الهرمتان Harmattan التى تهب فى فصل الشتاء. وهذه هى بلدة تودون Tudun ودا Wada الزاحفة إفريقية الطابع تصطبغ أكثر بصبغة الإمارة التقليدية فى زاريا أكثر من السواد الأعظم من البلدات Sabon garis(**) التابعة للعواصم الإقليمية الشمالية (هذه المدن التابعة مخصصة للسكان النازحين عن المناطق غير المسلمة، ولصغار الموظفين المدنيين)، يزاد على ذلك أن الأحوال الجوية طاردة وغير مواتية فى هذه المنطقة. أضف إلى ذلك أيضًا أن المسكن الحكومى الذى يعيش فيه كبير المفوضين يقع على الجانب غير الصحيح من السكة الحديد.

واصل أبو بكر تافاوا باليوا هجومه على ما كان يراه على أنه وقاحة من جانب زعماء الجنوب، وعلى الإعانة التى يقدمها الشمال للجنوب. كان أبو بكر مثل رؤسائه، يحكم على شعوب الغابات العالية بمعايير الزراعة النسبية عند أولئك الذين يمثلون هذه الشعوب، لم يتخيل أبو بكر تافاوا باليوا أن الفقر المدقع السائد بين بعض الجماعات التى تعيش فى الغابات الجنوبية الكثيفة، وما يسمونه "العُرى" nudity فى المناخ الحار الرطب، يمكن أن تكون أكبر من معيشة القبائل التى تعيش فى التلال والجبال الشمالية وعريها. تحدى أبو بكر السكرتير المالى وطلب منه تبرير التباين بين ضريبة الرءوس المباشرة التى تُجْبى بواقع ثلاث بنسات فى الأجزاء الشرقية من البلاد، وبواقع شلنين فى الأجزاء الشمالية من البلاد، يقول أبو بكر فى هذا الصد: "أنا لا أعرف كيف تحافظ

(*) المضمار: قد يكون مضمارًا لسباق الخيل أو الكلاب. (المترجم)

(*) Sabon garis: مصطلح بلغة الهوسا معناه "المدن أو البلدان" التابعة". (المترجم)

على خدماتها فى المقاطعات.... أنا أود أن تكون المعدلات واحدة فى سائر أنحاء نيجيريا". كما سخر أبو بكر تافاوا باليوا من فكرة قيام الأقاليم، أو بالأحرى إدارات الحكم المحلى، بتقديم المساعدات لاتحاد طلاب غرب إفريقيا فى لندن ("لقد عشت عاماً كاملاً بين الشباب ولم أعرف مطلقًا مكان ذلك الاتحاد"). ومن باب إحساس الرجل الفطرى بنقطة ضعف رئيسية فى الشمال، صرّح الرجل بأن البريطانيين يتعين عليهم التدخل لدى الأمراء والرؤساء حتى يمكن تعليم النساء وإحداث نوع من المساواة مع الجنوب فيما يتعلق بالتعليم الغربى، لكن الرجل صوّت مع الغربيين لصالح مسألة إزالة الخلافات والمنازعات التى بين الرؤساء Chiefs فى التشريعات فى المحاكم. لقد أدهش أبو بكر كلاً من الجنوبيين والبريطانيين على حد سواء بهجومه العنيف على الطلب الذى تقدم به السيد/ شارلز Charles داد Dade (الذى يدللونه "بدادى" Daddy) أونياما Onyeama ويقضى بتخويل محاكم الاختصاص الجزئى سلطة إصدار أحكام نفقة وأحكام برعاية الأطفال غير الشرعيين (كان أونياما محامياً من الأجبو الذين حصلوا على تعليم غربى، والذى شغل لفترة وجيزة منصب موظف إدارى فى مكتب المستعمرة إلى أن جرى التخلى عنه طبيًا، وأصبح فى ذلك الوقت أول أعضاء المقاطعات الشرقية). يقول أبو بكر: "هذا مجرد شىء ضئيل جداً مما هو مطلوب. هذا الأمر يعد جريمة فى الإسلام، العقاب الوحيد للزنا فى الإسلام هو الموت لأن الزنا من الكبائر،...... نحن نحسب أن من الخطأ مناقشة هذا الأمر غير الربانى". وتحولت لغة أبى بكر إلى لغة طنانة، وتركت أكثر من إشارة تفيد أن الرجل يؤمن بأن الأطفال الناتجين عن الزواج يتبناهم الأوروبيون. وبعد الانقسام فى الرأى، إذ كان مسلموا الغرب يؤيدون إصدار مثل هذا الحكم، بينما كان الشرقيون يزعمون أن آبائهم كانوا يرعون أبناءهم غير الشرعيين، جرى سحب الاقتراح.

لكن الرجل احتفظ بجام غضبه لآزكوى Zik. كان العضو الثانى عن ليجوس، قد أسقط مسألة مقاطعة الحزب التى لا مغزى لها، وتقدم باقتراح غامض لإدانة محاولات

خلق سوء النّية بين مختلف طوائف الشعب فى البلاد. لكن المعلم أبا بكر رفض ابتلاع ذلك الطعم:

يتكلم كثير من النيجيريين عن "الوحدة" – وهم جميعًا مفككين فيما يتعلق بهذا الأمر ـ وأنا عندما أنظر حولى هنا فى هذا المجلس، أرى.... الرؤساء Chiefs وعامة الناس... جالسين مع بعضهم البعض، وأنا ميال إلى استشعار وجود شىء من الوحدة. لكن يؤسفنى القول أن هذا الذى يحدث ـ مصطنع وينتهى عند الخروج من هذه القاعة.... هذه هى القبائل الجنوبية تتدفق الآن على الشمال بأعداد متزايدة ... هذه القبائل لا تختلط بشعب الشمال وأهله فى المسائل الاجتماعية، ونحن .... ننظر إلى هذه القبائل باعتبارها من الغزاة. كانت الحكومة البريطانية اعتبارًا من العام ١٩١٤ تحاول جعل نيجيريا بلدًا واحدًا، لكن النيجيريين أنفسهم مختلفون تاريخيًا فى خلفياتهم، وفى معتقداتهم الدينية، وفى العادات، وهم لا يكشفون أيضًا عن أية علامة أو إشارة من علامات الاستعداد للوحدة أو إشاراتها. وهنا يمكن القول: هل الوحدة النيجيرية هى مجرد نية بريطانيا فى هذا البلد. [وفى مقام الرد الجرىء على توبيخ رئيس المجلس وطلب العودة إلى الاقتراح المعروض ...] أود توضيح ما أقول لأنى أرى أن كل إنسان هنا من حقه أن يقول رأيه فى المسائل المعروضة فى هذا البلد. وأنا إن كنت أرى أن الوحدة أمر مستحيل، فمن حقى أن أقول ذلك، وأن أجعل الآخرين يفهمون ما أقول".

سلك أبو بكر تافاوا باليوا هذا المسلك عند مناقشة الموازنة، حيث قام بالتعقيب على الخطاب الذى ألقاه الدكتور آزكوى Azikiwe، ببعض الملاحظات التى استشرفت الاثنى عشر عامًا القادمة، وكانت تعكس زعم السيد/ أولووو Awolowo فى العام ١٩٤٧ والذى مفاده أن "نيجيريا ليست أمة، وإنما هى مجرد تعبير جغرافى ليس إلا"، يقول أبو بكر تافاوا باليوا فى تعليقه على خطاب آزكوى:

"أنا أعارض بشدة أى شكل من أشكال الوحدة المصطنعة، التى لا تكون الأطراف المشاركة فيها مناسبة للاستفادة على قدم المساواة من النتائج المترتبة على مثل هذه الوحدة. أنا أصلى وأدعو طلبًا لوحدة نيجيرية حقيقية، يُسْمَحُ فيها لكل مجتمع من المجتمعات القبلية التمتع بفرص متساوية، وأنا آمل عندما يئون أوان مثل هذه الوحدة، ألا يكون الدين حاجزًا أو مانعًا فى طريقها. الحكم الذاتى فى شمال نيجيريا، لا يمكن من وجهة نظرى، أن يصبح حقيقة فى غياب منفذ للشمال على البحر، وعلى الصعيد الاقتصادى لابد من بقاء نيجيريا بلدًا واحدًا، لكنى أرى، يا صاحب السيادة، أن العالم واحد من المنظور الاقتصادى.... مستقبل نيجيريا السياسى قد يكون فى الاتحاد الفيدرالى، - وأنا أرى أن كل إقليم من الأقاليم يجب ألا يُحْرَم من الحكم الذاتى نظرًا لعدم استعداد الآخرين لمثل هذا الحكم .... لقد أصبحت أتخوّف الآن من أنه، فى ظل الطلب الباكر المجنون على الحكم الذاتى، أن يُفْرض الحكم الذاتى النيجيرى، الذى نصلى من أجله جميعًا وندعوه، على مقاطعات الشمال عنوة فى الوقت الذى لا نكون فيه جميعًا مستعدين لذلك.

.... أنا لا أطيق تذكر ذلك الحوار الذى دار بينى وبين رجل جنوبى ماجد، ذات مرة، منذ حوالى خمس أو ست سنوات، كنت أناقش كتابًا مع ذلك الرجل، وكان عنوان ذلك الكتاب (أهداف بريطانيا وأهداف المحور فى إفريقيا)، وأعتقد أن ذلك الكتاب كان من تأليف أحد النيجيريين المقيمين فى أمريكا. وعندها سألت ذلك الرجل الماجد الجنوبى، سيدى، ما الذى يمكن أن يحدث لما يسمونه (الشمال المتخلف المحافظ، إن قُدر لنيجيريا الحصول على الحكم الذاتى بصورة متعجلة. وهنا أعطانى ذلك الماجد الجنوبى ردًا حقيقيًا شديد الصراحة. قال إن الشمال سيكون دوره توفير العمالة المطلوبة لذلك الحكم الذاتى)".

علق أبو بكر تافاوا باليوا أيضًا على انتقاد الرجل للعادات السائدة عند كل الشماليين مثل خلع الحذاء المغبّر أو المحمّل بالأوساخ عند الباب الخارجى، أو فى وجود من هو أكبر وأعلى، وكذلك الانحناء أمامه علامة الطاعة والولاء. يقول أبو بكر:

"يتعين على مدارسنا تعليم الشبان وتربيتهم من أجل المجتمع الذى سيعودون (إليه)... مع مثل هذا الحال، لو أننا سمحنا للطلبة فى كلية كادونا بلبس الأحذية، وأنهم عندما يرون ناظرهم قادمًا، يتقدمون ويقولون له "صبحك الله بالخير، يا سيدى" عندما يعود هؤلاء الطلاب إلى مواطنهم أثناء العطلات، أو عندما يغادرون مواطنهم، فإنه لا يمكن أن يتصرفوا على هذا النحو مع آبائهم - هذا يعنى أنهم سيوسعونهم ضربًا .... سيجيء الوقت الذى يتحتم على منتقدى هذه الأمور، أن يقولوا : "حسن، نحن نوافق الآن على مواصلتك اتجاهاتك الحديثة".

أضف إلى ذلك، أن أبا بكر تافاوا باليوا لم يقبل مطلقًا معتقد الراديكاليين الذى مفاده أن الأشكال الخارجية الموروثة للاحترام القائم على الأدب إنما تعكس شيئًا من العبودية الداخلية.

كان الدكتور أولورن Olorun نمب Nimbe، قد انتقد حضور رؤساء الشمال Chiefs على أنهم أعضاء المجلس التشريعى. معروف أن الدكتور أولورون هو أول أعضاء ليجوس. واقع الأمر أن الأمراء نادرًا ما كانوا يتكلمون فى المجلس التشريعى، نظرًا لأنهم كانوا يزدرون مسألة تبادل الاحتقار والاستهزاء على الملأ، وكانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفون اللغة الإنجليزية مطلقًا، معتمدين فى ذلك على المعلم عيسى Isa كيتا Kaita، الكتسينى Katsina فى القيام بدور المترجم. ودافع أبو بكر عن الرؤساء Chiefs دفاعًا مستميتًا، فى الوقت الذى كان يلمح فيه إلى إحداث شيء من التغيير. يقول أبو بكر:

" منذ زمن إمبراطورية سونغاى وإمبراطورية مالى فى غرب السودان، ومنذ زمن الحابى Habe، وملوك شمال نيجيريا يجلسون فى المجالس ويشاركون فى كل المناقشات ...... كان أباتنا Obas (هذه إشارة تكتيكية إلى كبار رؤساء مقاطعات الغرب النيجيرى) هم والأمراء ليسو ملوكًا دستوريين مثل ملوك أوروبا، وعليه لا أرى أى ضرر

من مجيئهم إلى هذا المجلس... لأنهم فى الوقت نفسه يجرى تدريبهم على فن الحكم الحديث، وسيكون ذلك كله لصالح شعوبهم.

قام أبو بكر تافاوا باليوا بتبادل المزيد من التعليقات مع الدكتور آزكوى. فقد صوّت المعلم أبو بكر ضد الاقتراح الذى تقدم به آزكوى، والذى مفاده أن أعضاء المجلس التشريعى يتعين أن يحصل الواحد منهم على ٦٠٠ جنيه إنجليزى فى العام (حتى يمكن أن يتساوى أجره مع أجر الضابط (الموظف) الإدارى المغترب)، وعارض أبو بكر معارضة شديدة أيضًا اقتراحًا آخر يطالب بتقديم أبحاث عن التمثيل غير الناجح لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى وزارة المستعمرات. قال أبو بكر: إنه هو نفسه "طُلب إليه من "هذا التنظيم غير المعروف الذى لا يمثل ممثلوه سوى أنهم" المشاركة معهم فى عرض المسألة النيجيرية. ترى، مع من قاموا بمناقشة مسودة (مشروع) دستورهم الجديد؟ لم يكن هناك أى فرق أو اختلاف بين فرض رتشاردز Richards دستوره على الشعب النيجيرى وبين محاولة المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى عمل الشىء نفسه.

لم يكن السيد/ أونياما Onyeama، الذى أدخل ولده المدرسة فى إتون Eton، راضيًا عن عودة أبى بكر بلا جراح. فقد أعاد الرجل إلى الأذهان حديث العام ١٩٤٧ عن استمرار غزو الشماليين إلى أن يصلوا إلى البحر، وعلق أونياما بما مفاده أن الناطق الرسمى باسم الشمال قدم لهم من جديد إنذارًا لطيفًا، عندما قال: إن الشمال يتعين أن يكون له منفذ على البحر. وأعاد أونياما إلى الأذهان أيضًا عبارات قالها واحد من الألمان، تفيد أن بلده الكبير ينبغى أن يكون له منفذ Lebensraum على المحيط الأطلنطى، لقد أخاف الرجل الثانى من بين أعضاء الشمال السيد/ أونيامى بكلامه هذا.

على الرغم من ذلك، جرى تشكيل لجنة اختيار أُدْرِجت العضو الشمالى الثانى ضمن الوفد الذى سيُرْسل إلى لندن لحضور المؤتمر الذى تعقده وزارة المستعمرات فى

أواخر العام، وكان بصحبة أبى بكر فى ذلك الوفد كل من يحيى إيلورين Ilorin وأحد مسئولى بطا (بدا) Bida. وعاد أفراد الوفد من المجلس التشريعى قانعين تمامًا أن مستقبل نيجيريا لن تتم تسويته عن طريق وزارة المتسعمرات، أو عن طريق سكرتارية من سكرتاريات ليجوس، أو عن طريق السياسيين الجنوبيين على انفراد. وجد المعلم أبو بكر أن صديقه القديم روبرت Robert رايت Wright عاد من إجازته، وجرى نقله فى النهاية إلى إدارة التعليم، وأصبح مسئولاً عن مركز تدريب التعليم الإلزامى فى بلدة Yalwa (والذى نُقل إليه أيضًا المعلم أمين كانو من المدرسة المتوسطة)، وهنا بدأ جُرْنٌ قديم مبنى من الطين المخلوط بالقش، يتحول بفضل عينيه البراقتين ويديه الماهرتين إلى ما يشبه كوخًا من أكواخ الماجدين فى الريف، ويسمح بعرض المسرحايت القصيرة متعددة الثقافات، ومن النوع الذى كان يعرض فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ويمثله ممثلون مُقَنَّعُون، كما كان يسمح أيضًا بعرض أشياء مسرحية أخرى، كما كان ذلك الكوخ يتسع أيضًا لحماية المخلوقات الغابية التى يتم إنقاذها من قسوة الصيادين وقصابى الأسواق. وبعد توقف العمل فترة قصيرة فى ظل حكم رئيس الحى المدعو جى.أى ب هول Hall (الذى كان يعرف أبا بكر منذ العام ١٩٣٠)، تسلم رئاسة الحى رجل آخر هو و W لورانس Laurence كوكس Cox، وهو صاحب عينين ثاقبتين ولا يتذوق الأعمال الفكرية. رئيس الحى الجديد هذا كان من قبل طالبًا فى شركة محاماة، ولذلك كان يحترم اتخاذ القانون مهنة، وكان محبًّا لأجزاء الآلات، لكنه كان يتمتع بممارسة لعبة البولو polo، والرماية والنادى الاجتماعى. كان الرجل قد توصل من قبل إلى ما مفاده أن التقدم يتمركز حول الأعمال الشعبية والعامة، ولذلك كان يغلب على نشاطه العملى التركيز على المعدات وعلى أنشطة ورش الإدارات المحلية وأعمالها، لأنه كان يعلم أن الإدارات الأخرى يمكن أن تظل عادية ومبتذلة بغير هذا التركيز. يزاد على ذلك، أن رئيس الحى الجديد هذا كان يتشكك فى دوافع كل المسئولين والموظفين فى الإدارات المحلية، زد على ذلك أن الرجل هو وأبا بكر تافاوا باليوا لم يحدث أن قدَّرا فضائل بعضهما وقيمهما، لكنهما لم يدخلا مطلقًا فى عداء بينهما.

لقى حاكم نيجيريا الجديد نوعًا من الثناء سريع الزوال. ذلك أن السير جون (جوك Jock) ماكفرسن Macpherson، السكرتير الإدارى فى فترة ما قبل الحرب، كان قد عاد مؤخرًا لتولى مهام منصبه. كان التوجيه الرئيسى الذى أعطاه كريش Creech جونز لماكفرسن يقول: "يتعين عليك أن تكون غليظ القلب طوال السنوات الخمس القادمة - أقصد أن تكون القسوة بدنية!" وعندما وصل الرجل وهبط من السفينة إلى البر أبدى ملاحظة مفادها أن الحكومة مسئولة أمام الشعب من خلال المجلس التشريعى، وعندها قال له زميله التقدمى سى إس فوت Foot: "حسن، حقًا، هذا شىء طيب جدًا، لكنى أحسب أنك شططت بعض الشىء!"، كان فوت قد سبق له الخدمة فى شرق الأردن عندما كان فى فلسطين. فى حين أمضى ماكفرسن سنوات خدمته التكوينية فى شبه جزيرة الملايو، ولذلك أصبح مؤخرًا أطول السكرتيرين الرئيسيين خدمة فى فلسطين (حوالى خمس سنوات)، إذ كان رئيسًا للجنة إمداد المستعمرات وتموينها فى زمن الحرب لدى واشنطون، كما كان الرجل عضوًا أيضًا فى لجنة الكاريبى الإنجليزية - الأمريكية. فى واشنطون خَبَر الرجل الجهود الأمريكية التى كانت ترمى إلى حقن التنمية السياسية فى جدول أعمال هذه الجزر السياسى والاجتماعى، وبخاصة عندما جرى التطرق إلى التورط الفرنسى والهولندى فى هذه الجزر. كانت مهمة ماكفرسن الأخيرة عبارة عن مراقب عام للنفقات والحسابات فى عملية تنمية جزر الهند الغربية ورفاهها، التى تشكك حكام الجزر وبلا حق، أن ماكفرسن كان مفروضًا عليهم حاكمًا عامًا. وظلت وزارة المستعمرات على امتداد بضع سنوات تشعر بالغيظ لتردد ماكفرسن فى اقتطاع جزء من وقت عمله كى يكتب فيه باستفاضة إلى الوزارة، بل تركها تستنتج من قصاصات الصحف ومن تقارير الاستخبارات ذلك الذى كان يحدث وراء محاضر جلسات المجلس التنفيذى واجتماعات المجلس التشريعى.

لما كان ماكفرسن رجلاً نشيطًا، غير محب للعظمة والأبهة، وعلى الرغم من ضعف ظهره إلى حد ما كان الرجل سعيدًا بالعطية الملكية، إذ كان الرجل لا ينسى مطلقًا أى

وجـه من الوجـوه أو حـتى اسم صـاحب ذلك الوجـه، أو السـيـاق الذى جـرى فـيـه لقـاء صـاحب هذا الوجـه، وعليـه سـارع مـاكـفـرسـن لإحـيـاء غدائه الشـهـرى أو مـشـروباته الشـهـرية، مع الدكـتـور آزكوى طلبًا للمناقـشـات الصـريـحـة التى لم يحـدث مطلقًا أن استفاد آزكوى منها صـحـفيًا. كان من بين أعمال مـاكفرسن الأولى تأكده من إدراج اسم الدكـتـور آزكـوى ضـمـن لجنة Commission النجّـرنة Nigerianzation التى سـبق الإشارة إليها فى مطلع هذا الفصل. حـاول مـاكفرسن أيضًا التقاء السيد/ أولوو Awo-lowo بعـد أن عـاد من بريطانيـا، لكن أولوو نجح فـتـرات طويلة فى تحـاشى اقـتـراب ماكفرسن منه. وعندمـا تم لقاؤهمـا عنَّفه جون ماكفرسن، ظنًا منه أن أولوو كان يخشى أن يتخذ منه ذريعة، واقتبس له من كتابه المعنون **الطريق إلى الحرية فى نيـجيريا**، الذى قد يبدو الآن "شديد الولاء لبريطانيا". أقـر وأولو ذلك واعتـرف به، وحـاول مـاكفـرسن طمأنته من جديد أثناء مناقشتـهمـا مضـامين تأسيس منظمة ثقافية يوروبـاوية Yorbua فى بلدة إيف Ife، وقد أطلق على هـذه المنظمة اسم المنظَّمـة الثـقافـيـة اليـوروبـاوية Egbe Omo Oduauwa. عندئذ وافق السـيـر جـون مـاكـفـرسن على الخطط التى أعـدتهـا السكرتـارية لرحلة تعرف أعـالى البلاد تستمر خـمـسة أسـابيـع، يقينًا منه أن الأشـهـر الخمسة عشر التى أمضـاها فى ليجوس قبل الحرب لم تكن تعرفًا حـقيقيًا لنيـجيريا. أسقطت الخطة الموضوعة للرحلة منطقة باوتشى من هذه الزيارة.

قـام المعلم سـعـد زنقـر Zunger هو وأصـدقـاؤه فى باوتشى بتـوزيـع منشـورات يشتكون فيها، ويطالبون بعقد اجتماع احتجاجى، وبعون من أمين كانو توجه سعد زنقر مـباشـرة إلى الأمـيـر وأوضح له أن الحـاكم الجـديد، من الواضـح أنـه يود رؤية الأشـيـاء بنفسه، وأنه ربما لايصدق ذلك الذى أُبلغ به من خلال الملفات، وأنه لا بد من إبلاغه أنه على الرغم من الموازنات المخصصة لليجوس فإن شيئًا لم يتم فى باوتشى. وأبلغ سـعد زنقـر الأمـيـر أيضًـا أن رئيس شرطة الإدارات المحلية لن يسـمـح بعـقـد ذلك الاجـتـمـاع الجمـاهيرى إلا بعد الرجوع إلى لورانس كوكس، رئيس الحى الجـديد، والتشـاور مـعـه

حول هذا الأمر، وأنهم متأكدون تماماً أن لورانس كوكس لن يوافق على عقد هذا الاجتماع. كانت موافقة الأمير الشفاهية السابقة قد أفرغت الرفض الكتابى من مضمونه، وتحول سوء السُّمْعة إلى ما يمكن تأبينه على أنه أول اجتماع شعبى سياسى فى شمالى نيجيريا جرى عقده فى سوق البلدة. وباسم المئات العديدة من البشر، جرى إصدار قرارات وتمريرها إلى بيتون Payton، الممثل المقيم، ليقوم هو بدوره بنقلها إلى الحاكم، وكلها تطالب بالزيارة. بعد ذلك بيومين طلب رئيس الحى من المنظمين الماكرين أن يطلع على ذلك التصريح الذى لا وجود له، ووبَّخ الأمير يعقوب الثالث على موافقته الشفاهية. كان من رأى المعلم أبى بكر أن باوتشى أفادت من مسألة إدراجها ضمن جولة "الانطباعات الأولى"، لكنه لم يلق بالاً لتلك الاحتجاجات الفظّة. واقع الأمر أن الممثل المقيم اغتنم الفرصة وأعرب عن أطروحته الوحيدة فى مراسلات أخرى، وقال فى تلك الأطروحة إن باوتشى Bauciتعد المقاطعة الشمالية الثالثة من حيث المساحة، والرابعة من حيث عدد السكان، والخامسة من حيث احتياطيات أرصدة التنمية المحلية، وفى أغلب الأحيان تكون هى آخر ما يخطر على بال المنظمين.

سرعان ما بدأت تبدو فى الأفق طرق جديدة لإدارة المستعمرات الأوروبية. بعد أن خرجت باريس من إضراب السكك الحديدية الذى استمر ستة أشهر فى مستعمراتها فى الصحراء الكبرى، ابتكرت فكرة المفوض السامى الفرنسى لغرب إفريقيا، يضاف إلى عمله أيضاً كونه حاكماً عاماً للمستعمرات، ومعه جنرال عسكرى مسئول أمامه عن الدفاع عن القيادات المتحدة الفرنسية فى غرب إفريقيا، وفى إفريقيا الاستوائية. وفيما يتصل بلندن، ورغم التعليقات التى دارت فى المجلس الأعلى من قبل اللورد رينيل Rennell، والتى مفادها أن هناك نقصاً كبيراً فى المعرفة لدى وزارة الخارجية عن الأمور الإدارية والاستعمارية، وأن الوقت قد حان لإحداث نوع من التبادل المحدود للعاملين بين مجلس اللوردات ووزارة المستعمرات، رغم ذلك جرت محاولة فى الاتجاه الخطأ، إذ كانت من الأعلى. جرى تعيين مفوض عام لجنوب شرق آسيا، كما جرى أيضاً تعيين ما

يشبه الحاكم العام، تحت إشراف وزارة المستعمرات، وجرى أيضًا تعيين ما يشبه السفير، تحت إشراف وزارة الخارجية، وليس له سلطة وزارة الخارجية أو وزارة المستعمرات أو نفوذهما أو حتى امتيازهما. أعلن أحد المراقبين الذين وصفوا هذا الترتيب بأنه "ترتيب خيالي"، أن وزارة الخارجية لا تعرف شيئًا عن المستعمرات أو شئون المستعمرات، كما أنها لا تعرف أقل القليل عن المسئولية عن الحكم والإدارة، وأنه يتعين استشارتها، لكن يجب عدم السماح لها مطلقًا بأن تكون هى المسيطرة المهيمنة. هذا الدرس لم يجر تعلمه مطلقًا يوم أن كانت المستعمرات على قيد الحياة.

كان وزير الخارجية العمالى لشئون المستعمرات، السيد/ كريش Creech جونز Jones، يلخص أهداف بريطانيا على النحو التالى: "هدف السياسة الاستعمارية الرئيسى هدف بسيط للغاية. الهدف هو الأخذ بيد المناطق المستعمرة للوصول بها إلى الحكم الذاتى المسئول فى إطار الكمنولث وبشروط تضمن للناس المعنيين بذلك مستوى عادلاً من المعيشة والتحرر من القمع من أى جانب من الجوانب" – ترى ما هو ذلك العادل Fair؟ ومن الذى يستطيع تعريف "القمع"؟ وما هى سرعة ذلك الإرشاد والتوجيه؟ كان مساعد التعليم فى باوتشى، هو ورفاقه المسئولون، يرون أن هذه التساؤلات لا تزال مصطلحات محلية إلى حد بعيد، كان كريش جونز، فى المكتب الإفريقى الرسمى، وبمساندة من أندريه Andrew كوهين Cohen، رائد جامعة كمبردج Combridge (جاءت تلك المساعدة أصلاً من مدير الدخل فى المناطق الداخلية سابقًا ومدير الدفاع المدنى حاليًا فى مالطة)، يرى أن نمط القرن التاسع عشر فى تاريخ الطبقة العاملة البريطانية تربطه صلة بإفريقيا، وأن رسائل هذه الطبقة العمالية السياسية، التى هى تجديد بحد ذاتها، تتركز على النقابات العمالية، وعلى التعاونيات والحكم المحلى. الأهم من ذلك أنه مع إنشاء منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة، بدأت المحاولات الضخمة من أجل القضاء على البعوض المسبب للملاريا باستعمال المبيد الحشرى الجديد الذى جرى اكتشافه أثناء الحرب، هذا المبيد هو مسحوق الـ DDT.. وبغض

النظر عن الآثار الجانبية السيئة التى اكتشفت فيما بعد، فقد خفَّف ذلك المبيد الكيماوى عبء الملاريا عن كثير من الأماكن وساعد على زيادة النمو السكانى فى المناطق الحضرية الإفريقية.

كان الانقلاب الشيوعى الذى حدث فى تشيكو سلفاكيا Czchoslovakia، واحداً من الأحداث المهمة فى العام ١٩٤٨، وكان من بين هذه الأحداث أيضًا توقيع معاهدة بروكسل التى تشكل أساس اتحاد غرب أوروبا، وكان من بين هذه الأحداث المهمة أيضًا حزب الاتحاد السياسى الشعبى فى الكاميرون الفرنسى، وجاء إنشاء دولة إسرائيل أيضًا من بين هذه الأحداث المهمة واندلاع حرب عربية بسبب إنشاء هذه الدولة، ومن الأحداث المهمة أيضًا فى ذلك الوقت الهزيمة التى لقيها الجنرال General سمتس Smuts فى جنوب إفريقيا على يدى مالان Malan، وبدء حصار برلين وأزمة الملايو، وكذلك عودة المناضل الوطنى الحبيب بورقيبه إلى وطنه تونس.

تميزت سفرة مساعد التعليم الثانية لزيارة بريطانيا فى نهاية شهر سبتمبر وحضور المؤتمر الإفريقى، بتقديم الرجل استقالة رزيته، وجاءت هذه الاستقالة قبل أن يتهيأ له الوقت الكافى لاستئناف عمله الروتينى المعتاد من جديد. وبدأت الهمهمات تصدر عن الحى وعن موظفى التعليم، تقول: إذا كانت المصالح الوطنية تستحوذ على وقت المعلم أبى بكر كله، فإن الخزانة الوطنية يتعين عليها إعفاء خزانات الإدارات المحلية من أعباء راتبه ومزايا التقاعد. ولم يلق أحد بالاً لتلك الهمهمات إلى أن أُعْطى الرجل إجازة بدون مرتب لكى يصبح وزيراً. حققت زيارة الرجل إلى بريطانيا نجاحًا ممتعًا. كانت الصحف البريطانية وفنانوا الرسوم المتحركة قد بدأوا يلاحظون أولئك الأفارقة الذين يؤثرون ملابسهم زاهية الألوان أو أن شئت فقل الملابس التى اعتادوا عليها، وكانت الصحف وفنانوا الرسوم المتحركة يفعلون ذلك بلا سخرية أو مساس. وجرى تقديم المعلم أبى بكر تافاوا باليوا إلى الملك جورج السادس، والتقاط صور تذكارية له مع أعضاء آخرين من الأسرة المالكة فى الحفل الذى أقيم فى قصر بكنجهام

ـ التقى أبو بكر تافاوا باليوا روى Roy ولنسكى Welensky، إلياس الذى يعمل سائقًا للقطارات فى روديسيا الشمالية، الذى امتدح فوت Foot رئيس السكرتارية النيجيرى، الذى كان هو الآخر مندوبًا ضمن الوفد، لأنه أوضح أن المؤتمر هيأ الفرصة لغير الرسميين من المستعمرات، لكى يلتقوا العاملين فى وزارة المستعمرات وجهًا لوجه، دون وساطة من مسئولى هذه الشخصيات غير الرسمية. زار أبو بكر أيضًا مدينة برمنجهام Birmingham، وحاول زيارة والد روبرت Robert رايت Wright فى ورويك شاير War-wickshire لكنه فشل فى ذلك. كان أبو بكر تافاوا باليوا المندوب النيجيرى الوحيد الذى سُمح له بحضور الاجتماع الذى عقدته الرابطة البرلمانية الإمبراطورية، فى مقرها القديم فى وستمنستر Westminster هول Hall. شارك الرجل فى المناقشات، وتحدث إلى رئيس الاجتماع، كما تحدث أيضًا مع زعماء من حزب العمال وحزب المحافظين، كما تحدث أيضًا إلى أعضاء آخرين من برلمانات الكمنولث والمجالس التشريعية الاستعمارية، مدركًا أيضًا أن الإصغاء إليه فى هذا المكان لم يكن دائمًا من قبيل الحفاوة وإنما من قبيل الاهتمام بما يقوله الرجل.

كان أبو بكر تافاوا باليوا قد استمع فى مطلع شهر أكتوبر، إلى كريش Creech جونز Jones وهو يعلن على الحاضرين أنه شخصيًا كان متشككًا فى فلسفة "القيادة"، وأنه كان يعود إلى عواطف كارلايل Carlyle الفارغة وإلى التجربة الفاشية والنازية والشيوعية فى أوروبا، لكن المعلم أبا بكر أصبح على يقين الآن من أن الشخصية، والمثل، والأفكار، والنفوذ يمكن تحويلها إلى تشكيلة متجانسة بدرجات متفاوتة لإقناع الآخرين واستمالتهم بفعل الأشياء الجيدة والأشياء المطلوبة. شارك الرجل أيضًا فى حوارات المؤتمر حول الحكم المحلى، ودافع عن سياسة "خطوة خطوة" التى ينتهجها الشمال وصولاً إلى صندوق الاقتراع:

"منظومة الانتخاب غير المباشر للمجلس التشريعى المركزى، مُعْترف بها على أنها حل وسط عاجل، فى ضوء نسبة الأمية المرتفعة حاليًا وتسود المناطق الإفريقية

المستعمرة حاليًا. هذه المنظومة ليست هى الخيار النهائى، ونحن نتطلع إلى أن السياسة النهائية لابد أن تهدف إلى قوائم الاقتراح وإلى صناديق الانتخاب".

قبل مغادرة إنجلترا إلى وطنه كان أبو بكر تافاوا باليوا، قد اعترف فى واحدة من المقابلات بتأثره الكبير وهو فى بريطانيا فى زمن السلم، ببقاياها الأثرية الرومانية. كان الكثير من تلك الأدوات والأوانى التى شاهدها الرجل فى المتاحف شبيهة بتلك الأوانى والأدوات التى لا تزال تستخدم فى شمال نيجيريا. عرف أبو بكر أن البريطانى الحقيقى يفضل الآثار القديمة تفضيلاً شديداً"، وهى سمة من السمات التى يعجب بها الرجل إعجاباً شديداً من منطلق أنه نيجيرى شمالى. وبقى الرجل طوال سنوات عدة متيماً بالعمل مع البريطانيين الذين يُكرِّمون الماضى، ومع ذلك كان الرجل يؤمن بالبناء على الماضى بدلاً من حفر أساسات جديدة أو وضعها على مواقع جديدة، أو دفن آثار الماضى تحت هياكل حديثة بلا معالم.

على الجانب الآخر، وبينما كان أبو بكر فى لندن، كان المزيد من الأساسات السياسية، يجرى حفرها فى المواقع الخضراء فى بلاده. فى شهر أكتوبر، وفى إحدى قاعات القراءة القديمة فى زاريا حضر كل من الدكتور أر. إيه. ب دكّو **Dikko**، والمعلم أبو بكر إمام، والمعلم على أبو بكر، والمعلم أمين كانو تشكيل (المؤتمر الشعبى الشمالى **Npc**)، ومن باب المصادفة افتتح المعلم دى. إيه. رافى **Rafi**، فى فندق جرين فى كادونا تأسيس (رابطة رجال الشمال اليوم)، وكان بصحبته المعلم يحيى جوساو، الذى كان يدرس فى ذلك الوقت فى الكلية الحكومية فى كادونا، ثم أصبح أميناً عاماً. معروف أن المعلم دى. إيه. رافى كان مفتشاً فى السكك الحديدية النيجيرية. كان المعلم دى. إيه. رافى قد تابع المناقشات التى دارت فى اجتماع رابطة معلمى الشمال، والتى أدت إلى اندماج التجمعات المماثلة التى من قبيل جمعية الصداقة فى زاريا، أو رابطة شباب زاريا، والهيئات المماثلة لها فى كادونا. زادت شهوة المشاركة فى المناقشات الاجتماعية التى من هذا القبيل نتيجة حب الاستطلاع الذى زاد عند الناس بسبب نشرات الأخبار

فى زمن الحرب، والتى كانت من قبيل النشرة الإخبارية الإذاعية الورقية التى كانت تصدرها إدارة الحكم المحلى فى كنو kano. كانت البنية تستهدف إنشاء النوادى المدمجة باعتبارها منظمة "ثقافية" تسير فى خط مواز مع أفرع رابطة معلمى الشمال، ومن الطبيعى أن تكون باوتشى أول من يحذو هذا الحذو. ومع ذلك، لم يسارع المعلم أبو بكر تافاوا باليوا إلى الانضمام إلى هذه النوادى المدمجة، وليس من المدهش أن نعرف أن السواد الأعظم من نظار المدارس لم يسارعوا إلى ذلك الانضمام، وبخاصة هؤلاء الذين جرى تشجيعهم فى كل مكان على الانضمام إلى مجلس الرؤساء ليكونوا فيها مستشارين تقدميين. ربما كان مرد عدم الانضمام هذا إلى أن البعض من هؤلاء النظار كانوا يرون أن النوادى التى من هذا القبيل تحت مستوى كرامتهم.

الفصل الثانى عشر

مسئول التعليم : تسريع التغيير الدستورى

"من يُقَيد الضبع، يتعين عليه أن يعرف كيف يطلق سراحه"(*)

مع بدايات العام ١٩٤٩ الميلادى وصلت إلى نيجيريا الرحلة الوحيدة من رحلات الطيران وكانت تحمل على متنها بعض العسكر السابقين، وخريجى الجامعات، والإداريين. كان من بين الاثنين اللذين وصلا إلى باوتشى واحد أسكتلندى، وبعد أن أمضى الرجل ثلاثة أشهر فى كتاجوم فى المكتب المحلى، بصفة مساعد لبيتون Pay-ton، الممثل المقيم، جرى نقله ليكون مساعداً لضابط الحى كوكس Cox فى قسم باوتشى، وأمضى الرجل السنوات الخمس التى تلت ذلك فى هذا المنصب، فى الوقت الذى كان رفاقه الآخرون يجيئون ويذهبون. وبعد فترة مبدئية من الشك المتبادل، استطاع الرجل بطريقة بطيئة إقامة علاقة وثيقة مع المعلم أبى بكر. تصادف وصول الرجل مع حدوث هيجان فى الجمعية التشريعية فى الشمال، من قبل أبى بكر تافاوا باليوا، تكرر هذا الهيجان بعد ذلك بشهرين من مجلس إيبادان التشريعى فى الاجتماع المخصص لمناقشة الميزانية، وبخاصة ما يتعلق فيها بتوفير الدعم المالى المطلوب لستة وثلاثين موظفًا مبتدئًا جديداً، بدلاً من توظيف المزيد من المهندسين، والأطباء، والمعلمين

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا. وهو قريب من المثل العربى الذى يقول: قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعها". (المترجم)

والحرفيين الآخرين: ترى **"هل كان ذلك اعترافًا وإقرارًا بفشل الحكم غير المباشر؟ يبدو أنه كان هناك عدد كبير من الإداريين"**.

أعرب كثيرون من مسئولى الإدارات المحلية وموظفيها (والسواد الأعظم من الموظفين الفنيين المغتربين) عن شيء من الأشياء تجاه الموظفين الإداريين، الذين ربما يكونون أصغر سنًا منهم وأقل خبرة منهم أيضًا فى المجال الأفريقى: لم ينظر هؤلاء المسئولون والموظفون إلى كيفية الاستفادة من سنوات الخبرة تلك، وإمكانية تحقيق ذلك عن طريق اكتساب الخبرة من خلال العمل الفعلى تحت إشراف المشرفين، وأن يكون ذلك جنبًا إلى جنب مع رفاقهم أصحاب الخبرة الأكبر، الذين كان البعض منهم صغار السن تمامًا وجديدين على العمل. لم يكن أبو بكر تافاوا باليوا من الذين يساندون فكرة الإكثار من المدرسين والتكنوقراط(*)، إلى حد أن البنية الخالية من المقاطعات، أمكن عن طريق الموظفين الفنيين فى الإدارات وعن طريق نفوذهم، ملء شواغرها من الفنيين والتقليل من أفراد الإدارة العامة فيها، وأن هذا هو كل ما تحتاج إليه البلاد (وأضاف أبو بكر أيضًا أن وجهة نظر هؤلاء التكنوقراط والفنيين لم يكن السياسيون المحليون المتدرجون يشاركونهم فيها)، لكن أبا بكر فى ذلك الوقت كان يرى أن تغيير بنية الإدارة المحلية من داخلها أمر ممكن، فى ظل الإشراف الحانى، والمُنْهك بطبيعة الحال، من قبل الهيئة الإدارية من كبار السن الذين استنزفت الحرب قواهم ولم يجر دعمهم. لم يكن أبو بكر يعرف (وكان بوسعه أن يعرف إن أراد) شيئًا عن مناطق اللجنة العليا الخاصة بجنوب إفريقيا، التى كانت تَعْرف أن مهمتها مقصورة على إبعاد البوير Boers فقط، وأنها لا تُقْدم على التشريع إلا عندما يطلب منها الحكام المحليون ذلك، من منطلق أن هذا المبدأ ، حسب ظنهم، يجرى العمل به فى الولايات الهندية التى يحكمها أمراء: وفى غير هذا الوضع كان الرجل يستشهد بهذا المبدأ. من جانب آخر استطاع

(*) التكنوقراط: الفنيون. (المترجم)

أبو بكر تافاوا باليوا الحكم على ضباط الأحياء الإداريين الجدد من خلال مزاياهم، وبخاصة استعداد هؤلاء الضباط لعدم الاستسلام لإغراءات نزع السلطة من أيدى موظفى الإدارة المحلية الذين يتمتعون بالإقدام والمبادأة، واستعداد هؤلاء الضباط وإقبالهم على القيام بالجولات التفقدية، وعلاقاتهم الشخصية، وعدم إغلاقهم لمكاتبهم على أنفسهم، أو كبائنهم المبنية من اللَّبن ومعهم ملفاتهم. كان موظف باوتشى المبتدئ يتلقى كثيراً من الملاحظات فى ضوء هذه المعايير.

اندهش إيه جى كاربنتر Carpenter، أحد موظفى التعليم الزائرين من زاريا Zar-ia، للأدب الجم الذى استقبله به أبو بكر تافاوا باليوا، بعد انتظار دام فترة قصيرة، وناقش معه مشكلة تعليم الصغار فى منزله، الذى كان عبارة عن كوخ، ليس فيه من الأثاث سوى مُلَّة سرير مصنوعة من الحديد وكرسى واحد. كان السير/ جى. ب (جاك Jack) ديفز Davies، المدير العام لمنطقة بنيو Benu التابعة لشركة إفريقيا المتحدة، قد زار الرجل فى ظل هذه الأشياء البسيطة والأثاث البسيط أيضًا، كانا يتناولان الشاى سويًا فى بعض الأحيان، لكن مع مرور السنين كانا ينفقان المزيد من الساعات فى تحليل تجارة البلاد وتنميتها تحليلاً عميقًا. فى ذلك الوقت لم يكن أبو بكر تافاوا باليوا أقل انتقاداً للشركة الإفريقية المتحدة، وحقوقها فى الحصول على عوائد من المناجم التى كانت تمتلكها، من انتقاده لضباط الأحياء الإداريين المتهورين. هذه المحادثات والأحاديث التى جرى إبلاغها لرئاسة الشركة الإفريقية المتحدة فى ليجوس، وإلى مكاتبها فى لندن، كانت بمثابة الأساس وراء بيع الشركة على الفور هذه الحقوق والعائدات إلى الحكومة النيجيرية بعد عامين أو ثلاثة. وتصادف ذلك، فى هذا التوقيت، مع قيام المُنظِّم السيد/ ندوكا Nduka إيزى Eze بتجديد هجماته النقابية واستئنافها على "المنظومة الاستعمارية" فى الجنوب، وركز الرجل صرفه للذخيرة على الشركة الإفريقية المتحدة باعتبارها المنبع الرئيسى لتلك المنظومة، لكن نظراً لفشل الحكومة فى الرد على ذلك، تساقط السواد الأعظم من مستخدمى الشركة ابتعاداً منهم عن المعركة

السياسية، ولم تكن الحركة النقابية العمالية عاملاً كبيراً فى تجارة القطاع الخاص النيجيرى إلى ما بعد انتهاء سنوات الاستعمار.

كان الكتاب المحبب إلى نفس أبى بكر فى ذلك الوقت هو "التاريخ الاجتماعى الإنجليزى" الذى ألَّفه جى . إم تريفليان Trevelyan، وقد اصطحب أبو بكر ذلك الكتاب هو والقرآن الكريم معه على الطائرة عندما قام الحاكم بتوصيله إلى ليجوس ذات مرة: وقد انشرح صدر أبى بكر لاهتمام الكتاب اهتمامًا كبيراً بليبرالية شمال الوسط بين الناس العاديين بدلاً من اهتمامه بالملوك والسياسيين، وقد تأكد لأبى بكر أن ضابط الحى الإدارى الجديد قد قرأ هذا الكتاب فى الهند فى زمن الحرب وتمتع به. تلا هذا الاكتشاف قيام أبى بكر بقراءة قطعة الإملاء التى وردت فى الاختبار الشفهى الذى عقده ضابط الحى الإدارى لطلاب المستوى الأول الذين يتعلمون لغة الهوسا. كانت فكرة تنمية باوتشى وفكرة برنامج حفر الأبيار بمساعدة من بعض الحرفيين البريطانيين من بين الأشياء التى شجعت الرجلين، كما تشجع الرجلان أيضًا بفعل التقارير التى وردت إليهما من حفارى مغارات الفحم والباحثين عن البترول فى جومب Gombe فى الجانب الشرقى من باوتشى (والمؤسف أن تلك التقارير والاكتشافات سرعان ما أصبحت فى طى النسيان)، كما تشجع الرجلان أيضًا لإنشاء فريق كشافة من الأميين. وبدأ إنتاج القصدير يتزايد عن الطلب المعتاد. وجرى توزيع بعض الأسمدة الاصنطاعية مجانًا على الفلاحين، بواسطة مجلس تطوير الإنتاج فى الإقليم الشمالى، كما قام ذلك المجلس الجديد بتمويل حفر الأبيار ومعدات تمهيد الطرق وآلاتها وشقها.

كانت الإدارة المحلية قد شكلت هيئة تدعى "مجلس هوايتلى "Whitley، لمناقشة مشكلات المستخدمين (على الرغم من عدم وجود متسع لمناقشة شروط الخدمة، التى جرى تنميطها من قبل كادونا (Kaduna، وبدأ المجلس الخاص بالأمير فتح سجل دقيق يدون فيه قراراته باستخدام لغة الهوسا المدونة بأحرف رومانية (ووافق الأمير على ذلك Sarki ya yarda)، وكانت خاتمة كل قرار من القرارات التى يجرى تدوينها فى ذلك

السجل، مثل خاتمة المجلس التنفيذى الاستعمارى، **"جرى استشارة معاليه ووجِّه بما جاء فيه"**. يزاد على ذلك أن حق كل من الممثل المقيم وضابط الحى فى الاتصال المباشر بالأمير كان أمرًا مقضيًا لا نقاش فيه، لكن كانت هناك حساسية زائدة تحوم حول الاجتماعات الخاصة التى كانت تعقد قبل اجتماع المجلس، وكان يندر تمامًا ترك أعضاء المجلس ينتظرون فترة طويلة خارج المجلس أثناء قيام الأمير هو والإدارة بإعداد جدول الأعمال. وقد أدى فصل الجفاف إلى اقتراب الالتهاب السحائى مرة أخرى من الجزء الشمالى من إمارة باوتشى. ولم تؤد الاحتياطيات الإدارية لذلك الوباء إلى منع ضم اثنين من أصدقاء أبى بكر هما محاسب الخزانة المدعو المعلم يعقوب Yakubu وانكا Wanka، ومشرف الأشغال المدعو المعلم Malam شيخ Shehu، لينضما إلى سبعة أعضاء شماليين آخرين لينضموا إلى مجلس بريطانى آخر أثناء قيامه بزيارة إلى بريطانيا، وكان الهدف من هذه الزيارة هو دراسة "الحكم المحلى فى الفترة الانتقالية". وبعد فترة قصيرة انضم إليهم الأمير عمر Umaru أمير كاتاجوم Katagum التى تقع إلى الشمال من باوتشى، كما انضم إليهم أيضًا محمد Muham-madu شيروما، ولد الأمير عمر، والذى يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، كما انضم إليهم المعلم عثمان جعفر، رجل برنو Borno الذى تولى منصب الناظر فى مدرسة باوتشى المتوسطة.

كانت الأمور قد بدأت تتحرك فى أجزاء أخرى من نيجيريا، وجرى الاتفاق على المنشأة من قبل لجنة تجارية فى لندن، برئاسة أحد الممثلين المقيمين المتقاعدين، وتحدد افتتاحها رسميًا فى العام ١٩٥٠ على أمل أن تكون لجنة تمثيل كاملة. قام أربعة من أصحاب العقول الفنية بتركيب أجهزة راديو فى أربع من سيارات الشرطة فى ليجوس وراحوا يجربون إمكانية تسجيل جلسات المجلس التشريعى على ماكينات تسجيل بريطانية. وجرى فى نهاية الأمر نقل كلية كادونا (كاتسنا سابقًا) إلى زاريا - وجرى أيضًا تشجيع منقبى شركة شل البترولية بفصل المسوح التى قاموا بها فى دلتا نهر

النيجر، كما بدأ الحصر التجريبى فى العام التالى: كان المنقبون عن البترول قد أجروا أبحاثهم ومسوحهم السيزمية والمسوح الخاصة بالجاذبية على مساحة تقدر بحوالى ١٥٥٠٠٠ كيلو متر، كانت كلها أرض امتياز للشركة بناء على الاتفاق الذى أبرم فى العام ١٩٣٨ واستمر إلى العام ١٩٤١، ثم عادت الشركة إلى البحث والتنقيب مرة ثانية فى العام ,١٩٤٦ وجرى تشجيع أربع وعشرين من الشماليين لإجراء مقابلات معهم بواسطة مجلس الخدمة العامة. وأصبح العمل الجماعى (تحت مسمى خدمة النفس التطوعية) محل احترام دولى بعد عرض الفيلم الوثائقى المعنون **طلوع فجر يودى** Udi، والذى يسجل إلهام إى.أر. شادويك وتوجيهه لتصميم السكان المحليين على حتمية تطوير المقاطعات الشرقية، وحصل هذا الفيلم التسجيلى على جائزة الأوسكار: لأن "معالجة الفيلم" أو بالأحرى ممثلى قصته كانوا من تأليف ديفيد David وليامز Wil-liams، أما مؤلف المخطوطه فهو منتاجو Montagu سليتر Slater واضع كلمات أوبرا برتن Britten المعنونه **جرائم بطرس**. خارج نيجيريا كانت هناك مواجهة دامية فى ساحل العاج بين الإدارة الفرنسية **"ورفاق الطريق"**(*) الذين تربطهم صلة بالوطنى السيد/ يوفوى Ufew (يصح فيه أيضًا هفويت Houphouet)، ثم تشكلت منظمة حلف شمال الأطلنطى فى شهر أبريل، وفى الشهر التالى جرى رفع حصار برلين الذى دام أحد عشر شهراً، ووضع المؤتمر الذى عقد عند شلالات فيكتوريا أساس التحالف الفيدرالى لمستعمرات وسط إفريقيا البريطانية، وفى شهر يونيو وضع قانون المواطنة الصادر عن جنوب إفريقيا، الأسس الخاصة بالتمييز العرقى الكامل، وسرعان ما انخفضت قيمة الجنيه الإسترلينى بعد ذلك، وقام اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية باختبار قنبلته الذرية الأولى، ثم اندلعت المظاهرات فى بوجنده Buganda، ثم قامت لجنة كوسى Coussey الخاصة بكل إفريقيا بإصدار تقريرها عن التغيير

(*) المقصود برفاق الطريق هنا: من يعطفون على برنامج حزب أو مبادئه أو يروِّجون لها من غير أن يكونوا أعضاءً فيه. (المترجم)

الدستورى الذى حدث فى شهر أكتوبر فى ساحل الذهب، وقامت قوات الحزب الشيوعى الصينى بالاستيلاء على بكين وعلى حكومة البلاد.

انقضى فى بريطانيا "شهر استعمارى" دون أن يلاحظ أهل لندن، الذين كانوا يقومون بدور المضيفين أى تغيير يذكر، على الرغم من أن النقاد السياسيين والنقاد الصحفيين لم يشيروا إلى نقص الإنتاج، الذى منه مثلا المخزونات التى تجىء عن طريق السكك الحديدية، حتى يمكن الوفاء بمتطلبات التنمية الاستعمارية، فى وقت، كان فيه إنتاج المملكة المتحدة العام، غير كاف لتغطية طلباتها، وذلك على الرغم من التخطيط طوال فترة الحرب، استعداداً للاسترخاء الذى سيصاحب زمن السلام. استطاع آتلى Attlee رئيس الوزراء إقناع وزارة المستعمرات بإنشاء ما أصبح يسمى بعد ذلك باسم "لجنة المستعمرات الصغيرة"، لتقوم بتقديم الاستشارات الخاصة بما يمكن عمله دستورياً وسياسياً مع الأماكن الصغيرة، التى كان على قناعة بأنها لا تحظى باهتمام كبير من مجلس الوزراء. ثم قامت الآنسة ريتا Rite هندن Hinden، المولودة فى جنوب إفريقيا، والعضو لمدة طويلة فى المكتب الاستعمارى الفابى Fabian، بأول زيارة لها إلى غرب إفريقيا، وأمضت ثلاثة أسابيع ونصف الأسبوع فى نيجيريا ضيفة على حركة الشباب النيجيرى التى يرأسها هـ.أو. ديفز Davies. بدأ عدد كبير من أعضاء حزب المحافظين يتشككون فى النفوذ الشيوعى ووقوفه خلف هذه الأحداث، المتمثلة فى إضرابات ساحل الذهب وبزوغ نجم الدكتور نيكروما Nkrumah، وفى المواقف التى اتخذها طلاب المستعمرات إزاء المؤسسات البريطانية لما بعد التعليم الثانوى. تخلى آتلى Attlee هو الآخر، عن انتوائه تشجيع المستعمرات بعد الحرب مباشرة على المحافظة على قواتها المسلحة القادرة على الدفاع عنها. ومع ذلك اعترفت لجنة من لجان الاختيار فى مجلس العموم بأن قوة الحدود الملكية لغرب إفريقيا (التى كانت السرية الجامبية Gambia فيها ستتحول إلى فوج regiment مرة ثانية مثلما حدث فى زمن الحرب) كانت لاتزال مزودة بالمعدات كما لو كانت جزءاً من خطة الدفاع

الإمبريالى (الاستعمارى)، كما لاحظت اللجنة أيضًا أن مستعمرات الساحل الغربى، كان ينتظر منها، إذا ما استطاعت ذلك، المساهمة فى أرصدة المملكة المتحدة بنسبة ١٢٥٪ من إجمالى الإنفاق العسكرى فى العام ١٩٣٩، بما فى ذلك الكلفة الكلية للمحافظة على الأمن الداخلى. وارتفعت الأصوات الحزبية تلمح إلى أن الرائد آتلى كان مترددًا فى مسألة زيادة تسليح المستعمرات السوداء، إذا ما كان ذلك سيؤدى إلى مضايقة سلطات جنوب إفريقيا البيضاء، التى كان الأفريكان(*) فيها يقيمون نصبهم التذكارى، يضاف إلى ذلك أن انتصار حزب الأفريكان الوطنى كان يحتم القضاء على الأوهام الليبرالية التى مفادها أن غالبية الناخبين البيض كانوا يشاركون الديمقراطيات الغربية معتقداتها، فيما يتعلق بالمناقشات البرلمانية التى تقوم على المنطق.

كان لدى المعلم أبى بكر مساهمات أخرى أسهم بها فى اجتماع مناقشة الموازنة فى إيبادان Ibadan الذى عقد فى العام ١٩٤٩ وباعتبار الرجل زعيم كتلة الشمال الحقيقى، إضافة إلى تشككه فى قيمة الموظفين المبتدئين. كان أبو بكر، شأنه فى ذلك شأن دافعى الضرائب (باستثناء قلة قلية من اللا متخرجين أو وكالات التنفيذ) يرى حتمية إجبار الطلبة الباحثين على العودة وخدمة كفلائهم بعد التخرج، كما أيد أبو بكر سائر رغبات الجنوب فى أن يكون التعليم الابتدائى مجانيًا وإلزاميًا من حيث المبدأ، لكن الرجل كان يرى أن الواقع العملى يحتم على الأقاليم مناقشة المضامين أولاً ثم تتقدم بها بطريقة طوعية وعن طيب خاطر. الأهم من ذلك أن الرجل نجح فى تقديم اقتراح مفاده احتجاز فوائض الميزانية وتحويلها لصالح رصيد بعثات الشمال، الأمر الذى يمكن أن يعوض فى المستقبل القريب الفروق العكسية الماضية، كما اعترض أبو بكر أيضًا على لجنة التحقيق الخاصة بإدارة البريد والبرق، نظرًا لأن مثل هذه اللجنة

(*) الأفريكان Afrikaners هنا: هم سكان جنوب إفريقيا الذين ولدوا فى المنطقة وليس لهم أى مكان آخر يذهبون إليه. (المترجم)

يمكن أن تفتح الباب واسعًا أمام الانتقادات الحزبية. ثم ربط أبو بكر نفسه بعد ذلك فى لخبطة مشوشة من التفسيرات المتبادلة والأفكار المغلوطة أو المشوشة حول محاولة عضو آخر من الأعضاء الاستفادة من العرف الوزارى البريطانى الشاذ الذى يقضى بمناقشة أى أمر من الأمور التى تستغرق مناقشة الأمر منها "يومًا واحدًا" فى "ستة أشهر"، وكان الهدف من ذلك هو تعطيل قانون الدوريات والمطبوعات المقدم من قبل عضو من الأعضاء الموالين للدكتور آزكوى، لكن هذا التشوش انتهى باعتراف السير جون ماكفرسن، شأنه فى ذلك شأن المبتدئين الآخرين، قائلاً: "أنا لا أفهم ذلك" ـ الذى يدور فى الحوار الدائر حول حرية الكلام، والحوار الدائر حول مساندة السيد/ تى.إيه. أوديوتولا Odutola الذى كان يحذر الشرقيين من التدخل فى شئون حكام الغرب والشمال الطبيعيين، لكن المعلم أبا بكر سار على خطه المعهود فى انتقاد الحكم غير المباشر، كما كان ينتقد أيضًا التلقين الذى تقوم به الصحف الشبابية ويهدف إلى عدم احترام الموروثات والتقاليد، كما كان الرجل ينتقد أيضًا رغبة الحكومة الظاهرة فى تحويل البلد كله إلى مجرد امتداد لليجوس. **كان مراسل صحيفة ليجوس Lagos (المدعو إسماعيل) جوس Jos، يرى أبا بكر رجلاً صادقًا وصاحب خلق، لكنه لن يصل إلى "القمة" من هذا الطريق.**

لعب أبو بكر تافاوا باليوا دورًا نافعًا فى توضيح بعض الارتباكات والغموض الذى دار فى المجلس حول الاقتراح المقدم من الأمين العام بإحالة مراجعة الدستور إلى لجنة اختيار وانتقاء. كان الحاكم قد سبق أن قرر قبل الجلسة الثانية للمجلس التشريعى فى ظل اكتمال دستور ريتشاردز Richards، حتمية مراجعة الدستور، وعليه وبدلاً من تركه تلك المراجعة تستغرق تسع سنوات، والنظر فى التفاصيل على امتداد فترات طوال الواحدة منها ثلاث سنوات، قرر الرجل وبمبادأة شخصية منه، وبمساندة حماسية من فوت Foot، تسريع عملية المراجعة هذه، وقام بإبلاغ لندن بذلك. لما كان الرجل يفكر مليًا فى أكرا Accra، فقد سبق له أن قال لرفاقه المسئولين، "لن أوافق مطلقًا على أن

يجبرنى أحد على تعديل الدستور لأنى محاصر فى بيت الحكم. سوف أقوم بعمل تلك التعديلات قبل أن يقع ذلك. وأنا لا يعنينى حصار أى أحد لى اللهم باستثناء دهماء ليجوس وجماهيرها. دهماء ليجوس لا يقلون وقاحة عن الآخرين، لكن أخطر ما فى الأمر هو جهل هؤلاء الدهماء. أنهم لا يعرفون أى شىء عن البلاد، كما أنهم لا يعرفون ذلك الذى يصيحون ويطالبون به".

كانت النتيجة العملية المباشرة التى ترتبت على التحرك الذى قام به ماكفرسن هى دخول الحياة العامة فى نيجيريا فى مؤتمرات جانبية استمرت ستة أشهر، كانت تعقد فى المناطق الفردية، وفى الأقسام، وفى المقاطعات والأقاليم، لمناقشة التغيير الدستورى. لما كان المسئولون البريطانيون، متعادين فى بلادهم على دستور غير مكتوب تتغير تفاصيله التفسيرية بصورة متدرجة على امتداد عقود بل ومئات السنين باعتبار أن ذلك التغيير يعد رد فعل لتطور اجتماعى طيب، فقد غلب عليهم أن ما يدور فى نيجيريا سوف يتمخض عن إطار واسع، وأن ذلك الإطار فى ظل شىء من التغيير القليل يمكن أن يدعم ويساند عملية خلق أمة أو دولة، فى يوم من الأيام، من دول الدمينيون(*) وفى إطار القانون البرلمانى لمجلس الوزراء البريطانى. لم يقدر المسئولون البريطانيون مسألة أن سكانًا متباينين ومتفرقين، يرجع إليهم حكامهم فى المسائل المهمة فى المرة الأولى، قد يجدون أنفسهم يجرى التوسل إليهم مرات ومرات لا على مدى ستة أشهر وإنما على امتداد سنوات طوال، من قبل سياسيين يجدون أن كل إطار من هذه الأطر المتتالية غير كاف أو مُرْض. كانت مُثُل التكيف البريطانية يجرى تمثلها تمامًا مع بداية العملية الاستشارية التى جرت فى العام ١٩٤٩، عندما أعلن مؤتمر رؤساء الوزراء فى لندن أن كمنولث Common wealth الأمم (غير "البريطانية"). اتفق على الاحتفاظ بجمهورية

(*) الدمينيون: كل دولة مستقلة من دول الكمنولث البريطانى (باستثناء المملكة المتحدة) تعترف بالعاهل البريطانى رئيسًا للدولة.(المترجم)

الهند داخل زمالته وعضويته، نظراً لأن جمهورية الهند قبلت الملك باعتباره رمزاً للارتباط الحر بين الدول المستقلة، وباعتباره أيضًا "رئيسًا للكمنولث" وهذا بحد ذاته تغيير جوهرى يفتقر إلى منطق الإقطاع والفروسية، وخال أيضًا من الصفحات القانونية، لكنه يقوم على الثقة والاحترام المتبادل.

كانت نيجيريا بحاجة ماسة إلى الأشكال القانونية. فى الأحْراج والغابات، قبل أن تتولد الثقة. وهنا نجد أن مؤتمرات المنطقة القروية، التى لا تعرف شيئًا عن حياة القرى والأقاليم الأخرى تقف مندهشة أمام أبسط التفسيرات الوطنية والمسئوليات الحدودية الإضافية للحكومات المركزية الحديثة، الأمر الذى جعل هذه المؤتمرات تتراجع شأنها شأن المجتمعات الغربية كلها تتراجع إلى شكل من أشكال الاستبطان(*) الضيق والشوفانية، تاركة الأمر للمستويات الأعلى للرد على الأسئلة غير المفهومة على أفضل نحو تراه أو تقدر عليه.

فى الشمال، كان يمكن لأغلبية السكان أن تختار طريق الجمود وعدم الموافقة على التغيير، لو لم يقم بعض مسئولى الإدارة المحلية هم والإدارة البريطانية بتوضيح أن ذلك لن يكون مقبولاً، ولو لم توضح لهم الأسئلة التى طرحها الحاكم عليهم وتقيد أن اشتراكهم فى التغيير أمر مفروض ولابد منه.

وهنا بدأت تتوارد على الأذهان مسألة باكستان، التى كانت لا تزال تحت رئاسة ممثل للملك، وبخاصة عندما بدأت المناطق المسلمة تتحدث عن مصائرها السياسية، وهنا راح الملاحظون المفكرون يتساءلون عن المكان "والذى تود العناصر الشابة المتعلمة تخصيصه للوثنيين" أو بالأحرى لذلك الذى أصبح الناس يعرفونه باسم "الحزام الأوسط" للمناطق الجنوبية النائية – أو إن شئت فقل القسم الأكبر من الشمال كله،

(*) الاستبطان: فحص المرء أفكاره ودوافعه ومشاعره (المترجم)

الذى لا يتكلم سكانه لغة الهوسا. كان المثال الباكستانى، الذى سارع المعلم أبو بكر إلى تجاهله، قد صرف لسوء الحظ، الانتباه عن العوامل المشتركة بين النيجيريين الذين لم يكونوا شماليين أو من المسلمين.

كان السيد/ أولوو Awolowo، وهو يكتب لصالح الفيدرالية وتأييداً لها، واعترافا وإقراراً منه بأن ثلاثين أو أربعين جمعية إقليمية لن تكون كثيرة على ولايات متحدة نيجيرية مُستقبلاً، قد أقر أيضًا أنه مادام تولَّد لدى الشخص الإحساس بأنه نيجيرى فى المقام الأول، وأنه يوروباوى Yoruba أوأجباوى Igbo أو هوساوى فى المقام الثانى، فإن كل إنسان "سيكون من حقه التدخل فى الأمور الداخلية للآخرين". كان الميثاق الذى تقدم به الدكتور آزكوى وأسسه على مفهوم الوحدة، والذى كشف عنه فى كادونا فى العام ١٩٤٨، ينادى بوجود ولايات تقوم على الأساس القومى واللغوى، لكن الرجل يعود بعد ذلك ليهيب فى آبا Abaفى شهر يونيو، باتحاد ولايات الإيبو الذى تشكل حديثًا الاعتراف أن "التمييز" discriminations ضد أمة الأيبو Ibo (إذ لم يكن هناك عضو من الإيبو فى المجلس التشريعى، ولم تكن الكهرباء أو مياه الشرب كافية، والأسوأ من ذلك كله عدم وجود فرقة لإطفاء الحرائق خارج ميناء هاركورت Harcourt) سوف ينتهى إذا ما أصبحت هذه الأمة ولاية حرة ومنفصلة فى إطار اتحاد فيدرالى لغرب إفريقيا فى المستقبل. كان الأيبيون Ibibois هم وآخرون يتكلمون عن أمور مماثلة. ولا عجب أن يخيب أمل الملاحظين المفكرين لكنهم لم يندهشوا لذلك، عندما بدأوا يلاحظون أن مفكرى الشمال بدأوا يتساءلون عن إمكانية وصول الأمم أو الدول المحاصرة أرضيًا إلى منفذ يكون لها على البحر، أو عندما بدأوا يتأملون مسألة إقامة نوع من الوفاق التجارى مع الجيران الأجانب. كان السير إريك Eric تومبستون Thompstone، كبير مفوضى الشمالى فى نيجيريا، قد مجَّد حكمه الذى دام ثلاثين عامًا فى نيجيريا بقناعة مفادها أن النمو السياسى الذى لا مفر منه للأحزاب السياسية على أسس من المبادئ والخطوط الشيوعية، وبغض النظر عن أى أساس

نظرى للنظريات السياسية المعارضة، هو الذى شكل مستقبلاً مستقراً لنيجيريا، وأن هذا المستقبل المستقر يمكن أن يصبح حقيقة عملية واقعة إذا ما تجسَّد على شكل اتحادات فيدرالية سائبة ومتحللة. وقد جرى التركيز على هذه الآراء فى قرار السلطة الإدارية، التى كانت تلبى رغبات مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة، والتى كانت تتمثل فى تعيين مفوض للكاميرون فى شهر أبريل. وتعين على أبى بكر تافاوا باليوا تحمل نوعًا من المسئولية، غامضة التعريف بل وأكثر غموضًا من الناحية التنفيذية، تجاه بعض مسائل الوصاية الخالصة فى تلك الأجزاء من المناطق التى تجرى إداراتها باعتبارها أجزاء من المقاطعات الشمالية مثل برنو Borno، وأدماوا Admawa وبنيو Benue.

حدث فى شهر يوليو شىء مثير أهاج المسئولين والمعلمين فى الإدارة المحلية فى مقاطعة باوتشى وقد تمثل ذلك فى قيام روبرت Robert رايت Wright باتخاذ الترتيبات اللازمة لنقل شبلين ونعامتين صغيرتين إلى حديقة حيوان لندن عن طريق الجو، كان أحد الصيادين قد أحضر هذين الشبلين اليتيمين لأمير كتاجوم Katagum (الذى احتفظ بهما لدى كبير قصابى أزار Azare بصورة مؤقتة)، وأطلق عليهما اسمى "عمر" Umaru و"ماكنزى" Makenzi، تيمنًا باسم الأمير ورئيس حَيِّه. كان أبو بكر واحدًا من أولئك الذين لعبوا مع هذين الشبلين وهاتين النعامتين الصغيرتين فى حديقة روبرت رايت.

فى شهر سبتمبر وعندما وصلت موجة صغيرة من رجال التعليم البريطانيين، وكان من بينهم امرأة، إلى باوتشى، جرى استدعاء أبى بكر إلى ليجوس لإجراء مقابلة شخصية معه للتأكد من صلاحيته للترقية إلى "منصب أعلى". ودار حديث غاضب ونقاش حاد وراء الكواليس. كان هناك أيضًا ضغط لا يمكن مقاومته تمثل فى "النجرنة Nigerianization"، كما كانت هناك أيضًا مبررات أخرى للمحافظة على مستويات الكفاية، فى الوقت الذى يمكن أن يؤدى السماح فيه للخبرة العملية بأن تحل محل المؤهلات على الورق، إلى فتح الباب أمام المزيد من الاستثناءات، وبالتالى ينفتح الباب

أمام الفساد والمحسوبية. وأمكن فى النهاية التوصل إلى حل وسط يقضى بالسماح للخدمة فى الحكومة النيجيرية بالاحتفاظ بمعاييرها المماثلة لمعايير المملكة المتحدة (التى كان الجنوب الأفضل تعليمًا يعانى من الهجوم عليها)، وسُمح أيضًا للشمال بتعيين أعضائه فى "الإدارة العليا" وبأعداد كبيرة، وتقرر ترقية أربعة من مساعدى التعليم فى السلطة المحلية إلى مناصب "ضباط التعليم فى الإدارة المحلية"، على أن يبقى هؤلاء الأعضاء ضمن هيئة الإدارة المحلية، وعليه لن تطالهم أوامر الحكومة العامة، ولن تنطبق عليهم الشروط، لكنهم من حيث الرواتب، والوظيفة، والأولوية، يندرجون بل ويتساوون مع هيئة موظفى الحكومة الإقليمية من حيث المسئوليات، بل يمكن أن يحلوا ملحهم.

بذلك جرى ترفيع المعلم أبى بكر إلى الكادر الأساسى الجديد، إضافة إلى مبلغ الستين جنيهًا إنجليزيًا، تلك الزيادة الإضافية إلى معدلات الأجور، أو بالأحرى إلى مبلغ ٥١٠ جنيهات إنجليزية الذى يتقاضاه أبو بكر كل عام، وأصبح أيضًا من حق الرجل الحصول على معدلات بدل السفر الحكومى والبدلات المخصصة للسيارات. لم يكن الرجل معجبًا أو مهتمًا بما يسمى بدل الحصان، لكن الرجل بدأ يفكر فى اقتناء سيارة جديدة. وحرى السعى نحوه كى يحصل على عضوية نادى باوتشى، نادى كبار الموظفين الذى هو عبارة عن بناية من اللَّبِن داخل المنطقة التى تعد مقرًا للحكومة. ورفض الرجل ذلك الانضمام إحساسًا بالحرج أكثر منه تكريم، لأسباب تتعلق بالإنفاق والامتناع التام عن المسكرات، وعليه تجنب الرجل مسألة التورط فى العام التالى، عندما حدث تمرد وخلاف بين أعضاء النادى حول صلاحية الاقتراح المقدم بانضمام، المدعو السيد/ قاسم Kassim، ذلك السورى الذى يمتلك مستودعًا تجاريًا،

أو بالأحرى "مقصفًا" إلى عضوية النادى. كان بوسع النادى الإفادة من اشتراك الرجلين، ومن تجارة الجملة التى يمارسها السيد/ قاسم. الجانب الغريب فى ذلك أن لغة الهاوسا كانت تقر عضوية الأوروبيين فى "نادى كبار الموظفين" إلى وقت قريب، وكانت هذه اللغة تترجم مصطلح "ضابط Officer إدارى Administrative" أو إن شئت

فقل: "موظف إدارى" أو "ضابط التعليم" Education officer بمصطلح هوساوى هو batturen mulki (والترجمة الحرفية لهذا المصطلح هى، رجل أبيض من رجال الحكم) (أو batturen makaranta أى رجل أبيض من رجال المدارس): وبذلك يكون أبو بكر قد أصبح هو الآخر batturen makaranta. لكن قبل ذلك كان هناك بريطانيون من العرب، وواقع الأمر أن كلمة batture الهوساوية معناها الأصلى "عربى" Arab، الأمر الذى يجعل السيد/ قاسم "رجلاً أبيض" عند الهاوسا فى أضعف الأحوال. لكن معادل السيد/ قاسم فى شركة مقاصف النيجر، كان كاتبًا من أهل الجنوب، والكتبة يعدون من "صغار الموظفين" وليس من حقهم الانضمام إلى عضوية النادى، وبذلك تحولت عملية المنع هذه إلى مسألة من مسائل التمييز الطبقى، وليس العرقى، وربما أذعن أبو بكر نظرًا لأن السيد/ قاسم كان عنده مجرد كاتب بقالة أكثر منه صديقًا اجتماعيًا) - فى الوقت الذى تشكك فيه أبو بكر فى عضوية بعض أعضاء نادى باوتشى من أمثال السيد/ أورجل Orgle ومن جاءوا بعده، من منطلق أنهم كانوا مجرد رؤساء عمال فى هيئة تنمية ما بعد الحرب، وبذلك لا يزيدون عن كونهم مجرد كتبة عندما عادوا إلى بلادهم بريطانيا.

وصلت مراتب مراجعة الدستور إلى مستواها الرابع فى شهر سبتمبر من العام ١٩٤٩، فى ظل شوفانية سكان المناطق الريفية المتأصلة فى سائر أنحاء البلاد. اتفق رؤساء الشمال هم وممثلوا عامة الناس على الخط الذى ينبغى السير عليه، وقد جاء ذلك الاتفاق فى مطعم كلية الشرطة فى كادونا، واستقر الجميع على وجود مجلس تشريعى مركزى تكون له سلطات إضافية على المجالس الإقليمية. وبذلك يكون السياسيون الجنوبيون، مدعوين إلى الإقرار بأن القبائل كلها، بما فى ذلك قبائلهم هم أنفسهم، يجب أن تضع مصالحها الضيقة فى المقام الأول، وأن الأحزاب السياسية فى الجنوب سوف تتجاهل ذلك مما يُعَرِّض الجنوب للخطر، لكن زعماء الشمال يرفضون الحديث عن أى أحد سوى المناطق الخاصة بهم. كان الشرقيون يرون أن الأقاليم ينبغى

أن لا تحصل سوى على السلطات المخولة لها من الحكومة المركزية، فى حين كان سكان غرب نيجيريا يودون تحويل السلطات المتبقية كلها للأقاليم التى ينبغى تأسيسها على الانقسامات العرقية - وبذلك يكون ماكفرسن قد أيقن أكثر من ريتشاردز الذى سبقه، أن ما يمكن تسميته "التمركز أو التعصب العرقى"، متأصل فى النفوس على نحو يصعب معه اقتلاعه عن طريق أوامر تصدر عن المجلس التشريعى، وبذلك يكون ماكفرسن قد بدأ يرى شيئًا من المرارة والاتهامات المضادة من أولئك الذين، كانوا يفترضون فى شىء من العناد، وعلى الرغم من الخبرات المكتسبة من الهند وأماكن أخرى، أن تحول الرجل إلى دستورى وحدوى أو كونفدرالى محكم يمكن أن يخلق أو يؤسس أمة مُوحَّدة.

فى شهر أكتوبر، شكل ماكفرسن فى ليجوس لجنة مبدئية برئاسة السيد/ فوت Foot وعضوية كل من إريك Eric همزورث Himsworth، وجيرالد Gerald هاو Howe بالإضافة إلى اثنين أو ثلاثة ممثلين من كل أقليم من الأقاليم لكى تقوم بدراسة توصيات أهرامات المجالس الاستشارية، وتقديم إطار دستورى لمؤتمر قومى. كان هناك اعتراف حقيقى مفاده أن السواد الأعظم من المؤسسات الفيدرالية إنما جاء من قيام بعض الولايات المستقلة بتخويل بعض السلطات إلى المراكز الجديدة، وبذلك تصبح هذه المسألة تجربة جديدة، تحول إلى المركز، الذى يمكن أن يؤدى أو لا يؤدى إلى اتحاد فيدرالى Federation فى وقت من الأوقات أو مرحلة من المراحل. ومن الشمال، كانت المشاورات قد توصلت إلى تعيين ثلاثة ممثلين هم: المعلم أبو بكر تافاوا باليوا، ووالى برنو Borno محمد نجلروما Ngileruma، ثم المستشار السياسى الرئيسى السُكى المعلم أحمد Ahmadu بللو (فى أولى مسئولياته القومية). كانت المستعمرة هى وليجوس أيضًا لهما ممثل واحد لكل منهما. ودارت المناقشات لمدة تزيد عن اثنى عشر يومًا فى شهر أكتوبر، وأسبوع آخر فى شهر نوفمبر، وطالبت الجميع بالتوصل إلى حل وسط: أوصوا جميعًا بمجلس تشريعى جديد تكون له سلطة تنفيذية مركزية قومية، ويتكون من

ثلاثين من الشماليين واثنين وعشرين من الشرق ومن الغرب. ويجب تخويل السلطة الكافية للأقاليم، التى يتعين أن يكون فيها الشمال والغرب مجلس أعلى للرؤساء. ولم ير المندوبون أى خطر فى ترك السلطات المتبقية للمركز، نظراً لأن المجلس التشريعى المركزى سوف يضم بالتأكيد ممثلين يقظين للأقاليم. وجرى الاتفاق أيضاً على حتمية أن تكون هناك إعادة نظر فى مسألة حدود الأقاليم، التى لها أهمية خاصة عند الغرب النيجيرى. ووافقت الأغلبية على الرأى الذى أبداه مؤتمر الغرب ومفاده أن ليجوس La-gos هى والمستعمرة يجب أن تنضما إلى الغرب فى إطار مجلس تشريعى واحد واتفقوا أيضًا على أن رؤساء الإدارات يجب أن لا يكونوا أعضاء فى المجلس التشريعى، لكن يتعين فى البداية أن يكون للشرق والغرب وزراء. واتفقوا على أن يكون للمركز ستة وزراء، ويكونون مختصين بالموضوعات المركزية الخالصة: وأن يكون ثلاثة من هؤلاء الستة مختصين بالموضوعات المتصلة بالأقاليم، أما الثلاثة الآخرون فيكونون وزراء بلا وزارة، أى وزراء دولة.

استنكرت أربعة من تقارير الأقلية الجنوبية البارزة مسألة الإقليمية هذه، وذلك لمصلحة عدد كبير من الولايات العرقية، وعارضت مسألة المجلس الأعلى فى كل مكان، كما استنكرت أيضًا مسألة المجمعات الانتخابية غير المباشرة لمصلحة حق الاقتراع العام، وطالبت هذه التقارير أيضًا بأصوات أو تصويت مباشر للجنوبيين المقيمين فى الشمال، وهاجمت تلك التقارير أيضًا وضع ليجوس، وجزءًا من دستورية المستعمرة، ومن منطلق أن ذلك يعد فصلاً للعاصمة عن الغرب. وكان هناك توصيات متساوية بشأن تخصيص المقاعد: ترى، هل يتسود الشمال، ديمقراطيًا كما ينبغى أن يكون، أم أن الأقاليم ينبغى أن تكون متساوية مع بعضها البعض؟ عند هذه المرحلة، وعلى الرغم من أن ممثلى الأقاليم يتعين عليهم عدم نسيان أصولهم وهم يتحاورون حول الموضوعات "المتبقية" فإن المسألة الأخلاقية تقضى بالأ يتمكن أى أقليم من الأقاليم من السيطرة وأن الأعضاء كلهم يجب أن يروا أنفسهم على أنهم جميعًا ممثلون لنيجيريا.

لم يطالب أحد من الأعضاء أو الممثلين بمجلس خاص بحق الرحمة أو امتيازها، لكن الأقلية اعترضت على الدفاع والشئون الخارجية وبقائها ضمن الموضوعات "الخاصة" بالحاكم. كان سكان الغرب يرغبون فى أن يكون هناك ملك، يسترشد برئيس العدالة ، وكانوا يريدون أيضًا محاميًا عامًا، أو مدعيًا عامًّا، ومجلس رحمة، وكانوا يريدون أيضًا تعيين الهيئات القضائية وفصلها، لكن المواطنين الآخرين كانوا راضين عن الوضع الراهن. طالب الجميع بلجنة عالية لتقسيم الدخل، الذى وجدوا صعوبة كبيرة فى الموازنة بين عدالة حصة الفرد والحاجة إلى عدم الإضرار بالشرق أو الغرب النيجيرى.

عندما أدرك كل من المؤتمر الشعبى الشمالى هو ورابطة رجال الشمال اليوم ، اللذان وصفناهما فى الفصل الأخير من الكتاب، وجود بعضهما البعض، كان من الطبيعى أن يلتحما فى الاجتماع المشترك الذى عقد فى زاريا ليكوِّنا رابطة رجال الشمال، أو إن شئت فقل: حزب المؤتمر الشعبى Northern people's congress (الذى سُمِّى فى البداية باسم حزب مؤتمر شمالى نيجيريا Northern Nigeria Congress). وكان أول نائب لرئيس هذا الحزب هو المعلم ميتاما Maitama سول Sule البالغ من العمر تسعة عشر عامًا. أما المعلم يحيى جوساو Gusau، الذى شغل منصب السكرتير المالى، فقد أصبح سكرتيرًا عامًا للحزب. لم يكن المعلم أبو بكر تافاوا باليوا موجودًا، لكن عبد الرحمن مورا Mora الذى كان صديقًا له منذ أيام كاتسنا ولندن كان منخرطًا فى هذا الحزب هو وإنوا Inuwa وادا Wada، الذى كان رئيسًا للكتبة فى مشروع كهرباء الإدارة المحلية فى كنو. كان من بين عدد المستخدمين الذين يقدر عددهم بحوالى ١٣٥ مستخدمًا، حضروا هذا المؤتمر الأول حوالى ١٧٪ من العاملين فى مجال التعليم، ٥٣٪ من العاملين فى الحكومة، وكان هناك حوالى ٣٠٪ من مختلف إدارات الحكم المحلى. فى هذه المرحلة الدقيقة أصر حزب المؤتمر الشعبى الشمالى على أنه مجرد نادٍ ثقافى، وليست له طموحات سياسية، يمكن أن تتسبب فى إحراج الأعضاء الموظفين فى حكومة الشمال، كما هو الحال فى رئيس الاجتماع الحالى، والمدعو

الدكتور ديكُّو Dikko. كانت رابطة معلمى الشمال بمثابة "الذراع المنظمة" لحزب المؤتمر الشعبى الشمالى. وعلى الرغم من ذلك كله، فإن اهتمامات الحزب كانت كلها سياسية، على الرغم من محاولة الحزب إثبات أنه ليس بحزب فى مواجهته لتحديات أحزاب الجنوب، كان الحزب ملتزمًا منذ البداية بشن الحرب على الأعداء الثلاثة الجهل Jahilei، أو الأمية Illiteracy، أو البطالة Lalaci، والظلم Zalunci، أو البطش.

تجارأ حزب المؤتمر الشعبى الشمالى منذ البداية عندما اعترض وعارض تصرفات الأمراء القديمة ورؤساء الأحياء عندما كانوا يقومون بجولات فى مناطقهم ويفرضون نوعًا من القهر على الفلاحين. كان الدكتور دكُّو Dikko هو والمعلم يحيى جوساو متوحدين عندما نادا بأن الشمال لن ينقذه سوى الشماليين، وليس البريطانيين. كانت مشاعر أهل الشمال تجاه النيجيريين الآخرين قائمة على "الصداقة الحذرة"، لكن يجب عدم السماح للجنوبيين بتنظيم الشماليين على شكل أحزاب سياسية. وأفصح المؤتمر عن عدم وجود نية لديه فى اغتصاب حقوق الحكام الطبيعيين، على الرغم من رغبته، التى أفصح عنها شفاهة عيسى والى ولد عم أمين كانو، والتى مفادها قصر مجلس الرؤساء على أن يكون مجرد مجلس استشارى من الكبار، وجعل الرؤساء يلتزمون قصورهم، كان حزب المؤتمر الشعبى الشمالى يرغب فى تعزيز سلطة الرؤساء إن "هو استطاع إلى ذلك سبيلا"، وأن يساعدهم على القيام بمهامهم وتنوير عامة الشعب. كان هناك اقتراح أيضًا بالاعتراف بالنساء والسماح بانضمامهن إلى الحزب، نظرًا لأن المعلم عيسى والى كانت له زوجة ليبرالية متعلمة تحظى باحترام كبير. أما سعد زنقر الذى كان مراقبًا من قبل المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، فقد جرى انتخابه مستشارًا للشريعة الإسلامية، وأفتى الرجل بأن هذا المقترح جائز، وأضاف أن الشيخ(*) سمح للنساء بالالتحاق بالفصول التى كان يقوم بالتدريس فيها.

(*) المقصود بالشيخ هنا هو الشيخ عثمان بن فودى. (المترجم)

كان هناك أمل فى أن يظهر الحزب والرؤساء فى جلسة مشتركة، لكن كان هناك نزاع حول هذا الأمر وبقى التجمعان بعيدان عن بعضهما البعض.

وجرت إذاعة مباركة السلطان للاجتماع فى مطلع الجلسة الافتتاحية، كما قام أميرا كل من كنو Kano وزاريا بإرسال تهانيهما للمؤتمر عن طريق البرق، لأنهما كان يخشيان الجنوب ويودان الاحتفاظ بولاء فلاحيهما لهما - وعبر السواد الأعظم من أفراد الإدارة عن تشككهم فى صلة كل ما يجرى بالثقافة، وبخاصة افتقار الجميع إلى الطموح السياسى. وأعطى المعلم أبو بكر تافاوا باليوا كل تأييده ومساندته للاجتماع. أما المعلم يحيى جوساو فكانت أفكاره محددة تمامًا: كان يتعين على جمعيات القرى، التى كانت بمثابة الأساس الذى ارتكزت عليه أهرامات ماكفرسن الاستشارية، أن تؤدى بصورة مباشرة من خلال المجمعات الانتخابية إلى جمعيات إقليمية، دونما حاجة بعد ذلك إلى إدخال معينى السلطات المحلية أو مرشحيهم الذين احتشدوا فى المجلس الاستشارى الحالى، كان الرجل يرى أيضًا أن نقابات المال والأعمال وكذلك النقابات التجارية (بما فى ذلك المدرسون) يجب أن تكون ممثلة تمثيلاً خاصًا، وكان يرى أيضًا إشراك حركات الشباب، كما كان يرى أيضًا أن مجلس الرؤساء ينبغى أن يكون دوره "استشاريًّا" "وإرشاديًّا". وهذا يمكن أن يجعل الوثنيين يتدخلون فى سياسة الحكومة، وقال أحد المعلِّقين البريطانيين إن ذلك جاء بثمابة مُذَكِّر كيف أن مجلس الطبقات الثالث(*) فى العام ١٧٨٩ جرى تأسيسه خلال فترة وجيزة مما أدى إلى حدوث الثورة الفرنسية. وفى ظل هذه الأفكار الخارجية، يصبح مستحيلاً على الشمال الالتفات إلى أى رهان على الوضع الراهن.

(*) مجلس لطبقات: مجلس طبقات الأمة الثلاث (طبقة النبلاء وطبقة الأكليروس وطبقة الشعب) فى فرنسا قبل الثورة. (المترجم)

في أواخر العام ١٩٤٩ أصيب شرق نيجيريا بمأساة استعمارية أخرى. فقد تشوهت مسألة الاستفتاء على الدستور تشوهًا كبيرًا بسبب حالات إطلاق النار التى جرت فى منجم فحم أينوجو فى شهر ديسمبر. كانت السكك الحديدية تعتمد على الفحم. كانت حركة الدكتور آزكوى قد شجعت على قيام الإضرابات فى الصناعة، ورفض الضرائب، وتبنت الحركة عقيدة موجزة مألوفة تمامًا لأولئك الذين يتذكرون التمردات التى دامت وقتًا قصيرًا فى فترة ما بعد الحرب بين رجال قوات الحدود الملكية الإفريقية الغربية فى الهند، بسبب أن المبالغ التى جرت الموافقة عليها لصرف التعويضات والبدلات كان يجرى سحبها فعلاً وإخفاؤها فى صناديق مؤمنة وقوية بواسطة المشرفين المحليين. كان العمال المتباطئون بالفعل داخل منجم الفحم الموجود فى وادى إيفا Iva، ولذلك قررت الحكومة إبعاد المتفجرات عن مستودع البضائع الخطرة تحاشيًا لسوء الاستعمال. أدى سوء الفهم إلى اندلاع المظاهرات وأدى سوء التقدير إلى أن فتحت الشرطة النار، الأمر الذى أسفر عن مقتل واحد وعشرين شخصًا فى إينوجو Enugu. وانتشر العنف انتشارًا سريعًا، لكن العنف كان محرمًا أن تقوم به حركة الدكتور آزكوى. وفى البلدان التى فيها صحف إنجليزية أو أجهزة لا سلكيه، ساهمت الأخبار فى دعم المشاعر المعادية للشرق وتقويتها، وفى منطقة الغابات غلب على الناس دغدغة مفادها أن تلك شائعة لا علاقة لها بالأوضاع المحلية. كانت مسألة فتح النار فى إينوجو لها مغزى كبير فى ليجوس ولندن عند أولئك الذين لا يغيب عن بالهم حادث فتح النار الذى جرى فى أمريستار Amristar فى العام ١٩١٩، وحملة العصيان التى قادها غاندى فى الهند. باوتشى، وعلى الرغم من الأسف على الأرواح التى أزهقت، والحيرة التى انتابت المسئولين حول توجيه اللوم إلى ضابط الشرطة أو من هم فى محله، بدت المسألة بعيدة جدًا، لم يسبق للمعلم أبو بكر تافاوا باليوا السفر إلى إينوجو أو زيارتها مطلقًا، والشيء نفسه ينطبق على السواد الأعظم من البريطانيين الباوتشيين، الذى وصل عددهم (بما فى ذلك عدد قليل جدًا من الزوجات) إلى ما يقرب من اثنى عشر شخصًا من الخدمات كلها والإدارات كلها.

جاء القرار المحلى الدائم الذى صدر فى نهاية العام نتيجة لعملية التسليم والتسلم التى قام بها رئيس الحى كوكس استعداداً لانتقاله إلى وظيفة ضابط حى إدارى جديد، وبصحبته ملف من التوصيات إلى الإدارة المحلية، يطلب إليها انتهاج الأسلوب "المتبع فى برنو" بشأن مربعات فصول الدراسة فى المدرسة الابتدائية. كانت إدارة باوتشى المحلية لا تزال تبنى مدارس الفصلين من الطين والقش بمبلغ يصل إلى حوالى ١٠٠ جنيه إنجليزى، وكانت تلك المدارس تتهدم بعد موسمين مطيرين. كان كل مجمعين من هذه المجمعات يكونان مدرسة من أربعة فصول. كان النمط المدرسى البرنى يكلف أربعمائة جنيه إنجليزى، وكانت المدرسة تحتوى على مكتب مركزى متين للمدرسين ومستودع متين أيضًا، وكانت النوافذ مركبًا عليها شيش خشبى، وكانت أرضية المدرسة من الخرسانة المسلحة، وكان فى المدرسة أيضًا عُمُد مبنية تحمل السقف المصنوع من عوارض من الخشب المشقوق بالمنشار، والمؤمن بصفائح من الزنك، كان أهل المنطقة يوقرون الطين المطلوب والحصى المطلوب لملء الفراغ الذى بين الأعمدة، وكانوا يقدمون أيضًا (إذا ما كانوا ميسورى الحال الحديد المجلفن) - هذا النوع من المدارس كان بحاجة إلى صيانة دورية كل عام. لكن هذا النوع من المدارس لم يكن يتهدم. قام ضابط الحى الإدارى هو وضابط التعليم بإقناع الإدارة المحلية، وإقناع أبى بكر تافاوا باليوا، كما أقنعا أيضًا مشرف الأشغال العامة بأن نصيحة كوكس كانت ترمى إلى بعيد. هذا النوع من المدارس عاش واستمر إلى ما بعد الاستقلال، بل إن أبا بكر تافاوا باليوا شخصيًا ترأس حفل افتتاح واحدة من تلك المدارس.

كان أبو بكر يشارك أثناء العطلة المدرسية فى مجلس التحقيق فى الخطأ الذى وقع فى الحكم الصادر بشأن مركز تدريب المدرسين اللهجيين فى تورو Toro، وكان يشاركه فى هذه المهمة شتيما Shettimaكاشيم Kashim من برنو Borno، الذى نصح بطرد طبقة كاملة من المتمردين. وأجبرت محطة باوتشى على الاحتفال بعيد الميلاد بإقامة مباراة للكريكت أجريت على أرض المطار، كان نظام روبرت رايت أبجديًا، وكان

أبو بكر هـو وضـابط الحى الإدارى مسـئولين عن الدفا ع عن الويكت(*) فى الجـانبـين، وكان أبو بكر يرتدى بنطالاً شماليًا فضفاضًا، أما الثانى فكان يرتدى قميصًا وبنطالاً قصيـر أحـمر اللون. ولم يجر أحد منهما مرات كثيرة. وعلى جانب آخر، دارت بين روبرت رايت وأبى بكر مناقشات ساخنة فى منزل روبرت رايت طوال موسم الاحتفالات البريطانية بمناسبة المسائل الدستورية الجديدة.

(*) الويكت: إحدى مجموعتين من العصى يحاول فريق الكريكت إصابتهما بالكرة. (المترجم)

الفصل الثالث عشر

الإصلاح العاجل من خلال التنمية الإقليمية المستقلة

"لن تنزل السماء إلى الأرض، ولن يتحول المنحدر المرتفع إلى منخفض"(*)

برهن المعلم أبو بكر بصورة نهائية فى العام ١٩٥٠ لكل النيجيريين المشاركين فى جلسات الحوار حول الدستور، وللشماليين أيضًا فى مسألة الإدارات (السلطات) المحلية، برهن على أنه لم يكن مجرد شخص من المعروفين، والأذكياء والمفكرين، وإنما كان واحداً من تلك القلة القليلة من الشماليين المتعلمين. والمؤكد أن أحداً من النيجيريين لم يكن ينتظر أن يكون أبو بكر تافاوا باليوا رئيسًا للوزراء فى يوم من الأيام، ولم يكن أى أحد من أهل الجنوب يتصور أن يقوم شمالى "بقيادة البلد كله"، ومع ذلك، وعندما جرت مناقشة مسألة انسحاب الشمال مناقشة حرة، أصبح من السهل فى ذلك الوقت تصور هذا الرجل وهو يناقش مسألة الانسحاب هذه فى هدوء كامل، بل إنه شخصيًا تولى مناقشة هذه المسألة. كان أحد الصحفيين البريطانيين المستقلين، والذى كان يكتب تحت اسم مستعار هو "ماتشت" **Matchet** قد توقع أن يكون أبو بكر رئيسًا للوزراء، لكنه احتفظ برؤيته لنفسه فى ذلك الوقت. وهذا هو أيضًا سيسل **Cecil** هارمثورت **Harmsworth** كنج **King**، مدير مجموعة صحف ميرور **Mirror** البريطانية، والذى كان مسئولاً عن جريدة ديلى **Daily** تايمز **Times** قال ذات يوم "راقبوا هذا الرجل".

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا. وهذا المثل يقابل المثل العام المصرى، إرضاء الجميع أمر مستحيل. (المترجم)

كان العام ١٩٥٠ أيضًا بمثابة العام الذى تحتم فيه على العالم أن يقر ويعترف بأنه لا الهزيمة الحقيقية للفاشية، ولا تنمية دول الرفاه، ولا آمال الأمم المتحدة، قد فتحت أبواب فترة من السعادة والعدالة المطلقة والتحرر من نقائص الوجود البشرى، وفى ذلك العام أيضًا أدركت لندن أن نظرية التدرج البريطانية ليست مقبولة من السياسيين العالميين الذين هم فى عجلة من أمورهم. كانت خطة سكومان Schumann لمجتمع الحديد والصلب الأوروبى قد أعلنت، كما أعلنت أيضًا خطة كولمبو Colombo لإنعاش اقتصاد جنوب آسيا. على المستوى الأدنى من ذلك كانت بريطانيا قد أنهت توزيع البنزين بالبطاقات، لكنها لم تُنْهِ توزيع الغذاء بالبطاقات. وأعلن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية عن امتلاكه هو أيضًا للقنبلة الذرية، وأصدرت أمريكا أوامر بصنع القنبلة الهيدروجينية. واستنكر السيناتور جو Joe مكارثى Mccarthy وجود شيوعيين مزعومين فى وزارة الخارجية الأمريكية. وقامت كوريا الشمالية بغزو كوريا الجنوبية، وجرى تسريح قوات العالم الغربى لتصبح مثل رجل يحتضر يتخوف من ارتداء الزى العسكرى مرة أخرى فى حرب عالمية ثالثة. واعترفت روسيا والصين بوطنى الفيت منه Viet Minnh فى الهند الصينية. وأدت سياسة جنوب إفريقيا العنصرية إلى اندلاع المظاهرات فى جوهانسبرج Johannesburg. وحدثت اضطرابات فى ساحل العاج. وفى ساحل الذهب جرى وضع كل من نيكروما Nkrumah وآخرين فى السجن بسبب التحريض على الإضراب والعصيان ("العمل الإيجابى" مطلوب "للحكم الذاتى حاليًا!") وبالتالى أُعلنت حالة الطوارئ، وبعد ذلك بفترة قصيرة جرى ترفيع ستة من كبار السكرتيريين المساعدين متخطِّين بذلك أدوارهم فى الترقية، وكان الهدف من ذلك هو تسريع مسألة "الأفارقة" Africanization فى سكرتارية أكرا Accra. وأدى ذلك الذى سمِّى فى بتشوانالند Bechuanaland باسم "مسألة سيرتس Seretse خاما Khama" (كان الرئيس قد تزوج إنجليزية) إلى زعزعة ثقة الشعب فى اللمسة السياسية لمكتب علاقات الكمنولوث البريطانى الذى كان لا يزال غرًا. أما إيطاليا، فقد ظل كل من حاربوا فى شرق إفريقيا، يذكرونها على أنها عدو، على الرغم من تغييرها لموقفها فى

الحرب، وقد كوفئت إيطاليا بوصاية مقدارها عشر سنوات على مستعمراتها القديمة أرض الصومال، ورضيت وزارة الخارجية البريطانية بالمضمون الذى مفاده أن العام ١٩٦٠ سوف يشهد استقلال الصومال، الأمر الذى كانت له مضامين أخرى فى الصومال البريطانى، هذا فى الوقت الذى كانت فيه وزارة المستعمرات والمسئولون المحليون لا يزالون لا يثقون بالحلول الوسط فى ظل القوة القاهرة التى تتطلبها الجداول المحددة التى من هذا القبيل. وفيما يتعلق بالإيطاليين، الذين دخلوا المنطقة من جديد، بدعوى التجديد بعد العام ١٩٦٠، فقد سارعوا إلى كسب النوايا الحسنة المحلية عن طريق التوقعات بل إنهم بادروا بالتخطيط لاستقلال الصومال الإيطالى فى تاريخ مبكر. ترتبت على ذلك مضامين يصعب تجنبها أو الفرار منها، لا بالنسبة لبقية أجزاء الصومال، وإنما أيضًا للمناطق الأفضل تعليمًا مثل ساحل الذهب ونيجيريا.

فى ليبريا حدث تغيير طفيف فى النماذج الرمزية المطلقة لكثير من البلدان: فقد جرى استبدال الطربوش، والكمر(*)، والمسماه(**)، التى ظهرت على أنها اللبس العسكرى الاستوائى الموحد، والزى الشرطى الموحَّد فى سائر أنحاء إفريقيا، وفى أجزاء كثيرة من العالم الآسيوى الحار والجزر الحارة أيضًا، وجرى استبدالها من منطلق أنها "منافيه للذوق وللعمليات الحربية النشطة"، بالأزياء الرسمية الأمريكية، التى جرى تصميمها للمناخات الأمريكية المعتدلة. هذا التغيير العجيب جرى تفسيره فيما بعد على أنه حلول عصر جديد ورفض للاستعمار، وجرى بالتدريج تقليد تلك الأزياء من قبل رُسُل التجديد فى الأمم والدول الجديدة، ولم تكن كلها صديقة لأمريكا. وفى الأماكن التى كانت الأعلام فيها تجيء عقب التجارة والأناجيل، نجد أن موضة الخياطة أصبحت هى التى تتزعم الإمبرياليات الثقافية والتقنية، التى كانت شيئًا "أمريكيًا" -Yan

(*) الكمر: حزام الخصر.(المترجم)

(*) المسماه: لفافة الساق. (المترجم)

kee. الأحداث التى من هذا القبيل، كبيرها وصغيرها، بدءًا من كوريا إلى إفريقيا، كانت تراقبها طبقة المتعلمين فى باوتشى، التى كانت الشرطة المحلية فيها ترتدى الزى الكاكى Khaki، بدلاً من البلوزات الفضفاضة والبناطيل الفضفاضة المصنوعة من نسيج القطن المحلى الطرى السميك أبيض اللون. وفشل هؤلاء المتعلمون فى إضعاف انشغال الشماليين بالاتجاهات النيجيرية سريعة التغير، هذا التحفظ كان دفاعيًا فى المقام الأول، ومستقى من الخوف فى المستقبل.

تُوِّجت مراجعة مكفرسن Macpherson الهرمية الشعبية بمؤتمر عام عُقد فى إيبادان فى شهر يناير، وتغيب كل من الدكتور آزكوى Azikiwe والسيد/ أولوو Awo-lowo عن حضور ذلك المؤتمر. وقام خمسة من النيجيريين ("معظمهم من المتبجحين" على حد وصف أبى بكر لهم) وثلاثة من المسئولين البريطانيين (تولى هاو Howe المدعى العام رئاسة المؤتمر) بمناقشة مسودة الدستور الذى أوصت به اللجنة مناقشة مفصلة ومستفيضة. كان أمير جواندو Gwandu، يحيى Yahya، الذى لم يقل الكثير على المائدة، صاحب نفوذ كبير وقوى على الشماليين من وراء الستار، ولما كان الرجل مشهورًا بنزاهته، فقد تأثر عندما كان رئيسًا للحى تأثرًا كبير بصداقته لواحد من المبشرين المسيحيين المحليين، لكن أخلاقيات الرجل وإيمانه بقيا متأصلين فى الدين الإسلامى. كان المُعَلم محمد رباط Ribadu، أمين خزانة أدماوا المحلية، والذى كان بعض رؤساء الشمال يهملونه على أنه غرٌ صغير، قد راح يهاجم ما أسماه أقلِّية غير ذات بال تطالب بالاستقلال. زعم محمد رباط أن الضغوط البريطانية هى التى أبقت على وحدة البلاد، وأن إبعاد البريطانيين سوف يسفر عن الفوضى وإراقة الدماء، وبذلك سوف ينسى الناس فى لحظات قليلة كل الأعمال الكبيرة التى أنجزت فى النصف الثانى من القرن الأخير فى نيجيريا. قال والى Wali برنو Borno إنهم يتظاهرون بتسمية أنفسهم نيجيريين، وعندما يكون هناك أمر تجرى مناقشته، تراهم يسارعون خلال خمس دقائق إلى موفقين مختلفين ـ الشمال والجنوب .... لم تكن تلك الخلافات

قبلية، أو دينية أو لغوية، إذ كان الرجل يرى أن هذه الخلافات "شيئًا آخر، غير ذلك كله".

جاءت مساهمة المعلم أبى بكر مساهمة أكثر إيجابية:

("طوال هذه السنين كلها كانت المقاطعات الشمالية، أو بالأحرى الشمال الحقيقى، وأنا أعنى بذلك الشعب وليس المسئولين البريطانيين الذين كانوا يمثلونا فى المجلس التشريعى القديم، لا تُعْطى فرصة التعبير عن نفسها. ونحن عند هذا المنعطف سوف نفترق أو نتحد").

وبذلك يكون أبو بكر تافاوا باليوا قد أحدث تأثيراً قلبيًا ودافئًا لدى المراقبين الجنوبيين، حتى عندما حسبوه ساذجًا فى محاولاته تهدئة انفعالات المشاركين الآخرين. كان الشماليون يراقبون المستشار السياسى الرئيسى، المُعَلّم أحمد، وهو يتقدم بزعمه الأول الذى أقامه على أساس من تفاخره بسلالته النسبية السُكُتية Soko-to، والذى يخوِّله زعامة الشمال بأكمله، بإصراره على أن الشمال قادر على الوقوف وحده، لكن الغالبية العظمى كانت متفقة فى إيبادان على أن أبا بكر هو الزعيم الحقيقى، وهو الخطيب، وهو المقاتل، بخاصة فى المطالبة الملحة بأن يحد الشمال من نفوذ الجنوب عن طريق شغل نصف مقاعد المجلس التشريعى المستقبلى: كان آخر إحصاء قد أُجرى فى العام ١٩٣١، لكن الحسابات الضرائبية السنوية كانت دليلاً قوياً على أن الشمال كان يفوق البقية كلها مجتمعة.

كان الرجل يحذر من الوثوق بالعبارات الحزبية الأخيرة المتعلقة "بمصالح نيجيريا"، ورداً على إصرار إيف Ife وآخرين على التماس إعادة النظر، فى مسألة ما إذا كانت نيجيريا ستمضى "بلداً واحداً"، كان إصرار الشمال على الاستقلال الإقليمى الذاتى أمراً بالغ الأهمية ـ كان الرجل ينظر إلى الأمر من منطلق أن التجربة الفيدرالية

("التى لم تجر تجربتـها قط فى أى جزء من العـالم") هى مـجرد شىء مـؤقت، إلى أن يحـين الوقت الذى تتـساوى فـيه الأقـاليم: وأن هذا الوضع يمكن عكسـه عندمـا يسـير الشـمـال جنبًا إلى جنب مع الشـرق والغـرب. كـان أحـمـد بللو يرى أن "الناس غـيـر المثقفين" يدورون ويلفون حول مسـألة تخفيض نسب الدخل، نظرًا لافتقارهـم إلى التعليم، أو عدم التركيز عليه (وهو ما يعنى استمرار الكتابية البسيطة وفائض كبير من الكتبة) أو حتى التركيز على التنمية الاقتصـادية، إلى أن يتمكن الشمـال (الذى تصل فيه نسبة القراءة والكتـابة إلى حوالى ٤٪ ويصل عدد المتـخرجين فيه من الجامعـة إلى اثنين فقط) من اللحاق ببقية الأقاليم، كان واضحًا أن الفجوات سوف تزداد اتساعًا على اتساعها.

فى أضـعف الأحـوال كان أبو بكر مصـرًا على أن مشـروع الدسـتور يمكن تعـديله بما يعطى الشـمال مـساواة فى الأصـوات، وتحـديد الدخـول على نحـو يتـفق مـع حـصـة الفرد وليس طبقًا للمنشـأ. وفى ذلك الوقت، كـانت مسـألة أن تصـبح ليـجوس جـزءًا من الغـرب أمـرًا بسـيطًا وثـانويًا، وهـو أمـر لا يجـمـع عليـه اليـوروبـاويون. كان ذلك يعنى أن النتائج غير المنظورة التى مفادهـا أن الدكتـور أزكوى كان قد اقترح أن تكون هناك ستة عشر حكومـة إقليمـية ومـركز قـوى، تحـتم إبعـاد الرجل (أزكوى) عن المجلس التشريعى المركزى المستقبلى، الأكثر من ذلك، أن أزكوى فشل فى تأكيد دخوله إلى قائمـة ليجوس الانتخـابية، يزاد على ذلك أن الرجل عـجز عن تمثيل مـجلس مدينة ليجوس. ولم يكن من الصـعب الوصـول إلى حل وسط بشـأن أن يكون مغترب مـستقل رئيسًا للمجلس المركزى أو متـحدثًا باسمـه، وذلك على الرغم من مـحاولة أبى بكر تيفـاوا باليوا الشديدة التى تهدف إلى بقـاء الحـاكم فى منصـبه. كـانت المشكلـة المهمـة بحق، التى أفـضى عدم تفـهمـهـا إلى دستور العـام "١٩٥١" الذى لم يدم سوى فترة قصـيرة، تتمثل فى مسـألة تعيين الوزراء. لم يكن الشـمـاليـون يرغـبـون أو يودون تعـيـين وزراء على الإطلاق، سـواء على المسـتـوى المركزى أو المستوى المحلى، وسـار أبو بكر تافاوا باليوا على الخط الجبان نفسـه الذى سار عليه رفاقه، حفاظًا منه على وحدة شعب الشمـال. وفى النهاية، وبعد أن أيَّد أباوات

Obas (رؤساء) الغرب أمراء الشمال اتفقوا على المخاطرة بأن يتولى انعدام الخبرة الإمساك بدفة زمام الأمور: ومع ذلك، بقيت السلطات الوزارية الغرَّة مقصورة بفعل المخططين على تعلم أصول مناقشة السياسات فى المجلس، وعلى تعامل هؤلاء الوزراء مع اختصاصاتهم فى المجالس المختلفة، وكانت تلك المهام تتمثل أيضًا فى تأكد هؤلاء الوزراء من تنفيذ القرارات والسياسات الخاصة بتلك الموضوعات بالتعاون مع الرؤساء التنفيذيين فى الإدارات المعنية. هذا يعنى أن مديرى إدارات الخدمة المدنية، لا يزالون يملكون حق الإدارة، وهذا يعنى أيضًا استمرار سيطرتهم على موظفيهم الفنيين فى أنشطتهم المتخصصة فى سائر أنحاء البلاد، وأنهم لا يمكن التحكم فيهم إلا من قبل الحاكم أو مساعد الحاكم. وقد تنبأ ماتشت Matchet بحدوث اضطرابات ومتاعب. دار بينه وبين هوغ Hugh فوت Foot حوار طويل حول هذا الموضوع.

كانت هناك مشكلة أخرى: كيف يمكن تقديم الفهم الأساسى للديمقراطية البرلمانية لملايين، لا يعرف منهم مسألة الانتخابات والإدلاء بالأصوات سوى بضعة آلاف،وقلة قليلة منهم كانت معتادة على تنفيذ القرارات التى تتخذ بإجماع الأغلبية البسيطة. كان الحل الذى جرت الموافقة عليه بالإجماع فى مؤتمر إيبادان Ibadan العام، يقضى باستعمال ما يسمى طبقات المجمعات الانتخابية، على أن يبدأ ذلك (فى ظل مستويات القراءة والكتابة والتقدم) على مستوى القرية أو الحى من بلدة من البلدان. على هذا المستوى يستطيع السكان غير المتعلمين اختيار ممثليهم، الذين يمكن أن يشكلوا مع المستويات التالية، تجمعات يمكن أن يختاروا من بينها أولئك الذين يمكنهم التحدث، فى نهاية المطاف، عن القسم أو المقاطعة.

العقبة التالية التى أمكن توقعها أو التنبؤ بها، فى ظل عدم وجود أفرع للحزب السياسى، وفى ضوء انعدام الوثائق بالغرباء (وبخاصة الغرباء المتعلمين)، كانت تتمثل فى منع المجمعات الانتخابية الأولية من اختيار أى أحد سوى الشخصيات المحلية الجديرة بالاهتمام وذات القيمة، والذين لا يعرفون شيئًا عن حكومات العالم أو الثقافات

التى تقع بالقرب من أسواق بلادهم. كان الحل الجماعى الذى جرت الموافقة عليه بالإجماع فى ذلك الوقت، يتمثل فى "حقن" نسبة عشر بالمئة فى المجمع الانتخابى النهائى، من معينى السلطة المدنية (المحلية) فى الأماكن التى سيكون الاقتراع فيها سريًا، هؤلاء المعينون من السلطة المدنية، سيكونون مستشارين بارزين أو مسئولين فى السلطة المحلية نفسها . ونقطة الضعف فى هذه العملية تتمثل فى الشخصيات الكبيرة التى جرى رفضها على مستوى المجمع الانتخابى الأولى، يمكن إدخالها من جديد ضمن المجمع الانتخابى النهائى، ويتحتم انتخابها فى نهاية المطاف: لقد حدث هذا الأمر بالفعل عندما فشل أحد رؤساء الأحياء فى الوساطة عن طريق النصح والإرشاد، عندما قام أحد الأمراء "بحقن" ولده القاصر ليرى أنه جرى انتخابه فيما بعد - وقد حدث ذلك بالفعل.

ذهبت التوصيات إلى لندن، ومعها موافقة كاملة مفادها أن الحاكم (الذى كانت تغريه دومًا الثقة التى يوليه (المؤتمر إياها) ينبغى أن يلجأ إلى التحكيم فى مسألة الحدود المتنازع عليها بين إيلورين Ilorin والغرب. وخلع المفوض العام قبعته تحية للشماليين إذ قال: " لقد تحملوا الزجر والتأنيب والرعاية من قبل عدد كبير من طلاب المدارس على شكل معاناة طويلة بحق وحقيقة" . ويعود المعلم أبو بكر تيفاوا باليوا إلى موطنه ليجعل الناس منه أسدًا فى تلك الأيام، لكن الرجل أسر لأصدقائه المسئولين بضيقه الشديد، وأنه "كلما عجَّل بالخلاص من ذلك العمل شديد القذارة كان ذلك أفضل. أنا أكره السياسة – السياسة النيجيرية - وأن أشعر بالأسف لاندفاع بلادى بهذه السرعة نحو مصيرها المحتوم". لم ير أبو بكر تيفاوا باليوا أى دليل من دلائل الصداقة بين الشرق والغرب "إذ كانوا يمسكون بخناق بعضهم البعض فى صالة المؤتمر، على الرغم من مساعدة بعضهم البعض الواضحة فى مواجهة توصياته "الشمالية المشروعة". كان أبو بكر مهمومًا أيضًا بصحبته الشخصية، كما كان يشكو أيضًا من ضعف بدنى.

لم يمنع ذلك أبا بكر من لعب دور كامل فى الاستعدادات التى اتخذها زعماء الشمال فى كادونا لتجهيز وفد يقوم بالسفر إلى لندن، فى حال إذا لم يوافق وزير الخارجية على آرائهم الخاصة بمؤتمر إيبادان. كان أبو بكر قد نصح زملاءه نصحاً شديداً بأن يتحلوا بالصبر، وأن يشرحوا قضيتهم شرحاً جيداً ومنطقياً، حتى إذا ما بلغ السيل الزبى (إذا كان لديه إحساس قوى بذلك)، ووقع ذلك الذى يسميه "حكومة العمال التى لم تكن تعرف التسامح فى تلك الأيام" أى لم تدرك هذه الحكومة أنهم (ممثلى الشمال) قد بذلوا قصارى جهدهم من أجل الوصول إلى اتفاق، فإن الضرورة هى التى ستكون قد اضطرت الشمال إلى طلب الانفصال. كان ذلك هو الهدف النهائى للجنة جمع الأموال والتى كونها السلطان فى ذلك الوقت: أما الأعضاء الآخرون فكانوا شيخ برنو الذى كان نائباً للرئيس، وأمير كاتسنا الذى كان أميناً للصندوق، وشيروما كنو مساعداً لأمين الصندوق، أما مستشار سكتو السياسى الرئيسى فكان سكرتيراً عاماً، أما بقية أعضاء اللجنة العاديين فكانوا: أمير زاريا، وأمير أبوجا، يضاف إليهما السيد/ روانج Rwang بام (رئيس قبيلة باى Bi روم Rom فى الهضبة)، ووالى Wali برنو، والمُعَلِّم محمد رباط Ribadu، والمعلم أبو بكر تافاوا باليوا. هؤلاء الرجال كانوا محتقرين من كثير من الجنوبيين باعتبارهم "ليسو ممثلين للشمال" تزعم المراجع الحديثة زعماً باطلاً أن عدد سكانه المسلمين يشكلون حوالى ٦٦٪، والوثنيين حوالى ٣٣٪ والمسيحيين حوالى ١٪، لكن من الصعب اقتراح اثنى عشر عضواً آخرين من الشماليين الذين كان يمكن الاعتراف بهم بالمزيد من الترحيب، أو من منطلق أنهم كانوا زعماء للشعب كله فى العام ١٩٥٠ لم يكن الشمال، على العكس من عناصر الحضر الجنوبية، أسير الاقتناع الذى مفاده أن الديمقراطية يمكن أن تعبر عن إرادة الشعب من خلال المنظومات السياسية الحزبية المسئولة أمام صناديق الاقتراع السرى أو الاجتماعات الجماهيرية. كانت الخطوات القانونية قد اتخذت لجمع الأموال من الجماهير لتمويل الوفد المزمع سفره إلى لندن، وكان سلطان سكتو قد أبلغ المفوض الرئيسى كتابةً أن اللجنة هى والشمال عزما على الوقوف وقفه حازمة وشجاعة. وكانوا

قد قرروا منذ البداية، أنه إذا لم تكن هناك حاجة إلى الأموال التى جرى جمعها، نظراً للموافقة على مطالبهم، فإن هذه المبالغ سيجرى استخدامها فى إرسال الشباب فى بعثات تعليمية لاستكمال تعليمهم فى الخارج. وهنا قام مستشار سكتو السياسى الرئيسى هو والمعلم محمد رباط بمقابلة بطرس Peter ستالارد Stallard، الذى خلف هارى Harry سيفورد Seaford فى شهر أبريل من العام ١٩٥٠ فى مؤسسة جاسكيا الصحفية. اقترح بطرس ستالارد عليهما إطلاق اسم Kudin Taimakan Arewa على هذا الصندوق، واتخذت الترتيبات اللازمة لطباعة إيصالات الاستلام، جرى جمع مبلغ كبير يصل إلى حوالى ١١٠٠٠ جنيه إنجليزى، بالطرق التقليدية، وأيضًا عن طريق المساعدات الطوعية من الخزانات، وعن طريق الأعمال الورقية.

كان معلوماً للسلطان، وكل من أمير باوتشى وأمير كاتسنا Katsina، إضافة إلى واحد أو اثنين آخرين من أصدقاء السلطان أن المعلم أبا بكر تافاوا باليوا سبق وأن ناقش هذه الاحتمالات مرات مع صديقه الحميم المغترب، روبرت Robert رايت Wright مسئول التعليم المحلى، وأنه اقترح على أبى بكر التحركات المناسبة والعاقلة التى يجب أن يسيروا عليها فى تقديم مطالبهم. كان ذلك معلوماً أيضًا لكل من فيلبس نائب مدير التعليم فى كادونا، وثمبستون Thompstone. ولما كانت مسألة انفصال الشمال تبدو جذابة دوماً لكثير من المسئولين البريطانيين الميدانيين الرومانسيين أو بالأحرى غير الواقعيين فى الشمال (وربما كانت كذلك إلى أصحاب الطموح من بين العاملين فى سكرتارية كادونا)، فإن معرفة هذه الاستشارة الشخصية والخاصة لواحد من الإنجليز ربما تكون قد زادت من قوة الآراء الراسخة فى بعض الأماكن الأخرى، وفى المستقبل أيضاً، والتى ترى أن بريطانيا كانت تشجع الانفصال بين أبنائها المتباعدين حتى يمكن لها تطبيق سياسية التفريق حتى تستمر هى فى الحكم. لكن الشعب الذى حملت أمثاله ثقافته كان لا يزال يقول بلغته القومية (أى بلغة الهوسا): So Mai Sonka - Wanda ya sonka, Rabu da shi والذى معناه: "أحب من يُحبُك - وأبتعد عمَّن لا يُحبك!".

واقع الأمر أن جماهير الشماليين اليومية (وبخاصة العوديِّين فى الغابات)، كانت منذ جيل مضى، لا تزال تنظر إلى المهاجرين الجنوبيين إلى الشمال، من منظور أنهم جاءوا بمثابة تابعين لمعسكرات البريطانيين خلال الفترة الزمنية القصيرة التى تقل عن خمسين عامًا منذ عهد لوجارد Lugard، وكانوا يرون أن انفصال الشمال أمر ممكن إذا ما رغب البريطانيون أنفسهم فى ذلك، إذ كان الجنوبيون يقولون: dree its ain weird (أى يذهب لحال سبيله). هذا يعنى أنهم لم يكونوا بحاجة إلى تشجيع أجنبى، وكان أبو بكر فى ذلك الوقت، لا يعرف هو الآخر، ذلك الذى يمكن استشارته أو الاستئناس برأيه. كان ذلك يتمثل فى البريطانيين الأقل عاطفة، سواء أكانوا فى الحكومة البريطانية Whitehall أو من بين أولئك الموزعين على مجالات الخدمات النيجيرية، الذين كانوا يرون أن التحرر من المصالح الخارجية والتدخل الخارجى قد ولَّيا إلى الأبد. كان أحد الهنود قد قال فى مؤتمر المائدة المستديرة فى العام ١٩٣١: "نحن نُفَرِّق - وأنتم تحكمون"، ومع ذلك لم تكن اللجنة التى شكلها السلطان رابطة إسلامية جديدة تعزز رابطة محمد على جناح Jinnah فى باكستان - إذ كان الشمال الوثنى تتملكه المخاوف نفسها التى تمتلك الأغلبية المسلمة، وذلك على الرغم من الأصوات المبعثرة غير المسلمة التى انضمت إلى كل من أمين كانو وسعد زنقر فى هجومها على الإمبريالية، بدلاً من القبلية، من منطلق أن الإمبريالية هى العدو الرئيسى للسلام والعدل. هذا التناقض الظاهرى، من منظور الكثيرين، يتمثل فى أن المحافظين فى العام ١٩٥٠ كانوا يودون المحافظة على كونهم أفارقة، يستفيدون من المساعدة الفنية البريطانية، لكن الراديكاليين كانوا يودون التأورب Europeanised فيما يتصل بالفلسفة السياسية والثقافية، وألا يكونوا مسئولين أمام أى أحد سوى أنفسهم عن النتائج التى تترتب على طموحهم. استغرق خلاص أبى بكر من نوبة الاكتئاب التى نزلت به فى إيبادان وقتًا طويلاً؛ ذلك أن التوصيات يمكن أن تكون أمرًا مقبولاً، أما الانقسامات وعدم الثقة والانفصال فكلها أمور مدمرة.

ناقشت جمعية الشمال العمومية التقرير الذى أعدته لجنة الاختيار المشتركة عن المؤتمر العام الذى عقد فى قاعة لوجارد التذكارية بعد اكتمالها، وأيد المُعلِّم أبو بكر الاقتراح المقدم بالموافقة على ذلك التقرير. وبدأ بعد ذلك الأعضاء المركزيون يتساءلون عن مواعيد استقرارهم فى مواطنهم، ثم حزموا أشياءهم وفرشهم، وسافروا بالقطار إلى إينوجو Enugu للانضمام إلى المجلس التشريعى طلبًا للهدف نفسه (وأيضًا لحضور اجتماع الموازنة) فى شهر مارس. تميزت العناصر السياسية فى المناقشات الأخرى بحادثين مهمين: التقرير الذى أعدته لجنة التحقيق الخاصة بحادث إطلاق النار فى منجم فحم إينوجو Enugh، وقيام أحد أعضاء حركة الدكتور آزكوى بهجوم فاشل (غير فعال) على السيد/ هوغ Hugh فوت Foot كبير السكرتيرين فى ليجوس. كان من رأى اللجنة، هى واثنين من القضاة الأفارقة وعضو برلمانى من حزب العمال البريطانى ترى أن هذه الاضطرابات إنما هى اضطرابات صناعية وليست سياسية، وذلك على الرغم من وجود عنصر الأمن الداخلى فيها. كانت الحصة الإنتاجية للنحاس قد انخفضت انخفاضًا كبيرًا فى السنوات الأخيرة، بسبب الإحباط الذى ترتب على النقص فى المعدات الدارجة(*) اللازمة لنقل الفحم. كان من رأى أعضاء اللجنة أن الحل أو الرد يكمن فى اتحادات عمالية، أو نقابات عمالية جيدة التنظيم، وجاء تقرير اللجنة يدين كلاً من سكرتير اتحاد العمال لخيانته لعضويته، وضابط الشرطة الذى أمر بإطلاق النار بسبب خطأ غير مقصود فى التقدير أو الحكم على الأمور. تخوف المعلم أبو بكر، وتوقع حدوث هياج عام بعد إعلان ما توصلت إليه اللجنة، لكن الرجل فى مراسلاته الخاصة يبدى اهتمامًا كبيرًا بمحاولة إزهاق روح روبرت فوت Foot. وسمح الدكتور آزكوى لنفسه بالدخول فى جدل كبير وعام حول المذكرات التى كتبها جفرسون

(*) المقصود بالمعدات الدارجة هو قطارات السكة الحديد وعرباتها المستخدمة فى النقل. (المترجم)

Jefferson يوم أن كان طالبًا فى أمريكا، وأشار آزكوى فى ذلك الجدل إشارة غير حكيمة إلى أن شجرة الحرية لابد أن تروى بدماء الطغاة.

لم يتكلم أبو بكر بهذه الطريقة أو بهذا المعنى، على الرغم من أسف كثير من الأعضاء على محاولة القتل هذه، لكن الرجل أبلغ أصدقاءه فى أسف شديد **"أن الدكتور آزكوى بدأ كما لو كان يوحى بأن الاغتيال يبدو أمرًا لابد منه فى هذه المرحلة من التطور السياسى وقال أيضًا إن الأمور كلها تبدو مساندة ومؤيدة لهذا العمل الشرير"**. وسارع فوت نفسه إلى طلب المعنى الحقيقى من وراء ما قاله آزكوى. وانشرح صدر أبى بكر لهذا الدليل، لأن المسئول الحكومى أدرك "أن الحكومة يجب أن لا تتوانى أو تهمل"، وقد تجلى ذلك فى الطعنة التى وجّهها فوت Foot، والتى مفادها إذا كان الرجل المحترم يشير إلى النيجيريين بوصفهم عبيداً، فإنه يقول مؤكداً: إن آزكوى هو أكثر هؤلاء العبيد حرية، نظراً لأنه يتحكم فى صحف أعطيت مطلق الحرية. وأردف المعلم أبو بكر بعد ذلك قائلاً: "كان ذلك غاية فى الأهمية" **"وتعين على آزكوى أن يتراجع تراجعًا مخزيًا عن تلك النقاط وينكرها"**. وفى الشهر التالى جرى تحريم حركة آزكوى تحريمًا قانونيًا ورسميًا.

استطاع أبو بكر تحاشى التكرار واللت والعجن اللذان ميزا المناقشات كلها التى دارت حول الدستور، وسار الرجل فى طريقه الخاص الذى مفاده أن إصلاح الحكم المحلى لابد أن يسبق أى شكل من أشكال الإصلاح الوطنى. وأعرب الرجل عن سروره لإتاحة الفرصة للمقاطعات الشرقية، لكنه أصر على أنه على الرغم من أن الناس هناك سيحكون له ويخبرونه عما يرونه طيبًا أو سيئًا لهم، فإن الحكومة كانت لا تزال مسئولة عن تقديم النصح والإرشاد، بل والمبادأة أيضًا. وإذا كانت نيجيريا مضطرة إلى تعديل أحدث دساتيرها، والذى يقال عنه إنه كان على ما يرام، فإن من حق الغرب والشمال مراجعة منظومات الإدارة المحلية فيهما، وبخاصة أن تلك المنظومات عفى عليها الزمن، ولم تكن على ما يرام. على الجانب الآخر، وفى الاجتماع الخاص لأعضاء الشمال،

والذى عقد بناء على طلب خاص مع الحاكم، الذى كان يخشى من أن يؤدى عناد الأعضاء إلى تحطيم المبادأة التى أقبل عليها، كان المعلم أبو بكر قد أخبر السير جون John ماكفرسن Macpherson بما يدور فى ذهنه:

"قلت لسيادته إنه يبدو لى أن الفكرة تتمحور فى بيع الشمال للجنوب، وأن البريطانيين سوف يهجروننا. وقال له الأمراء إننا إذا تراجعنا عن التوصيات الشمالية، فإن معاليه يتحتم عليه أن يوجد السفينة التى تنقلنا إلى بلد آخر، نظراً لأن شعب الشمال لن يستقبلنا (عندما نعود).

استطاع السير جون ماكفرسن، ربما أكثر من روبرت فوت Foot، الوقوف على العناد والحقد الذى ينطوى عليه ذك الأدب، وقام ماكفرسن بإبلاغ مجلس الوزراء بذلك الذى يقوله الآن ذلك الرجل الذى كان يتدرب على مهنة التدريس فى بكهام قبل أربع سنوات. كان المعلم أبو بكر تافاوا باليوا قد أوضح أيضًا للصحفيين البريطانيين أن الانفصال لن يدعم السلطات المحلية وحدها ـ بل إنه على العكس من ذلك سوف يحرر العلماء Malamai وعامة الشعب Talakawa من التركيز على مقاومة هيمنة الجنوب، ويسمح لهم بالتحول إلى الترويج للحكام Saarakuna الذين سيجلسون فى مجالس فاعلة. وقال للجنوبيين الذين تحدوه أن يثبت أنه نيجيرى (أى بالانضمام إليهم):

"نحن نحاول بناء منزل متين فوق أساس من القش. أنا أحب هذا البلد، لكنى أتساءل دومًا هل نحن نود لنيجيريا أن تكون مكانًا سعيدًا لكل الناس، وأن تكون جحيمًا للجماهير وفردوسا لقلة قليلة من الناس؟ الشمال يود تمامًا السير مع باقى نيجيريا، لكن بسرعة معقولة وليس بسرعة لا يقوى عليها الشمال".

كان باباتوند Babatunde جوس Jose مراسل ليجوس الذى خاصم أبا بكر فى العام السابق، قد أدرك ووعى أن أبا بكر سيكون هو الذى سيقود الشمال فى المستقبل،

وعندما أصبح هناك صوت واحد لكل رجل واحد، فذلك يعنى أن الرجل هو الذى سيقود الحكومة.

فيما يتعلق ببنود الميزانية، قام أبو بكر تيفاوا باليوا بالهجوم مرة أخرى على الحسابات التى سمحت بإعطاء الأغلبية التى فى الشمال مخصصات أقل من المخصصات المحدَّدة للأقلية التى فى الشرق وذلك بعد خصم المتحصلات من مقاطعات كل من الشرق والشمال: لقد أثارت هذه العملية شكوك الرجل، على حد قوله، فى النوايا الحقيقية للإدارة فيما يتعلق بالإدارات المركزية بعد تقسيم البلاد إلى أقاليم، وقدم الرجل مقترحًا مفاده أن الأشياء المتمركزة فى ليجوس يتحتم ألا تكون أصغر أو أرخص (كانت سكرتارية ليجوس يجرى توسيعها فى الوقت الذى كانت تبنى فيه سكرتارية جديدة فى كادونا). جرت العادة **"أن نرى فى البلدات الكبيرة كل الناس الصاخبين والمستائين، لكن يتعين علينا أن لا ننسى أن لدينا فى القرى أناسًا يفيدون البلاد فائدة حقيقية"**. هناك أيضًا كثيرون من سياسيى القرن العشرين يتصايحون ينوحون مثلما كانوا يفعلون من قبل تخوفًا مما يرونه على أنه ظلم مقنن فيما يتصل بما يسمى مصروف الجيب أو المحفظة، وأعرب أبو بكر للمجلس عن خيبة أمله فى أن مهندسى المقاولين الذين يعملون فى ظروف قاسية فى إقامة جسر فوجُّو Foggo الذى يؤدى إلى بيرنن Birnin كودو Kudu، يتقاضون أجرًا أكبر من أجر المهندس المدنى المتمركز فى باوتشى للإشراف على هؤلاء المهندسين: يزاد على ذلك أن أبا بكر تافاوا باليوا لم يكن مرتاحًا لتأكيد الخدمة المدنية الذى مفاده أن المهندس المدنى يتمتع تمامًا بشروط معاشية آمنة وأمور مريحة (ومطامح الترقى) التى تعوضه عن ذلك. فى نهاية الجلسة التى دامت شهرًا فى إينوجو طالب أبو بكر المؤتمرين بضرورة تشجيع السلطات المحلية (المدنية) على إدارة مستشفياتها بطريقة المنح المالية، بدلاً من أن تتولى الحكومة أمر هذه المستشفيات ومشاركتها فى البعثات المسيحية فى مسألة الخدمات الصحية العامة. وأعرب الرجل أيضًا عن سروره وامتنانه لمؤسسة جاسكيا،

التى كان ستالارد Stallard لا يزال أميناً لها، لأن الخطط الموضوعة لزيادة النشر كان يجرى تحقيقها والالتزام بها.

عاد أبو بكر إلى أسرته ومزرعته فى موطنه لقضاء فترة الصيف، وانشرح صدر الرجل عندما علم أن روبرت رايت قام بجولة على مدارس الإدارة المحلية فى نينجى Ningi وجنوب باوتشى، وبذلك يكون روبرت رايت قد قام بعمل أبى بكر أثناء غيابه. كانت إدارة جومب Gombe المحلية لا تزال تدفع جزءاً من راتب أبى بكر، لكنها كانت مستاءة لأن ضابط التعليم المحلى كان يزور مركز رئاستها بهذه الصفة. وأحس أبو بكر بالقلق إزاء للتقدم البطىء الذى تحرزه إدارة باوتشى المحلية فى ترميم مبانى المدارس المتوسطة القديمة، وإنشاء المدارس الجديدة، كما أحسَّ الرجل بالقلق أيضاً إزاء النقص فى عدد المدرسين الحاصلين على الشهادة الابتدائية العليا. كما كان أبو بكر يشعر بالقلق أيضاً لاحتياجه شخصياً إلى سيارة جديدة، وكانت تراوده أفكار حول شراء سيارة ستاندارد Standard فانجار Vanguard مثل سيارة روبرت Robert رايت Wright: كان الكثيرون من أصدقاء أبى بكر يبيعون سياراتهم لأنها لم تكن متينة فى الطرق الوعرة. وفى نهاية المطاف، تفاوض أبو بكر بشأن الحصول على دفعة مقدمة من الخزانة المحلية لشراء سيارة فورد سوداء اللون طراز Pilot VS، التى كانت أكثر متانة لكنها كانت أغلى ثمناً. كان المهندس المدنى قد شجع أمير باوتشى على اقتناء سيارة مثل سيارة أبى بكر، لكنه كان يضع عينيه على شراء سيارة شيفروليت Chevrolet أمريكية الصنع للممثل المقيم، سيدرك Cedric ("ثعلبى") كول Cole، يزاد على ذلك أن ضابط إدارة الحى لم يكن يود ذلك الذى يعد فى تقديره هو "سيارة صغيرة" Kara min mato هذا يعنى أن ضابط الحى الإدارى لن يشعر بالرضا إذا ما حصل ضابط (مسئول) التعليم المحلى على سيارة من الطراز نفسه. الأهم من ذلك كله أن أبا بكر تزوج مرة ثانية فى ذلك العام، من ميمونة Maimuna (التى ذاع صيتها باسم "لارابا" Larba) لتصبح بذلك زوجته الثالثة بعد إنى Inni وجوماى Jummai.

كان أمير باوتشى قد عين قائد شرف بحصوله على أرقى وسام فى الإمبراطوية البريطانية (القسم المدنى) ضمن قائمة أوسمة صاحب الجلالة فى عيد ميلاده، وجرى تفسير الأحرف CBE الدالة على هذا الوسام، بعد ذلك بواسطة المغتربين الأذكياء فى نادى باوتشى على أنها Corn Buying Expert (خبير شراء القمح)، وذلك اعترافًا بسيطرة الرئيس Chief (الأمير) على حلقة شراء القمح الرسمية الخاصة بمؤسسات الإدارة المحلية. كان المُعلم أبو بكر أكثر كرمًا: **"فقد جرى منح رؤساء الدرجة الأولى (شارات)، وعليه كان لابد من فتح هذه الشارات فى باوتشى أيضًا، حتى وإن كان الرئيس قد دخل السجن مرتين عندما كان شابًا، لأن ذلك يعنى تمضية العقوبة"**. ولم يشعر أبو بكر بالحزن أيضًا، على الرغم من فوز حزب العمال فى الانتخابات بأغلبية قليلة، ترتب على ذلك أن خسر كل من كريش Creech جونز ونائبه البرلمانى ريس Rees وليامز Williams مقعديهما فى الانتخابات البريطانية العامة التى جرت فى شهر فبراير (خسر كريش جونز مقعده بسبب الشقاق الشيوعى الذى حدث فى تصويت اليسار). كان الرجل يتطلع إلى تقييم أفضل لمصاعب الشمال من قبل جيمس James جريفثث Griffiths الذى تولى المنصب بعده لم يكن الرجل قد أدرك بعد أن المكون الأكبر فى المستعمرة الأكبر قد لا يكون فى استمرار انشغال السياسيين البريطانيين فى مكاتب الحكومة البريطانية أو على انشغالهم فى البرلمان الإنجليزى. واقع الأمر أن جيمس جريفثث كان يشارك أبا بكر بعض الأفكار التى كانت تدور فى ذهنه، كان الرجل يود أن لا تعترض التغييرات الدستورية طريق مشروعات التنمية والرفاه، وكان يرى أيضًا أن المقاولين السياسيين يجب أن يقروا أن المساومة على السلطة السياسية والتغيير هما الطريق المؤدية إلى إحباط الاستثمار من ناحية "وتسليم البلاد إلى الكرملين" من الناحية الأخرى. لكن جيمس جريفثث Griffiths كان مُحبْطًا هو الآخر، وبعد أن خدعه غرماؤه، سمح "وزير الدموع" للعاطفة والوجدان أن يقفا فى طريق الزعامة أو القيادة القوية.

يجب أن لا نظن أن القبلية كان يجرى دعمها دوماً بلا مبالاة من أولئك الذين كانوا يطيقونها عن ضعف باعتبارها حقيقة محزنة من حقائق الحياة. وأصبح هناك مَعْلم دائم من معالم وقت فراغ المتعلمين الأفارقة فى باوتشى فى ذلك الوقت، يتمثل فى حفيد "دائرة النقاش" القديمة التى جرى إحياؤها، والتى أطلق عليها فى نهاية المطاف اسم "خزانة العقول" تيمناً باسم البرنامج الذى يحمل هذا الاسم ضمن برامج اتحاد الإذاعة البريطانية: خزانة العقول هذه كانت عبارة عن توليفة من المسئولين الحكوميين نظَّمها روبرت رايت ليواجه بها الأسئلة التى كان يطرحها جمهور المدعوين بما فيهم المعلمين التابعين للإدارة المحلية، والجنوبيين الذى يشغلون وظائف حكومية، وكل المتهمين الآخرين. خزانة العقول هذه هى التى جمعت من خلال التنافس الودى الفكرى، بين كل من المدرسين والكتبة الهوساويين، ومدير مكتب البريد اليوروباوى Yoruba، والطبيب البيطرى الفولانى، أو المساعدين الزراعيين، وأمين الخزانة المحلية الإجباوى Igbo، والكاتب المسيحى الشمالى، وأكثر من ذلك بكثير. هذا الخليط المدهش من المعرفة ومن التخلف المترسب الذى تكشف عنه قوائم الأسئلة يعد أمراً بالغ الأهمية، ويكاد يكون مثل ورقة من أوراق عباد الشمس فى تطوير عملية التعليم، ومع ذلك تظل الأسئلة الأربعة التى طرحها أبو بكر تافاوا باليوا فى ذلك الوقت ذات أهمية خاصة فيما يتعلق بأولويات الرجل فى العام ١٩٥٠ والتى كانت على النحو التالى.

(١) ما هو المفهوم الحديث للحياة بعد الموت؟

(٢) ما هو السبيل لإنقاذ شمال نيجيريا من المصاعب السياسية النيجيرية الحالية؟

(٣) لماذا تكره الديمقراطية الشيوعية؟

(٤) ما هى الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية، والهندوكية، واليهودية، والزرادشتيه والكنفشيوسيه؟

كان ذهن الحكومة المنوَّعة مشدوداً إلى الإجابة عن بعض هذه الأسئلة.

وقع أهم حادث في ذلك الموسم، في مزرعة أبي بكر تافاوا باليوا ومزارع جيرانه:

فقد حدث جفاف شديد أثر على فشل محصول الفول السوداني لأول مرة. وقد شجع ذلك الفلاحين كلهم على رفع أسعار الفول السوداني، وهو ما كانوا سيفعلونه تحت أي ظرف من الظروف من خلال مظاهرة عفوية وتلقائية على الوعد الذي قطعته الحكومة على نفسها بما أسمته "الزيادة المؤقتة في معدلات الدفع" كان الناس لا يزالون يفكرون أن التضخم ليس سوى انحراف عابر يمكن مواجهته عن طريق شد الأحزمة، وأن ارتفاع تكاليف المعيشة يمكن أن ينتهي عندما يصبح سلام ما بعد الحرب أمراً عادياً في كل مكان. اتسم موضوع زراعة الأرز في سكتو بالطابع العلمي، إذ بدأ أول توزيع للأسمدة الاصطناعية على الفلاحين المنتجين من بين الفلاحين (بما فيهم أبو بكر تافاوا باليوا)، وعقب توزيع هذا السماد الاصطناعي جرى عمل زيارات دورية للفلاحين الآخرين لكي يقفوا على النتائج المترتبة على السماد الأوروبي الجديد Sabon takin Tu-rai: هؤلاء الفلاحون لم يجر تحذيرهم من أن المنتج الصناعي الجديد الذي يسمونه الرايون(*) هو بديل للقطن. كان هناك خبر مفاده أن العمال مضربون على الهضبة في مناجم القصدير، وأن ذلك الإضراب لم يمتد إلى المناجم الموجودة في غرب إمارة باوتشي. ومن بين الجالية المهاجرة إلى جوساو، في سكتو، راح اليوروباويون Yorubas يعبرون عن مخاوف مفادها أن الأجباويين Igbos المحليين مصممون على تدميرهم.

كانت الاضطرابات الأخرى التي وقعت في السكك الحديدية النيجيرية، توحي للبعض بأن الإدارة السيئة قد تكون مسئولة شأنها شأن الصيانة الضعيفة وكذلك الإحلال، عن مسألة الفشل في أكوام الفول السوداني الهرمية التي تنتظر التصدير من

(*) الرايون: نوع من الحرير الاصطناعي. (المترجم)

كنو ومن محطات السكك الحديدية الأخرى: الواقع أن عدم وجود محصول جديد ينقل في العام التالي هو الذى جعل مسألة إخلاء هذه الأكوام أمراً ممكنًا. على الجانب الآخر، كانت هناك أخبار سارة أيضًا، تتمثل فى الخطة التى وضعتها القوات الجوية الملكية بعمل مسح تصويرى جوى للإقليم الشمالى استعداداً لعمل خرائط جديدة، وكانت باوتشى من المناطق المحددة لذلك التصوير الجوى فى فصل الخريف.

جرى تعيين المُعَلّم عمر الذى سبق أن تخرج فى كلية كاتسنا، ويعمل مسئولاً فى الإدارة المحلية، وينتمى إلى البيت الملكى فى جواندو، هذا الرجل كان يعمل كاتبًا فى المجالس الشمالية فى العام السابق، جرى تعيينه كأول سكرتير شمالى مساعد فى سكرتارية كادونا، وبذلك يكون الرجل قد بدأ مستقبلاً عمليًا مرموقًا بصفته كاتبًا للمجلس التشريعى. فى بريطانيا كان عيسى كيتا السكرتير الإدارى لأمير كاتسنا، ومعه شخص جنوبى يدعى السيد/ أو O اس S وى Wey كان قد حصلا على شهادتيهما فى الإدارة العامة من كلية إكستر Exter الجامعية، وقفلا عائدين بطائرة من طراز هرمز Hermes إلى نيجيريا. كان العقيد ستانلى Satanley وزير الخارجية المحافظ فى الفترة من العام ١٩٤٢ - ١٩٤٥، هو ودوق ديفونشاير Devonshire، وكيل الوزارة، واللذان أسندت إليهما برامج تدريب الخدمة الاستعمارية لفترة ما بعد الحرب، قد لقيا ربهما وهما فى منتصف الخمسينيات من عمريهما: كان ستانلى يشغل منصب أول وزير للمستعمرات الذى ترسخ اسمه فى ذاكرة أبى بكر تافاوا باليوا، نظراً لأن السبعة الذين جاءوا قبله لم يخدموا سوى سبع سنوات بين النيجيريين. ودار فى رئاسة الحكومة البريطانية جدل محير حول خطة إلغاء مكتب وزارة المستعمرات أو مقرها مقابل كنيسة وستمنستر Westminester. وبخاصة أن تلك الخطة كانت قد وضعت فى العام ١٩٣٨ ثم جرت الموافقة عليها فى العام ١٩٤٦، قال المؤيدون، من المؤكد أن إلغاء هذا المكتب سيضعف الصداقة مع الشعوب التى تستعمرها بريطانيا، نظراً لأن تصميم هذا

المبنى يعبر عن الأهمية الكبيرة التى تعلقها بريطانيا على هذه الشعوب من خلال الفن المعمارى؟

لم يكن من بين المؤيدين والمعارضين من يقترح أن ذلك المبنى يمكن أن يتحول فى يوم من الأيام إلى إدارة ضخمة خاصة بالبيئة أو التجارة أو الصناعة. كانت إعادة بناء مجلس العموم الذى سبق ضربه بالقنابل، قد اكتملت، ويجرى تأثيث رواق "الموافقين" بأفخر أنواع الخشب النيجيرى.

ألقى السيد/ أينوك Enoch بويل Powell (الذى كان عميدًا فى زمن الحرب) أول خطاب له كعضو فى البرلمان، وأعرب الرجل عن صدمته التى مفادها أن القوة النظامية البشرية التى تخدم فى الجيش قد انخفضت بحوالى ١٥٠٠٠ فرد، وراحت أصوات أخرى متهكمة تردد السؤال الذى مفاده هل هذا ناجم عن معارضة جنوب إفريقيا لوجود جيوش نظامية إفريقية، لكنها كانت على استعداد للإبقاء على قاعدة "سيمونزتون" Simonstown البحرية لتحل محل هذه الجيوش النظامية الإفريقية، والاحتفاظ أيضًا بقوتها الجوية والقوات البرية لتكون دعمًا ومعاونة للاستراتيجية الغربية والبريطانية فى الشرق الأدنى وفى الأماكن الأخرى؟ فى الوقت نفسه كان الجنرال وستلر Whistler فى غرب إفريقيا يُبلِّغ الحاكم النيجيرى أنه يود الاستغناء عن ضباط الصف البريطانيين كلهم فى قوات الحدود الإفريقية الغربية الملكية دفعة واحدة، حتى يرقى الأفارقة إلى رتبة النقيب خلال خمس سنوات، وإلى روَّاد خلال عشر سنوات. ويوافق ماكفرسن على ذلك، لكن خطر بباله أن الجنرال سيلاقى فى ذلك بعض المتاعب مع الضباط الذين يتولون القيادة فى كتيبته. قال وستلر: "أنا كبير تمامًا، وفظ بما فيه الكفاية ويمكننى التعامل معهم، لكننى لا أريد أن أُخلّف ورائى أقذارًا وأدرانًا".

على المستوى الأدنى قبل ضابط الحى الإدارى فى باوتشى الدعوة لزيارة وزارة المستعمرات أثناء الإجازة (العطلة)، على أن تكون هذه الزيارة على حسابه الخاص، وذلك "لتبادل الآراء حول بعض المسائل"، سأل ضابط الحى الإدارى المسئول الذى كان

فى استقباله هل صحيح، على حد ما تُرَوِّجُ له الصحف البريطانية الأسبوعية، أن بريطانيا لا تلقى بالاً لمسألة الحرية السياسية التى أعطتها لمستعمراتها، مادامت بقيت تلك المستعمرات مربوطة بسلاسل الاقتصاد؟ وقيل للرجل إن الوزارات البريطانية لديها ما يكفيها من الأزمات، ولديها أيضاً الكثير من الأعمال المفصلة التى يتعين عليها القيام بها، وهى (الوزارات) على استعداد للاسترخاء والتخلص من هذه الخطط حتى وإن كانت تؤمن بها. وكرر ضابط الحى الإدارى هذا الدرس الواقعى على مسامع أبى بكر تافاوا باليوا بعد عودته إلى باوتشى. ترافق مع ذلك حدث واقعى آخر تمثل فى إنهاء مجلس غرب إفريقيا وإلغائه كهيئة سياسية، وبخاصة أن افتقار ذلك المجلس إلى العمل الفعلى أصبح أمراً واضحًا فى الأيام الأخيرة: ظهرت روح هذا المجلس (وطبيعته البيروقراطية) فى السكرتارية الإقليمية فى غرب إفريقيا، التى أُنيط بها الإشراف المشترك على مؤسسات الأبحاث الممولة.

تعطلت التغييرات السياسية فى الشمال. واستقال المُعلم سعد زنقر المريض من الأمانة الفيدرالية لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، الأمر الذى أدى إلى التقليل من شأن مفهوم المجلس للحزب الذى يضم نيجيريا كلها (لم يحدث أن كان لأى حزب من الأحزاب النيجيرية فى زمن الاستعمار مساندة وتأييد قومى ووطنى مثل حزب المؤتمر الشعبى الذى أسسه نيكروما فى ساحل الذهب الذى يصغر نيجيريا من حيث المساحة).

ولأسباب تتعلق بالوحدة الرمزية آثر المعلم سعد زنقر أن يستعمل كلمة "الوطنى" National بدلاً من "الفيدرالى"، وبذلك يصبح لقب سعد زنقر السكرتير الوطنى للحزب بدلاً من السكرتير الفيدرالى، لكن ذلك لم يحل بين الرجل وبين محاولته تشكيل حزب شمالى شعبى Jam'iyya'r Al'amuran Nirjeriya ta Arewa من الشماليين المهاجرين الذين يعيشون فى ليجوس، لكن خيبة أمل الرجل واعتلال صحته هما اللذان أجبراه على العودة إلى موطنه - كان الرجل مستاء من أولئك الذين أسماهم المُعَلّم أمين كانو

الوطنيين (الوصوليين) الذين كانو (على حد قوله) يسعون لتولى السلطة الكامنة فى المؤسسات البريطانية. وعلى الرغم من احتفاظ سعد زنقر بعضويته فى المجلس التنفيذى الوطنى فى حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى، فإن تأثيره المباشر أصبح محدوداً بسبب مرض السل والأمراض الأخرى التى اضطرته إلى البقاء فى باوتشى. ومع ذلك كانت أفكار سعد زنقر السياسية معروفة للمسئولين المتعلمين من أهل الحضر وللمعلم أبى بكر تافاوا باليوا، الذى تلقى، فى أضعف الأحوال، رسالة فلسفية واحدة من سعد زنقر عن (عدم شرعية الحكم عن طريق اغتصاب السلطة) - سرت فى ذلك الوقت شائعة قوية مفادها أن الأمير سيقوم بإحضار سعد آمنًا من البرد، أو بالأحرى إلى الظل، عن طريق إعطائه وظيفة فى القصر.

تأسس حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى NEPU، الذى سبق الإشارة إليه، فى اليوم الثامن من شهر أغسطس من العام ١٩٥٩ . وشجعت صفحة الهوسا فى جريدة كوميت Comet (النفّاثة) التى يصدرها الدكتور آزكوى، مجموعة مكونة من حوالى ثمانية شبان راديكاليين ممن يتكلمون لغة الهوسا، ومعظمهم من التجار المشهورين والعمال أو المستخدمين، على تأسيس هذا الحزب. وبعد أن خاب أمل هؤلاء الشباب فى إتباع المؤتمر الشعبى الشمالى سياسة صريحة ومكشوفة، أعلنوا أن رابطة البحث عن الحرية Jami'yyar Neman Sawaba أو إن شئت فقل: رابطة تقدم الشمال Jam'iyyar Ci Gaban Arewa، يجب أن تتحول إلى حزب سياسى تحت الاسم الإنجليزى (NEPU أو NEFU الذى أصبح كلمة عامية ومألوفة). كان المُعَلم أبا Abba مايكوارا Maikwara أول رئيس لهذا الحزب، وأصبحت "الحرية" Saawaba شعاراً لهذا الحزب. كان المُعلّم أمين كانو بمثابة العقل المفكر وراء هذه الحركة، لكن نظراً لأن الرجل كان مدرسًا حكوميًا (فى بلدة مارو Maru فى سكتو) لم يستطع الانضمام رسميًا إلى هذا الحزب إلا بعد أن قدم استقالته من عمله فى شهر أكتوبر وعاد إلى موطنه فى كنو. ولم يعد يتحتم على الرجل الاعتذار، أو التعهد بعدم الخروج على النظام

العام، فى كل مرة يكتب فيها أو يتحدث حديثًا سياسيًا للاستهلاك المحلى. كان بعض من أعضاء رابطة المؤتمر الشعبى الشمالى NPC (التى لا تزال غير سياسية) قد انضموا أو انخرطوا فى حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى منذ البداية، لكن أبا بكر تافاوا باليوا لم يفعل ذلك، نظرًا لأن الرجل كان لا يزال يتشكك فى السياسيين المحترفين. كان بعض أعضاء اتحاد العناصر الشمالية التقدمى وكذلك بعض زعمائه المستقبليين ينتمون، مثل أمير كانو نفسه، وقلة قليلة من أهل باوتشى، ينتمون إلى الطريقة التيجانية الإسلامية، التى كانت جميعة صوفية ترفض المسلمات الإسلامية المحافظة: وسواء أكانوا على صواب أم خطأ، فقد كان أتباع هذه الطريقة يسلمون بأن الطريقة القادرية العامة التى ينتمى إليها السلطان، كان من عادتها إخضاع عامة الناس لها.

هذا يعنى أن التيجانيين المتطهرين كان يغلب عليهم اجتذاب المؤمنين بالنوافل الخاصة بالانصياع والطاعة العامين، والذين كانوا يعرفون باسم "أبناء الوظيفة" Yan Wazifa. على المستوى الدنيوى قرر كل من الأمير، والشيروما Chiroma، وبعض المعلمين الناشطين فى الإدارة المحلية، وبموافقة ضمنية من الممثل المقيم، قرروا حتمية القيام بعمل ما لمواجهة مسألة جاذبية كل من المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى هو واتحاد العناصر الشمالية التقدمى فى البلدان الريفية. وبذلك أصبحت هذه الحركة أقل نشاطًا وتميزًا عن حزب المؤتمر الشعبى الشمالى الثقافى.

فى الوقت نفسه جرى تأسيس هيئة أطلقت على نفسها اسم عصبة League الشماليين Northern غير المسلمين non-muslim، وأعادت هذه الهيئة تشكيل نفسها فى جوس Jos تحت اسم عصبة League المنطقة Zone الوسطى Middle، لتصبح بعد ذلك بؤرة مُشكِّلَةً "الحزام الأوسط" Middle Belt، التى أحارت وضايقت السياسيين الوطنيين والإقليميين وكذلك الإداريين فترة طويلة بعد الاستقلال. وإذا لم يخضع الشمال بشكل عام لسيطرة الجنوب، فإن هناك شماليين أيضًا لا يقبلون أو يسلمون

بسيطرة حَمَلَة رايات بن فودى عليهم إلى الأبد. هذه النوعية من البشر لم تكن توجد سوى فى المناطق المتاخمة لحدود الشرق والغرب النيجيرى مع الشمال، أى فى المناطق التى كانت الغلبة فيها للأرواحية(*) والبعثات التبشيرية، أو بالأحرى فى الأماكن حديثة العهد بالإسلام أو المناطق التى تنتشر فيها سماحة الإسلام. كان الأمير وأبو بكر يعلمان جيداً أن إمارة باوتشى نفسها فيها مجموعات كبيرة من القبائل الأرواحية وتعيش داخل حدود الإمارة، وأن الأمر يتطلب دبلوماسية واسعة الأفق للاحتفاظ بصداقة هذه القبائل. كان مطلوبًا أيضًا توفير أفق من نوع ما لسياسيى الحزام الأوسط الطموحين، حتى يمكنهم عقد تحالفات مع الأحزاب الجنوبية، وليس لإسناد الجنوبيين أو دعمهم، وإنما لإضعاف الزعامة التقليدية الشمالية، لم يتعاطف المُعَلم أبو بكر مع التحالفات التى من هذا القبيل، لكن الرجل كان يفهم تلك التحالفات حق الفهم.

عقدت جمعية الشمال العمومية اجتماعها الرابع فى شهر أغسطس فى قاعة لوجارد التى اكتملت ولم يجر تلييسها، وكانت لا تزال مجرد موقع لمبنى من المبانى. وفى نهاية العملية التشريعية كان هناك قانون يرفع سن موافقة البنات على الزواج، بحيث يجرى رفع السن من ١٣-١٥ عام. كان المُعَلِّم أبو بكر يتشكك فى مسألة إمكانية تنفيذ هذا القانون أو كونه شيئًا مرغوبًا قبل وجود عدد كاف من مدارس البنات، وأشار أبو بكر إلى أن الزواج المبكر موجود فى بريطانيا منذ زمن شوسر Chaucer". وأردف أبو بكر مدعمًا أقواله بالأسباب أن بعض البريطانيين الذين سبق لهم العيش فى الشمال كانوا يفهمون النتائج التى يمكن أن تترتب على تغيير من هذا القبيل، قبل أن يُحْدِث التعليم الأثر المطلوب منه، وأن ذلك يمكن أن يؤدى إلى المزيد من البغاء والدعارة.

(*) الارواحية: مذهب حيوية المادة: الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون وحتى الكون نفسه روحًا أو نفسًا، أو إن شئت فقل: الاعتقاد بأن الروح أو النفس هى المبدأ الحيوى المنظم للكون. (المترجم)

وأدرج أبو بكر ضمن هذا المصطلح الاتصال الجنسى غير المشروع. والذى لا شك فيه أن أبا بكر كان يتكلم نيابة عن الغالبية العظمى من الأفارقة من الجنسين.

لكن إذا كان أبو بكر قد بدا للمغتربين التقدميين حقًا ظاهريًا قصد به باطل، فإن الرجل كان يحتفظ بمفاجأة لهؤلاء المغتربين. وبعد أيام ساخنة متعددة وعاصفة، وعندما بدأت قلة قليلة من الأعضاء تتشاور حول مسألة العودة إلى مواطنهم، وقف أبو بكر تافاوا باليوا عصر يوم السبت، أثناء الحوار الذى جرى حول انفضاض الاجتماع، وألقى ذلك الذى اعتبره الشماليون والموظفون المدنيون العاملون فى الشمال، أعظم ما قاله الرجل، والذى هو بحق أعظم خطاب قاله الرجل. قال الرجل...

"..... تعيين لجنة مستقلة للتقصى والتحقيق فى منظومة الإدارة المحلية فى الأقاليم الشمالية، وتصدر لنا توصيات لتحديث هذه المنظومة وإصلاحها: وأن تتاح لمجتمع الشمال أكبر فرصة لمناقشة التقرير والتوصيات الصادرة عن هذه اللجنة وانتقادها قبل قبول هذه التوصيات والموافقة عليها من الحاكم".

كان هناك أيضًا بعض المراقبين، ثم بعد ذلك المؤرخين المهتمين بهذه المسائل،

لكنهم لم يعقلوا أهمية كبيرة على ذلك الهجوم المتحفظ الملتهب على التقاليد التى كانوا يرون بالفعل أنها تحتضر: لكن لو لم يُلق أبو بكر هذه الخطبة لما استطاع مطلقًا قيادة بلده، لأنه فى ذلك الوقت، وفى تلك الجمعية بالذات، لم يكن هناك من عامة الناس، أو من الأرستقراطيين من يستطيع الإدلاء بخطبة من هذا القبيل، وبدون هذه الخطبة، كان لا يمكن إصلاح منظومة الحكم غير المباشر، بدون عنف، وعلى النحو الذى يُمَكِّن البلاد من أن تحيا فى ظل ديمقراطية برلمانية مثل تلك الديمقراطية التى شهدتها البلاد فى ظل النظام الإدارى الاستعمارى.

هذه الخطبة عزاها البعض إلى روبرت Robert رايت Wright، لكن ذلك يعد خطأً كبيرًا. وعلى الرغم من أن روبرت رايت عاون بعض الشىء فى تقديم هذه الخطبة، فإن

مضمونها بالكامل من عنديات أبى بكر تافاوا باليوا. وإذا ما تتبعنا ممارسات أبى بكر منذ أيام الدراسة فى المدارس نجد أن الرجل كان يحفظ خطبه (لم يجد الضباط الإنجليز الحاضرين كلمة أخرى يستعملونها غير هذه الكلمة) عن ظهر قلب، وكان من النادر أن ينظر الرجل إلى المبيَّضة التى كان يشير إليها دومًا بكلمة "الملاحظات" Notes. كانت تقنيات أبى بكر البلاغية والخطابية ذائعة ومعروفة، مثل الوقفات، والاعتراف دومًا بوجود الرئيس، والصوت الرخيم، وجذبه لأكمام ردائه إلى الأمام، ثم بعد ذلك إعادة تلك الأكمام إلى كتفيه (علَّق أحد الكلاسيكيين القدامى أن "تلك كانت الطريقة التى يتصرف بها الأديب اللاتينى شيشيرو Cicero مع ردائه")، فضلاً عن النظرة البطيئة التى كان يلقيها على جمهور المستمعين، كل ذلك أصبح أمورًا لا تنسى إلى حد أن علِية القوم كانوا يزعمون أنهم استمعوا إلى الخطبة علمًا بأنهم لم يحضروا إلقاءها. واقع الأمر أنه كان هناك وجه واحد مغترب فى رواق الغرباء الذين يستشعرون القلق، هذا الوجه هو شلنجفورد Shillingford، ولد ضابط التعليم الرئيسى وخريج جامعة كمبردج. وقد يكون من الأهمية بمكان هنا أن أورد هنا تلك الخطبة فى صورتها النهائية وبخط يد المُعلّم أبى بكر تافاوا باليوا، نظرًا لأن هذه الخطبة أصبحت مصدرًا يقتبس الكثيرون عنه :

يوليو ١٩٥٠

سيادة الرئيس ، سيدي ،

أولاً يتعين علىَّ أن أتوق شوقًا إلى المشاركة فى الجمعية، وأقدم لسيادتك اعتذارى يا سيدى عن الرجوع بصورة متكررة إلى ملاحظاتى. خطى مباشر والكلام الذى كتبته صريح وصادق، وأنا أرى أن المُقْتَرح يبلغ من الأهمية حدًا يجعلنى لا أخاطر بضياع ولو نقطة واحدة منه أو إضعاف عبارة من عباراته باستطرادات مرتجلة ربما تجرفنى إليها قوة مشاعرى. لعل سيادتكم تلاحظ أن المقترح يخص الشمال وحده، ولما كانت الأقاليم الأخرى تتعامل مع المشكلة نفسها بطرقها الخاصة، أتمنى ألا تطلبوا منى نقل

هذا القرار إلى المجلس التشريعي: وسبب ذلك أنه في هذا المكان والآن يتعين علينا إيجاد العلاج لمرضنا وإعطاء ذلك العلاج دون أي تأخير.

أمل ألا تسيئوا فهمي. فأنا ليس لدى بلطة كى أسنّها، ولا أتمنى لأى رأس أن يتدحرج إلى مجارى الصرف الصحى، أنا ليست لدى رغبة التحطيم والتدمير، وأنا أطالب بالإصلاح. ونحن يجب علينا أن نسأل أنفسنا عما إذا كانت المعارك الدستورية التى خضناها، ولا نزال نخوضها، كان يمكن أن تكون لها قيمة إن قُدِّر لأكاليل الغار أن تتوج تمثالاً قدماه مصنوعتان من الطين. سنكون فى قمة التهور إن قدر لنا ألا نحذو حذو الدول الأخرى التى عانت أوجاعًا ومتاعب مماثلة لمتاعبنا، وإذا ما فشلنا أيضًا فى تقدير أهمية صداقتنا مع الأقاليم النيجيرية الأخرى ومع العالم بصفه عامة. نحن لا نقوى على تحمل الركود، لابد من مضينا إلى الأمام. هذا الذى أؤكد عليه يعد أمرًا مستحيلاً فى ظل الآليات الحكومية الحالية. وكلما عجلنا بالاعتراف بذلك والتسليم به عجل ذلك باحتلالنا لمكانتنا بلا إعاقة من موروث العهد الماضى.

تحمل معى يا سيدى وأنا أستعيد تاريخ هذه المنظومة وجدواها مادام أنها تشكّل حاليًا العائق الرئيسى أمام تقدمنا، وهنا سوف نتبين ما إذا كان يمكن تعديلها كى تكون على النحو الذى يمكنها من الاحتفاظ بما هو مفيد فى الإطار الخاص بالتقاليد والموروثات. نحن لسنا أثرياء فى الموروثات والتقاليد على نحو يجعلنا استثناء بما لدينا من هذه التقاليد والموروثات وأنا أتطلع إلى قيام اللجنة بتطعيم موروثاتنا القديمة بالأفكار الحديثة.

الآن، وبعد أن أدخل المرحوم اللورد لوجارد، الذى نحترمه جميعًا، منظومة الحكم غير المباشر، عندما كانت البلاد محتلة بواسطة البريطانيين قبل خمسين عامًا. لما كانت تلك المنظومة لم تتغير من الناحية التطبيقية، فقد أدت المطلوب منها منذ أن وضعت لكنى أرى، وهذا أمر مؤكد، أن اللورد لوجارد لم يرد لتلك المنظومة ذات المنفعة الآنيَّة أن تظل هى السلطة التى لا تتغير بمرور الزمن. النظام الدستورى يا سيدى لا يحدد

شكلاً بعينه من أشكال الحكم على أنه هو الصحيح أو الكامل. هذا يعنى أن نظم الحكم كلها قابلة للتعديل شأنها فى ذلك شأن المجتمعات التى تعمل على تطويرها. الشمال أصبح، بفضل الإدارة البريطانية مُفْعَمًا بروح التقدم، وأنا على يقين من أن اللورد لوجارد، كان يمكن أن يتفق مع هؤلاء من الذين يحفظون مشكلات هذا البلد فى قلوبهم وأفئدتهم، إن الوقت قد حان لنا كى نقوم بترتيب منزلنا. لقد أرانا البريطانيون الطريق بفضل عبقريتهم فى النمو العضوى الذى يباعد بينه وبين الثورات الدموية فى المناطق الأقل سعادة، ونحن يتعين علينا أن نحذو حذو البريطانيين. القرار الذى أمامكم يعد خطوة بالغة الأهمية فى الاتجاه الصحيح. ولابد أننا تعلمنا من ذلك الشاعر الذى يقول:

دع الأغبياء يتصارعون حول أشكال نظم الحكم

هذا الذى يُدار أحسن إدارة هو الأفضل

ونحن بدورنا، كان يتعين علينا مغادرة مقرنا الدستورى إلى أن أصبحنا نقف على أرض صلبة من الإدارة المحلية ونستطيع البناء عليها.

عندما علق اللورد لوجارد، أعظم مدارئنا، على الإدارة المدنية، فى مذكراته السياسية نراه يقول: - "امتيازات الرؤساء Chiefs ونفوذهم يمكن رفعهما أكثر، إذا ما جعلنا الفلاحين يتبينون أن الحكومة تعامل هؤلاء الرؤساء باعتبارهم جزء لا يتجزأ من آليات الإدارة. بمعنى أنه ليس هناك مجموعتان من الحكام - بريطانيين ووطنيين - تعملان إما منفصلتين أو متعاونتين، وإنما هناك حكومة واحدة يكون فيها للرؤساء الوطنيين مهام محددة تحديداً جيداً ووضعاً معترفًا به من المسئولين البريطانيين. هذا يعنى أن مهام هؤلاء الرؤساء يجب ألا تتعارض أو تتضارب مطلقًا وألا تتداخل فيما بينها تداخلاً كبيرًا قدر المستطاع: هذا يعنى أن الرؤساء الوطنيين ينبغى أن يكونوا متكاملين مع الحكام البريطانيين قدر المستطاع، ويتعين على الرئيس نفسه أن يفهم أنه

ليس لديه الحق فى منصبه وسلطته إلا إذا أدى خدمات مناسبة للدولة". وأنا أرى أن المجلس يتعين عليه دراسة هذه المقتطفات المأخوذة عن المذكرات السياسية للورد لوجارد، ويتبين إلى أى حد جرت مراعاة مبادئ هذا الرجل أو مدى الإساءة التى لحقت بالسلطات الممنوحة لهؤلاء الرؤساء. وهذا اقتباس آخر مأخوذ عن مصدر آخر، يبين بوضوح ذلك الخطر الحقيقى الذى نعرفه كلنا أنه أمرًا لا يمكن تحاشيه أو التغاضى عنه: "قبل مجىء الأوروبيين إلى إفريقيا، كانت سلطة الرئيس مقصورة على مسألة محافظته على منصبه. لم يكن الرئيس Chief يجرؤ على التضحية بالشهرة وذيوع الصيت مخافة أن يثور عليه رعاياه. الآن وبعد أن أصبح الرئيس مسنودًا بفعل الحكومة المركزية، أصبح الرجل يحس بعدم أهمية الرأى العام - أى برأى الرعايا أنفسهم، لكن من حيث التطبيق والممارسة، نجد أن آراء هؤلاء الرؤساء فى الماضى لم يكن لها وزن، ولم تكن مسألة رفاههم أمرًا ذا بال كما كان يجرى الإساءة إلى قلة حيلتهم وضعفهم. وهم ليس لهم مكان فى قانون الإدارة المحلية (المدنية). وبغض النظر عن مسألة تحديد مهام الرؤساء تحديدًا واضحًا، فإن مظهرًا من مظاهر عيوب هذه المنظومة يتمثل فى جهل جميع الرؤساء من القمة إلى القاع، وأنا أقصد بالجهل هنا، مسألة جهل هؤلاء الرؤساء بحقوقهم، هذا يعنى أن الرئيس يجهل التزاماته وسلطانه. هذا الجهل يتعين القضاء عليه بصورة أو أخرى ويجب أن يدرك الشعب أن له نصيبًا فى حكومته. أولاً، من الضرورى لكل هؤلاء الذين فى السلطة، أن يفهم كل واحد منهم أنه موظف عام، وأن الذى يطعمه ويسقيه هو الشعب ويجب أن يظهر ذلك فى أعماله وتصرفاته. وتلك هى الأهمية العاجلة للإدارة البريطانية التى يتعين عليها تحديد الطريقة التى يمكن بها منح السلطات والمسئوليات بصورة دقيقة. فى الوقت الحالى، يا سيدى، لا يعرف أحد موقفه، يزاد على ذلك أن ضباط الأحياء يقومون بدور الدكتاتور، ولديهم تعليمات وأوامر تنفيذية بدلاً من أن يكون رأيهم استشاريًا وهو ما تحتاج إليه الإدارة المحلية (المدنية). هذه العلاقة لابد وأن تكون مفهومة للجميع وواضحة لهم، وأنا هنا أطالب بالعودة إلى الأسس التى حددها لوجارد وأوردتها فى اقتباسه الأول. وهذا يمكن تنفيذه من خلال

اللجنة التى نطالب بإنشائها. وعن طريق إعادة صياغة كاملة للسياسة التى ستتيح للوفود المسئولة أمام السلطات المحلية (المدنية) الطريقة الصحيحة لتشكيل مثل هذه الوفود، لكنى أشدد على أن هذه المسئوليات لابد أن تكون مسئوليات حقيقية. قد يقول قائل، يا سيدى، إن هذه العملية قائمة بالفعل على شكل مجالس القرى ومجالس للمدن، لكن هذه المجالس تفتقر إلى المسئوليات، وتفتقر أيضًا إلى الإرشاد. تفتقر إلى المسئوليات التى لا يمكن أن تتوفر لها فى ظل المنظومة الحالية، وما هو ذلك التوجه والإرشاد الذى يمكن أن تحصل عليه هذه المجالس فى ظل تغيير رؤساء الأحياء فيها بواقع مرتين أو ثلاثة كل عام؟.

هذه الكتلة الأمية من البشر لا تقر أى تغيير من أى نوع فى أوضاعها منذ مجىء البريطانيين. القوة هى التى تحكم هؤلاء البشر والإدارة أصبحت لا تزال لا تعنى لهم شيئًا. يتعين جعلهم يتعرفون حقوقهم وواجباتهم بصورة أو أخرى، ويجب أن يتعرفوا أيضًا حركة العالم الحالية من حولهم، ونحن نعتمد على البريطانيين فى التعجيل بهذه العملية وتسريعها. كل من هم فى السلطة سواء أكانوا من البيض أو السود يجب أن يدركوا أنه لا يمكن القيام بالمطلوب منهم، أو بالأحرى بمهام عملهم إلا إذا حظى باحترام الآخرين، وثقة الناس، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بالدليل العملى على إخلاصه فى عمله من أجل إنهاء مصالح الناس. والناس بدورهم لا بد أن يقدروا ويعوا أن الشمال يتمتع بحرية الكلمة وحرية العمل فى إطار القانون ـ الحال ليس كذلك فى هذه الأيام.

بذلك أجدنى، يا سيدى، أصل إلى مسألة "السلطة المدنية (المحلية) المطلقة". نحن لا نعرف من أين جاءت هذه الفكرة، ولم نستطع التوصل إلى الظروف التى أدت إلى خلقها فى العام ١٩٢٤, وأيًا كانت أسباب هذه المسألة، فهى عبارة عن فكرة يجب إدانتها. الناس يقولون دومًا إنها مجرد فكرة نظرية وأنها لا ضرر منها. وأنا لا أتفق مع هؤلاء الناس فيما يذهبون إليه لأن مجرد توفير هذه السلطة يكفى لإدخال الرعب

إلى نفوس مجالس السلطة المحلية (المدنية)، نظرًا لأن هذه المجالس ستشعر دائمًا أن مهامها هي مجرد مهام استشارية ليس إلا. وبوسعي الذهاب، إلى ما هو أبعد من ذلك وأقول: إن فكرة "السلطة المدنية المطلقة" ليست في صالح المبادئ الإسلامية العريضة. النيجيريون الشماليون المحدثون ينظرون إلى مسألة السلطة المدنية المطلقة هذه باعتبارها شكلاً من أشكال الديكتاتورية. وأنا لدي إحساس قوي أن مراجعة قانون الإدارة المحلية أصبح أمرًا واجبًا، المجالس المحلية، يا سيدي، ينبغي أن تُخوَّل سلطات حقيقية وأن مهامها يجب ألا تكون مهامًا استشارية فقط. هذه المعضلة يمكن حلها عن طريق جعل كل الأفراد الذين يطلق عليهم مصطلح رؤساء السلطات المحلية أو الأمراء أعضاء في المجالس. يضاف إلى ذلك أن مسألة إدخال الديمقراطية إلى السلطات المحلية أصبحت الآن ضرورة ملحة. هذا لا يعني أني لست على علم بما يدور، لكني أطالب بتكثيف ذلك الذي يجري عمله. وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى، يا سيدي، أود توجيه إنذار إلى حكامنا الطبيعيين. يجب أن يدرك حكام الشمال الطبيعيين أن التعليم الغربي، هو والظروف العالمية يسارعان في خلق طبقة جديدة من البشر في الشمال. مسألة حتمية وجود هذه الطبقة أمر لا مفر منه، كما أن الحكام الطبيعيين، الذين يتعين على الشمال الإبقاء عليهم، يتعين عليهم بدلاً من التشكيك في هذه الفكرة، تنفيذها تنفيذًا سليمًا. وأنا أرى أن هذا أمر مهم جدًا يتعين التعجيل به وأخذه مأخذ الجد من قبل الحكام الطبيعيين. وأنا، يا سيدي، عندما أقول طبقة جديدة من البشر، لا أعني فقط أولئك النيجيريين الشماليين الذين يحبِّذون أشكال التعليم الغربي، وإنما تشتمل هذه الطبقة على التجار وآخرين من مضارب الحياة. هذا أمرمهم للحكام الطبيعيين، وأنا شخصيًا أفضل أن أرى هذه التغييرات وهي تجيء في البداية من الحكام الطبيعيين بدلاً من الطبقة الجديدة. الأمور تتغير تغيرًا سريعًا وبوسعنا تجنب الكثير من المتاعب والمرارة لو أن أصحاب المراكز الرفيعة في السلطة فتحوا أعينهم واتفقوا على مسايرة الزمن.

ونحن عندما نتكلم عن الإدارة المحلية، لا نملك إلا أن نشير إلى الضباط الإداريين البريطانيين. وأنا بدورى كنت فى الماضى قد انتقدت الحكومة لأنها استوردت أو بالأحرى جلبت ١٣٦ مسئولاً إدارياً إلى شمال نيجيريا. وأنا اليوم سوف أنتهز الفرصة وأزيل الانطباعات الخاطئة التى ربما تكون قد تكونت بسبب ذلك النقد. بداية يتعين علىّ القول إننا لسنا جاحدين للإدارة البريطانية التى عملت فى ظل ظروف صعبة لتصل بشمال نيجيريا إلى ما وصل إليه اليوم. أنا أتمنى أن الثناء على الخدمات التى قام بها الضباط البريطانيون الذين جاءوا للخدمة فى الشمال فى وقت لم تكن فيه السكك الحديدية، أو السيارات أو الطائرات معروفة فى بلادنا. الكثيرون من هؤلاء الضباط، يا سيدى، قدموا خدمات ممتازة لمصالح أهل الشمال - لم يكن لديهم أى قدر من وقت الفراغ. كل ساعة كانت عندهم من أوقات عملهم، وكانوا يقومون بجولات التفتيش سيراً على أقدامهم، أو على ظهور الخيل، أوفى القوارب. فى ذلك الوقت كان كل واحد من هؤلاء الضباط الإداريين يقوم بكل شيء - لأن ضابط (رئيس) الحى فى ذلك الوقت، وفى أية محطة من المحطات كان هو المسئول الأبيض الوحيد فى كل إدارة من الإدارات. جزء مهم أيضاً من عمل هؤلاء الضباط كان يتمثل فى اتصال هؤلاء المسئولين الوثيق بالجماهير الأمر الذى هيأ لهم فرصة فهم شيء عن هؤلاء الناس. وصل هذا التفهم إلى حد أن الجماهير كانت، فى أغلب الأحيان، تبتكر أسماء مستعارة، أو كنيات مستعارة لأولئك المسئولين - وهذا أمر نادر الحدوث تماماً: هذا العمل لا يقوم به سوى مدرس، لكن من قاموا به هم أناس كان لديهم الوقت والصبر الذى ساعدهم على التعليم، لكن ما هو الحال اليوم؟ الحال يمكن الوقوف عليه من الإجابة على الأسئلة التالية التى توضح مدى تغير الصورة .

(١) ما هى العلاقات الجيدة والمحددة تحديداً جيداً بين الضباط الإداريين والسلطات المحلية؟

(٢) هل تنظر السلطات المحلية والناس بشكل عام إلى الضابط الإدارى العادى باعتباره مستشاراً لهم وأنه رجل جرى تعيينه لحل مشكلاتهم كصديق؟

(٣) كم عدد الأصدقاء الطيبين الذين يمكن للضابط الإدارى العادى أن يفخر باتخاذهم من بين أفراد المجتمع الحالى؟

(٤) هل الضابط الإدارى العادى يقوم حاليًا بالاتصال الحقيقى والوثيق بالجماهير وهل هيأ الرجل لنفسه الوسائل التى تمكنه من معرفة الناس واكتساب ثقتهم به؟

(٥) ما هى الجهود التى يبذلها الضابط الإدارى العادى فى تدريب رؤساء الأحياء ورؤساء القرى، على تصريف الأمور فى ظل الظروف الحديثة، وتعليم الجماهير تفهُّم حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم مواطنين؟

(٦) إذا ما نحينا جانبًا سُعَاةَ ضابط الإدارة ومسئولى الإدارة المحلية الذين يلقاهم الضابط الإدارى فى محطته، ما عدد الناس، وعدد رؤساء القرى والكفور الذين يستطيع مثل هذا الضابط الإدارى تذكرهم أو حفظ أسمائهم؟

(٧) ما هو ذلك الجزء من واجبات مثل هذا الضابط الذى يستغرق القسم الأكبر من وقت هذا الرجل، وأعماله المكتبية أو جولاته التفتيشية؟.

أرى أن الإجابة على هذه الأسئلة كفيلة بأن توضح لنا الوضع الحالى. أنا أستعمل كلمة "عادى" average أو "متوسط" لأنى أتمنى أن أكون منصفًا لهؤلاء الضباط الموجودين فى بلادنا ويحملون فى دواخلهم أصدق النوايا فيما يتصل بقيامهم بالمهام الملقاة على عواتقهم، فى الوقت الذى أقول لسيادتك فيه إن قسمًا واحدًا من أقسام الشمال شهد ثمانية عشر ضابط (رئيس) حى، خلال ٨٢ شهرًا، أى بمعدل ٤,٥ شهر لكل ضابط من هؤلاء الضباط.

أنا لا يمكن أن أترك هذه النقطة المهمة ـ تدريب هيئة العاملين فى الإدارة المحلية. من الواضح أننا إن أردنا للإدارة المحلية أن تكون كفئة فإنها لا بد أن تقوم على أناس مُدَربين. وأنا لا أعنى بكلمة "التدريب"، يا سيدى، ذلك التدريب على الأعمال الكتابية الذى يمكن الحصول عليه من المدارس والكليات المعنية بهذا الأمر، وإنما أعنى التدريب بمعناه الأوسع والأشمل، أقصد ذلك التدريب الذى يُعَلّم الفرد تَعرُّف منصبه، والذى يهيئ له الفرص التى تمكنه من زيادة صحته وثروته وتسمح له بالمشاركة مشاركة فاعلة فى تنمية مجتمعه. ويبدو أنه لا سلطات الحكم المحلى ولا الإدارة البريطانية تشغل نفسها بالأعمال التى يقوم بها رؤساء القرى ورؤساء الأحياء، مادام أن هؤلاء الرؤساء يقومون بتحصيل الضرائب فى مواعيدها. وتفسيرًا لما أود قوله، أجدنى أتجرأ على القول: إنه ليس هناك رئيس حى واحد فى الشمال يقيم فى حيه ولديه معرفة كاملة بالعمل المطلوب منه، أو أولئك الذين يمكن أن يرسلوا له تقارير دورية شاملة عن حيه إلى الإدارة المركزية.

وهنا قد يتساءل الناس عن كيفية تحسين إدارة أحيائنا. أقول إن التحسين يعد عملية مستحيلة مادام قد استمرت الإدارات المحلية فى وضع الأوتاد المربعة داخل الحفر. هذا العمل يشكل نقطة ضعف كبيرة فى الإدارة المحلية وما لم يجر إسقاطه والتخلى عنه تمامًا فقد ينتج عنه قدر من المتاعب فى المستقبل القريب. وهذا أيضًا من مهام الإدارة البريطانية التى تستطيع جعل الإدارات المحلية تتفهم الضرورة الملحة لإحداث هذه التغييرات. أنا أود أن أرى إجراءات فاعلة كافية يجرى اتخاذها لتزويد الإدارات المحلية بذلك النوع من التدريب الذى سبق أن أشرت إليه.

أتحول الآن إلى نقطة أخرى هى غاية فى الأهمية ـ تمويل الإدارة المحلية. واضح للجميع أن نجاح الإدارة المحلية يعتمد فى الأساس على إيرادات هذه الإدارات، وواضح أيضًا أنه يستحيل على كثير من الإدارات المحلية الصغيرة القيام بمشاريع

تنموية كبيرة فى مناطقها من خزاناتها الحالية المتواضعة، وأن هذه الإدارات الصغيرة لا يمكنها دفع أجور العاملين المؤهلين والمدربين. وأنا أعتقد أن المجلس يتفق معى على أن الوقت قد حان لمحاولة دمج موارد بعض الإدارة المحلية مع بعضها البعض. القيام بمثل هذا العمل لن يكون له أى تأثير على استقلالية هذه الإدارات، أو على وضعية أى رئيس من الرؤساء، لكنه سيكون لفائدتهم ومصلحتهم. سوف يترتب على ذلك إنهاء قسم كبير من سيطرة كادونا بعد أن تجرى الموافقة العامة على التقديرات المبنية على السياسة الموضوعة من قبل المفوض العام. هذا يعنى أن الإدارات المحلية يتعين تخويلها المسئولية الكاملة عن نظامها المحاسبى وبذلك يتمكن ضابط الحى من القيام بمهامه السياسية، لأن هذه المهام يتعين زيادتها من حيث القدر والأهمية. الواقع، يا سيدى، أن السبب الرئيسى وراء هذه الصورة المتناقضة التى رسمتها بين الإدارة القديمة والإدارة الحديثة، لا يكمن، على حد فهمى، فى نوعية الأفراد، وإنما فى أكوام الأوراق المكدسة التى تشغل بال هذا الفرد فى الوقت الحالى.

أخيرًا، يا سيدى، أصل إلى ما هو حلو المذاق فى بدايته مر فى نهايته. هناك سمة من سمات الإدارات المحلية سالفة الذكر تتطلب قبل كل شىء، اهتمامًا كبيرًا من جانب اللجنة. هذه السمة كما يعلم الكثيرون منكم، تتمثل فى لعنتى الرشوة والفساد التى تتسود المناصب كلها والإدارات كلها . هناك سمعة شائنة ورديئة يا سيدى، بأن موظفى الإدارة المحلية عليهم التزامات مالية قِبَل رؤسائهم المباشرين وقبل الإدارات المحلية وحدها . قد لا يكون من المفيد أن أخصص على نحو أكبر مما قلت، لكنى لا أستطيع المبالغة فى أهمية استئصال هذا الشر الشيطانى. لا أحد ممن لا يعيشون بيننا يستطيع تحديد مدى انتشار الرشوة وسيطرتها على اهتمام الدرجات كلها لاستبعاد المثل الرافضة لمثل هذا العمل. القسم الأكبر من جاذبية الوظيفة يتمثل فى الفرص التى تهيئها هذه الوظيفة للابتزاز والالتفاف بشكل أو بآخر. واللجنة إذا لم تدرك تمامًا

خطورة الرشوة والفساد، وتتعامل معهما بشجاعة وحزم، فإن كل التوصيات الشكلية التى ستصدر بشأن الإصلاحات ستكون مجرد حبر على ورق ولن تجدى فتيلاً. إنه لشىء مشين أن تسىء قلة قليلة من المسئولين إلى المجلس التشريعى بما ترتكبه من أعمال مشينة.

الآن وبعد أن طالبنا بتشكيل لجنة، وبعد أن أوردنا تصوراً لطبيعة مهمتها، أتمنى على سيادتكم أن تسامحوننى، إذا ما اقترحت على سيادتكم الشكل الذى ينبغى أن تكون عليه هذه اللجنة. أتمنى أن أرى هذه اللجنة مشكلة من أستاذ من أساتذة العلوم السياسية من جامعة من الجامعات البريطانية من المتقاعدين ومسئول إدارى شمالى، وصديق خبير ومخلص من أصدقاء الشمال، من قبيل الدكتور ميلز Milles الوُساسا Wusasa، وشخص آخر ممن لديهم معرفة حديثة بالحكم المحلى فى شرق إفريقيا. أنا على يقين يا سيدى من أن اللجنة الغربية أو الأجنبية لا يمكن أن تستوعب أجواءنا وظروفنا، أو تقيم مدى ذلك السم الذى أشرت إليه فى مجتمعنا. واللجنة، كما سبق أن قلت، لابد أن يكون ذلك هو شغلها الشاغل، وأن تكون جسورة فى عملها. سوف يتعين القيام بتغييرات كاسحة وسوف تطيح بأعداء كثيرين فى هذه العملية، لكن البريطانيين يتعين عليهم المخاطرة بتلك الفئات فى الوقت الراهن، فى ضوء أنهم سيحصلون فيما بعد على ثنائنا وتقديرنا لما قاموا به. من هنا يا سيدى، راحوا يستخفون بنا ويقولون: دع الفتنة نائمة. وهم إذا ما تركوا هذا الكلب أكثر من ذلك، فإنهم سيكتشفون أنه لن يعبر عن استيائه عن طريق الخدش والخربشة وحسب وإنما سيبدأ الكلب فى النباح والعض أيضاً.

هذا الخطبة لقيت ثناء رسمياً عليها من قبل تاجر من تجار كانو Kano هو الحاج تاج الدين، وحظيت هذه الخطبة بكثير من الترحيب والثناء على شجاعتها قبل الطبقة الأرستقراطية فى بورنيو من أمثال والى كنو، وشتيما Shettima كاشيم Kashim،

واثنين آخرين المُعلِّم المدرس يحيى Yahya إيلورين Ilorin وأمين الخزانة المحلية المُعَلم محمد رباط من بلدة إيولا Yola : استغرق إلقاء هذه الخطبة خمسة وأربعين دقيقة، وعلى الرغم من افتتاحية الخطبة الاستنكارية، فقد تطلبت من الرجل الرجوع إلى مسودته، وقد استغرقت ترجمة هذه الخطبة إلى لغة الهوسا وقتًا مماثلاً. كان السيد ليسلى Leslie جوبل Goble، الزعيم الرسمى للمجلس التشريعى وسكرتير المقاطعات الشمالية يود ألا يكون هناك أى شكل من أشكال سوء الفهم لتلك الخطبة، هذا يعنى أن المسئولين سوف يصوتون على هذا الاقتراح الذى يطلب تشكيل لجنة مستقلة، لا من منطلق اعتراض هؤلاء المسئولين على ديمقراطية Democratization المنظومة، التى كانت تضم عددًا كبيرًا من الرؤساء ومعهم (أعضاء الإدارة المحلية)، وإنما لأنهم يعترضون على تفاصيل الخطة المقترحة ـ هذا يعنى أن تطوير نظام الحكم المحلى لابد أن يكون نابعًا من الداخل، وليس مفروضًا من الخارج. وأنهى أبو بكر خطبته بأن الصمت الذى خيم على أولئك الذين لم يتكلموا يعنى الموافقة، كان ذلك موجهًا إلى نبلاء كل من سوكتو Sokoto وكانو Kano، الذين كانوا أقل حماسًا مما كانوا عليه من قبل وذلك على العكس مما قالوه عن هذا الأمر فى السنوات التى تلت ذلك. وقد اتضحت خيبة أمل أبى بكر تافاوا باليوا فى ارتباك لغته وعدم تنميقها عندما كان يرد ويجيب على الأسئلة، عما كانت عليه عندما كان يتحدث وهو واثق بنفسه ومستعد لتقديم الاقتراح. ومن هنا يمكن القول من باب الإدراك المؤخَّر إن الرجل فى لحظات قلقة كان راضيًا عن اكتساح الإدارة المحلية واقتلاعها من جذورها، لكن الرجل بعد أن تدبر الأمر سلَّم بالدرس الذى يجرى تعلمه والخبرة التى يجرى استقاؤها من التاريخ، والتى مفادها أن المنظومة (ومن فى داخلها) لابد أن توافق على أى تغيير جوهرى يعتورها. وكان الرجل على استعداد للحلول الوسط مادام أن العدالة يمكن الحصول عليها من خلال المحاكم العليا. لكن اقتراح الرجل فاز بأغلبية صوت واحد، عند الساعة السابعة، وتلك ساعة متأخرة تمامًا لعقد أى اجتماع رسمى خلال عطلة نهاية الأسبوع فى تلك السنوات.

فى سكتو Sokoto لم يكن السلطان بصفة خاصة مسروراً بما يجرى: "هذا هو ما يحدث عندما نفقد السيطرة على خدامنا! هذا هو جزاؤنا!" أعرب أمير باوتشى عن شىء من الاستياء الأخلاقى، لكن ذلك كان مصحوبًا بشىء من الحذر نظرًا لأن هذا الكلام صدر على لسان مستشاره الخاص، وبعد الاضطراب الذى حدث فى اتحاد العمال فى الورشة التابعة للإدارة المحلية، تغلبت روح الدعابة عليه وتكلم عن الحاجة إلى اتحاد للأمراء. كانت هناك دلائل فى كثير من المناطق على وقاحة Caucanaci أولاد العبيد، الذين كانوا لا يعرفون ماذا يفعلون ولا أين يذهبون، وأنهم لم يكونوا على استعداد للإفصاح عما يدور فى أذهانهم. كان الضباط الإداريون المحافظون الأكبر سنًا، هم وبعض الضباط الإداريين صغار السن، الذين يهتمون بلعبة البولو Polo أكثر من اهتمامهم بالبرهام Perham، متعاطفين تمامًا مع السلطان، مخافة أن تنغمس أعداد كبيرة من الشماليين فى العملية التعليمية وفى التعليم على نطاق واسع: لكن السواد الأعظم من الضباط ومن المدرسين المحليين كانوا يعرفون أن ما سبق أن قاله المعلم أبو بكر كان صحيحًا، وأنه كان لابد أن يُقال بالطريقة التى قاله بها الرجل، وهذا يختلف عما لو قال كل من أمين كانو والمعلم سعد زنقر هذا الكلام، أن قُدر لهما أن يكونا عضوين شريفين. كانت طريقة أبى بكر فى الحديث جوهرية، إذا ما نظرنا إليها من منظور طبقة الموظفين. كان الذى يقلق طبقة الموظفين، يتمثل فى تشكك هؤلاء الموظفين فيما يمكن عمله، إن قدر أن يكون هناك شىء يمكن عمله ـ لكن ذلك الذى كانت طبقة الموظفين تتشكك فى حدوثه، حدث بصورة مدهشة فى تلك البيروقراطية ، الأمر الذى أدى إلى طمأنة السلطان هو والمصلحين المتدرجين.

كان السير إريك Eric تومبستون Thompstone يقترب من أواخر خدمته بصفته كبيراً للمفوضين، أو بالأحرى المفوض الرئيسى، وكان السيد/ شارود Sharwood سميث Smith، الذى كان يشغل منصب كبير الممثلين المقيمين فى كانو، ويتطلع إلى

إنهاء خدمته فى نيجيريا فى منصب الممثل المقيم فى سكتو، قد جرى إحضاره ليحل محل السير أريك تومبستون أثناء إجازته الذى ستدوم ثلاثة أشهر يمضيها فى بريطانيا. التقوا الحاكم العام فى ليجوس أثناء الجلسة التى عقدها المجلس التشريعى فى شهر سبتمبر، فى هذه الجلسة أوضح ماكفرسن أنه سيوافق على نوايا الإدارة فى الشمال مادام أن أبا بكر قد وافق معهم على ذلك. وهنا اندهش أبو بكر عندما اكتشف هذه السلطات الجديدة، وقد شعر الرجل بالامتنان لذلك عندما جرت طمأنته (وذلك على حد طمأنة بعض النقاد من بعض موظفى السكرتارية فى كادونا) إن "الأمور يجرى تنفيذها" أى أنه يجرى عمل شىء ما فى حقيقة الأمر. وبانتهاء هذا الاجتماع الكامل الأول مع شاروود قال أبو بكر له: "كل ما أريده هو حدوث شىء ما، وأن يحدث ذلك الشىء على وجه السرعة – وعندها سأكون سعيداً تماماً". وجاء حكم شاروود Shar-wood على الرجل، "هذا واحد من الرابحين!".

وهنا بدأت الخطط الخاصة ببرامج تدريب الحكم المحلى وتعليم رؤساء الأحياء هم وكتبتهم (على أدنى مستوى تقدمى من مستويات التنمية)، ومسئولى المحاكم المحلية وأشخاص آخرين. وجرى سحب اثنين من كبار موظفى الأحياء أصحاب الخبرة فى "الشمال المقدس" وفى "الحزام الأوسط" وهما على وجه التحديد: دوجلاس Douglas بوت Pott وكينيث Kenneth مادوكس Maddocks (الذى كان من قبل كاتباً فى المجلس التنفيذى برئاسة السير آرثر Arthur ريتشاردز Richards) جرى سحبهما من أحيائهما للقيام بجولة فى مقاطعات الشمال وجمع تحاليل مفصلة عن تنظيم سلطة من السلطات المحلية، وإلى أى مدى يجرى تطبيق الديمقراطية فى كل واحدة من هذه الوحدات. ويبدأ الرجلان مهمتهما على الفور، وبلا أى توجيه سوى الإشارة الغامضة التى مفادها أن المعلم أبا بكر كان يضغط من أجل المزيد من الديمقراطية فى وحدات الحكم المحلى، وأنهى الرجلان مهمتهما فى ستة أسابيع. لو قرأ هذان الرجلان خطبة أبى بكر تافاوا

باليوا قبل القيام بمهمتهما لعرفا جيداً أفضل النقاط التى يتعين عليهما البحث عنها. لم يكن مدهشًا فى ذلك الوقت، وفى عام يفتقر إلى المواصلات، وتداول محدود لصحافة غير كافية، ويفتقر أيضًا إلى نشرة أخبار من الإذاعة المحلية، وإدارة غابية متباعدة نفسيًا وانفعاليًا عن الدقة والتحرى السياسى والتشريعي، فى ظل كل هذه الأمور كان من الصعب على أى موظف ميدانى آخر فى الشمال، قراءة ذلك الخطاب الذى ألقاه أبو بكر، والذى يحظى حاليًا بثناء الناس وامتداحهم.

وعلى الرغم من ذلك، انتبه كل من مادوكس وبوت Pott إلى إجراء مقابلات شخصية مع الأمراء ومع المُعَلِّمين كل على حدة، ولم يقتصر ذلك على باوتشى وحدها، وجرى إيفاد المراسلين للتنبيه على الإقلال من الأعمال الورقية التقليدية، وعلى حتمية التقليل من التقارير التى تستهدف إرضاء لندن والتى تهيمن عليها السكرتارية من خلال السجلات المركزية، وعلى حتمية تعرف الموظفين الإداريين مرة أخرى من خلال تواجدهم الميدانى الفعال. فى إطار هذه الفلسفة، جرى إنشاء وظيفة تحت اسم مفوض المحاكم المحلية، لكى يضفى سمة الحرفية على الإشراف الإدارى وعلى أساليب عمل أعضاء المحاكم. وفى غضون ثلاثة أشهر، وقبل عودة تومبستون **Thompstone**، استطاع القائم بأعمال المفوض الرئيسى، الذى اشتهر فى أيامه الأولى بأنه (صاحب البنطال الحديدى – الذى لم يتجعد لأنه لم يعرف الجلوس مطلقًا) **Mai Wandon Karfe**، والذى صُوِّر لا للمرة الأخيرة، من قبل المرءوسين على أنه فارس شجاع يرتدى درعًا براقًا، ويطعن فى كل الاتجاهات من فوق جواده الأبيض من أجل الدفاع عن الشمال المصون ضد المهاجمين الذين يهجمون عليه من الداخل ومن الخارج. كان القائم بأعمال المفوض الرئيسى يشعر بالحرج فيما يقوم به من أعمال، واستشعر الرجل أن الأمر يدعو إلى "العار والخزى تمامًا" نظرًا لأن المبادأة جاءت من أحد المدرسين فى باوتشى، كما استشعر الرجل أيضًا أن المهادنة المستمرة لبعض زملائه الإداريين أصحاب

النفوذ، وقيام تلك المهادنة على الخوف من المجهول الذى يمكن أن يترتب على التغيير، كانت سببًا من أسباب الخمول وانعدام النشاط. وأحس المُعَلّم أبو بكر تافاوا باليوا بالرضا وعاد إلى موطنه بعد أشهر من الغياب. بل إنه كان يفكر أيضًا فى القيام برحلة إلى جومب Gombe بصفته ضابطًا للتعليم. واقع الأمر أن الرجل كان قرير العين ومرتاح البال ومنشرح الصدر فى ذلك الوقت. وحدث الشىء نفسه للسيد/ روبرت رايتس فى الخدمة المدنية. كانت مسألة كون أبى بكر ضابطًا إداريًا أمرًا مثيرًا لهذا الرجل.

الفصل الرابع عشر

الأشهر الأخيرة من العمل ضابطًا للتعليم

"العام هو مجرد يوم فقط، إذا ما كانت الحياة تمضى قدمًا"(*)

كان جيفرى بيتون Payton قد تقاعد فى سن مبكرة من منصبه كممثل مقيم فى مقاطعة باوتشى، نظرًا لأن وجوده فيما وراء البحار أدى إلى انفصام عرى زواجه: تحرر الرجل أيضًا من الوهم، وعندما نظر إلى الوراء استنتج أنه لا يزال يعرف اثنين فقط من مسئولى الإدارة المحلية الشرفاء - أمين خزانة باوتشى المحلية، المدعو المُعلم بابان Baban إنَّا Inna، والمعلم أبو بكر تافاوا باليوا. كان المعلم أبو بكر قد بدأ يتعرف السيد/ همفرى Humphery جيل Gill، الذى سيخلف جيفرى بيتون. لم تكن هذه العملية سهلة على كليهما: فقد زاد تحفظ أبى بكر نتيجة الخجل، وكان جيل محاميًا هادئًا، يلوذ بالصمت المريك خلف غليونه، وكان ذلك الصبر المربك ينتهى بتعليقات لها معنى ومغزى مفادها أن الغرباء قد وجدوا لأنفسهم متنفسًا. ومع ذلك، كانوا يلتقون ويتحدثون كل مرة بما معناه أن المُعَلّم أبا بكر عاد إلى موطنه قادمًا من سفرته إلى المجلس التشريعى ومن ترحاله إلى اللجنة، وأن الرجل بحب متبادل ظل مفتقرًا إلى العلاقة الوثيقة التى كانت تربط الرجل برتشارد Richard رايت Wright. كان همفرى جيل ينظر إلى أبى بكر على أنه صادق لا يعرف الرياء أو التكلف، لكنه كان يبلغ من

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا. وهو من ترجمة المترجم. (المترجم)

الجدية حدًا جعل همفرى يتساءل حول ما إذا كان الرجل يقترب من الأرض بما فيه الكفاية. وفى المقابل تعذر على أبى بكر اختراق القشرة الواقية التى تخفى وراءها هوة عميقة ومزاحًا جافًا. ولما كان عالم التعليم المحلى (الإقليمى) لا يزال يأسف لندرة زيارة ضابط (مسئول) التعليم للإدارات المحلية، فإن الممثل المقيم كان يندم لأن أبا بكر لا يحتل مكانه فى مجلس أمير باوتشى، تاركًا بذلك ضغوط التغيير فى ذلك المنتدى تأتى من قبله هو وضابط الحى، فى ظل مساعدة متواضعة من قبل نظرات مكبوتة وتعبيرات وجه مكبوتة أيضًا من قبل كل من رئيس الكتبة (الباشكاتب)، المدعو المعلم جاربا Gar-ba كافن Kafin مداكى Madaki إنا Inna أمين الخزينة المحلية.

كان المعلم أبو بكر قد جرى استبقاؤه بطبيعة الحال فى كادونا لحضور "اجتماعات مجلس الإدارة" بعد النجاح الذى أصابه الرجل فى الجمعية العمومية (على الرغم من استقالته من مجلس إدارة صحيفة جاسكيا Gaskiya فى شهر أكتوبر من العام ١٩٥٠)، واضطر الرجل بعد ذلك إلى السفر إلى ليجوس مرة ثانية لحضور اجتماع المجلس التشريعى. وفى ليجوس راح الرجل يطالب بقليل من التنمية للحضر ومزيد من التنمية للريف والقرى، التى سيؤدى فيها الدعم الذاتى والعمل الموجه إلى مساندة التمويل المركزى عن طيب خاطر، كان الرجل يرى أن الشريعة الإسلامية هى والفطرة السليمة على حد سواء تجعلان مقترح العضو الجنوبى أمرًا غير مقبول عندما يطالب بعدم انتظار أى إنسان رهن الحجز مدة تزيد على أربعة أسابيع انتظارًا للمحاكمة، وأشار أبو بكر فى شىء من التلميح إلى أن الأمراء لا يدفعون ضرائب مباشرة، وأيد الرجل أيضًا اقتراح السيد/ أونيما Onyeama بإنشاء بحرية نيجيرية، وجيش نيجيرى وقوة جوية نيجيرية، كما أيد الرجل أيضًا اقتراح السيد/ ألفان Alvan إيكوكو بالسماح للمدرسين بحرية الارتباط، فى ضوء سياسية الإرساليات التعليمية المسيحية التى تراعى عدم إنشاء نقابة للمهنة.

كان وزير الخارجية البريطاني قد وافق على التقرير الدستورى العام الصادر عن المؤتمر من حيث المبدأ، وأحال المسائل المعلقة، بما فيها تقارير الأقليات الأربعة، إلى المجلس التشريعى لإصدار قرار محلى بشأنها. وتقرر أيضًا أن تكون الدخول فى ضوء الاحتياجات وليس فى ضوء الاستنتاجات، وألا تكون هناك امتيازات بغير هذا الطريق. وعندما تحرك الأمين العام طلبًا للموافقة على توصيات لجنة الانتقاء التى تطالب بأن يكون التشريع الجديد أحادى المجلس، وتوصى أيضًا باستمرار ترؤس حاكم نيجيريا للمجلس التشريعى الحالى، وأن تكون ليجوس جزءًا من الإقليم الغربى (وذلك على العكس من كونها مدينة عالمية) من الناحية الإدارية، وأن الأعضاء المعينين فى المجلس يمثلون "المصالح الخاصة"، عندما تحرك الأمين العام طلبًا للموافقة على هذه التوصيات، لاحظ الرجل أن الأعضاء الشرقيين كانوا يحيون الأعضاء الشماليين على "روحهم الوسطية الجديدة وصداقتهم". وهنا رد أبو بكر قائلاً: إن من الواضح أن الأديان تريد المضى قدمًا سويًا كشعب واحد، يمكن أن يبقى على هذه الوتيرة، ووجه الرجل الشكر إلى أهل الشرق وإلى كل من ساهموا فى اختيار اللجنة. ويبدو أن تلك كانت فرصة لإظهار اللباقة والدبلوماسية فى الخطاب العام.

من ناحية أخرى، جرت فى اليوم الخامس من شهر ديسمبر من العام ١٩٥٠ الميلادى، جدولة تقرير لجنة الانتقاء المشتركة، الذى احتوى على مقترح مستفز يتعارض مع موافقة المجلس التشريعى على ٦٨ مقعد شمالى، و٦٨ مقعد جنوبى وحوالى ١٢ مقعداً "للمصالح الخاصة" ويقترح أن يكون فى المجلس التشريعى الجديد ٨٤ مقعداً للشمال، ٢١ مقعداً من الشرق والغرب، كانت اللجنة المشتركة قد اقترحت أيضًا أن الجمعية الشمالية تحتاج فقط إلى ٦٦ عضواً وليس ٩٠ عضواً. وقد أسفر الجدل الذى دار حول هذا الأمر عن إحياء المعلم أبى بكر تافاوا باليوا لشكوكه العرقية أثناء المناقشة الإقليمية للميزانية. لم تكن تلك المرة الأخيرة، التى اضطرت أبا بكر، بعد المناقشة الجزئية والموافقة الجريئة أيضًا على تغيير من التغييرات الرئيسية، وإلى التفكير فى

التراجع فى مواجهته للنتائج. وهنا نجد أن قرارات وزير الخارجية تتجاوز أفكار الشمال وتتخلى عنها، وسرعان ما أصبحت تلك الأفكار فى عداد النسيان.

برز فى الحوار شيء غير متوقع ذكّر أبا بكر بعضو البرلمان البريطانى، الذى سبق أن قال ذات مرة، إن الحل المتاح لنيجيريا يتمثل فى فتح أراضى المقاطعات الشمالية "غير المحتلة" أمام أهل شرقى نيجيريا، وقد حدا ذلك بأبى بكر إلى تكذيب السيد/ أس.أو. جيمس James، العضو المعين لتمثيل الجنوبيين فى جمعية الشمال، بأن راح يصف مفصلاً التناقضات التى بين البنايات والأجواء المحابية "للأحياء التى يقيم فيها الكتبة" فى بلدان الشمال وبين الأحياء التى يقيم فيها "الهوساويون" بين طوائف الجنوب، التى لا يوجد فيها ممثلون لمصالح الجنوب فى الجمعيات الإقليمية أو مجلس الأحياء. وأعرب الرجل عن أسفه لمراجعة الدستور الذى وضعه ريتشاردز Rich-ards قبل أن يؤون الأوان، وبخاصة أن الشماليين كانوا قد بدأوا يتفهمون ذلك الدستور. أعرب أبو بكر عن مخاوف كبيرة، وكتب يقول فى هذا الخصوص: **"سيكون الدستور الجديد مزحة خادعة، ولن يكون بركة للشمال. أنا متبرم من هذا الأمر برمته، وكلما عجلت بالخروج منه كان ذلك أفضل"**. فى بعض المناقشات والحوارات الأخرى طالب الرجل بتمديد مساحة زمنية محددة للخطب المحالة إلى الجمعيات الإقليمية باعتبارها مناطق للتدرب على التعامل مع المجلس التشريعى والمؤتمرات، وتقدم الرجل باقتراح مفاده أن المتعلمين الذين يتحدثون الإنجليزية هم الذين ينبغى لهم تمثيل الشمال. من المهم أن نعرف، أن أبا بكر كان متشككًا فى مسألة الحصول على رد من السكرتير المالى (السيد/ إيه.جى.نوت Knott). كان أبو بكر قد سبق له التساؤل حول مسألة إمكانية توجيه الدعوى إلى شركة شل للقيام ببعض الأعمال الجيولوجية فى مقاطعات الشمال، وقيل للرجل إنه لا توجد دلائل أو علامات يمكن أن تجعل الشركة تذهب للبحث هناك. وبدءًا بهذه المعاملة الجافة غير المتوقعة من

المبـدع والمنفذ فـى دائرة الحـوار فى بـاوتشى، بدأت ثقـة الرجل تتـزعـزع فـى المـمثلين الماليين كلهم، وترسخ ذلك فى نفس الرجل إلى أبد الآبدين.

أبلغ أبو بكر ضـابـط الحى الإدارى أنه على الرغم من العقـود الطويلة من البـحوث الجيـولوجيـة التـى لم تسـفر عن شىء فى المناطق البـعيدة عن مـناجم القصـدير، وعلى الرغم أيضًـا من الدلائل التى حصلوا عليـها من الأبيار التى حفروها فى مـناطق أخرى، فإنه لا يصـدق أن الشـمـال لا يجلس على مصـادر لم يجر كشفها، وهـى كلها من المعادن الجديدة، يبدو أن أبا بكر كان يظن أن السكان المساكين الفقراء الذين ينتشرون فوق مساحات من الأرض قد تجعلهم أثرياء، على الرغم من محاولة الباحثين إخفاء مثل هذه الثـروات. وأخبـر أبو بكر أيضـًا روبرت **Robert** رايت **Wright** عن اكتـئـابه السـيـاسـى، وعندمـا تدبر رايت **Wright** العـروض الحـتـمـيـة التـى تأتيـه من المكتب الأعلى، دون أن يتطرق ذهنه إلى النهاية غير المتوقعة، أحس بأنه يتعين عليه إقناع أبى بكر بالمساهمات الضـرورية التى يتـعـين عليـه هو وحـده القيـام بهـا، والمؤسف أن الرجل أقنع أبا بكر بمهمته التى ينبغى عليه المحافظة عليها طوال حياته.

بينما كان كل من بوت **Pott** ومادوكس **Maddocks** يعلنان ما توصلا إليه على الملأ على شكل جداول، وفى الوقت الذى كانا يعلقان فيه همسًا على التناقض فـى الأساليب والطاقـة التى فى كـثيـر من وحـدات الإدارة المحليـة التى زارهـا على عـجل، جـرى نقل السير هـوغ **Hugh** فوت **Foot** من ليـجوس إلى قيادته الأولى المستقلة، مـع حصـوله على لقب كابتن **Captain** جنرال **General**. ليصبح بذلك نائبًا لرئيس جـاميكا، لم يكن قد مـر على السـيـر هوغ فـوت فـى نيـجيـريا سـوى أربـع سنوات، ومـع ذلك ترك الرجل انطبـاعًـا كبيرًا لدى سياسيى الجنوب،وأصبح مرموقًا عند الصحفيين البريطانيين الذين كانوا يسلمون بأن علاقاتـه الأسرية السـياسـية المميزة فى الوطن الأم، هـى التـى سـاعـدت على نجاحه. هـذا التقييم الظالم لرجل كان يتقـاسم مـع أسـرته وعائلته شـخـصـياتهـا القـوية وفطنتـهـا وذكائهـا، ترتبت عليـه نتيـجـة غريبـة قللت من الثنـاء الذى كالـه المعلقـون لأصـالـة

ذلك الرجل وقدرته على المبادأة: كان الكثيرون من هؤلاء المعلقين يؤثرون الحديث عن الدستور والضغط الذى مارسه هوغ فوت، نائب ماكفرسن من أجل الدخول فى عملية النجرنه Nigerianization، لكن على الرغم من عمل الاثنين سويًا وبطريقة وثيقة فإن الأمر كان مختلفًا تمامًا. أما ماكفرسن Macpherson، الذى أدرج الدكتور أزكوى ضمن لجنة النجرنة، والذى وافق على ما قاله جنراله General ويستلر Whistler، فكان بمثابة الزعيم المغناطيسى الذى لم تكن تكرهه سوى قلة قليلة من الناس، فى حين كان هوغ فوت المحاور الشعبى الماهر والمشرف الأعلى الذى كان يحظى بالمزيد من الصور التى يلتقطها له المصورون. لم يكن أبو بكر ينظر إلى هذه العلاقة بغير هذا المنظار، وكان يقدر الرجلين تقديرًا عظيمًا باعتبارهما من الأقوياء، لكنهما كانا إداريين مختلفين.

عقد حزب المؤتمر الشعبى الشمالى مؤتمره فى نهاية العام فى بلدة جوس Jos. ولما كان الحزب فى ذلك الوقت لا يزال، من الناحية النظرية، مجرد هيئة ثقافية فقد جرى عزل كل من المعلِّمين سعد Sa'ad زنقر Zungar، أمين كانو، وأبى بكر زكوقى Zu-kogi من اللجنة التنفيذية، نظرًا لأنهم كانوا كلهم أعضاء فى اتحاد العناصر الشمالية التقدمى بقيادة أبا Abba ميكوارو Maikwaru، كما كان الناس ينظرون إليهم باعتبارهم راديكاليين خطيرين، أرادوا لحزب المؤتمر الشعبى أن يصبح حزبًا وليس مجرد هيئة ثقافية. وجرى أيضًا طرد كل من المعلِّم إينو Inuwa وادا Wada وبقية أعضاء وفد كانو من المؤتمر، الذى صوت ضد العضوية المزدوجة فى التنظيمات المنافسة - فى ذلك الوقت، كان المعلم أمين كانو مثلما لاحظنا، قد استقال من الخدمة فى الحكومة فى مركز تدريب مارو Maru الأولى فى مقاطعة سكتو، وعاد إلى كنو. زاد اكتئاب المعلم أبى بكر، وعلى الرغم من تشجيع رايت Wright له بألا يفقد الأمل، وعلى الرغم أيضًا من المساندة التى لقيها من المعلم جاربا Garba كافين Kaffin ماداكى Madaki، فإنه ظل منكبًا على عمله المكتبى ومزرعته وهواية الرماية التى كان يعشقها. ونجد أن الرجل

لم يشارك بأى شيء فى الاجتماع الذى عقده المجلس التشريعى فى شهر مارس، على غير العادة، لمناقشة الميزانية. يزاد على ذلك أن تقاعد الدكتور آزكوى هو الآخر وعودته إلى خيمته كان أمراً مثيراً يتسم بالبلاهة الحمقاء:

فقد أعلن الدكتور آزكوى فى المؤتمر الذى عقده اتحاد ولايات الإيبو Ibo فى بلدة إينوجو فى بداية العام أنه لا يمكن له أن يفرض أو يملى على الشعب شيئًا هو ليس مستعداً له، وأعلن أيضًا أن النيجيريين ليسو مستعدين للسير فى الطريق الذى تسير فيها الصين، والهند، وبورما، ومصر، وإندونيسيا، وأعلن أيضًا أنه يعتزل السياسة النيجيرية مدة خمس سنوات ـ وبناء عليه لم يعد للمجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، الذى هو من صنعه، أى وجود، وبالتالى لم يكن هناك أى حزب سياسى فى نيجيريا. هذا يعنى أن "السياسة" النيجيرية كانت مجرد اتجاهات إقليمية وقبلية ومجرد أشخاص أيضًا. ومع ذلك، عاد الدكتور آزكوى إلى السياسية من جديد بسبب الرعب والذعر الذى سببه لأتباعه، واستجابة أيضًا للرضا الصريح الذى تحقق لمنتقديه بسبب استقالته. وساد من جديد الوضع السابق لاستقالة هذا الرجل. لكن أناسًا كثيرين فى نيجيريا، ومن الأفارقة والأوروبيين على حد سواء، استمروا فى تساؤلهم عن أسباب عدم قيام أى حزب وطنى فى نيجيريا، فى حين كان الحزب الشعبى الشيوعى، فى ساحل الذهب، يحظى بمساندة واسعة فى سائر أنحاء الريف، علمًا بأن ذلك الحزب كانت له نكهة حضرية.

طوال شهر فبراير جرى انتخاب الدكتور نكروما Nkrumah (الذى كان لا يزال فى السجن بسبب اشتراكه فى المظاهرات) ليحل محل السيد/ جبدما Gbedemah بعد أن كسب موقعًا آخر، وأخلى الحاكم، السير شارلز Charles نيل Neil آردن ـ كلارك Ard-en - Clarck، سبيل الرجل لينضم إلى الحكومة باعتباره "الزعيم المالى والأعمال" فى الجمعية العمومية للحزب الشعبى الشيوعى. وقد أدى هذا العمل إلى تظاهرات مسرحية تعبيراً عن الفرح فى شوارع أكرا Accra، لكن هذا العمل كان يعدُ "قفزة

سخيفة ومضحكة إلى الأمام وغير متوقعة تماماً من السياسيين فى ساحل الذهب" فى نظر أحد المسئولين الاستعماريين الكبار فى أضعف الأحوال (وفى نظر عدد كبير من الإداريين، والأهالى القريبين من تلك الشوارع) وبذلك يسقط قناع التنكر الإفريقى، ولم يكن بوسع أى أحد القول، على سبيل الاستعادة من جديد، إن الحكم الذاتى السيلانى كان يعد وقفه على طريق مسيرة التحرر من الاستعمار. وكان من بين تصريحات الدكتور نيكروما ذلك التصريح الذى ينادى بعدم وجود أى شكل من أشكال مفوضى الأحياء، وبعد ذلك بوقت قصير توقف تجنيد البريطانيين للعمل فى ساحل الذهب، فى لندن قام السيد/ أتلى Attlee بإدخال "تجميع سائب" من الإدارات الحكومية، "وأصبح" بمقتضاه المكتب الاستعمارى، خاضعًا لوزارة الخارجية، واهتز كيان هذا المكتب الاستعمارى نتيجة هروب اثنين من دبلوماسيى المستوى الوسيط هما ماكلين Maclean وبورجيس Burgess، إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية. قويت الملة (الطائفة) الإنجيلية Anglicanفى سائر أنحاء الدنيا عندما جرى إنشاء منطقة غرب إفريقيا بحيث تكون تحت زعامتها الدينية. وفى نيجيريا جرى تعيين الدكتور صمويل Samuel مانو Manuwa مديراً للخدمات الطبية، وبذلك يكون هذا الرجل أول نيجيرى يتولى مثل هذا المنصب منذ القرن التاسع عشر، وحصلت كانو من الحكومة على مهبط جديد للطيران الدولى، كما حصلت أيضًا من إداراتها المحلية على خدمات حافلات ومسجد جديد، قامت بتصميمه هيئة تنمية ما بعد الحرب، وقامت سلطات باوتشى بدراسة التقرير الذى أعدته اللجنة عن الثروة الحيوانية النيجيرية، لكنها انشغلت أكثر بالأخطار الجديدة الناجمة عن الجراد القادم من أقصى الشمال، فى حين قرأ الموظفون الزراعيون والإداريون باهتمام بالغ عن مسألة ابتكار خيط مناعى جديد هو "الإرديل" Ardil، الذى جرى صنعه من الفول السودانى ليحل محل النسيج المصنوع من الصوف. ويصل السيد/ أرثر بنسون، خلف السيد/ فوت فى بداية شهر مايو. لم ينس هذا الرجل أنه تعلم مهنته عندما كان فى الغابة الروديسية الشمالية (وسجل الرجل أيضًا

أنه لم يعرف فى حياته كلها سوى اثنين من "كبار الرجال"، فقد خدم الرجل تحت إمرة واحد منهما وعمل مع الآخر: هذا الآخر كان هو أبو بكر تافاوا باليوا.

عقد اتحاد العناصر الشمالية التقدمى مؤتمره فى شهر أبريل وواصل هجومه على التأثير المميت الواقع على الشمال من أمرائه، ومواصلتهم لحكمهم من خلال "مواثيق أسرية فولانية محكمة" وذلك على الرغم من التشكيلة العرقية والتعليمية الكبيرة التى تتمتع بها البلاد فيما بين الرؤساء Chiefs. وفى هذا المؤتمر جرى انتخاب المعلم أمين كانو لمنصب نائب الرئيس. وفى الوقت نفسه كان هناك "أسبوع تعليمى" رسمى فى فرع حزب المؤتمر الشعبى الشمالى فى باوتشى، وقد تميز ذلك الأسبوع بمناقشة عامة للدستور الجديد. من سوء الطالع، أن المُعلّم سعد زنقر الذى كان منظمًا لذلك الأسبوع، فشل فى إبلاغ كل من (رايت) Wrightضابط (مسئول) التعليم الإقليمى أو ضابط (مسئول) الحى الإدارى (الذى كان مسئولاً عن القسم بصفة مؤقتة، والذى كان ملازمًا لفراش المرض بسبب حمى الملاريا) بأنهما جرى الحجز لهما ليكونا متحدثين زائرين فى ذلك الأسبوع. وقد أدى فشل هذا الأسبوع إلى سوء فهم جديد بين المعلم سعد زنقر والإدارة. لم يكن لدى الدكتور ديكّو Dikko، الموظف الطبى الإقليمى المسئول فى باوتشى ورئيس المؤتمر الشعبى الشمالى، أى علم بهذا المقترح، وتأوه أبو بكر ألمًا عندما قيل له: إن ذلك حدث عندما كان يزور ضابط الحى الإدارى، عندما سأله عن المعنى الحقيقى لكلمة avalanche (التى معناها "التيهور" أو الانهيار المفاجئ)، وكانت تلك الكلمة مألوفة وسمع عنها أول مرة بعد أن قرأها فى إحدى الصحف، وعرف أنها فى واقع الأمر تصف كارثة طبيعية مأساوية. وانشرح صدر الرجلين للحظر الذى جرى على الواردات بالدولار، وكان ذلك يعنى أن الأمير يتعين عليه أن يقتنع، لا بالسيارة الشفروليت التى يرغب فيها، وإنما بالسيارة البريطانية من طراز أوستن Austun شيرلاين Sheerline، باعتبارها أحدث السيارات التى وصلت إليه، حدث ذلك فى الوقت الذى جرى فيه تأميم شركة الزيت البريطانية الإيرانية فى إيران، الأمر الذى أدى إلى

ارتفاع أسعار البنزين والبترول إلى مستويات لم يسبق لها مثيل إذ بلغ سعر الجالون ٢ شلن وعشر بنسات.

تهلل أبو بكر بشرًا عندما علم أنه هو والمعلِّم بللو Bello كانو Kano جرى تعيينهما من قبل المفوض الرئيسى لقبول دعوة صاحبة الجلالة لهما لتمثيل المقاطعات الشمالية، وذلك بالإضافة إلى اثنين من الشرق، واثنين من الغرب وشخص واحد من ليجوس ليكونوا ضيوفًا فى احتفالات بريطانيا فى شهر يوليو من العام ,١٩٥١ حضر هؤلاء الممثلون الحفل الذى أقيم فى الحديقة الملكية (على الرغم من أن الملك جورج السادس نفسه كان مريضًا مرضًا شديدًا ولم يحضر الحفل)، ثم قام هؤلاء المندوبون بالهرب إلى داخل القصر بصحبة المندوبين الآخرين عندما هبت عليهم العاصفة، ليجدوا فى انتظارهم على مدد الشوف مؤن مزدوجة من الأوانى الفخارية والكتل. حضر الرجلان أيضًا الحفل الذى أقامه وزير المستعمرات، كما حضرا أيضًا حفل شاى مع رئيس الوزراء، وتمتعا أيضًا باستعمال سيارات الصالون الجديدة واستخدامها. وقام أبو بكر تافاوا باليوا بزيارة الأراضى الوسيطة وإدنبره Edinburgh، كما تفرج الرجل أيضًا على هوائى تليفزيونى لاتحاد الإذاعة البريطانية، جرت إقامته على تل أسكتلندى بواسطة شركة كيرك Kirk أو O شوتس Shotts. وعلى الرغم من الفشل الذريع من جانب سكايلون Skylon فى تحدى برج إيفل، وعلى الرغم أيضًا من المظهر غير الواضح لمبانى بنك جنوب لندن هى وحدائق باترسى Battersea، فإن الرجل استطاع أن يتبين أن بريطانيا كانت تحاول على المستوى الرسمى أن تبدو من جديد أنها بلد سعيد ينظر إلى الأمام ويتطلع إلى المستقبل. وتبين أبو بكر كيف أن الدول التى خربتها الحرب بدأت تبرز وتطلع من جديد إلى المستقبل. وجرى انتهاز هذه الفرصة لعقد مؤتمر استعمارى بريطانى تحدث فيه كل من السيد/ آتلى Attlee والسيد/ جريفث Griffths، كما تحدث فى ذلك المؤتمر أيضًا كل من السيد/ باتريك Patrick جوردون - ووكر، وإيمانويل شنويل Shinwell وهربرت موريسون، وكبير الموظفين الإمبرياليين

ومستشار خزانة الدولة. كان أبو بكر متحمسًا فى الرسائل التى أرسلها إلى وطنه، للزيارة الخاصة التى قام بها، والتى انتهت بقيام الرجل بزيارة والدى رايت Wright وأقاربه في بلدة واروبك Warwick، وتمتع أبو بكر أيضًا بمنزل هذه العائلة، والحيوانات الأليفة التى فى حديقة المنزل. أبلغ أبو بكر أحد الصحفيين أنه كان يتعجب من عدم حظوة الدستور النيجيرى بالمزيد من النشر والإعلان فى بريطانيا، لكن نظرة الملكة إلى موقف نيجيريا من الصناعات البريطانية، كانت نظرة تقدير وإعجاب، وعلقت من منظور سياسى مختلف على "التقدم الذى حققته نيجيريا" خلال فترة وجيزة بدءًا من العام ١٩٠٠".

بينما كان أبو بكر تافاوا باليوا فى بريطانيا، قام كل من الدكتور آزكوى، والسيد/ مبادوى Mabadiwe ومازى Mazi مبونو Mbonu أوجيك Ojike وبعض آخر من مندوبى المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى بالمرور عبر باوتشى فى مهمة تتعلق بمؤتمر للحزب فى كانو Kano، قام فيه الطبيب الماهر المدعو ميخائيل آى أُكبارا Okpa-ra (الذى سبق أن تخرج فى يابا Yaba فى العام ١٩٤٣، وانضم فى العام ١٩٥٠ إلى حزب إفريقيا الجديدة قصير الأجل) بإحداث بصمة خاصة به هو عندما قدم البيان الصحى لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى. وفاجأ المُعلم سعد زنقر رئيس الحى الإدارى (الذى جرى تمرير تقريره عن الزيارة إلى كادونا، وأدى إلى لفت انتباه المفوض الرئيسى): وعلى الرغم من تاريخ الرجل الماضى، رفض سعد زنقر لعب أى دور فى الترحيب بالمندوبين أكثر مما تحتمه أدبيات الموضوع وذلك من باب مراعاة تقاليد الماضى والحفاظ عليها، قال سعد زنقر: إن التنظيم الذى يسانده حاليًا، أى حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، لا يمكن أن يمد يد العون أو المساعدة أو التعاون إلى المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى وبخاصة أهدافه ومراميه السياسية، نظرًا لأن معركته الأولى كانت مع الأمية فى المقام الأول، وراح الرجل يثبط همم موظفى الإدارة المحلية ويثنيهم عن شراء بطاقات المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، باعتبارها شيئًا

منبوذًا منذ زمن بعيد. كانت هناك بعض المصاعب فى مسألة العثور على الخيول المطلوبة، حتى يمكن مشاركة الشمال فى الاستعراض الذى سيقام: وقد باءت بالفشل جهود الجنوبيين المقيمين الذين كانوا يحاولون تنظيم الاستقبال الرسمى، إذا ما ثبت أن الهدف من ذلك الاستعراض هو التقليل من شأن العرض الذى قام به الأمير فى اليوم السابق بمناسبة الاحتفال بالعيد الصغير (أى عيد الفطر) - وبعد أن جرى إحضار حصانين متهالكين، وفى وجه المعارضة الشديدة، قام سعد زنقر بنفسه وقرر إبعاد هذين الجوادين. تكلم الدكتور آزكوى كلامًا طيبًا مع الجماهير التى كانت خارج غرفة القراءة، تكلم عن موضوع الوحدة وراح مترجمه يوشى كلامه ويزوقه بموضوع الهوسا، وعبر المعلم سعد زنقر عن استيائه من الفقرات المحرفة. وعلق أبو بكر تافاوا باليوا بعد ذلك قائلاً: إنه إذا لم يكن بوسع الثمانمائة جنوبى المقيمين فى باوتشى الحصول على فرع من أفرع حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، فإن البلدة لن يكون لديها ما يقلقها أو يؤرقها.

فى الوقت نفسه، اعتذر أبو بكر أيضًا عن عدم حضوره الاجتما ع الأخير الذى عقدته الجمعية العمومية القديمة، التى انتقل إليها مستشار سكتو السياسى الرئيسى، فى ضوء شروط جرى الاتفاق معه عليها قبل سفره إلى لندن، وتشكيل لجنة اختيار مشتركة تقوم بمناقشة تقرير بوت - مادوكس مناقشة شكلية، لكنها فى واقع الأمر كانت تواجه ببسالة الاقتراح الشهير الذى تقدم به أبو بكر. دافع مستشار سكتو السياسى الرئيسى **Sardauna** عن تقاليد الحكم الفولانى باعتبارها تقاليد ديمقراطية ودينية، وأنها أسلوب من أساليب الحكم التى لا تجدى فتيلاً إذا ما غابت عنها الشورى، وقال أيضًا: إن هذا النظام يرحب بالتغييرات غير الجذرية. وقال المستشار السياسى أيضًا إن اللجنة ينبغى أن تحتوى على عضوٍ واحدٍ منتخب ورئيس واحد من كل إقليم من الأقاليم. وعرَّج أبو بكر عند عودته إلى موطنه لينضم إلى اللجنة باعتباره العضو الممثل لولاية باوتشى. كان زملاء أبى بكر فى تلك اللجنة هم: شتيما **Shettima** كاشيم **Ka-**

shim، ووالى Wali برنو Borno، ووالى بطا Bida بالإضافة إلى مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna. كان اهتمام هذه الهيئة، أو اللجنة بالأحرى، منصبًا بصفة أساسية على تقوية مجالس الأحياء التى أصبح كل من فرع من الأمانة المالية هو والإدارة المحلية يسيطرون عليها بالفعل، أو بالأحرى على الأرصدة المخصصة لمجالس الأحياء (كانت تلك الأرصدة أو المخصصات قد جرى مؤخرًا إدراجها ضمن مخصصات الغالبية العظمى من الخزانات المحلية لاستخدامها فيما يسمى مشروعات التحسين الخاصة برئيس الحى)، كما حولت اللجنة اهتمامها أيضًا إلى إنشاء "مجالس خارجية" لتكون بمثابة حلقة ثانية من حلقات الهيئات الاستشارية، وذلك من باب تقريب الرأى الشعبى من رأى "مجالس الرؤساء" (الداخلية)، وتطرقت اللجنة أيضًا إلى مسألة التدريب وشروط الخدمة الخاصة بالمستخدمين والموظفين فى الإدارة المحلية، وبخاصة كل ما يتعلق بمسألة الرشوة والقضاء عليها. أدى ذلك التحرك إلى التشكيك فى زعماء حزب اتحاد العناصر الشمالية الذين لم تكن لديهم خطط سياسية محددة ومدونة فى ذلك الوقت، وتهدف إلى إحداث تغيير دقيق فى آليات أى مستوى من مستويات الحكم.

ولما كانت التغييرات الدستورية هى والمشاغل الإدارية المتعلقة بالتغييرات الجذرية مثل القوائم الانتخابية فى المدن، أمورًا أكثر إلحاحًا، فقد مر عام كامل دون أن تجرى بصورة رسمية مناقشة ولو توصية واحدة من توصيات اللجنة المشتركة، وقبل ذلك بعامين كان يجرى سن كل شىء على أنه قانون أولى أو مبدئى، لكن جرى توضيح الأمر على الفور أمام موظفى الأقسام ومسئولى الإدارة المحلية الميدانيين، من خلال المنشورات الدورية ومن خلال النشاط العام، من خلال الإيحاء بأن التغيير والإصلاح اللذين وردا فى "الخطبة" كانا قد بدءا بالفعل. فى باوتشى على سبيل المثال، كان لورانس Laurence جايلز Giles ("وهو من الآفو Afo") بمثابة المفكر المتحمس (الذى يمارس لعبة البولو) عند واحد من كبار رؤساء الأحياء، وكان الرجل متخصصًا فى اللغات المحلية والتاريخ الثقافى، الأمر الذى خدمه كثيرًا فى مؤسسة جاسكيا

الصحفية. وجرى فى إدارة التعليم الحكومى ترقية ثلاثة من مدرسى الشمال إلى مناصب "إشرافية"، على الرغم من عدم حصولهم على مؤهلات جامعية، وقد جرت تلك الترقية بناء على سابقة حدثت فى الحكم المحلى أفاد منها المعلم أبو بكر فى اليوم الأخير من جلسات المجلس التشريعى، عندما علق تعليقًا قيمًا إلى كل من ساعدوا فى تنفيذ ذلك الدستور ووضعه موضع التنفيذ، لكن الرجل أشار فى ثنايا ذلك التعليق إلى بعض النقاط المعلقة التى لا تزال محل خلاف ونقاش:

"إذا كنا بحكم جهلنا، قد دعينا إلى الموافقة على شىء، ووافقنا من خلال هذا الجهل أيضًا على هذا الشىء، فنحن ملزمون، فى تقديرى، بالتمسك بكلمتنا. حسن، قد يكون ذلك خطأ من جانبنا، لكنى أُحَذِّر أعضاء المجلس بأننا يتعين علينا الحرص على عدم خلق انطباع خارجى، يوحى بأن نيجيريا لا تتمسك بكلامها".

اقترح أبو بكر إيجاد طبقة تنفيذية جديدة بين الطبقتين الكتابية والإدارية، كما اقترح إيجاد طبقات أخرى مماثلة فى الإدارات الفنية فى الأماكن الأخرى، على أن تقوم تلك الطبقات بردم الفجوة أو سدها التى كانت تباعد دومًا بين المستوى الأعلى (الذى لا يزال ستة أسباعه من الأوروبيين) والمستوى الإفريقى الأدنى، لكن الرجل صوَّت ولم ينجح، لصالح الدكتور آزكوى، ضد جعل بدل الاغتراب تعويضًا يصرف عند التقاعد.

اجتاز المرشحان النيجيريان الشابان الأولان، فى أواخر فصل الصيف، امتحانات الدخول التى أهلتهما للالتحاق بالكلية الحربية الملكية، ساند هيرست ـ Sandhurst. هذان الشابان هما زكريا Zakariya ميملارى Maimalari وعمر Umar لأوان Lawan، وجرى أيضًا فى حوض السفن فى ماكوردى Makurdi تدشين أول قارب يصل طوله إلى خمسة وعشرين قدمًا، ولقى ٣٣١ من البشر، معظمهم من الأطفال، حتفهم فى حريق مروع شب فى أحد دور السينما فى كانو، الأمر الذى تسبب فى المزيد من القلق من كثير من المسئوليات الاجتماعية المناطة بسلطات الإدارة المحلية الشمالية، قام

أيضاً إدارى فرنسى كبير من غرب إفريقيا بزيارة باوتشى قادماً إليها من داكار Dak-ar، كما زار هذا الإدارى أيضاً أربعة مدن شمالية أخرى لدراسة إدارة الأقسام فى الأراضى البريطانية، وولد الرجل لدى كل من أبى بكر وضابط الحى الإدارى انطباعاً مفاده أن الرجل لم يصدق أن أية قوة استعمارية تستطيع مقاومة الضغوط الخارجية المعادية للاستعمار، حتى وإن كانت الشعوب الاستعمارية تساند حكومتها بطريقة علنية وصريحة، وجاء ترتيب مركز تدريب باوتشى الأوَّل فى منتصف مائدة النجاحات التى حققها المدرسون الذين تخرجوا فى ذلك المركز، فقد نجح فى ذلك المركز تسعة عشر متدرباً من بين إجمالى يقدر بحوالى خمسة وعشرين متدرباً، وجرت أيضاً تجربة أول بئر من أبيار البترول من منطقة أويرِّى Owerri، بواسطة شركة شل داركى D'Arcy للتنمية البترولية (وجرى التخلى عن تلك البئر باعتبارها بئراً جافة عند العمق ٢٥٠٠ متر)، وجرى أيضاً وضع خطة لأول سلسلة من الصنادل الناقلة للبترول فى نهرى النيجر وبنيو Benue إلى منطقة جاروا Garoua فى الكاميرون الشمالية الفرنسية، هذه السلسلة من الصنادل الناقلة للبترول جرى التخطيط لها من قبل تجمع من الشركات. مكوَّن من شركة شل، سكونوى ـ فاكوم، وشركة إفريقيا المتحدة، وقدم الملك فاروق، ملك مصر، ثلاثين منحة للدراسة فى الأزهر، فى القاهرة، كان سياسيو الشمال أكثر شوقاً وتحمساً من البريطانيين العاملين فى مجال التعليم فى ذلك الوقت، بقبول تلك المنح، وجرى السماح بفترة أسبوعين لتسجيل الناخبين النيجيريين فى القوائم الانتخابية ليجرى عرضها بعد ذلك على الناس لمدة ثلاثة أشهر.

جرى اغتيال الملك عبد الله، عاهل الأردن، وبعد ذلك بفترة قصيرة جرى أيضاً اغتيال السير هنرى جورنى Gurney، المندوب السامى فى الملايو، بأيدى إرهابيى الغابات، وقد أدى هذان الحادثان إلى إرباك كل من الأمراء النيجيريين والضباط الإداريين.

وجرى أيضًا عقد اجتماع فى شلالات فيكتوريا لمناقشة مسألة إقامة اتحاد فيدرالى إفريقى من كل من درويسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية ونياسلند Naysa-land. ووُقِّعت فى تلك الأثناء معاهدة السلام مع اليابان. وفاز لتون مرجاى Margai فى الانتخابات التى أجريت فى سيراليون، واستقلت ليبيا أيضًا فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر. كان حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، قد عقد قبل هذه الأحداث، اجتماعه السنوى فى مدينة كانو Kano، متطلعًا بذلك إلى تقوية زعمه الذى مفاده أنه أصبح حزبًا على مستوى الأمة كلها. كانت لجنة هكس Hicks الخاصة بتحديد الإيرادات، والتى تشكلت بعد موافقة الحكومة البريطانية على مؤتمر إيبادان وعلى الإصلاحات الدستورية، قد أوضحت أن الشرق النيجيرى كانت فيه عشرون مدرسة ثانوية لكل مليون من البشر، وكان فى الغرب النيجيرى ست مدارس ثانوية لكل مليون من البشر، أما الشمال فكانت فيه ٤, ٠ مدرسة لكل مليون من البشر: وكان هكس قد أوصى "بمساعدة أو بالأحرى منحة خاصة لمرة واحدة، مقدارها ٢ مليون جنيه إنجليزى للشمال لتعويضه عن "العجز فى المعدات". وفى ظل هذه الظروف جرى استبدال الخطة النيجيرية العشرية التى وضعت فى العام ١٩٤٥ بخطة منقحة أخرى تمتد إلى العام ١٩٥٦، وسرعان ما بدت هذه الخطة مرة أخرى مثل سلسلة من المشروعات غير المنسقة، التى تركز بصفة أساسية على تنمية إدارات الحكومة المركزية (التى كان مديروها سيصابون بالرعب والفزع لو قيل لهم إن هذا الذى يجرى هو نوع من الاشتراكية البيروقراطية)، بدلاً من التركيز على الاقتصاد الجمعى ككل ومع ذلك، كانت تلك الخطة تركز الموارد فى النقل والمواصلات، لمصلحة المحاصيل التصديرية ومنتجيها.

كان المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى قد طالب بالاستقلال فى العام ١٩٥٦, كانت مسألة إنشاء أوبافيمى Obafemiأولوو Awolowoلحزب جماعة Groupالعمل Ac-tionفى العام ١٩٥١ أمرًا مهمًا، وبخاصة أن بود Bode توماس Thomas ذلك

المتغطرس غير المتعاطف كان يشغل منصب الأمين العام فى ذلك الحزب. اعتباراً من شهر مارس من العام ١٩٥١ الميلادى، وبعد أن استجابت حفنة صغيرة من البشر لنداء أبافيمى أولوو، فى العام ١٩٥٠، كانت مسألة حزب "جماعة العمل" مجرد فكرة فى ذهن الرجل، فقد خطر بباله أن يبدأ ذلك الحزب عمله من منزله الخاص فى إيبادان Ibadan بين أفراد جمعية الإجبى Egbe أومو Omo أودودوا Oduduwa(*)، تلك الجمعية الثقافية التى تحظى باحترام كبير. تأسست هذه الجمعية فى لندن فى العام ١٩٤٠ بواسطة طائفة من اليوربا Yoruba، معظمهم من الطلاب، أمثال أيوتوندى Aytounde روسيجى Rosiji وأولوو Awolowo: وأعيد تأسيس هذه الجمعية فى ليجوس فى العام ١٩٤٨، على أيدى أسماء بارزة فى ذلك الوقت، الأمر الذى جرّ عليها غضب الدكتور آزكوى وحقده وكراهيته، وأصبحت تلك الجمعية تعرف أيضًا باسم الصفوة اليوروباوية فى ليجوس، كان بعض اليوروبا Yourba الآجيبيين Ijebu ينظرون إلى تلك الصفوة باعتبارها "حثالة". اصطبغ الاجتماع الذى عُقد فى مقاطعة أوندو Ondo فى اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل من العام ١٩٥١، والذى ترأسه أوبا Oba (بمعنى "رئيس") أوو Owo، اصطبغت بصبغة جمعية إجبى أومو أودودوا، أو إن شئت فقل: جمعية أحفاد الخالق، لكن هذا الاجتماع تنازل عن مسألة "صفوة ليجوس".

كان شعار هذا الحزب الجديد "الوحدة من خلال الاتحاد الفيدرالى" و "الاتحاد الفيدرالى للجميع - حياة أكثر رغداً"، والحريات المطلوبة من الحكم البريطانى هى: التحرر من الجهل، والمرض، العَوَز. كان أولوو من المتيمين بقراءة الكتيبات التى تتناول آراء حزب المؤتمر الهندى الوطنى، وبخاصة تلك الآراء التى تُحَبِّذ إنشاء مقاطعات على أساس من المجتمعات اللغوية. بدا للكثيرين فى بداية الأمر، أن جماعة من اليوروبا،

(*) المسمى: Egbe omo Oduduwa عند أهل هذه اللغة، إن صح التعبير معناه "أحفاد الخالق". (المترجم)

الذين كانوا معنيين فى الأصل بصياغة مقترحات محددة أثناء مراجعة الدستور، قد انجرفت لتصبح هيئة حزبية مستقلة (والتى ضمت فيما بعد عناصر من حركة الشباب الإفريقى القديمة) بفعل عدائها لعضوية طائفة الإجبو Igbo اليوروباوية فى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى من ناحية، وبفعل الارتفاع المفاجئ لمشاعر الاستياء من الاختراق الذى قام به الشعب الإجباوى Igbo المغامر، من الناحية الأخرى. قام الدكتور آزكوى، أثناء التسابق على الانتخابات بتوجيه رسالة مفتوحة إلى أولوو Owo، يطالب فيها بتشكيل جبهة موحدة فى المقاطعات الغربية، على الرغم من الخلاف الواضح بين هذه المقاطعات، بغية إجبار حكومتى لندن وليجوس على تقديم دستور أفضل من الدستور السائد، كان الهدف من ذلك يفيد أن المناصب الوزارية فى ظل الدستور الجديد سوف تتعارض مع الحكومة الوزارية الحقيقية. وإذا كان هناك معنى آخر لفشل الدكتور آزكوى فى الانتخابات، فهو يتمثل فى أن البريطانيين وكذلك الشماليين ليسو بحاجة إلى النضال أو الكفاح من أجل لفت الانتباه إلى الانقسامات القبلية التى كانت لا تزال أمرًا واضحًا وشديد الجلاء. واقع الأمر أن مؤيدى الدكتور آزكوى الأشدَّاء كانوا يبدون وكأنهم أصحاب الحق فى تقديم أنفسهم على أنهم المختصون بنيجيريا وشعوبها كلها.

أدت من جديد مسألة نشر النظام الدستورى الجديد والعمل به داخل المجلس التشريعى فى شهر يونيو، إلى رفع درجات كبار المفوضين إلى مراتب نواب الحاكم، كما أدت أيضًا إلى أن تصبح المجالس الإقليمية الاستشارية مجالس ذات سلطات مالية وتشريعية خاصة. وتحتم تقديم القوانين المركزية، باستثناء تلك القوانين المتعلقة بالمخصصات المالية، أمام المجالس الإقليمية لمناقشتها. هذه المجالس الإقليمية لا يمكن حلها بمعزل عن المجلس التشريعى المركزى. هذا يعنى أن الوزراء كلهم يجرى تعيينهم بعد أخذ رأى الحاكم أو نواب الحاكم وموافقتهم (الذين يقدمون النصح والمشورة للحاكم بشأن الأسماء الإقليمية قبل أن يقوم الحاكم بالاختيار من بينها)، كان ذلك يعنى أيضًا

أن اختيار الوزراء المركزيين يخضع للموافقة المسبقة من قبل المجالس الإقليمية على هؤلاء الوزراء. معنى ذلك أن هؤلاء الوزراء سوف يتعاملون فى المجلس وفى المجلس التشريعى مع موضوعات وقضايا وليس مع إدارات أو وزارات لكنهم سيتعين عليهم الاتصال بالموظفين والارتباط بهم فى الإدارات ذات العلاقة بعملهم للتأكد من وضع القرارات الصادرة عن مجالسهم موضع التنفيذ.

فى شهر أكتوبر، وفى منتصف العملية الانتخابية النيجيرية المطولة، سقطت حكومة آتلى العمالية البريطانية، بعد أن خسرت فى انتخابات العام ١٩٥٠ تلك الأغلبية الكاسحة التى تميزت بها فترة ما بعد الحرب فى بريطانيا. كان حاكم نيجيريا قد عين السيد/ إيه A أف F إف F بى P (فوكى Foky) نوينز Newns، وهو ضابط إدارى سابق فى (حى بندى Bende)، أمينًا مساعدًا (للتنمية) فى بلدة إينوجو Enugu، ومستعمرة "دو" Do؛ هذا الرجل يعمل حاليًا مساعدًا أول (للشئون السياسية) فى الأمانة المركزية، هذا الرجل جرى تعيينه ليكون أول أمين لمجلس الوزراء، وهى وظيفة تَرقى إلى مستوى وظيفة الممثل المقيم.كان نوينز قائمًا بإجازة فى بريطانيا أثناء فترة الهدوء البيروقراطى بين إدارة آتلى وإدارة تشرشل الجديدة، وجرى عمل الترتيبات اللازمة حتى يتمكن من الحضور إلى مجلس الوزراء فى لندن. قام السيد/ نورمان Norman بروك Brook، أمين مجلس الوزراء وأمين الخزانة البريطانية المشارك، بإعطاء السيد/ نوينز مكتبًا فى مكتب سكرتيره الخاص، كما أعطاه أيضًا حرية الاطلاع على كثير من الأحداث السابقة والأوراق المتعلقة بها، وكلها على درجة عالية من السرية. حضر نوينز اجتماعًا لإحدى اللجان الوزارية (مكونة من المسئولين بصفة أساسية)، ثم عاد الرجل إلى ليجوس ليدرج بعض الملاحظات على عمل مجلس الوزراء فى المملكة المتحدة، وقد جرى طبع هذه الملاحظات وإرسال نسخ منها بطريقة سرية إلى نواب الحكام الإقليميين. وبذلك تحولت هذه الملاحظات إلى وثيقة إجرائية جوهرية من

مذكرات إنهاء الاحتلال البريطاني. وتحتم على أبى بكر تافاوا باليوا دراسة تلك الملاحظات دراسة متأنية ودقيقة وبالتالى حفظها عن ظهر قلب.

كانت مسألة عودة اسم تشرشل الذائع إلى السلطة أمراً له مغزاه عند أهل باوتشي، والسبب فى ذلك أن هذا الاسم كان يوحى بانتصار "الأمن والسلامة من خلال القوة المبنية على أساس من الحرية" - وذلك على حد تعريف أصحاب السلطة للمصطلحات التى من هذا القبيل. كان السيد/ أوليفر Oliver ليتلتون Lyttelton، قد تحاشى أن يصبح وزيراً للمواد وإعادة التَّسلح، الأمر الذى أدى إلى تعيينه وزيراً للمستعمرات، وأصبح السيد/ آلان Alan لينوكس - بويد Boud وزير الدولة لشئون المستعمرات. كان والد أوليفر ليتلتون قد شغل هذا المنصب طوال عامين مع بداية القرن، يضاف إلى ذلك أن الرجل نفسه لم يكن غريباً على الاقتصاد النيجيرى الأولى غير الزراعى. يزاد على ذلك أن هذا الرجل، سبق له، فى فترة الكساد والانهيار السلعى فى ثلاثينيات القرن العشرين، أن مثَّل المستعمرة فى المحاولات الدامية إلى إيجاد اتحاد دولى لمنتجى القصدير، ويهدف إلى المحافظة على مواد الصقل والتلميع، وباءت تلك المحاولات بالفشل نظراً لأن الإنتاج الجديد يمكن أن يبدأ إذا ما تسبب الطلب الحقيقى فى رفع الأسعار. ساعد أوليفر ليتلتون شخصياً وبصورة مباشرة فى التحركات الهادفة إلى جعل المصادر الإمبريالية للنحاس الأحمر، والرصاص، والزنك مكتفية ذاتيًا مع اندلاع الحرب فى العام ١٩٣٩، وهذا الشيء لم يتحقق فى العام ١٩١٤ عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى. ولما كان أوليفر ليتلتون يتباهى بأن واحداً من أسلافه هو الذى اخترع المرحاض، فقد أصبح رائداً بل ملكًا من ملوك المال والأعمال، بدلاً من أن يصبح سياسياً حزبياً أو خطيباً حزبياً مفوهاً، وعلى العكس من نائبه لم يهتم الرجل قط بممارسات السياسة الاستعمارية، وذلك على العكس من الطبيعة الفردية للسياسيين. لم يذع صيت لينوكس بويد فى باوتشي، ولو قيل للمعلم أبى بكر إن أكبر مطامح وزير الدولة هو أن يخلف أوليفر ليتلتون فى منصبه، لما صدق

الرجل ذلك، نظراً لأن الرجل تعود هو والرعايا الاستعماريين كلهم على أن مسألة وزير الدولة هذه، ليست سوى سلم يوصل إلى المناصب الأعلى. يزاد على ذلك أن أبا بكر كان يسلم، فى ضوء المبررات، بالحقيقة التى مفادها أن سياسة وزارة المستعمرات إنما كانت تصنع إلى حد كبير بواسطة المسئولين فى هذه الوزارة على الرغم من أنهم لم يسمعوا قط عن اسم رئيس الإدارة الإفريقية، المدعو آندرو Andrew كوهين Cohen، الذى بذل قصارى جهده، من خلال المراسلات الخاصة والمسودات التى كان يرسلها إلى الوزراء، ويشجع فيها إدارات ما وراء البحار على التكيف والتوائم مع الصفوات المحلية الجديدة. كان جريفثث Griffths قد عين كوهين حاكماً على أوغنده بزعم أنه بعد أن يمضى هناك فترة قصيرة أثناء حكم حزب المحافظين، يمكن استدعاؤه إلى بريطانيا مرة أخرى ليكون وكيل وزارة دائم فى الحكومة العمالية التالية.

سرت فى المنطقة السكنية الحكومية شائعات مفادها أن المعلم أبا بكر على وشك إقامة "حفل شراب"، وبدأت الزوجات المغتربات يتطلعن إلى من ستجرى دعوتهم لحضور ذلك الحفل، وتلك الأشياء التى سيجرى تقديمها فى ذلك الحفل. كان أبو بكر قد طلب من رايت Wright فى آخر زيارة له لإنجلترا أن يحضر معه مجموعة من الكتب، وأن يحضر معه اثنتين وعشرين خرطوشة كى يستعملها فى رحلات الصيد، كما طلب منه أيضاً أن يحضر له طقم غذاء ومجموعة من سكاكين المائدة لحوالى ست أفراد، فضلاً عن مجموعة من الشمعدانات. وفى صباح أحد الأيام قيل لضابط الحى الإدارى بواسطة مراسل من مراسلى الإدارة المحلية إن (رجلاً من المدرسة) -Baturen maka ranta)، ذلك الرجل الذى (كان رجلاً أسود) bakin mutum يود مقابلته فى منزله عند الساعة الخامسة تقريباً. ويرتدى ضابط الحى الإدارى بنطاله الطويل ورباط عنقه، كعادته عندما يفعل ذلك عند ذهابه للقاء الأمير. كان أبو بكر يقف عند عقد مدخل المنزل الذى كانت تربيه فيه جدته العزيزة فى أيام العطلة يوم أن كان فى مدرسة القرية. كان مسئول الخزانة المحلية، ورئيس حى بلدة باوتشى الحاصل على لقب baraya الذى

معناه "مسئول الإسطبلات")، ومحاسب الخزينة المحلية، إضافة أيضًا إلى مدرس آخر، كانوا جميعًا يجلسون على كراسى خشبية مستندة إلى الجدار الدائرى المبنى من اللَّبن، وطُلب إلى ضابط الحى الإدارى الجلوس على الكرسى الطويل القابل للطى deck-chair. ووضع الضيف قارورة مملوءة بالويسكى لم يجر فتحها، ووضع إلى جواره على الأرض قارورة ماء وكوبًا فارغًا، وهمس أبو بكر بابتسامة صغيرة قائلاً: "**أنت تعرف كيف تتصرف مع هذه**". حصل ضيوف أبى بكر المسلمين على عصير. انتظر ضابط الحى الإدارى وصول ضيوف أوروبيين آخرين، لكن أحداً لم يجئ: هذا يعنى أن ضابط الحى الإدارى كان بمثابة الخنزير الغينى، الأمر الذى جعله يحس بالتكريم الوفير. كان الحديث القصير الذى دار بلغة الهوسا حراً وتلقائيًا وسلسًا (لم يكن مسئول الإسطبلات يتحدث الإنجليزية)، حول مسألة الفشل الذى أصاب محصول الفول السودانى، الذى أسفر عن عدم وجود ما يمكن نقله بالسكك الحديدية، حدث ذلك بسبب صعوبة الحصول على ممثلين منتجين من الذين ليسو من أصحاب السلطة التقليدية، ليبحثوا مسألة ما إذا كان عمر تشرشل ووهنه وضعفه يؤثران على وضعه باعتباره رمزًا. وباستثناء الأمير، الذى وجه الدعوة لكبار المسئولين وزوجاتهم لمشاهدة احتفالات الصلاة من شرفة قصيرة، والذى قدم لهم العصير والفول السودانى بعد الانتهاء من احتفالات الصلاة، مع قيام زوجة الممثل المقيم هى وزوجات كبار ضباط الأحياء الإداريين، بين الحين والآخر، بزيارة سكن الحريم، إذا ما استثنينا ذلك نجد أن دعوى أبى بكر هذه كانت أول رد رسمى على أسلوب الضيافة الأوروبى من جانب مسئول من مسئولى الإدارة المحلية فى باوتشى، عندما قام بدعوة ذلك المسئول الحكومى إلى منزله. ولم يقم الآخرون أو يسارعوا إلى الاحتذاء بتلك السابقة.

فى الوقت نفسه كانت الإعلانات الصادرة عن المستوى الأول من الانتخابات (فى مدن الشمال الكبيرة الأخرى) قد أسفرت عن نتائج مفادها أن أصحاب السلطة التقليدية كانوا يشعرون بالقلق وعدم الارتياح. كان حزب اتحاد العناصر الشمالية

التقدمى، أو بالأحرى المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى المناطق أو الدوائر التى يهيمن عليها الجنوب، قد تبوأ المركز الأول فى كل من كانو، وزاريا، وجوس، ومنَّا Minna وميدو جورى Maiduguri، وكادونا ونوجورو Nugru. كان من الصواب القول بأن هذه المناطق عبارة عن أقليات صغيرة إذا ما قورنت بالملايين الذين يتعين عليهم الإدلاء بأصواتهم فى المناطق الريفية. لم يكن هناك وجود لأى تنظيم مستعد ومناسب لمواجهة التحرك الراديكالى الذى صوره الرجعيون الشموليون على أنه تحرك جماهير شباب الدهماء صغار السن الذين يستأجرون الدراجات، وعمال المقاصف، وأبناء الريح(*) Yan iska، الذين يجرى اقتيادهم من أنوفهم بواسطة الزعماء الذين كانوا ينفذون أوامر سادتهم الجنوبيين. لم يكن ضعف حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى الذى لا يمكن أن تتسلط عليه الأضواء إلا فى وجود حزب منافس، راجعًا إلى قدم هذا الاتحاد وتهلهله وضعف مخالبه، كان ضعف ذلك الاتحاد يتمثل، إذا ما استثنينا المعلم أمين كانو، فى أن شخصياته القيادية تفتقر إلى الشهرة وذيوع الصيت فى التشكيل الهرمى للمجتمعات ـ كما أن القلة القليلة التى كانت لها بعض الدعاوى والمزاعم جرى تشويه سمعتها ووصفها بالمتألبين الغاضبين، لأنهم تحدوا مجتمعاتهم لأسباب غير معروفة، الأمر الذى جعل تلك المجتمعات تلفظهم وتستغنى عنهم. لم يكن صحيحًا مطلقًا أن جماهير الشمال النيجيرى لم تتحدث فى السياسة، بغض النظر عن ضيق حيزها، الصحيح هو أن أهل الشمال لم يعلنوا عن آرائهم وقيلهم وقالهم (الذى لا يرجع كله إلى الشخصيات)، إلا بطريق المشافهة إلى أولئك الذين يتكلمون لغتهم ـ الذين كانوا فى ذلك قلة قليلة من الصحافيين ولم يكن الأكاديميون يعرفون هذه اللغة. معروف أيضا أن قلة قليلة جدًا من بين الجماهير النيجيرية الغفيرة المجهولة هم الذين حاولوا باستثناء أنهم

(*) المقصود بأبناء الريح هنا هم هؤلاء الذين لا عمل لهم.(المترجم)

أعضاء يمثلون طائفة بعينها، يدخل ضمنها المجرمون على اختلاف طبقاتهم ودافعوا الضرائب.

بدأت السيطرة على ردود الفعل فى نهاية شهر سبتمبر من العام١٩٥١، عندما قام المعلم أبو بكر تافاوا باليوا بدعوة مستشار سكتو السياسى الرئيسى هو ووالى بطا Bida إلى عقد اجتماع فى كادونا، بالاشتراك مع الجمعية الشعبية الشمالية. واقع الأمر أن هناك من يصرون على أن الدكتور ديكو Dikko هو وأبا بكر كان مسئولين عن دخول المستشار السياسى الرئيسى فى هرج ومرج سياسى فعلى بدلاً من السياسة المتزنة الهادئة، وقد أدى ذلك دومًا إلى أن تصبح لأبى بكر سلطة أخلاقية نهائية على المُعَلِّم أحمد بللو. فى المناقشة التى دارت حول تحويل الجمعية الشعبية الشمالية إلى حزب سياسى، كان هناك شىء من التردد حول إشراك كل من المستشار السياسى الرئيسى وأبى بكر، والسبب فى ذلك أنه عند تأسيس الجمعية الشعبية الشمالية، رفض أبو بكر الدعوى التى وجهت إليه للانضمام إليها، فى حين وعد الثانى (أحمد بللو) بتقديم مبلغ من المال دون أن يلتزم بذلك. هذه الوضاعة لم تستطع مواجهة الخبر الذى مفاده أن هذا الاجتماع حظى باهتمام أولئك الأمراء البارزين ومساندتهم الذين وجدوا فى هذا الحزب الدفاعى الذى يواجه الجنوب، أمنًا وقائيًا لأنفسهم باعتبارهم الأسس التى يرتكز عليها المجتمع المستقر. عقدت الجمعية اجتماعًا طارئًا فى زاريا فى اليوم التالى، فى الشارع نفسه الذى يقع فيه منزل أبى بكر إمام.

كان أبو بكر إمام الأمين العام لخزينة تلك الجمعية أو التنظيم الثقافى، كان أبو بكر إمام قد سُئل مؤخرًا، باعتباره محررًا فى جريدة جاسكيا Gaskiya، من قبل شارود Shrwood سميث Smith، بصفته نائبًا للمفوض العام، عن الأسباب التى أدت إلى وضع العقلاء المتعلمين فى الأماكن غير الصحيحة. كان أبو بكر إمام قد سبق له القول: إنه يعتقد أن "حقن نسبة العشرة فى المئة من العاملين فى الإدارة المحلية"، فى المجمعات الانتخابية (التى سبق وصفها فى الفصل السابق) يمكن أن يساعد على

تصحيح هذا الخطأ، وكان الرجل يشترط دوماً توجيه الرؤساء Chiefs بصورة واضحة وجليَّة إلى تعيين من يجيدون التحدث بالإنجليزية وليس تعيين أبنائهم أو أحفادهم، وقال أيضاً: الأهم من ذلك هو تأسيس حزب سياسى لا يشعر العقلاء والمتعلمون بالخجل إذا ما انضموا إليه، كما ينضم إلى ذلك الحزب أيضاً الوطنيون المحافظون وأعضاء الأسر الملكية الفولانية الحاكمة. وهنا تحرك أبو بكر إمام بصفة رسمية لينضم إلى ذلك الاجتماع الطارئ وأوصى بأن تكون الجمعية الشعبية الشمالية، أو بالأحرى ذلك التنظيم الاجتماعى، هو ذلك الحزب السياسى الذى ينادى به أبو بكر إمام، ولما كانت القوانين الحكومية تحرم على الموظفين المدنيين المشاركة فى النشاط السياسى بصورة علنية، اقترح أبو بكر أن يتولى الدكتور أر R إيه A ب B ديكُّو Dikko رئاسة الحزب (وأن يحيى جوساو Gusau، يتعين عليه الاستقالة من منصب الأمين العام، إذا ما آثر البقاء فى العمل فى سلك التدريس الحكومى)، وأوصى أبو بكر أن يتولى الحاج ساندا Sanda، نائب الأمين العام (وهو رجل لا يجيد القراءة والكتابة ويعمل تاجراً مطموراً فى ليجوس) منصب الرئيس إلى أن يحين موعد انعقاد الاجتماع للحزب فى شهر ديسمبر، كما اقترح أيضاً أن الجمعية الشعبية الشمالية، التى أصبحت "حزب المؤتمر الشعبى الشمالى" ينبغى عليه (الحزب) أن يخوض الانتخابات المتبقية، وذلك بتعيين مرشحين من أولئك الملتزمين بمقاومة حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى من ناحية والجنوب من الناحية الأخرى. ومن باب التخوف من تسييس الموظفين الحكوميين، طلب ليسلاى Leslie جوبل Goble، سكرتير المقاطعات الشمالية، إلى عيسى والى السكرتير المساعد لحزب المؤتمر الشعبى، تسليم السجلات كلها، ولم يستطع سكرتير المقاطعات الشمالية فعل أى شىء بحق الكثيرين من موظفى الإدارة المحلية، من أمثال المدرس عبد الرحمن موره Mora.

كانت لائحة حزب المؤتمر الشعبى الشمالى تشتمل على الاستقلال الإقليمى فى إطار نيجيريا الموحدة، وإصلاح الحكم المحلى فى إطار منظومة تقدمية من الإمارات

والرئاسات Chiefdoms، "وسماع صوت الشعب" فى مجالس الشمال كلها، حملة للنهوض بالتعليم، والقضاء على الرشوة والفساد، كان شعار الحزب "شمال واحد، شعب واحد بغض النظر عن الدين، والمنزلة أو القبلية"، ثم فى النهاية وضعية الدمينيون do-minion داخل الكمنولث البريطانى. تسبب ضياع الموظفين المدنيين فى شىء من النقد، لكن الشمال كان لديه عدد قليل جداً من كبار الموظفين، كما أن نفوذ الدكتور دكُّو كان محدوداً تماماً فى كل الأحوال، الأمر الذى أدى إلى سرعة تناسى مسألة ضياع الموظفين المدنيين. يزاد على ذلك، أنه قد فات أوان قيام الإداريين بتقديم اقتراح مفاده أن كبار الموظفين المدنيين العاملين فى الحكم المحلى يتعين عدم إشغالهم بالسياسة الوطنية الحزبية، وأنه ليس من الحكمة فى شىء – وبغض النظر عن السوابق فى الأماكن الأخرى ـ فقدان "المتعلمين العقلاء" أو خسارتهم فى القطاعات الأخرى.

عاد أبو بكر تافاوا باليوا إلى باوتشى وهو أكثر سعادة مما كان عليه قبل أشهر كثيرة. كان جايلز Giles قد قام بإعادة تنظيم إدارة الأقسام، التى أصبحت تضم الآن واحداً من "ضباط التنمية"، (الذى يحصل على أجره من أرصدة التنمية والرفاه الاستعمارى، التى تقدم من قبل البرلمان والخزانة البريطانية، والذى رفضه المحاسب المحلى بسبب افتقاره إلى المؤهلات اللازمة لذلك) يقوم بمهام رئيس الحى القانونية فى التفتيش على الخزانات المحلية، كما أصبحت إدارة القسم تحتوى أيضاً على ضابطين إداريين يتواجد أحدهما بصورة دائمة فى رئاسة Chiefdom ننجى Ningi، فى حين يركز الضابط الآخر على الأعمال والموارد الطبيعية. كان أبو بكر تافاوا باليوا قد وعى تماماً الرد الوحيد السابق الذى جاء من ضابط الحى الإدارى تعليقاً على تلميح أبى بكر بأن أحد مراسلى الأمير يزيف فى عوائد نوع معين من ضريبة المواشى Jangali وبخاصة فى أعداد البدو الفولانيين الرُّحل الذين يتحولون فى منطقة جانجوا Ganju-wa، وتلميحه أيضاً إلى المواجهة التكتيكية التى جرت بين الأمير ومراسله المذنب، فى واحدة من اجتماعات المجلس التى لم يجد الأمير فيها بُداً من الموافقة على أن العدالة

لابد أن تأخذ مجراها. ولما كان ضابط الحى الإدارى هذا مخولاً سلطة الجوانب الإدارية الخاصة بالشرطة والمحاكم والتعليم ومسئوليتها، قام أبو بكر تافاوا باليوا باستدعائه ذات يوم إلى المدرسة المتوسطة، "**باعتبارك وزيرًا للتربية والتعليم عندنا!**" فقد اتضح أن صبيًا شقيًا سبق أن أرسل رسالة غرامية ساذجة لكنها ليست بريئة تمامًا إلى فتاة فى الصف الأدنى من صفه، وكانت موظفة التعليم قد طالبت بتوقيع جزاء شديد على ذلك الصبى. واقترح أبو بكر قائلاً: "**وباعتبارك أيضًا وزير للتصحيح عندنا**"، فإن ضابط الحى الإدارى، كما هو الحال فى التفتيش على السجون، يتعين عليه أن يترأس تنفيذ الحكم، الذى ألقاه وتلاه رقيب أول المدرسة وهو يرتدى بنطالاً قصيرًا من بناطيل المدرسة.

بعد أن راقب أبو بكر تافاوا باليوا احتفال الهواء الطلق من نافذة مكتبه، اتضح له الهدف الرئيسى من وراء هذه الدعوى: لما كان أبو بكر مهمومًا بمسألة أخرى من مسائل القيل والقال التى دارت حول ملف تدور حوله الشكوك، فَرَد الرجل خريطة حائطية لنيجيريا خلف مكتبه وراح يتحدث عن التغييرات الدستورية. كان الرجل يبحث للشمال عن طرق تكفى الشمال مئونة المشاركة فى أعباء البلاد كلها، وتُخلِّص الشمال أيضًا من الاعتماد المتبادل المصطنع الخانق بين الشمال والجنوب. كان أبو بكر قد سئم وملَّ الإساءة التى أصابته من الإجباويين Igbos الذين لم يعرفوا الأسفار طوال حياتهم ولا يعرفون من التمثيل شيئًا سوى الأمراء Emirs ("**وبعد أن جعلتكم أنتم أيها الناس، تسيطرون على أميرنا!**"). وبإشارة واسعة راح أبو بكر يتعقب على الخريطة مجرى مائيًا يبدو عديم القيمة، يمتد من الساحل فى داهومى Dahomey ويتلاشى فى شمال شرقى بلدة كياما Kaima: "**أنا على يقين من أنكم، أيها البريطانيون، قادرون على التفاوض مع الفرنسيين حول شىء من الحق يمكننا من الاستيراد والتصدير عبر بلادهم**". فى هذه الفترة نفسها أدى حوار آخر من هذا القبيل إلى مناقشة لمسألة سفر الشماليين إذا ما أدى أى شكل من أشكال الانفصال إلى تقليل عدد الحرفيين والفنيين

المغتربين الذين يقومون على أمر تصريف الخدمات العامة. وهنا جادل أبو بكر قائلاً: **"لكن إلى أن جئتم أنتم أيها الناس، لم يكن لدينا أطباء على الإطلاق!"، "ولقد استطعنا البقاء على قيد الحياة!"** وهنا قال ضابط الحى الإدارى فيما بينه وبين نفسه: **"بعضكم فقط"**.

مع بداية شهر ديسمبر عقد حزب المؤتمر الشعبى الشمالى اجتماعه العام فى مدينة زاريا. وجرى إنابة المعلم أبى بكر تافاوا باليوا ليكون ممثلاً لفرع باوتشى، بصحبة كل من القائم بأعمال الرئيس المحلى (المُعَلِّم عثمان Usman كاتونجو Katun-gu)، وسكرتير الفرع المُعلِّم عبد العقابى)، ومعهم كل من أصغر أبناء الأمير (باعتبار ذلك جزءًا من تعليمه السياسى)، ورئيس الشرطة المحلية المُعَلّم بلرابى Balarbe. حدثت فى زاريا جلبة لا داعى لها حول من يحملون بطاقات عضوية الحزب - ظن المُعَلّم بللو Bello كانو Kano، الذى لم تكن لديه بطاقة عضوية الحزب، أن الأمير إذا ما حصل على بطاقة، فذلك يعنى أن أمير كاتسنا يتعين أن يطلب إليه الانضمام إلى الحزب وقبول قيادة الحزب: هذا يعنى أن المستشار السياسى الرئيسى Sardauna يمكن أن يكون بديلاً عن الأمير. جاء الاجتماع سيئ التنظيم ولم يتوصل إلى نتائج، لكنه سجل رسميًا أمام العالم الخارجى أن هناك بطاقة حزبية جديدة أضيفت إلى البطاقات القائمة، وأن هذه البطاقة كانت شمالية.

فى الخارج كانت الأمم المتحدة توصى بإنشاء لجنة اقتصادية لإفريقيا، وكانت مصر تعرض ترك مسألة الحكم المشترك للسودان، تتحدد عن طريق الاستفتاء العام فى الأمم المتحدة، وكانت ليبيا هى الأخرى تقترب من الاستقلال الفيدرالى تحت رئاسة الملك إدريس الأول. على المستوى المحلى فى نيجيريا كان حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى هو والمجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى يواصلان إزعاجهما للمحافظين الشماليين بأن فازا بسبعة عشر مقعدًا من أصل ستة وعشرين مقعدًا فى الانتخابات المرحلية فى مدينة كانو. وفى المقاطعات الشرقية أدى التذبذب المعتاد

للمفكرين إلى تحول الأصوات بشكل أدى إلى حصول الرجل العادى على ثلاثة أرباع المقاعد، وهنا بدأت تتأرجح الأغلبية التى حصل عليها المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، إذ تعين عليها الاعتماد على كل من الدكتور إنديلى Endeley وإخوانه الكاميرونيين فى منطقة الوصاية، وذلك فى مقابل قيام إينوجو Enugu بمساندة مشروعات الإنفاق فى الكاميرون. وفى الغرب كان حزب جماعة العمل مجرد حزب يقوم بمناورات سياسية جديدة، سعيًا إلى خلق مؤسسة شعبية عامة تقوم بتأميم تطوير الثروة المعدنية وتنميتها قبل أن يصبح القصدير مجرد أصل من الأصول المخرَّبة. كانت وثائق حزب جماعة العمل قد أُعدت على نحو يقنع خصوم الدكتور آزكوى من غير الغربيين، هؤلاء الخصوم كانوا من الواقعيين (أمثال المعلم أبى بكر تافاوا باليوا على سبيل المثال)، وكان لابد من إقناعهم بالتطلع إلى التحالف فى نهاية المطاف، لكن هذه البيانات لم تكسب ود الغرب النيجيرى لأن الذى كسب ذلك الود هو النكهة اليوروباوية Yoruba التقليدية.

فى الشرق، كانت الحكومة أثناء غياب الدكتور آزكوى، تحت قيادة إيو Eyo إيتا Ita، ذلك الكلبارى العجوز الذى يبلغ من العمر تسعة وأربعين عامًا، والذى اشتهر باسم "الأستاذ"، والذى أسس حركة رابطة الشباب النيجيرى، لكنه فى ذلك الوقت، كان أول نائب وطنى لرئيس حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى. كان إيو Eyo إيتا Ita قد أعطى حقيبة الموارد الطبيعية. كانت المقاعد الخمسة المخصصة لليجوس Lagos فى الجمعية الإقليمية الغربية قد أصبحت من نصيب مرشحى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى: الدكتور أبو بكر إيبينكا Ibiyinka أولورون - نمبى Nimbe - Olo-run، والدكتور نناميدى Nnamdi آزكوى، الأمير آدليك Adeleke أديدوين Adedoyin، وهارون أديبولا Adebola ثم تى T أو O إس S بنسون Benson، طبقًا لهذا الترتيب، لكن كل واحد منهم حصل على ما يزيد على ١٢٠٠٠ صوت وكان الفارق بين بعضهم البعض يقدر بمئات قليلة من الأصوات. كانت لجنة العمل المركزية فى حزب المجلس

الوطنى النيجيرى الكاميرونى ترغب فى أن يقوم المجلس الغربى بترشيح كل من الدكتور آزكوى وأديدوين Adedoyin للمقدعين الفيدراليين في ليجوس، وكان كل من أديبولا وبنسون Benson على استعداد للانسحاب، لكنهما لم يصرحا بذلك إلا بعد فوات الأوان. وهنا نجح اليوروباويون فى إبعاد الدكتور آزكوى عن المقاعد المركزية فى ليجوس، التى رسم لنفسه فيها صورة الوطنى اللاجوسى Lagosian الأصيل: ولكن الدكتور أولورون - نمبى، عمدة ليجوس البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، رفض الانسحاب، أما الأمير آديدوين، الذى انصاع لإغراء بسحب ترشيحه لنفسه، فقد عاد عن ذلك الانسحاب، زاعمًا أنه قدم ذلك الانسحاب "عن غير قصد". لم ينسحب أحد فى تلك المناسبة. كان ذلك يعنى إجراء قرعة، وهنا قامت كتلة حزب جماعة العمل بإعطاء الأغلبية الكاسحة لكل من أديدوين ونمبى Nimbe وبذلك أصبح من الصعب على الدكتور آزكوى أن يثق بسياسيى اليوروبا بعد ذلك، وذلك على الرغم من أن التوترات القبلية السلفية كانت واضحة فى مطلع الأيام الأولى من حياة حركة شباب نيجيريا. وبذلك أمكن عزل كل من الدكتور آزكوى وأولوو Awolowo فى المجلس الغربى، لكن آزكوى لم يكن يشغل أى منصب خارج حزبه. وأصبح حتميًا تمامًا على نمبى أن يكسب ثقة أى جانب من جانبى مجلس المدينة، التى كان هو أول عمدة لها.

خطا حزب مجموعة العمل خطوة باكرة اجتذبت عناوين الصحف، عندما قام صمويل Smuel أكنتولا Akintola، رئيس الحزب، بالسفر إلى لندن فى مناسبة أعياد الميلاد، وطلب من السيد/ لينوكس Lenoxبويد Boyd، بمناسبة العام الجديد، تخفيض السلطات المخولة للحاكم، ومساعدى الحكام وأصحاب المناصب فى المجالس، كما طلب منه أيضًا سحب موظفى الإدارة الذين أمضوا فترات طويلة فى مناصبهم نظرًا لأن هذه الشخصيات كلها ليست متجاوبة مع التغيير، لكن لينوكس لم يأخذ هذه الطُّرفة السياسية مأخذ الجد مثل أكنتولا، يزاد على ذلك أن أى تغيير فى البنية الهيكلية لم يكن أمرًا واردًا، حتى وإن جرت الموافقة، فى اللحظات الأخيرة، على أى من هذه

التغييرات – كان الدستور قد بدأ سريانه بالفعل، وكان قد جرى تحديد الوظائف العليا. كان صنُّاع القوانين البريطانيين هم ومخططوا شئون الموظفين قد انتقلوا إلى أولويات أخرى. ومع ذلك سارع حزب جماعة العمل إلى مضايقة المنظِّرين البريطانيين، الذين تصوروا أن المجالس الإقليمية الجديدة (كان ذلك المصطلح قد أصبح سارياً في ظل مصطلحات الدستور الجديدة) سوف تقبل عن خضوع وخنوع الأعراف السائدة في كل من مجلس الوزراء البريطاني والسياسة المعمول بها في المدن النيجيرية، وأنها ستقوم باختيار ممثليها المركزيين في ضوء المقاعد التي يفوز بها كل حزب من الأحزاب: وظهر جليًا عند هذا الحد أن حزب جماعة العمل سوف يستغل أغلبيته الغربية في قصر عضوية المجلس المركزي على أعضاء الحزب فقط. قرر الحزب أيضًا في الاجتماع (المؤتمر) الذي عقده في بنين الحيلولة دون المؤاخاة الاجتماعية مع الحاكم.

كانت كاتسنا أولى مقاطعات الشمال التي أكملت انتخاباتها، وكان المُعَلم عيسى من بين الفائزين، وعيسى كيتا Kaita هو أمين التنمية المحلية في الحزب. كان عيسى كيتا قد جرى "حقنه" في المجمع الانتخابي النهائي على الرغم من توقفه وخسارته مع الانتخابات الأولية. وجرى أيضًا انتخاب "عشرة محقونين آخرين من الإدارة المحلية في أماكن أخرى" من بينهم مستشار سكتو Sokoto السياسي الرئيسي Sardauna، ووالي بطا Bida، والمعلم أبو بكر إمام، والمعلم أبو بكر تافاوا باليوا، هؤلاء المحقونين في الانتخابات لم يحدث أن دخل أي منهم الانتخابات على مستوى القرى. وبقيت مسألة التسليم الأخلاقي بالعمل الذي تم على مستوى الإدارة المحلية في كاتسنا بمثابة علامة فارقة ورئيسة في حياة عيسى كيتا السياسية، لكن الرجل سارع إلى تدعيم هذه العلاقة الفارقة من خلال نجاحه الكبير في عمله. يزاد على ذلك أن عملية تصويت الأعضاء في مجمع باوتشي الانتخابي الإقليمي، الذي انعقد في مدرسة باوتشي المتوسطة في اليوم الحادي والعشرين من شهر ديسمبر، لها أهمية خاصة عند

مؤرخى باوتشى: فقد حصل أبو بكر تافاوا باليوا من بين المرشحين على ٥٣ صوتًا، وحصل جورو Jauro جومب Gombe (مدرس زائر) على ٣١ صوتًا، وحصل بوبا Buba جومب (مشرف الأشغال) على ٢٦ صوتًا، وحصل أبو بكر، شيروما Chiroma باوتشى، على ٢٤ صوتًا، وحصل يعقوب وانكا (محاسب باوتشى) على ٢٢ صوتًا، وحصل محمد كبير (ولد أمير كاتاجوم Katagum، (الذى قيل إنه أقل من السن القانونية) على ١٧ صوتًا، وحصل باوا بلكاتشوا Bulkachauwa (أحد الكتبة فى كاتاجوم) على ١٦ صوتًا).

حظيت مسألة ولاية خلف لتومبستون Thompstone فى منصب كبير المفوضين فى الشمال باهتمام كبير، طوال العام، من واحدة من كبريات الدوريات اللندنية، الخاصة بشئون غرب إفريقيا، وراحت تلك الدورية تدافع عن تعيين شاب صاحب خبرة خارجية فى وظيفة، "ليس هناك ما هو أهم منها فى المستعمرات" هذا الشاب يمكن أن "تحمل أنفاسه المتجددة بين طياتها رياح التغيير"، كان كل من السيد/ ماكميلان وديفيد هنت قد استعملا هذا التعبير فى سياقات أخرى)، هذا الرجل قادر على تقييم المشكلات الخاصة بهذه المنطقة، لكن لن يسمح لهذه المشكلات بالوقوف فى طريق الشمال ومنعه من لعب دور كامل فى الثورة النيجيرية. كان السير أريك تومبستون قد حلف اليمين قبل أعياد الميلاد باعتباره المساعد الأول لحاكم نيجيريا، وذلك بعد أن جرى تخفيض درجة هذه الوظيفة قبل عقدين من الزمان عن طريق جعل السير رونالد كاميرون الشخصية المحورية والمركزية فى آن واحد: وسرعان ما سارع رونالد كاميرون إلى الاستعداد للتقاعد وتسليم مقاليد الأمور لا إلى لوثاريو Lothario الشاب، وإنما إلى برايان Bryan شاروود Sharwood سميث Smith الذى كان مشتتًا بين الحنين شوقًا إلى منصب الممثل المقيم المفضل، والشكوك التى تدور من حول عمره (إذ كان لا يزال فى مطلع الخمسينيات)، وقلقله من أن خبرته وخدمته فى منطقة الغابات قد توحى لحاسديه والحانقين عليه بافتقاره إلى الخبرة السكرتارية الكافية والمناسبة، كان

شاروود سميث قد قرر فى نهاية المطاف قبول شرف ذلك العرض، ملوحًا بطريقة غير مباشرة إلى معرفته اليقينية بأن الشمال النيجيرى سيكون أفضل فى ظل الشيطان الموجود فيه، من أن يكون تحت إمرة ماونتباتين أو سيطرته Mountbatten. لم يكن الرجل قلقًا أو متخوفًا نظرًا لأن الشمال كان لا يزال فيه رجل أهلى محترف هو الدكتور ديكو.

ساد الإحباط بين صفوف المثلين المقيمين فى الأماكن الأخرى: فقد راحت الكنائس والجامعات تغذى الأحقاد الهرمية التى مفادها أن الخدمات المدنية والعسكرية تعانى معاناة شديدة. لكن المعلم أبا بكر التزم الهدوء: **"نعم، أنا أعرف الرجل، وهو من النوع الذى يصعب فهمه، لكنه يحاول أن يكون صريحًا"**. صحيح أن شاروود سميث وصف الغرباء فى بعض الأحيان، بأنهم متشرذمين، وبخاصة عندما يكون هو متمسكًا تمامًا بوجهة نظره، لكن الرجل بصفته باحثًا كلاسيكيًا كان يكتب بطريقة سلسة وأسلوب جزل. كان الرجل أيضًا سريع الحكم على الشخصيات، وكان يثق بأولئك الذين يعرفهم حق المعرفة. وهنا لابد من القول: إن هؤلاء الذين لم يخدموا مع هذا الرجل فى الكاميرون، والنيجر، وسكتو أو كانو Kano، لابد أن يكونوا قد فسروا ذلك التقدم الذى طرأ على أولئك الذين خدموا معه (بما فيهم مسئولوا الإدارة المحلية) على أنه نوع من المحسوبية والمحاباة، ومع ذلك، وعندما تعين على شاروود سميث مغادرة نيجيريا، كان أناس من باوتشى وبينو، قد ترقوا أيضًا على الرغم من أن عملهم لم يحظ بالتقريظ قط عندما كانوا شبابًا. وبمناسبة ذكرى مولد الرجل الثالثة والخمسين، قام بحلف اليمين لمنصب نائب الحاكم، وترأس الاجتماع الأول الذى عقدته الجمعية العمومية الشمالية المنتخبة، التى شغل أغلبية مقاعدها مسئولون أكفاء من الإدارة المحلية على الرغم من الذعر الذى ساد المدن والبلدان. هؤلاء المعلمون انضووا تحت لواء حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، الذى أحسوا فيه بالارتياح والطمأنينة بين أقرانهم. كانت مهمة الجمعية تتمثل فى اختيار أربعين عضوًا لينضموا إلى أربعين عضو آخرين من مجلس

الرؤساء مكونين بذلك مجلسًا مشتركًا، على أن يقوم هذا المجلس الجديد باختيار الأعضاء الثمانية والستين اللازمين لمجلس الممثلين، ويقوم المجلس أيضًا بالموافقة على مقترحات الحاكم الخاصة بأربعة مناصب وزارية شمالية على المستوى المركزى، وعلى مقترحات نائب الحاكم على أربعة مناصب مبدئية فى الشمال (كان الجنوب يعانى من مشكلات كثيرة نظرًا لأن المحترفين الثقات لم يكونوا ميالين فى بعض الأحيان إلى استبدال الغرفة الاستشارية بوزارة لا نفع من ورائها). كان تومبستون Thompstone قد سبق له مناقشة هذا الأمر بطريقة غير رسمية مع كل من أبى بكر تافاوا باليوا، ومستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardouna وآخرين، واستطاع بعد ذلك التوصل إلى اتفاق ماكفرسن.

كان هناك شيء من الاعتراض على أسماء أعضاء المجلس التنفيذى الشمالى، نظرًا لأنهم جميعًا كانوا من بين سكان الشمال التقليديين أمثال: أحمد بللو، مستشار سكتو السياسى الرئيسى، والمعلم على والى بطا Bida، والمعلم بللو كانو Kano، ولد عمار، والمعلم محمد نجلروما Ngileruma والى برنو Borno. وتجرأ المعلم بللو وسأل أحمد بللو، مستشار سكتو السياسى، سؤالاً مباشرًا حول ما إذا كان رفضه الذهاب إلى ليجوس ناتجًا عن تردده، لأن ذلك سيبعده عن تولى منصب السلطان، لكن أحمد بللو آثر الصمت. لم يكن هناك اعتراض أيضًا على اختيار الحاكم بعض الأعضاء للحكومة المركزية من أمثال شتيما كاشيم البرنى Borno، والمعلم محمد رباط من أدماوا (ليحل محل المستشار السياسى Sardauna)، والمعلم أبى بكر تافاوا باليوا من باوتشى، والمعروف أن هؤلاء الثلاثة من الشماليين "التقليديين" لكنهم من دعائم ليست قريبة من المسارات المطروقة بين كانو Kano، وكاتسنا وسكتو. لم يكن ذلك من قبيل المصادفة، على الرغم من الفترة الزمنية التى انقضت على التوصيات الأولية التى جرى تقديمها فى مطلع العام ١٩٥١، أن تشمل قائمة الشرف فى العام الجديد، أسماء من قبيل شتيما Shettima ورباط Ribadu، وأبى بكر تافاوا باليوا.

قد تبدو استدعاءات أبى بكر تافاوا باليوا لقراء الصفحات السابقة من هذا الكتاب على أنها نوع من الترقية لرجل مخلص، شديد العزم، لكنه مُرهق ومُحبط، وهو صاحب ذكاء لكن خبرته متواضعة إلى حد أن إصراره على إقامة العدل فى مقاطعاته، يمكن أن يؤدى إلى تفكيك نيجيريا، إذا ما أفلح فى تحقيقها. فى ذلك الوقت لم يبرز فى قصر الحكومة البريطانية سوى ولد عمار وشتيما كاشيم، بفضل صفاتهما الشخصية وبفضل ضميريهما. لم يكن أحد يتوقع لأبى بكر التفوق على هاتين الشخصيتين. والفصول التالية من الكتاب توضح كيف أصبح أبو بكر صاحب عالم أوسع، دون أن يطرأ أى تغيير على شخصيته.

القسـم الثالث

وزير الموضوعات الفنية فى نيجيريا

١٩٥٢ - ١٩٥٧

أصبح بنطالاً يناسب كل من يريد ارتداءه(*)

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا، وهو من ترجمة المترجم.(المترجم)

فى السنوات الأولى من الحكم الوزارى شبه المسئول، كان التناقض الظاهرى يتمثل فى أن نيجيريا أصبحت أكثر استبطانًا، حتى وإن بدا اقتصادها أكثر تكاملاً على المستوى الدولى. كانت السياسة البريطانية الميَّالة إلى إحياء الحنين إلى الماضى شكلاً جديداً من أشكال العصر الإليزابيثى Elizabethan فى أعين الرومانسيين، ومع ذلك، فإن اهتمام الشعب البريطانى الكبير بما فعله باسمه فى مستعمراته الملكية بدا يتناقص، إلى أن بدأ يبرز من بين أفراد الجيل الجديد فى العديد من الدول الغربية، اهتمام وقلق عارض فى العالم النامى والآثار المترتبة على النمو السكانى فى البيئة الطبيعية للأرض، هذا الاهتمام والقلق كان منبعثًا من أقلية فاعلة من الشباب الصغير المتعلم التواق إلى البحث والتحقيق. كان نظراء هذا الشباب، فى بلد مثل نيجيريا، لا يولون "كوكب الأرض" أو إن شئت فقل "القرية الكونية" اهتمامًا، لأنهم كانوا مشغولين بالقنوات التى تؤدى إلى السلطة السياسية. هؤلاء النظراء لم يسلموا بالحقيقة التى مفادها أن أصل الشقاء الإنسانى واحد فى كل من الدول المتقدمة وغير المتقدمة، ولم يسلموا أيضًا بأن رفاه الإنسان لا يعتمد فقط على مستوى المعيشة. هؤلاء النظراء لم يستشعروا أيضًا أن بوسعهم تحمل الصدمة العاطفية الناجمة عن العطاء، التى ظن ورثة الجيل البرجوازى الأول لنظرية حالة الرفاه الجديدة، أنهم قد اكتشفوها ووقفوا عليها.

أما العاملون فى مجال الإدارة فى تلك الأراضى القفر الجرداء، والذين كانت مشاعرهم وأحاسيسهم أرقى إلى حد ما من مشاعر رفاقهم الحرفيين والتقنيين، فقد كانوا يعملون فى ظل إحساس متزايد بالضغوط القادمة من قوى بعيدة لم يعتقدوا أنها

كانت تفهم الحقائق الإنسانية الكامنة خلف الأكاديمى أو إن شئت فقل السياسة العالمية Weltpolitik. كان هؤلاء الإداريون يتطلعون إلى إعطائهم المزيد من الوقت كى يتمكنوا من تمهيد الطريق، وقيل لهم إنهم كانوا يلتمسون أعذاراً حمقاء فى عالم لم يحدث أن شُق فيه طريق من الطرق السريعة، بشكل مستقيم، مهما عظم الجهد المبذول فى تخطيط مثل هذا الطريق. وهنا بدأ أقران هؤلاء الإداريين وأصدقاؤهم والذين كانوا يشاركونهم أفكارهم، ينظرون إلى مراوغات هؤلاء الإداريين على انسحاب جبان من ميدان الإرشاد والتوجيه.

كان استعداد أبى بكر تافاوا باليوا أكبر من استعداد معاصريه المفكرين الذين يصغرونه سناً، فى ملاحظة الحرب الباردة المعاصرة، وفى تعرف حتمية التكامل بين الدول التى كانت غريبة تاريخياً أو إن شئت فقل: أعداء من الناحية التاريخية. لم يكن أبو بكر تافاوا باليوا من أولئك الذين يعزون الأوجاع الإنسانية إلى الظروف الاقتصادية، وإنما كان يعزوا ذلك إلى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وأن هذه العلاقة تعتمد على علاقة الإنسان بربه، ولم يكن أبو بكر أسرع من المفكرين الليبراليين الآخرين فى ملاحظة أن العالم المنكمش الذى يضم المزيد من البشر قد يتحول إلى مصدر للقلق وعدم الارتياح حتى وإن أصبح أكثر ثراء. وزادت مظاهر قلق الرجل من جديد، لكنها بقيت محدودة. ومع ذلك كله لم تكن نيجيريا إطاراً صغيراً بأى حال من الأحوال.

الفصل الخامس عشر

الوزير القادم من الشمال

"كل إنسان يُعلم إنسانًا"

فى مركز الحكومة

الشجرة الواحدة ليست غابة(*)

هناك براهين مفادها أن الشمال "أصاب نجاحًا فى إبطاء" التحرك صوب الاستقلال بعد العام ١٩٥١ الصفحات التالية تشير إلى أن التعامل مع الشمال على قدم المساواة، والذى تأخر إلى العام ١٩٥١، هو الذى هدأ التدافع على التبكير بطلب الاستقلال، الذى تجلّى بشكل منفصل فى كل من الشرق والغرب والنيجيريين، وأن ذلك العمل جاء بمثابة استباق لإصرار محتمل من جانب الشمال المسلم على الانسحاب. كان ذلك يمكن أن يؤدى فى وجه المقاومة البريطانية (التى كانت دبلوماسية أكثر منها عسكرية)، إلى محاولة الشمال استبدال مشاركة الكمنولث بنوع من الكونفدرالية الإفريقية الشمالية الخيالية، لو حدث ذلك لما بقيت "نيجيريا" بالشكل التى هى عليه الآن، لو حدث ذلك لأدى إلى اغتنام عام أو اثنين من الحرية. هناك حجة أخرى يمكن للقارئ الوقوف عليها مفادها أن زعامة الشمال الأساسية لو كانت بين يدى أى إنسان غير أبى بكر تافاوا باليوا، لحدث هناك شقاق وانقسام تحت أى ظرف من الظروف،

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا، وهو من ترجمة المترجم. (المترجم)

بغض النظر عن وجهة النظر البريطانية أو المصاعب الناجمة عن المواصلات، وعندها تصبح فرص الجنوب فى الاستقلال العاجل ضئيلة، سواء أكان ذلك الاستقلال فى شكل أجزاء وحدوية أو وحدات أصغر من الوحدات القائمة اللهم إلا إذا كان ذلك الاستقلال مصحوباً بعنف يسود كل أنحاء البلاد. كان الأمر سيتطلب المزيد من الوقت للتفاوض حول إيجاد حل لمشكلة توفير طرق تجارية جديدة للشمال، يزاد على ذلك أن مسألة الاستعمال التكتيكى للقوات البريطانية فى قمع المناوئين كان لا يمكن لها الحصول على تأييد كبير. من يمن الطالع أن السواد الأعظم من النيجيريين لم يكونوا يتصورون بقاء الإنجليز فى المناطق التى هم ليسو مرغوبين فيها، لكنهم كانوا متشككين فى تفاصيل الجدول الزمنى الذى لا يترتب عليه حدوث أية فوضى فى حال خروج البريطانيين.

من بين العوامل التى أدت إلى تقوية زعامة أبى بكر تافاوا باليوا على امتداد السنوات الخمس القصار التى أعقبت ذلك، ذلك العامل الذى تمثل فى أن نمط التعليم الذى كان سائداً فى الشمال النيجيرى قبل خمسينيات القرن العشرين (بل الأحرى قبل ستينيات القرن العشرين) لم ينتج عنه ذلك الذى حدده المؤرخون الاجتماعيون فى مقاطعات الجنوب على أنه تلك الطبقة من الشباب المتأورب إلى حد ما الذين تجذرت فيهم "سيكولوجية الثورة والتمرد التى تمثلت فى رفضهم الوضع الاجتماعى". التى يمكن أن يزرعها فيهم أتباع التغيير الجذرى. صحيح أن المعارضة الشمالية الراديكالية حاولت إثبات وجود مواز لتلك النماذج أو الأنماط الجنوبية بين مؤيديها فى الحضر، لكن ذلك الموازى لم يكن بالقدر الكافى، إذ كان عدد هؤلاء المؤيدين يعد بعشرات ليس إلا. ولم يحدث أن طلب أبو بكر تافاوا باليوا العون أو المساندة بأى حال من الأحوال من هؤلاء المؤيدين، ناهيك عن مستشار سكتو السياسى الرئيسى **Sardauna**. قد تكون مسألة تضاعف عدد السكان المغتربين فى ليجوس هم والشماليين أمراً راجعاً إلى المصادفة البحتة، هذا فى الوقت الذى وصل فيه عدد السكان فى كل من الشرق والغرب إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل الحرب. لكن ازدياد وخبرة أبى بكر بصورة

مضطردة، هو الذى أقنعه بصفته وزيراً مركزيًا، بأن وحدة نيجيريا أمر ممكن أولاً وقبل كل شىء (وذلك من خلال ذلك الذى يسميه المؤرخون القدامى "التدرج")، لكن فى ذلك الوقت، ومن سوء الطالع، لم يكن هناك أحد يدرك هذا المعنى غير أبى بكر نفسه. والمؤكد أن المُعلم محمد رباط Ribadu لم يحاول مطلقًا تحدى الدور الذى يلعبه أبو بكر فى هذا الاتجاه.

كانت دراسات ما بعد الحرب قد نقلت أبا بكر إلى عالم جديد تمامًا، لكن ذلك لم يدم سوى فترة محدودة، أصبحت النتيجة التى ترتبت عليها واضحة وبيّنة لذلك الرجل. والقارئ الغريب على مثل هذا الجو يحتاج إلى خيال واسع وقوى كى يفهم ذلك الذى يُسمّى "الصدمة الثقافية" التى يمكن أن تصيب شماليًا مسلمًا (أو بالأحرى موظفًا إداريًا شماليًا مغتربًا صاحب خبرة طويلة) عندما يجرى استدعاؤه إلى ليجوس فى زمن الاستعمار، لا لمجرد زيارة المقاطعة أو لركوب سفينة من سفن نقل البريد، وإنما لينظم شئون بيته على امتداد فترة طويلة. لم يكن الأمر مجرد التأكد من وصول الشحنات الأولى التى لا حصر لها من خضراوات، وورقيات وحبوب الشمال لتأمين الطعام المنزلى بصورة مستمرة ومتتالية. كان سكان ليجوس فى ذلك الوقت يقدرون بحوالى ربع مليون نسمة، إضافة إلى حوالى ٥٠٠٠ آخرين من "الأوروبيين" و "السوريين". كانت هناك فى ذلك الوقت دلائل على وجود بعض التوترات العرقية أو الاجتماعية بين الأفراد على الرغم من قلة تلك التوترات، لكن المقاطعات لم تكن تأخذ تلك التوترات مأخذ الجد أو توليها المزيد من الاهتمام. يزاد على ذلك أن منازل كبار المسئولين كانت تفتقر إلى وجود بساتين كبيرة لها حتى تضمن لها الخصوصية، من الفضوليين، وعلى الرغم من وجود البلاجات، والخلجان والمجارى المائية الصغيرة، وملاعب التنس والجولف التى يحتاجها الأوروبيون فى الرياضة لم يكن من حق أى إنسان الدخول إلى تلك الأماكن المفتوحة. كان الجنوبيون المتحضرون أو إن شئت فقل: المستغربين Westernized يمارسون لعب التنس والرياضات التنافسية الأخرى، لكنهم

نادراً ما كانوا يشاركون فى أنشطة البلاجات والسباحة الترفيهية، على الرغم من سرعة انتشار هذه العادة بينهم بعد عملية النجرنة Nigerianization واختلاط كبار الموظفين فى ساعات الفراغ.

فيما يتعلق بأبى بكر، الذى كان عدد سكان البلدة موطنه يقدر بحوالى ١٥٠٠٠نسمة إضافة إلى عدد من الأوروبيين يقل عن ٤٠ بريطانى (بما فيهم عائلات الضباط)، كانت مسألة عدم وجود غابة من غابات السافانا فى ليجوس القريبة، حتى يمكن للرجل أن يتنفس فيها هواء غير رطب، ناهيك عن حبه للصيد، فضلاً عن عدم وجود مزرعة أيضاً، كل ذلك أحدث نوعًا من الشلل العاطفى عند أبى بكر تافاوا باليوا. وعلى العكس من ذلك كان "احتياطى" هذا الرجل من السلوكيات الشمالية الشهيرة يشكل نوعًا من الغموض لدى أهل ليجوس والمقيمين فيها، الذين احتاروا فى اكتشاف ذلك الذى يكمن وراء هذه السلوكيات. يزاد على ذلك، أن الجالية الشمالية التى نزحت إلى ليجوس كانت مكونة من أولئك التجار غير المثقفين الأثرياء، الذين لا ينتمون إلى طبقة أبى بكر تافاوا باليوا، ولا يعنيهم سوى الجاه، والسلطة، والفلسفة. كانت هناك مساجد، لكنها لم تكن الأماكن التى يقصدها كل الأصدقاء والرفاق فى صلاة الجمعة، وأصبحت الصلاة من الأمور التى يتعين المداومة عليها ومراعاتها فى المنازل. كانت هناك طرق كثيرة حول باوتشى، ومع ذلك كانت مسألة عبور جسر كارتر إلى الأرض الأم، فى سيارة أثناء المساء وأثناء زحمة المرور، وبين الجموع الكبيرة من البشر أمر لابد منه للتمتع بالهواء الطلق Shaiska.

كان أبو بكر قد أدى قسم العضو المركزى فى اليوم الخامس من شهر يناير، وقسم الوزارة فى اليوم السابع عشر من الشهر نفسه. واعتباراً من وصول الرجل إلى ليجوس كان أمامه أعمال يتعين عليه القيام بها، هذا العمل كان محيراً له وجديداً عليه وملحًا أيضًا (على حد قوله لرايت Wright: **"أنا مشغول تمامًا، أقرأ وأقرأ وأقرأ طول الوقت، وبدأت عملى الجديد المهم، وأنا أرى أن مسألة تعودى على هذا العمل سوف**

تستغرق بعض الوقت. الناس هنا طيبون ومتعاونون")، وعلى الرغم من النصائح التى كان يسديها المغتربون الساعون إلى إثبات فائدتهم وجدواهم، لكنهم كانوا لا يعرفون شيئًا عن أحوال ذلك القادم الجديد أو أساليبه، فإن الأسرة هى ومجموعة الخدم القليلة الذين من بينهم أحمد أكوتو ذلك العامل الذى تخرج من مدرسة باوتشى المتوسطة، كان يتعين عليهم تعرف هذه الأمور الروتينية بأنفسهم دون إرشاد أو توجيه كبير من قبل رب المنزل. كان المعلم أبو بكر تافاوا باليوا قد حصل على إجازة بدون راتب من إدارة باوتشى المحلية (على الرغم من احتفاظه بعضوية مجلس الأمير) فى التاريخ الذى حصل أبو بكر فيه على حقيبة الأشغال المركزية من الحاكم، كانت تلك الحقيبة تتضمن مشروعات المياه الوطنية، والمتاحف، والأثريات. وتضاعف راتب أبى بكر الأساسى: فقد أصبح يتقاضى راتبًا شهريًا مقداره ٢٠٠ جنيه إنجليزى بصفته عضوًا فى الجمعية العمومية، وقد تضاعف هذا المبلغ لأنه كان عضوًا أيضًا فى مجلس الممثلين، وبصفته أيضًا وزيرًا مركزيًا كان يتقاضى أيضًا ٤٠٠ جنيه إنجليزى، جرى زيادتها بأربعمائة جنيه إنجليزى لأن حقيبة الرجل تتعلق بموضوع مشترك مع الوزراء الإقليميين، لو تولى الرجل حقيبة مركزية صرفة، لحصل على ٣٠٠ جنيه إنجليزى أخرى، لكنه لو استمر فى تقاضى راتبه من الإدارة المحلية، لجرى خصمه من الراتب الذى يتقاضاه على المستوى المركزى. وبذلك يصبح إجمالى راتب أبى بكر تافاوا باليوا الشهرى حوالى ١٥٠٠ جنيه إنجليزى، متساويًا بذلك مع راتب ضابط كبير من ضباط الأحياء لكن بدون بدل الاغتراب، وكان يحصل على ثلاثين شلنًا كل يوم على سبيل بدل الانتقال، متساويًا فى ذلك مع البدل الذى يحصل عليه الممثل المقيم. كان مقررًا على الرجل أن يدفع إيجارًا نظير السكن الذى يقيم فيه فى منطقة إيكوى Ikoyi السكنية، التى كان بعض زملائه من الوزراء يكرهونها لأنهم لم يُخَيَّروا فى ذلك، اللهم إلا إذا تعين عليهم أن يختاروا مساكنهم بأنفسهم فى أحياء ليجوس. هذه البيئة الجديدة لم تمنع الرجل من تناول أكلاته البسيطة بلا أى تمييز مع العاملين فى بيئته، ومع أسرته، وكان الجميع يجلسون على الأرض.

تقاضى أبو بكر أيضًا دفعة مقدمة من راتبه لشراء سيارة صالون من طراز شيفروليت Chervrolet وسائق وجدول صيانة محدد من قبل إدارة الأشغال العامة، كما حصل الرجل أيضًا على علاوة لتعويض انخفاض القوة الشرائية للعملة، بحيث تغطى هذه العلاوة المدفوعات الشهرية الآجلة. واحتفظ الرجل أيضًا بسيارته الخاصة من طراز فورد بايلوت هى وسائقه الخاص. وسرعان ما ارتفعت المطالبات، فى ضوء المقارنات ـ التى لا تقوم على المنطق أو ظروف السوق، وراحت تنادى برفع الدخول العامة للرؤساء Chiefs، ورفع مرتبات الغالبية العظمى من كبار الموظفين المدنيين. عارض الحاكم فى بداية الأمر، مسألة إعطاء المدعى العام والسكرتير المالى رواتب أكثر مما تم الاتفاق عليه، لكنه وافق على ذلك فى نهاية المطاف، الأمر الذى دفع الوزراء إلى الإصرار على حتمية منح أعضاء المجلس البريطانى السابقين زيادة مماثلة لهذه الزيادة. وواصل الحاكم، دون جدوى، توجيه النصح للسيطرة على الطلب على السكن الأفضل وطلب المزيد من الأثاث، والسيارات الكبيرة والبدلات الكبيرة وكان أبو بكر تافاوا باليوا المؤيد والمناصر الوحيد للحاكم فى هذا الصدد، مدركًا أن ماكفرسن كان يستشرف أخطار اتساع الفجوة بين الأفارقة الذين "يملكون" والذين "لا يملكون" مع اقتراب الحكم الذاتى. لم يعترض الحاكم على تقرير الرواتب ، الذى أعده ملنى ـ ليفى وكان يدعم ويعضد ما سمى "بالعلاوات المؤقتة" فى العام ١٩٥٠، وأعاد إحداث تداخل فى سلم الرواتب بين المرتبات الوسيطة والمرتبات الدنيا ممهدًا بذلك الطريق إلى نشوء طبقة "تنفيذية" وسيطة فى المستقبل.

قام ماكفرسن بإنشاء الوزارات الهيكلية بطريقة متسلسلة، ابتدأها بأربع وزارات: وكانت مسألة تحويل الملفات أو نقلها من أرشيفات (محفوظات) السكرتارية القديمة التى اعتمدت عليها السجلات القديمة مسألة صعبة ومضنية. كان لارى Larry آرمسترونج المهندس المدنى الذى وقع عليه الاختيار ليكون أول ضابط يعمل

سكرتيراً رسمياً لأبى بكر تافاوا باليوا فى فترة تنمية ما بعد الحرب. كان لارى أرمسترونج مهندساً مدنياً من قَبل فى بلدة ميدوجورى Maiduguri ثم مهندساً فى أحد أقسام كادوناد، وكان قد تعلم اللهجة العربية المصرية فى صباه، كما كانت له علاقة أو صلة حديثة بلغة الهوسا. كان أبو بكر قد سبق له لقاء لارى أرومسترونج فى فندق هافيلند دوف فى مطار إيليجا Ileja واصطحبه معه إلى دار ضيافة إيكوى Ikoyi بصفة مؤقتة إلى أن يتم الانتهاء من تجهيز المنزل الحكومى الذى سيجرى فيه استقبال عائلة الوزير وأهل بيته الذين كانوا مسافرين عن طريق السكك الحديدية. كان مكتب أبى بكر الجديد فى مركز رئاسة إدارة الاشغال العامة بالقرب من مضمار السباق، وكانت مسألة تعرف الصورة أو الشكل الذى يكون عليه الوزير واحدة من المشكلات الرئيسية فى تلك الفترة الباكرة. كان من السهل البدء بمحاكاة نظرية السيطرة السياسية السائدة فى مقر الحكومة البريطانية ، لكن قلة قليلة من الناس هم الذين كانوا يعرفون ذلك الذى ينبغى عمله، ومن الذى ينبغى أن يقوم بذلك، وما هى الاشياء التى لا ينبغى القيام بها. لم يكن أرمسترونج وحده الذى لا يعرف شيئًا سوى التوجيه الذى يحتم بل ويقضى عليه بمساعدة وزيره بكل الطريق الممكنة وحسب استطاعته. وطبقًا لما أوردناه فى الفصل الأخير، فإن المسائل الإجرائية فى مجلس الوزراء فى مقره فى دواننج ستريت ، والتى انحدرت من القرن الثامن عشر على إيدى والبول Walpole وهانكى Hankey، جرى توصيلها وإفشاؤها سراً إلى فولى Foley نوينز Newns، البديل المقترح للكاتب السابق، الذى كان أمينًا للمجلس التنفيذى البائد، الذى سبق أن أعد دلياً للأحوال والظروف المحلية، جرى شرح هذه السوابق كلها للوزراء بعد أن جرى إحضارهم على التوالى بواسطة سكرتيرهم لأداء يمين الوظيفة والسرية فى مكتب مجلس الوزراء الجديد(الذى جرى تصميمه وبناؤه ليكون مجاوراً لمقر الحكومة وذلك بناء على نصائح وتوجيهات صدرت عن فولى ليونز إلى مهندس تنمية ما بعد الحرب). كان هؤلاء المهندسون على "علاقة ود وتعارف" مع كل من السير جون ماكفرسن، والأمين العام، والمدعى العام، والسكرتير المالى، وكانوا قد تلقوا جدول أعمالهم السرى الأول هو ومذكرات المجلس من فولى نوينز الذى كان أمينًا للمجلس .

الحقيقة الغريبة، التى كانت تتكرر فى كثير من المستعمرات البريطانية على مر الزمن، تتمثل فى أن لا أحد كان يعى أو بالأحرى، كان "مدربًا" على مسألة الرياسة، أو على خدمة الوزارة الاستعمارية، اللهم إلا عن طريق الممارسة، (أو عن طريق الممارسة الصناعية البريطانية، على حد قول المثل السائر) والملاحظة المراقبة. كان هناك "كود السلوك الوزارى" السرى، كما كانت هناك أيضًا "ملاحظات الإجراءات الإدارية"، بالشكل الذى اختصره عن الإجراءات المماثلة المعمول بها فى مقر مجلس الوزراء البريطانى، لكن هذه الملاحظات كان يتحتم تفسيرها وشرحها من جديد لكل المبتدئين الدستوريين، والمسئولين والسياسيين، دون أى توجيه أو إرشاد مباشر من أحد من أولئك الذين ربما يكونون قد تشربوا الخبرة من الديمقراطيات القديمة. والسبب فى ذلك أن تعلم أصول العمل البرلمانى لابد أن يكون مسألة علنية وتحت إشراف العارفين بأصول هذا العمل. لم تكن اجتماعات مجلس الوزراء أمرًا ثابتًا ومحددًا، قلة قليلة جدًا من تلك الاجتماعات التى كانت تطلق فيها الألعاب النارية، كانت تتم بسهولة وعلى وجه السرعة، نظرًا لأن جداول أعمال الاجتماعات التى من هذا القبيل تكون تقليدية وعادية تمامًا، وعلى حد قول السير جون، رئيس المجلس، فإن هذه الاجتماعات لم تكن تمضى على ما يرام نظرًا لأن بعض الأفراد سيئى الخلق كانوا يتشككون فى وجود شىء من الاستخفاف، أو يكرهون الغليان أو إن شئت فقل الحساسية الشديدة من جانب الأفراد الآخرين، لأن السياسة الإقليمية كانت تؤدى إلى إحداث شىء من التغيير فى صيغة المقترحات الواردة فى جدول الأعمال. وعلى الرغم من أن ذلك كله كان يصطبغ بالصبغة النيجيرية، فإنه كان شبيهًا إلى حد كبير بالهيئات والمجالس، واللجان فى أى مكان آخر. لكن سرعان ما بدأ مجلس الوزراء يعمل مثل الساعة تمامًا من حيث الانضباط، نظرًا لوجود مكتب كانت تتمثل مهمته فى المحافظة على معايير العمل المتبعة فى مقر مجلس الوزراء البريطانى، ومنذ الاجتماع الأول شهد المجلس إرسال محاضر الاجتماع إلى مكاتب الوزارات خلال أربع وعشرين ساعة. وعلى مر السنين أنجز المجلس قدرًا كبيرًا من الأعمال ووافق على كثير من القوانين المهمة والمعقدة الخاصة

بالتقدم للمجلس. وبذلك أصبحت إجراءات نيونز بمثابة نموذج جرى الاقتداء به فى كثير من البيئات فى سائر أنحاء عالم إنهاء الاستعمار البريطانى الذى دام إلى أواخر سبعينيات القرن العشرين.

كان مدير الأشغال العامة لا يزال على رأس إدارته، وكان نوابه فى الأقاليم الثلاثة لا يزالون مسئولين أمامه عن المشروعات الفيدرالية. وكان على أرمسترونج القيام بالأبحاث وإعداد الأوراق والمواجيز المطلوب من الوزير تقديمها والدفاع عنها أمام المجلس (مجلس الوزراء) أو فى المناقشات التى تجرى فى مجلس الممثلين، وكان على أرمسترونج مساعدة الوزير بالملاحظات السريعة التى تأتى من الصندوق الرسمى فى المجلس، أثناء الرد على الاستجوابات الشفهية والملاحق التكميلية، كان على أرمسترونج أيضًا التأكد من قبول المدير للمواجيز والاستجوابات. فى تلك الأيام الأول كان السكرتير الخاص لا يُطْلبُ منه إلا نادراً، أن يترك وزيره على انفراد مع أى أحد من الزوار. حدث أن جاء رجل لبنانى محترم لزيارة أبى بكر تافاوا باليوا، وطُلب من أرمسترونج أن يتركهما وحدهما. وقال المُعلم أبو بكر بعد الزيارة: **"السبب وراء طلبى منك أن تتركنا وحدنا هو أن الموضوع الذى كنت أناقشه مع الزائر لا علاقة له بالعمل الحكومى، وأنا أؤكد لك، أن ردى على طلب هذا الرجل كان بـ"لا"!" ثم أردف أبو بكر قائلاً: " إنه سيأتى إلى منزلى مساء هذا اليوم، وأنا لا أجد فى ذلك عجبًا أو دهشة، لكن الرد الذى سأعطيه إياه سيكون أيضًا "لا"!** ذات مرة، وعندما ذهب أرمسترونج ذات مساء إلى منزل أبى بكر تافاوا باليوا حاملاً إليه رسالة، وجده كعادته جالسًا على الأرض مع زائر من أقاربه ويتناول وجبة المساء مع الخادمة، وطلب أبو بكر من أرمسترونج الانضمام إليهما فى وجبة المساء، وجلس أرمسترونج القرفصاء مثلما تعلم يوم أن كان فى القاهرة. وهنا علق أبو بكر قائلاً: **"أنا كما ترانى الآن، يا أرمسترونج، أفضل الحياة البسيطة.**

قيام الوزير بالجولات التفتيشية يعد واحدة من بين الطرق القديمة لانشغال الوزير (وبالتالى ابتعاده عن طريق المدير المهنى)، وفى مثل هذا الحال يجد آرمسترونج نفسه مسئولاً عن تنظيم دور الضيافة، والتغذية، ورد مجاملات الضيافة فى سائر أنحاء الريف، وفى واحدة من تلك المناسبات تحتم على أرمسترونج إحضار ولدى الوزير صغيرى السن من باوتشى لكى يلحقا بوالدهما فى المنزل رقم ٢١ فى شارع لوجارد فى إيكوى Ikoyi. يزاد على ذلك أن رحلات السيارات التى تصل إلى مئات الأميال فى اليوم الواحد مكنت الوزراء هم وسكرتيريهم الخصوصيين من تعرف بعضهم البعض تعرفًا حميمًا، بحكم دخولهم فى حوارات طويلة مع بعضهم البعض، فى الوقت الذى تتبعهم الأمتعة فى سيارات النقل. سمع آرمسترونج أبا بكر ذات يوم وهو يقول إنه سمع من جدته عندما كانت تحكى له، أن الغزاة ذبحوا زوجها أمامها، وذلك قبل أن يستقر الحكم البريطانى فى البلاد.

استطاع أبو بكر بصورة متدرجة ومن خلال تجاذب أطراف الحديث فى الحوارات التى كانت تدور بينه وبين مدير مكتبه، أثناء تجولهما فى الغابة سويًا، استطاع تعرُّف ذلك الذى يتحدث عنه المدير عندما ينهمك فى الحديث عن فنيات المهندس، كما تعرَّف أيضًا تلك الأجزاء من نيجيريا التى لم يسبق له أن رآها أو تعرفها، وكيف تدار وكيف يعيش سكانها. كان أحد المواقع الإنشائية التى اصطحب آرمسترونج أبا بكر تافاوا باليوا إليها عبارة عن وصلة كبيرة فى أنبوب الماء الرئيسى التى كان يتعين استبدالها فى الوقت الذى يقل فيه الطلب على الماء أى فى الفترة من الواحدة إلى الثالثة صباحًا. وتحت الأضواء الكاشفة راح أحد مهندسى المياه يشرح عملية قفل الماء واستبدال الأنبوب المعيب، وراح أبو بكر يراقب ويشاهد وهو مبهور ومسرور، المفتشين البريطانيين وجماعة العمل وهى تنهى العمل وتعيد إمداد العاصمة بالماء. أثناء عودة الرجل فى سيارته فى ساعة مبكرة من النهار، علق الرجل أنه لم يخطر بباله أن يرى

أوروبيين فى الحفرة مع العمال الأفارقة، وقد ذكر أبو بكر هذه الواقعة فى مناسبة لاحقة لضابط الحى الإدارى فى باوتشى، الذى انشرح صدره وهو يؤكد لأبى بكر أن حفارى الأبيار المغتربين فى المقاطعة ينزلون أيضًا فى الحفر التى يحفرونها هم وفرق العمل، وقد يصل عمق الحفرة إلى مئات عدة من الأقدام. وفى مكان آخر كان هناك برنامج الطريق الرئيسى الذى كان يتضمن استعمال الأرصدة المركزية فى تطوير كثير من الطرق الرئيسية. إلى المستوى "أ" (الذى يكثر فى الجنوب عنه فى الشمال) على حد تعبير مستشار سكتو السياسى الرئيسى) يقود وزير الأشغال إلى جميع الأقاليم تقريبًا طوال السنوات الثلاثة التى أعقبت ذلك.

بانتهاء فترة الاستقراء هذه بدأت نقائص تلك المنظومة الوزارية الجديدة تبدو للعيان بشكل واضح تمامًا. لم يؤد حضور نواب الحاكم الثلاثة هم والوزراء الثلاثة الذين لا يحملون أية حقائق (أمير كاتسنا، وملك Ooni الأيف Ife والدكتور إنديلى En-deley من جنوبى الكاميرون) إلى إحداث أى تغيير أو فارق فى نوعية العمل. وحدث فى الشمال بصفة خاصة استياء مضاد مفاده أن القوانين الصادرة عن المجالس التشريعية الإقليمية يتعين الموافقة عليها من الحاكم، من الناحية الاسمية، وذلك بناء على توصية بذلك من مجلس الوزراء، الذين كان السواد الأعظم منهم من الغرباء على الإقليم. كان هناك أيضًا اعتقاد مدمر آخر مفاده أن الأمين العام كان يعترض على الإشارة إلى السلطات الإقليمية فى الصحيفة الرسمية على أنها "حكومات". وحتى قبل هذه المرحلة كانت هناك أيضًا مشكلات مع الوزراء بصفتهم أفراد، وهذا أمر مألوف تمامًا فى كل إدارة من الإدارات الجديدة فى سائر أنواع الحكومات، مثل ذلك الوزير الذى طلب إطلاعه على مراسلات وزارته كلها، إلى أن ثبت له أنه سيمضى سنوات الوزارة كلها فى قراءة المراسلات الأمر الذى لن يعطيه فرصة التعليق واتخاذ القرار. كان بود Bode توماس Thomas أول الوزراء الجدد الذى أصر على حتمية عنونة الملفات عنونة واضحة وتسجيلها على أنها ملفات وزارية، منهيًا بذلك كل الآثار المتعلقة

بالسكرتارية، وطلب حفظ هذه الملفات بطريقة لا تسمح للحرفيين فى وزارته بالاطلاع عليها. وسرعان ما أدرك الحاكم أيضًا المشكلة التى مفادها أن وزراءه الذين جرى تعيينهم من قبل المجالس الإقليمية قبل أن يبدأ سريان السياسة الحزبية، كانوا مسئولين أمام مجلس مركزى كانت أغلبية الثلثين فيه كافية للإطاحة بهؤلاء الوزراء كانت أغلبية المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى الشرق، على سبيل المثال، هى التى أدت إلى تعيين أربع وزراء إلى ليجوس التى ظهر فيها المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى على أنه المعارضة الرئيسية. هناك وزير آخر، هو السيد/ أركبو Arikpo، كان ينظر إلى المجلس باعتباره مجموعة حكومية مكونة من ١٨ عضواً يواجهون معارضة قوامها ١٣٠ عضواً، وجرى تقديم الحل العاجل عن طريق الأفراد والجماعات التى راحت تُغَلِّب المنافع على الأضرار، لكن هذه العملية أكدت أن غالبية الوزراء لم يكونوا راغبين أو مهتمين باستمرار الحكومة المركزية لأنها لا توحى بالاهتمام بمصالح مواطنيهم الإقليمية. يزاد على ذلك أن الوزراء كانوا يغارون من مظاهر زملائهم من الأقاليم الأخرى الذين كانوا مخولين سلطات إعطاء التعليمات، من خلال مديرى الإدارات الخاصة بالتنفيذ فى مواطنهم، هذا فى الوقت الذى كان الساخرون يسلمون بأن الأمراء والأباوات Obas يجرى الهجوم عليهم طريق القرارات التى تصدرها الإدارات الإقليمية والتى يمكن عزوها إلى رعاياهم الذين جاءوا من عامة الناس لينضموا إلى مجلس ليجوس.

أضف إلى ما تقدم أن ممارسة الخدمة المدنية التشريعية لمسألة نشر التشريع لم تساعد على خلق أى نوع من الفهم، ولم يتحقق لها ذلك على امتداد سنوات بعد ذلك: هذا يعنى أن القرارات التى يصدرها مجلس الوزراء، بمقتضى السلطة المخولة له فى اللائحة، كانت لا تزال فى يد الحاكم، على الرغم من أنه أصبح يتعين عليه عدم التصرف أو إصدار القرارات إلا بعد الاستماع إلى المشورة الجماعية الصادرة عن أعضاء المجلس، لكن العرائض والوثائق المنشورة فى الصحيفة (الرسمية) لم تبد

المـتـشـككين خـائنة لأى شكل من أشكال التـقـدم العلمى سـوى الأوتوقـراطيـة(*) الاستـعـمارية، نظراً لأن هذه العـرائض والوثائق كانت تبدو "بأوامر من سيـادته" فوق اسم سكرتير مـجلس المغتربين. جرى اكتشاف بعض الأمور الشـاذة الأخرى إذ كان هناك على سـبيل المثال أربعة وزراء للتعليم (كان اثنان منهم يحملان حقيبة "الخدمات الاجتماعية") فى المجلس المركزى، على الرغم من أن ثلاثة من هؤلاء الأربعة كانوا من أصـحـاب المقـاعـد الخلفـيـة فى الأقـاليم: والسـبب فى ذلك هو أن كل وزير فـى المجلس التنفيذى الشمـالى، باسـتثناء سلطان سكتـو Sokoto، يعد عضـواً فى مـجلس المندوبين والممثلين، شـأنه فى ذلك شأن السواد الأعظم من وزراء الغرب والشرق. زد على ذلك أن رفض الشمال فى المؤتمر الدستورى تأييد مسـألة أن يكون جنوبى متحدثًا رسميًا باسم المجلس، أسفر عن تعيين مساعد الكاتب فى البرلمان البريطانى رئيسًا للبرلمان (أصبح فيما بعد السير إدوارد فيلوز Felleowes ومن ثم أصبح كاتبًا لمجلس العموم البريطانى، بعـد أن جرى إحـضـاره فى البداية لتـقديم النصح والمشـورة فى المسـائل الإجـرائيـة البرلمانية وإعداد مسودات الأوامر المستديمة فى المجالس النيجيرية كلها). واستمرت زيارات ذلك الرجل لنيجيريا من أجل القيام بذلك العمل، وكان يحظى باحترام عام، لكنه كان يـجرى انتقاده بصفة دورية نظراً لأنه كان يعطى أعضـاء المعارضة قدراً عادلاً من الوقت والصبر والتـحمل. ومن بين الأمور التـافـهة التى تعين على إدوارد فيلوز التعامل مـعـها . أن أعـضـاء المجلس، على العكس من الوزراء، لم يرثوا من المجلس التـشـريعى القديم اللقب التشريفى الذى يـقولون له: The Honourable فى المجتمع الخارجى، وهذا اللقب يستخدم من باب التكريم والتشريف فى الحوار إذ يقال: "العضو المكرم" والمحترم عن دائرة كذا؛ استـعـمـال هذا اللقب أدى إلى شـىء من الإرباك، ولم يُجْـد الأمـر نفعًـا نظراً لأن بعض أعضـاء المجلس أنفقوا أمـوالاً فى طباعة بطاقات الزيارة منتـهجين فى

(*) الحكم الفردى المطلق . (المترجم)

ذلك الأسلوب القديم - لم تُطبع لأبى بكر تافاوا باليوا بطاقات زيارة أو بطاقات أعمالية إلا بعد وقت طويل، عندما أحضر مدير مكتبه تلك البطاقات ليأخذ عليها موافقة من أبى بكر، وبرغم ذلك لم يستعمل الرجل هذه البطاقات إلا نادراً.

لم يبدأ ظهور الشخصيات فى مجلس الوزراء إلا بعد أشهر قليلة من تعامل الوزراء مع بعضهم البعض. كان الدكتور أى E أم M إل L اندليلى Endegly وهو كاميرونى وزيراً بلا حقيبة، وكانوا ينظرون إليه باعتباره مجرد موظف طبى سابق. كان السيد/ ألفريد Alfred شوكاديفو Chaukadifu نوابا Nwapa، وزير التجارة والصناعة، محامياً صحافياً من الشرق، متزوجاً من طبيبة حسناء، كان يُعامل فى بداية الأمر باعتباره أهم شخصيات المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، إذ كان يتولى قيادة المحاضرين الأكثر منه فكراً وعلماً، والذين كانوا فى حقيقة الأمر مجرد مجندين، وكان المجلس يضم أيضاً السيد/ إنى Eniنجوكو Njoku، عالم النبات، حامل درجة الدكتوراه، والسيد/ أوكوى Okoi أركبو Arikpo المتخصص فى الأنثربولوجيا (والذى كان يقوم ببعض الأبحاث الميدانية فى أوجوجا (Ogoja. كان الدكتور نجوكو فى الخامسة والثلاثين من عمره، ولم يكن معتاداً مطلقاً على الرذائل السياسية، وربما كان ذلك السبب هو الذى جعل من هذا الرجل واحداً من أوائل أصدقاء أبى بكر الإجباويين Igbo، لكن آركبو تعلم كيف يقابل العنيف باللطيف. أما المحامون الغربيون الثلاثة - أولهم السيد/ صامويل Samuel لادوك Ladoke – أكنتولا Akintola (المحرر المتحمس السابق سليط اللسان فى جريدتى سرفس Service وإكسبرس Express وهو الشخص الوحيد الذى طالب بحقيبة محددة، حقيبة العمل، نظراً لاهتمامه بالإضراب الذى حدث فى العام ١٩٤٥ من ناحية، والدروس المستفادة من أحداث إطلاق النار فى إينوجو Enugu من ناحية أخرى)، وثانيهم شيف Chief آرثر Arther برست Prest، البالغ من العمر ستة وأربعين عاماً وهو من طائفة الأتسكيرى Itsekiri فى منطقة وارى Warri، هذا الرجل ضابط شرطة سابق محب للسيدات ومتيماً بهن، وثالث هؤلاء المحامين هو

شيف Chief بود Bode توماس Thomas وهو من أويو Oyo اليوروبا، وهو داهية ووقح ويعمل نائبًا للسيد/ أولوو Awolowo – هؤلاء المحامون الثلاثة ربما كانوا مجرد ظلال للسيد/ أو Awo زعيم حزب جماعة العمل، الذى كان يجلس فى المقاعد الخلفية، أكثر من كون السيد/ نوابا Nwapa ظلاً للأستاذ الجامعى إيو Eyo إيتا Ita، الذى كان شخصية محورية فى المجلس التنفيذى فى إينوجو، أو من كون أبى بكر تافاوا باليوا ظلاً لمستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna. كان الشماليون يقولون: إن أكنتولا فاسد وبذىء، وتوماس Thomas عدو ومستهزئ، أما برست Prest، الذى لم يكن غريبًا على المسكرات، فكان أنيسا وعذب المعاشرة. أما شتيما Shettima كاشيم، وزير الخدمات الاجتماعية والرفاه، لم يشعر مطلقًا بالارتياح كلما كبرت الجماعة، وكاشيم هو الذى أدخل صرامة النبالة الكانورية إلى الجماعة، وهو أيضًا الذى ضم إلى الجماعة، مُحْدث النعمة، ذلك الأرستقراطى الجديد المدعو محمد رباط Ribadu، ذلك الفولانى الحرون المحترم، الذى يتميز بشىء من الظُّرف واحترام الخير والطيبة فى الآخرين، لكن أبا بكر وهو فى الأربعين من عمره، كان الصحفيون ينظرون إليه باعتباره أكثر "احترامًا ووقارًا" ممن سبق الإشارة إليهم، ولما كان أبو بكر هو ذلك الشمالى الذى يُشْعِرُ المتحمس بالعجز عن عدم احترامه: فقد أطلقت عليه جريدة التايمز Times اللندنية كُنْية "رجل الشمال القوى صاحب الصوت الفضى".

بدأت تتسرب بعض القصص والروايات عن أمانة هذا الرجل واستقامته. كانت تلك القصص تُحْرِجُ، فى بعض الأحيان، كبار المسئولين المغتربين الذين صوروا أنفسهم على أنهم عوامل مسرحية تدير مجموعة من فنانى العروض المزاجية (العاملون الذين من هذا القبيل يؤمنون أن التسليم بمطالب الوزراء المباشرة يمكن أن يجعل من الحزم فى الأمور الجدية أمرًا مقبولاً إذا ما تطلب الأمر ذلك فى مراحل لاحقة). أمانة هذا الرجل واستقامته كانت أقل إحراجًا عند زملائه السياسيين، الذين حسبوه سخيفًا فى تسوده للمنظومة. وأصدق مثل على ذلك يتمثل فى مسألة أجهزة تكييف هواء

الغرف، التى كانت لا تزال مجرد ترف على الساحل، بل وغير معروفة تماماً فى الشمال اللهم باستثناء منزل أو اثنين من منازل المبشرين الأمريكيين التى تعتمد على مولدات كهربية خاصة: كانت هناك بعض الضغوط على هيئة تنمية ما بعد الحرب كى تخصص تلك المكيفات للوزراء باعتبار أن هذه أولوية، ثم عُرض الأمر على مجلس الوزراء للبت فيه، مع توصية مفادها أن كل وزير من الوزراء ينبغى أن يحصل على مكيفين. قال أحد الوزراء: **"أنا لدى بالفعل ثلاثة مكيفات"، وقال المعلم أبو بكر: "حسن، أما أنا فلدى مكيف واحد، وبذلك نكون قد صححنا الأمر، أليس كذلك؟"**. كان أبو بكر يراقب عن طيب خاطر السير جون ماكفرسن وهو يمزج الاحترام بلين العريكة، وعدم النفاق، ويمزج بساطة التصرف بحزم القيادة، يزاد على ذلك أن قدرته على تناسى المزعجات بابتسامة توحى بالرضا والقناعة قويت واشتدت بفعل مراقبته لهذه الخصلة التى كان ماكفرسن ماهراً فيها. كان أسلوب الحاكم يقوم على اعتقاد مفاده أنهم جميعاً يتعين عليهم العيش مع بعضهم البعض، على أمل أن الأمور تتحسن بصورة دائمة.

بدأت عملية كسر الحواجز بعد ساعات العمل بواسطة السكرتير الاجتماعى فى نادى الجزيرة الإفريقى، المدعو الدكتور موسى **Moses** أدكويجو **Adekoyejo** ماجيكودنمى **Majekodunmi**، طبيب أمراض النساء، وهو من اليوروباويين الذين يدينون بالكاثوليكية الرومية، وهو أخصائى حكومى كان يشرف فى ذلك الوقت على واحدة من دور الرعاية الطبية الشعبية، وعلى الرغم من أن كثيرين من أصدقائه كانوا يلعبون أدواراً سياسية بارزة فى حزب جماعة العمل، فإنه كان يرى الوزراء الشماليين الثلاثة يتعين أن يحظوا بترحيب المجتمع فى ليجوس على الرغم من أنهم كانوا ممن لا يعاقرون الخمر أو المسكرات مطلقاً. اكتشف أبو بكر أن هؤلاء الوزراء كانوا راغبين فى العمل ومستعدين للتجاوب واجتماعيين أيضاً، واندهش أبو بكر أيضاً عندما اكتشف أن النادى يخدم غرضاً لم يَضِع منه فى باوتشى (التى يعد الدكتور ديكو **Dikko** فيها عضواً ناشطاً فى النادى المحلى)، بل إن الرجل كان ينشرح صدره ويحس بشىء من

التملق عندما كان الدكتور ماجيكو دونمى Majekodunmi يصطحبه إلى النادى ليحتسيا سويًا عصير البرتقال ويتسامرا شيئًا من الوقت. كان ذلك الطبيب يسكن فى منطقة فورس Force رود Road مع زوجته الإيرلندية، وأصبح أبو بكر تافاوا باليوا صديقًا حميمًا للأسرة ولكل منهما، كما اتخذ أبو بكر ذلك الرجل طبيبًا لأسرته، وكان يستعير منه الكتب أيضًا. تخيل الصديق الجديد، شأنه فى ذلك شأن الدكتور ديكو Dik-ko، أن بعضًا من العقبات التى اعترضت طريقه إلى بريطانيا ومنها عندما كان يسافر إليها للتدريب، عندما كان محترفًا حديثًا ومؤهلاً، كانت تلك العقبات تتعلق من الناحية الاجتماعية بأصله العرقى أكثر منها بنقص خبرته الفنية. يزاد على ذلك أن خبرة الرجل الطبية فتحت الباب على مصراعيه لقيام صداقة بين عائلته والزوجتين اللتين كانتا تقيمان مع أبى بكر فى ليجوس فى أغلب الأحيان وهما على وجه التحديد: عائشة جميع، الزوجة الأولى، وإنى Inni الزوجة الحسناء الشابة: كان أبو بكر يمزح بطريقة مكشوفة بعض الشىء مع طبيبه وعلى نحو لم يعهده أصدقاؤه العاديون، وكان يقول إنه يتحتم عليه إعادة زوجته الأولى إلى موطنه - إذ يكفى أن يمس طرف ملابسها لكى تحمل وتصبح حبلى. هذه العلاقة الجديدة كانت ملحوظة وواضحة، وربما كانت سببًا فى اعتقاد الرجل أن حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، الذى كان الإجباويون Igbos لا يزالون ينظرون إليه من منطلق أنه الحلبة التى تُوَحدُ خريجى كلية كاتسنا كبار السن، كان يتطلع إلى نوع من التحالف مع حزب جماعة العمل. وخلال فترة قصيرة قامت صداقة اجتماعية متينة مع أوبا Oba ليجوس الجديد البالغ من العمر تسعة وخمسين عامًا، هذا الأبا اسمه أدنيجى Adeneji أديلى Adele الثانى، الذى كان يعمل رسامًا مساحيًا فى الشمال، ثم عمل بعد ذلك مسئولاً فى خزانة الإيرادات المحلية فى كانو Kano، قبل العودة إلى ليجوس لتولى منصب الأبا فى العام ١٩٤٩ . كان الشماليون الباحثون عن تعويضات العمال لدى المحكمة العليا يأتون إلى شتيما كاشيم وأبى بكر تافاوا باليوا، وقد أفضى ذلك إلى صداقة من نوع جديد، نشأت بينه وبين مسجل المحكمة السيد/ جورج شودندى Shodeinde سويميمو Soweimimo، وهو من مواليد

زاريا Zaria وتلقى تعليمه فى كانو. كانت حرم الدكتور صمويل مانوا كبير الموظفين الطبيين النيجيريين الحكوميين، واحدة من أصدقاء أبى بكر تافاوا باليوا الجدد، كانت هذه السيدة تنصحه فيما يتعلق بمجمعه السكنى الرسمى الجديد، وعن أماكن الشتلات البستانية الجديدة، وستائر النوافذ، كما كانت تسدى إليه النصح أيضًا (فى الوقت المناسب) حول تعليم الأطفال فى ليجوس. هذا كله يعنى أن أبا بكر بدأ يسترخى بعض الشىء ويثق بغير الشماليين، عندما بدأوا يكشفون له عن صداقتهم، وبطريقة كانت مقصورة فقط على عدد صغير من المسئولين البريطانيين الذين التقى بهم من خلال العمل.

أدت التغييرات الموازية فى الشمال إلى الكشف عن بعض الاختلافات. عندئذ تقدم نواب المديرين بعروض فى مزايدة فى مكتب سكرتيرى المقاطعات الشمالية عن أفراد يقومون بتولى مهام مناصبهم، لكن على الرغم من محاولة المتخصص الطبى الحصول على لقب المستشار السياسى للخدمات الاجتماعية، فإن مسئول التعليم، دينس Dennis هيبرت Hibbert، هو الذى اختار أو عين على Aliyu، والى بطا Bida، الذى وصل إلى هذا المنصب، كان هيبرت يود تعيين مسلم من الحزام الأوسط بحيث يكون له أقارب مسيحيون. كان الوزراء الأول الأربعة مسلمين على الرغم من احتجاز ثلاثة شواغر عن قصد - لم يكن هناك أى وزير من الحكم المحلى، وبقيت مع ذلك وجهات نظر رؤساء المرتبة الأولى والمرتبة الثانية ثابتة بلا تغيير، ومفاد هذه الآراء أنهم جرى تعيينهم من قبل الحاكم (طبقًا لما هو متبع فى القانون والعرف المحليين) وأنه لا يجب أن يتدخل أحد بين إدارتهم وبين الحاكم أو ممثلى الحاكم الرسميين. وهنا أصبح المستشار السياسى الرئيسى Sardauna وزيرًا للأشغال الإقليمية، وأصبح المعلم بللو Bello كانو Kano وزيرًا لما يسمى تنمية المجتمع - ولم يغب عن بال بللو كانو مطلقًا قول شارود Sharwood سميث Smith الذى أكد فيه تساوى الوزراء كلهم وأنهم ليسو مفضلين على بعضهم البعض – وانتهى أول اجتماع لمجلس الوزراء بإعلان مفاده أن الملك

جورج السادس، الذى حلف المجلس التنفيذى له قسم الولاء والطاعة، قد مات. وكان والى برنو، العضو المسئول عن الموارد الطبيعية، هو الذى جاء فى اليوم التالى باعتباره المتحدث الرسمى باسم الأعضاء كلهم، ليقول لنائب الحاكم إنهم جميعًا يودون تجديد قسم الولاء للملكة الجديدة، مخافة أن يظن أحد أن المسلمين لا يمكن أن يكونوا مخلصين أو موالين للملكة. (وبعد ذلك بأيام قلائل نظمت إدارة باوتشى اجتماعًا تذكاريًا فى الهواء الطلق وكان مصادفًا ليوم تشييع جنازة الملك جورج السادس فى لندن. وحضر هذا الاجتماع كل من الأمير يعقوب الثالث، والمعلم أبو بكر تافاوا باليوا. وراح ضابط الحى الإدارى (وهو يرتدى زيه الأبيض والشريط الأسود الذى خاطته زوجة أحد الزملاء) والمهندس المدنى أرمتاج Armitage يراقبان ردود أفعال هذين المسلمين وهما يحضران مناسبة مسيحية تدار من كتاب صلوات إنجليكانى يرجع تاريخه إلى العام ١٦٦٢، وبخاصة أن هذين الرجلين المسلمين كانا سيرفضان الدعوى لحضور مثل هذه المناسبة. حضر الأمير لكنه التزم الصمت والصبر: فى حين راح أبو بكر يصيخ السمع إلى الترانيم أو بالأحرى الكلمات القديمة، التى كان يقوم فيها جيل Gill الممثل المقيم، بدور القيادة، وكان يبدو عليه (أبو بكر) التأثر الشديد.

على العكس من ليجوس التى كان يجرى فيها تقديم الوزراء على وجه السرعة لتعرف المذكرات المبدئية الخاصة بحقائبهم، فإن السواء الأعظم من المذكرات المقدمة للمجلس التنفيذى الشمالى كان يجرى توزيعها خلال فترة من الزمن طبقًا للأحرف الأولى من أسماء السكرتيرين المدنيين أو الأحرف الأولى من أسماء سكرتيرى المالية والتنمية. ومع ذلك، فإن التركيز على القيام بالجولات، التى كانت فيها أعراف الشمال أقوى من الأعراف الأخرى، أدى إلى سرعة زيادة الوعى، كما هو الحال فى الجنوب، بالحدود والقيود المفروضة على سلطات الوزراء الجدد عند القيام بأى عمل من الأعمال، إضافة إلى تشكك الناس القوى فى المقاطعات، فى مسألة إدخال منظومة الوزراء كلها.

فى ذلك الوقت كان الناس يهتمون أكثر باحتفال الجمبورى(*) بأول كشاف من الشمال فى زاريا، والاهتمام أيضًا بدواء الأنترسيد الجديد الذى ثبت نجاحه فى القضاء على ذبابة التس تسى Testse الأمر الذى مكن لتجارة الماشية من الانتقال إلى أسواق الجنوب.

كانت الأحداث الخارجية التى استرعت الانتباه فى ذلك تتمثل فى تعيين فينسنت Vincent ماسى Massey، أول مواطن كندى، حاكمًا عامًا للدومينيون(**) الخاص به، وتتمثل أيضًا فى حكم المحكمة العليا فى جنوب إفريقيا ببطلان تشريع مالان Malan العرقى، الذى حدا بالرجل إلى المسارعة بإصدار قانونه الذى يجعل من برلمان الاتحاد محكمة عليا فى كثير من المصطلحات الاسمية، وبذلك يقص جناحى المراجعة القضائية.

فى ذلك الوقت أيضًا أصبح الجنرال إيزنهاور رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية. أدى استنكار مصر الحكم المشترك من جانب واحد إلى جعل البريطانيين يعجلون باستقلال السودان عن طرفى الحكم المشترك. وأصبحت لجنة المناطق الصغيرة التى شكلها آتلى Attlee، تحت رئاسة كريش Creech جونز Jones مسئولة أمام ليتلتون Lyttelton، كانت أفكار تلك اللجنة تؤخذ بعين الاعتبار، لكنها جرى التغاضى عنها فترة من الوقت، ليجرى الاستغناء عنها ودفنها فى نهاية المطاف.

على الصعيد المحلى فى باوتشى خسر المعلم أبو بكر تافاوا باليوا صديقه رايت Wright، بترقيته إلى منصب كبير ضباط التعليم فى كادونا، أثناء إجراء الانتخابات، وتأخير تنفيذ تلك الترقية بسبب حادث وقع أثناء مناسبة من مناسبات الصيد فى أعياد الميلاد، وقد تسبب ذلك الحادث فى فقدان الرجل إبهامًا واحدة من يديه بسبب بندقية اقترضها وكانت معطلة عن العمل. وكتب أبو بكر رسالة غاضبة يواسى فيها الرجل فى

(*) الجمبورى : مهرجان قومى أو دولى للكشافة. (المترجم)

(**) الدومينيون : كل دولة مستقلة من دول الكمنولث البريطانى (باستثناء المملكة المتحدة). (المترجم)

تلك الإصابة. يزاد على ذلك أن الأمير، الذى كان يحترم رايت دومًا مع أنه كان يشعر بشىء من القلق وعدم الارتياح نتيجة ترقياته المتتالية على امتداد السنوات الست السابقة، استشعر أيضًا هذه الخسارة التى ترتبت على نقل رايت Wright، فقدان رايت هذا لم يمكن تعويضه مطلقًا حتى عندما عرف الناس أن ضابط الحى الإدارى، الذى يعد بعد ثلاث سنوات من الخدمة، أطول من تواصلت خدمتهم فى قسم باوتشى من قبل زمن الحرب، وأن الرجل جايلز Giles بصورة مؤقتة أثناء قيامه بإجازته. ومن المركز عرف أبو بكر أن استمرارية المناصب، التى كان يُرَحِّبُ بها خلال السنين العجاف أصبح من الصعب المحافظة عليها فى الخدمة المددة، لكن الرجل تحفظ فى حكمه على بعض المزايا الخاصة ببعض الحالات الفردية.

عندما انحرف أبو بكر انحرافًا كبيرًا عن المكان الذى عقدت فيه جمعية الشمال اجتماعها، وهو فى طريقه لتفقد الطرق المحيطة ببلدة أونيتشا Onitsha، قلب أراضى الأجبو Igbo وتجارتها، صادف الرجل حالة فى ماكوردى Makurdi عجز فيها الموظفون المتعاطفون بحكم وجودهم فى المكان منذ زمن بعيد، عن منع وقوع القلاقل والاضطرابات: كان بعض من شعب التيف Tiv قد تظاهروا فى العام ١٩٤٧ نتيجة استياء من الاعتراف بأحد مسلمى اليوروبا رئيسًا Chief على عاصمة مقاطعة بنيو Be-nue التى فيها عدد كبير من المسلمين النازحين، وجرى أيضًا فى فترة لاحقة الاعتراف بذلك المسلم اليوروباوى حكمًا فى نزاع قبلى على الحدود. وينتهز أبو بكر الفرصة ليقوم بمواجهة جمهور مختلط وعصبى من التيف العدوانيين، والأجباويين المولعين بالجدل الذين تأثروا بالأحداث التى وقعت فى مناطقهم ومناطق الآخرين، ينتهز أبو بكر هذه الفرصة ويلقى خطبة مرتجلة مؤثرة بلغة الهوسا وباللغة الإنجليزية، راح يطالب فيها بالوحدة الوطنية التى تقضى وتضع حدًا لهذه الصراعات الطائفية. وأجاب الرجل إجابة موفقه على كثير من الأسئلة المحرجة وبطريقة مؤدبة، وترك انطباعًا جيدًا لدى دسموند Desmond ماكبرايد MacBride، الممثل المقيم، وعلى أهل المدينة على حدث

سواء، ومفاد هذا الانطباع الجيد هو أن نيجيريا لا يزال لديها المزيد من التربة الجديدة التى يتحتم زراعتها. ولم يكن أبو بكر قد وقف بعد على المزايا التى ترتبت على حثه سكرتيره الخاص لحضور الاجتماعات السياسية بصحبته فى الغابة، فى رحلة التفقد التى قام بها أبو بكر إلى الشمال، تعين على آرمسترونج Armstrong الجلوس بالقرب من الرجل يراقبه وهو يحافظ على حيوية مساعده المحلى على امتداد جلسة استغرقت ليلة كاملة. لاحظ آرمسترونج أيضًا أنا أبا بكر لم يحدث قط أن فترت همته فى المسيرات الطويلة فى الغابة وبخاصة فى الأماكن الخالية من الطرق.

هيأ اجتماع الموازنة الذى عقده مجلس الممثلين لأبى بكر تافاوا باليوا فرصة إثبات ثقته بنفسه بوصفه مدافعًا عن الحكومة وعن السلطة مثلما كان يفعل وهو ينتقد من منظور عامة الشعب، واستطاع الرجل أن يثبت أنه أهل لثقة الحاكم وزملائه الوزراء من خلال تخويله المسئولية عن عمل الحكومة أثناء الجلسة. وقد نقل أبو بكر هذه الرسالة إلى البرلمان البريطانى عندما أعرب عن إعجابه الشديد بوفد البرلمان البريطانى الذى زار نيجيريا. يزاد على ذلك أن أبا بكر وبَّخ أعضاء المجلس أكثر من مرة لتجاهلهم الأمر المستديم الذى لا يحبذ قراءة الخطب، وبخاصة تلك الخطب التى جرى إعدادها أو كتابتها قبل أسابيع أو شهر من المناقشة، ولم تلق بالاً للحقائق المتعارضة التى تطرق إليها المتحدثون السابقون. أقر الرجل نيابة عن وزرائه ذلك الاقتراح الذى يتوجه بالشكر والتقدير للوقت القياسى الذى استغرقه إتمام مبنى البرلمان الذى افتتح حديثًا (والذى أنهى تمامًا مسألة عقد الاجتماعات بالتناوب فى الأقاليم المختلفة). وقد ركّز أبو بكر وزميله المُعَلّم يعقوب وانكا Wanka عضو البرلمان عن باوتشى، أن أمير مجلس باوتشى سبق أن قرر قبل عام مضى أن أهل باوتشى لا يرغبون فى مرور سيارات النقل الثقيل خلال بلدة باوتشى، وذلك على الرغم من تفضيل المعلم يعقوب لتحويل مسار الطريق الرئيسى "أ" ليكون بعيدًا عن الطريق الجانبى. وفى هدوء تام، راح أبو بكر يقتبس عن نصيحة الخبراء التى تؤثر فى الاقتصاد فى إنفاق

النقود على تحسين طرق السيارات التى تبدأ من كانو وتمر بكل من نجورو Nguru إلى ميدوجورى Maiduguri، وربما إلى فورت Fort لامى Lamy، بدلاً من إنفاقها على إنشاء خط حديدى مكلف. وجرى أيضًا رفض اقتراح تقدم به السيد/ كنجسلى Kingsley أوزوميا Ozuomba مبادوى Mbadiwe، ويقضى بفصل ليجوس عن الإقليم الغربى (كان قد سبق تحويل ليجوس إلى الإقليم الغربى)، لكن المجلس تأكد أن مجلس الوزراء سيطلب نصيحة خبير آخر عن وضع مماثل لهذا الوضع فى عواصم أخرى مماثلة.

بذل أبو بكر قصارى جهده فى فض خلاف حول نصوص الموازنة الخاصة ببعض المؤسسات الحكومية المركزية، وحول الإنفاق السائب الوارد تحت اسم ما يسمى بنود "المستعمرة" Colony، وذلك على الرغم من أن ليجوس (تلك "المستعمرة" التاريخية التى تضم كلاً من الجزيرة وجزءًا من الأرض الرئيسية، والتى يترأس مفوضها حاليًا مجلس إيبادان التنفيذى) أصبحت اعتبارًا من العام ١٩٥١ وطبقًا لرأى المجلس (على حد شكوى السيد/ كنجسلى أوزوميا مبادوى Mbadaiwe) جزءًا من الإقليم الغربى. وحدث صدام جديد بين مبادوى والعضو السيد/ جاجا JaJa واشوكو Wachuku فى إثارة ذلك الجدل، كان السيد/ جاجا واشوكو قد طالب فى مناقشة أخرى بتقديم المساعدة الكاملة تحت اسم المعونة، لقانون الصناعات الرائدة، وأن يكون ذلك القانون مقصورًا على الشركات التى يكتتب النيجيريون فى اسمها بالكامل – وهنا نعت أبو بكر هذا الطلب بأنه "تمييز" Discrimination. وتحدث أبو بكر أيضًا معارضًا السيد/ أولوو لهذا القانون قائلاً: **"الحقيقة الواقعة الآن هى أننا نود تصنيع نيجيريا، لكننا ليس لدينا رأس المال الذى يمكننا من ذلك"**. قام شيف آرثر برست، وزير المواصلات، وهو من حزب جماعة العمل، بالدفاع عن سياسة الحكومة فى مواجهة أولوو، وسار على النهج الإجرائى الذى سلكه أبو بكر من قبل، إذ راح شيف آرثر يلفت الانتباه إلى أن رئيس حزبه سبق له أن تكلم كلامًا أكبر بكثير عما ورد فى الأوامر المستديمة. وبذلك أصبح كل من أبى بكر والسيد/ أركبو العضوين الوحيدين اللذين جرى انتخابهما منذ الوهلة

الأولى لعضوية مجلس الحاكم الخاص، والهدف الرئيسى لهذا المجلس هو تقديم المشورة بشأن حق العضو فى حال أحكام الإعدام، وقُدِّم اقتراح بإضافة بعض أعضاء من الشمال (ربما رئيس Chief) ومن الغرب وهنا رد أبو بكر على ذلك الاقتراح بقوله: "..... فى الأمور التى من هذا القبيل يتعين على الناس (ألا) يتحدثوا من منطلق الذهن الإقليمى .... نحن لا يمكن أن يكون لدينا ممثل لكل قبيلة من القبائل أو دين من الأديان من الأديان ... (وإلا) سيصبح لدينا مجلس خاص يضم ٥٠٠ من البشر".

ووافق أبو بكر مثل زملائه بحكم الضرورة على حتمية أن تكون اجتماعات مجلس الوزراء بعد الغداء مادام كان المجلس التشريعى منعقداً.

كان ذلك أول اجتماع لمجلس ليجوس التشريعى منذ سنوات عدة دون أن يحضره آزكوى الذى تحتم عليه تمضية جزء من العام فى زيارة بريطانيا. هناك بعض المراقبين الذين لا يفهمون الأسباب التى حالت بين هذا الرجل وبين أن يكون وزيراً. مراقبون آخرون يظنون أن الخيوط الرفيعة التى تربط الأسرة النيجيرية إلى بعضها البعض على المستوى المركزى كانت غير موجودة فى هذا الموضوع بالذات: واقع الأمر أن صحيفة الدكتور آزكوى "وست West أفريكان African بايلوت Pilot" ألمحت ولأول مرة، فى ذلك الوقت إلى احتمال انسحاب الشرق من المجلس. وكان ذلك مثالاً عجيباً على زيادة التزام الأفراد بالقوة عندما تصبح فى أيديهم - وسرعان ما وافق الوزراء المركزيون على القوة والموارد المحتملة التى تترتب على استراتيجية فريق موحَّد، أما أولئك الذين لم يشاركوا فى صنع القرار الذى اتُّخذ فى ليجوس فقد خدعتهم آمال الانتصارات التكتيكية الأقل التى يمكن تحقيقها بسهولة كبيرة فى أقصى الملعب، هذا فى الوقت الذى آثر فيه خصومهم الألداء قصر معاركهم على المواقع التى تمكنهم القوانين والأرض والأسلحة المستخدمة من تحقيق بعض المكاسب. بدأ أبو بكر تافاوا باليوا يدرك أنه إذا ما أمكن تنحية العاطفة والتحامل جانباً بحق وحقيقة، فإن ذلك كان يُمكِّن فى بعض الأحيان من وجود المشتركات الكثيرة مع الجيران بدلاً من الأشقاء. وعلى

الرغم من الصدام الذى حدث بينهما فى المجلس التشريعى، فقد لاحظ السيد/ واشوكو أن علاقات أبى بكر خارج مجلس الوزراء مع كل من نوابا Nwapa مدمن الخمر (الذى نعته أبو بكر بأنه "فيه شيء من الكوميديا والفكاهة")، ومع نجوكو Njoku العليم، ومع أركبو Arikpo الصَّمُوت بدأت تتخلى عن الشكوك المتبادلة، وقد أدى ذلك بصورة متدرجة إلى ابتعاد واشوكو عن طريق أبى بكر كيما يشجع ذلك الاحترام المتبادل بين هذه الشخصيات "المتحفظة الشمالية المحبوبة" وبين تجمعات حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى المؤمنة "بالأمة" النيجيرية، حتى وإن اختلفوا حول من يقود هذه الأمة. وجرى أيضاً التسليم بنظرة أكنتولا الواقعية إلى إدارة العمل التابعة له وتشجيعه للمعايير القياسية بين مسئولى النقابات العمالية.

على الرغم من وقوف أبى بكر وحده بلا رفيق، فإن وجهة نظره كانت ترتكز على قاعدة متينة مفادها أن الدستور الحالى ليس فيه نص خاص بالسياسة الحزبية، وأن هذا الدستور لن ينفع إذا ما سار على الخط الذى يحتم أن يقبل الآخرون سياسته إذا ما وصل السلطة بحكم الأغلبية. وانزعج أبو بكر لأنه لم يكن يستطيع دوماً مناقشة الأمور السياسية على انفراد مع رفاقه الشماليين. كان أبو بكر هو وشتيما كاشيم لا يزالان يكرهان ليجوس أكثر من كراهية رباط Ribadu لها، وزاد تعلق أبى بكر وشتيما كاشيم ببعضهما. كان هؤلاء الثلاثة يقومون برحلات مسائية طويلة فى سياراتهم ويروحون يناقشون مع أبى بكر أموراً كثيرة. وعندما كان مستشار سكتو السياسى الرئيسى يزور ليجوس كانت تعقد جلسات مطوله فى مكتب الوزير خلف الأبواب المغلقة، وقد لاحظ مسئولوا الشمال انشراح صدر مستشار سكتو السياسى Sardauna عندما يكون بصحبة أبى بكر تافاوا باليوا، بعيداً عن وعيه بإمبراطوريته المتنامية. الأهم من ذلك كله هو أن الوزراء المركزيين كلهم بدأوا يتناوبون فى عقد اجتماعات ضيافة غير رسمية فى أيام الآحاد لكى يناقشوا فيها المشكلات السياسية المتبادلة ويتبادلون الآراء وقد ساعدت تلك الاجتماعات على تخفيف إصرار حزب جماعة العمل التمزيقى

الذى مفاده أن مجلس الوزراء الاستعمارى لم يكن تحالفًا سياسيًا صحيحًا. يزاد على ذلك أن ذلك المجلس كان يختطف مقادير كبيرة من عمليات المال والأعمال على الرغم من اختلاف مواقف الأقاليم. هذا يعنى أن الحاكم لم يطلب مطلقًا التصويت برفع الأيدى، وكان المبدأ السارى فى مجلس الوزراء هو الموافقة بالإجماع.

قام المعلم أبو بكر بأول زيارة له إلى ساحل الذهب بصحبة ثلاثة من رفاقه الوزراء فى شهر أبريل من العام ١٩٥٢، لحضور اجتماع رياضى بين المستعمرات، جرى عقده فى مدينة أشيموتا Achimota فى ساحل الذهب. اكتشف أبو بكر أن تلك المستعمرة مليئة بالتغيير، فقد أصبح الدكتور نيكروما رئيسًا شرفيًا للوزراء، وأنه يجىء فى المرتبة الثانية بعد الحاكم (وذلك على العكس من التقاليد البريطانية التى تضع رؤساء الكنيسة والمحاكم بعد التاج مباشرة)، وأنه لابد من الرجوع إليه قبل أن يقدم الحاكم للجمعية التشريعية أسماء الوزراء للموافقة عليها. ووجد الرجل أيضًا أن مفوضى الأحياء (إذ يجرى فى ساحل الذهب تسمية "ضباط الأحياء" باسم "مفوضى الأحياء" أعيد تسميتهم باسم "مندوبى Agents الحكومة Government". وعلى الرغم من عدم مسئولية نيكروما عن السياسة الخارجية قام بإرسال التماس مباشر إلى منظمة الأمم المتحدة، بخصوص تحدى جنوب إفريقيا لقرار الجمعية العمومية الخاص بجنوب غرب إفريقيا. عاد المعلم أبو بكر تافاوا باليوا إلى نيجيريا وهو مستاء من شخصية نيكروما التى لونت بعضًا من آرائه فى هذه التغييرات، كما استاء من شخصية الرجل نظرًا أيضًا لاعتقاده الواضح فى الخرافات وميوله الواضحة إلى الفتشية Fetishism. كان كوامى ينكروما يرى أن هناك ثقة بالنفس زائدة عن الحد وأن هناك شيئًا من التسرُّع الزائد عن الحد، لكنه تحفظ ولم يعلق على تشجيع حاكم ساحل الذهب المزعوم لهذه العملية. كان جون ماكفرسن هو الآخر متحفظًا أيضًا فى وجود أبى بكر، لكنه قال لأحد المسئولين المقربين إليه: "آردن Arden – كلارك Clarke يذهب إلى بعيد جداً. وسوف يضطرنا إلى أن نحذو حذوه، لكننا بلد أكبر من ذلك وأكثر تعقيداً وتشابكًا،

ونحن بحاجة إلى المزيد من الوقت. سيقودنا إلى منحدر منزلق قبل أن نكون مستعدين لذلك". والأرجح أن أبا بكر استنتج ذلك الذى لم يسمعه.

حظى قيام حركة ماوماو فى كينيا والعنف الذى دار بين الكيكيو Kikuyu باهتمام كبير فى نيجيريا. وإذا ما نحينا جانبًا تلك الممارسات الاستثنائية الهامشية فى بعض مناجم الفحم فى بعض أنحاء الهضبة، والمزارع الصغيرة فى الجنوب الشرقى، نجد أن الأوروبيين لم يقوموا بإغارات على الأراضى الوطنية وذلك بالقياس على ما يقوم به المستوطنون الاستعماريون فى شرق إفريقيا. كان اهتمام الإدارة بتلك القصص الكينية، بعيدًا عن الاهتمام الحرفى بالأساليب المستخدمة فى المحافظة على القانون والنظام من جانب الأنثربولوجى التقليدى، وقد أوحى ذلك الاهتمام والقلق بالحاجة إلى دراسة التطور الذى طرأ على الطقوس القديمة، نظرًا لأن تلك الطقوس أصبح لها هدف وأسلوب جديدان فى الممارسات التى لم تكن الحكومة الاستعمارية مستعدة لها فى خمسينيات القرن العشرين. لم يكن ذلك العنف غائبًا عن نيجيريا أو غير معروف فيها. كانت تساؤلات النيجيريين تدور أو موجهة إلى ردود فعل بريطانية أخرى على الأحداث التى من هذا القبيل فى مكان يعرف النيجيريون أن المشاركة السياسية الإفريقية فيه كانت أقل بكثير من مشاركتهم. ويستغل نائب الحاكم فرصة الاجتماع القادم لجمعية كادونا، ويدفع ضابطًا من ضباط الأمن لتعريف الرؤساء Chiefs وكبار أعضاء الجمعية بحركة الماوماو، وهنا راح المعلم أبوبكر تافاوا باليوا يطرح بعض الأسئلة المتعلقة بهذا الموضوع، وأصيب أبو بكر بالرعب والفزع جراء بعض التفاصيل المفزعة، ومع ذلك ظل الرجل قلقًا إذ كان يود أن يفهم الأسباب التى تجعل الناس يرغبون، أو يقتنعون بهذه الطريقة المتوحشة. وعليه لم يندهش أبو بكر عندما أعلنت كينيا حالة الطوارئ فى شهر أكتوبر.

كانت إدارة الشمال قد أصابها شيء من العطب فى إثر وفاة جون John نوت Knott سكرتير التطوير والمالية، الذى ساعد، كما سبق أن أوضحنا، فى مولد دائرة النقاش والحوار فى باوتشى. وقد أدت الترقية السريعة التى حصل عليها بطرس Peter جاليوم نائب جون نوت، إلى جعل ذهن شارود سميث يتحول إلى مسألة شغل الأماكن الشاغرة فى مجلسه التنفيذى. كان وزراء الشمال المستقرون، قد أكدوا فى وقت سابق لوزير الخارجية السيد/ أوليفر ليتلتون، الذى تتملكه الشكوك والظنون، والذى كان يزور كلاً من كانو Kano وكادونا فى طريقة إلى إينوجو (التى انعطف عندها ودخل فى فتحة من فتحات مناجم الفحم)، وإيبادان وليجوس، أكدوا له أنهم سيكونون بحاجة إلى إدارة بريطانية وضباط فنيين على امتداد جيل قادم. فى ذلك الوقت كانت الإدارة والسواد الأعظم من الرؤساء يودون تصديق الإنجليز. كان ليتلتون بدوره مؤمنًا أنه فى غياب المواد الخام المحلية لن يكون هناك أساس للتصنيع، وكان مؤمنًا أيضًا أن تلك المواد الخام تتطلب أساسًا زراعيًا سليمًا. كان ليتلتون قد سبق له التقاء المندوب السامى الفرنسى هو والحكام فى داكار، وكان الرجل مقتنعًا أيضًا بالمبدأ الذى يقول "مزيد من العجلة مع قليل من السرعة"، وقد أدى ذلك كله إلى تقوية رأى الرجل المُعْلن الذى مفاده أن "الإدارة هى أصعب الطرائق التّقَنيّة، وهى تحتاج إلى أرقى الصفات والسمات". فى ظل هذا الجو استشعر نائب الحاكم أن الوقت قد حان لمسلمى الإمارة أن يقروا أن "الوثنيين" من الهضبة وأن معتنقى المسيحية فى "الحزام الأوسط" يشكلون قسمًا كبيرًا من "الشمال"، وأنهم من حقهم أيضًا المشاركة فى تنفيذ السلطات والسياسة.

أصيب شارود سميث بصدمة عندما وجد الرجلين: الوزير المركزى والوزير الإقليمى، فى حفل الاستقبال غير الرسمى الذى أقيم فى مقر حكومة كادونا، غير راغبين فى التفكر فى هذا الأمر، وذلك على العكس من مستشار حزب المؤتمر الشعبى الشمالى. هذا يعنى أن مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna سوف يشعر بالقلق وعدم الارتياح إذا ما وجد سلطان سكتو، أمير المؤمنين، جالسًا حول مائدة مع الوثنيين، ومع ذلك كان مقلقًا أيضًا أن نسمع الآخرين وهم يقولون: إنه لم يكن على حق

فى اعتقاده بأن غير المسلمين كانوا يعترضون على سيطرة أولئك الذين يرعونهم وهيمنتهم عليهم، والذى زاد الطين بلة هو أن أبابكر، الذى بدأ شارود يشير إليه باعتباره "قطعة من الذهب الخالص"، أصر على أن المشاعر المعادية للفولانيين والمشاعر المعادية للمسلمين إنما هى من صنع المتعصبين بين المبشرين إلى حد بعيد، وأن الناس ينبغى عليهم تجاهل كل هذه المشاعر المعادية ونسيانها واعتبارها أمورًا مصطنعة. والمؤسف، أنا أبا بكر استطاع أن يورد بعضًا من الأمثلة المتفرقة على ذلك التعصب الأعمى والتطفل السياسى. جاء التشجيع لنائب الحاكم من المُعلّم بللو Bello كانو Kano وحده. ومع ذلك، وبعد تأجيل غير موفق خطرت ببال مجموعة وزراء الشمال بعض الأفكار، وسرعان ما جرى توسيع مجلس كادونا التنفيذى عن طريق السماح لكل من آكو Aku يوكا Uka، وجوكون Jukun شيف Chief الوكارى Wukari، والسيد/ بطرس Peter أشيموجو Achimugu، مشرف الأشغال المسيحى الإيجالى بالانضمام إلى المجلس، كان بطرس أشيموجو قد حصل على حقيبة الصناعات المحلية، كما سُمح أيضًا للمعلم يحيى إيلورين، ذلك المدرس اليوروباوى المسلم، الذى ينحدر من أقصى إمارات الجنوب، والذى تولى حقيبة الصحة والرفاه الاجتماعى. حدثت بعد ذلك أشياء كثيرة أخرى، لكنها أثبتت من الناحية الثقافية والتعليمية شيئًا مهمًا هو أن الرؤساء Chiefs هم وكبار الشخصيات العامة من الهضبة، وأجبيرا، وإيدوما يمكن أن يلتزموا ببرنامج حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، لكن التيف يستحيل أن يفعلوا ذلك: وسوف نتناول الخلافات التى بين هذين الصنفين من البشر فى الفصل الثلاثين والفصول التالية له. وعلى الرغم من أنه لم يحدث فى أى وقت من الأوقات وصول أى عضو من أعضاء الحزام الأوسط إلى السلطة أو الشهرة فى مجلس وزراء ليجوس، فإنه ليس هناك ما يوحى بأن المعلم أبا بكر تافاوا باليوا ندم على ذلك التغيير الفكرى، ومع ذلك بقيت علاقات الرجل مع أهل الحزام الأوسط الذين كانوا يتعاونون مع بقية الشمال أو مع نيجيريا ككل على ما كانت عليه من قبل، بقيت هذه العلاقة قائمة على السلام والحب شأنها فى ذلك شأن علاقته بكل الأقليات النيجيرية. فى ذلك الوقت كان الفوران

والهيجان مجرد أثر من آثار الأعمال الساذجة القديمة. كان أهل باوتشى، الذين كانوا على وئام مع كل من الإمارات والوثنيين، يغلب عليهم فهمهم للشمال فهمًا كاملاً.

بينما سافر أمين كانو هو وزميل له من اتحاد العناصر الشمالية التقدمى بلا جدوى إلى لندن لكى يشتكيا لوزير الخارجية - السيد/ هنرى هوبكنسون Hopkinson (كان لينوكس بويد قد رُقّى وزيراً للنقل والطيران المدنى) من منظومة المجمعات الانتخابية، كرّست الجمعية العمومية الشمالية اجتماعها الصيفى القصير الذى عقدته فى العام ١٩٥٢ للموافقة على قبول تقرير اللجنة المشتركة البالغة من العمر عامًا واحدًا، ذلك التقرير الخاص بتطور الإدارة المحلية وتمرير قانون السلطات المدنية (تحديد المهام). وعندما قام المعلم أبو بكر بتقديم مقترح عن التقرير، باعتبار أنه هو الرجل الذى هدّأ الأمور، قال: إن أحداً فى الشمال لم يقصد مطلقًا إزاحة منظومة الإدارة المدنية (المحلية) أو إلغاءها، وألمح أبو بكر أيضًا فى أدب ولياقة أن مسألة استعداد الأمراء والرؤساء للموافقة على التغيير من سلطات مدنية (محلية) وحيدة إلى أمراء من خلال المجالس، هو شىء **"تقدمى تمامًا"**. وبهذا الذوق واللياقة امتنع أبو بكر عن التصويت على المقترح الخاص غير الموفق المقدم من إبراهيم إمام، مشرف الأشغال فى إدارة برنو المحلية، ويطالب فيه بإنشاء وزارة للحكم المحلى، والذى آل إلى الرفض بفعل الحملة التى قادها المعلم بللو كانو، ومع ذلك أبدى شارود سميث ملاحظة مفادها أن البذور قد جرى بذرها بالفعل، وأن البقية ستأتى، على الرغم من أن أحداً لم يعرف بعد الطريقة التى يمكن بها إدماج الأمراء فى دستور يبدون فيه فى مكانة أدنى من مكانة الوزراء فى أى شكل من الأشكال. كان القانون قد سبق له وضع الرؤساء Chiefs الأوتوقراطيين (سواء أكان ذلك من باب الاحتمال أو الفعل) فى مثل هذه المكانة كما هو الحال مع الحاكم ومجلسه: وقد جرت العادة أن يتصرف الأمراء بعد الاستماع وفى ضوء المشورة والنصح المقدمين، لكنهم يحق لهم الاحتفاظ بسلطة التصرف الاستثنائى بغير هذه الطريقة شريطة أن يبلغوا نائب الحاكم بالظروف والأسباب التى أدت إلى

ذلك، وبذلك يكون شأنهم شأن الحاكم فى المجلس (اللهم باستثناء الموضوعات الخاصة به مثل الأمن الداخلى، والشئون الخارجية، أو الخدمة المدنية) الذى يتعين عليه إحالة قراراته المتضاربة، إن كانت هناك قرارات متضاربة، إلى وزير الخارجية. وأفاد أبو بكر تافاوا باليوا من تعرُّف ليجوس الجديدة، وباعتباره عضواً من أعضاء اللجنة، فى شرح الاستثناءات المماثلة وتفسيرها فى الأمور التى ليست لها أهمية فى حد ذاتها، أو الأمور التى بلغت من الحلول حداً يصعب معه الاعتراف بها بلا أى تأخير، الأمر الذى يجبر الرؤساء على استدعاء مجالسهم من الأحياء إلى القصر قبل اتخاذ أى قرار من القرارات. وتمنى أبو بكر لو أن هذه الاستثناءات جرى توكيدها، لكنه وافق على رأى الأمين العام للجمعية، الذى مفاده أن المزيد من التعاريف القانونية لن يسفر إلا عن خلق المزيد من مشكلات التفسير.

فى مجلس الرؤساء جدد الحاكم المناب إنذاره إلى الأمراء الكُسَالى عديمى الأخلاق، ومفاد هذا الإنذار أنه فى ظل هذا العصر الحديث لا يوجد متسع أو مكان للعصابات أو الجماعات الفاسدة فى الحاشية. وبعد ذلك الاجتماع بوقت قصير، أدى القلق المتزايد بين وزراء الشمال، والرؤساء والمدرسين، من دخول التأديب والنظام إلى جيل الشباب المتحضر أو المتعلم، إلى تشكيل لجنة لها وضعية المجلس التنفيذى وتكون مهمتها الإبلاغ عن التثقيف الأخلاقى والدينى والمعايير الأخلاقية أيضًا. هذه اللجنة ربما أصبحت فيما بعد مثاراً للاحتقار والازدراء، قد يحدث هذا فى بريطانيا الأكثر تساهلاً، لكن فى ذلك الوقت وفى هذه المقاطعات أدى إجماع الأغلبية بكل مستوياتها إلى ترجيح كفة الحزم، وعدم التسامح مع التصرفات السيئة، وعدم الالتزام، وفرض الأعراف التقليدية والعقوبات بالقوة. وهذا التحرك لم يجر تحديده من أحد، اللهم باستثناء تلك القلة القليلة المصرَّة على التغيير الراديكالى باعتباره رد فعل سياسى (مقابلاً لرد الفعل الاجتماعى)، بقى أبو بكر على تعصبه من المتطفلين الذين كانوا يحرضون الأحداث على التمرد والثورة ووقف الرجل إلى جانب المدرسين والقضاة

التقليديين الذين كانوا يتمنون الخير للجنة المعايير الأخلاقية. كانت تلك الجنة تجتمع بين الحين والآخر، وكانت تتلقى تقارير ومساهمات من المقاطعات، وكانت تعد تقاريرها لكنها غابت عن الأنظار، وعلى الرغم من الحماس الذى أصابها فى البداية فإنها لم تحظ بالكثير فى كتب التاريخ النيجيرى. والغريب بحق أنه فى الاجتما ع الأول الذى عقده مجلس إدارة سكتو المحلية الخارجى استطاعت الأغلبية القوية تمرير طلب مفاده أنه إذا كانت السلطة البريطانية (التى تتناقض وتتقلص بشكل واضح فى الوقت الحالى) لا تزال مصممة على منع العودة إلى قطع أيدى السارقين، فإن اللصوص الذين تثبت عليهم السرقة يتعين وسمهم فى أضعف الأحوال. وهنا نجد أن قاضى قضاه زاريا، الذى كان يشغل منصب مستشار الشريعة الإسلامية فى مجلس الرؤساء، لم يشجع تلك الآراء، لا هنا ولا فى أى مكان آخر.

بعض آخر كانت لديهم أفكار أخرى عن تنصير الصغار وتحديثهم. أليك Alec دكسون Dickson، على سبيل المثال، رجل أسكتلندى تعلم الكثير عن الدوافع البشرية من خلال عمله فى إعادة توطين العَسْكر من سلاح حملة البنادق الإفريقى الملكى، فى شرق إفريقيا، كما تعلم الرجل الكثير أيضًا من اشتراكه فى تنظيم أعمال التنمية المجتمعية فى ساحل الذهب. وقد تمكن إليك دكسون، بفضل مساعدة بل Bill فولر Fuller، وهو ملاّح سابق من ملاّحى القُمْع الأزرق، تخرج من مدرسة أوتوارد Outward بوند Bound فى أبردوفى Aberdovey فى مقاطعة ويلز، تمكن من إنشاء مركز للتدريب فى خليج مان Man أو O وور War، بالقرب من فيكتوريا فى الكاميرون Cameroons. فى هذا المركز، كان يجرى تدريب الشباب المتعلم من سائر أنحاء نيجيريا لمدة ثلاثة أسابيع على تقوية قدراتهم البدنية والذهنية باستعمال التقاليد المعمول بها فى مدرسة "أوتوارد بوند" Outward Bound، فيما يتعلق بالجبال، والصخور والبحار، ويتبع ذلك ثلاثة أسابيع أخرى فى التدريب على أعمال التنمية المجتمعية التنظيمية والبدوية فى المشروعات التى من قبيل بناء السدود، ومواقد إحراق القمامة، والطرق، والعبارات، أو

الأبيار فى ظل الظروف الغابيَّة، عندما يقيمون أو يأوون إلى مدرسة من مدارس القرى النائية. هذه الخبرة الفنية وهم يرتدون ملابس العمل المميزة لهم بين أهل الريف الأميين، كانت لها آثار نفسية ملحوظة على السواد الأعظم من الكتبة، والمعلمين، والمواطنين، والمديرين، وصغار المسئولين المعينين من قبل المغتربين الذين جاءوا من أجزاء مختلفة من نيجيريا. كان الكثيرون من المعينين بحاجة إلى كثير من الاقتناع للحصول على هذا النوع من التدريب، وقلة قليلة فقط هم الذين لم يكملوا هذا البرنامج التدريبى، وقد انضم إلى السواد الأعظم من دورات هذا البرنامج التدريبى حفنة صغيرة من الضباط الإداريين البريطانيين الشباب المتعاطفين مع هذا البرنامج، وكانت مشاركة هؤلاء الضباط الإداريين مقصورة على اختراق الضاحية، واستكشاف الغابات وحصاد مزارع الموز، وخلط الأسمنت، والمشاركة فى المناظرات المسائية، والغناء، والأحاجى، والرقص، والأحداث العفوية.

فى بداية الأمر كان المركز لا يُمَوَّلُ من قبل إدارة التعليم وإنما من قبل إدارة الأشغال المركزية. كان ضابط باوتشى الإدارى قد أخذ ولد رئيس Chief داس Dass، الذى كان يعمل فى خزانة باوتشى - داس المحلية المشتركة، وأشركه فى دورة باكرة من دورات مركز التدريب سالف الذكر، وحدثت مأساة فى تلك الدورة. بينما كان ثنائى باوتشى بصحبة إحدى الجماعات، يجدِّفان بجد فى قارب من قوارب النجاة حول الساحل فى تيار منعطف نحو أحد الخلجان، فقد القسم الثانى من الجماعة فرداً إجباوياً Igbo ومعه شخص باكويرى Bakweri بسبب الضباب الكثيف على جبل الكاميرون Cameroon المشرف على منطقة بويا Buea. نجمت هذه الخسارة عن عدم إطاعة التعليمات الخاصة بتسلق الجبال، مات الشابان بسبب التعرض والانكشاف من ناحية وفقدانهما لثقتهما بنفسيهما من الناحية الأخرى، (أعتقد أن إيراد القصة النفسية كاملة هنا، سيكون فى غير موضعه). من هنا أصبح الدرس المستفاد من هذه الدورة والدورة التى تلتها أمراً جديراً بالتدبر، الأمر الذى ترتب عليه إعادة النظر فى

عدم تكرار هذا التسلق مرة أخرى. وقام أبو بكر بزيارة الدورة التى تلت هذه الدورة، والتى التحق بها المُعلّم هارون داو قوى Kwoi قادمًا إليها من جنوبى زاريا: لم يكن هارون قويًا من الناحية البدنية، إضافة إلى أن الخوف الذى تولد عن الجبل الذى يصل ارتفاعه إلى ٤٠٩٥ مترًا سرى فى نفوس كل المشاركين فى الدورة. لم يكن ذلك الجبل، أو تلك القمة الجبلية تشكل أى نوع من أنوا ع التحدى فى ظل الظروف المناخية العادية، إذ لم تكن تتطلب سوى شيء من القدرة على الاحتمال لكنها لم تكن تتطلب أى قدر من المهارة. وقد قال أبو بكر تافاوا باليوا لهارون داوود بصفة شخصية: **"ستذهب وتتسلق الجبل، حتى وإن أسفر ذلك عن مقتلك، وذلك من أجل الحفاظ على شرف الشمال".** وترتب على ذلك أن قام هارون داوود وآخرون كثيرون بتسلق الجبل بطريقة ناجحة وعادوا إلى السفح وهم فخورون بما فعلوا، وحذت الجماعات التى تلتهم حذوهم، إلى أن غادر مركز تدريب فيكتوريا وبويا Buea إلى هضبة جوس Jos، عقب انفصال الكاميرون الجنوبى عن نيجيريا. وخلال خمسينيات القرن العشرين دلّل مركز تدريب وتنوير "خليج مان أو وور" على مدى ما يمكن أن تحققه الشخصية المتكاملة على غير ما يتوقعه صاحبها، وذلك على العكس من التمسك بالفلسفة الحزبية هذا يؤكد أن مركز التدريب هذا كان له تأثير كبير على الشبان أصحاب الفكر والأذهان وليسو من أصحاب القوة البدنية. استمر أبو بكر فى مراقبة مركز التدريب ومساندته طوال فترة عمله الحكومى.

اختلق السيد/ أولوو فى شهر يونيو أزمة "دستورية". فقد اكتشف الرجل أن مجلس النظام الجديد لم يغير أيًا من التشريعات السابقة التى كانت تعطى الحاكم أو نواب الحاكم سلطات محددة يمارسونها حسبما يرون، ومن بين هذه السلطات إمكانية التعيينات البسيطة فى الوظائف البسيطة، ورفض أولوو قبول التأكيدات التى مفادها أن هذه السلطات الورقية سيجرى استغلالها روحيًا وليس حرفيًا. كان الرجل يرغب أيضًا

فى إحداث تعديلات مئوية فى التعليمات الملكية. طالب أولوو أيضًا بحتمية أن يكون للوزراء السيطرة الكاملة على الإدارات المرتبطة باختصاصاتهم، واقتراح أيضًا إحداث مناصب السكرتيرين البرلمانيين، كما اقترح أيضًا إدخال "المنظومة الحزبية السياسية" حتى يمكن "لرؤساء الوزراء" الإقليميين تزكية أسماء الوزراء الآخرين كلهم. ورفض المجلس التنفيذى الشمالى كل هذه المطالب جملة وتفصيلاً، يزاد على ذلك أن وزراء الشرق، الذين كان ينتظر منهم التعاطف مع مطالب هذا الرجل، قل حماسهم لذلك نظراً لأن أولوو Awo لم يحاول استشارتهم قبل الإقدام على ذلك المسلك. بعد ذلك بأسابيع قلائل جرى إخضاع حزب جماعة العمل بصورة أكبر، لكن الحاكم وعد بالبحث عن الطرق التى تؤمن للوزراء "سكرتاريات" التى يمكن أن تكون بمثابة أجندة وزارية حقيقية، تحل محل المكاتب الخاصة الهيكلية، وتزيد الاتصال بين الوزراء ورؤساء المصالح.

جاء شهر يوليو من العام ١٩٥٢ ومعه اجتماع طارئ لحزب المؤتمر الشعبى الشمالى، جرى عقده فى كادونا، وأصبح فيه مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sar-dauna (أحمد بللو) نائبًا لرئيس الحزب، كما أصبح المعلم، إبراهيم إمام أمينًا عامًا للحزب، وذلك على الرغم من الحقيقة التى مفادها أن لجنة الحزب التنفيذية الوطنية، لم يسبق لها أن ضمت أى أحد من الوزراء المركزيين الشماليين أو الوزراء الإقليميين الشماليين وهذا الظرف هو الذى أدى إلى حد ما إلى طلب عقد ذلك الاجتماع، وكان الزعيم التشريعى الوحيد الذى حصل على منصب حزبى هو والى برنو Borno، الذى أصبح مستشاراً قانونيًا فى الحزب. يزاد على ذلك أن كثيراً من أصحاب المناصب الأخرى الذين وقع عليهم الاختيار، بما فيهم الرئيس الإقليمى والسكرتير الإقليمى، لم يجر استبدالهم أو إعادة انتخابهم. وقف طلاب السياسة على هذا الوضع، وبخاصة وضع المعلم أبى بكر تافاوا باليوا، ووجدوا صعوبة كبيرة فى تفسير هذا الوضع فى ضوء التطور الحزبى أو الاجتماعى. وبغض النظر عن التغيير الذى طرأ على أهداف

حزب المؤتمر الشعبى الشمالى فى العام ١٩٥١، يمكن التسليم والموافقة بسهولة على ما مفاده أن كل ما حدث لمن يعنيهم الأمر يمكن تلخيصه فيما يلى: السواد الأعظم من هذه الشخصيات أصبحوا الآن أعضاء فى مجالس صنع القرار الحكومية فضلاً أيضًا عن المجالس التشريعية، وبذلك أصبح هؤلاء الناس أشخاصًا مهمين فى إدارتهم المحلية، التى يحاطون فيها بمؤيدين تحولوا فجأة، مثلهم تمامًا، وأصبحوا يسمون أنفسهم بطريقة سلبية، أو يُحبون أن يدعوهم الآخرون، أعضاء حزب المؤتمر الشعبى الشمالى. وكان المغزى من وراء ذلك كله، هو أن "حزب المؤتمر الشعبى" أصبح مصطلحًا، أو إن شئت فقل: تقليعة جديدة، أو انعكاسًا لسلطة الإدارة المحلية التقليدية، وأن ذلك الوضع الشرفى، فى بعض المناصب الحزبية التى يتعين وزنها بميزان الافتقار البيروقراطى فى ذلك الحزب، يصبح بلا وزن أو اعتبار. ومادام أن الأحزاب والأقاليم الأخرى أُجبرت على الموافقة بأن مفكرى الشمال أصبحت لهم مؤسسة يتعين على غير أهل الشمال، الدخول معها فى معركة، فهذا، فى حد ذاته يكفى تمامًا، وبغض النظر عن نوعية مثل هذه المعركة. تلك كانت الأيام الأولى، وقلة قليلة من الأعضاء هم الذين كانت لديهم أفكار دقيقة عن ماهية الحزب السياسى، ولم تكن لديهم السلطة أو الطاقة التى تمكنهم من إنشاء مثل هذا الحزب. وفيما يتعلق بديمقراطية الحزب البارعة، يجب الإشارة إلى أن المعلم نوح باما‌لى، أمين التنظيم الرئيسى، كان واحداً من أعيان مدينة زاريا. كان نوح باما‌لى قد بدأ يعمل فى مؤسسة جاسكيا الصحفية محرراً أدبيًا، لكنه مثل كثيرين آخرين كان سياسيًا متردداً، لكن الناس كانت تحترمه لقدرته على الخطابة وبخاصة الخطابة بلغة الهوسا وبطريقة شيقة تمامًا، لم يكن نوح باما‌لى يعمل بمرتب، وكان يتقاسم مكتبًا صغيراً بالقرب من منزل أبى بكر إمام مع أحد المساعدين الذى كان يتقاضى ٤٨ جنيهًا فى العام. وجرى التحايل على الحزب طلبًا للاستماع إلى المفوض الهندى الزائر الموفد إلى شرق إفريقيا، المدعو السيد/ أبا بى بانت Pant، وهو يحذِّر الشمال من تخليه عن المجمعات الانتخابية بهذه السرعة، نظراً لأن هذه المجمعات الانتخابية هى الضمان الوحيد المضاد للغوغائية غير المسئولة فى بلاده مترامية الأطراف.

على الرغم من أن أبا بكر تافاوا باليوا، كان وزيرًا للأشغال، فقد وجد نفسه موجهًا من السير جون John ليكون ناطقًا أو متحدثًا رسميًا باسم الحكومة فى المناظرة التى جرت فى المجلس المركزى حول مسألة التعجيل بنجرنة Nigerianization الضباط المقلّدين(*) فى الجيش. كان أبو بكر مثل الجنرال وستلر Whistler، يساند هذه العملية ويؤيدها، لكنه كان يود القول، فى حقيقة الأمر، إن الحكومة لم تكن معارضة لهذا المبدأ، لكنها بحاجة إلى مزيد من الوقت لتدرس الطريقة التى يمكن بها تحقيق ذلك. وسوف يُطلب من بريطانيا قبول خمسة عشر مرشحًا للتدريب كل عام، وإن مطالبة المجلس بإنشاء كلية حربية فى كادونا سوف تُؤْخذ بعين الاعتبار. لو كان أبو بكر وزيرًا إقليميًا فى كادونا فى ذلك الوقت، ولو كان الدفاع مطروحًا للمناقشة الإقليمية بأى شكل من الأشكال، فالمرجح أن تلك المناقشة يمكن أن يقوم بها أى إنسان آخر غير زميل (السكرتير) الأمين العام للمجلس. ومن غير المرجح أيضًا أن يكون أبو بكر اعتبر نفسه واحدًا من سياسيى حزب المؤتمر الشعبى الشمالى عندما كان يتحدث إلى المجلس، لكن الرجل كان يُعدُّ نفسه مندوبًا شماليًا مكلفًا بمسئوليات ومهام نيجيرية. وفى المقابلة الأولى التى أجراها الرجل مع صحفى أجنبى فى ذلك الوقت نجده يقول: **"نحن بحاجة إلى مزيد من الوقت.... كثيرون منا يشعرون أن سرعة التطور أكثر من اللازم فى الشمال: لو حصلت البلاد على الاستقلال فى ذلك الوقت، فإن ذلك كان يمكن أن يعنى تسليم إقليم إلى الأقاليم الأخرى"**؛ يزاد على ذلك أن أبا بكر، باعتباره رجلاً عمليًا، وافق على إعلان وزير النقل فى المجلس، والذى مفاده أن السكة الحديد، من حيث المبدأ، يجب إنشاؤها باعتبارها سلطة ذاتية، تعمل على هدى من خطوط شبه تجارية. ولم يتخذ أبو بكر أى موقف شخصى بشأن الاقتراح المقدم من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى بجعل ليجوس Lagos أرضًا أو منطقة فيدرالية.

(*) الضباط المقلد : ضابط يحمل ، بموجب براءة ، رتبة ملازم ثان فما فوق. (المترجم)

جرى فى فصل الصيف تعداد أو إحصاء للسكان، وقد عين الدكتور ميخائيل أوكبارا فى المقاطعات الشرقية وزيراً بلا حقيبة ليكون مشرفًا أو مراقبًا لهذه العملية. وقد أثبت هذا الطبيب أنه شخصية بارزة، بغض النظر عن حزبيته الإدارية. بقيت عملية التعداد فى الشمال تحت الإشراف الرسمى، وظل الجنوبيون على امتداد فترة طويلة، ساخطين وغير راضين اقتناعًا منهم بأن ضباط الأحياء، قد ضخموا الأرقام مستهدفين بذلك دعم مزاعم حزب المؤتمر الشعبى الشمالى وتقويته هذا يعنى أن الرقم الذى جرى الوصول إليه فى الشمال هو ١٦,٨ مليون نسمة، الأمر الذى لم يدهش أى أحد من أولئك الذين يعرفون الشمال، والسبب فى ذلك أن تلك الجولة الدورية كانت قد تعاملت أو تناولت الموضوع من جديد، من منطلق كثافة ما قبل الحرب، يزاد على ذلك أن سجلات الضرائب فى قلة قليلة من المراكز الحضرية لم تكشف عن تغييرات غير عادية. كان ٨٧٪ من النيجيريين يكسبون عيشهم من الزراعة، والغابات، وصيد السمك، ٥٪ فقط (وهذا على العكس من الهند) هم الذين يكسبون عيشهم من الحرف اليدوية. وجاء الرقم الغربى، بما فى ذلك ليجوس، مقدراً بحوالى ٦,٤ مليون نسمة، وفى الشرق قُدر ذلك الرقم بحوالى ٨ ملايين نسمة، بما فى ذلك الكاميرون الجنوبى. وفى سائر أنحاء البلاد كان التعداد صعبًا ونوعيًا، وخضع لكثير من المراجعات الخاصة بزمان تعبئة الاستمارة الأصلية ومكانها. على هذه الخلفية نجد أن التعليق الصادر عن أبى بكر تافاوا باليوا حول هذا الموضوع كان له مغزاه: كان السيد/ أولوو مغتاظًا من الفجوات الكبيرة التى بين السلطات المخولة لمجلس الوزراء الملكى البريطانى والسلطات المخولة للمجلس التنفيذى الغرّ، وكانت تلك الفجوات مدعومة من العلاقة التى بين الوزارة التنفيذية الاستعمارية ووزارة سياسة مقر الحكومة البريطانية. كان السيد/ أولوو قد تخطى نائب الحاكم، وراح يعترض على الحاكم فى مسألة القيود الرسمية المتبقية والمفروضة على سلطات وزير الحكم المحلى الإقليمى، وذلك على الرغم من أن تخفيض الحاكم لسلطات رؤساء الأحياء الاستشارية واعتبارها داخلة فى سلطات مفتشى

الحكم المحلى أو كتبة مجالس الأقسام لم يواجه مقاومة كبيرة من إدارة إيبادان مثلما حدث لتوقفه عن الاحتفال بيوم الإمبراطورية. كانت لدى السيد/ أولوو أيضاً السلطات التى تمكنه من الرد الفورى أو المباشر على التقرير الذى أعده السيد/ برنارد Bernard ستورى Story، الكاتب فى مدينة نوروش Norewich، عن مجلس مدينة ليجوس، والذى هيأ له أسباب حل هذا المجلس واستبداله بلجنة إدارية إلى حين إصدار قانون بالحكم المحلى الغربى (وقد اشتمل ذلك التحرك على محاولة فاشلة لإقناع الأمير أديدوين Ade-doyin بالاستقالة من مقعده فى المجلس المركزى، على أن يصبح كاتباً للمدينة، وبذلك يتطلب الأمر إجراء انتخابات فرعية، قد تؤدى إلى حصول الدكتور آزكوى على مقعد فى مجلس الممثلين Representatives فى نهاية المطاف) ـ لكن عندما توفرت للسيد/ أولوو أسباب السفر إلى الخارج وزيارة كل من الهند، وباكستان، وسيلان، ومصر (التى سقطت فيها الملكية فى شهر يوليو) والسودان (التى التقى فيها جيمس James روبرتسون Robertson، السكرتير المدنى)، كان لأبى بكر رأى آخر، **"وهو يرى أنه نظراً لأن إقليمه أكبر من ساحل العاج، فإن من حقه أن يفعل كل ما يفعله نيكروما. هؤلاء البشر لا يعرفون الصبر".**

كان الدكتور نيكروما، هو وسكانه الذين يقدر عددهم بأربعة ملايين نسمة، لا يزال يتبنى فكرة الولايات المتحدة الإفريقية الغربية، لكن بعضاً آخر من سياسيى الساحل الغربى البارزين كان لديهم مضمون آخر واضح وهو أن هذه الفكرة قد تكون مشروطة ببقاء الزعامة فى يدى نيكروما. واقع الأمر أن الرعايا البريطانيين من بين هؤلاء السياسيين البارزين كانوا يتطلعون إلى مؤتمر غرب إفريقيا المشترك inter-territorial الذى انعقد فى ذلك الوقت وكان أعضاء أمانته فى أكرا Accra رغم أنف الدكتور نيكروما، كما سبق أن أوضحنا فى الفصل الثالث عشر: هذا المؤتمر، كان يترأسه حاكم نيجيريا، أو من ينوب عنه، وكان يضم أعضاءً وزاريين ومحليين من سائر أنحاء المناطق البريطانية الأربعة الممولة لذلك المؤتمر. كانت المناطق أو بالأحرى الأراضى

الفرنسية، التى جرى التنسيق معها عن طريق داكار تنظر إلى هذا المؤتمر باعتباره تطوراً مهمًا، تحيط به الشكوك الفرنسية Gallicذات الدوافع الإنجليزية. وعلى الرغم من أن الدكتور نيكروما كان رئيسًا اسميًا للوزراء، فإنه لم تجر دعوته إلى حضور مؤتمر الكمنولث الخاص بدومينات Dominions الحكم الذاتي، ومع ذلك وُجِّهت الدعوة إلى رئيس وزراء روديسيا الجنوبية، وكما سبق أن أوضحنا كانت تلك الدعوى بناء على أسباب ذات دلالات دستورية وأسباب تتعلق بالمؤتمر نفسه الذى فشل فى إقناع النقاد الأفارقة الذين آثروا عدم الجدل فى الأمور التافهة. واستشعر أبو بكر قدرته على قبول ذلك التمييز نظرًا لأن رفيقه السيد/ نوابا جرت دعوته ليمثل نيجيريا بصفته وزيراً للتجارة والصناعة فى مؤتمر الكمنولث الاقتصادى.

[اعترضت السيد/ نوابا مصاعب أخرى. كان حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى قد عقد مؤتمره خارج الإقليم الشرقى، جاء انعقاد مؤتمر الحزب فى هذه المرة فى جوس Jos فى الفترة من ٨-١٢ ديسمبر، ووسط أزمة بدأت سياسية وتحولت إلى أزمة دستورية، ومن النوعية نفسها التى بدأ السير جون ماكفرسن يخافها ويخشاها. هؤلاء الأعضاء الذين لا يتمتعون بالسلطة الوزارية، والذين أسفوا لفشل الدكتور آزكوى فى الحصول على مقعد، شكلوا فيما بينهم مجموعة ضغط نجحت فى تمرير مقترحات ترمى إلى إعمال الدستور ثم طرد كل من نوابا Nwapa وآركبو Arik-po، وإينى Eni نجوكو Nojoku من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى (وليس طرد الدكتور إنديلى Endeley الكاميرونى). لم يسبق لأحد من هؤلاء الذهاب إلى جوس Jos . كانت هناك اقتراحات أخرى تطالب بانتخابات مباشرة، وبحقوق انتخابية عامة للكبار (على ألا يشارك فى التصويت سوى دافعى الضرائب فى سائر أنحاء نيجيريا، على ألا تصوت النساء فى الشمال)، وفصل ليجوس عن الغرب، وقصر الخدمة العامة بكاملها على المستوى المحلى، وإلغاء دستور العام ١٩٥١ بأقصى سرعة ممكنه. جاء ذلك كله بمثابة هزيمة لأنصار "الحكم الذاتى الإقليمى" ومسانديه كان السواد الأعظم

من الوزراء الإقليميين، الذين كانوا ميالين إلى مساعدة رئيس الوزراء أيُو Eyo إيتا Ita الذى شاب قبل الأوان، على إعمال الدستور لمصلحة الشرق، على الرغم من كراهيتهم لمثل هذا العمل من حيث المبدأ كانوا متعاطفين تعاطفًا واضحًا مع أصدقائهم التعساء فى ليجوس، وكان ذلك التعاطف من منطلق **"أننا نذهب إلى هناك (إلى ليجوس) طلبًا لنعمة الله"**. كان إيو إيتا، قد نصح هؤلاء الوزراء الإقليميين من المقاطعات الشرقية، بعدم الذهاب أيضًا إلى ليجوس، وبذلك بدأ ما يمكن أن نسميه أزمة "الاعتصام" الشرقية. وهنا اجتمعت المجموعة البرلمانية الشرقية برئاسة الدكتور أزكوى (لم يكن الرجل عضوًا فى مجلس هؤلاء الوزراء) وطالبوا باستقالة المجلس التنفيذى الأينوجى Enugu، استهدافًا لإجراء شىء من التعديل فى توزيع الحقائب: وجرت الاستجابة لذلك الطلب، لكن عندما اكتشف الدكتور أيتا أنه هو وخمسة من وزرائه التسعة سيختفون تمامًا، قاموا بسحب استقالاتهم قبل أن تصل الأوراق إلى نائب الحاكم، بدعوى أنهم قدموا تلك الاستقالات "تحت التهديد". لم يسحب الدكتور ميخائيل أوكبارا Okapara استقالته. واستمر ذلك "الاعتصام" أشهر عدة. وتوصل مراقبوا الحكومة البريطانية إلى أن تلك الأزمة كان بالإمكان تحاشيها لو أن كى K أو O مبادوى Mbadiwe كان عضوًا فى المجلس التنفيذى، كان كل من مبادوى هو والدكتور آزكوى يريدان لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى الوصول إلى انتخابات العام ١٩٥٦ وقد حقق رقمًا قياسيًا فى الإدراك الجيد. يزاد على ذلك أن مبادوى هو ولويس Louis أوجوكو Ojuk-wu، كانا فى ذلك الوقت أقرب مستشارى الدكتور آزكوى إليه، وكان لهما تأثير كبير على كبار الحزب وصغاره.

وبنظرًا لأن الدستور كان مبنيًا على "التمثيل" وليس على التنظيمات الحزبية المتنافسة، فقد جاءت العملية الانتخابية عبارة عن سلسلة تربط المجلسين الإقليمى والمركزى ببعضهما: وقد لوحظ بالفعل عدم وجود أية نصوص تخص مسألة حل أى جزء من جزئى هذا الهيكل على انفراد. وعلى مستوى مجلس الوزراء نجد أن رفض

حزب جماعة العمل النظرى اللا عملى، التعامل مع هذا الهيكل باعتباره "تحالفًا" جرى التعامل معه بحل مؤقت. كانت المجالس التنفيذية الإقليمية كلها قد عقدت اجتماعاتها السابقة للاجتماع كيما يتمكن الوزراء المنتخبون من تصفح جدول الأعمال والاطلاع عليه وتحديد الخط الذى ينبغى السير عليه مع الحكام القائمين وأقرانهم من المسئولين السابقين، لكن ذلك تعذر حدوثه فى ليجوس، إذ تناوب كل وزير من الوزراء المركزيين، على دعوة الوزراء الآخرين إلى منزله فى عطلة نهاية الأسبوع، التى كانت تجرى فيها مناقشة السياسات المشتركة والموضوعات الرئيسية. وهنا وجد الحكام المنابون الإقليميون أنفسهم مضطرين إلى إجراء حوارات تكتيكية مماثلة مع الأعضاء المسئولين، حول البنود المهمة، لكنهم لم يحولوا جلسات الحوار هذه إلى مؤتمرات حزبية مضادة، وهنا استشعر الحاكم قدرته على تحقيق المزيد من الاسترخاء، من باب أن المناقشة أو الحوار الكامل أصبحا أكثر احتمالاً فى ظل عدم وجود تحيز أو أهواء فى الأذهان التى استقرت بالفعل. وفى نهاية المطاف، بطبيعة الحال، سيجد كل وزير من الوزراء المركزيين نفسه مضطراً إلى الحديث بصورة إقليمية. وقد أفضى صبر رئيس المجلس ومرونته إلى الوصول إلى كثير من الاستنتاجات اللبقة، بغض النظر عن الزعامة السياسية التى ربما يكون المعلم أبو بكر أو أى أحد آخر قد كشف عنها أو بيَّنها على المائدة المستديرة. كانت سلطة ماكفرسن التكتيكية الوحيدة تتمثل فى قيام الرجل هو وسكرتير المجلس بتحديد تسلسل جدول الأعمال. وقد كوفئ ماكفرسن ذات يوم عندما قام السيد/ نجوكو Nojoku، وزير المناجم والطاقة، بإحضار أربعة ملفات سرية، لم يسبق أن اطلع أى إفريقى عليها قبل العام ١٩٥١، وكانت تلك الملفات تتعلق بقانون الزنك والرصاص. قال نجوكو: **"لقد رددت هذه الملفات، وأود أن أقول الآن، مثلما سأقول غداً فى المجلس التشريعى، إننا يتعين علينا أخذ مصالح نيجيريا بعين اعتبارنا"**. فى مثل هذا الإطار الطيب، نجد أن مدة حكم السير جون ماكفرسن، المتسامح والتى دامت خمس سنوات، ولم ينتقدها سوى قلة قليلة من الناس، قد زيدت عامين آخرين (كان الرجل قد أضاف بيرقًا ملكيًا جديداً إلى الكتيبة الرابعة من كتائب

الفيلق النيجيرى، الذى كان يترأسه الملازم جونسون Johnson أجويى Aguiyi إيرونسى Ironsi الذى سبق له أن كان ضابط صف من الطبقة الثانية فى مستودع مهمات أبابا Apapa أثناء فترة الحرب.

عندما استعرض أبو بكر عامه الأول فى الوزارة، اكتشف أنه لا يزال فى إقليم موطنه المزيد من الأمور التى تملك عليه خياله على نحو أكثر مما يراه على أنه عالم مصطنع من السياسة المركزية. كان يرى فى إقليم موطنه سماء باوتشى الأكثر صفاءً، والتى يتعين أن تعكس الضوء الكهربى (والتى كانت تشهد قيام ضابط الحى الإدارى بمراقبة تركيب مرحاضه الأول الذى يعمل بطرد الماء وصنابيره التى تحمل ماءً جاريًا باردًا، جرى توصيله إليه من إحدى أنابيب الحدائق، كل هذه مظاهر ترف كان لابد أن يتمتع بها منزل أبى بكر)، الأمر الذى أثار فى الرجل اهتمامه بالنجوم. وتعهد آرمسترونج بإرسال نسخ شخصية من كتب الفلك، التى أعاره الدكتور ماجيكودونمى Majekodonmi إياها، إلى أبى بكر تافاوا باليوا، وقد شجع ذلك أبا بكر على شراء تلسكوب وأن يبدأ هوايته الجديدة التى تتمثل فى دراسة المجرات الفلكية، فى بعض الأحيان، ومع صديقة الطبيب. وأنهيت جولة آرمسترونج، وسلّم الرجل عمله إلى مهندس آخر هو إدموند Edmund أرميتاج Armitage الذى أتينا على ذكره من قبل فى خدمة الملك التذكارية، والذى عرفه أبو بكر معرفة تامة بصفته مهندسًا مدنيًا فى باوتشى. وكان من بين الأمور الباكرة التى كانا يتجاذبان أطراف الحديث عنها بصورة موجزة، وبعيدًا عن إعداد قوائم حفلات الكوكتيل الخالية من المسكرات تمامًا، ذلك الأمر الخاص بمسألة تجربة بريطانيا لأولى قنابلها الذرية، وحصول أحد طلاب الشمال الذين يدرسون الطب البيطرى فى جامعة ليفربول على شارة جناح الطيران من سرب الطيران بالجامعة، هذا الطالب الشمالى هو بوكار Bukar شعيب Shaib، كما تطرق حديثهما أيضًا إلى تأسيس مدرسة طبية فى كانو (يقوم خريجوها بالعمل تحت إشراف كامل من خريجى كليات الطب، كل ذلك كان يؤذن، عن غير قصد، بأطباء

الصين "حفاة الأقدام" فى زمن ماوتشى تونج)، وكانا يتحدثان أيضا عن مجلس منح الإقليم الشمالى التعليمية وإدارته لصندوق التنمية الذاتية (أو بالأحرى ما سبق الإشارة إليه فى الفصل الثالث عشر)، وتحدث الرجلان أيضًا عن مسألة إرسال خمسة من الصبية الذين يبلغ عمر الواحد منهم ثلاثة عشر عامًا إلى المدرسة العامة البريطانية، وتحدثا أيضًا عن الكساد فى سوق الجلود والبضائع الجلدية الذى أدى إلى زيادة جودة ما يشترى من هذه البضائع، وتطرق حديث الرجلين أيضًا إلى الزيارة الأولى التى قام بها الدكتور لوسى Lucy هير Hair إلى غرب إفريقيا، والذى أمضى وقتًا طويلاً فى أوغنده، كما كان يحاضر فى لندن أيضًا عن الإدارة الاستعمارية بدءًا من العام ١٩٣٣، وعرّج الرجلان فى حديثهما أيضًا على توزيع بذور القطن "٢٦ سى" المحسّنة على الفلاحين، والتى حصل أبو بكر على شىء منها لمزرعته الخاصة، ولم يغب عن بال الرجلين الحديث عن آخر أساليب مقاومة الآفات التى كانت تغزو الجيل الجديد من أهرامات الفول السودانى، التى بدأت تتكدس من جديد على شكل تراكمات لم يجر إخلاؤها حتى العام ١٩٥٤-٥٥، وتكلم الرجلان عن وفاة الباحث المبشر البارز، الدكتور ولتر Walter ميلر، فى سن الثمانين بالقرب من بلدة جوس Jos، ذلك الرجل الذى أدى إخلاصه ونزاهته باعتباره شماليًا أصيلاً، إلى جعل أبى بكر يعينه فى اللجنة المستقلة الخارجية التى نادى بها فى خطبته الشهيرة التى ألقاها فى خمسينيات القرن العشرين عن الحكم غير المباشر.

جرى جذب زوجة أرمبتاج (مثل زوجة أرمسترونج) إلى منزل أبى بكر الجديد لكى تقوم بإرسال بطاقات عيد الميلاد، ولكى تعلم أهل بيت الوزير كيفية إعداد حفلات الغذاء للشخصيات المهمة: على الرغم من وجود خادمة عارفة بهذه الأشياء من باوتشى، وعلى الرغم أيضًا من وجود صبى شاب من باوتشى اسمه داوود Dauda ساطى Sade، الذى اشترى له أبو بكر ماكينة خياطة، وكان يقوم بكل أعمال الحياكة التى تطلب منه، يزاد على ذلك هيئة إدارة المنزل كانت كلها من الجنوبيين. وسرعان ما نشأت علاقة

أسرية مع آل - أرميتاج، وعندما كان السكرتير يذهب إلى مطار إيكيجا Ikeja لإحضار الوزير بعد عودته من زيارة لأحد مناطق الشمال، كان أبو بكر يفضل الجلوس فى الكرسى المجاور للسائق، وذلك على العكس من الوزراء الآخرين الذين كانوا يؤثرون الجلوس فى الكرسى الخلفى على الجلوس بجوار "السائق". حدث ذات مرة أن قام أرميتاج بدور القائد فى سيارته الفورد من طراز بايلوت Pilot، لثلاثة من الوزراء وهم داخل سيارتهم الشيفروليت، وأُجبر الرجل على الوقوف لأن ولده الصغير كان "مزنوقًا"، ويود الاختفاء خلف شجرة من الأشجار: وتوقف الركب كله، وبعد أن رأى أبو بكر كل ما حدث رؤية واضحة، راح يسأل السائق فى نغمة بريئة، **"هل تعطلت السيارة؟"**. كان السكرتير يقوم أيضًا بجمع التفاصيل الدقيقة عن أسرة وزيره عندما تصله المطالبة القادمة من إدارة ضريبة الدخل المركزية: كان أبو بكر، قبل ذلك، يقوم بسداد ضريبة الأفراد المباشرة إلى الخزانة المحلية الخاصة بكل من باوتشى وداس.

كان أرميتاج يشارك الموظفين المهنيين السواد الأعظم من شكوكهم فى مسألة دوام العمل فى الخدمة الإدارية، ولابد أنه لاحظ مثل أبى بكر، بعض الأرقام التى نشرت فى ذلك الوقت لمقارنتها بتعداد السكان: كان هناك ٢١٤ ضابطًا (موظفًا) إداريًا فى الشمال، ١٣٣ فى الشرق، ١١٣ فى الغرب، لم يكن من بين كل هؤلاء سوى خمسة نيجيريين فى الشمال (لكنهم لم يكونوا شماليين)، وتسعة فى الشرق، وسبعة فى الغرب - لم يكن من بين رؤساء الأقسام نيجيرى واحد. وعلى مستوى الإدارة العليا ككل، شاملة المهن كلها، كان هناك ثمانية عشر من الشماليين، ١٨٨ من الشرقيين، ٢٤٣ من الغربيين، ٦٣ آخرين من غرب إفريقيا، وسبق ترقيتهم بناء على التقرير الذى أعده فوت Foot عن النجرنة فى العام ١٩٤٨ لم يناقش الرجلان التصريح الذى أدلى به إبراهيم إمام الأمين العام لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، والذى مفاده أن حكومة الشمال لم تكن حكومة من ذلك الحزب: وتلك كانت وجهة نظر منطقية، كانت معروفة لكل أعضاء المجلس التنفيذى فى كادونا، يزاد على ذلك أن أمينى المالية والتنمية بصفة



Alhaji Sir Abubakar Tafawa Balewa.



The Rt Hon Alan Lennox-Boyd, Secretary of State, Chief Obafemi Awolowo, Alhaji Sir Abubakar Tafawa Balewa, Alhaji Sir Ahmadu Bello, Sardauna of Sokoto, and Dr Nnamdi Azikiwe.

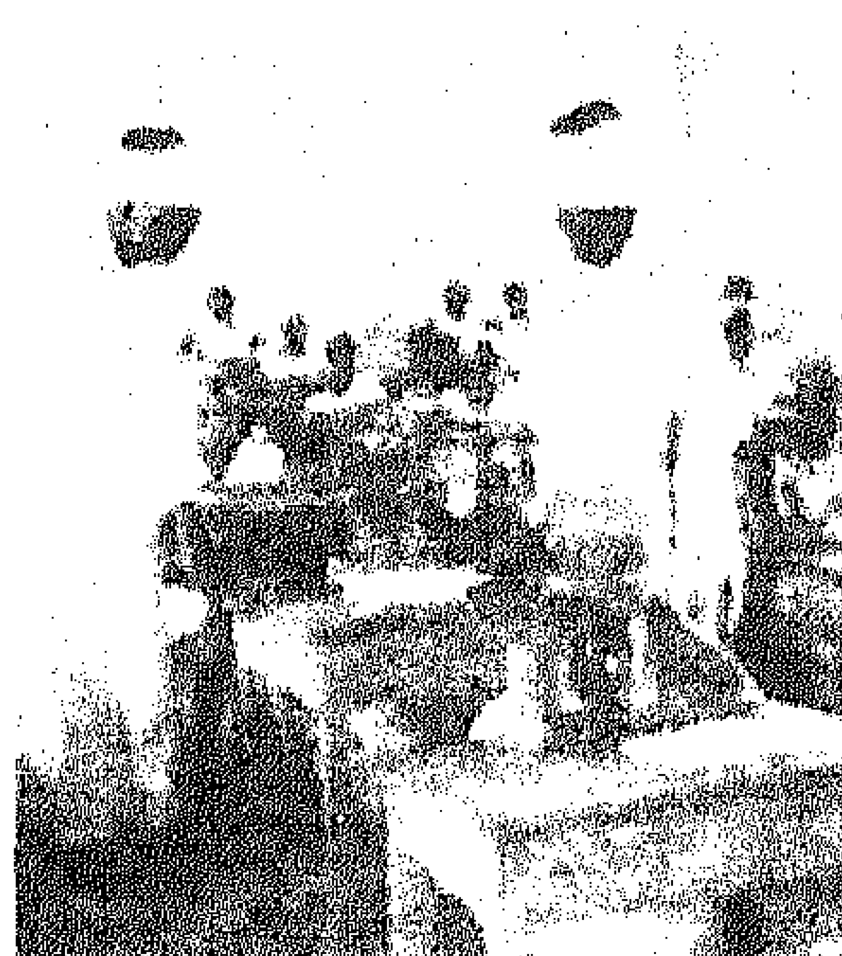
(Photograph by courtesy of the late Lord Boyd)

The Black Rock of Tafawa Balewa.

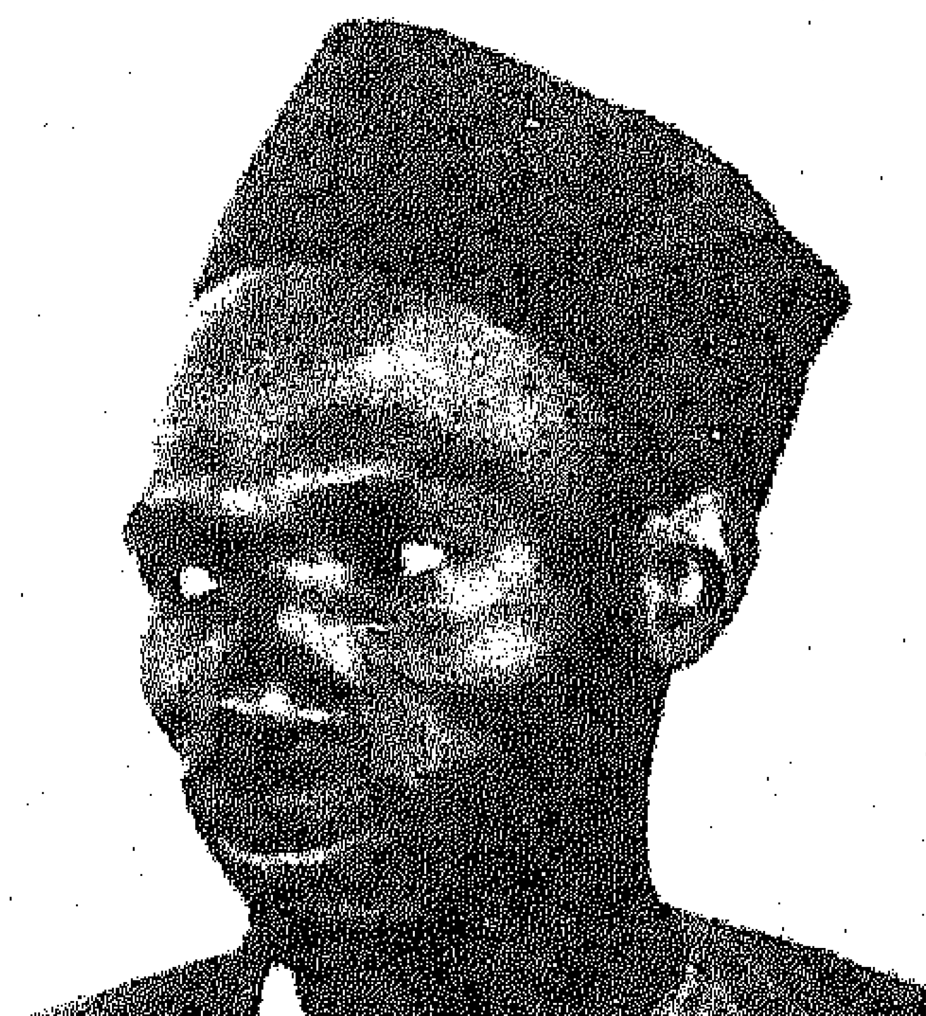
(Photograph by Author)





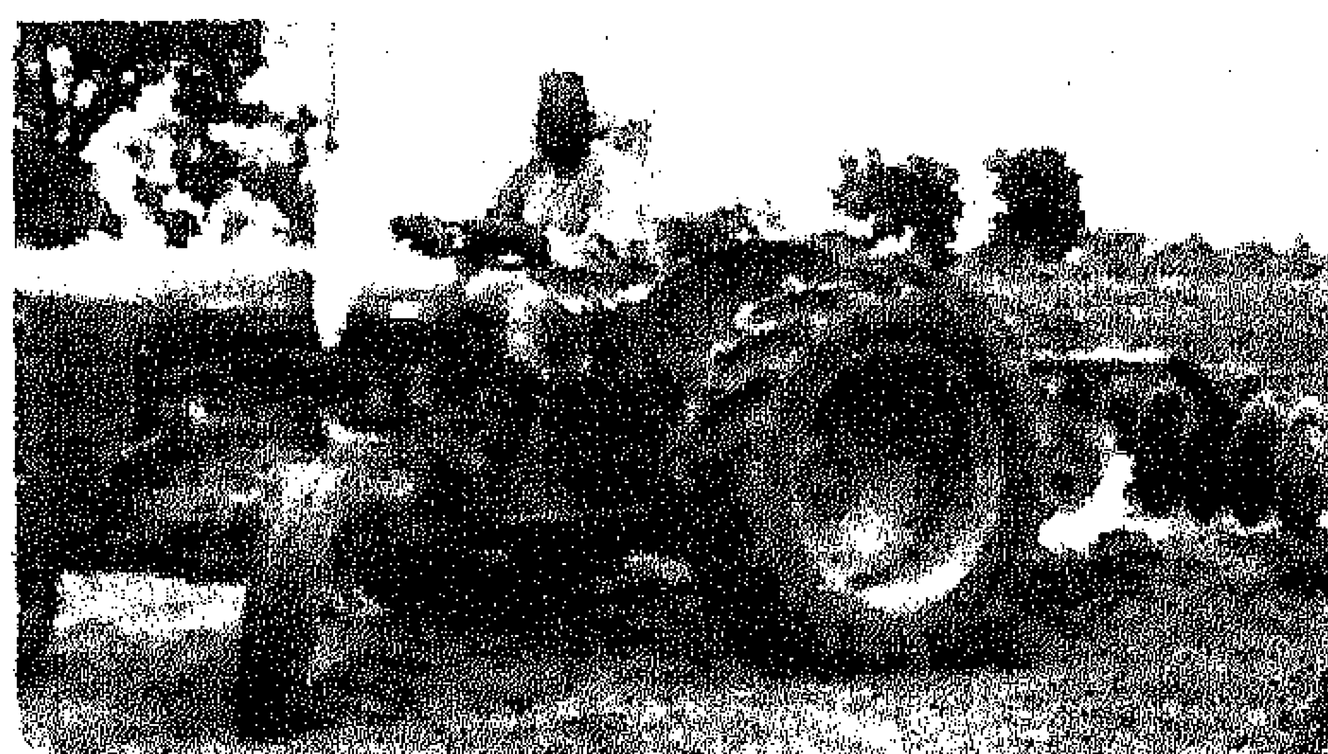


The young Abubakar. Teaching geography in Bauchi Middle School and inspecting primary schools as Education Assistant.











Abubakar at work on his farm.





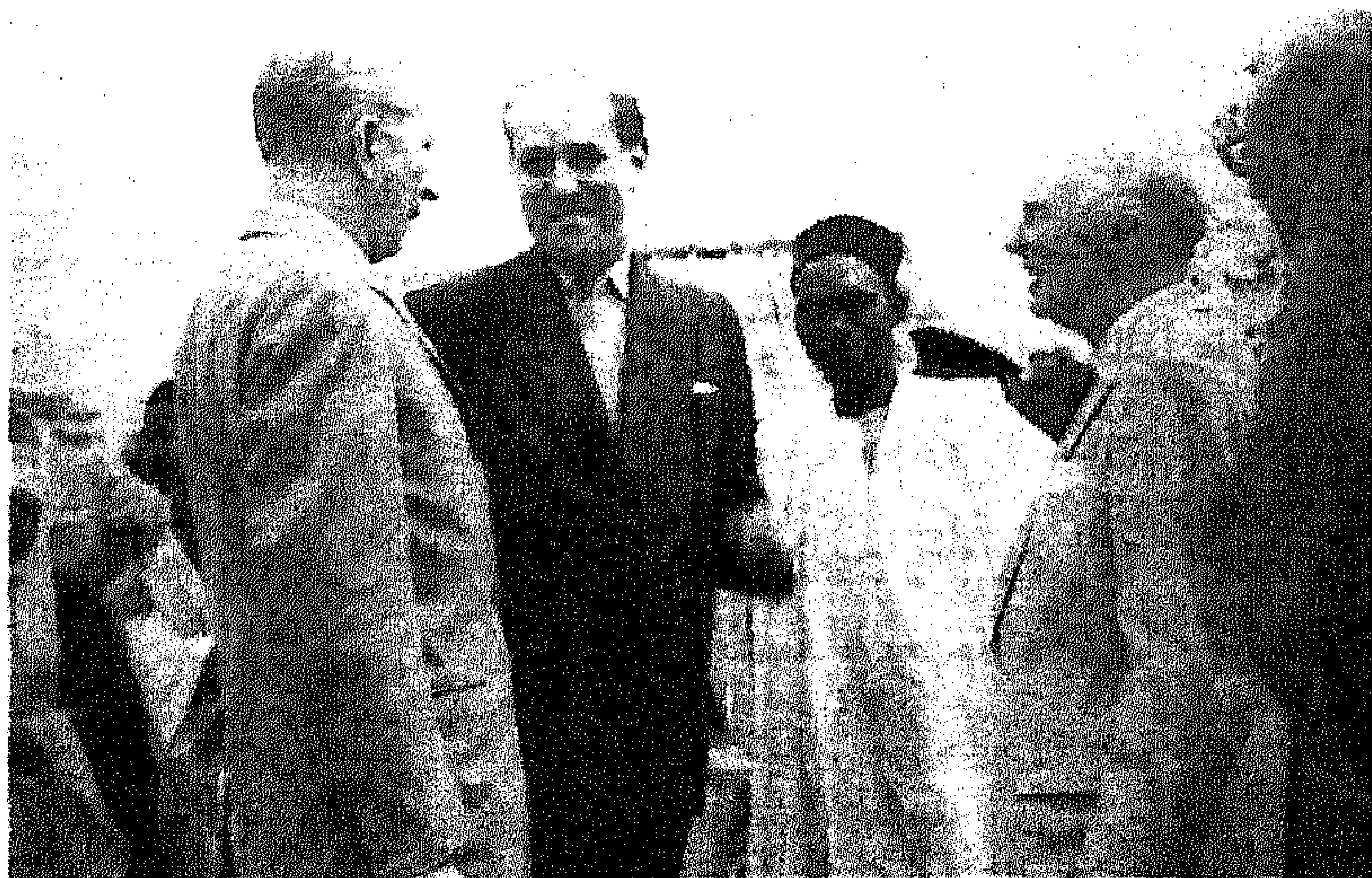




Varying moods.







Sir John Macpherson, Alan Lennox-Boyd and Abubakar Tafawa Balewa.

Malam Abubakar bids farewell to Her Majesty and Prince Philip.



خاصة لم يخشيا الحديث عنها على الملأ. من بين الثلاثة عشر مقعداً التى فى المجلس التنفيذى كان البريطانيون يشغلون خمسة مقاعد، وكان الرؤساء يشغلون مقعدين، لم يكن هناك سوى أربعة وزراء فقط هم الذين يدينون بالولاء لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى. الواقع أن تلك الحكومة كانت أكثر "تواضعًا" مما كان يتمناه ويتوق إليه إبراهيم إمام، يزاد على ذلك أن كل أعضاء هذه الوزارة كانوا على استعداد للاعتراف بأن هذه الوزارة كانت بمثابة أول جسر يجرى العبور عليه من الإدارة الاستعمارية إلى حكومة مجلس الوزراء. وآثر شتيما كاشيم، الذى سبق أن درّس إبراهيم إمام عندما كان فى المدرسة الأولية، الاحتفاظ بمدخلاته السياسية للمناقشات الخاصة، وكان يشعر بالقلق إزاء هذا التهور الشعبى من جانب تلميذه - أما المعلم أبو بكر تافاوا باليوا، الذى كان ينظر إلى المنظر من المركز، الذى أتاح له هو الآخر فرصة استعراض عضلاته الوزارية، فلم يكن ميالاً إلى المشاركة فى جدل حزبى إقليمى خالص. أحس أبو بكر سعادة غامرة، عندما سمح لأرميتاج بأن يكتب رسالة إلى مستشار سكتو السياسى الرئيسى **Saradauna**، من خلال جريدة الديلى تايمز التى تصدر فى ليجوس، عن واحدة من الزيارات الطويلة التى قام بها وزير الأشغال.

فى أواخر العام قامت بريطانيا باختبار أولى قنابلها الذرية، وجرى انتخاب إيزنهاور **Eisenhower** رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية. وجرى عقد مؤتمر مطول للكمنولث، حضره مسئولون يمثلون نيجيريا وساحل الذهب، وطالب هؤلاء الممثلون بمزيد من التحرر من سيطرة الخزانة البريطانية، حتى يسمح لهم باستثمار احتياطيات المستعمرات الإسترلينية على النحو الذى يجدونه مفيداً، وإنشاء بنوك مركزية، ونصحوا بالاستفادة من التحالف البينى طويل الأجل بين دول الكمنولث، فى تحقيق التنمية المطلوبة، نظراً لأن اتباع السياسات العامة يضمن توفير رأس المال المناسب فى إطار منطقة الإسترلينى.

الفصل السادس عشر

غليان سياسى فى البلاد

"قد يمضى المرء عامًا فى تشريح الماء، وكل ما يحصل عليه

لن يكون سوى رذاذ عديم النفع"(*)

مع بداية عام التتويج البريطانى، واصل أبو بكر تافاوا باليوا مسألة توضيح أن اهتمامه المتزايد بالأعمال الفيدرالية العامة لن يباعد بينه وبين الاهتمام بالمسائل الشمالية، ونجد أن الرجل فى الاجتماع الذى عقدته جمعيه كادونا العمومية لمناقشة الموازنة، يرد ردًا عنيفًا على الهمز واللمز من جانب أحد أعضاء الجمعية، الذى عارض زيادة بدلات نائب الحاكم قائلاً: **"كلنا هنا سياسيون، وأنا لا أود أن يتكون لدى الجمهور انطباع بأن الوزراء الإقليميين هم والجمعية، زادوا الضريبة على المنتجات لمجرد أنهم يودون زيادة بدل الترفيه"**. بعد ذلك بفترة قصيرة، تغلب أبو بكر تافاوا باليوا على استيائه من بطرس Peter جويلم Guillum سكوت Scott، الذى كان يتصرف فى ذلك الاجتماع ـ وعلى الرغم من معرفته لغة الهوسا – وإدراكه لحساسيات الشمال، وهو يرتدى ثيابه الكاملة لأول مرة، ثياب السكرتير المالى؛ تغلب أبو بكر على ذلك الاستياء بقوله: **"أتمنى ألا أكون قد فاجأت الجمعية العمومية، وأنا أقوم اليوم بإنقاذ الضباط (الموظفين) الإداريين... هل يمكننا تحقيق الإصلاح الذى نريده دون أن**

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا . وهو من ترجمة المترجم . (المترجم)

تكون لدينا هيئة قوية من الضباط (الموظفين) الإداريين؟ حسن، إذا لم نستطع ذلك، فلنبحث عن أنماط طيبة من الضباط الإداريين الذين يمكنهم أداء خدمات طيبة للشمال.... أنا لا أوافق على أن تكون الجماهير تحت القبضة الحديدية المطلقة لإدارات الحكم المحلى.... نحن الآن نصيح طول الوقت منادين بتدريب هيئات الإدارات المحلية، وكيف لنا بفعل ذلك دون أن نحظى بمساعدة وتعاون فعال معنا من قبل الضباط الإداريين؟" هذه الهبَّة الإنقاذية لم تجعل الجمعية العمومية تعيد النظر فى رفضها مطالبة السكرتير المدنى بموظفين للمخازن والحسابات، يقومون بتخفيف المهام العامة عن ضباط الإدارة. ثم قام أبو بكر بعد ذلك، فى المناظرة التى أثارها عضو جنوبى آخر، هو السيد/ إف F إى E أوكنكو، الذى جرى تعيينه كى ينضم إلى السيد/ إس أو O جيمسى James، قام بتوجيه ضربة جانبية عرضية إلى مسألة عدم تمثيل الشمال فى الجمعيات الجنوبية، وكرم الشمال الزائد مع الوكالات التعليمية التطوعية التى يقوم عملها بصفة أساسية على مساعدة أبناء الجاليات الجنوبية النازحة إلى الشمال ودعمهم.

كان أبو بكر قد وقف للحديث عن الورقة البيضاء المملة التى عنوانها **الاتجاهات الحديثة والتطورات المحتملة فى مجال الإدارة المحلية فى الإقليم الشمالى**، كان من بين التغييرات، ذلك الاقتراح الذى يقضى بإنشاء حقيبة جديدة تكون مهمتها تنسيق عملية تطوير الحكم المحلى. كان من رأى أبى بكر تافاوا باليوا: "يجب أن نكون متأكدين تمامًا أن أمن الجماهير وسعادتهم لن يصابا بأذى" ويتعين أيضًا جعل المنظومة التقليدية تتمشى مع الزمن وتسايره، لكن أبا بكر أوضح فى هذه المناقشة أنه يفضل دمج الرؤساء Chiefs ضمن هذه المسيرة عن طريق الكفاية وليس عن طريق التوجيه المباشر، وذلك على الرغم من عدم موافقة بعض الأعضاء الذين كانوا يستمعون إليه على هذا الرأى. وبعد تشجيع السلطان هو وأنداده من وراء ستار من قبل شارود – سميث، وافق مجلس الرؤساء على الاقتراح المقدم من أبى بكر تافاوا باليوا. وجرى بعد ذلك

بفترة قصيرة، تعيين أحمد بللو مستشار سكتو السياسى الرئيسى، وزيراً للحكم المحلى(*) : هذا يعنى أن حرف الجر "of" لم يستخدم فى هذا المسمى، وذلك من باب طمأنة الأمراء أن الوزير لم يكن مسئولا عنهم أو عن وحدات الإدارة المحلية الخاصة بهم، لكنه سوف يتحدث نيابة عنهم فى المجلس وفى المجلس التشريعى ـ ونحن نشك فى هذا اللغز الدلالى وفهمه من جانب الرؤساء على النحو الذى يفهمه أبناء اللغة الإنجليزية العاملين فى خدمة المستعمرات.

كان التشريع الاستعمارى خاضعاً من الناحية الدستورية لسلطات وزير الخارجية فيما يتعلق بالرفض نيابة عن صاحب الجلالة، وكانت اللوائح الإقليمية (التى عُرفت باسم "القوانين" تمييزاً لها عن "المراسيم") شأنها شأن الاتصالات الرسمية كلها مع الحكومة البريطانية يجرى تقديمها عن طريق مكتب الحاكم. كان حزب جماعة العمل قد دأب على مقاطعة السير جون ماكفرسن، كما سبق أن أوضحنا، لدوره المزعوم فى تأخير الموافقة الملكية على قانون الحكم المحلى فى الإقليم الغربى، وقد أدى هذا الموقف إلى شيء من الحرج للوزراء المركزيين مثل أكنتولا، وتوماس، وبرست Prest وعبَّر المعلم أبو بكر عن سوء السلوك الذى انطوت عليه المقاطعة، ولم يكن أبو بكر مقتنعاً بأن الخطط التى وضعها السيد/ أولوو للدور الذى ستلعبه إدارته الإقليمية مستقبلاً فى الحكم المحلى،، كانت تطالب بوحدات للحكم المحلى أكثر تقدماً فى الغرب كى تجرى إدارتها طبقًا لهذه الخطط قبل أن تتعلم هذه الوحدات التعثر خلال خمسينيات القرن العشرين. أعرب أبو بكر عن تعاطفه أيضاً مع تعليق ماكفرسن الإذاعى عن الأزمة المفاجئة التى حدثت فى الشرق، وأن هذه الأزمة أدت إلى الإساءة بصورة مؤقتة إلى

(*) العبارة الإنجليزية المستخدمة فى هذا الصدد هى Minster for local government وليست العبارة التى تقول: Minster of local government والفارق بين العبارتين يتمثل فى حرف الجر. استعمال حرف الجر for يعنى "وزيراً لشئون الحكم المحلى" أما استعمال حرف الجر of فيعنى "وزير الحكم المحلى". (المترجم)

سمعة نيجيريا فى الخارج: وبعد المناقشة التى أجريت فى حضور كل أعضاء مجلس الوزراء، أعلن الحاكم أن وزراءه كلهم كانوا مهمومين ومنشغلين تمامًا بما يجرى، وتمنوا عودة الوضع إلى ما فيه مصلحة الشرق ومصلحة نيجيريا كلها.

الذى حدث هو أن الجمعية العامة الشرقية كانت قد صوتت "بسحب الثقة" من مجلس إينوجو التنفيذى، لكن ذلك التصويت لم يكن بأغلبية الثلثين فى اقتراع سرى وفى ظل أعراف الاستقالات الإجبارية، ومن هنا ظهر المتمردون على المؤتمر الذى عقده حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى بلدة جوس Jos، وبتحريض من إيو Eyo إيتا Ita، والدكتور أى يو U، وجاجا وشوكو Wachuku، والذين تمثل خطؤهم، فى نظر الكثيرين، فى ظهورهم وكأنهم مجرد صنائع للدكتور آزكوى، عندما أسسوا حزب الاستقلال الوطنى. كان السيد/ آركبو فى ليجوس هو الذى يتزعم هذا الحزب، فى حين انضم الدكتور إنديلى Endeley من الكاميرون الجنوبى إلى هذا الحزب فى إينوجو بعد فترة وجيزة. وبقيت الحكومة المركزية حقيقة عملية، على الرغم من الحرج الذى ترتب على الأساليب المتبعة، لكن الأغلبية الساحقة لحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى الإقليم الشرقى صادرت كل التشريعات الحكومية الخاصة بحزب الاستقلال الوطنى عن طريق التصويت العلنى التخويفى، وقد ظهر عجز تلك الأغلبية عن "سحب الثقة" عن طريق الاقتراع السرى، وبذلك يصل الحال إلى طريق مسدود. وهنا اضطر حاكم الشرق المناب إلى استعماله "سلطاته التحفظية" فى تمرير موازنة العام ١٩٥٣–٥٤ الخاصة بالخدمات الضرورية القائمة والرواتب التى يتعين المحافظة عليها، ناهيك عن المحافظة أيضًا على النظام العام. كان ماكفرسن على وشك إجراء بعض الحوارات عن الموقف السياسى النيجيرى مع ليتلتون Lyttelton حول الوضع السياسى فى نيجيريا، وكان مقررًا أيضًا أن يحضر تلك الحوارات آردن كلارك Clarke من ساحل الذهب. جاء ذلك الاجتماع اللندنى عقب المؤتمر الخاص بقيام اتحاد فيدرالى بين كل من روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية ونيسالند Nyasaland، فى ضوء هذا

المؤتمر اعْتُبر قيام حكومة جنوب إفريقيا بتوسيع سلطات الطوارئ تحت ستار قانون الأمن العام نذيراً مستقبليا محبطًا للاسترخاء العرقى فى جنوب القارة.

فى الوقت نفسه ظل إحساس أبى بكر بعدم الوثوق بنفسه فيما يتعلق بمسئوليته الوزارية. وبينما كان الرجل يسأل أسئلة عدة ويقرأ خلفيات كل ملف من الملفات التى كانت تصل إليه، راح يقوى علاقته مع إيدى Eddie أرميتاج Armitage. كان أرميتاج يتضايق فى بعض الأحيان من أن مواقفه الوزارية، شأنها شأن مواقف الإدارى العام، الذى يشعر بالقلق إزاء كل شىء، تُسلّم وتفترض أن كل أنواع المهندسين سواء أكانوا ميكانيكيين، أم مدنيين أم مهندسى كهرباء، أو أى نوع آخر، بوسعهم تفهم التخصصات الهندسية الأخرى وبالتالى تَسَوُّد أى نوع آخر من أنواع الهندسة على وجه السرعة؛ كان السكرتير هو الذى يقوم على أمر سيارة الوزير طراز فورد VS بابلوت التى نصحه بشرائها فى باوتشى، وعلى العكس من سيارة أرميتاج طراز بسوت التى كان يقوم هو بصيانتها، أصبحت السيارة بحال يرثى له ويتعذر معه إصلاحها، وبعد بضع محاولات يائسة لبيع السيارة بأكثر من الثمن الذى تستحقه، وافق أبو بكر على التخلص من السيارة بسعر سوق الخردة، الذى كان مبلغًا صغيراً.

كان الوزير هو وسكرتيره يقومان بجولات طويلة على ورش تنمية ما بعد الحرب، وعلى ورش الأشغال لكى ليتعلما ذلك الذى يجرى فى تلك الورش، وليس بالضرورة الجانب المادى أو الكيمياوى لكل عملية من هذه العمليات، وذلك على العكس تمامًا من مناسبة الرداء الشمالى أو عدم مناسبته، أو بالأحرى القفطان الذى كان يرتديه أبو بكر لمثل هذه المنشآت التى تقوم على قدر كبير من الأوساخ والأقذار وأبو بكر على العكس من رفاقه، لم يحدث أن اعترض مطلقًا على مرافقته للضباط الأوروبيين وهم يرتدون ملابس الغابات أو عندما لا يضعون رباط العنق أثناء العمل خارج مكاتبهم. وقد زاد تسامح أبى بكر فى مسألة الشكليات عندما اضطرته الجولة التى كان يقوم بها إلى الأماكن الجديدة، إلى الانتباه ولأول مرة، إلى أنه فى كثير من المناطق الحارة والمناطق

الرطبـة، التى كـان لا يزال غـريبًـا عليـهـا، يكون الرداء اليـومى لأهل هذه المناطق قليـلاً وخفيفًا كما هو الحال بين وثنيى التلال الشمالية. وعلى حد قول أرمسترونج ومشاهدته، فإن أبا بكر، عندما كان يتجول فى المناطق الريفية من البلاد، كان يشعر دومًـا بالحرج عندما كان يتلقى بعض الهدايا التقليدية من الأعيان فى تلك الأماكن: كان أبو بكر يتبع العرف الشمالى الذى يقضى بإعطاء الخادم أو المراسل الذى أحضر له الهدية بقشيشًا (يقولون له Tukwici بلغة الهوسـا)، يعادل مـعشار أو ما يقرب من المعـشار من قيـمـة الهدية، وأنه فى بعض الأحيان كان ينفذ ما معه من عملات معدنية وأنه كان يتحول فى بعض الأحيان إلى مساعدة مثل أفراد الأسرة المالكة البريطانية عندما تنفذ نقودهم. كان أبو بكر يحظى باستقبال طيب فى كل مكان وثبت أنه ضيف اجتماعى، كان الرجل يحظى بحفاوة بعض الغرباء به تمامًا مثل الذين كانوا يحلون عليه ضيوفًا فى هذه المرحلة من حياته العملية؛ ولم يندم الرجل إلا على سفره العَجِل مع مجموعة صغيرة جدًا من هيئة العاملين معه، الأمر الذى كان يحول بينه وبين تبادل الكرم بالطريقة التى عرفها ودرج عليها. وجد أرميتاج نفسه داخلاً فى السواد الأعظم من هذا النوع من الكرم ثنائى الاتجاه، وكان يجرى تقديم أرميتاج بواسطة "رئيسه" المسلم (سرعان ما بدأ ذلك المصطلح الذى يوحى بالحب والدفء يسرى بين سكرتيرى الخدمة المدنية) بنوع من الكرم المادى لنشر جو من السرور الوزارى، عندما كان يختار بيتًا يأوى إليه طلبًا للضيافة أثناء الجولات الطويلة. فى كادونا على سبيل المثال أعطى المعلم محمد رباط سكرتير أبا بكر مهمة تحديد قائمة المدعوين وتنظيم الحفل عندما يقوم الوزراء الفيدراليون بوداع السيد/ إس جى مارشال Marshall مدير الخدمات البيطرية عند التقاعد.

كان موقف السكرتيرين الرسمى أمرًا لا يزال يعتمد على التجربة والخطأ، نظرًا لأن المعنيين كانوا يحاولون استكشاف أمان الطريق الذى بدأوا السير فيه وسبر أغواره ؛ إذ كان السكرتير العام للحكومة يتوقع الكثير من هؤلاء السكرتيرين دون الحصول

دوماً على أوضح الإرشادات والتوجيهات. كان السكرتير يقوم بعمل مسودات المذكرات المطلوبة لمجلس الوزراء، ويقوم أيضًا بإعداد خطب "سيده". كان يندر أكثر مما يحدث فى مجلس الوزراء البريطانى، أن يقوم الوزير بعمل مسودة لأى شىء اللهم باستثناء بيان سياسى صرف خاص به هو شخصيًا، وكان نادرًا أيضًا قيام الوزير بإعداد مسودة لبحث فنى يمكن أن يكون نتيجة لمبادأة الوزير، دون استعجال من وزارته. أما المعلم أبو بكر فقد كان يتصفح مسوداته تصفحًا دقيقًا، وكان يندر أن يحدث فيها أى نوع من التغيير إلا فى المقدمة والخاتمة. كان السكرتير يحاول أن يكون لطيفًا ولماحًا وصادقًا فى الوقت نفسه، وكان من عادته أيضًا فى تلك المرحلة، إرسال أية مسودة من المسودات مع ملفها إلى سكرتيرى الوزراء الآخرين، إذا كان موضوع المسودة ذا صلة بعمل هؤلاء الوزراء. هؤلاء السكرتيرين الأُول لم يكونوا على يقين من أوضاعهم، وكانت قلة قليلة من هؤلاء السكرتيرين هم الذين يتمنون إلزام الوزير بالقيام بمثل هذه المشاورات التى لا تدخل فى اختصاصاتهم: لكنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن الأعضاء البريطانيين كانوا بحكم وظائفهم وزراء أيضًا وأنهم من حقهم قانونًا وعرفًا أن يُستشاروا ويُرجَعُ إليهم. كان أبو بكر تافاوا باليوا أكثر تسامحًا من رفاقه فيما يتعلق بالحقائق الدستورية، لكن الرجل كان يغضب ويثور إذا ما قام سكرتيره بالرجوع إلى زميل من زملاء السكرتير العام، أو السكرتير المالى، حول أية مسودة من المسودات دون الرجوع إلى أبى بكر تافاوا باليوا أو إعلامه بذلك. كان أبو بكر يشعر بالسعادة الغامرة عندما تصله نصيحة مباشرة من مهندس تنفيذى بسيط، ويقبلها منه كما لو كانت قادمة من زميل من زملاء السكرتير العام: هذا يعنى أيضًا أن السكرتير الخاص بسلم الرواتب الطويل (والذى أصبح بعد ذلك بوقت قصير سكرتيرًا خاصًا بسلم "الرواتب التى فوق الرواتب الدنيا") لم يستطع تبين العلاقات التى بين صغار الموظفين لطيفى المعشر والعلاقات التى بين نظرائهم على أنها أمور بسيطة ومتشابهة، هذا السكرتير كان يعرف أيضًا أن السكرتيرين الماليين كانوا يفرحون وتشرح صدورهم

عندما يستشارون ويفشلون فى إخفاء توقعهم الراسخ الذى مفاده أنهم سيجرى استشارتهم سواء نجحوا أم فشلوا.

أما أرميتاج، شأنه شأن قلة قليلة من السكرتيرين، فقد تعلم مهنته بطريقة صعبة، واستطاع بمعاونة رؤسائه بناء موروث تركه لمن جاءوا بعده على مر السنين. وبطبيعة الحال كان أبو بكر يجد فى المسودات كلمات لا يعرفها، وأن هذه الكلمات لم تكن جلها كلمات فنية، وهنا كان الرجل يقوم بتمثل كل شروح هذه الكلمات وتعاريفها قبل استعمالها: وهنا نجد الحال شبيهًا بما يفعله أبو بكر عندما يحاول إقناع نفسه قبل أى حوار من الحوارات بالأسباب التى تحتم بناء قنطرة من الخرسانة المسلحة وأخرى من الحجر. لم يكن أبو بكر فى تلك المرحلة يشعر بالإحباط نتيجة وجود مدير الأشغال العامة، كان الرجل يحسب أنه مُسَيْطَرٌ عليه ومتحكم فى الأعمال المركزية كلها، لكنه سرعان ما أدرك أن بعض زملائه كانوا يواجهون الإحباط عند كل منعطف من المنعطفات. ذهب الرجل ذات يوم إلى الحاكم وحذره قائلاً: "**إنهم يريدون المزيد من السلطة فى الوزارات، وأنا أرى أن نأخذ ذلك فى الحسبان**". وبعد ذلك بوقت قصير، أو بالأحرى فى شهر فبراير، أجمع الوزراء المركزيون على المطالبة بالسلطة التنفيذية فى وزاراتهم، وراحوا يطالبون بدعم زملائهم الإقليميين لهم، كما راحوا أيضًا يستشهدون بالسوابق المثيلة التى حدثت فى ساحل الذهب ويشيرون إليها وهنا راح ماكفرسن ينصح لوزارة المستعمرات بالقيام بعمل التعديلات الدستورية اللازمة لذلك، ولم يعارض وزير الخارجية فى ذلك.

ذهب الوزير ذات مرة إلى شبكة المياه، التى كانت تنقل الماء من نهر إيجو IJU تحت ضغط عبر مستودعات ليجوس الرئيسية التى سبق له أن تفقدها ومعه أرمسترونج. كانت المضخات الموجودة فى الشبكة، والتى يرجع تاريخها إلى بداية القرن، قد أصبحت غير مناسبة أو كافية، وكان يجرى توسيعها عن طريق إضافة مضخات طرد مركزى كهربية قوية تنتج عنها ضوضاء كثيرة استهدافًا لزيادة قدرة

الشبكة (إذ كانت كمية المياه المناسبة فى نهر إيجو تسمح بذلك التوسع). ألقى المعلم أبو بكر نظرة على تلك المضخات التجارية القديمة، والبطيئة، والتى يلمع نحاسها الأصفر، فى حين كانت لوحات الأسماء مدهونة بالميناء، نظر إلى هذه المضخات وهى تدور بحدَّافاتها الغريبة وقال: "ليس بوسعنا الحصول على المزيد من هذه الطلمبات، وهذا أمر مؤسف!" كان الرجل متحمسًا للجمال الطبيعى لتلك الهندسة الفكتورية غير القابلة للتدمير. وقد جاء ذلك الإحساس منسجمًا مع إحساس المؤرخ بالأثريات الذى تعرض له بصورة مؤقتة فى كاتسنا، والذى كشف هو عنه يوم ذهب إلى بريطانيا للدراسة لمدة عام: ولأن ذلك كان داخلاً فى نطاق عمله، ولأن كنيث Kenneth موراى Murray، رئيس خدمة الآثار (الذى أصابه الإحباط بفعل من السكرتير القديم)، فقد بدأ أبو بكر يستشعر أهمية الضغط لاستصدار قانون لحماية التذكارات الثقافية، وقد أسفر ذلك عن ذهاب أبى بكر إلى إيف Ife لمشاهدة بعض الحفريات. قام برناردBernard فاج Fagg، الأثرى الحكومى، بتوفير دراجتين لكل من الوزير (أبى بكر تافاوا باليوا) وسكرتيره لكى يقطعا ميلين أو ثلاثة على طريق الغابات وهما يسيران خلف ذلك الرجل.

تسببت الخشخشة الناتجة عن دراجة فاج فى تناسى الحقيقة التى مفادها أنه لم يعد يتبعه أحد: كان أبو بكر يسير فى إثر فاج، لكنه راح يتبادل المرح واللهو مع بعض البائعات اليوروباويات اللاتى كن فى طريقهن إلى السوق.

فى أيكة أولوكون Olokun، التى يشرف عليها وليام William شقيق فاج Fagg، وهو من المتحف البريطانى، جرى إحضار بعض بقايا الأوانى الفخارية، وقد وجد فاج أن تلك البقايا الفخارية كانت مثيرة للغاية، لكنها كانت تبدو شيئًا مختلفًا فى أعين غير الدارسين، ثم إنهم لا يرون فرقًا بينها وبين الأوانى السليمة الجديدة التى يمكن شراؤها من السوق المحلية. قام ضابط الحى المحلى بتقديم الغذاء، وارتكب الرجل خطأ اجتماعيًا مرّ بدون تعليق صريح، وجرى تناول الشاى مع أونى ooni منطقة الإيف Ife.

أثناء العودة إلى محل الإقامة بالسيارة، كسر أبو بكر الصمت عندما قال: **"إنهم لا يعرفون ذلك الذى يبحثون عنه، أو ذلك الذى يمكن أن يقولوه عندما يعثرون على ما يبحثون عنه"**. واندهش الرجل عندما علم بالمبالغ الكبيرة التى تعين على إدارة موراى Murray دفعها لاسترداد الآثار القديمة التى غادرت البلاد قبل خمسين عامًا. أدى حماس الرجل إلى تذوق جمال الطين البنينى Benin المحروق والمهارة الفنية فى تشكيله، ومكنه حماسه أيضًا من تذوق نحاس الإيف Ife الأصفر، الذى تصنع منه المضخات، لكن ذوق الرجل الفنى لم يجعله يتذوق شيئًا اجتماعيًا قديمًا، أو النظر أو العمل الفنى المرمم باعتباره شيئًا قيمًا فى حد ذاته، بل إنه يرى مثل هذا العمل أقل قيمة بالمقارنة مع احتياجات نيجيريا الحالية من الموارد المادية والحكمة المبنية على العلم. وقد انشرح صدر الرجل لأن جمجمة "إنسان البلتداون" Piltdown man ثبت أنها كانت مجرد خدعة ليس إلا.

كان على أبى بكر أن يولى متحف جوس Josالذى جرى افتتاحه مؤخرًا المزيد من الاهتمام، وربما كان مرد ذلك إلى أن المتحف ومقتنياته مما قبل التاريخ كان على مقربة تمامًا من التلال التى يعيش فيها شعب السياوا Seyawa. عندما زار أبو بكر هذه المنطقة، نزل هو وسكرتيره فى محطة جوس التَّليَّة، وهذه المحطة عبارة عن منشأة شبيهة بالفندق الكبير، يديرها ضابط متقاعد من ضباط التعليم هو النقيب إى E أتش H ("بوب") باولر Bowler، ويستعملها المغتربون فى تمضية إجازاتهم المحلية لأنها مريحة من ناحية، ومناخ الهضبة المنعش من الناحية الأخرى. يضاف إلى ذلك أن برنارد فاج، أمين المتحف المقيم هنا، أعطى أبا بكر موجزًا متعمقًا فى اكتشافات ما قبل التاريخ من الحضارة النوكية Nok من العصر الحجرى، وقد أعطى ذلك أبا بكر شيئًا فشلت البقايا الفخارية فى إعطائه إياه، وهو أن تاريخ هذه الأرض الذى لا يمكن تفسيره يرجع إلى ما قبل العهدين الإسلامى والمسيحى. وبذلك يكون ريكسى Rex نايفن Niven الممثل المقيم، وقد أغضب أبا بكر عن غير قصد - كان أرميتاج قد سبق

"أن وقّع فى سجل الزيارات" (طقس الحياة الرسمية البريطانية فيما وراء البحار الذى حل محل التقليد الإدواردى Edwardian الذى يقضى بترك بطاقات الزيارة) فى الممثلية نيابة عن وزيره الذى كان متعبًا وقلقًا ويود تجنب الهرج والمرج الاجتماعى. ويجىء نايفن على وجه السرعة إلى محطة التل، وهو يبدو عليه الإلحاح فى دعوته للزوار لتناول الغداء، قبل الزوار الدعوة، لكن الوزير لم يكن مهتمًا بتلك الدعوة أو مشغوفًا بها. ومع ذلك، وافق الوزير بالفعل عندما علم أنه سوف يفتتح سوق جوس الجديدة، التى استطاع نايفن الحصول على المبلغ المطلوب للإدارة المحلية، من مجلس التشويق الإقليمى الشمالى، واستطاع بفضل هذا المبلغ شراء طاولات آركون سابقة الصنع، وهذا تغيير كبير عن الطاولات التى كانت تُصنْع من الطين والقش فى الزمن الماضى، أو من مجرد أرضية خرسانية مكشوفة ليس إلا، وكان ذلك هو حال السواد الأعظم من الأسواق فى ذلك الوقت. وارتجل أبو كر خطابًا فى تلك المناسبة، وانشرح صدره للترحيب الذى لقيه من أهل جوس، الذين كانوا عبارة عن جالية مخلّطة على نحو أكثر من الجالية الماكوردية. وانشرح صدر الرجل أيضًا للمفاجأة والسعادة التى ارتسمت على وجه أرميتاج عندما جرى تقديمه لواحدة من زوجاته، كانت قد بقيت فى باوتشى، والتى جرى تشجيعها على الجلوس بجوار السكرتير فى السيارة.

عاد أبو بكر إلى ليجوس ليواجه المشكلة التى خلقها عمال تنمية ما بعد الحرب الذين كانوا يشتكون من ظروف العمل، ولما كانت أجور هؤلاء العمال فى العاصمة أعلى منها بكثير فى منطقة باوتشى المحلية، فقد اقتنع بإيكال أمر هذه المفاوضات إلى المدير.

شرح أبوبكر مسئولياته إلى المُعَلّم بللو Bello والى كانو Kano، وهو من أهل الشمال، عندما كان أبو بكر مقيمًا فى المساكن الخاصة بالمجلس التشريعى. وكان أبو بكر قد تناول الطعام مع المعلم بللو، كيما يتسامر معه بعض الشىء، ويتغاضى أبو بكر عن مسألة إصدار الأوامر، ويبلغ المعلم بللو، أن إدارته سوف يتمثل عملها الرئيسى فى

إنشاء جسر فى أجيج Agege، وسوف تكون هناك أيضًا محطة سكة حديد جديدة فى إيدو Iddo، وأنه قد وقع على الملف بتأشيرة تقضى بناء الجسر والمحطة من الخرسانة المسلحة بدلاً من الطوب.

كانت هناك مشكلات أخرى أكبر من هذه المشكلة، وكان على الرجل مواجهتها فى مجلس الممثلين فى شهر مارس من العام ١٩٥٣ . الجانب المهم. فى هذا الاجتماع التاريخى الخاص بالموازنة، عند أولئك الذين لا يعرفون أعضاء مجلس الوزراء البريطانيين الاستعماريين، هو أن وزير الأشغال لعب دورًا شديد الأهمية فى القسم الأكبر من المناقشات الحرجة التى لا يزال السواد الأعظم من النيجيريين والسياسيين يذكرونه بها. وبذلك بدأت تقل المشكلات التى يواجهها الرجل أكثر من ذى قبل، وبخاصة المشكلات الشفاهية، وهذا يعد مؤشرًا واضحًا إلى أن أبا بكر أصبح يعرف كيف يواجه أولئك الذين يحاولون إثارة الضيق والتبرم بسبب كثرة الأسئلة، أو بالأحرى المشاغبون البرلمانيون. شرح أبو بكر أسلوب عمله فى ذلك الوقت، على النحو التالى :

"أود أن أحكى للأعضاء المحترمين عن مقولة عجيبة التى علّمها الكبار للصغار فى شمالى نيجيريا. الكبار فى الشمال يقولون لنا دومًا لا تتكلموا إلا عندما تكون هناك ضرورة للكلام. وهم يقولون لنا أيضًا: إننا ينبغى أن نوجز عندما نتكلم، وإننا يجب أن لا نلف أو ندور حول نقاط الحديث، وإنما ينبغى الدخول فى الموضوع مباشرة. حسن، أخشى القول أن السياسة فى هذه الأيام تحاول إفشال هذا التدريب الذى استوعبناه ودرجنا عليه، لكنى سأحاول دومًا أن أكون شديد الإيجاز".

ويبر الرجل بما وعد به، موضحًا قرارًا جرى اتخاذه لإسقاط الملحق "ت" من تقارير الموازنة، والذى كان يثير آمالاً كاذبة عن طريق إدراج مشروعات رأسمالية

مرتقبة مطبوعة ومعروضة للبيع، على الرغم من عدم وجود الأموال اللازمة للتصويت عليها لتنفيذ مثل هذه المشروعات.

تكلم أبو بكر فى الحوار الذى دار حول خطاب الحاكم كلامًا ساخنًا، على الرغم من شكوكه الفلسفية، عن إدارة الآثار، وأثناء القراءة الثانية لقانون الآثار، والتى ترأسها مورّى Murray راح الرجل يتكلم بالطريقة نفسها. وانتهز أبو بكر الفرص العديدة ليحدد المرافق العامة المركزية والمرافق العامة الإقليمية، وذكّر الأعضاء بأنهم بوسعهم أن يحصلوا على ما هو أكثر من ذلك بأنفسهم، إذا ما راحوا واطلعوا على محاضر الجلسات فى المكتبة دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة طرح أسئلة عقيمة لا طائل تحتها. ودافع أبو بكر أيضًا عن المقاولين الأفارقة، ودافع أيضًا عن العاملين فى مكتب تنمية ما بعد الحرب هم والمغتربين ضد كيل الأعضاء لهم اتهامات ومؤامرات إساءة استعمال المخزونات الحكومية، دون أن يتقدم هؤلاء الأعضاء بأقل القليل من الحقائق الدّامغة. وأشار أبو بكر أيضًا إلى وكالة للتعاون الاقتصادى المشترك، والتى أعيد تسميتها حاليًا لتصبح وكالة الأمن المتبادل، والتى كانت تساعد فى شق طريق طويل، هو طريق كانو – ميدوجورى Maiduguri الواصل إلى حدود الأراضى الفرنسية قادمًا إليها من برنو، وتوقع أبو بكر تافاوا باليوا أيضًا أن البنايات متعددة الطوابق هى التى ستحل مشكلة الزحام فى ليجوس، وشرح الرجل أيضًا الأسباب التى تحول دون مساواة الخريجين الحاملين لدبلوم الهندسة من كلية يابا Yaba مع خريجى المعاهد الهندسية البريطانية، وبالتالى لا يمكن ترقيتهم للعمل ضمن مكتب تنمية ما بعد الحرب.

انتقل السيد/ إيناهورو Enahoro لتنفيذ برنامج على شكل منحة خاصة لتدريب النيجيريين على الخدمة المستقبلية فى مسلك وزارة الخارجية، ولم يقف أحد للكلام والمشاركة فى النقاش إلا بعد أن قام زميل السكرتير العام، آرثر Arthur بنسون Ben-son بكسر الصمت وتقديم الرد الرسمى، الذى وجد كثير من الأعضاء أنفسهم بعده

يودون الحديث عن أمور كثيرة. بعد ذلك قام المعلم أبو بكر بتأكيد الحقيقة التى مفادها أنه ليست هناك كليات للتدريب حتى يمكن إرسال الدبلوماسيين المستقبليين إليها، وتساءل الرجل بعد ذلك عما إذا كان هذا الأمر يتحتم أن يحظى بالأولوية فى هذه المرحلة من مسيرة الحكم الذاتى، لكن الرفض لم يكن يعنى أن الأعضاء فى الحكومة سوف يصمون آذانهم عن كل ما قيل. ورد أبو بكر عن شكل من أشكال التحدى تمثل فى زيادة مقدارها حوالى ٦٤٠ ألف جنيه إنجليزى كانت مطلوبة لزيادة المساهمة الدفاعية فى قوات الحدود الإفريقية الغربية فقال موضحًا: إن حكومة صاحبة الجلالة هى المسئولة عن الأمن الخارجى، أما الحكومة النيجيرية فيتعين عليها تحمل أعباء أمنها الداخلى:

"يبدو أن ما يقوله الأعضاء المحترمون يتمحور فى مسألة سيطرتهم على الأمور دون أن يكونوا مسئولين عن ذلك ..... نحن ليس لنا بعد جيش نيجيرى، وإذا كانت الأمور التى تتعلق بقوات الحدود الإفريقية الغربية (نيجيريا) يتعين طرحها للمناقشة فإن ذلك لابد أن يكون مع حكومة صاحبة الجلالة، والحكومات الإفريقية الأخرى فى غرب إفريقيا .... فى العام الماضى جرت الموافقة على بعض المقترحات التى تقضى بإنشاء بعض المؤسسات العسكرية مثل الكلية الحربية. حسن، نحن لا نقول إننا لا نُعْمل عقولنا فى هذه الأمور كلها ... وأنا هنا أود أن أسأل عما إذا كان هؤلاء الأعضاء جادين فى مطالبتهم بالحكم الذاتى. إذا كانوا جادين فى ذلك، فإنهم يتعين عليهم أن يكونوا مستعدين لتحمل المسئولية الثقيلة التى سوف تترتب على الحكم الذاتى".

وسبب ذلك هو أن "الحكم الذاتى" بحلول العام ١٩٥٣ أصبح شعاراً موحداً يجرى رفعه والمناداة به فى الاجتماعات السياسية العامة فى سائر أنحاء البلاد. وجاء مانشيت " الحكم الذاتي الآن!" بمثابة شعار ولواء عام فى الصحف كلها.

لكن بعد أن فجر حزب جماعة العمل قنبلته الشعارية، تخلى أبو بكر عن جدله ونقاشه الشعبى إلى الآخرين، الذين كان السواد الأعظم منهم مؤهلين للحديث حديثًا مفعمًا بالعاطفة والانفعال، وعامراً بالحقد الذاتى الذى أصبح السمة المميزة للجدل والحوار القائم. وجرى وصف هذه المناسبة وصفًا دقيقًا بما مفاده أن الإيجاز يكفى أولئك الذين يهتمون بأبى بكر بدلاً من الاهتمام بالتاريخ النيجيرى. وسوف نورد فى الفصل التالى بعض الأحداث التى قام حاكم نيجيريا بتفسيرها وشرحها فيما بعد أمام مؤتمر لندن. كان المجلس الوزارى المركزى، والمجلس الوزارى الشمالى وكذلك المجلس الوزارى الشرقى، قد توصلوا بطرقهم الخاصة، أو بالأحرى من خلال استعدادهم لإحداث نوع من التعديل فى شخصياتهم (وهذا الأمر يسهل تحقيقه مادام أن جميع الأعضاء يتمتعون بروح الدعابة)، إلى طريقة للتعايش فى ظل منظومة تسمح بجلوس كبار المسئولين البريطانيين مع الوزراء الأفارقة المنتخبين، لكن هذه المنظومة لا تسمح للوزراء الأفارقة بأن تكون لهم سلطة مباشرة على وزارتهم. فى ذلك الوقت لم يكن المجلس التنفيذى الغربى، فى ظل زعامته الجادة للغاية، قد توصل إلى أى حل من الحلول الوسط.

كان ذلك الوصول "الهيِّن الليِّن" إلى تسلم السلطة ناجمًا عن أسباب عدة أهمها: أنه لا يكفى إعطاء السياسيين الذين يفتقرون إلى خبرة إدارة الماكينة البيروقراطية، فرصة اكتساب شيء من خفة الحركة والمهارة فى تحريك الدوافع، والبدلات والدواليب الاستعارية - أى الموظفين العموميين، وبخاصة المهنيين والفنيين منهم (بدلاً من موظفى الأحياء العموميين، والرجال العاملين فى السكرتارية، الذين وجد السياسيون والمتخصصون المتعطشون للسلطة العمل معهم أمراً سهلاً، ويسهل رفضه أيضًا)، وإنما

لابد أيضًا من التأكيد أيضًا لهؤلاء السياسيين أن أعمالهم وبيئات عملهم ينبغى أن تقوم على التسامح والإقناع بعد التغيير. الكثيرون من هذه النوعية من الرجال كانوا مقيمين بإفريقيا وبين الأفارقة، لكن حبهم لأخلاقيات وظائفهم ومنجزاتها كان أكبر من حبهم لإفريقيا والأفارقة. هذه الهجرة الجماعية للخبراء المحبطين، الذين لا يوجد لهم بدلاء، بل وحتى ولو بديل واحد غير مؤهل ولكن لديه شيء من الخبرة العملية، لا يمكن أن تكون فى مصلحة البلاد. وإذا كان الشماليون لا يزالون يتجنبون فكرة حدوث دفق من الإداريين الجنوبيين، والمحامين الجنوبيين، والمهندسين وغيرهم من أهل الجنوب (الذين يطالبون هم أيضًا بالمزيد من هذه الكفاءات لتنميتهم) الذين سيرحبون بتدفق الغرباء عليهم، وهم لا يعرفون من أين سيجيء هؤلاء الغرباء؟ ويدور الجدل الصامت على هذا النحو: هذا يعنى أن زعماء الغرب من حزب جماعة العمل لم يقبلوا أو يسلموا بالفكرة التى مفادها أن المقيم غير المتحامل، الملتزم بتدريب النيجيريين على سلطات الحكم الذاتى قد يحتاج إلى دليل يثبت له أن الوزراء بعد توليهم السلطة الفعلية، لن يتقدموا له بمطالب لا ترضى ضميره أو تقطع عليه ارتياحه. وتأسيسًا على ذلك، فإن الشماليين، شأنهم شأن البريطانيين، وكثير من وزراء الشرق المركزيين (الذين كانت لديهم أسبابهم التى تجعلهم غير راضين عن الدستور، والذين كانت لديهم فكرة خاصة بهم عن إنشاء جمعية وطنية تأسيسية) وجدوا أن زعماء الغرب قرروا تخريب الماكينة من جانب واحد، سعيًا منهم إلى طلب السلطة. لم يكن هناك شيء من السرية حول اتخاذهم هذا القرار، وحققوا فى ذلك نجاحًا كبيرًا.

لم تكن الطريقة الموضوعة للقيام بذلك التخريب متقنة التخطيط أو متعمدة، والواقع أن أولوو وافق على هذه الطريقة دون استشارة زملائه فى الحزب أو أى من أباوات الغرب Obas. كان السيد/ أنطونيو Anthony إيناهورو، الذى كان لا يزال واحدًا من رجال الصف الخلفى فى حزب جماعة العمل (وقد أدت هذه الحقيقة إلى إثارة الشكوك حول تكتيكات زعماء ذلك الحزب ودوافعهم)، قد تقدم باقتراح ظهر فى مضبطة اجتماع

الأعضاء فى اليوم الأخير، أو بالأحرى فى الساعات الأخيرة من الاجتماع مفاده: "أن هذا المجلس يعد مسألة حصول نيجيريا على الحكم الذاتى فى العام ١٩٥٦ هدفًا سياسيًا رئيسيًا" وبذلك يكون ذلك الاقتراح قد حل محل شعار "الآن!" الذى كان يرفعه مناصروا ذلك الشعار، وكان السبب وراء ذلك الاقتراح هو أن انتخابات المجالس التشريعية الجديدة لن تجرى قبل العام ١٩٥٦، وعليه ستظل المقاعد المشغولة كلها فى مأمن إلى أن يجىء ذلك الوقت، كانت زعامة حزب جماعة العمل ترى أيضًا أن التعديلات الرسمية، حتى فى المؤسسات والدوائر غير الشعبية، سوف تستغرق بعض الوقت الأمر الذى سيجعل من التغييرات التقليدية أمرًا قابلاً للتفاوض. كانت هناك قلة قليلة أيضًا تتمنى حصول ساحل الذهب على التحرر الذى سبق الحصول على وعد به. والذى لم يخطر على بال هؤلاء الزعماء هو أن الشعوب النيجيرية ليست كلها مستعدة للخضوع أو الإذعان لتغيير جذرى لمجرد أن الزعماء السياسيين من أمثال الوالى Wali أو مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna أو أولوو Awolowo أو أى أحد من آخر من الزعماء، قد يصلون إلى اتفاق خاص فيما بينهم حول مسألة الحكم الذاتى. وهنا طلب المُعَلِم أحمد بللو، مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna إلى إيناهورو وتحاشى إحراج الجميع، وأن يقوم بسحب هذا الاقتراح الذى لا يمكن مناقشته مناقشة جادة دون أن تستشير الأحزاب مؤيديها ودوائرها الانتخابية (وهذا مثال آخر على أن الحزب كان لا يزال فى الشمال مجرد قناة من قنوات التمثيل وليس مصدر قوة وإلهام).

لابد أن كلاً من أحمد بللو هو وإيناهورو قد عرفا بطريق غير رسمى أن الحاكم هو ومجلس وزرائه كانوا قد وافقوا بالفعل على (امتنع حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى عن أى نوع من أنواع الالتزام الصريح)، ثلاثة أمور: أن لجنة البرلمان الخاصة بالمال والأعمال يتعين عليها ترحيل الاقتراح إلى نهاية القائمة على أمل إسقاط ذلك الاقتراح، من خلال الإجراءات التى يجرى تعليقها عند "مرحلة المداخلة"، وقبل

الوصول إلى الاقتراح، واتفقوا أيضًا على أن الوزراء المركزيين (ومنهم أبو بكر بطبيعة الحال) ينبغى ألا يتكلموا مادام أن تلك الأمور الدستورية لا تدخل ضمن نطاق محافظهم، واتفقوا أيضًا على أن الأعضاء بحكم المنصب والوظيفة يتعين عليهم التزام الصمت أيضًا، وذلك تحاشيًا للإثارة والهياج. ورد إيناهورو على ذلك، بأنه كان دومًا رجل المقدمة النائب عن الحزب فى القرار الذى اتخذه الحزب فى بنين، وعليه قام كل من مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna والمُعَلّم على، والى بطا Bida بدعوة أولوو إلى إعادة النظر فى الأمر. وجاء رد أولوو، من خلال حزبه، وبعد تشاور دام حتى الصباح، يفيد أنهم سيسحبون الاقتراح إلى أن تجىء جلسة أغسطس، إذا ما ضمن لهم حزب المؤتمر الشعبى الوطنى عدم معارضة الاقتراح فى تلك الجلسة. ونظرًا لأن مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna كان ملتزمًا، وبمساندة كبيرة من أبى بكر تافاوا باليوا، بإجراء نوع من التشاور الشعبى على المستوى المحلى حول هذه النقطة بالذات، فقد جاء ذلك بمثابة إنهاء للمفاوضات، وهنا رحل أولوو Awo واتخذ الترتيبات اللازمة لمصافحة الدكتور آزكوى، حليفه فى اللحظة الحاضرة، وقرر الرجلان أن الدمينيون الجنوبى لن يكون له اتحاد جمركى مع أية مستعمرة من مستعمرات الشمال. واكتشف الشماليون المحيطون أن من الصعب إجراء نوع من المصالحة بين سلوك حزب جماعة العمل ونظرة شعب اليوروبا Yoruba المحافظة إلى مسألة التراث - ألم تقل أدبيات حزب جماعة العمل وتعترف بأن المواطن الغربى العادى لا يتصور وجوده فى مجتمع بلا مسلك على رأس هذا المجتمع؟ لماذا هم مصرون على زعزعة استقرار المجتمعات الأخرى؟ لكنهم كانوا يعرفون أن "بود - توماس" Bode Thomas ينظر إليهم باعتبارهم مجرد أناس متوحشين وغير متحضرين.

حضر ملك Ooni الإيف Ife غاضبًا إلى مقر الحكومة فى صبيحة اليوم المخصص للأعضاء الخصوصيين وأبلغ جون ماكفرسن، أنه نزل من مقعده المعتاد Pedestal وراح يتحدث مع "هؤلاء الأوغاد" (بود توماس وأكنتولا) ساعات طويلة، لكنهما مادامًا

لن يستمعا إليه فإنه يقدم استقالته للحاكم فى التو والساعة. قال الحاكم له إنه يفتقر إلى الشجاعة، لكنه لن يرفض قبول استقالته. كان جون ماكفرسن، الحاكم، يعتمد على ملك الإيف فى تعامله مع بود توماس، الذى كان فى تلك الأيام قبل انهياره الذهنى، شديد المراس فى مجلس الوزراء فى ذلك الوقت، حيث كانت تصرفات الرجل تراوح بين الخداع والغضب. كان الرجل حانيًا فى بعض الأحيان، وغاضبًا فى أحيان أخرى، وكان الملك الشخص الوحيد القادر على تهدئة هذا الرجل، بل إن السير جون ماكفرسن اضطر ذات مرة إلى تأجيل الاجتماع حتى يتمكن الرئيس (الملك) Ooni من الحديث إلى بود توماس على انفراد.

فضل أصحاب الاقتراحات، الذين كان بعضهم من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى والبعض الآخر من حزب جماعة العمل، من أمثال إيناهورو نفسه، فشلوا فى الوقوف حسبما تم الاتفاق عليه بين كل من أولوو ومبادوى Mbadiwe، وعليه جرى تمرير "الاقتراح رقم حكم ذاتى للعام ١٩٥٦" على وجه السرعة وبتأييد قوى. وجاءت الخطب التى تلت ذلك تحريفية وغير محددة، وسرعان ما ارتفعت درجة الحرارة. وعلى الفور اقترح مستشار سكتو السياسى الرئيسى Saradauna إدخال شىء من التعديل، الذى لم يحس أحد من حزبه نحوه بالاحتشام أو الاحترام، على الرغم من تفسيرهم لذلك الاقتراح: كان التعديل يقضى "بالتحول فورًا إلى دستور "العام ١٩٥٦". وأيد والى برنو مستشار سكتو السياسى Sardauna، فيما ذهب إليه - أوضح مستشار سكتو السياسى (أحمد بللو) أن دستور العام ١٩٤٧، قَدّر له ريتشاردز Richardsأن يستمر تسع سنوات، حتى يتسنى للشمال اكتساب المزيد من الخبرة، لكن هذا الدستور جرى تقديمه للمراجعة من قبل ماكفرسن بعد عامين فقط من صدوره، وأن الدستور المعمول به حاليًا لم يمض عليه بعد عامان، أدت تعبيرات الأعضاء الخصوصيين التى من هذا القبيل، والتى منها الاقتراح الذى تقدم بها إيناهورو، أدت هى والتعبيرات الأخرى كثيرة الكلام إلى تحطيم كل الآمال المعلقة على قيام علاقة بينية

طيبة بين الأقاليم. قال الوالى: إن عدد العناصر المتعلمة فى البلاد كلها، والتى تعرف مضامين الحكم الذاتى، جد قليلة. وبعد رفع جلسة مجلس الوزراء (لتناول الشاى) أعرب ملك Ooni الإيف عن ألم وزراء الغرب المركزيين واستيائهم، عندما قال إن الاقتراح أحاره أياماً عدة، وأنه استشعر أن من الصواب تقديم استقالته من مجلس الوزراء.

على الفور قام المُعلّم إبراهيم إمام، أمين عام حزب المؤتمر الشعبى الشمالى بتعديل التعليق على نحو يسمح للأقاليم بتسوية خلافاتها وراء الكواليس وتعود باتفاق شعبى على حكم ذاتى متحد، علمًا بأن إبراهيم إمام كان من المؤيدين الأشداء للمركزية. وينهار المجلس متحولاً إلى شكل من أشكال الضوضاء والغوغاء. ويُسْقط أبا بكر إمام فى منخفض حجرى ويتجدد الشقاق السياسى ويتزايد لعدم وجود نوع من التفاهم المتبادل. ويرفض المتحدث الذى جاء بعد إبراهيم إمام التفكير فى تصحيح الخطأ وسط هذا العالم العامر بالشكوك، ويرفض أيضًا تحديد موعد لذلك الحكم الذاتى دون أن تكون هناك خطط للعمل يتم الرجوع إليها بين الحين والآخر. ونظرًا لأن السيد/ أولوو لم يكن مستعداً للمعارضة الحامية، فقد ألقى بنفسه فى هجوم مرتجل على الملكية البريطانية وعلى لا مبالاة الجماهير، وبذلك يكون قد أغضب مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna ودخل فى عداء سافر مع مسلمى الشمال عندما أشار بلا مبرر إلى "عظام" المرحوم "الشيخ عثمان بن فوديو". لم يستطع أولوو أو أى عضو آخر من أعضاء الجنوب تبين مدى الإهانة التى حدثت عندما تعرض الرجل لذلك المناضل العظيم، ناهيك عما حدث بعد ذلك. قام السيد/ مبادوى بعد ذلك وتحدث نيابة عن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، وراح يأسف لذلك التعليم الذى جعل النيجيريين يتشككون فى بعضهم البعض، ويتخوفون من بعضهم البعض. وشوهد كل من الدكتور أزكوى (الذى كان فى شرفة الغرباء) وأولوو Awo وهما يتعانقان عناقًا تلقائيًا وانفعاليًا. ثم تبع أعضاء حزب جماعة العمل ومعهم أعضاء المجلس الوطنى النيجيرى الكاميروتى وهم يتبعون كلاً من الدكتور أزكوى والسيد/ أولوو إلى خارج

المجلس محدثين جلبة وضوضاء وهم يذمون الشمال تاركين لحزبي المجلس الوطني النيجيري الكاميروني، وحزب الاستقلال الوطني إنهاء هذا الأمر عن طريق تمرير اقتراح تعويقي - ومواجهة المظاهرات الصاخبة التي ستقوم بها جماهير ليجوس التي جرى تزويدها بنصوص مغرضة لما جرى في ذلك اليوم في جلسات مجلس الوزراء. وهنا قام حزب الاستقلال الوطني بإنقاذ ماء الوجه بأن قال إنهم لم يوافقوا على توقيت الاقتراح، على الرغم من عدم رفضهم لمحتواه.

أُعلن في صباح اليوم التالي بطريقة رسمية عن استقالة كل من أكنتولا، وبود توماس، وبرست Prest. كان برست مريضًا، لكن كلا من بود توماس وسام أكنتولا مارسا امتيازاتهما الوزارية البريطانية في الإدلاء بالبيانات والتصريحات الشخصية. كان غضب المسئولين والسياسيين الدينيين على حد سواء، يبدو لمؤيدي "الحكم المفتوح"، وللممارسين المتصلبين، أو بالأحرى المستفيدين من تسريب الأخبار، شيئًا غريبًا عندما حنث هؤلاء السياسيون في اليمين الوزاري وعدم التزامهم بالسرية، وبخاصة أن هذا اليمين يتساوى تمامًا مع القسم الذي يقسمه المستشار الخاص للملك بريطانيا هذا يعني أن ذلك جاء بمثابة إشارة إلى أمانة بعض الوزراء وإخلاصهم وإشارة فعالة أيضًا إلى تعليم أولئك الموظفين المسئولين عن تفسير ما يصدر عن داوننج ستريت (مقر مجلس الوزراء البريطاني) تفسيرا غير دقيق مفاده أن الرواية المفصلة التي أعلنها بود توماس على الملأ، حول الطريقة التي تناول بها الحاكم ومجلس الوزراء مسألة الاقتراح المقدم من إيناهورو وبعد أن جرى تلقي ذلك الاقتراح في ظل سرية المجلس، وعلى الرغم من شيوع ذلك الاقتراح بشكل عام، اعتبرها كثيرون من الساسة في العام ١٩٥٣ نوعًا من الحنث في اليمين، إن لم يكن نوعًا من التجديف. كان المعلم أبو بكر تافاوا باليوا، الذي بدأ يستلطف مثل الآخرين، أكنتولا، على الرغم من المضاعفات الناتجة عن أساليبه السياسية، قد تيقَّن من أن السلوك الذي أتاه بود

توماس يعد أمراً لا يغتفر. ولم يستنكر أحد من الناس ما قام به الحاكم عندما اتهم كلاً من سام أكنتولا وبوب توماس بحنثهما فى اليمين.

جرى بعد ذلك نشر هذا الجدل من خلال تعليقات الصحفيين وعلى نحو يفيد أن ماكفرسن كان بوسعه أن يكون أكثر حرصًا لو أنه سمح لوزراء حزب جماعة العمل بالتصويت الحر، أو ابتكر خطة (لم يحددها القادحون) يطمئن بها حزب المؤتمر الشعبى الشمالى وتدفعه إلى التعجيل بدفع الشمال فى اتجاه الواقع. وقد فشل هذا التأمل فى تحديد الطريقة التى كان يتعين على الحاكم اللجوء إليها ليفسر للحكومة البريطانية، الأسباب التى جعلته يخسر قسمًا كبيراً من ثقة الناس به، على الرغم من استشارته لوزراء الشمال والشرق ورجوعه إليهم، وسبب ذلك هو أن هذه النتيجة كانت أمراً محتومًا ولا فرار منه. أفلح وزراء حزب الاستقلال الوطنى فى نهاية اليوم فى مد تأجيل انعقاد المجلس إلى أجل غير مسمى. كان من رأى جاجا Jaja واشوكو أن أهم ما يمكن عمله فى هذه المرحلة هو جعل الوزارات الناشئة تعمل بطريقة صحيحة، إذا ما أرادوا لها عدم الانهيار والفشل فى ظل التوتر الناشئ عن الحكم الذاتى، عندما يبد تطبيقه. وهنا علق المُعَلّم عيسى Isa كيتا Kaita تعليقًا غير مباشر مفاده أنه إذا كان الغرب هو وجزء من الشرق يحسان بأن قضيتهما هى التى ينبغى مناقشتها والاستماع إليها "فالأمر لا يحتاج إلى التأخير أو التعطيل"، وعلق مستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna، فى شىء من العظمة أو الكبرياء قائلاً: "لقد تسلطت الأضواء على الخطأ الذى حدث فى العام ١٩١٤، وأنا لا أريد الاستطراد أكثر من ذلك" (لقد تمثل ذلك الخطأ فى محاولة دمج الأجزاء المكوِّنة لنيجيريا). كان المعلم أبو بكر ميالاً إلى الموافقة بنسبة تزيد على النصف. وعندما دخل المستشار السياسى الرئيسى Sardauna عربته فى القطار، من محطة إيدو Iddo للسكك الحديدية، لوّح بسلاح غير مرئى وضعه فوق رأسه، وقال وهو يصيح: "عندما أعود إليكم هنا فى المرة القادمة سوف أحمل سيفًا فى

يدى!"، وسُمع المستشار السياسى بعد ذلك وهو يتحدث عن الاتحاد مع النيجر الفرنسى.

كُتب الكثير عن تصميم الكثيرين من مشرعى الشمال، الذين حموا أميرى كاتسنا وجواندو، بعد أن لعنهما وسبهما وأهانهما السفاحون والقتلة المنظمون، فى الشوارع وفى منزليهما، وحموهما أيضًا من المداهمات التى قام بها الجنوبيون فى كل محطة من محطات السكك الحديدية، أثناء عودتهما إلى موطنيهما بعد الاجتماع، وقرر أولئك المشرعون عدم تعريض رؤسائهم وخدمهم بل وأنفسهم أيضًا "لديموقراطية" ليجوس مرة أخرى. وعلى الرغم من عدم ملاحظة انهيار الدستور على نطاق واسع، فإن أبا بكر هو وصديقيه من وزراء الشمال: الجنتلمان البرنى Borno الذى يحمل محفظة التعليم، ورئيس الحى الفولانى Fulani فى منطقة بالاع Balaa فيوفور Fu fore القريبة من إيولا Yola، بقوا فى الخلف فى منطقة العداء الشديد فى بيئة ليجوس، كيما يقدموا يد العون للحاكم وزملائهم فى حزب الاستقلال الوطنى الذين كانوا يحاولون التحكم فى عملية التدمير والتخريب. واقع الأمر أن شخصًا مثل دان Dan بپّا Bappa، وهو من منطقة منجبير Minjibir جرى ضربه على رأسه، لأنه كان ولا يزال يتحدث عن الانفصال، من منطلق أسباب مفادها أن الصبر سيؤدى إلى انتصار الشمال فى نهاية المطاف، إن مسألة قطع الحبال فى الظرف الحالى فى ظل التوتر القائم سوف تؤدى إلى الموافقة على انتصار الجنوب. ويبدأ ماكفرسن حديثه متهكمًا، ليوضح أن أحدًا لم يتذكر، أو يأتى على ذكر دستور "إيبادان" الذى صدر فى العام ١٩٥٤، والذى هو بكامله من صنع النيجيريين، وهو أيضًا يسمى "بدستور ماكفرسن" إلى أن جرى التخلى عنه.

كان ذلك الضجيج قد صرف الانتباه عن تمرير اقتراح بلا معارضة، تقدم به السيد/ نجوكو Njoku ووافق عليه رفاقه الشماليون بعد أشهر عدة من التشكك والمشاورات غير المباشرة مع ماكفرسن والتى أدت إلى "الأزمة" المفتعلة التى اختلقها السيد/ آوو Awo، والتى مفادها أن الوزراء ينبغى أن يضطلعوا بالمسئولية الكاملة،

والتوجيه الكامل والسيطرة الكاملة على وزارتهم، دون أن ينتقص ذلك من المسئولية الجماعية لمجلس الوزراء هذا يعنى أن ذلك كان كافيًا وفيه الكفاية لمواجهة سخط حزب جماعة العمل واستيائه وعدم رضاه، وعلى الرغم من أن التنفيذ الرسمى كان يتحتم تأجيله إلى أن يتم تعديل الدستور، فقد حدث تغيير نفسى وتقليدى بكر بين معظم الوزراء ومديريهم (وليس كلهم) فى سائر أنحاء البلاد، وقد حدث ذلك أيضًا فى الشمال الذى لم يكن للاقتراح فيه أى تأثير. واقع الأمر أن السير جون ماكفرسن كان قد أعلن بالفعل مع بداية الاجتماع، على الرغم من عدم الانتباه تمامًا إلى ما قاله الرجل، أنه سوف تحدث "تغييرات جذرية" [على الرغم من عدم تحديده] فى مهام الوزراء وسلطاتهم. ووافق الجميع أيضًا على حتمية تعديل الدستور، كيما يسمح بحل أى مجلس من المجالس التشريعية بعد أن يتم التشاور على ذلك بين الحاكم المناب ومجلسه التنفيذى: هذا يعنى بقاء الوزراء فى مناصبهم لحين اجتماع الجمعية الجديدة، لكن المضمون كان واضحًا ويفيد أن استبدال الوزراء المركزيين الذين جرت الموافقة عليهم من قبل الجمعية السابقة يمكن لهم أيضًا تولى مناصبهم من جديد.

ومع ذلك، فإن النتيجة التى سعى إليها حزب جماعة العمل، عقب الانقسامات الداخلية التى حدثت فى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، كانت تهدف إلى شل العلاقة القائمة بين الأحزاب الإقليمية الثلاثة مادامت بقيت تلك الأحزاب تحمل ألقاب حزب جماعة العمل ، وحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى، وذلك بغض النظر عن التوافقات الشخصية التى يمكن التوصل إليها داخل المجلس التنفيذى المركزى، وقد أكد ذلك أن التقدم السريع صوب الحكم الذاتى سوف يتحقق فى غياب الاستقرار المركزى الذى لا تدركه سوى قله قليلة من المدركين لهذا الأمر. وهنا نجد أن مسئولى المكتب الاستعمارى يتبنون وجهة النظر الصحيحة تمامًا التى مفادها أن مشكلات نيجيريا السياسية المعقدة بحاجة إلى شىء من الصبر، والتفهم المتأنى غير العجل، وهذا هو ما يعكسه كلام ليتلتون Lyttelton عن "وقت

للتفكير والتأمل حتى يخمد الغبار" :لكن يجب ألا يغيب عنا أن المشكلات السياسية هى مشكلات إنسانية، وهذا ما لم يؤخذ بعين الاعتبار.

كانت النتيجة المباشرة التى ترتبت على ذلك بالنسبة لأبى بكر تافاوا باليوا، تتمثل أثناء هذا الخلط المؤقت للأوراق، فى تولى حقيبة النقل بدلاً من بود توماس فى المستقبل. جاء تولى هذه الحقيبة بمثابة مفصلة أخرى مشئومة فى حياة الرجل العملية. كان السكرتير فى هذه الحقيبة ضابطًا إداريًا من ضباط الشمال الإداريين، ويدعى ميخائيل Michael فارفيل Varville، الذى تقاسم مع روبرت رايت Right تدريب زمن الحرب حتى يتمكن من الخدمة ضمن هيئة العاملين مع بورديللون Bourdillon. وقد تولى الرجل منصب المفوض الإدارى من قبل الحاكم فى مقر الحكومة. كان الرجل قد سبق له شغل منصب الممثل المقيم فى باوتشى قبل انتقاله إلى ليجوس ليساعد وزراءها فى تشكيل الدائرة الانتخابية الجديدة. كان لورانس كوكس Cox، ضابط الحى (رئيس الحى) فى باوتشى، والذى يؤمن بأن الأشغال العامة هى قمة التنمية، قد سبق له العمل فى وزارة النقل، والتى لم تكن مكانًا غريبًا عليه تمامًا. واقع الأمر أنه كانت هناك بعض الشكوك المستترة حول مسألة هذه الحقيبة المدمجة. كان معهد سانفورد فى الولايات المتحدة الأمريكية قد قدم دراسة مرضية ومقنعة جرى تفعيلها والعمل بها فى النقل النيجيرى، والسؤال الذى أثير حول هذا الموضوع يتمثل فى من تكون له المسئولية - كان هناك من يرى ويصر منذ البداية على عدم ربط هذا الموضوع بالأشغال، لكن كان هناك بعض آخر يرون أن التنمية الاقتصادية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الطرق والمطارات، التى يتعين على تنمية ما بعد الحرب شقها وإنشاؤها أو طرح عقودها للتنفيذ، وأنه ليس من الحكمة الفصل بين التنمية والنقل. وجاء قرار الحاكم النهائى، فى ظل ظروف الطوفان هذه، وبعد كثير من النقاش والتشاور داخل المجلس وخارجه، يقضى بإضافة حقيبة النقل إلى حقيبة أبى بكر تافاوا باليوا. كان استقبال المهندس هين Hein فريجلنك Frijlink من بين المهام التأديبية التى قام بها أبو بكر، هذا المهندس

رجل هولندى طويل القامة ومتخصص فى هيدرولوجيا دلتا نهر النيجر، وكانت دراسات هذا الرجل تهدف إلى تحديد الطريقة التى يمكن بها الوصول إلى موانئ بوروتو Buru-tu الداخلية فى كل من بوروتو Burutu ووارى Warri وسابيل Sapele. معروف أن مستشارى هندسة الأراضى الخفيضة Nedeco عبارة عن مؤسسة تقوم بجلب الخبراء المناسبين للعمل فى المشروعات الهندسية متعددة الأهداف ومن أى نوع كان، وفى كل مكان أيضًا مثل: علوم الأنهار، تآكل السواحل، الملاحة والاتصالات، استغلال الموارد الطبيعية أو الموانئ، والمعروف أن هذه الأعمال كلها تدخل فى نطاق عمل هؤلاء المهندسين الهولنديين.

إضافة حقيبة النقل إلى أبى كر أكدت دور هذا الرجل كمتفاعل باعتبار أن ذلك على النقيض من عمل المنشِّط، لم يكن الرجل يفتقر مطلقًا إلى الأفكار العريضة الخاصة بالتحسين، بل إن هذه الأفكار كانت تتطرق إلى التجديد بشكل عام، وعلى الرغم من ذلك كله، كان الرجل مثل كثير من المسئولين العموميين الذين حُرموا مؤخرًا من الملفات واللجان، يغلب عليه التجاوب مع الأحداث والمقترحات التى تصله من مرءوسيه، ومن نظرائه فى المرتبة، ولم يكن ميالاً إلى إصدار سلسلة من التوجيهات التلقائية. هذه الخاصية كانت تجعل من أبى بكر تافاوا باليوا ريِّسًا عجيبًا يتسود الولاء، لكنه كان يسهل على المنافسين من أصحاب الشهرة الأكبر الظهور بمظهر الزعماء الذين يسحرون الجماهير. وينتهز أبو بكر أول فرصة تتيح له العودة إلى موطنه كى يستريح بعض الشىء من هذا العناء، وليتأمل أحداث الشمال، وأحداث العالم الخارجى.

كانت السيدة/ مارجرى Margery بيرهام Perham، خبيرة الشئون الاستعمارية البريطانية، قد نصحت وشددت على توحيد علاقات الكمنولث والعلاقات الاستعمارية من خلال المكتبين الخاصين بهذين الأمرين، وذلك "لفائدة المستعمرات"، لكن وزير العمل اللورد Lord أوجمور Ogmore (الذى كان يدعى كريس Creech جونز Jones عندما

كان نائباً لديفيد David ريس Rees وليامز) رد بقوله إنه ليس لديه ما يقوله حول هذا الأمر. في كينيا على سبيل المثال، كانت أصابع الاتهام تشير إلى جومو كنياتا هو وخمسة من الكيكويو Kikuyu، بأنهم هم المدبرون لحركة الماوماو، التي أدان سلطان سوكتو، وعلى الملأ، ممارساتها وحنثها في الأيمان، وجرى عقد مؤتمر في لندن بمناسبة إعلان قيام اتحاد فيدرالي في جزر الهند الغربية، وحصل الوطنيون لأول مرة على الأغلبية الواضحة في الانتخابات العامة التي جرت في اتحاد جنوب إفريقيا، وانتصر في جيانا البريطانية لأول مرة الحزب الشعبي التقدمي الراديكالي في الانتخابات التي أجريت هناك. وكان ستالين قد توفي في شهر مارس وجرّب الروس أول قنبلة هيدروجينية في العالم. على المستوى المحلي كان شارود سميث الحاكم المناب قد زاد من تحركاته وضغوطه من أجل إصلاح الإدارة المحلية، التي كان يرى الكثيرون من أمثال أبي بكر أن إصلاحها أكثر إلحاحاً من الحكم الذاتي، عند السكان المساكين غير المتعلمين، كانت مجالس الأحياء المنتخبة قد بدأت تتشكك في الشمال، وقد بدأ ذلك في القسم الجنوبي من منطقة أجبيرا Igbirra، وجرى تحذير لاميدو Lamido أدماوا ولأول مرة، من الفساد، وجرى بعد ذلك إجباره على تقديم استقالته لتحريضه المعارضة على مجلس الإدارة المحلية (المدنية)، كما جرى أيضاً عملية إصلاح إسطبلات برنو وتطهيرها، طرد وزير برنو الذي كان بمثابة بؤرة للابتزاز المحلي، وسرقة الماشية، واللصوصية، بل إنه كان بمثابة السرطان المميت في مجلس الشيخ، وكان أمير أرجونجو على وشك تقديم استقالته أيضاً، وكان تاجر شهير (ثري ثراء فاحشاً) قد انضم إلى مجلس أمير كانو، وكان المعلم يحيي جوساو، المدرس، ورفيقه محمد ساني دنجياطي Dinguadi، والي سكتو، الذي خلف إبراهيم إمام أثناء الطوفان الذي حدث في ليجوس، كل هؤلاء كانوا قد انضموا إلى الأرستقراطيين في مجلس السلطان (هذه التغييرات كانت مثيرة للغاية باعتبارها مواكبة لتعيين أول امرأة، عضواً خاصاً، في الجمعية الغربية). جرى نشر تجربة "المجلس الخارجي" التابع للإدارة المحلية (المدنية)

على نطاق واسع فى سائر الإمارات، والرئاسات Chiefdoms، مع كثير من التباينات والاختلافات المحلية.

كانت هناك ضغوط على المنازل من قبل مقر حكومة كادونا، وذلك لتوفير السكن المطلوب للموظفين المحليين وذلك فى محاولة من الحكومة لتقليل نفوذ "ممثلى الأمراء" فى الأحياء وأثناء قيامهم بجولات، ودعم النشاط المضاد لتغيير مسار العمل الجماعى الحقيقى لصالح المبانى الشخصية والمصالح العقارية لكل من الأمراء أو رؤساء الأحياء. وجرى إعطاء المزيد من الاهتمام من قبل موظفى التنمية إلى تجنب الفساد فى النشاط الخاص بشراء المنتجات الزراعية. وزعم حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى أن له شيئًا من الفضل فى ذلك، لكن العمل كله كان تنفيذًا منوطًا دومًا بالموظفين الجوالين التقليديين، المهتمين بمثل هذه الأمور، التى كانت تجرى عرقلتها مؤخرًا عن طريق سيل من الأعمال والمكاتبات الورقية التى لا تنتهى. هذا كله كان يعنى المزيد من العمل للإدارة، وبدلاً من أن يكون ذلك، على حد قول بعض المهاجمين للمعتقدات أو المؤسسات، عذرًا من أعذار تأخير الحكم الذاتى، تحول إلى مبعث لتدبير الخوف والرعب عن طريق التقليل من بعض الأعمال الاستبدادية المحدودة، ونظرًا لأن تحذيرات شارود سميث هى والمحاولات الهادفة إلى إشراك العامة فى الأمر، كانت تحظى بنشرها فى صحف مؤسسة جاسكيا وكتيباتها، فقد أدى ذلك إلى جعل ذلك الأمر المرتقب، شيئًا أقل احتمالاً مما كان يظنه شارود، الأمر الذى جعل الرعاة والزراع يسارعون بالانضمام إلى المتعلمين، وسائقى الدراجات، ليسارع الجميع إلى صناديق الاقتراع.

كان ذلك هو رأى أبى بكر وتقديره، عندما أدرك أن عددًا كبيرًا من مسئولى الإدارة المحلية، الذين لا يهتمون إلا بمناصبهم باعتبارهم موظفين يحصلون على أجورهم من هذه السلطات نفسها، التى يودون إصلاحها مثل أبى بكر تمامًا، وأن هؤلاء المسئولين أنفسهم كانوا أعضاءً من قبيل كبار أعضاء حزب العمال الإنجليزى الذين ينظر الناس

إليهم باعتبارهم من "الأسر الحاكمة القديمة، ومن الأسر الريفية الكريمة، أو من العائلات التى اغتنت وأثرت عن طريق التجارة".

أما الأعضاء الآخرون، أو بالأحرى "الأعضاء الذين ليسو من عائلات على الإطلاق" (إن جاز لنا استعمال هذا الإطار المرجعى نفسه)، فيمكن اعتبارهم من المؤيدين لحزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمي، وهو الحزب الذى كان شديد الاشتياق إلى التبكير بالحكم الذاتى، وإلى التبكير بالاقتراع على كل أمر من الأمور، ومناصرين أيضًا للأمراء الضعاف الذين سيتحولون إلى مجرد ملوك دستوريين، ومؤيدين أيضًا لسلطة قضائية مستقلة، ومؤيدين أيضًا لحق المحامين فى السماح لهم بالمرافعة أمام المحاكم الوطنية، هذا يعنى أن حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى كان هو الحزب الذى أكد على اغتنام الفرصة غير المضمونة اعتمادًا على دوام الاستقرار بعد أن يكون قد استهلك خلطته ووصفته الخاصتين بالتقدم الوطنى والتقدم المحلى، لكن الناشطين فى حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى، كان السواد الأعظم منهم فى حقيقة الأمر مشددين على أمل أن يحظوا بالقبول فى صفوف أصحاب الامتيازات أكثر من انجذابهم إلى مسألة تولى الرئاسة فى الداخل والخارج بعد الثورة، من هنا لم يكن أبوبكر فى وضع يسمح له بانتقاد هذه العناصر فى مثل هذه التصرفات. كان هناك فى الشمال أيضًا خلط وزارى للأوراق: فقد أصبح المستشار السياسى الرئيسى أول وزير يحصل على وعد بوزارة الحكم المحلى وتنمية المجتمع، وعاد الوالى محمد نجلروما Ngileruma إلى موطنه ليصبح الوزير الجديد للسلطة المدنية التى أُعيد إحياؤها فى برنو، وحصل بللو Bello كانو على حقيبة الأشغال، وأضاف بطرس أشيموجو Achimugu الموارد الطبيعية إلى البضاعات الخفيفة. وراح أبو بكر يعطى شيئًا من الاهتمام لمزرعته، وكان يحضر اجتماعات مجلس أمير باوتشى عندما يكون فى إجازة، كان أبو بكر محايدًا فى انتقاده لكل من ضباط (رؤساء) الأحياء وولاء بعض المستشارين وعدم ولائهم؛ يضاف إلى ذلك أن الرجل

مُهيِّجًا صحيًا فى جعل العمل الروتينى المريح للموظفين العاديين أمرًا صعبًا عليهم، نظرًا لأن الرجل كان يطلب منهم إحاطته بكل ما يدور أولاً بأول. وقرر أبو بكر العودة إلى ليجوس Lagos بعد أن عقد أول اجتماع حزبى للمناقشات السياسية فى الشمال، وكانت تلك المناقشات تدور حول الاتجاه الذى يتحتم على نيجيريا أو يمكن لها أن تسير فيه. وشعر الرجل بسعادة بالغة بحصول تافاوا باليوا، التى لم يزرها مطلقًا، على مدرستها الإلزامية (الأولية) الأولى، بأن أصبح لها مبنى مستقل.

دار جدل كبير حول أفضل الطرق التى يستطيع الشمال بها قطع روابطه مع الجنوب، وكانت عناصر كثيرة متعلمة، تعد نفسها من حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، قد راحت تبحث على الخارطة (مثلما كان أبو بكر يفعل يوم أن كان يدرس فى المدرسة المتوسطة) عن مسارات جديدة للمواصلات. كانوا يظنون أنهم ليس لديهم ما يخيفهم من الاستقلال الاقتصادى. وعلى الرغم من أن بارو Baro كانت ميناءً داخليًا على ممر مائى دولى، فإنه لم يكن هناك مسار لوصلة الطريق، أو سكة حديد، أو ممر نهرى إلى المحيط، لا يمكن أن يمر إلا من خلال المناطق الساحلية التى يسكنها أناس معادون للشمال، فى الوقت الذى يعد فيه الاعتماد على النقل الجوى فكرة خرافية على امتداد قرن قادم. وبعد النظر إلى امتداد الصحراء فى الدول العربية، وإلى الكاميرون بكل أجزائه والذى كان هو الآخر لا يثق بجيرانه الأجباويين Igbo، وافقوا فى شىء من التردد العجيب، أنهم على الرغم من "شدهم الأحزمة شدًا محكمًا" (على حد تعبير الوالى) وعلى الرغم أيضًا من تحولهم إلى حياة الاكتفاء الذاتى، فإنهم يتحتم عليهم الإبقاء على ارتباطهم بنيجيريا، لكن مادام أن الأمر كذلك، فإن السلطات المركزية يجب أن تكون فى أضيق الحدود فى حين يجب أن تبقى السلطات الإقليمية غير مقيدة داخليًا. كانت لأبى بكر، الذى أصبح له مثل محمد رباط وكاشيم خبرة أكبر من خبرة أصدقائهم أصحاب العقبات العملية، بعض التحفظات على مسألة البت فى التفاصيل، ومع ذلك لم يستطع أبو بكر مقاومة فورة الشعور الانفصالى. وتشجع أبو بكر بفعل

الفكرة الجديدة، التى نشأت عن الأحاديث غير الرسمية التى دارت بين الوزراء وشارود سميث، والتى مفادها أن ليجوس باعتبارها حكومة يمكن اختصارها إلى ما يشبه شكلاً من أشكال وكالة الخدمات العامة غير السياسية، كانت هناك اللجنة العالية لشرق إفريقيا، والتى كانت تدير مسائل البريد، والسكة الحديد، والموانئ لحساب كينيا، وأوغندة، وتنجانيقا ـ فلماذا لا يكون هناك شيء مماثل على الساحل الغربى حتى تكفى الدولة نفسها مئونة الوزراء المهيجين من الأحزاب المنافسة التى تقاتل بعضها البعض.

كان كل من شارود وأبى بكر يريان فى ذلك جسراً مؤقتاً سيوصل فى النهاية إلى رد أكثر ثباتاً فى المستقبل، بعض آخر من الناس من أمثال والى بطا Bida كانوا يتكلمون عن التغيرات السكانية الأساسية والدائمة، وبالطريقة التى يرون أنها حدثت فى كل من البنجاب والبنغال. هذا يعنى أن ضباط (رؤساء) الأحياء كانوا ممزقين؛ إذ كانوا ينظرون إلى مكاتب البريد، ومحطات السكك الحديدية، والورش، والخدمة الكتابية، وأحواش الأشغال العامة، ومحطات الشراء، والجراجات، بل وإلى ميناء كانو الجوى الذى تتزايد أهميته، وإلى المستودعات التجارية، والمستشفيات، ومكاتب المهنيين، وإلى المطارات الفرعية، كانوا ينظرون إلى هذه الأشياء كلها باعتبار أن العاملين فيها هم بالكامل من أهل الجنوب، وأن الكثير من هذه الأماكن لا تستخدم أحداً من الشمال على الإطلاق، هؤلاء الناس كانوا على علم بالإحباط الشديد المترتب على أعبائهم الشمالية، وبخاصة أن هذه الأعباء كانت تتمثل فى توجيه اللوم إلى التمييز والفساد اللذين ترتبا على الضعة والإذلال اللذين انتابا الكثيرين فى هذه الأماكن كلها ومع ذلك كان رؤساء (ضباط) الأحياء يعرفون الكثيرين من الجنوبيين ويحبونهم، وبخاصة كبار السن منهم، الذين كانوا يعدون ركائز لا يمكن الاستغناء عنها فى إطار النسيج الإدارى والاقتصادى للشمال. تُرى، ما الذى يمكن أن تفعله الوكالة المركزية النظرية لاستعادة التوازنات، وبخاصة أن أفراد هذه الوكالة هم ورؤساء حكومتهم ومن سبقوهم كانوا يعتقدون ويفتقرون قبل نصف قرن من الزمان، إلى

الأدوات لاستعادة هذه التوازنات؟ كانت الآلام كبيرة وموجعة لأن قلة قليلة من طوائف الشمال هم الذين كانوا يعتقدون أن هناك أحداً فى الجنوب أو فى ليجوس أو حتى فى لندن نفسها قادر على تفهم مدى أوجاع الجنوب ومشاعره وآلامه؟

كان وزير الدولة هنرى هويكنز قد سارع فى شهر أبريل من العام ١٩٥٣ بالتحدث إلى الزعماء النيجيريين. كان أعضاء حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى قد أبلغوه أنهم يحبذون الوحدة، لكنهم يؤيدون الاستقلال الإقليمى الواسع، وأصر حزب جماعة العمل على إعادة أربعة من وزراء الغرب المركزيين المستقلين (لأنهم كانوا يعلمون حق العلم أن أمير كاتسنا هو وممثل حزب المؤتمر الشعبى الشمالى سوف يستقيلان)، كما أصر حزب جماعة العمل أيضًا على إزاحة الحكام المنابين أو إبعادهم عن المجالس التنفيذية الإقليمية، فى حين كان حزب الاستقلال الوطنى يرغب فى قيام اتحاد فيدرالى، تكون له سلطات واسعة على الأقاليم، لكن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، لم يلتق الوزير هويكنز وجهًا لوجه، لكنه استطاع إبلاغه أن الحزب يفضل أن تكون هناك "نيجيريا واحدة" ولها عاصمة فيدرالية هى ليجوس، قال المعلم أبو بكر تافاوا باليوا إن حزب الاستقلال الوطنى لم يوافق إلا على تغييرات العام ١٩٥٠-٥١ فقط وذلك استجابة للضغوط الجنوبية والضغوط من جانب السير جون ماكفرسن أيضًا. وجرى إعادة تنظيم المجلس مؤخراً فى مطلع شهر مايو بحيث يسمح للحكام المنابين بحل مجالسهم التشريعية بعد الرجوع إلى مجالسهم التنفيذية.

شكَّل آخرُ التقارير المشتركة عن مسألة النجرنة **Nigerianzation** والذى صدر على هذه الخلفية، عاملا مهمًا، وكان السير سدنى فليبسون، السكرتير المالى المنسحب، هو الذى قدم ذلك التقرير، لكنه أصبح الآن مفوضًا دائمًا على المكوس والرسوم السلعية، كما شارك فى ذلك التقرير أيضًا السيد/ سايميون **Simeon** أديبو **Adebo**، وذلك الموظف المدنى البارز غربى الأصل، الذى علم نفسه بنفسه، وكان عصاميًا تمامًا، وكان عموداً من أعمدة الأمانة الإنجيلية، وعضواً مهمًا فى نادى الغداء الشهرى فى ليجوس

(كانت عضوية هذا النادى مناصفة بين النيجيريين والبريطانيين). كان التقرير الذى تقدم به هذان الرجلان، فى شهر أبريل من العام ١٩٥٣ وكان فحوى هذا التقرير معروفًا للجميع. يزاد على ذلك أن الحاكم فى ذلك الحين كان على قناعة بأن تعديل سياسة الترقى هى وترسيخ التغيير الجذرى فى آليات التأسيس وماكيناته سوف يدفعان البلاد بطريقة مفاجئة إلى المحلية والاستقلال على نحو أسرع مما كان هو يحسبه فى البداية. كان مؤيدوا التقرير يتمنون أن تتمكن نيجيريا بفضله من هزيمة ساحل الذهب والانتصار عليه فى التسابق على الحرية. كان فيلبسون Phillipson يرى أن المغتربين فى الشمال، الذين لم يعرف أى شىء عن أى أحد منهم، إلا بعد تعيينهم فى مناصب ليجوس، كانوا أكثر شمالية من الشماليين أنفسهم، كان ذلك صحيحًا ويصدق على قلة قليلة من البشر، لكنه كان يغفل فى المقام الأول مدى شمالية الشماليين أنفسهم فى حقيقة الأمر، وكان ذلك التقرير يغفل فى المقام الثانى الحقيقة البديهية التى مفادها أن المسئولين البريطانيين الاستعماريين كانوا يقبلون دومًا سمات أولئك الذين يحكمونهم ويديرونهم وخصائصهم (ووجهة النظر هذه تنعكس على تصرفات أبى بكر تافاوا باليوا فى الفصل الرابع والعشرين). كان هذا التقرير ومحتواه أيضًا ينطبق بالقدر نفسه على السواد الأعظم من البريطانيين الذين يخدمون فى الجنوب أو يقومون بالإدارة فى ليجوس. كان فيلبسون هو وأديبو Adebo قد أبلغا مستشار سكتو السياسى الرئيسى فى ثنايا استفساراتهما أن وجهة نظر الشمال كانت طبيعية، لكنها من الناحية العاطفية، غير مرضية للجنوبيين، الأمر الذى يحتم وجود حل وسط، وهذا بدوره لم يكن مرضيًا أيضًا لمستشار سكتو السياسى الرئيسى Sardauna. هذا التقرير لم يجر نشره إلا بعد العام ١٩٥٤، بعد أن حدثت الأزمة الدستورية، والتطورات السياسية، وبعد أن حدثت أيضًا إعادة الهيكلة التى قام بها مفوض آخر وحول كثيرًا من الأمور إلى خدمات مدنية، لكن التلف والخسارة اللذين نجما عن هذا التقرير واللذين أخافا المستشار السياسى الرئيسى Sardauna هو ووزراءه الشماليين، ومعهم

السياسيون الجنوبيون الهائجون، لم يكونا هينين فى أعين أولئك الذين كانوا يتطلعون ويتشوقون إلى وجود نيجيريا موحدة.

هذا التمسك بالآراء والأهداف فى الإقليم الشرقى وصل إلى منتهاه عندما جاءت الانتخابات العامة بالدكتور أزكوى إلى السلطة من جديد باعتباره رئيسًا للوزراء من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى ومعه الدكتور ميخائيل أوكبارا وزيرًا للصحة. كان المجلس التنفيذى قد نصح بالحل طبقًا للسلطة الجديدة، كما عجل الدكتور أزكوى بالاستقالة من الجمعية العمومية الغربية، تاركًا المعارضة فى الجمعية لكل من فستوس **Festus** أوكوتاى **Okotie** إيبوه **Eboh**، ودنس **Dennis** أوزادباى **Osadebay**، وإلى السيد/ تى أو إس بنسون **Tos Benson**. ومع ذلك أعربت كتلة الكاميرون عن عدم رغبتها فى خوض معركة انتخابية. بعد ذلك بيوم واحد انعقدت الجمعية العمومية، وتقدم حزب الاستقلال الوطنى باقتراح عن الحصول على الحكم الذاتى فى العام ١٩٥٦، ولم يجر التصويت على ذلك الاقتراح، بعد ذلك جرى تمرير "اقتراح تعطيلى" من مقاعد حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، وصاحبت ذلك القرار نغمة جماعية مفادها أن الحزب ليس بحاجة إلى مساعدة الخارجين على حزب الاستقلال الوطنى، فى كفاحه من أجل الاستقلال. إلى هنا يكون مستقبل الأستاذ **Prefessor** إيو **Eyo** إيتا **Ita** السياسى العملى قد أتى إلى نهايته، على الرغم من اقتراب حزب الاستقلال الوطنى أكثر وأكثر من الاتحاد الوطنى لرئيس المعلمين السيد/ آلفن **Alvin** أيكوكو وحزبه المسمى الحزب النيجيرى المتحد (وعلى الرغم من استقباله وعودته مرة أخرى إلى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى قبل الاستقلال بفترة وجيزة).

الشيء الوحيد الذى أصر عليه كل وزراء الشمال إصرارًا شديدًا فى هذه المرحلة هو مسألة حتمية عدم تشغيل أو توظيف الجنوبيين فى أية مقاطعة من مقاطعات الشمال سواء أكان ذلك فى الحكومة الإقليمية أو فى الحكم المحلى، الواضح أن سياسة "النيجرة" سوف يستغرق تنفيذها زمنًا، كما أن مسألة وجود لجنة خدمات عامة شمالية

تنفذ مثل هذه السياسة سوف تستغرق هى الأخرى مزيداً من الوقت، على أن تقوم مثل هذه اللجنة بإعطاء الأولوية فى العمالة الدائمة للشماليين، ثم بعد ذلك للمغتربين أو الأفارقة الآخرين من غرب إفريقيا (الذين لن يستقر أى أحد منهم بحيث يشكل حائطاً لصد التهديد الاستعمارى للبلاد)، ثم بعد ذلك إلى الجنوبيين النيجيريين، فى حال الضرورة القصوى، على أن تكون عقودهم محددة المدة. لكن المعلم أبا بكر كان من رأيه أن ذلك سيحول دون توظيف الشماليين أو تشغيلهم فى الإدارات التى تتخذ من ليجوس مقراً لها، ومع ذلك لم يقاوم أبو بكر هذا التحرك أو يعترض عليه، بعد أن تسرب إلى اقتراح "الحكم الذاتى": نظراً لأن "كون ليجوس وكالة مركزية" قد يتوقف. والمؤسف أن تلك كان اللحظة الأخيرة التى يمكن لمستشار سكتو السياسى **Sardauna** عندها أن ينظر إلى نيجيريا باعتبارها الإقليم الشمالى الذى أُلحق عليه الحزام الأوسط والجنوب باعتبارهما أقليات حصلت على مزايا غير عادلة على امتداد زمن طويل.

يزاد على ذلك أن المشاعر المثارة لم تكن كلها عقلانية أو منطقية على هذا النحو. فى كانو، على سبيل المثال قامت مجموعة من الحضر السفَّاحين، الذى يرتبطون بصلة بعيدة جداً أو قرابة بعيدة جداً بحزب المؤتمر الشعبى الشمالى، باعتبارهم خدماً أو أقارب له، ولزعماء الإمارات، قاموا بانتحال عذر واه مفاده أن الأوروبيين الحكوميين مخفيى الأسماء يساندون حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى، وشكلوا جماعة إرهابية متطرفة أطلقت على نفسها اسم "المجانين" **Mahaukata**، كان الهدف الذى ترمى إليه هذه الجماعة هو مكافحة الإجرام، والصيحات المماثلة بين أتباع حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى. ورد حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى على ذلك بإنشاء ما يسمى "جناح العمل الإيجابى". لو قدر لمظاهرات ليجوس وإضراباتها أن تكون حية فى أذهان الناس لما ذهب حزب المؤتمر الشعبى الشمالى أو حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى هذا المذهب، أو بالأحرى لما أقدما على مثل هذه التصرفات. كانت تلك هى الظروف التى حدت بحزب جماعة العمل إلى اتخاذ قراره بالقيام بحملته

الصليبية، وذلك بموافقة من حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى، فى كانو فى شهر مايو. لم يكن "المجانين" مستعدين وحسب، وإنما كان السكان العاديون فى المدن القديمة وفى المدن الجديدة أيضًا يصنعون السيوف ويجهزون العصى استعدادًا لاستقبال أولئك الذين سبوا زعيمهم فى وسائل الإعلان المتداولة، أو للدفاع عن أبطالهم. كان المُعَلّم إينوا Inuwa وادا Wada (أحد أقارب أمين كانو) والذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب مسئول الإعلام وتعليم الكبار فى سلطة الحكم الذاتى فى كانو، وقد بلغه أن زعماء حزب المؤتمر الشعبى الشمالى كانوا مصممين على وقف كل من آزكوى Zik وأكنتولا عن إلقاء المحاضرات على شبابهم صغير السن، وألقى الرجل أيضًا خطبة على رؤساء الأقسام فى ورشة الأشغال، وقد أسفرت هذه الخطبة، فى أضعف الأحوال، وبطريقة غير مباشرة عن إعلان العمال النظاميين إضرابًا غير رسمى احتجاجًا على الاجتماع الذى عقده حزب جماعة العمل، والذى أعطت السلطة المحلية بناء عليه تصريحًا للسيد/ أكنتولا (الذى يتكلم لغة الهوسا ولغة النيوب Nupe). وعلى الرغم من أن الإدارة أقنعت الإدارة المحلية بسحب التصريح الذى أعطته لأكنتولا فى صباح يوم الاجتماع، متجاهلة بذلك الاحتجاجات التى انهالت عليها من أنحاء كثيرة من ليجوس فإن المظاهرات المضادة غير المنظمة من قبل الشماليين سرعان ما راحت تحشد نفسها على شكل نهاية أسبوع دامية بين الهوساويين المسلحين بالمناجل والفئوس والجنوبيين (الذين كانوا فى معظمهم من اليوروبا فى بداية الأمر، ثم تزايد عددهم بفعل الأجباويين، الذين جرى تحديدهم على وجه السرعة بأنهم كانوا مجرد أدوات للصليبيين السياسيين الأجانب، وكانوا جميعهم مسلحين ببنادق "الدين" Dane محلية الصنع، والسكاكين). وتلقى الحاكم فى ليجوس مكالمة هاتفية من الحاكم المناب عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا، فى يوم السبت، وعند الساعة الواحدة بعد الظهر كانت الشرطة المركزية قد وصلت إلى كانو بطريق الجو- وجرى إحضار قوات أخرى من الشرطة عن طريق اللوريات، وكانت تلك القوات تمارس عملها اعتبارًا من الساعة العاشرة صباحًا، وكان جون هودج، يتولى قيادة هذه القوات باعتباره القائد الثانى.

ولم تستطع تلك القوات المنقولة جواً وهى القوات المحلية وقف "الاضطرابات" إلا بعد أن بلغ عدد قوات الشرطة حوالى أربعين فيلقًا، جرى خصى الكثيرين منهم، وجُرح منهم المئات التى لا تحصى ولا تعد، ولكن أمكن السيطرة على المظاهرات فى نهاية المطاف. وقعت مظاهرات أخرى مماثلة لكنها كانت أصغر بكثير من هذه المظاهرة فى قلة قليلة من بلدان الشمال.

كان الدكتور آزكوى هو وحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى على وشك عقد مؤتمرهم الحزبى فى كادونا فى ذلك الوقت، فى حين كان لدى حزب جماعة العمل مجموعة أخرى مستعدة لاقتفاء أثر جماعة أكنتولا، التى حرصت على الانسحاب من أخطار مدينة كانو. فى هذه الظروف عمل الدكتور آزكوى بنصحية شارود شخصيًا، والتى وصلت إليه عن طريق الممثل المقيم فى محطة منّا Minna للسكك الحديدية، وكانت تقضى بتأجيل الاجتماع إلى موعد يقل فيه الخوف والفزع، وقد تأكدت الحكمة التى انطوت عليها هذه النصيحة بفعل السلوك المثير والتصرفات المستفزة التى أتاها الشباب الإجباوى فى كادونا، والذين أطلقوا على أنفسهم اسم "رعاة البقر"، الذين كانوا مجرد انعكاس "لمجانين" Mahaukata الهوسا، فى كانو. كانت زعامة حزب المؤتمر الشعبى الشمالى تعرف ذلك الذى يقوم به أتباعها فى كانو، ولذلك أحجمت هذه القيادة عن التوبيخ والتأنيب، ولم تجر محاكمة أولئك الذين اشتركوا فى الإضراب أو حتى المحرضين عليه أو مساءلتهم.

كان ذلك كله هو مكون البيئة العاطفية والانفعالية التى انعقدت فى ظلها جمعيات الشمال العمومية ومجالس الرؤساء فى كادونا، الأمر الذى جعل هذه الجمعيات وهذه المجالس تجتمع فى اليوم الأخير من أيام الإضراب فى كانو، وتقوم بتجميع الأفكار السياسية الشعبية التى جرى جمعها طوال الأسابيع الستة الأخيرة. ولما كانت طبيعة أبى بكر من النوع المتأمل الذى يتفكر الأمور جيداً، فقد جاءت مشاركته الشعبية فى المرحلة الإجرائية. كان أبو بكر هو وعلى Aliyu والى كنو معنيين بانشغال حزبهما

بتجنيد المتطرفين المتهورين ليكونوا أمناء ميدانيين للحزب، بحيث لا يقتصر ذلك على كانو وحدها. بعد ثلاثة أيام من الاجتماعات الخاصة بين الرؤساء والأعضاء، والتى شارك فيها أيضًا كل وزراء الشمال ومعهم نائب الحاكم بخطب وأحاديث صريحة، قام يحيى جوساو Gusau بافتتاح محاورة رفضت الالتزام بتحديد العام ١٩٥٦ موعداً للحكم الذاتى، كما رفضت أيضًا تحديد أى موعد آخر لهذا الموضوع. فى هذا الحوار كان المندوبون القادمون من المناطق الخالية من الطرق والجسور الموجودة بالفعل فى مناطقهم، وكانوا يعربون عن سعادتهم لو أن الآخرين تخلوا عن الطرق الوعرة والجسور المحطمة. وقالوا أيضًا إن البريطانيين سيفشلون فى مهمتهم إذا ما أعطوا الحكم الذاتى لنيجيريا كلها كوحدة واحدة لا تتجزأ. صرح المستشار السياسى الرئيسى Sardauna أن الشمال يود الحكم الذاتى ويرغب فيه لكن ذلك يجب أن يكون بعد اكتمال الأشملة والوصول إلى الحكم المحلى الكفء: وأعلن المستشار السياسى الرئيسى أنه سيحول مركز تدريب الكتبة إلى معهد للإدارة، كما أكد الرجل على استمرار وجود المغتربين والجنوبيين المتعاطفين مع مصالح الشمال ومع عاداته وتقاليده. يزاد على ذلك أن الذين كانوا يتعاطفون مع الجنوب أكثر من تعاطفهم مع حزب المؤتمر الشعبى الشمالى صوتوا أيضًا ضد الحصول على الحكم الذاتى، ولم يصوتوا أيضًا ضد الاقتراح الذى تقدم به إبراهيم إمام، بعد ذلك، (والذى جرت ترجمته دون أى تغيير فى المعنى إلى "التقنين" Legalise، بواسطة هيدلى Hedley مارشال Marshall الأمين القانونى).

عكس الخطاب الذى ألقاه إبراهيم إمام أفكار أبى بكر وآراءه والتى مفادها أن أى حزب من الأحزاب الإقليمية ليس له الحق فى الإصرار على فرض سياسته، التى ربما تكون قد تشكلت بصورة نهائية فى المؤتمر الحزبى الذى عقد بين بنين أو فى أى مكان آخر، فى مواجهة الأغلبية المركزية، وأعلن الاجتماع أيضًا أن الجنوبيين يجب أن يكفوا عن الاستخفاف بذكاء الشماليين أو النظر إليهم باعتبارهم أبواقًا للمستعمرين، وقد

عكست النقاط الثمانية الرأى العام الشمالى الذى جرى التعبير عنه بعد الرجوع إلى دوائر الرؤساء والأعضاء الشماليين الانتخابية. وقد جاءت النقاط الثمانية على النحو التالى:

(١) الاستقلال الإقليمى الكامل، ما عدا الدفاع، والشئون الخارجية، والجمارك والمؤسسات البحثيه الإفريقية الغربية،

(٢) لا تشريع أو تنفيذ مركزى،

(٣) وكالة مركزية تكون مسئولة عن الاستثناءات الخاصة بالبند (١) وفى أى أمر من الأمور التى يجب التفويض بها من قبل الإقليم،

(٤) يجب أن تكون هذه الوكالة مكانًا محايدًا، ويفضل [وهذا من باب التهكم] أن تكون ليجوس،

(٥) يجب أن تكون هذه الوكالة غير سياسية، وأن يكون تشكيلها، وسلطاتها ومسئولياتها محددة طبقًا للدستور،

(٦) يجب إدارة السكك الحديد، والخدمات الجوية، الكهرباء ومناجم الفحم بواسطة مؤسسات قانونية مستقلة،

(٧) يتعين أن تكون الدخول كلها إقليمية، فيما عدا الجمارك التى يجرى تحصيلها فى الميناء بواسطة الوكالة المركزية ويجرى تحويلها إلى الإقليم المتلقى لها.

(٨) يجب أن تكون فى كل إقليم إدارة خدمة جماهيرية مستقلة.

هذا التبادل الحر للأخبار والتعليقات بين كل من الحاكم والحاكم المناب ووزرائهم فى كل من ليجوس وكادونا، وعلى أساس من الاحترام المتبادل، الذى لم يكن أمرًا سهلاً فى إيبادان وإينوجو، كان يعنى أن أى شىء من هذا القبيل، وعلى الرغم من عدم

الترحيب به، لم يكن مفاجأة للندن. فقد قام الحاكم شخصياً بإحاطة السيد/ ليتلتون علماً بكل ما حدث، وقام السيد/ هوبكنسون Hopkinson بزيارة نيجيريا فى شهر أبريل بصفته وزيراً للدولة، لحضور مناقشة المسائل الدفاعية واستكشاف أرض الواقع من جديد. وهنا نجد أن البرقيات المشفّرة والرسائل شبه الرسمية بين الحاكم ومقر الحكومة البريطانية بدأت تحل محل البرقيات المنقولة بالسفن كما هو الحال فى سائر أنحاء الإمبراطورية. كانت تلك المراسلات تحتاج إلى ساعات طويلة من السكرتيرين الذين لم تكن لديهم سوى آلات كاتبة ومخطوطات شفرية من نسخة واحدة فقط، لم يكن اختراع التلكس أو الآلات التى تكتب بالشفرة قد وصل إفريقيا الاستعمارية. ومع ذلك، كان السيد/ أوليفر ليتلتون يحاط علماً يوماً بيوم من قبل مسئولى الحكومة البريطانية، الأمر الذى مكنه من أن يعلن لمجلس العموم فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو، وقبل أن توافق المجالس الشمالية على النقاط الثمانية، أن الأقاليم الثلاثة لا يمكن أن تعمل عملاً فاعلاً إذا ما بقيت مرتبطة ببعضها البعض حسب متطلبات الدستور القائم: وبعد أن أعربت حكومة صاحب الجلالة عن أسفها لذلك، قررت سحب الدستور، حتى يسمح الوضع بالمزيد من الاستقلال الإقليمى الأوسع، ويسمح أيضاً بمنع التدخل من المركز فى الأمور التى يمكن إدخالها ضمن سلطات إقليم من الأقاليم دون أن يترتب على ذلك أضرار للأقاليم الأخرى. كان مسئولوا الحكومة البريطانية على وشك توجيه الدعوة لحضور مؤتمر يعقد فى لندن فى غضون شهرين وتتمثل مهمته فى النظر فى عيوب الدستور والوقت المناسب لتصحيح هذه العيوب، والنظر فى مسألة "الحكم الذاتى الذى تحدد له العام ١٩٥٦"، دون أن تترتب أية مسئوليات أو التزامات على هذه المراجعة، "وبصراحة تامة، لقد أدت الأحداث الأخيرة إلى تقييد أيدينا". كان أوليفر ليتلتون رجلاً صريحاً. لم تتسبب هذه الأحداث فى نسيان مجالس الشمال الإحساس باللياقة ومراعاة التقاليد الرسمية: هذا يعنى أن المجالس الشمالية أرسلت قبل فض

اجتماعاتها برقية لصحابة الجلالة بمناسبة توليها العرش، تلك المناسبة التى تَعمَّد زعماء حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى تجاهلها فى الإقليم الشرقى. وقد طلب من السير جون ماكفرسن عندما كان قائما بإجازته الوطنية التى صادفت عيد جلوس الملكة، التحدث إلى اجتماع عقده أعضاء مجلس البرلمان البريطانى. قال الرجل أمام أعضاء مجلس البرلمان البريطانى إن العلاقات الودية بين زعماء الجنوب والأحزاب لن تدوم طويلاً، ولقى الرجل تحديًا قويًا، فى هذه المسألة، من قبل فينر Fenner بروكواى Brockway أخصائى الشئون الاستعمارية فى حزب العمال. قال السير جون John إنه من الكِبْر والغطرسة أن يتكلم قائلاً إنه "متأكد" مما يفكر فيه الساسة الأفارقة، لكن فهم هذا الرجل لكل المعنيين بهذا الأمر، هو أن هذا الود لن يدوم.

كان زكريا ميملارى Maimalari وعمر لوان Lawan الملازمان الثانيان اللذان تخرجا حديثًا جزءًا من الحرس الاستعمارى المرافق للملكة فى موكب ذكرى يوم جلوسها على العرش، من وإلى الكنيسة، وجرى إبدال وليمة التتويج التى اعتاد الملوك إقامتها على أساس من طريقة التتويج فى العصور الوسيطة بغداء لرابطة الكمنولث البرلمانية فى قاعة وستمنستر، وكان المعلم عيسى كيتا قد عين الأمين المالى فى حزب المؤتمر الشعبى الشمالى ممثلاً للشمال فى ذلك الحفل، وجرى إصدار عملات نيجيرية معدنية من فئة البنس، والنصف بنس، و١/١٠ من البنس (وقد أصدرت هذه العملات بعد أن ترسخت فكرة مفادها أن النقص فى العملات المعدنية صغيرة القيمة زاد من عملية التضخم فى الريف)، وجرى إطلاق الألعاب النارية على مستوى الأقسام والأقاليم، وجرى أيضًا عقد اجتماعات شعبية

وجماهيرية للناطقين باللغة الإنجليزية فى كثير من منازل المغتربين والمقيمين للاستماع إلى خطاب الملكة، الذى يكتبه الخطيب تشرشل، ويتبعه إذاعة الخطاب بصوت تشرشل. فى موطن أبى بكر باوتشى كان أعيان المنطقة يقومون بتشجير أحد الشوارع، وكان ذلك العمل مصحوبًا بخطب تنم عن الولاء كان يلقيها الأمير والممثل

المقيم السيد/ جيل Gill، أما ضابط (رئيس) الحى الإدارى فكان مسئولاً عن تنظيم الاتصال الإذاعى بالمنظومة الشعبية التى تعتمد على البطاريات فى مضمار السباق - وكان إلقاء ذلك الخطاب مسبوقًا بمباراة فى سباق الخيل وبعض الرياضات المدرسية الفكاهية، يليها وليمة طعام ورقص حول موقد النار، واستطاع ضابط الحى الإدارى بمعاونة المهندس المدنى ومساعدين آخرين تنظيم عروض الألعاب النارية (بحيث تكون هى آخر الفقرات فى حال سقوط الأمطار) وقام الرجل أيضًا بتشغيل كل المصهرات التى جرى توقيفها فى وجهه، وبينما كان البريطانيون يتولون دور القيادة، لوحظ أن قسمًا كبيرًا من المرح والفرح فى الاحتفال كانت تشارك فيه الجماهير الإفريقية والأفراد الأفارقة أيضًا الذين انجذبوا انجذابًا حقيقيًا إلى هذه الاحتفالات، وذلك على الرغم من إرهاقهم البدنى فى شهر رمضان بسبب الصوم، الذى جعل أبا بكر شديد الورع والتقوى، متعبًا ومرهقًا تمامًا فى فترة العصر.

قدم معلق محايد من معلقى الشئون الاستعمارية بعض الأفكار عن الفرص الضائعة ولم يجر اغتنامها فى الحصول على المزيد من احتفالات عيد جلوس الملكة، كتب ذلك المعلق يقول: إن الحقيقة تتمثل فى أن إفريقيا البريطانية الاستعمارية – وليس الأفارقة - هى التى خسرت التفاخر والثقة، وأصبح مفهوم الإمبراطورية سببًا من أسباب الحرج لإفريقيا البريطانية الاستعمارية، إن لم يكن الأمر أسوأ من ذلك، بل وسببًا من أسباب السأم والملل. قد يصدق ذلك على البلدان التى تأوى السكرتاريات (الأمانات)، لكن هذا الكلام لم يكن صحيحًا فى الأماكن التى من قبيل باوتشى، التى كان فيها الكثير الذى يمكن للجنسين أن يفعلاه وينجزاه سويًا، دون الانتظار لدراسة الصيغ السياسية الجامدة. فقد شاع بين البريطانيين فى بلدان المملكة المتحدة أن عصر الملكة إليزابث الذى شاعت فيه الأفكار والصيغ المبتذلة لم يعد الناس ينظرون إليه باعتباره امتدادًا للماضى الإمبريالى (الاستعمارى). وأصدق مثال على ذلك هو أن البلد الأم، بعد عامين من الاحتفال البريطانى، كان لا يزال متعبًا جراء استمراره فى

ارتداء أسماله الباليه فى ظل ديكوراتها البهرجانية، وهذا الرمز تصعب ملاحظته على الزائرين الأفارقة القادمين من باوتشى، أو أوشجبو Oshogbo أو من آبكاليكى Abaka-liki. هذا الرمز يعنى أن بريطانيا بعد ثمانية أعوام من الانتصار الكامل فى الحرب العالمية لم تستطع التخلى سوى عن توزيع الحلوى بالبطاقات، وراحت تتطلع إلى زيادة تحسين واردات ما قبل الحرب من الكاكاو المستورد. هذا البلد الذى تعلم الكثيرون من أبائه، ذلك القليل الذى يعرفونه، من بطاقات علب السجائر ومن لافتات التسويق وملصقاته، بدأ ينظر إلى مؤتمرات الغرباء الذين يرتدون ملابس غريبة، لا من منطلق الخشية والخوف الذى أضعف قهقهة هؤلاء الآباء العصبية وهم يستمعون إلى أخبار غاندى Gandhi، هو وأمراء الهند فى ثلاثينيات القرن العشرين، وإنما كانوا ينظرون إلى هذه المؤتمرات بأعين مستعدة لصحافة ما بعد الحرب المتهورة التى تنظر إلى الأحداث التاريخية باعتبارها نوعًا من أنواع التسلية، والغريب أن هذه النظرة ذاعت وانتشرت، نظرًا لزيادة مبيعات أجهزة التليفزيون التى كان الناس يسارعون إلى شرائها كيما يتمكنوا من مشاهدة عيد جلوس الملك "مباشرًا" على الهواء.

تواصل الغليان فى نيجيريا فى الوقت الذى كان المندوبون يستعدون فيه للسفر إلى لندن لحضور ذلك المؤتمر المرتقب. كان حزب الحزام الأوسط الشعبى، الذى بدأ فى توحيد نفسه تحت زعامة المُعلَم بللو Bello إيجومو Ijumu، الذى انفصل عن حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمي، قد أعلن أنه إذا كانت النقاط الثمانية التى أعلنها حزب المؤتمر الشعبى الشمالى قد قُبِلتْ، فإن حزب الحزام الأوسط الشعبى بدوره يطالب بإقليم مستقل على أرضه الوطنية فى كل من كبًّا Kabba وإيلورن Ilorin. كانت عصبة المنطقة الوسطى، التى كانت فى الأساس هيئة ثقافية للمسيحيين الشماليين فى الهضبة وفى جنوب زاريا، قد بدأت تكتسب طابعًا سياسيًا قويًا فى أدماوا Admawa. كانت الحياة قد بدأت تدب من جديد فى اتحاد التيف التقدمي، وفى اتحاد ولاية أيدوما، وفى اتحاد أجبيرا القبلى (الذى انقسم بعد ذلك إلى جناحين يناصر كل منهما رؤساء

مختلفين)، وزاد إبراهيم إمام القدر غليانًا عندما أعلن أن ليجوس سيجرى فصلها عن الغرب (وكان قد أبدى ملاحظة تهكمية عابرة مفادها أن الجمعية العمومية الغربية، التى تشكل منها نادى إكوى Ikoyi "الخاص" الذى أنشئ خصيصًا للمغتربين، هى التى جعلت هذا النادى غير عنصرى بطريقة واضحة بَيِّنة تمامًا، وذلك بمقتضى القانون من ناحية والعرف الحديث من ناحية أخرى). كان حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى قد أنشأ فرعًا للشباب، أطلق عليه اسم أحد المفكرين، فقد أطلق الحزب على هذا الفرع اسم الحركة الأسكيانية Askianist Movement، تخليدًا لذكرى محمد آسكيا الذى اغتصب إمبراطورية سونغاى فى العام ١٤٩٣ كيما يصلح دينها وينعش ثقافتها، لكن هذا الفرع سرعان ما ذاب بعد ذلك فيما يسمى "جيش الشباب الصادق" Rundunar Samarin Sawaba. أُعيد تعديل حكومة الشمال نظرًا لأن كلاً من المعلم بللو Bello كانو Kano، وولد Dan عمار Amar، فاجأ الدوائر السياسية باستقالتهما من مناصب عالية لكى يعودا إلى موطنيهما لكى يتولى كل منهما منصب رئاسة حى من الأحياء الكبيرة، باعتبار أن هذا المنصب أكثر دوامًا من منصب الوزير، وهنا قام المستشار السياسى الرئيسى Sardauna بإضافة حقيبة الأشغال مرة ثانية إلى وزارة الحكم المحلى وتنمية المجتمع، وهنا قام أبا حبيب Abba Habib، زميل أبى بكر من عرب الشوا Shuwa منذ أيام الدراسة، والذى هو من إمارة دكوا Dikwa فى شمال الكاميرون قام بإعفاء بطرس Peter أشيموجو Achimugu من حقيبة الصناعات المحلية (أى الصناعات الخفيفة).

أعلن المستشار السياسى الرئيسى Sardauna، بعد المناقشات التى أجراها داخل المجلس التنفيذى وخارجه مع كل من شارود سميث ومع زملائه المركزيين بما فيهم أبى بكر تافوا باليوا، أن الشمال يفكر فى إلغاء نطاق المجمَّعات الانتخابية، وإلغاء نسبة العشرة فى المائة الذين يجرى "حقنهم" من قبل الإدارة المحلية فى المجمَّعات الانتخابية النهائية، وبذلك تتاح الفرصة لتمثيل الأقسام أو البلدان الكبيرة تمثيلاً مباشرًا، وجرى أيضًا تكليف إدارة الشمال بتنظيم عملية جمع الردود الشعبية على الأسئلة السبعة

Kambayoyi bakwai المبنيّة على النقاط الثمانية المعلنة من قبل حزب المؤتمر الشعبى الشمالى. وقد أدت منظومة الحكم غير المباشر إلى جعل آليات هذا الاستفتاء سهلة وميسرة، لكن تلك كانت المرة الأولى التى يواجه فيها الموظفون الإداريون المحليون الشماليون كارثة كثرة عدد الزملاء الموجودين فى أنحاء بعيدة، خلال فترة الانتقال مما كانوا يرونه على أنه أتوقراطية مستنيرة إلى الديمقراطية الحزبية، تلك العملية التى جرى تسميتها فيما بعد باسم إنهاء الاحتلال Decolonization: هذا يعنى أن كثيرين ممن حضروا الاجتماعات العامة، ومناقشات مجالس الأحياء، وردود المجالس الداخلية والخارجية التابعة للإدارة المحلية على الاستبيانات كانوا يتطلعون إلى ضابط (رئيس) الحى، وإلى ضابط (رئيس) الحى الإدارى فى تولى دور القيادة، وتقديم الآراء، وتفسير أى مصطلح من المصطلحات المحيرة وشرحه، أو الترجمة الدقيقة فى أضعف الأحوال. كانت تلك تجربة منفرة للجانبين ذلك أن الرد الذى كان يصل لأى منهما "يتعين عليك أن تسأل ممثلك السياسى"، هذا إن كان ذلك السياسى نفسه يعرف أصلاً الحصول على مثل هذا الرد، كان الشك لا يزال يسيطر على الجميع، وقد تمثل ذلك الشك فى جدوى كل من التغيير ومستغلى ذلك التغيير ومنتهزيه. ومع ذلك لم يكن متوقعًا أو منتظراً بالمرة للنقاط الثمانية المعلنة من قبل حزب المؤتمر الشعبى أن تشيع بين الناس اللهم باستثناء بعض أجزاء الحزام الأوسط.

تواصلت فى الوقت نفسه التغييرات الصغيرة، ولعب أبو بكر تافاوا باليوا دوراً استشارياً من بعد فى مسألة قبول رجل أو اثنين من الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم ومن أصحاب المواقع القوية فى مجلس أمير باوتشى، كما رحّب أبو بكر أيضًا بتحركات الإدارة التى أسفرت عن دخول أكبر أبناء الأمير السجن بتهمة الاختلاس والابتزاز، كما أسفرت أيضًا عن التحقيق الإدارى مع القائم بأعمال رئيس الحى، مما أدى إلى تعديل حكم القاضى الهين إلى حكم مماثل لحكم صدر فى قضية مماثلة (أى لا يمكن استئنافه). حدث ذلك على خلفية التحريات الإدارية عن مخالفات الأمير المالية

وعن إسرافه، مما جعل مجلس الأمير، بما فيه أبو بكر تافاوا باليوا، ينصح الممثل المقيم هو وضابط (رئيس) الحى بعدم عزل الأمير والاكتفاء بجعله يوقع على تعهد يكون على شكل "إنذار نهائى" له. كانت هنالك واقعة أخرى، حضرها الوزير المركزى، أثناء مناقشة المجلس لبعض الآمال المرتقبة فى مشروع من مشاريع التنمية والرفاه الاستعماريين، والذى يشمل مشروعًا لبلدة باوتشى - اقترح شخص ما فى ذلك النقاش أنه إذا تعذر الحصول على الأموال اللازمة لتنفيذ هذا المشروع، فإنه بالإمكان عن طريق المناقلة، الحصول على هذه المبالغ من بند آخر من بنود الأشغال المحلية المخصصة للإعاشة المكتبية وتوفير البضائع اللازمة للسوق القروية فى قرية تافاوا باليوا. وجاء الرد على هذا الكلام متمثلاً فى القول بأن المناطق الريفية تدفع الضرائب عن طيب خاطر، ولا تحصل إلا على القليل من المنافع، ويجب عدم الإساءة إليها طلبًا لمصلحة الحضر. كان النقاش حاميًا وساخنًا، وفاز فيه تافاوا باليوا: لكن وزير الأشغال ظل صامتًا طول الوقت بدلاً من الانحياز لجانب منطقته.

على المستوى المركزى كان المعلم أبو بكر قد أدرك أنه لم يعد ضروريًا بعد، أن يصطحب معه شتيما كاشيم أو محمد رباط باعتبارهما وصيفين سياسيين له، عندما يقوم بزيارة خاصة، أو عندما يستقبل بنسون Benson، كبير السكرتيرين (الأمناء)، نظرًا لأن أبا بكر أصبح أكثر وثوقًا بأن أسراره لن يجرى العبث بها أو الإساءة إليها، على الجانب الآخر، كان أبو بكر يتردد قبل ذلك فى زيارة مقر الحكومة، عندما يكون زميل السكرتير العام أو نائبه قائمًا بدور الحاكم، مادام أن أكنتولا هو وبود Bode توماس سيجرى إبلاغهما بذلك، وسوف يستغلان ذلك فى الصحافة وفى الأماكن الأخرى. كان السير جون ماكفرسن، فى ذلك الوقت، يحاول استعادة مجلس وزراء فاعل ومؤثر كان ماكفرسن يرغب فى "فريق عمل من أجل نيجيريا". ولم يكن راغبًا فى الأساس، فى قبول إعادة تعيين أى أحد من حزب جماعة العمل فى إيبادان Ibadan، الذين سبق أن قدموا استقالاتهم، فيما عدا ملك Ooni الإيف Ife - ولكن هذا الملك رفض

العودة دون عودة الآخرين، وهنا نجد مرة أخرى أن المعلم أبا بكر الذى كان على استعداد لانتحال عذر شريف لينكر تورطه فى السياسة، يتزعم حركة استقالات الشماليين إذا ما سُمِحَ (على حد قولهم) بعودة ذلك الهستيرى المتطرف، المدعو بود توماس. هذه الأزمة، لم يجر حلها، كما هو موضح فى الفصل التالى، إلا أثناء انعقاد مؤتمر حزب المؤتمر الشعبى الشمالى وموافقته على العودة إلى الوضع الذى كان قائمًا من قبل الوضع الراهن.

كان ماكفرسن فى ذلك الوقت يجهز أيضًا وفد البلاد الرسمى المسافر إلى لندن، وقد انطوى ذلك التجهيز على كثير من المساومات والتنازلات المتبادلة. كان التحالف المؤقت القائم بين أزكوى وآوو Awo يصعب الإمساك به أو الوقوف على خفاياه، والسبب فى ذلك أن هذين الاثنين لم يكونا قد "تآخيا" بعد مع الحاكم، على الرغم من لقائمها إياه لمناقشة أسماء المستشارين المقيمين أو المرافقين، كان الرجلان، فى ذلك الوقت، متفقين فيما بينهما على أمر واحد، فى أضعف الأحوال، هو أن حزب المؤتمر الشعبى الشمالى ليس من حقه التحدث باسم الشمال كله، لكنهما كانا على استعداد للنظر فى دعوة الحاكم الذى عقد محادثات بشرط أن يكون الهدف من تلك المحادثات هو مراجعة العيوب التى فى الدستور، والتى أدت إلى عدم تفعيله، وأنه لابد من إشراك السياسيين الآخرين حتى ينظر الناس إلى المحادثات وكأنها تجرى بين الأقاليم وليس بين الأحزاب. قالوا "هذا الكلام" وأطنبوا فيه على نحو أكثر مما أوردناه هنا. قالوا: "هذا هو الدستور الأخير الذى يضفى علينا وضع الاستقلال الذى نود نحن تفعليه وإدارته. الدستور سوف ينتهى العمل به فى العام ١٩٥٦، أو قد ينتهى العمل به نتيجة حدوث انهيار أو إساءة السمعة. إذا ما حدث ظرف من هذه الظروف فنحن نطلب من بريطانيا منحنا وضعية الدمينيون(*). وإذا ما رفضت بريطانيا ذلك، فسوف نعلن

(*) الدومينيون: كل دولة مستقلة من دول الكمنولث البريطانى (باستثناء المملكة المتحدة) تعترف بالعاهل البريطانى رئيسًا للدولة .(المترجم)

استقلالنا بلا أى تردد ونواصل دعمنا وتأكيدنا لذلك الاستقلال، بغض النظر عن النتائج التى يمكن أن تترتب على ذلك". وعلى الرغم من رفضهما الضمنى الكامل لقضية الشمال، فقد وافقا فى نهاية المطاف على لقاء الحاكم، ومعه المستشار السياسى الرئيسى Sardauna ومختلف المستشارين. كان المستشار السياسى الرئيسى (أحمد بللو) قد طار بصحبة عيسى كيتا إلى إيبادان Ibadan وإينوجو Enugu ابتغاء التوصل إلى مصالحة شكلية مع كل من آوو Awo وآزكوى Zik، واضطرا إلى أن تهبط طائرتهما هبوطًا اضطراريًا مزعجًا فى إيدا Ida بسبب عاصفة استوائية عنيفة هبت أثناء قيامهما بهذه المهمة. كان آزكوى حتى النهاية، يود لمؤتمر لندن أن يظن أن الرجل لن يأتى لحضور المؤتمر، لكن آزكوى اتفق مع حزب المؤتمر الشعبى الشمالى على ضرورة أن تصبح ليجوس ذات طابع فيدرالى. ومع ذلك وافق آزكوى حزب جماعة العمل على فكرة التخلى عن فكرة الحكومة "الوحدوية" Unitary، واتفقا أيضًا على أن الوقت غير مناسب للتخلى عن السلطات المتبقية مع المركز، واتفقا أيضًا على أن تكون هناك انتخابات مباشرة فى المركز، وجرى التلميح إلى أن ذلك ناتج عن تهديد حزب جماعة العمل بأعمال تشهير ضد صحافته.

وجرى فى نهاية المطاف إرسال تشكيل الوفد النيجيرى وجدول أعمال المؤتمر الذى جرت الموافقة عليه إلى لندن. وتقرر أن يكون أعضاء الشمال هم المستشار السياسى الرئيسى لسكتو Sardauna (أحمد بللو)، والمعلم أبو بكر تافاوا باليوا، وعثمان ناجوجو أمير كاتسنا، وعلى والى بطا، والمعلم أمنى كانو، وتقرر أن يكون بصحبتهم عشرة مستشارين من الهضبة، وأدماوا، وشمالى الكاميرون، وبرنو، وكانو، وكبًّا Kabba، والتيف، ومدينة زاريا، "والأحياء الوثنية"، وبذلك يكون الوفد قد شمل أعضاء من حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى، وعصبة المنطقة الوسطى، واتحاد إجبيرا القبلى، وحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، وحزب جماعة العمل، وكان هناك أيضًا مندوبون عن حزب الاستقلال الوطنى (الذى عارض كل من آوو Awo والدكتور آزكوى

انضمامهما إلى الوفد بكل الوسائل الممكنة لأنهما كانا يؤيدان وجود حكومة مركزية قوية، وأصبحا الآن يعارضان الحصول على الحكم الذاتي فى العام "١٩٥٦")، كما اشتمل الوفد أيضًا على عضو من جنوبى الكاميرون. وإذا ما أضفنا إلى هؤلاء الوفود الداخلية الخاصة بالمستشارين الرسميين الذين رافقوا الحاكم، نجد أن حكومات نيجيريا تُركت فترة وجيزة فى أيدى أناس من الشباب والمسئولين الأصاغر، الذين سرعان ما قرروا أن من الأسهل المحافظة على الانسياب فى منظومة العمل، مادام أنه ليس بينهم من الكبار من يعكر صفو هذا الهدوء.

حزم الوفد أمتعته استعدادًا لرحلة الطائرة المستأجرة، وراحت عصابات الجنوب ومجرموا الشمال يَقُضُّون مضاجع ذلك الوفد أثناء وجوده فى مطار كانو عن طريق إطلاق الصواريخ على أعضاء الوفد من إحدى نوافذ المطعم الذى كان الأعضاء يجلسون فيه.

وقام حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى باستئجار بعض الممارسين القانونيين، للنظر فيما اعتبره معظم الأعضاء أمرًا يستوجب الاستئناف، وإثبات أن القاضى الذى نظر القضية لا يدخل المطار فى نطاق اختصاصاته، وبخاصة أن المطار يعد أرضًا فيدرالية. وكان القاضى البريطانى، الغريب على هذه الأرض، قد قرر أن القاضى له سلطة على المطار، أو بمعنى آخر المطار يدخل فى نطاق اختصاصاته، لكن مادام أن سجل المحكمة لم يُوضح فيه بصورة محددة ذلك الاختصاص (وهذا شىء لم يخطر ببال القاضى أو أى أحد تسجيله أو تدوينه من قبل)، فقد شطب القضية. وجرى إطلاق سراح المتهمين وألقى القبض عليهم من جديد، وقام قاضٍ مُطلع جديد بإصدار مجموعة من الأحكام.

لم يتوقف العالم الواسع عن الدوران بسبب الاهتزاز الذى أصاب نيجيريا. فقد أعلن حرمان الاتحاد الإفريقى الكينى من التمتع بالقانون، وشطبت المحكمة الكينية العليا الاتهام الموجه إلى كينياتا Kenyatta (وجرى تأييد هذا الاتهام بعد ذلك بفترة

قصيرة، من محكمة استئناف شرق إفريقيا)، وهنا أهابت الحكومة الكينية بحركة ماوماو أن تتوقف وتستسلم. قام حزب مؤتمر نياسلند الإفريقى بمظاهرة ضد الاتحاد المزعوم، والذى كان من رأى ليتلتون أنه سوف يوقف ويمنع انتشار معتقدات الأفريكانز وممارساتهم Afrikaner فى اتجاه الشمال. وقدم الدكتور نيكروما ذلك الذى أطلق عليه ساحل الذهب "مقترح المصير"، وعقب ذلك مباشرة جرى إلغاء منصب مدير الخدمات الطبية فى ساحل الذهب ، وجرى تنزيل منصب خلفه، المسئول الطبى الرئيسى، ليكون تحت إمرة السكرتير الدائم. **فى ذلك الوقت كان اللواء محمد نجيب قد أصبح رئيسًا للجمهورية المصرية الجديدة،** وجرى إيفاد الدكتور هانزولف من قبل مؤسسة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو) إلى إفريقيا وإلى بعض الأماكن الأخرى كى يقوم بوضع أبجدية رومانية لحوالى أربعين لغة، تفتقر إلى أبجدية متفق عليها، منها اثنان وعشرون لغة فى شمال نيجيريا وحدها. وجرى إعلان قيام الهدنة فى شبه الجزيرة الكورية. وقام الفرنسيون بنفى محمد الخامس من المغرب. وكانت هناك سحابة صغيرة قادمة من ناحية البحر تنبئ بشىء من التغيير، لأن شركة شل للبترول العاملة فى مجال تنمية البترول وتطويره فى نيجيريا، بالاشتراك مع شركة شل وشركة البترول الإنجليزية الإيرانية، قد أعلنتا بعد ستة عشر عامًا من الاستكشاف وعامين آخرين من الاختبار فى كالابار Calabar، عن وجود "دلائل صغيرة على وجود الزيت فى بئر اختبارية" بالقرب من أوكجوى Okogwi.

ترى، لماذا فشل دستور العام ١٩٥١؟ فى ذلك الوقت، كان الأمر واضحًا تمامًا للحكومة البريطانية، ولم يجر اكتشاف ما يمكن أن يؤدى إلى تغيير وجهة النظر. ونحن عندما نتصفح ذلك الفشل نجد الحقيقة التى مفادها أن سياسية الأحزاب الجنوبية، ترى أنها إذا ما التزمت الاعتدال فإن ذلك يعنى الانتحار السياسى. هذا الخيط الرفيع يمكن رؤيته من نواحٍ عديدة: هذا يعنى أن حزب جماعة العمل وحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى لا بد أن يتنافسا لكى يبدوا أمام بعضهما بأنهما أشجع أبطال

الاستقلال؛ كان الوزراء يرغبون فى أن يقر الجمهور والشعب بأن لهم سلطات شخصية على وزاراتهم بغض النظر عن الخبرة، يزاد على ذلك أن قلة قليلة جداً من الأفراد العاملين فى المستوى المركزى كانوا ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم مجرد نيجيريين - كان الشماليون مستبطنين، فى حين كان الجنوبيون يحلمون بدولة تضم اليوروبا كلهم، أما الشرقيون فكانوا يرون فى بقية البلاد ميداناً عامراً بالفرص أمام اللاجئين المتعلمين المؤقتين القادمين من المناطق المزدحمة بالسكان، وكانت مسألة محاولة المحافظة على التكافل من خلال الإحرامات الانتخابية تعنى أن أى اضطراب فى أية منطقة من المناطق يمكن أن تسرى عدواه إلى المناطق الأخرى، أو بالأحرى تسرى فى بقية الجسد كله، يزاد على ذلك أن المجلس التنفيذى السياسى المركزى كان عجلاً بسبب القوى الإقليمية المتنافرة، كان هناك أيضاً فشل ذريع فى تفهم الحقيقة التى مفادها أن البريطانيين، بسبب سوابقهم التاريخية، يمكن الوثوق بهم فى وضع الأحجار فى أماكنها وإصلاح الأحوال عن طريق اعتناق الأعراف المحببة إلى النفس وتجاهل الأوامر الكتابية، كان وضع ليجوس الذى يكتنفه الغموض مصدراً للقلق. زد على ذلك أن الفرضية التى مفادها أن ظهور أحزاب سياسية منظمة على نطاق واسع قد يستغرق سنوات بدلاً من الأسابيع، لم تخطر على بال أحد وغابت عن أنظار الجميع، وبخاصة عندما بدأت تلك الأحزاب فى الظهور على شكل هيئات عرقية، بدلاً من تقديم خيار من التغييرات الاجتماعية والاقتصادية أمام جميع المواطنين، يضاف إلى ذلك أن مسألة تحرك المناطق كلها بمعدل حركة واحد ظل أمراً كريهاً وغير عملى، مما أدى إلى حل خفى يقوم "الحكم الذاتى الكامل داخل كل إقليم على حدة". زد على ذلك أن الصراع بين كثير من الشخصيات أفسد التقدم وأخل به، وهنا تجدر الإشارة أيضاً إلى أن الخطأ المميت فى التقدير الذى أودى بالدكتور آزكوى إلى أن يجرب حظه فى الإقليم الغربى حيّر الكثيرين الذين سبق أن قفزوا فى الماضى إلى استنتاج مفاده أن الدكتور آزكوى هو الزعيم الحقيقى الوحيد لنيجيريا. كان لابد من حل بعض الألغاز. وسوف يلعب المعلم أبو بكر دوراً مهماً فى حل هذه الألغاز.

الفصل السابع عشر

مؤتمر صعب يخلق شكلاً من أشكال الفيدرالية

مهما كان عمق الماء، فلا بد من احتوائه على الرمل(*)

كانت الفنادق مريحة، لكن المقر رقم ١٠ كارتون هاوس تيراس، لم يكن مناسبًا للاسترخاء وبخاصة أعضاء الوفد ومستشاريهم الكثيرين، الذين لم يسبق لهم زيارة لندن قبل ذلك. خليط من الماضي البريطاني المتوتر وبدائل السكرتارية التي كانت تغلب على المؤتمرات الأوروبية في فترة ما بعد الحرب التي كانت تعود، أو تنعقد في ليك Lake جنيفا Geneva (إذ لم تكن الصالة البيضاء(**) Whitehall قد حصلت على التقنيات الإليكترونية التي سيجري فصلها عن شبكة المؤتمرات التي تعمل طول الوقت في ليك Lake سكس Success)، هذا الخليط مكَّن بعض أعضاء الوفد من تناسي الواقع الذي خلَّفوه وراءهم في وطنهم. في المساء كان النيجيريون يتجمعون، وقد فوجئ هؤلاء النيجيريون وأصابهم شيء من القلق بفعل وجود بعض المسافرين البريطانيين اليساريين، وبفعل وجود تجمعات أكسفورد، وكانوا جميعًا مهتمين بعملية جعل الزوار يعتنقون صيغهم الدينية الخاصة بهم. يزاد على ذلك أن حفلات الاستقبال الاجتماعية التي كانت تقام على هامش المؤتمر، وكذلك مسألة الكرم المتبادل على نطاق واسع، كل ذلك أعطى السياسيين البريطانيين هم ورجال الأعمال والتجارة، وكذلك الدبلوماسيين

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا. وهو مرادف للمثل الذي يقول "لكل شيء نهاية". (المترجم)

(**) المقصود بالصالة البيضاء هنا هو مقر الحكومة البريطانية. (المترجم)

الأجانب فرصة إشباع غرورهم، إلى حد أنهم تمكنوا من خلال تحية ممثلى الوفد، معرفة نيجيريا على وجه السرعة. لكن كثيراً من النيجيريين، وبخاصة المسلمين، اشتكوا من أن "النبيذ وغداء العمل الدبلوماسى لا يروق لهم أو يعجبهم. وكان المعلم أبو بكر تافاوا باليوا من بين أولئك الذين ينفذون ما يقولون، الأكثر من ذلك، أنه لم يكن يرغب فى هذه الأشياء، حتى بعد أن أصبح هو نفسه مضيِّفًا كبيراً ومرموقًا. من بين المناسبات الاجتماعية التى لم تغب مطلقًا عن ذهن أبى بكر، تلك المناسبة التى التقى بها للمرة الثانية السير روى Roy ولنسكى Welensky، زعيم روديسيا الشمالية الأبيض، كان أبو بكر قد اعتاد أن يقول لبعض الأصدقاء الحيارى، ولضابط الحى الإدارى: أن ولنسكى Welensky، كان هو الأوروبى الوحيد الذكى بالفعل، والذى تكلم معه أبو بكر فى لندن، عن موضوع إفريقيا. ذات يوم الذى كان يدعو نفسه ٥٠٪ بولندى و ٥٠٪ يهودى، ١٠٠٪ بريطانى) كان مفروضًا على ولنسكى أن يزعم أنه خُدع من قبل كل السياسيين الذين تعامل معهم باستثناء إيرل Earlهوم Home. بعض هؤلاء السياسيين قالوا فى المقابل: إن ولنسكى كان من الذين يهددون ويتوعدون، وأنه كان يفتقر إلى الإرادة التى تجعله يقاتل ويصمد إلى النهاية، من أجل ذلك الذى يؤمن به.

كان بنسون كبير الأمناء الذى تركوه وراءهم فى ليجوس، قد خسر الرهان، إذ كان كل عضو فى مكانه عندما بدأت أعمال المؤتمر. كان وزير الخارجية ووزير وزارة المستعمرات مصممين على أن يكون المؤتمر محاولة أمينة لإعطاء النيجيريين، الواقعين فى التيارات المتقاطعة للصراع المتوارث، الفرصة، كى يسوون بعض خلافاتهم فى مياه محايدة: لم يكن الوزيران يريدان فرض اتجاهات ملاحية بعينها، إذ كان فى الإمكان إبعاد المتقاتلين بعيداً عما يعتبره البريطانيون شعاباً مرجانية أو اضطرابات عظيمة. مع اتضاح هذه النية، وجد الزائرون أنفسهم يقدمون مزايا طوعية لمضيفيهم نظير ولاء سابق لا تثور من حوله الشكوك. كان ليتلتون يتطلع إلى الأمام إلى الغوث والنجدة التى ستترتب على عطلة البرلمان الصيفية، ولذلك ألقى الرجل خطاباً قصيراً رحَّب فيه

بالجميع فى الجلسة الافتتاحية ثم جلس فى الخلف ليواجه الصمت المطبق والمحرج. كان الجميع يعرفون بنود جدول الأعمال، لكن أحداً منهم لم تكن لديه فكرة ولو عامة عن مزاح التقديم الذى ينطوى عليه البرتكول، وسلموا كلهم بأن رئيس المؤتمر سوف يقوم بإرشادهم. من المؤكد أن ليتلتون عندما نظر حوله إلى الجمع الصامت الذى لا يتكلم، وما يدور فى ذهنه عن زيارات فيما وراء البحار، تحول بعد ذلك إلى كل من الحاكم، ووكيل وزارة المستعمرات، السيد/ وليام جوريل بارنسى Barnse ثم راح بعد ذلك يتمتم بالتعليق الإنجليزى الذى أكل عليه الزمن وشرب، والذى يطلق دومًا على السياسيين المتخاصمين، "هذان الرفيقان لا يمكن أن يتجاوزا طاولة الولك"(*). ومع ذلك، كان الجميع يعرفون أن العقد قارب على الانتهاء، وأصبح على حد قول الأستاذ الدكتور دبليو. جى. إم. ماكنزى Mackenzie، أن الحكومات البريطانية يتعين عليها أن تدرك أنه لا يمكن أن يكون هناك إنهاء للاستعمار إذا لم يكن ذلك قابلاً للتطبيق.

آل أبو بكر تافاوا باليوا على نفسه أن يكسر الصمت الطويل، مادام أن المستشار السياسى الرئيسى Sardauna كان يعانى من نزلة برد دبلوماسية. لم تكن الخطبة التى ألقاها أبو بكر، مجهزة أو معدة مسبقًا. بدأ أبو بكر بجملتين مختصرتين، من جمل إدموند Edmond بيرك، بدأ الرجل بداية متجهمة كالحة، لكن نغمات الرجل كانت بطيئة وواعية وواثقة على نحو جعل الناس يعجبون بها فى كثير من الاجتماعات الدولية المستقبلية التى تلت ذلك: "يقولون، يا سيدى، إن الدستور لم يجر تفعيله. وأنا أقول، يا سيدى، نحن الذين لم نُفعِّله". كانت الأزمة تتمثل فى الأخطاء المستمرة منذ العام ١٩٤٦ . كان حزب المؤتمر الشعبى الشمالى قد جاء إلى لندن بذهن مفتوح، على حد قول أبى بكر، ومستعد للأخذ والرد. وأشار الرجل (أبو بكر) إلى الفرح والابتهاج الكبير الذى عم سائر أنحاء الشمال احتفالاً بعيد جلوس الملكة، ثم بدأ بعد ذلك يدخل

(*) الولك: حلزون بحرى يؤكل لحمه. (المترجم)

في صلب الموضوع. كانت الخطة (النقاط الثمانية) التي تقدم الشمال بها على أنها حلٌ للطريق المسدود الحالي، والتي كانت تحظى بتأييد السواد الأعظم ومساندته من السبعة عشر مليونًا ونصف المليون نسمة، الذين أوفدوا الوفد إلى لندن ـ لكنهم لا يمكنهم اتخاذ القرارات النهائية هنا في لندن: وأن أي اتفاق يتم التوصل إليه لابد من الرجوع به إلى الوطن لإقراره والموافقة عليه بصفة نهائية. هذا يعني أن مستقبل نيجيريا قد يتهدده الخطر إذا ما قام على مجرد اتحاد فيدرالي سائب، هو الذي يشكل الحل الوحيد الممكن. لابد أن يكون هناك استقلال إقليمي ذاتي، ويتعين السماح للأقاليم بالنمو بمعدلاتها الخاصة بها، دون تدخل في شئون من قبل الأقاليم الأخرى. وهذا هو السبب وراء اقتراح وجود وكالة بسيطة على المستوى المركزي، لكي تقوم على أمر الخدمات المشتركة.

كانت المسألة عبارة عن وضع الأوراق على الطاولة، لكن الورق كان قد أعيد ترتيبه لمزيد من اللُّعب، التي ظن ليتلتون أنه اكتشف في كل منها تعبيرًا فضفاضًا أو سوء نية مبيت ضد بريطانيا، وأنه جرى الاتفاق على هذه الأشياء قبل المجيء إلى لندن. جاء دور السيد/ أولوو **Awolowo** بعد أبي بكر، متأكدًا أن الدور يجيء حسب المتفق عليه. أوضح الرجل أنه صاحب ذهن منفتح على نحو أكبر من ذهن الشمالي، وزعم أولوو أنه على الرغم من المقالات النارية التي قرأها الجميع في الصحافة، فإن الأمر يحتاج إلى نقاش هادئ وأن مسألة إلقاء الناس للحجارة على بعضهم البعض يجب أن تتوقف، وأوضح أيضًا أن "النقاط الثمانية" مؤذية وضارة بعملية الوحدة. في حين ردد الدكتور أزكوي بعض العبارات التالية عن حسن النية والطوية، والوئام والمساواة، وقال: إنه يؤيد الاتحاد الفيدرالي، إذا لم يسيطر عليه إقليم من الأقاليم. قدم بعض الزعماء الآخرين مداخلات تمهيدية قبل أن يتحول الاجتماع إلى جلسة خاصة، وجرت بعض المناقشات وراء الكواليس على امتداد الأسابيع الثلاثة ونصف الأسبوع التي تلت ذلك. أدت مسألة إصدار ممثلي حزب المؤتمر الشعبي الشمالي على تعليق الموافقة النهائية

على موافقة أهليهم فى الوطن، إلى إحداث قلق كبير بين السواد الأعظم من الممثلين والمندوبين الآخرين، الذين كانوا يطمعون فى اتخاذ إجراءات فورية وحالية أيضًا، ومعروف أن الرجوع إلى الشعب يعد أول الخسائر التى تترتب على الديمقراطية المؤسسية. تكلم أمين كانو بوقاحة غير محسوبة عن مسألة الشاة التى تنافس الذئاب، واتهم وزارة المستعمرات بالتقاعس فى الإجراءات الانتخابية، ورفض التفكير فى جعل نيجيريا مجرد اتحاد جمركى، فى حين دافع السيد/ إيو Eyo إيتا Ita، ممثل حزب الاستقلال الوطنى، عن مسألة أن الجميع يجب أن يفكروا من منطلق كونهم نيجيريين، وأيد أمين كانو وجود "نيجيريا واحدة" مقسمة إلى ولايات كثيرة (بل إنه اعتباراً من ذلك التاريخ أصبح مؤيداً شديداً لولاية كلبار – أوجوجا Calabar - Ogoja بصفة خاصة)، لكنه لم يتفق معه بعد ذلك إلا فى أمور جد قليلة تماماً. كان باقى المتحدثين يرغبون فى الحصول على الاستقلال الذاتى بصورة أو بأخرى. كان الطبيب إنديلى Endeley، ذلك الضابط الطبيب الذى تلقى تدريبه فى يابا، والذى كان يتزعم الحزب الذى يسمونه بالألمانية "Inchoate Kamerun National Congress" (أى أن حزب المؤتمر الوطنى النيجيرى الذى أوردت هجاءه بالألمانية للتأكيد على أن السيادة البريطانية لم تكن مبسوطة على مناطق الانتداب) قد أوضح أن المملكة المتحدة، وليس نيجيريا، هى التى تضع الكاميرون تحت وصايتها، وأن من وجهة نظره هو فإن مفاوضاته ستكون ثنائية مع السيد/ ليتلتون وحده. وهنا انسحبت الصحافة من الجلسة.

كان هناك تناقضان ساخران – التناقض الصريح بين الأغلبية الشمالية التى أحست بالرغبة فى الوثوق بإرادة الملايين غير المنظمة، والأحزاب الأخرى التى أطلقت عليهم اسم ربائب إمبرياليين لكنهم كانوا قلقين ويودون العمل بطريقتهم غير الملزمة متعللين فى ذلك باسم الديمقراطية: أما التناقض الثانى فكان على الخلفية التى بين المسئولين البريطانيين الذين كانوا يؤكدون دومًا على أهمية المزايا الإدارية والاقتصادية، التى تترتب على الوحدة المتماسكة إلى أبعد الحدود، وبين أحزاب الأغلبية

للمُستعْمرين، الذين كانوا يخططون للانقسام، الأمر الذى يمكن أن يطيل من فترة الحكم الاستعمارى. وجرى تبرئة ماكفرسن، وبدت جماهير كل من ليجوس وكانو وكأنهما قد أصابهما المرض. فى العام ١٩٥٣، لم يخطر ببال أى أحد أن الانفصال الإدارى المؤقت للشمال، إذا ما جرى تأييده من قبل دافعى الضرائب البريطانيين، يمكن أن يجعل الشمال يحلق بالركب الاقتصادى والتعليمى، الأمر الذى يمكن أن يفضى بعد ذلك إلى إعادة الوحدة فى إطار فيدرالى متوازن: لم يخطر ولم يسبق للخزانة البريطانية مطلقًا أن قامت بتنمية فى ظل مثل هذه الظروف، يزاد على ذلك أن مسئوليات بناء الأمة كان الناس لا يزالون ينظرون إليها باعتبارها تساعد على التطور الطبيعى ولا تساعد على الإبداع الجديد.

فيما يتعلق بأوليفر Oliver ليتلتون، فقد أبلغ المؤتمر أنه لن يتصنَّع فى كلامه. قال: إن الأسمنت الوحيد الذى يربط البنية النيجيرية السائبة هم البريطانيون، ويجب أن يعرف الجميع ذلك ويدركوه - بريطانيا، لم تجن سوى القليل، إن لم يكن شيئًا على الإطلاق، من المكاسب المادية من هذا البلد، بل إن بريطانيا قدمت منحة (ركز على هذه الكلمة) مقدارها ٢٣ مليون جنيه إنجليزى للتنمية. ما الذى عقد من أجله المؤتمر الحالى؟ لقد عقده البريطانيون، حتى يتمكنوا من المحافظة على مختلف عناصر نيجيريا - مع بعضها البعض - هذه العناصر المتباينة إذا ما تركت لوحدها سوف تتداعى خلال أشهر قلائل. لقد أراد ليتلتون أن يكون صريحًا وقاسيًا، ولم يكن يقصد أن ينتوى أن يتقبل الحاضرون هذا الكلام قبولاً حسنًا. وطبقًا لما كتبه فى مذكراته، وجاء معاكسًا لهذا الكلام، نجد أنه نجح فى توصيل ذلك الذى كان يود توصيله للمؤتمرين. كان ليتلتون بمثابة الخطأ الجسيم الذى فى دستور "إيبادان"، والذى يتمثل فى تعيين الوزراء المركزيين من قبل الأقاليم، الأمر الذى جعل منهم مجرد مندوبين حقيقيين بدلاً من أن يكونوا شخصيات وطنية. كان ليتلتون يتطلع إلى أن تسفر الانتخابات المباشرة الخاصة بالمركز، عن سياسات وقرارات نيجيرية حقيقية، بدلاً من الحلول الوسط التى يجرى التوصل إليها بين المندوبين الذين قد يكونون أو قد يبدون مجرد صنائع.

كانت مسألة "المقابلات الصحفية" وبخاصة مع الشماليين خبرة جديدة وبخاصة في الجلسات والمقابلات المرتبة، كان حاكم بطا Bida إبراهيم إمام، ومحمد رباط، والقس داوود أوباديا Obadiah فرنكات Vrenkat لوت Lot من هضبة الحزام الأوسط، كانوا جميعًا قد أوضحوا للعالم الأسباب التي تدعوهم إلى معارضة الحكم الذاتي. في حين رأى المعلم أبو بكر أنه كان أقل استعدادًا لتعريض نفسه لمثل هذه المقابلات أو المخبرين الصحافيين.

في إحدى المرات، وعندما كان المستشار السياسي الرئيسي يبحث عنه، عُثر عليه جالسًا على كرسي عمودي في غرفة نومه في الفندق، يقرأ في إحدى ترجمات أفلاطون. كان المستشار السياسي الرئيسي Sardauna، الذي جرى الاعتراف به مؤخرًا "وزيرًا قائدًا" للشمال - بناء على تصريح خاص - لا يزال بعيدًا عن الارتياح في إطار بيئات كان الكثير من أفرادها لا يعترفون أو يقرون سلطة "الوزير القائد" الكبيرة. بقي أبو بكر صامتًا طوال أيام كثيرة: بسبب عدم اهتمامه أو تحمسه للنقاط الثمانية المقدمة من جانب البريطانيين اللندنيين، يزاد على ذلك أن مزاجه الحاد جعله غير مرن في القيام بالمخاطرة عن طريق المشاركة في المناظرات العلنية الخارجة عن نطاق سلطته. بدأ بعض المتشككين المنفرجين الذين أصابتهم الدهشة يظنون أن أبا بكر يحاول الاقتراب من آولوو الذي يمكن إقناعه عمليًا بالحد من تطلعه وحنينه الجنوبي إلى انفصال الشمال وتقسيمه إلى قطاعات تُضَمُّ إلى اتحاد كل من أيلورين، وكبًّا اللتان تدخلان ضمن الغرب.

ونحن عندما نورد هنا بعض التفاصيل القليلة عن أعمال المؤتمر، قد نساعد على تفهم مدى ضآلة التدخل البريطاني في توجيه المسير في اتجاه نهاية سابقة التجهيز والإعداد (الواقع أن ليتلتون كان يبدو خدًّاما للاستعمار وكأنه غير موجود، مما كان يمنعه من تقديم أقل القليل من التوجيه والإرشاد)، وقد تساعد مثل هذه التفاصيل

أيضًا فى توضيح مدى انقسام النيجيريين وتشرذمهم. حدث ذات مرة، وفى جلسة من الجلسات الخاصة أن قام آولوو بتوزيع محاضرة سابقة الإعداد عن الفيدرالية، وكان آولوو قد أخذ تلك المحاضرة من كتاب كينث Kenneth هوير Wheare الشهير، وكانت تلك المحاضرة تتعلق بالتغيير الدستورى. وعندما كان آولوو يستشهد بالمسيرة الشهيرة إلى البحر والتى توقفت، أوضح الرجل أن "الفرسان (الخيالة) القادمين من الصحراء لن يصيبوا نجاحًا كبيرًا فى غابات الجنوب" يزاد على ذلك أن البريطانيين هم الذين أوجدوا هذه الأمة، وأنهم هم الذين يودون تقويضها فى الوقت الراهن، زد على ذلك أن البريطانيين الذين كانوا فى مجلس الوزراء كانوا يثيرون الشكوك عن طريق استغلال نفوذهم لدى الشماليين فى تهديد الجنوب. وهنا يتحتم على المركز أن يكون مسئولاً عن أمور محددة، فى حين تنفرد الأقاليم بالأمور المتبقية بعد ذلك، ويتعين أن تكون هذه الأقاليم مستقلة عن بعضها البعض. ويتعين أيضًا سحب الوزراء السابقين، ولابد من وجود مجلس أعلى مركزى حتى يقوم بمواجهة الأغلبية الشمالية. كانت نغمات الرجل لطيفة، وسبب ذلك أن حزب المؤتمر الشعبى الشمالى كان يتشكك فى أن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى سوف يتحالف مع حزب جماعة العمل، الأمر الذى حدا بآولوو أن يشير إليهما بعبارة "المحور"، وقام محمد رباط Ribadu بسحب خطبة شرسة كان قد سبق له إعدادها، هذا يعنى أن الشماليين كانوا يبدون عنيدين، لكنهم كانوا يخشون الهزيمة فى الحرب الكلامية مع محاميى الجنوب الماهرين. تعلم الشماليون أيضًا من حوارات الأروقة أن أصحاب المناصب السابقة أمثال زميل الأمين العام، والأمين المالى، كانت لهما أفكارهما الخاصة عن الشئون النيجيرية، هذه الأفكار اضطر حزب المؤتمر الشعبى الشمالى إلى الاعتراف بها وأن وزارة المستعمرات لم يكن بوسعها السيطرة عليها أو التحكم فيها.

فى اليوم التالى قام أبو بكر تافاوا باليوا بإلقاء بيان متحفظ لكنه مكرر وحازم، وقد أدت طريقة إلقاء أبى بكر ذلك البيان المعاد الحازم إلى التأثير فى ليتلتون. كان إى

E أو أيو Eyo ممثل حـزب المجلس الوطنى النيـجـيرى الكاميرونى مـعـتـدلاً، واتفـقت سكرتارية الحكومة البريطانية – مندهشة – على أن ما يدور فى الجلسة المغلقة كان أرقى بكثير من وقائع مؤتمر غربى الهند الذى سبق لهم تغطيته. وأوضح وزير الخارجية من جديد للجنة التوجيه أنه على الرغم من أنه كان لا يود استخدام عصا غليظة فإن هناك بعض الأشياء التى لن يسمح بتمريرها، كان الرجل على سبيل المثال، لا يود اللجوء إلى نظرية "فرق تسد"، فى الوقت الذى كان واضحاً ومؤكداً فيه أن البريطانيين هم الذين يتحكمون فى تماسك البلد بكامله. بعد ذلك بأيام قلائل تغلب الرجل على مسئوليه وراح يستعمل عصاه، أدّى ذلك الجو المتوتر إلى شىء من الاسترخاء، كما أدى أيضاً إلى شىء من التقدم. كان وزير الخارجية قد تحول فى هدوء إلى ماكفرسن وقال له :"أيها الفارس، سأجزئ البلد، وتعود أنت إليه لتتولى الحكم ـ وسيحدث ذلك بواسطة القوات إذا ما تطلب الأمر ذلك". ورد عليه ماكفرسن، "سيكون ذلك أمراً طريفاً تماماً ـ طوال مدة تقدر بحوالى ستة أشهر. وعليه سوف يتعين علىّ الاتصال بشخص ما فى بعض الأحيان. عليك بالصبر، وسوف ترى ما سيحدث". وزاد التوتر عندما أغضب أولوو ليتلتون عندما علق قائلاً: إن ذلك قد يبدو تجرؤا عندما يقال شىء من هذا القبيل فى قلب الإمبراطورية، لكن إذا لم يعودوا إلى نيجيريا بقرارات "مؤصلة" Solid، فإن حزب جماعة العمل قد يستطيع هو وحده القيام بالعمل الذى كانوا يخططون له إلى أن جرى إيقافهم بفعل قرار انعقاد المؤتمر. وعندما خلص أولوو إلى أن ذلك حدث نتيجة لعدم الحصول على الإرشاد والتوجيه الحاسمين، أصر ليتلتون على أن المناقشات والحوارات يجب أن تتفق كلها على شكل السلطة المركزية، وذلك على الرغم من إصرار لجنة التوجيه على تقسيم القوائم التشريعية قبل النظر فى القوائم التنفيذية.

ورفض ليتلتون طلبات حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى التى مفادها أن الأمر ينبغى أن يحال مرة أخرى إلى لجنة التوجيه. بناء عليه وافق الدكتور آزكوى على

المحافظة على شروط الخدمة العامة القائمة وعلى مبدأ مشروعات تعويض المسئولين الذى أُضيروا بسبب التقدم الدستورى.

استعمل ليتلتون العصا أيضًا مع حزب المؤتمر الشعبى الشمالى. فقد وجَّه الرجل ممثلى الحزب ألا يعودوا بقرارات المؤتمر إلى نيجيريا فى شكل توصيات لكى يوافق الناس عليها، ووجه أيضًا بأنهم لابد من أن يأخذوا قرارهم هنا فى بريطانيا، وأنهم إذا ما عادوا وفشلوا فى إقناع دوائرهم الانتخابية، فإنهم سوف يتعين عليهم، مثل الديمقراطيين الأجواد تقديم استقالاتهم. وأكد ليتلتون أيضًا لمندوبى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى أن أية وكالة من وكالات الخدمات العامة ينبغى أن تستمد سلطتها من نوع من المجالس التشريعية المركزية، وليس من نوع من المجالس الوندسورية Windsor الثابتة التى لا تتغير. وهنا قام أمير كاتسنا بحفظ ماء وجوه السياسيين عندما قبل وسلم بهاتين الجدليتين، لكن الأمير أوضح أن توقيت ذلك التوجيه جاء لصالح أولوو Awo، فى الوقت الذى يعد فيه منصب مساعد زميل الأمين العام أمرًا ضروريًا فى مواجهة إنديلى Endeley، راح ناجوجو أيضًا يقترح أن الشمال قد يطالب بتمثيل بقدر حوالى ٦٠٪ باعتبار ذلك نوعًا من المساومة، على الرغم من استعداده الضمنى إلى تخفيض ذلك التمثيل مرة أخرى إلى ٥٠٪ فقط. كان هناك مندوبون آخرون يلعبون ألعابًا مماثلة، كما قام أيضًا صديق الدكتور آزكوى، قطب النقل الشرقى، المدعو لويس Louis أوجوكو، بإبلاغ أحد المسئولين أن وزير الخارجية يتعين عليه أن يعرف أن مطالب الأقاليم الخاصة بالسيطرة على الخدمات الجوية، والخدمات الخاصة بإبعاد المغتربين ونقلهم من الكبائن، أو خدمات أعضاء المجلس التشريعى للمصالح الخاصة كانت كلها مزايدات هم يعرفون أنها لا يمكن الوفاء بها. وفى الوقت الذى كان الحاكم مشغولاً فيه بالحرج السياسى والأمور التى سيجرى إفسادها عليه، إذا ما قام المدعى العام (الذى بقى فى ليجوس من بنسون) بممارسة تحفظه القضائى لصالح محاكمة السيد/ إيناهورو عن بعض التهم المنسوبة إليه، فى

ذلك الوقت قام السيد/ فينر Fenner بروكوى Brockway بتقديم عرض صريح باقتسام المعسكر الجنوبى عن طريق إقراض السيد/ أولوو منصب الأمين Secretary، وبخاصة أن آولوو كان قد سبق للسلطات اللندنية أن قالت عنه إنه "شيوعى". وقد أدى ذلك إلى إثارة الذعر بين أنصار معسكر إعادة التسلح الخلقى فى التوجه الشرقى.

لم تحظ المناقشة الفعلية لتقسيم السلطة بالعون أو المساعدة من قبل إصرار نجوكو Njoko، ممثل حزب الاستقلال الوطنى على أن السلطات المركزية يجب ألا تكون مقصورة على قائمة محددة أو ثابتة، وترك بقية السلطات للأقاليم بلا تحديد، يزاد على ذلك أن سخرية حزب الاستقلال الوطنى المخزية من تردد آولوو وعدم موافقته على بقاء النظام المصرفى وحركة البنوك على المستوى المركزى، لم تشجع أيضًا المناقشات الفعلية لتقسيم السلطة، زد على ذلك أن ليتلتون تضايق أيضًا من كل من إمبادوى Mbadwie وإبراهيم إمام بفعل تصرفاتهما الساخرة كما لو كانا يتحدثان أمام برلمان شعبى، إذ كانا يقولان وبصوت عالٍ "أتسمعون ما يجرى! أتسمعون ما يجرى!"، وكانا يميلان على بعضهما فى مناجاة جانبية بصوت مسموع. كان المحور يُؤْثِر عدم الإتيان على ذكر مستقبل ليجوس، لكن كلاً من حزب الاستقلال الوطنى وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى أصرا على الحديث عن هذا الموضوع وفتح الكلام فيه، ورد المحور على هذا الإصرار بالمطالبة بنسبة تتراوح بين ٣٠:٤٠٪ من التمثيل المركزى للأقاليم، وأصر أيضًا على الحصول على اثنى عشر حقيبة فى كل حكومة من الحكومات الأربعة، لكن المحور وافق، فى ذلك الوقت أيضًا على استمرار الانتخابات غير المباشرة من خلال المجالس الإقليمية.

بعد ذلك بيومين أسفرت المناقشات الجانبية وجدل الأروقة عن شىء من التقدم، فقد قام شيف Chief آرثر Arthur برست Prest بالمناورة عن طريق حزب المؤتمر الشعبى الشمالى بالتحدث عن المركز مرة ثانية مع كل من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى وحزب جماعة العمل. وأمام احتمال تخلى حزب المجس الوطنى

النيجيرى الكاميرونى عن المحور، قام آولوو (هو وأكنتولا مستشاره القانونى) بسحب الاعتراضات التى قدمها عن السكة الحديد، والموانئ، والطيران المدنى، والبنوك، والملاحة وعن حتمية أن تكون هذه الأنشطة كلها حكراً على المركز، أو بالأحرى أن تكون هذه الأمور مقصورة على الحكومة المركزية وحدها، ومن باب حفظ ماء وجه الرجل نتيجة تراجعه شخصياً، قام الدكتور آزكوى بالحديث بطريقته التوفيقية ونغمته التصالحية، نيابة عن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، وحزب جماعة العمل، وحزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى، وعن قبول هذه الأحزاب للقائمة المقدَّمة. وهنا قام أبو بكر تافاوا باليوا بسحب اعتراض الشمال على مركزية الخدمات البريدية. وهنا قام آولوو بطريقة غير عملية بتقديم طلب مضاد مفاده أن التليفونات والتلغراف يجب التعامل مع كل منهما على حدة، مطالباً أيضاً بجعل الخطوط التى تربط الأقاليم ببعضها تابعة للمركز، أو بالأحرى خطوطاً مركزية، أما الخطوط الأدنى من ذلك هى والخطوط الداخلية فتكون خطوطاً إقليمية؛ لم يوافق آرثر برست أبا بكر فيما ذهب إليه، لكن على العكس مما هو مألوف فى حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، كان زعيم الحزب هو الشخص الوحيد المسموح له بالكلام عن حزب جماعة العمل. أما موضوع الكهرباء فقد كان محفوفاً بالكثير من الحساسيات نظراً لأن حزب جماعة العمل كان مستاءً من إدارة مؤسسة إدارة الكهرباء النيجيرية لأولوياتها . أثارت مسألة الإذاعة شيئاً من التبرم والاستياء الرسمى، عندما جرى الاتفاق بصورة مؤقتة على أن تحديد المواعيد وأطوال الموجات الإذاعية يجب أن تكون شئون مركزية، يضاف إلى ذلك أن وزير الخارجية لم يتأثر بالقلق البيروقراطى الذى مفاده أن الحكومات الإقليمية ذات الحزب الواحد قد تسيطر على الإذاعات السياسية، أو أن المحطات الإذاعية الاستعمارية كانت لا تزال تدافع عن المشاريع الدفاعية الإمبريالية الفكرية. يزاد على ذلك أن ظهور ليتلتون بمظهر المستعد للاستماع والإصغاء إلى غطرسة آولوو وحيد الهدف، وهو يعنف الآخرين، بدأ يقنع بعض ممثلى حزب الاستقلال الوطنى وحزب

المؤتمر الشعبى الشمالى أن الطريقة الوحيدة لهزيمة البريطانيين بصورة دائمة، تتمثل فى المحافظة على السماحة والعناد بصورة دائمة. لكن وزير الخارجية فى ذلك الوقت كان على وعى ومدركًا أن المحور لا يحيا بالوئام والألفة والوحدة وإنما بالمذكرات التى كان الدكتور آزكوى يكتبها بيديه إلى آولوو، وكان وزير الخارجية مدركًا أيضًا أنه فى الوقت الذى كان آوو Awo يعد فيه أسرع المفكرين، كان هناك أشخاص آخرون يؤثرون التفكير المتروى قبل إلزام أنفسهم بأى أمر من الأمور تحسبًا لتغيير مواقفهم وراء الكواليس.

فى اليوم العاشر غدت قوالب العلاقات بين الوفود أمورًا باهتة وغير واضحة تمامًا. هذا هو حزب الاستقلال الوطنى وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى قد أصبحا متقاربين، وهنا قدم أبو بكر تافاوا باليوا ورقة شبيهه بأفكار نجوكو وأركبو Arikpo. وهذا هو المستشار السياسى الرئيسى Sardauna يوافق ويقبل بصورة واضحة تمامًا مسألة وجود حكومة فيدرالية، يضاف إلى ذلك أن إغلاق ليتلتون لباب التراجع طمأن الجنوبيين، فى حين كشف المحور عن المزيد من دلائل الانقسام، كما كشف عن ترك آولوو وحيدًا، شأنه شأن بود Bod eتوماس Thomas، بلا صديق أو معين. كانت هناك بعض التكهنات العجيبة حول مسألة ما إذا كان الدكتور آزكوى قد تخلى عن الجنوب، أو أنه كان يلعب فى الخفاء دورًا شبيهًا بالدور الذى يلعبه أوو Awo، وأن ذلك ربما كان ناتجًا عن تعصب الرجل بسبب أعمال التشهير التى قام بها الحزب ضد صحافة الدكتور آزكوى. والمؤكد أن الدكتور آزكوى كان يحاول إقناع أمين كانو بأن يقبل أن يكون المتحدث الرسمى بالنقاط المعادية لحزب جماعة العمل والتى ينبغى الدخول فيها وإعلانها.

فى الوقت الذى ثبت فيه أن ذلك ربما يكون منتصف المؤتمر، وذلك على الرغم من أن أحدًا لم يكن يعرف المدة التى قد يشغلها ذلك المؤتمر، وجد السير ماكفرسن نفسه فى ضبابية كاملة، لم يستطع فيها تمييز اتجاهات المحادثات. واستطاع المعلم أبو بكر

تفهم الجدل الذى أثاره ليتلتون حول مسألة الهيئة التشريعية، لكن الرجل من داخله كان يقصد الأمين العام للإدارة. كان أبو بكر هو والمستشار السياسى الرئيسى Sardauna عنيدين ومصرين وملحّين أيضًا على مسألة ليجوس، لأنهما لم يكونا مستعدين لمواجهة استئصال أى جزء من الأجزاء السكنية فى منطقة العاصمة لكى ينضم هذا الجزء إلى الغرب، لكن الرجلين كانا مكتئبين بفعل سيطرة أولوو وهيمنته الواضحة من ناحية على المؤتمر وعلى الدرس الظاهرى الذى مفاده أن "الوقاحة تفيد فى بعض الأحيان" من ناحية أخرى. كانت هناك باستمرار مشاورات طويلة تدور داخل أروقة الحزب حول مسألة الحل المبكر لمجلس المندوبين أو الممثلين وطبيعته. كان آوو Awo يسعى إلى تأييد المستشار السياسى الرئيسى له فى ذلك الاتجاه لكنه لقى صداً من هذا الرجل. كان المستشار السياسى هو وأبو بكر تافاوا باليوا قد أبلغا الدكتور آزكوى أن سياسة المحور فيما يتعلق بالمخصصات المالية، والتى يجب أن تكون قائمة على أساس من مبدأ المنشأ، يمكن أن تنزل الخطر بإقليمه الشرقى، ومع ذلك لزم الرجل الصمت حول هذا الموضوع. وأثناء النقاش، وقبل أن يرفع الرجل يده مؤيداً حل المقترحات المقدمة من كل من حزب المؤتمر الشعبى الإفريقى / وحزب الاستقلال الوطنى أو تأييدها أصر الرجل على أن يكون ذلك فى ظل موافقة رشيدة، وقوانين انتخابية موحدة، ولجنة انتخابية تضمن مسألة اللعب النظيف، وإعادة ترسيم حدود الأقاليم على نحو لا يمكن الأقاليم من السيطرة على بعضها البعض. وافق آوو من حيث المبدأ، لكنه قال: إنه لم يكن هنالك داع للحل العام، وقال أيضًا إنه فى حال حل المجلس المركزى، فإنه سوف يطالب بالحكم الذاتى العاجل، وإلا فسوف يعمل على تعطيل الدستور.

تساءل ليتلتون، الذى كان شديد الحساسية للتهديدات، إن كان ما سمعه صحيحًا: وهل كان آولوو يعنى "العمل الإيجابى فعلاً"؟ ورد آولوو على هذا التساؤل قائلاً: إنه لم يكن يقترح حركة "ماوماو" نيجيرية، وإنما يعنى استعمال كل الوسائل المتيسرة له. وهل كان ذلك يعنى الوسائل الدستورية أو القوة؟ ورد عليه آولوو قائلاً:

"الوسائل الدستورية"، لكن الناس سمعوا أولوو وهو يقول همسًا "المقاطعة وعدم التعاون"، وتكلم كل من أركبو ويودوما Udoma، المندوبان المناويان عن حزب الاستقلال الوطني، كلاما أكثر رزانة ووقارًا، الأمر الذى جعل أبا بكر يقول متشككًا: إن الأحزاب جاءت إلى لندن للكشف عن العيوب والنقائص فى إطار دستور قائم تجرى مناقشته بحرية كاملة، لكنها (الأحزاب) تصنع الآن دستورًا جديدًا، وإذا لم يكن هناك حل للدستور، فإن هؤلاء الناس أنفسهم الذين فشلوا فى إعمال الدستور القديم وتفعيله لابد أن يكونوا على استعداد لوضع دستور جديد. ومن الواضح أنهم يتعين عليهم إعادة تقديم أنفسهم لدوائرهم الانتخابية - وهنا أدرك حزب المؤتمر الشعبى الشمالى أن ذلك قد يستغرق وقتًا طويلاً، وآثر تشكيل مجلس وزراء انتقالى يضم بعض العناصر المستبعدة فى الوقت الراهن، وأن هذه العناصر قد تشتمل على أعضاء معينين بل وبعض المسئولين أيضًا. قد يكون ذلك قد ساعد أووفى كارثته ومصيبته، لكن هـ. أو. دافيز Daviesكان يقول: إن أوو لم يكن لديه النية فى إعمال الدستور الحالى أو تفعيله، سواء جرى تعديله أو استبداله بدستور آخر، لكن الرجل لن يحصل على التأييد الشعبى للعصيان المدنى - "أنا نفسى من اليوروبا، وكم من اليوروبا ماتوا فى كانو Kano".

كان المستشار السياسى الرئيسى لا يزال يلوذ بالصمت أثناء المؤتمر الفعلى، تاركًا النقاش والجدل كله لأبى بكر، مع شىء من التدخل من جانب محمد رباط وإبراهيم إمام، ومع ذلك سارع أولوو إلى التخلص من سكرتيره "الشيوعى"، وحظى أمين كانو بمصافحة حارة من إبراهيم إمام لاعتذاره عن الأحداث التى وقعت فى مطار كانو. وعليه أسفر الإرهاق المتزايد عن بروز اتفاق مؤقت غامض مفاده أن "السلطات المتبقية" (أى تلك السلطات التى لا تدخل فى نطاق قائمة السلطات المحددة للحكومة المركزية) يجب إحالتها إلى الأقاليم، وأن "القائمة المتزامنة" التى تستطيع الحكومات كلها استخدامها فى تشريعها يجب تقليلها إلى أبعد حد ممكن (وأنها يجب أن تشتمل على التعليم العالى والتنمية الصناعية)، وأن المركز يجب أن يقتصر على

الدفاع والشئون الخارجية (التى يجب أن يتولاها كل من الحاكم وأمين عام الحكومة، ومع مثل هذا الحال يصبحان وكلاء مباشرين لصاحبة الجلالة)، والتجارة الخارجية، والطيران المدنى، والبنوك، والعملة، والاتصالات، والسكك الحديدية، والموانئ، والكهرباء، والمؤسسات الإذاعية.

كان حزب المؤتمر الشعبى الشمالى فى نهاية الأسبوع الثانى من المؤتمر لا يزال من الناحية المزاجيه ميالاً إلى الارتداد إلى المطالبة بأمين عام للإدارة، فى حين كان آولوو داخل "المحور" يتطلع إلى الحصول على قرار بشأن النقاط الأربعة التى أوردها الدكتور آزكوى - والخاصة بكيفية تجنب سيطرة الشمال وهيمنته، والتصويت العام الراشد، وإلغاء المجمعات الانتخابية، ولجنة إقليمية لمراجعة ترسيم الحدود. اقتراح ملك (رئيس) Ooni الإيف Ife التأجيل لبعض الوقت طلبًا للتشاور والأخذ والرد، وكان الشماليون، لا يزالون يحسون أن ليتلتون لم يكن فى جانبهم، وكانوا أيضًا متخوفين من انتهاء الشمال إلى التقسيم أو الضعف، الأمر الذى جعلهم يوافقون فجأة وفى موجة من الفزع والرعب على المقترحات المقدمة من المحور، والتى تنطوى على سلطة تشريعية مركزية أكبر وأوسع، كما كانت تنطوى أيضًا على استبعاد الوزراء الذين كانوا من أصحاب المناصب السابقة، واستبعاد مساعدى الحاكم الإقليميين من المجلس، والإبقاء على الطريقة الحالية المعمول بها فى تعيين الوزراء المركزيين. وقد نصحهم المسئولون الشماليون المغتربون أن ذلك يعنى الحاجة إلى ثلاثين مشرعًا آخرين لكى ينجزوا ذلك الذى يُقال إنه يعادل ربعًا واحداً من العمل الحالى، ويعنى أيضًا مجلسًا يمكن أن يظل مشغولاً بفعل نزوة الحزب الإقليمى، لكن هذا التحذير ذهب أدراج الرياح. ووافق ليتلتون على الصفقة باعتبارها خطوة إلى الأمام، لكن الرجل كانت له التحفظات الخفية، ومع ذلك كان من بين أهداف ليتلتون الرئيسية فى المفاوضات، ألا يعيد مطلقًا تلخيص أية حجة من الحجج بعد التوصل إليها، وأن يعمل على دفع الأمور إلى الأمام وليس التراجع إلى الخلف.

كان أوو Awo قد وافق على انفراد على أنه سيحاول الحصول على متسع للوزيرين اللذين يدور من حولهما الخلاف وهما: توماس وآكنتولا، على أن يكون ذلك المتسع فى المجلس التنفيذى الغربى. لكن الرجل أنكر ذلك فى قاعة المؤتمر العام. وكرر أبو بكر أن عودة هذين الوزيرين لن تفيد: وأن ذلك لا يرجع لأسباب شخصية، وإنما مرده إلى أن هذين الاثنين سبق أن قالا إنهما لا يمكن لهما أن يعملا مع الشماليين، فضلاً عن أنهما قالا كلامًا كاذبًا عن وقائع المجلس وأعماله ـ وأوضح أبو بكر للحاكم، أن هذين الاثنين إن عادا إلى المجلس فإن الشماليين سوف يقدمون استقالاتهم، على الرغم من عدم اعتراضهما على الملك (الرئيسى) Ooni أو برست Prest. وعندما أدركوا أنهم بعد التوقيع على صفقة الحل الوسط، قد خُدعوا، بدأ مندوبو كل من حزب المؤتمر الشعبى الشمالى (وحزب الاستقلال الوطنى) يتحدثون وهم متجهمون عن السفر فى الحال عائدين إلى الوطن بطريق الجو، لكنهم بعد أن ألقوا باللائمة على البريطانيين قرروا فى نهاية المطاف الاستفادة من الأمور المتيسرة على أفضل نحو ممكن. وراحوا يحذرون ويتخفزون للاقتراح الجديد المقدم من المحور والذى مفاده أن الخلافات بين المجلسين الأعلى والأدنى ينبغى تسويتها فى اجتماع مشترك، يمكن أن يسفر عن بقائهم ضمن المعارضة الأساسية.

وافق ليتلتون عند هذه المرحلة على أن يكسب الدكتور إنديلى Endeley نقطته. وبذلك استطاع زعيم حزب المؤتمر الوطنى الكاميرونى، العودة إلى الوطن، ومعه فى حقيبة ورقيه، بعضٌ من الزجاج المكسور وبعضٌ من الأحجار التى رمته بها دهماء كانو، والتى سبق أن حملها معه إلى لندن لكى يُريها لليتلتون المرتبك ("ولم أجد طوال حياتى العبارة المناسبة التى يمكن أن تناسب مثل هذا الموقف")، يزاد على ذلك أن وزير الخارجية وافق على أنه إذا كان الكاميرونيون الجنوبيون يودون الانفصال الكامل عن كل من الأجبو Igbo والإينوجو Enugu، فإن بوسعهم أن يحصلوا على ما يريدون، حتى وإن أدى ذلك فى يوم من الأيام إلى اتحاد مع أبناء أعمامهم الفرنسيين. وهنا أصبح

واضحًا للرجل الإنجليزى أن الإجباويين كانوا مجدين، ومستبشرين، واجتماعيين ونزاعين للعيش مع الآخرين من أبناء جنسهم، وجدليين، ومياليين إلى التجارة والولاءات الأسرية (وهذه كلها صفات طيبة فى نظر ليتلتون)، كما استطاع الرجل التوصل عن طريق الحدس إلى السبب الذى أدى إلى إساءة تفسير هذه السمات والشمائل والفضائل عندما انتقلت إلى الخارج، بواسطة الكاميرونيين، وكذلك الشماليين التى قالوا عنها: إنها نوع من الغرور، والاندفاع، ومحاباة الأقارب، وانعدام الثقة، والخيانة. لاحظ ليتلتون أيضًا أن أبا Abba حبيب وهو من دكوا Dikwa فى شمال الكاميرون، هو وخلفاؤه، الذين لم تكن لهم روابط أو علاقات بميناء فيكتوريا فى جنوبى الكاميرون، أو مع مركز الرئاسة الفرنسى فى بلدة ياوندى، كانوا يودون البقاء مع الشمال تحت أى ظرف من الظروف، وأن الدكتور إنديلى لم يكن معترضًا على الصينيين فيما وراء البحار، وبخاصة هؤلاء منهم الذين استقروا فى جنوبى شرقى آسيا، وبيَّن وضع اليهود فى أوروبا فى فترة إصلاح ما بعد الحرب - كانوا مجدين فى عملهم وناجحين فى تجارتهم. وعليه وافق أبو حبيب على أنه من جانب الشمال لم تكن هناك أية هيئة من هيئات التنمية الاستعمارية بين الكامرونيين الشماليين إذا ما أصبحوا جزءًا من الإقليم الشمالى.

هنا بدأ المسئولون الحديث بصورة جادة عن حاجتهم إلى طائرة مستأجرة تقلهم إلى الوطن على أن يكون خط سيرها مارًا بكانو Kano (أو تعيد تموينها بالوقود فى ميدوجورى)، وذلك تحاشيًا لمزيد من المظاهرات. وبدأت أعراض الحنين إلى الوطن والتعب من الكلام تظهر على الجميع. وأبلغ لويس أوجوكو Ojukwu المحور بطريقة فظة ووقحة أنه هو الرجل الوحيد الذى يصلح وزيرًا للمالية، وأنه سوف يرفض هذا العمل إذا ما عُرض عليه. ولم تكن بداية "الانسحابات" غير البناءة مفاجأة للحاضرين، نظرًا لأن مسألة الانسحاب هذه هى الطابع المميز للفشل فى عملية الإقناع فى ظل وجود المفاوضات السياسية غير الناضجة (والأوفق فى مثل هذه الظروف هو الانسحاب تحت

مسمى الاحتجاج على الأغلبية سابقة التجهيز فى ظل وجود نوع من السيطرة)، فى أواخر الأسبوع الثالث انسحب حزب الاستقلال الوطنى، وحاول كل من هـ. أو. دافيز Davies هو ورباط، وإبراهيم إمام منع ممثلى حزب الاستقلال الوطنى من الانسحاب، لكن ممثلى الحزب آثروا غوث النادى الليلى على البقاء، وبخاصة أنه قيل إن السيد/ شوكو نوابا Nwapa شارك فى فقرة من فقرات الغناء والرقص وحصل على تصفيق كبير من جمهور الحاضرين. وإذا ما سلمنا بالاقتراح الذى مفاده أن مسئولى الشرطة فى الأقاليم بوسعهم ممارسة التجنيد داخل أقاليمهم، نجد أن وزير الخارجية بدأ يكشف هو الآخر عن علامات التعب والإرهاق.

عندما عاد ليتلتون بعد تناول الغذاء وهو ممسك بسيجار دخَّن نصفه، لاحظ أن جدول الأعمال التالى يشتمل على لائحة حقوق الإنسان: "حرية الضمير، حرية التفكير،... ولماذا، بوسعكم أيضاً أن تضيفوا إلى هذه الحقوق "محبة الله" فى الدستور! أنا أقدر مقام نيجيريا فى قلبى تقديراً يجعلنى لا أود أن نعلِّق آمالاً أخلاقية عامة على كل من القوانين والدستور. هل بوسعكم مناقشة هذا الأمر إذا أحببتم، لكن ذلك لن يتم وأنا أترأس المؤتمر - وإذا ما فعلتم هذا، فسوق أذهب لممارسة لعبة البردج، وقد استطلقت هذه الهجمة تصفيقاً كبيراً، وأنقذت مندوبى الشمال من حتمية الدفاع عن بعض الممارسات القضائية والأسرية الإسلامية التى يجرى اتخاذها ضد الكفرة، يزاد على ذلك أن آولوو، كان قد استوعب ما يهدف إليه ليتلتون، الذى يؤمن أن النصوص المماثلة فى الدستور الهندى كانت قد سمحت بالمزيد من القيود الصارمة على الصحافة أكثر من أعرق الدول الديمقراطية، الأمر الذى أدى إلى إحماء موضوعه: يقولون حرية الكلام؟ نعم، لكن هذه الحرية مقيدة بما يسمى القذف والتشهير، ويقولون حرية الضمير؟ هذا الحق عديم الجدوى - لأنهم لا يعرفون على وجه اليقين ذلك الذى يفكر فيه صاحب هذا الحق، وهو أيضاً لا يعرف ذلك الذى يفكر فيه الآخر، وعليه نصحهم بعدم وضع عوائق دستورية بين الإنسان وضميره، ويقولون حرية التجمع؟ هذا أمر حسن

بطبيعة الحال، لكنه يخضع لمسئولية الشرطة عن المحافظة على الأمن. قال وزير الخارجية: إن القوانين كلها تحد من الحرية: فأنت مثلاً لا يمكنك إحضار حية من حيات الكوبرا إلى داخل المجلس التشريعي، ولا تستطيع إيقاف سيارتك في حديقة جارك. هذا يعني أن الشروط ستكون "بلا معنى". وعلّق إبراهيم إمام قائلاً إن الشروط لن تخدم أي غرض من الأغراض. وأضاف المعلم أبو بكر تافاوا باليوا قائلاً: إن التلميح إلى عدم وجود حقوق الإنسان سوف يعد تشهيراً بالحكومة النيجيرية. وعليه جرى تمرير الموضوع بلا همهمة أو تمتمة، الأمر الذي أقلق أمين كانو، الذي كان ينوي التحدث لكنه جاء متأخراً على نحو لم يتمكن معه من أي شيء سوى تسجيل رفضه.

في غضون هذا القلق والتعجل الذي أصاب ليتلتون وافق الرجل على أن يكون النظام العام أمراً إقليمياً، وأن يعهد به إلى قوات الحاكم المركزي الاحتياطية في آخر المطاف، وقد أدى ذلك إلى جعل التشريع المستقبلي في التحكم في السيطرة على الزي الحزبي مشكلة من المشكلات (كانت الحكومة البريطانية لا تزال تحتفظ بذكرياتها عن الموصلي Mosely وقمصانه زرقاء اللون). ومع ذلك انتهز ليتلتون فرصة الإدراك النيجيري "المُعْجِز" بأنه إنسان ومن البشر، وأوضح للجميع أن حكومة صاحبة الجلالة ليست مستعدة للتفاوض بشأن بعض النصوص الدستورية. هذا يعني أنه لابد من فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية، وأوضح ليتلتون أيضًا أن اللورد شانسلور Chancellor كان يرتدي باروكة مختلفة عن باروكة مجلس الوزراء عندما كان يقدم لصاحبة الجلالة توصياته عن القضاة. وأوضح أيضًا أن الشرطة يجب أن تخضع لأي حزب سياسي ("وأنا أتمنى لو تكون الشرطة خاضعة لحزبي". أسفر ذلك عن ضحكة طال زمنها)، وعندما قال روتيمي Rotimi وليامز Williams إن شرطة لندن تخضع لوزير الداخلية، تدخل ليتلتون ليوضح أن روتيمي وزيراً من وزراء التاج وأنه يتصرف بدون غطاء رأسي سياسي. هذا يعني أن الخدمة المدنية ينبغي تجنيدها وتعيينها وترقيتها خارج نفوذ الوزراء، وأوضح أيضًا أنه على الرغم من أن رئيس

الوزراء يصدق على تعيينات وكلاء الوزارات البريطانيين الدائمين باعتبارهم مستشارين لصاحبة الجلالة، فإنه كان يصدق أيضًا على التوصية الخاصة بتعيين رئيس الخدمة المدنية. "أنا إن حاولت نقض ما يقوله السير توماس لويد Llooyd أو السيد/ جوريل Gorell بارنس فلن أستطيع ذلك. والأرجح لي في مثل هذا الحال هو أن أنقض أنا نفسي".

جاءت مسألة ليجوس بمثابة الحجر العثرة التي أدت إلى تفاقم الخلافات الأساسية. كان حزب جماعة العمل ينظر إلى ليجوس باعتبارها مدينة يوروباوية Yoru-ba فيها كثير من المهاجرين، وأن السلطة المركزية في ليجوس هي التي يحق لها السيطرة على كل الاتصالات الخارجة من الأقاليم والداخلة إليه، وأصر ممثل حزب جماعة العمل، على أنه ليس هناك مبرر لخوف أي إنسان من أي عيب أو نقيصة قد تحدث إذا ما بقيت ليجوس من الناحية الانتخابية جزءًا من الغرب الذي تتولى هي القسم الأكبر من تجارته. أما حزب المجلس الوطني النيجيري الكاميروني فكان مختلفًا مع حزب جماعة العمل حول هذه المسألة، ولذلك انضم إلى الأحزاب الأخرى، التي كانت قد قررت أن العاصمة، بغض النظر عن ترسيم حدودها، ينبغي أن تكون عاصمة محددة، وبلدية فيدرالية شأنها شأن واشنطون أو كانبرا Canberra. في حين رأى حزب المؤتمر الشعبي الشمالي، أن من الحكمة التزام الاعتدال عند هذه المرحلة، ولذلك اتفقت الأغلبية على ألا تكون ليجوس حجر عثرة، لكن بعض زعماء حزب المؤتمر الشعبي الشمالي لم يلتزموا بذلك، وهنا نجد أن أبا بكر، بتأييد من كل من رباط Ribadu وإبراهيم إمام، راح يرفض من جديد أن تكون منطقة الميناء والبنايات الفيدرالية المشيدة فيها وحدهما هما منطقة العاصمة، كانت مسألة إدخال أرض البلدية كلها ضمن حدود ليجوس أمرًا ملحًا عند كل من أبي بكر ورباط وإبراهيم إمام. وقام أبو بكر تافاوا باليوا بإبلاغ كي. بي. مادوكس Maddocks، السكرتير الإداري في سكرتارية ليجوس، وهو في غرفته في الفندق أن يذهب إلى ماكفرسن ليبلغه بما تم

الاتفاق عليه. وعلى الرغم من الوعد الذى جرى قطعه، ولم يجر تدوينه، والذى مفاده أنه فى حال انهيار الاتحاد الفيدرالى، فإن الحكومة البريطانية سوف تتدخل لحماية الشمال عن طريق الإبقاء على سيطرة ليجوس، فإن ممثلى الشمال لم يكونوا مقتنعين بذلك. وبذلك راح المندوبون ينظرون إلى السياسة الحزبية البريطانية على أنها عنصر غريب وغير سليم من عناصر المفاوضات، وفسر حزب المؤتمر الشعبى الشمالى المساندة الواضحة من قبل ريجنالد Reginald سورنسن، وزملائه المهمين لحزب جماعة العمل، على أنها دليل على أنه إذا ما جاءت إلى الحكم وزارة عمالية فى العام ١٩٥٦ فإن هذه الوعود ستذهب أدراج الرياح ولا يمكن الاعتماد عليها. وبحثًا عن مخرج من هذا الطريق المسدود، قامت جماعة مكونة من الحاكم ونائب وزير الخارجية بالبحث عن ليتلتون الذى فرَّ وراح يراقب مباراة الاختبار النهائية بين الوست إندز Indies وMcc فى أوفال Oval. قال ليتلتون وهو على البوابة المؤدية إلى أرض الملعب، "أنا لا أفهم ما يدور. وأعرف مدى حكمتهم وتعلقهم! سوف ألتقى رئيس الوزراء [تشرشل] هذه الليلة"، ويتركهم ليتلتون واقفين عند البوابة، على أمل أن يطلب إليهم الدخول، ويذهب هو وحده لمشاهدة مباراة الكريكت. كان هوجو Hugo مارشال Marshall مساعد حاكم الغرب قد توقع حدوث انهيار فى إقليمه، لكن رأى ليتلتون الخاص، والذى قام بتوضيحه مع زعيمه، كان يقضى بأنه حتى ولو قامت المظاهرات فى كل من ليجوس والغرب، فإن حكومة صاحبة الجلالة يجب أن تظهر فى مثل هذه الظروف وكأنها تساند أصدقاءها داخل الأغلبية. أما فيما يتعلق بالنيجيريين الآخرين، ونظراً أيضًا لتغيب الدكتور آزكوى فى ذلك اليوم فى كمبردج، فقد قام مندوبو حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى باستنتاج مفاده أنهم أيضًا لا يمكنهم الوصول إلى حل وسط مع الغرب، وعندما عاد الدكتور آزكوى قبل هذا الاستنتاج وسلم به. ومن سوء الطالع أن يفشل الدكتور آزكوى فى تحذير أوو Awo من هذا الاستنتاج. وأصيب حزب جماعة العمل بصدمة كبيرة عندما طالب كولا Kola بالوجن Balogun فى الاجتماع الذى استؤنف بعد ذلك، بفصل منطقة البلدية كلها عن الإقليم الغربى.

وعندما واجه وزير الخارجية في اليوم السابع عشر من شهر أغسطس ذلك الطريق المسدود الذي جرى التحذير منه بصورة مسبقة، اقترح أن تقوم حكومة صاحبة الجلالة بالفصل في النزاع باعتبارها وسيطًا نزيهًا على ألا تستأنف المنازعات والنقاش أكثر من ذلك. وافق السيد/ آولوو في نهاية المطاف نظرًا لأن ليتلتون أثبت أنه كان محايدًا (لكن هذه التحية التي جعلت ليتلتون يضحك منها بعد ذلك هي (التي سهَّرته الليالي، وهو يفكر في مصدرها ومبعثها). كان ليتلتون قد سبق أن غلَّف تلك الكبسولة من خارجها بوعد مقداره نصف مليون جنيه إنجليزي من أرصدة التنمية والرفاه الاستعماري، لاستعمالها في رفع مخلفات ليجوس وأنقاضها، لكن الرجل اعترف أن ليجوس قد تبدو أكثر سماحة على الرغم من ذلك.

وأعاد ليتلتون قراءة تصريحات الوفود كلها، ونظر الرجل إلى صائغي الوثائق والقرارات التابعين للحكومة البريطانية، وتمكن بفضل ذلك في جلسة حضرها جميع الأعضاء من أن يضع ضمن جدول الأعمال، في اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس، حكمًا منطقيًا يقول بوجود منطقة عاصمته فيدرالية تتمتع بواحد من الوزيرين الفيدراليين الموعودين الجديدين. وهنا أصيب حزب جماعة العمل بصدمة للمرة الثانية، وهدد كل من آوو Awo وملك الأيف بالاستجابة لحزب المؤتمر الشعبي الشمالي وعدم الموافقة على القرار قبل إحالته أولاً إلى الوطن بغية مراجعة "تفويض" اليوروباويين، وهذا موقف سبق أن أداناه عندما وقفه الشماليون.

وعندما جرى تحديد العام ١٩٥٦ تاريخًا ثابتًا للحصول على الحكم الذاتي، قال ليتلتون قوله الحازم إنه لن يفرض ذلك التاريخ على نيجيريا ولا على أي إقليم آخر، وأن ذلك يجب أن يعتمد على النيجيريين أنفسهم وعلى قدرتهم على التغلب على العناصر المخرِّبة في بلادهم، وعلى الرغم من خيبة أمل كل من الدكتور آزكوي وآوو، فإنهما لم يصرا على معارضتهما. ومع ذلك، فإن مشكلة التعيينات الوزارية أدت إلى ثلاثة أيام أخرى من الاضطراب وعدم الانتظام. كان الدكتور آزكوي يخطط لعودة خمسة من

وزراء حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى إلى المجلس التنفيذى الشرقى، لكن الترتيبات المرحلية الخاصة بمجلس الوزراء أدت إلى خنق جهود هذا الرجل ووأدها. ونفد صبر آولوو Awo (وينبغى أن نقول هنا أيضًا، إن هذا الصبر نفد كما نفد معه أيضًا السواد الأعظم من التعاطف الذى كان يأتيه من المتفرجين الأقل انحيازًا، والذين كانوا ينظرون إليه باعتباره رجلاً من الأذكياء، والذى كانت تحيط به طغمة من الدجالين والمشعوذين، الذين لم تكن مطالبتهم بالسلطة فى الحكومة أو الإدارة المستقبلية مبنية أو قائمة على خبرتهم التنفيذية - وإنما كانت مبنية فقط على مجرد فوزهم فى انتخاب من انتخابات المنتديات غير المتقدمة). كان لدى آوو Awo الكثير الذى يمكن قوله عن الإذلال والتَّجبُّر الذى شهده الغرب وعانى منه طوال فترة الدستور الحالى. قال أيضًا: إن هناك تذمر واضطراب وأن شوارع ليجوس سوف تجرى فيها الدماء. وقال أيضًا إن الدستور لا يمكن تفعيله، وراح الرجل يتحدث من جديد عن "العمل المباشر". وعلق ليتلتون بأنه لم يكن يظن أنه سيواجه بهذا البرهان الساطع الذى مفاده أن نيجيريا لم تكن مستعدة للحكم الذاتى. وهنا أخرج آوو بيانًا سابق الإعداد وراح يقرأ منه بأنه هو وحزب جماعة العمل "سينسحبان من الجلسة".

يبدو أن وزير الخارجية ظن أن تلك كانت نهاية المؤتمر والعودة إلى الحكم المباشر، وكان الرجل على استعداد لأن يحسب ذلك يومًا من أيام المؤتمر. أما المستشار السياسى الرئيسى الذى ظل بلا كلام طول الوقت، لكن وجوده لم يكن محلاً للتجاهل بأى حال من الأحوال، فقد نطق بطريقة منطقية وعقلانية قائلاً: إن القاعة لا يزال بها ممثلون لحوالى خمسة وعشرين مليون نسمة. وقد وافق مندوبوا حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى على ما قاله المستشار السياسى الرئيسى، ويتواصل الكلام بعد ذلك. وهنا اقترح الدكتور آزكوى، الذى كان راضيًا وموافقًا على القرارات الصادرة بشأن ليجوس، وإبعاد الأعضاء المغتربين بحكم المنصب عن عضوية المجالس فى الإقليم الجنوبى فضلاً عن موافقته على الضمان الحقيقى للحكم الذاتى الداخلى لكل من الإقليم

الشرقى والغربى، اقترح الرجل على حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى الجلوس سويًا وأن يعيدا النظر فى مسألة الانتخابات المركزية وطريقة تعيين الوزراء المركزيين. كان الرجل يشعر بالقلق تحسبًا لاتهامه على المستوى الوطنى بأنه كان سببًا من أسباب انهيار المؤتمر، فضلاً عن أنه لم يكن مستعداً لفتح صندوق باندورا(*) العامر بالعنف الذى من قبيل عنف أولوو، الذى لم يعبأ أو يكترث بخلق سوابق يسجلها عليه المستقبل. وإذا كان الدستور يشترط أن يكون دخول مجلس الممثلين أو المندوبين عن طريق الانتخابات التى تختلف عن انتخابات الجمعيات الإقليمية، وإذا كان الوزراء المركزيون يعينون من قبل المجلس المركزى، فهل يمكن أن يوافق حزب المؤتمر الشعبى الشمالى على عودة كل من توماس وأكنتولا؟ الأفضل له ألا يضيف المزيد من الشروط حول مسألة إعادة ترسيم الحدود أو توحيد القوانين الانتخابية. ووافق ماكفرسن على إعادة الرجلين إلى اجتماعاته إلى أن يصبح النظام الجديد للمجلس بحاجة إلى مجلس جديد للوزراء.

عقد حزب المؤتمر الشعبى الشمالى اجتماعًا سريًا غاضبًا، خجلت فيه الأغلبية من الظهور بمظهر من يملى على الغرب، وأعربت عن رغبتها فى السماح للرجلين بالعودة إلى منصبيهما. كان حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى يضغط هو الآخر لتحقيق هذا الهدف وذلك من منطلق سبب آخر مفاده أنه لو عاد حزب جماعة العمل إلى المؤتمر، فإن المؤتمر قد ينتهى دون الاتفاق على حل المجلس المركزى، وهذا أمر كانوا يودون تحاشيه وتجنبه. لكن المعلم أبا بكر تافاوا باليوا ظل ثابتًا على موقفه الذى مفاده أنه سوف يستقيل، وطلب أبو بكر تافاوا باليوا من بروس Bruce جرتيباتش -Great

(*) صندق باندورا: الأصل فى هذا المصطلح اللاهوتى هو أن باندورا: امرأة أرسلها زيوس عقابًا للجنس البشرى، بعد سرقة بروميثوس للنار، وأعطاها علبة ما إن فتحتها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور والرّزايا فعمت البشر ولم يتبق فيها غير الأمل. (المترجم)

batch، سكرتير المستشار السياسي الرئيسي (أحمد بللو في ذلك الوقت) أن يحجز له تذكرة عودة بطريق الجو.

ولم يكن لدى ليتلتون أي شك أنه في ضوء انسحاب حزب جماعة العمل من الجلسة فإنه لابد من تغيير طريقة تعيين الوزراء المركزيين تحت أي ظرف من الظروف، وبدأ الرجل (ليتلتون) يفكر في ذلك الوقت في احتمال فرض دستور جديد دون إجراء المزيد من المفاوضات، وأن ذلك الدستور سوف يشمل أيضًا كل ما تم استقراره والاتفاق عليه، لكن هذا الدستور سوف يعكس أفكاره الخاصة عن المؤسسات العامة، والتي حبَّذ لها أن يكون فيها نوع من الاتساق وأن يكون أعضاؤها بواقع عضو واحد عن كل نصف مليون نسمة من السكان.

ومع ذلك استطاع رفاق أبي بكر تافاوا باليوا إقناعه في نهاية المطاف بتهدئة انفعالاته الأخلاقية، وبدأ الرجل يسحب مقترحاته الإيجابية كانت تلك المقترحات تشمل حل المجلس المركزي فور إعلان الأمر المجلسي، ولا يكون ذلك حلاً مباشرًا للمجالس الإقليمية، كان الرجل يتحرك في اتجاه الموافقة على ثلاثة أعضاء لكل مليون نسمة من السكان، يتم انتخابهم بواسطة الجمعيات العمومية من بين أعضائها، على أن يقوم من ينجحون في الانتخابات بالاستقالة من مقاعدهم الإقليمية واستقالتهم أيضًا من الانتخابات الفرعية. ويتحتم تعيين الوزراء المركزيين بواسطة الحاكم وذلك بالتشاور مع زعماء الأحزاب في المجلس الأدنى الجديد. أما فيما يتصل بالوزراء الغربيين محل النزاع، كان ليتلتون على استعداد لترك هذا الأمر للحاكم هو والحزب الإقليمي لكي يتخذا بشأنه القرار المناسب. لكنهما إذا ما عادا فإنه هو شخصيًا سوف يستقيل، على الرغم من وعيه وإدراكه، وربما كان مستريحًا أيضًا، أن محمد رباط قد لا يستقيل. أما الدكتور آزكوي فلم يكن يرى أن إصدار الأمر إلى المجلس يمكن أن يحدث قبل اجتماع وفدي الحزبين، وكان الرجل ميالاً إلى ذلك تمامًا منذ البداية، ومع ذلك كان الدكتور آزكوي لا يزال بحاجة إلى تعهد صريح يفيد أن حزب المؤتمر الشعبي الشمالي سوف

يقبل عودة كل من توماس وآكنتولا، الأمر الذى رد عليه المستشار السياسى الرئيسى ردًا لينا هينًا مفاده أن حزبه لن يملى رأيه على الغرب فى أمر يخصهم هم ويخص الحاكم، لكن المستشار السياسى الرئيسى لا يستطيع الرد على قرار جرى إصداره وفقًا لما يمليه الضمير أو بالأحرى الموقف الفردى لبعض وزراء الشمال.

كان وزير الخارجية قد بدأ يضيق ذرعًا بالجدل الذى بدأ يدور هنا وهناك عن طريق الشائعات والسرية الرسمية، وطلب وزير الخارجية من السيد/ ماكفرسن إبلاغ المؤتمر علانية بكل ما حدث فى سبيل فى مسألة بود Bode توماس Thomas. وقال السير جون ماكفرسن: إن وزراء الشمال وكذلك وزراء الشرق، فى مجلسه، لن يملوا على الغرب شيئًا هو لايريده. كان وزراء الإقليم الشرقى قد حاولوا إعمال الدستور والمحافظة على وحده نيجيريا، هذا يعنى أن وزراء الشرق كانوا يودون إثبات أنهم لا يقلون وطنية عن وزراء الغرب، لكنهم داخل المجلس لم يفهموا هم شخصياً موقف وزراء الشمال. كان ماكفرسن قد نصح مجلس الوزراء أن يتخذوا خطًا مشتركًا أمام الجمهور حتى يمكن لمناقشة الحصول "على الحكم الذاتى فى العام ١٩٥٦" أن تستغرق أسبوعًا كاملاً، أو حتى أسبوعين إذا اقتضى الأمر، لكن هؤلاء الوزراء باعتبارهم أعضاء فى المجلس لم يعتزموا التعبير عن رأيهم بخصوص هذا الموضوع. لم يكن وزراء الشرق قد رفضوا أو لم يوافقوا على مسألة الحكم الذاتى هذه، وكان وزراء الشمال راضين عن اتباع هذه النصيحة. وعندما حدثت الأزمة، كان كل هؤلاء الوزراء قد قالوا: لو عاد هذان الوزيران المسميان بالاسم فإنهم جميعًا سيتقدمون باستقالاتهم. وجرى اقتراح اسمين آخرين بديلين عن هذين الوزيرين، لكن عندما رفض المجلس الغربى الإقليمى المشترك هذه الأسماء فى اليوم الثالث من شهر يوليو، كان وزراء الشمال قد قالوا من قبل، وفى هدوء تام، إنهم سيسمحون بعودة أصحاب الأسماء الأصلية (بود وتوماس) إن كان ذلك سيسهّل الأمر على الحاكم (الذى أمامه المشكلة الأخرى، التى تتمثل فى أنه إذا ما تقدم باقتراح بديل من عنده هو، فإن السياسيين

الإقليميين ومعهم أيضًا مساعدوا الحكام الإقليميين أيضًا سوف يسألونه عن الأسباب التى دعته إلى اقتراح هذه الأسماء، من منطلق أن الرجل (الحاكم) لا يعرف جيداً وبصورة مباشرة أصول كل رجل من هؤلاء الرجال وخلفيته). ورد ماكفرسن أن ذلك سيجعله هو ووزراءه كلهم من إقليم واحد، وليس حتى من إقليمين، وسبب ذلك أن الوزراء كلهم من إقليم واحد، وليس حتى من إقليمين، وسبب ذلك أن الوزراء الشرقيين كانوا قد أعربوا من قبل عن هذا الرأى. كان ماكفرسن قد لزم الصمت وكفَّ عن الكلام من قبل تحاشيًا للاتهامات المضادة من حوله، لكنه كان يرى أن البلاد تستحق كل هذه الرواية .

لم تكن مصاعب المجلس ومشكلاته مجرد سيف مسلط من سيوف خطب شهر مارس أو خطب أزمة تحديد العام ١٩٥٦ للحصول على الحكم الذاتى. والسبب فى ذلك أن وزراء الغرب منذ البداية كانوا قد قدموا المصالح الإقليمية على المصالح النيجيرية. وقبل أن يذيع ماكفرسن حديثه عن إفشاء الأسرار، كان هناك تسريب لتلك الأسرار، وعلى الرغم من عدم وجود دلائل مؤكدة أو دامغة، فإن الكل كانوا يعرفون من أين تجىء تلك التسريبات للأسرار. لم يكن صحيحًا أبدًا أن أعضاءه بحكم مناصبهم كانوا يصوتون دومًا لصالح الشمال: قبل شهر مارس وفى المرة الوحيدة التى صوت فيها الأعضاء الرسميون لصالح إقليم واحد، وعندما كانوا منضمين إلى الشرق، فى مسألة ندب خبير لأخذ رأيه فى موضوع ليجوس باعتبارها عاصمة للبلاد. وحول مسألة "تحديد العام ١٩٥٦ للحصول على الحكم الذاتى"، جرى عقد ثلاثة اجتماعات صعبة، وصوت ستة عشر من بين الثمانية عشر الحاضرين لصالح هذا الرأى نفسه. وعندما بدأت مسألة تسريب الأسرار، أحس الوزراء كلهم بأنهم مكبوتون وممنوعون من الكلام عما يدور فى أذهانهم حول هذا الموضوع، وذلك تخوفًا منهم من أن يصل كلامهم الذى يقولونه فى السر، إلى العلن ويجرى استخدامه سياسيًا ضدهم فيما بعد. الواقع أنه لم يكن هناك كبت لحرية التعبير فى المجلس، نظرًا لعدم وجود ما يمنع المائة وأربعة

وعشرين عضواً الذين جرى منعهم من الكلام والتصويت على الاقتراح. واقع الأمر أن الوزراء لم يكونوا يودون الكشف عن خلافاتهم، من حيث التطبيق، نجد أن المسائل الإقليمية لم تؤد إلى إثارة الحساسيات اللهم فيما يتعلق بالأولويات بين هذه المسائل، والمشكلة الوحيدة التى نشأت فى هذا الصدد كانت حول الموافقة الرسمية على قانون صادر عن الحكومة المحلية الإقليمية الغربية، والذى حاول مجلس الوزراء، وذلك على العكس من مزاعم أولوو فى ذلك الوقت، استعجاله فى واقع الأمر. وفيما يتصل بمسألة ادعاء وزراء الغرب بتشدد المجلس وعدم سماحته، نجد أن ماكفرسن ذهب إلى شأو بعيد فى هذا الاتجاه، وذلك من باب تحاشى التصويت بدلاً من الإجماع، فى حين اتهمه آخرون بطول صبره على الغرب فى الوقت الذى كان يتعين عليه اتخاذ "إجراءات صارمة، ضدهم".

لكن الرجل كانت عليه التزامات دستورية تحتم شغل الفراغات، وكان هوجو Hugo مارشال Marshall (الذى خلف السيرثيو Theo هوسكنز Hoskyns أبراهال Abrahall فى منصب مساعد الحاكم فى العام ١٩٥١) قد حاول إقناع أولوو أن الحاكم وحده هو الذى كان يعمل عمل فريق متكامل من أجل الوحدة الوطنية. وبقى أولوو مصراً على موقفه. وعندما جرى تقديم اسمى كلٍّ من إيناهورو Enahoro وآخرين حاول أولوو إحداث انقسام فى حزب جماعة العمل، لكنه كان يستهدف بذلك الحصول على فريق من المؤيدين من ناحية ويؤكد من الناحية الأخرى على أنه لم يكن معارضًا للوطنيين فى موقفهم. كان المجلس التنفيذى الغربى قد طُلب منه سد الفراغات عن طريق إرسال بعض الممثلين أو المندوبين ليكونوا بدلاء فى المؤتمر القادم الخاص بقوات غرب إفريقيا، لكن الغربيين رفضوا ذلك أيضًا. خلاصة القول هى أن الرجل لم يكن مستعداً لتمثيل إقليم واحد فى مجلسه دونًا عن الإقليمين الآخرين، هذا يعنى أنه مادام أن الشمال كان لا يزال فى المجلس المرحلى أو الانتقالى فإنه هو شخصيًا سوف يوافق ويقبل فى الظروف الراهنة عودة الوزراء المستقيلين. كان من رأى الدكتور أزكوى نشر البيان

الذى ألقاه الحاكم كاملاً، ويتظاهر الحاكم بالاحتشام قائلاً إن هذا النشر قد يتسبب في إحداث شيء من الضرر وهنا خلص وزير الخارجية إلى أن مجلس الوزراء قد يفكر في نشر نسخة خاصة به من هذا البيان: وقال إن نشر مثل هذه النسخة قد يثير بعضاً من الغبار لكن غباراً كثيراً قد أثير بالفعل.

عاد المؤتمر إلى ورقة الحل الوسط الذى تقدم به أبو بكر تافاوا باليوا، والتى وافق الدكتور آزكوى على خطوطها الرئيسية، ولكن الرجل من أجل استعادة مساندة حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمي والحزام الأوسط وتأييده، بعد أن ضاعت تلك المساندة عندما بدأ التحالف الظاهرى بين "الثلاثة الكبار"، راح يحدد هجومه على المجمّعات الانتخابية الشمالية. ورد المستشار السياسى هو والمعلم أبو بكر تافاوا باليوا بأنهما لا يعارضان مسألة عقد انتخابات منفصلة للمركز شريطة ألا يترتب على هذه الانتخابات استقالة أى عضو من أعضاء الجمعية الداخلية فى هذه الانتخابات من مقاعدهم الإقليمية إلا بعد أن ينجحوا فى انتخابات مجلس المندوبين أو الممثلين، لكنهما اتفقا ووافقا على عدم العودة إلى المجمّعات الانتخابية، وأعرب الرجلان عن أسفهما لأن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى هو وحزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى لم يوافقا على أن مسألة إدخال منظومة المرحلتين فى الأقسام السياسية التى من قبيل كانو أو برنو إنما هى أمر غير قابل للتطبيق. وبعد ساعات طويلة من الجدل، جرت الموافقة على أن تكون هناك انتخابات مستقلة على مستوى المركز، لكن ينبغى إنشاء مجمعات انتخابية جديدة إقليمية فى الشمال، حتى يجرى من خلالها انتخاب الأعضاء المركزيين، لكى يجرى البدء من القاع من جديد. ورأى المؤتمرون أن ذلك كان على سبيل الترضية لحزب جماعة العمل.

لجأ حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى بعد ذلك إلى مسألة النِّسب. قالوا، إنه مادام أن حزب المؤتمر الشعبى الشمالى لن يوافق على نظام عام لاقتراع الكبار، ومادام أنه لن يوافق على الدوائر التى فيها عضو واحد، فإن الشمال لا يمكن إعطاؤه

أكثر من نسبة ٥٠٪ من التمثيل. وهنا أكد المعلم أبو بكر أن الشمال مصر على أن يكون التمثيل حسب نسبة عدد السكان، وأن يكون ذلك في ضوء إحصاء حقيقي للسكان، وفي ضوء الأرقام الضرائبية، وبذلك يتضح أن الشمال هو صاحب الأغلبية الواضحة، وأن هذا السبب هو الذي جعل وزراء الشمال يوافقون على إدخال مجلس أعلى له سلطات تجاوزية. وقالوا إنهم سيوافقون على نسبة ٥٠٪ من العضوية، إذا ما ألغى المجلس الأعلى. عند هذه المرحلة، وفي اليوم الأخير، جرى التخلي عن مسألة المجلس الأعلى، وقد أثلج ذلك أيضاً صدر حزب جماعة العمل.

عندئذ بدأ ليتلتون يمارس ضغطه الشديد على الشمال، وأنهم إذا لم يقبلوا عودة كل من بود Bode توماس وآكنتولا مؤقتاً، فإنهم سيكونون "غير متعاونين تماماً" (وهذه الكلمات الدبلوماسية ثقيلة ثقل الصلب وقاسية مثله أيضاً)، هذا يعني أن الأمر كان بحاجة إلى "التعجيل الدبلوماسي". وقد جاءت هذه الكلمات الأخيرة بمثابة هجوم على حد تفسير المسلمين لها، وهذا أمر عجز ليتلتون عن إدراكه وتفهمه، لكن المستشار السياسي الرئيسي رد بعد تأخير طويل بموافقة مفادها أن عودة المجرمين يمكن الصفح عنها والتجاوز عنها أيضاً في الوقت نفسه. وشاهد الناس المعلم أبا بكر تافاوا باليوا وكأنه الرعد، وسلم مستشاروه بأنه سوف يستقيل بلا محالة. عند هذا الحد، اقترح هنري هويكنسون Hopkinson، الذي لم يكن قد لعب دوراً كبيراً في وقائع المؤتمر، اقترح أن يقوم الحاكم بدعوة حزب الجماعة إلى قبول التقرير والموافقة عليه، إذا ما كانوا يودون ذلك، لكن الرأي العام الرسمي وكذلك رأي الحكومة البريطانية كانوا مؤكدين ومتفقين على أن ظهور "المهادنة" appeasement (تلك الكلمة اللعينة في السياسية الإنجليزية اعتباراً من العام ١٩٣٨) يمكن أن يكون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وأن حزب جماعة العمل يتعين عليه أولاً التحرك صوب المصالحة. واقع الأمر أن حزب جماعة العمل عاد عن طيب خاطر من أجل التوقيع على التقرير.

وعليه، وفى مواجهة هذا القدر الكبير من التشكيك ينتهى المؤتمر مكللاً بالنجاح فى اليوم العشرين من شهر أغسطس بغشاء المسئولية الذى كان يستر العداوات السافرة؛ كما وافق المؤتمر أيضًا بالإجماع على مسودة التقرير فى اليوم التالى. فى ذلك الوقت، كان ليتلتون العنيد قد تشجع على استيعاب قدر كبير من المتعة العملية من تعاملاته ومعاملاته مع نيجيريا. وبدأ الرجل يكتشف أن علاقاته مع كل من الدكتور آزكوى والمستشار السياسى الرئيسى أصبحت على أحسن ما يرام، وأصبح يولى آولوو احترامًا كبيرًا على الرغم من عناده، لكن مساهمات أبى بكر قبل الجلستين الأخيرتين، والتى أنقذت اليوم كله من المنغِّصات بفضل دعابته اللطيفة فى الأمور التى كانت تبدو صغيرة له، وبفضل أمانته التامة فى لحظات عناده عندما يصبح الأمر متعلقًا بالحياة أو الموت، أو عندما يكون الأمر جللاً، هى التى جعلت مسئولى وزير الخارجية يعزون تقلبات الرجل إلى هذين الأمرين.

فى الاتفاق النهائى، تمت الموافقة على أن تكون الشرطة "فيدرالية"، لكن مسئولى الشرطة فى الأقاليم يتعين عليهم الرجوع إلى ليجوس فيما يتعلق بالمسائل المتعلقة بالعمليات، على أن يكون ذلك من خلال سلطة الدفاع والأمن الإقليمية. واتُّفق على التوصل إلى بعض التفاصيل فى مؤتمر لاحق يتولى أوليفر ليتلتون رئاسته فى ليجوس. واتفق أيضًا على أن الأقاليم بحكم تسودها لمناطقها الخاصة بها، سوف يترأسها حكام كاملون (من الدرجة الأولى، كما هو الحال فى كينيا، أو الملايو أو هونج كونج، وذلك على العكس من حكام الدرجة الثانية فى كل من سيراليون، وسنغافورة، وقبرص، وفيجى، وقد ابتكر هذا الفارق الطبقى أصلاً، لأسباب تتعلق بالمعاشات، والتى تقدر بحوالى جنيه واحد إنجليزى عن كل شهر عند التقاعد، ويصرف من الأرصدة البريطانية)، واتفق أيضًا على أن يصبح الاتحاد الفيدرالى الجديد تحت رئاسة حاكم عام (والذى اتضح فيما بعد مناقشات طويلة فى مقر الحكومة البريطانية، على أنه اللقب المناسب لهذا الإطار من أطر السلطة التنفيذية، وبخاصة أن السواد الأعظم من كبار المسئولين

الشرطيين أصبحوا سفراء داخل الكمنولث)، وجرى الاتفاق أيضًا على أن يكون لكل حكومة وكالة خدمة عامة مستقلة ووكالة للخدمة العامة غير السياسية.

لما كان الحكام الإقليميون ليسو مسئولين عن الدفاع، فليس من المناسب أن يحملوا ذلك اللقب "القائد الأعلى للقوات المسلحة"، الذى جرى الاحتفاظ به للقائد العام. وبالتالى لن يكون لهؤلاء الحكام مقاعد فى مجلس الوزراء، ولا فى مجلس المندوبين أو الممثلين الذى سيوفد إليه الإقليم الشمالى ٩٢عضواً مباشرة، على أن يرسل كل من الشرق والغرب اثنين وأربعين عضواً لكل منهما، ويقوم جنوبا الكاميرون بإرسال ستة أعضاء وتقوم ليجوس بإرسال عضوين. وسيكون هناك رئيس وزراء لكل إقليم من الأقاليم، ويخسر كل من الشرق والغرب أمناءهم التنمويين والماليين. واتفق على أن يصبح جنوبا الكاميرون أرضًا فيدرالية من الناحية الشكلية ويتجلى ذلك من خلال مسئولية رئيس الوزراء وآمر الشرطة أمام الحاكم العام، ومع ذلك يكون هناك مقعد لجنوبى الكاميرون فى مجلس الوزراء الاتحادى - يزاد على ذلك أن الموافقة على محكمة فيدرالية عليا، ومحاكم إقليمية عالية بَشَّر بسرعة التقاضى وإعمال القانون وسرعة العدالة، وربما جاء ذلك بمثابة رقابة على المركزية الجديدة. وفجأة وبلا تخوف يوافق البريطانيون رسميًا، على أن أى إقليم من الأقاليم إذا ما رغب فى الاستقلال الحكومى الداخلى الكامل، فإن بوسعه الحصول على هذا المطلب فى المؤتمر الذى سيعقد فى شهر أغسطس من العام ١٩٥٦، وبذلك يمكن تجريد الشمال والجنوب مؤقتًا من هذا السلاح، هذا "الحكم الذاتى المحدد له العام ١٩٥٦" سيحدث دون تحامل على المصالح الفيدرالية أو الإساءة إليها، وسيكون مشروطًا بتعويض الموظفين العموميين الذين قد تتأثر أوضاعهم بفعل هذا العمل. يضاف إلى ذلك أن الالتزام بالأقاليم الحالية من ناحية وبالحكم الذاتى المحدد له العام ١٩٥٦، سد الطريق سداً محكمًا، فى وده، تحرك الأحزاب الثلاثة الرئيسية، تحركًا وديًا فى اتجاه إنشاء اتحاد فيدرالى أكثر استقراراً أو أكثر منطقية يضم أكثر من ثمانية أقاليم. كان ذلك صحيحًا، حتى وإن سلمنا أن

الشمال ككل يمكن أن يلحق "بالركب" فى ظل الحكم البريطانى الطويل، وبذلك يتولد لديه المزيد من الثقة التى تجعله لا يتخوف من سيطرة الجنوب على أى مكون من مكوناته.

كان أحد خصوم حكومة أوليفر ليتلتون قد وصف الرجل بأنه "كارثة" لكن قدرة ليتلتون على الصبر التمثيلى أو بالأحرى المسرحى، وأفكاره التلوية جلبت له الثناء من كل الأصقاع، وكانت قلة قليلة من ذلك الثناء هى التى تتسم بالصدق والحميمية، وجاء ثناء أبى بكر الأكثر صراحة ومباشرة. وقد باغت الدكتور آزكوى كثيراً من المستمعين عندما أعلن فى الجلسة العامة الأخيرة أن الخط الذى سار عليه والمؤتمر والسلوك الذى سلكه (والذى لم يكن نهجًا سلسًا أو هينًا كما رأينا) أعاد له إيمانه ببريطانيا كقوة استعمارية، كما جعله يتأكد أيضًا من أن حزب المحافظين قد قام بخدمة رائعة لقضية الوحدة النيجيرية. وامتدح الدكتور آزكوى أيضًا الموقف الذى وقفه حزب المؤتمر الشعبى، الذى وافق أولاً وقبل كل شىء، على الرغم من برنامج النقاط الثمانية، على المشاركة فى اتحاد فيدرالى حقيقى، وعلى قبوله وترحيبه بالحلول الوسط التى لم ترق له. قال الدكتور آزكوى: لم يكن واقعيًا أن نتجاهل "سرعة" الشمال، لكن مهمة السياسى تتمثل فى اكتساب ود الشمال عن طريق الاقتراب الصحيح: "نحن قادرون على جلب السلام، والوئام والوحدة إلى نيجيريا" . ليس كل الجنوبيين يعرفون طريقة الزواج بالتودد بدلاً من الزواج بالخطف والاغتصاب، وليسو كلهم يعرفون أو يقدرون المدى الذى وصل إليه الشمال، أما السيد/ أولوو فقد كان أقل دبلوماسية فى كلامه، وكان فظًا فى حديثه عن احباطاته. ومن يمن الطالع أن كثيراً من الرجال المهمين من جميع الجوانب سارعوا إلى الاعتراف بأنهم فى ذلك الوقت، كانوا بعيدين جداً عن الوطن، وأن المواقف المتعارضة التى ظنوا أنها مواقف ناجمة عن الجهل والحسد، إنما تحولت إلى أفكار معقولة ومقبولة بعد أن استمعوا إلى شىء من الأدلة المقنعة. هذا يعنى أن المنافسين قد يكونون مخلصين فى واقع الأمر.

عندما واجه المشاركون فى المؤتمر الصحافة، قال آولوو إن حزبه على استعداد لقبول الدستور والموافقة عليه وتفعيله شريطة عدم استئصال ليجوس أو إبعادها، وبذلك يكون آولوو قد تناقض مع تعهده بقبول الاجتماع التحكيمى الذى سيرأسه رئيس المؤتمر. قال الرجل: إن بوسعه أن يتحمل "أوتاوا" Ottawa لكنه لا قبل له "بالإقليمية الزائدة عن الحد". لقد تعمد قول ذلك فى لندن بغية مواصلة كسب التأييد، ثم يعود بعد ذلك لاستعمال كل السلطات الدستورية للحيلولة دون تفعيل تلك الأجزاء التى جرت مراجعتها والتى لا تروق لحزبه. وأصر آولوو على أن الأحداث التى وقعت فى مطار كانو لا صلة لها بالجنوبيين، وإنما هى كانت هجمات قام بها الشماليون على كل من أمير كاتسنا والمستشار السياسى الرئيسى Saraduna. وفيما يتعلق بحزب جماعة العمل فإنهم لم يناضلوا من أجل مبادئهم ومطالبهم واكتفوا بنقد ليتلتون نقداً لاذعاً عن طريق البرقيات وعن طريق العلانية، وأكدت السلطات اللندنية أن أية محاولة لتغيير القرار عن طريق العنف ستجرى مقاومتها (على الرغم من الاعتراف بعد ذلك، أن الحاكم أو الحاكم العام المستقبلى إذا ما وجد الأحزاب كلها سهلة الانقياد ومتحدة الفكر بعد الانتخابات، فإنه تكون له الحرية فى طلب النصح والإرشاد من الحكومة (البريطانية)، ومع ذلك أدى استياء ممثلى حزب جماعة العمل إلى تأجيج الهجمات الانفعالية على كل من الإدارة الإقليمية الغربية والضباط البريطانيين فى وزارات إيبادان Ibadan الذين كانوا لا يزالون يتطلعون إلى صياغة الأمر المجلسى الدستورى طلباً للتوجيه والإرشاد أثناء تعرفهم المصادر القانونية للسلطة. وأصبح من الصعب على المتعاطفين البريطانيين والمدافعين عن حزب جماعة العمل والتعامل مع حزب السيد/ آولوو باعتباره ممثلاً للطبقة البرجوازية البنثامية Benthamites التى نتجت عن عشيرة إجبى Egbe أومو Omo أودودوا Oduduwa.

عندما عاد المندوبون إلى الوطن وسط ارتفاع ضغوطهم الانفعالية والتأكيدات الزائفة التى تترتب على المناسبات التى من هذا القبيل، أصبح واضحاً للنيجيريين أن

المحور المكون من حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى وحزب جماعة العمل قد انفض، وأن حزب المجلس الوطنى هو وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى قد أصبحا أكثر اقترابًا، كان من رأى أبى بكر تافاوا باليوا أن ذلك حدث نتيجة سمات وخصائص عرقية أكثر منها منطقًا سياسيًا. لكن المعلم محمد رباط كان يعلق على هذا الموقف قائلاً: "أنا سياسى وحزبى. وهذا يعنى أن أعود إلى السياسة عندما أتراجع!"، لكن براجماتيى حزب المؤتمر الشعبى الشمالى كانوا ينظرون إلى هذه المسألة باعتبارها أمرًا نادر الحدوث. علق أحد الطلبة الذين كانوا يدرسون التاريخ فى جامعة أكسفورد على هذا المؤتمر تعليقًا يفيد أن مسألة الرضا الذاتى عن الموضوعات والأمور الاستعمارية قد بدأ يتبخر تبخرًا سريعًا. يقول صاحب هذا التعليق: إنه على الرغم من اتجاهه صوب الإدارة المحلية الشرقية، فإنه بوسعه إذا ما رغب فى ذلك، استرداد ثروة والده التجارية الضخمة فى بلدة أونيتشا Onitsha: "أنا أريد بحق الالتحاق بالجيش، وأنا أولاً وقبل كل شىء، لا أتصور أن أصبح جنرالاً قبل أن أنتهى من دراستى!" كان اسم صاحب هذا التعليق شوكو ميكا Chukwuemeka أوديميجو Odumegwu أوجوكو Ojukwu، وأنه استوحى موضوع تعليقه هذا أول مرة من الدكتور آزكوى (فى وقت لاحق عندما اختار الشاب إميكا Emeka التحول من الإدارة إلى العسكرية، وكان السير ماكفرسن قد قال له فى حضرة والده المدعو لويس ودون معرفة سبقية :"إذا كنت تظن أنك ستكون عقيداً Colonel مثل عبد الناصر فى يوم من الأيام، فاصرف هذا عن ذهنك وتخلص منه ـ والسبب فى ذلك أن نيجيريا لن توافق على ذلك!" وخطر ببال جون ماكفرسن أيضًا أن حياة الوالد العملية، وهروبه من الننوى Nnewi التقليدى ليصبح مفتشًا على المنتجات وفاحصًا لها، ثم التحول بعد ذلك إلى العمل كاتبًا لدى جون John هولت Holt، هذا المستقبل العملى جديد بالمُضاهاة والمنافسة).

بعد عودة أبى بكر تافاوا باليوا انضم إلى الدكتور إنى Eni نجوكو Njoku هو وضابطين مقيمين فى مؤتمرات غرب إفريقيا، الذى سبق إنشاء المجلس العسكرى

لغرب إفريقيا: وظل أبو بكر يحضر اجتماعات ذلك المجلس وبصورة منتظمة طوال فترة وجود ذلك المجلس. كانت خزانة الحكومة البريطانية قد صممت وعقدت العزم على أن تتحمل حكومات غرب إفريقيا الأقل انقياداً، قسماً كبيراً من نفقات الدفاع. وكانت قد جرت مضاعفة حصة ساحل الذهب (غانا) أو نصيبه في تلك النفقات، كما زيدت حصة نيجيريا من ثلاثة أرباع المليون جنيه إنجليزي إلى مليون و٣٨٠ ألف جنيه إنجليزي، الأمر الذي حمَّل دافعي الضرائب الإنجليز مبلغ ثلاثة ملايين جنيه من إجمالي تكاليف دفاعية تقدر بحوالي خمسة ملايين ونصف المليون من الجنيهات الإنجليزية. كان من رأي خزانة الحكومة البريطانية أن تقوم كل حكومة من الحكومات بإفهام شعبها أن قواته العسكرية إنما هي قوات وطنية خاصة بالحكومة، وأن هذه القوات مخصصة للقيام بالدور الدفاعي إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وأن هذه القوات أيضاً للمحافظة على الأمن، والنظام والحكم الصالح. وأن تقوم هذه الحكومات أيضاً بإفهام شعوبها أن الانقلابات العسكرية لا تشكل جزءاً من تفكير الكمنولث البريطاني أو فكره، وأنها في المستقبل لن تكون سوى جزء من قوات الحملات الإمبريالية التي ستساند وتعاون الأرض الأم في الحروب المحتملة. جرى الحديث أيضاً حول إنشاء كلية مماثلة للكلية الحربية البريطانية Sandhurst في غرب إفريقيا، لكن رُؤي أن مسألة كلفة ثلاثين من المعلمين اللازمين لإنشاء كلية حربية جديدة تُعد نوعاً من الإسراف والتبذير مادام أن الطلاب العسكريين النظاميين يستطيعون الالتحاق بالكلية الحربية البريطانية ومادام أن الطلاب العسكريين المؤقتين يستطيعون الالتحاق بمدارس الضباط البريطانيين في إيتون Eaton هول بالقرب من شستر Chester وثكنات مونس Mons في آلدرشوت Al-dershot. وجرى افتتاح مدرسة تدريب عسكرية لغرب إفريقيا في بلدة تيشاي Teshie في ساحل الذهب، وقد بقيت هذه المدرسة إلى العام ١٩٦٠ . بعد أن صادق المجلس الغربي على السماح بعودة وزيري حزب جماعة العمل إلى مجلس الوزراء المركزي أعطى أبو بكر تافاوا باليوا حقيبة وزارة الأشغال لبود Bode توماس Thomas (الذي تُوفي بعد ذلك بشهرين في ظروف لا تزال الشكوك تدور من حولها، وقد خلف سام

آكنتولا نائب زعيم حزب جماعة العمل، ونائب الرئيس الوطنى، بود توماس بعد وفاته، وكان سام آكنتولا قد هزم آرثر Arthur برست Prest فى الانتخابات). كان أبو بكر تافاوا باليوا قد ضغط على السير جون John كى يترك له حقيبة النقل، ولما كان الحاكم يعرف مدى اهتمام أبى بكر بأن تكون للشمال منافذه الخاصة إلى العالم الخارجي، فقد ذكر أبو بكر أنه حتى وإن تحول الشرق والغرب إلى بلدين مختلفين، فإن الشمال يتعين عليه أن يكون على وفاق مع هذين البلدين، ومع ذلك حقق له الرجل رغبته.

كان الحاكم واقعًا فى ذلك الوقت تحت ضغوط من اتجاه كريه وغير مرغوب. كان السيد/ آولوو قد أصر، طوال المؤتمر، على اتباع سياسة "عدم المؤاخاة"، وزاد من هذه السياسة بصفة خاصة فى اليوم الذى عاد فيه السير جون من إجازته. كان سيسل Cecil كنج، رئيس مجموعة صحف الديلى ميرور البريطانية، المجادل والمعاند، والذى كان يقوم على إدارة جريدة الديلى Daily تايمز Times النيجيرية، قد أقر واعترف أن آوو Awo هو "السياسى الوحيد فى إفريقيا". كان سيسل كنج قد أعرب عن أسفة لعدم وجود علاقة بالمعنى الصحفى لهذا المصطلح، بين ماكفرسن وبنسون Benson باعتباره نائبًا للحاكم، وبخاصة أن بنسون كان يدافع عن رئيسه دفاعًا مستميتًا، ومع ذلك لم يكن سيسل كنج وحيداً فى إعجابه بآوو نظراً لأن بعض المدراء التجاريين البريطانيين، وبعض أوباوات (رؤساء) Obas الغرب، وقلة قليلة من سياسين الشمال، كانوا يرون أن آوو هو رجل المستقبل، من هنا راح كل هؤلاء يمارسون الضغط ويكثفونه على ماكفرسن من أجل أن يخطو الخطوات الأولى على طريق "المصالحة". كان السير جون ماكفرسن يرى أن المقاطعة عمل صبيانى وغير فعال، ناهيك عن أن الرجل لن يستغل أو يستفيد من تقرُّب آلوو أو زملائه إليه، وأنه سوف يتحاشى الإعلان عنهم أو الإصرار بهم، وذلك مثلما حدث أثناء الأخذ والرد الذى سبق المؤتمر، لكن يتعين عليهم هم أن يخطوا الخطوة الأولى. ولما كان أبو بكر تافاوا باليوا، مثل السير جون ماكفرسن، قد تأسس كبرياؤه على أساس من التواضع الفعال والحقيقى، قد ابتلع ذلك الكبرياء

وتنازل عنه فى مسألة إعادة الوزيرين. من هنا استطاع أبو بكر أن يعرف أن أولوو، وليس الحاكم، هو الذى يجب أن يتراجع، عندما تنتهى قسراً سياسة عدم المؤاخاة من جانب واحد فى يوم من الأيام. وفيما يتعلق بسيسل Cecil كنج، كانت موارد مجموعته الصحفية، سواء أكانت موارد فنية أو مالية، تهُبُّ لمساندة ذلك الحياد المقصود بين الأحزاب "الوطنية" المتنافسة. كان سيسل يهدف إلى تأمين التغطية الصحفية الموضوعية عن طريق صحفيين مدربين تدريباً مهنياً فى سائر أنحاء نيجيريا، ويقدمون مضموناً صحافياً مهنياً وبناءً فى نقده، وبحكم تفوق جريدة الديلى تايمز، من الناحية الميكانيكية، وبحكم توزيعها أيضاً فى سائر أنحاء نيجيريا عن طريق السكة الحديد، وعن طريق البر والجو، استطاعت أن تكون منافساً مؤلماً لنوعية الصحافة الوطنية التى يغلب عليها الطابع الحزبى. يزاد على ذلك أن جريدة الديلى تايمز النيجيرية بدأت توحى أيضاً بنوع معين من المستوى الفكرى السياسى بين الطبقات المتعلمة، وكان ذلك المستوى أقل تحاملاً من الناحية القبلية عن مستوى منافسيه، كما كانت هذه الجريدة أكثر تأثيراً من قوى التعليم والإعلام الرسمية، لكن ذلك لم يكن واضحاً بشكل عام فى ذلك الوقت. وقد أوحى سيسل كنج بفكرة مهمة مفادها أن أحد صحافييه اللاجوسيين Lagosian، سبق أن قال له إن أولوو يبلغ من العناد حداً يصعب معه أن يكون سياسياً، لكن سيسل كنج، منذ البداية، كان يتنبأ تنبؤاً حكيماً بأن ملكية لندن للصحافة النيجيرية لن يكون شيئاً أو أمراً مقبولاً، ولابد من انسحاب تلك الملكية.

كان الهياج والاضطراب الفعلى فى الأقاليم الخارجية يدور حول من يمكن أن يشترك الآن فى عضوية المجلس الفيدرالى الجديد - ومن أين للشمال، على سبيل المثال، باثنين وتسعين عضواً من المتعلمين وأصحاب المعرفة، لكى يشاركوا بصورة مباشرة فى مجلس ليجوس، أو لكى يحلوا محل أولئك الذين ربما سيجرى تصعيدهم وبذلك يخلو مكانهم فى جمعية كادونا، دون أن يؤثر ذلك على قيمة أيام العمل الأسبوعية للعاملين فى الإدارة المحلية أمام رؤسائهم؟ كان برنامج تعليم الكبار قد حدد هدفاً يقضى

بإضافة ٢٢٪ ممن يعرفون القراءة والكتابة من خلال برنامج يستمر خمس سنوات، والغريب أن تلك الخطة لم تكن قد بدأت بعد. هذا يعنى أن الروابط والعلاقات المحلية سوف تؤكد بلا أدنى شك أن المتطفلين الحضر على السياسة هم ومن يعوزهم التكيف مع مجتمعهم سيظلون قلة قليلة، لكن إجادة القراءة والكتابة لا تعنى الوعى السياسى، وهل يتعين على السياسة أن تكون لها أولوية على المزيد من التعليم والتنمية؟ فى كادونا، جرى إعطاء المستشار السياسى الرئيسى سكرتيراً إدارياً، ليكون بمثابة أول سكرتير إفريقى خاص لهذا الرجل المهم، كان اسم ذلك السكرتير: إبراهيم دسوقى. وفي سكتو Sokoto، أُعِدَّ المعلم الشيخ شاجارى Shagari لكى يسلك الطريق الذى يسلكه المدرسون الزائرون فى مركز تدريب يالوا القريب من باوتشى. وفى باوتشى، كان رئيس الكتبة صديق أبى بكر المدعو المعلم جاربا Garba كافن Kafin ماداكى Ma-daki، والذى أصبح يطلق على نفسه اسم المعلم أبو بكر جاربا.

قد تولى رئاسة الحى فى جانجوا Ganjuwa بصفته نائبًا لرئيس الحى، فى حين كان خلفه ظاهر Dahiru يالوا Yalwa بعيداً عن البلاد لحضور دورة الحكم المحلى فى المجلس البريطانى فى بريطانيا. فى بريطانيا كانت نيجيريا قد فتحت مكتبًا للطلبة فى لندن، وذلك بمساعدة من ضابط من ضباط الاتصال فى وزارة المستعمرات، وكان الهدف من ذلك هو إضافة المزيد من المكاتب الفرعية التى من هذا القبيل فى كل من نيوكاسل Newcastel وبرستول Bristol، كان تيار الطلاب الباحثين عن المزيد من التعليم فى بريطانيا قد بدأ يتحول إلى فيضان هائل.

عندما كان أولوو موجوداً فى فرع حزب جماعة العمل فى لندن، طالب الرجل بالمساند والمساعدة على أن يكون هناك حزام أوسط مستقل، الأمر الذى يمكن أن يقلل من سيطرة الشمال، واقترح الرجل أيضًا منوهًا، أنه فى حال فشل مثل هذا الاقتراح، فإن الغرب يتعين عليه البحث عن تعاقد خارج نيجيريا. وصلت إلى ليجوس بعثة من البنك الدولى للإنشاء والتعمير (البنك الدولى)، لعمل تقرير، والذى قد تحبطه الفدرالية

المنتظرة إلى حد ما، لكن هذا التقرير سوف يُبْنى عليه مجلس الاقتصاد الوطنى المستقبلى، الذى سيسهل مسألة التشاور عن قرب بين الحكومات الأربعة، مما يُمَكِّن مستقبلاً من وضع خطة وطنية. وعاد الدكتور جى.بى.يارجرى صاحب معجم الهوسا الكبير، إلى مدينة كانو وهو فى السابعة والسبعين من عمره، كيما يقوم بمراجعة الإنجيل الصادر بلغة الهوسا، وعاد السيد/ مورت Mort الذى لولاه لما التحق أبو Abu بالمدرسة مطلقًا، إلى باوتشى للمشاركة فى إحياء الذكرى الخامسة والعشرين لمركز تدريب معلمى تورو Toro على اللغة العامية، لكن المؤسف أن الرجل لم يقابل وزير النقل المركزى. وكما هو الحال فى العالم الاستعمارى جرى إرسال مفرزة من القوات البريطانية إلى جيانا البريطانية لإحباط انقلاب قام به الماركسيون، الذين قيل إنهم كانوا يحاولون استغلال الديمقراطية استغلالاً سيئًا عن طريق التحريض على قيام الإضرابات والمظاهرات فى مزارع قصب السكر خدمة لأغراضهم الخاصة واستبدالا للديموقراطية بنظام شيوعى يقوم على الحزب الواحد، وجرى طرد الوزراء، الذين كانوا فى الخارج لاستبدال النقابات العمالية بنظامهم الخاص طمعًا فى الاحتفاظ بالسلطة بعون ومساعدة من الاتحاد العالمى لنقابات العمال فى فيينا Vienna، كما جرى أيضًا تعطيل الدستور. وتشكل فى وسط إفريقيا اتحاد روديسيا ونيسالاند Nyasaland، وقام جودفرى Godfrey بتشكيل الحكومة: وكان الأفارقة يشغلون مقاعد الأقلية فى البرلمان، الذى لم يكن متمرسًا أو كفئًا فى الشئون الإفريقية فى منطقتين شماليتين، القول الفصل فى المصالح كلها التى تهم السياسة الوطنية العامة فى سائر أنحاء البلاد، وبذلك يتضح أن الأفارقة وكذلك المستوطنين لم يكونوا راضين عن الأوضاع القائمة.

وهنا أهاب السير جون ماكفرسن بالبلاد كلها، أن تستعد لاستئناف انعقاد المؤتمر، وأهاب أيضًا بزعماء الرأى العام أن يثقفوا الناس فى مسألة الحكم الذاتى – هذا يعنى أن يقوم كل واحد من هؤلاء الزعماء، بمناقشة أفكاره الخاصة مع أصدقائه، ومع رئيس حيه، ومع المسئولين الآخرين سواء أكانوا بريطانيين أم نيجيريين. ووجد

الأمراء، وقلة قليلة من رؤساء أحياء الشمال، أن من الصعب عليهم الاستجابة لذلك النداء استجابة أمينة دون أن يخاطروا بوصف الناس لهم بالرجعيين. هذا يعنى أنه كان هناك خلل فى التعليم السياسى الجماهيرى فى الوقت الذى عقد فيه المدربون اجتماع جمعيتهم العمومية فى شهر نوفمبر. زد على ذلك أن ناظر المدرسة المتوسطة، عثمان جعفر البرنى Borno، كان قد فاز بمقعد نائب باوتشى الذى كان محبوسًا فى السجن فى ذلك الوقت. وفى الحوار والنقاش الذى دار أعرب إبراهيم إمام عن أسفه لبعض الانتقادات الموجهة إلى شيخ برنو، والتى جاهر بها فى مجلس العموم السيد/ جورج ويج Wigg عضو حزب العمال، وكان المعلم أبو بكر قد ساند إبراهيم إمام فى أسفه عن ذلك الانتقاد محذرًا، "**سنطالب بحق انتقاد سياسة الحزب فى المملكة المتحدة، ولن يكون ذلك فى مصلحة الشعب البريطانى، أو صالحنا**". كان ويج قد هاجم أيضًا شيروما Chiroma مدينة كانو، لكن أحدًا لم يأت على ذكر ذلك الهجوم.

كانت لأبى بكر صولات وجولات وأخذ ورد مع وزير التنمية والمالية بطرس Peter جويلم Guillum سكوت Scott الذى تميزت خطبه بالأنفة فيما يتعلق بضريبة الإنتاج وحساب تنمية رأس المال اللذين لم يفهمهما أحد، جادل أبو بكر أيضًا جويلم سكوت فى مسألة ما إذا كانت المنح الحكومية قد دعمت بالفعل راتبه الذى كان يتقاضاه من الإدارة المحلية ("هذا ليس بصحيح")، لكن كان لأبى بكر كلام آخر حول الاقتراح المقدم لزيادة ضريبة الرءوس التى تجبيها وحدات الإدارة المحلية لتصبح ٢ شلن عن كل رأس، قال أبو بكر فى هذا الصدد: "فى العام ١٩٤٨، عارضت معارضة شديدة فى المجلس التشريعى، وكنت فى ذلك الوقت أساند مسألة توحيد هذه الضريبة فى سائر أنحاء نيجيريا ..... لكن .... النظام بكامله خطأ فى خطأ. وعلى سبيل المثال، وعلى حد قول المعلم عيسى كيتا، أنا لا أفهم مطلقًا السبب الذى يجعل الحكومة تتلقى أو تستلم النقود من الإدارات المحلية وتعيد دفع مبالغ أكبر للإدارات المحلية، (من الصعب تصديق تحريك العملات أو نقلها مطلقًا إلى خزانة الإقليم أو إعادتها مرة ثانية إلى خزائن

الإدارات المحلية، على الرغم من أن النقد تكون له أهمية أكبر من الشيكات البنكية فى الخزانات المحلية الصغيرة، يزاد على ذلك أن قلة قليلة من المسئولين هم الذين لهم حسابات مع البنوك، لكن النيجيريين [وحتى البريطانيين أيضًا] لا يرون أى شىء من المنطق فى أن الحكومات المحلية المستقلة ذاتيًا، والتى هى وكلاء للحكومة فى جباية الضرائب، كانت تستلهم سلطاتها من برلمان مركزى، أو أنها تتلقى المنح التى تعطى لها بناء على سياسة مجلس الوزراء المركزى، وفصل الخطاب فى هذا الأمر، [كما هو الحال فى بريطانيا] هو أنه كلما طال انتظار تلك الحكومات المحلية المتفاخرة وكلما زاد توقعها لما تتلقاه من الحكومة المركزية، زادت أيضًا رغبة الحكومة المركزية فى التدخل فى شئون تلك الحكومات المحلية).

تساءل كثير من المراقبين ما إذا كان المعلم أبو بكر يزايد على مسألة عودته إلى الشمال رئيسًا للوزارة. الواقع أن أبا بكر كان يفكر فى الفرص المتاحة لتحقيق هذا الهدف، لكن الرجل كان يعرف، بحكم كراهيته لليجوس، أن زعامة الحزب هى السلطة التى يمكن أن تسوى هذه المسألة، التى للآخرين فيها أصوات أيضًا. قصارى القول هو أن المحادثات التى جرت مع شارود سميث، والتى انتهز أبو بكر فرصتها عندما كان شارود يمر خلال كادونا، وكذلك أحاديث المجاملة حول الجلسات الثرية التى دارت مع روبرت رايت فى الأيام الخوالى، كل ذلك مهد الطريق أمام الحديث عن العودة إلى الشمال فى منصب رئيس الوزراء، لكن الحديث لم يكن بصورة قاطعة أو حاسمة، هذا يعنى أن هذه المحادثات لم تكن كافية لجعل أبى بكر يتحرك فى هذا الاتجاه، وتعنى أيضًا أن نائب الحاكم كان يعرف أيضًا ما يدور فى الأذهان فى سكتو وما يدور أيضًا فى قلوب الأمراء.

فى مجلس رؤساء الشمال، جرى وضع تقرير على جدول الأعمال، وكان ذلك التقرير ناجمًا عن حث نائب الحاكم لمجلسه التنفيذى. كان ذلك التقرير أكثر من مجرد تحية للشمال، نظرًا لأنه كان يتعلق بتبادل الهدايا التقليدية بين الرؤساء **Chiefs**

ورؤساء الأحياء ورؤساء القرى ومواطنيهم. قام أمير جواندو، ذلك الرجل الطيب الذى شارك مشاركة طيبة فى اللجنة التى أعدت التقرير (والذى وافته المنية بعد ذلك بشهرين) بتقديم ذلك الاقتراح. اعترف التقرير بأن قلة قليلة من هذه الهدايا هى التى تقوم على دوافع دينية أو إحسانية، كما اعترف التقرير أيضًا أن الكثير من هذه الهدايا كانت لمجرد خدمة أغراض النفوذ والسلطة، والمباهاة. والجشع، أو لمجرد تقديم الهدايا بغية المحسوبية Neman girma(*) على حد قول الهوساويين. هذا يعنى أن الفقير كان يعانى من نظام يحتم عليه تقديم هدية نظير قضاء المصلحة التى ينبغى قضاؤها. كان ضحايا هذا النظام يقبلونه ويسلمون به باعتبارهم مستفيدين، لم يكن العيب فى الأفراد، وإنما نظام العقوبات هو الذى أدى إلى استشراء الفساد. وصعوبة مقاومته. بعد ذلك بسنوات بدأ المدافعون يصرحون أن إجراءات مكافحة الفساد قد بدأت، وهذا هو الحال أيضًا فى الصين وفى كل الأماكن الأخرى، وبخاصة خلال الأيام التى تسبق تولى المسئول للسلطة، والتى يحصل المسئول فيها على المكافآت فضلاً عن الراتب المدرج فى الموازنة، وصل الفساد إلى حد أن التدخل فى بعض الأحيان فى عرف من الأعراف القديمة كان يعنى الإخلال بمنظومة التقاليد الثابتة، حلوها مرها وذلك من منطلق هدف واحد مقصود ومكشوف للجميع. وعلى حد قول أحد المتشككين فى باوتشى: "أنا أحصل على هدايا تقليدية، لكنك تأخذ رشاوى، إنه فاسد تمامًا". زد على ذلك أن التقرير جاء بمثابة تحريض لضباط الأحياء الذين كانوا لا يعارضون مطاردة الساحرات، كما جاء التقرير تحريضًا أيضًا للرجال المخلصين الأمناء موضوع هذا الكتاب. استطاع أبو بكر أن يجد فسحة من الوقت لكى يكتب رسائل خاصة لنائب ضابط الحى فى باوتشى، ليهنئه هو وزملاءه على العون والمساندة التى يحظى بها

(*) هذا التعبير الهوساوى مساو للتعبير الصينى giving and receiving Face. (المترجم)
والمقصود به تقديم الهدايا بغية المحسوبية.

مستشاروا الأمير، الذين كانوا على استعداد للمحافظة على المبادئ، وانشرح صدر أبى بكر أيضًا عندما علم، وهو فى حفل الغداء أثناء قيامه بزيارة إلى مسقط رأسه وموطنه، أن ضابط الحى رفض كتابة توصية للترقية إلى منصب سكرتير الحكومة، لأن طالب التوصية لم يكن يصلح لهذه الوظيفة لجملة من الأسباب المختلفة.

حدث فى شهر أكتوبر من العام ١٩٥٣ مزيد من الإضرابات فى كانو بين الماهو كاتا mahaukata ومنافسيهم الأسكيان Askianist، الأمر الذى جر العار على كل من حزب المؤتمر الشعبى الشمالى وحزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى على حد سواء. ومع ذلك، فإن المسجونين الذين أطلق سراحهم بعد تنفيذ الأحكام التى صدرت بحقهم جزاء لهم على ما اقترفوه من إساءة إلى المندوبين عندما كانوا فى المطار فى شهر يوليو، أصدر لهم كل من حزب اتحاد عناصر الشمال التقدمى، وحزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى، شهادات من "مدرسة السياسة"، وأعطيت لهم "أغطية رأس تحمل شعار الحرية"، وذلك أسوة بما يحدث مع "خريجى السجون" فى ساحل الذهب. وعندما توفى أمير كانو فى شهر ديسمبر، انتهز نائب الحاكم تلك الفرصة للتعجيل بالإصلاح فى منطقة كانو، وذلك أسوة بما حدث فى الإمارات الرئيسية. والشيروما محمد سنوسى Sanusi الذى خلف أمير كانو كان رجلاً أتوقراطيًا لكنه كان ذكيًا، واستهل عمله بأداء طيب. رفض محمد سنوسى مسألة تقديم الهدايا وأخذها وأصدر الرجل أحكامًا على الماهوتا Mahauta الذين كانوا مؤيدين له، حكم عليهم من محكمته التى أخرجها من دهاليز قصره إلى العلن ليشاهدها الجميع، وأطلق الرجل بعض إشاراته فى اتجاه مجتمع الجنوب، واتسمت مجالس محمد السنوسى بقدر كبير من الليبرالية، نظرًا لأن الرجل جلب المتعلمين من عامة الناس وعينهم رؤساء للأحياء. لكن، على الرغم من إخضاع القلاقل والإضرابات فى كانو على أثر تشكيل "لجنة المصالحة السياسية" من الإدارة المحلية، ومن حزب عناصر الشمال التقدمى، وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى، فإن حياد الأمير الجديد لم يكن كاملاً، وبقيت تقدمية محمد سنوسى أوتوقراطية، يزاد

على ذلك أن غلظة بعض مسئوليه وحرسه الخاص لم تتغير. كان بعض مستشارى محمد سنوسى، الذين كانت تتمثل مهمتهم فى إسداء النصح إليه، وإبعاد الصحف عنه، كانوا مصممين على تجاهل الإدارة الإقليمية، وكانوا يستمدون عونهم فى ذلك من موروث العشرينيات والثلاثينيات الذى تدور من حوله الشكوك، الذى يقضى بأن الممثل المقيم، وليس ضابط الحى هو الوحيد الذى له حق الاتصال بالرئيس القيادى الذى يكون من الطبقة الأولى. وبقيت كانو منطقة ملتهبة تحت السطح ومستعدة لخنق حزب المؤتمر الشعبى الشمالى فى السنوات القادمة. وبانتهاء العام، فى ظل إعلان أقل بكثير من الإعلان الذى حظى به الرفض الرسمى الذى أشرنا إليه فى نهاية الفصل الخامس عشر، جرت الموافقة رسميًا على أن سياسة حكومة الشمال الإقليمية الخاصة بالموضوعات المركزية (الفيدرالية حاليًا) والتى "لم يجر التحفظ" عليها، إنما هى فى حقيقة الأمر تلك الموضوعات التى عرضها حزب المؤتمر الشعبى الشمالى السياسى، وذلك بغض النظر عن مصدرها ومغزاها، ولم يجر الاتفاق سياسيًا على أن ما جرى التوصل إليه يمكن أن يخضع للكوابح التى بوسع شارود سميث هو وجويلّم سكوت إدخالها. وشهدت الانتخابات العامة الخاصة بالجمعية العامة الشرقية خسارة خمسة من الوزراء الستة محل النزاع، مقاعدهم فى تلك العملية، يزاد على ذلك أن السيد/ نوابا، ذلك الوزير المركزى الظريف، خسر هو الآخر الكثير من رصيده الشعبى. وحصل الدكتور إنديلى الهادئ المنسحب ممثل حزب المؤتمر الوطنى الكاميرونى، على الثلاثة عشر مقعداً فى جنوبى الكاميرون، وجرى التعبير عن مخاوف مفادها أن الدكتور أزكوى هو وفريقه الجديد ليسو مكتملى الخبرة. وقام مجلس مدينة ليجوس الجديد بتحركات جديدة يعارضون بها مسألة فصل ليجوس عن الإقليم الغربى. هذه الهيئة الجديدة لم يكن لها عمدة، لكن الأوبا **Oba** أو إن شئت فقل الأيكو **Eleko** كان يترأس تلك الهيئة. وكانت الهيئة تضم ثمانية رؤساء من أصحاب أغطية الرأس البيضاء. وبذلك يكون المستقبل لا يزال محفوفًا بالمتاعب.

الفصل الثامن عشر

استئناف المؤتمر

يشفى بعض الجراح

نفقت العنزة وتركت جلدها يعانى(*)

جاء استئناف انعقاد المؤتمر الدستورى فى ليجوس فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير من العام ١٩٥٤ بمثابة تلك المرحلة من العمل المسرحى التى حظيت برضا شعب جبلوا وأناسها كثيراً على تمثيل المسرحيات ولعب الأدوار. أبو بكر تافاوا باليوا، على سبيل المثال، بلغ من الرزانة والحكمة حداً على المستوى الشعبى يصعب معه أن يكون الرجل ممثلاً هاويا، لكن ظُرف الرجل وأنسه كانا لا يمكن مجاراتهما فضلاً عن أنه كان بوسعه أيضاً التكشير فى وجه الآخرين. وهذا هو السيد/ أوليفر ليتلتون، يجىء ومعه كبير سكرتيريه الخصوصيين، جاك Jack جونستون Jonston، وكان يرتدى قبعة قديمة من الطراز الفيدروى لاتقاء ضوء الشمس. وهذا هو السيد/ إيه. أر.جى جابيز سميث Jabez ـ Smith من مكتب مجلس الوزراء البريطانى، كان لا يزال فى منصب الأمين العام المحايد، لكنه عندما كان فى ليجوس اعتمد اعتماداً كبيراً على فولى Foley نوينز Newns فى إنجاز الأعمال الإدارية الخاصة بالأوراق وتدوين محاضر الاجتماعات. ويفتتح أوليفر ليتلتون الجلسة شارحاً وموضحاً أن الهدف من

(*) ورد هذا المثل بلغة الهوسا. وهو قريب جداً من المثل العربى "هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها". (المترجم)

الاجتماع هو تقسيم تشريعات محددة، وبخاصة تلك التى جرت الموافقة عليها بشكل عام، وأن يكون ذلك التقسيم بين المركز والأقاليم، أوضح الرجل أنهم إذا كان عليهم مواجهة الميول الانقسامية، فلابد من بقاء بعض الأمور الحيوية فى يد الحكومة المركزية، لكن من المهم أيضًا عدم ترك الأقاليم تنفرد بالتحكم فى الأمور الثانوية التافهة والأمور الغامضة. مطلوب أيضًا من الأقاليم القيام بتسوية بعض التفاصيل المالية والقضائية، وأوضح أيضًا أن وفده الذى يترأسه سيكون، فى جميع الأحوال، على قدم المساواة مع الوفود الأخرى، وأن الحال نفسه سينطبق على النيجيريين. وينهى أوليفر ليتلتون حديثه بتناول سيجار كبير جدًا أعطاه إياه (على حد قوله) السير ونستون تشرشل عند منتصف الليل، قبل أن يغادر لندن، باعتبار هذا السيجار "شيئًا يُسَرِّى به ليتلتون عن نفسه إذا ما احتدمت الأمور". ويقوم أوليفر ايتلتون بوضع السيجار على الطاولة، ويقول إنه ينوى تدخين السيجار، لكنه لن يفعل ذلك إلا بعد نتيجة ناجحة يمكن التوصل إليها. لم يحدث أن عصا وزير من وزراء التاج رئيس وزرائه، وفات بمثل هذا العصيان، ولذلك قرر أوليفر ليتلتون أن يكون أول من يفعل ذلك. ينبغى على المؤتمر أن لا يخذله (لم يبلغ أوليفر ليتلتون المؤتمرين أنه وصف تشرشل فى الآونة الأخيرة وصفًا سيئًا على أنه قبطان لسفينة من سفن النُّزوله التى تستخدم فى الصيد، وقد بدا عليه التعب بعد أن دخل الميناء على أثر تناول الطعام واقفًا وخادمًا نفسه بنفسه).

بعد اليوم الثانى من المؤتمر، تحول أوليفر ليتلتون إلى ماكفرسن عندما كان فى سيارة عائدة من مقر الحكومة قادمة من مقر المجلس التشريعى وقاله له: "جوك Jock، أنت تعلم، أن قلبى مع هؤلاء النيجيريين الذين يعملون معك ويتبعونك"، كان ذلك الشعور متبادلاً مع كثير من المندوبين الذين يعرفون أن طرفى النقاش إذا ما أحبا بعضهما بعضًا، فإن السواد الأعظم من أمورهما يمكن أن تتحقق فى سهولة ويسر. يزاد على ذلك أن الغالبية كانت على وفاق حول أرضية مشتركة. لم يكن هناك أية إشارة إلى العثرات. كان ذلك كله مجرد خلفية لشيء غير معروف تمامًا، هو ذلك المقال الذى يفسر بوضوح، أكثر من أية مقدمة من مقدمات السيرة، الأسباب التى تجعل

ضابطًا (رئيسًا) سابقًا من ضباط (رؤساء) الأحياء يحس من واقع خدمته السابقة، بأن عليه تكريم أبى بكر، وبخاصة أن ذلك التكريم بدأ يتجلى ويتضح له من خلال استفساراته وتحرياته. كان المؤتمر قد أنهى قائمة من السلطات الفيدرالية الخالصة، وأن هذه القائمة كانت قوية على الرغم من محدوديتها، كما أنهى المؤتمر أيضًا قائمة كبيرة أخرى من الموضوعات التى تستطيع الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم أن تبنى عليها تشريعاتها (على الرغم من أن تكون الغلبة للتشريع المركزى فى حال الصراع أو الخلاف)، كانت الأحقاد على أشدها حول المخلّفات السابقة الباقية فى النفوس. دار أطول جدل ونقاش غريب حول موضوع متحف الإيف Ife، الذى أراد له الملك Ooni(*) (الرئيس)، من باب البطولة أو من باب ضيق الأفق، أن يصبح متحفًا إقليميًا، ومع ذلك عندما انصرف جدول الأعمال بعد ذلك إلى موضوع الأرصاد الجوية، بدأ المؤتمر يتعثر، وربما كان ذلك راجعًا إلى عدم فهم المؤتمرين لهذا الموضوع.

قال وزير الخارجية إنه خاب أمله: "لقد استطعنا التوصل إلى اتفاق إلى مسألة شائكة أكثر من هذا الموضوع، ولقد سعدت جداً لحسن النوايا والتفاهم الذى أدى إلى هذه التوافقات وجعلها أمرًا ممكنًا. لكننا الآن، وفى هذا الموضوع غير المهم - ولن يستخدم أى إقليم من الأقاليم الطقس فى الإضرار بالأقاليم الأخرى - نبدو وكأننا وصلنا إلى طريق مسدود.. لكنى لا أوافق على ذلك. أنا أريد مخططًا لهذا الأمر، وإذا لم يكن هناك أحد من النيجيريين قادرًا على وضع هذه الخطة أو إعداد هذا المخطط، فسوف يتحتم علىّ الرجوع فى هذا الأمر إلى الأعضاء الرسميين. هل لديك مثل هذا المخطط أيها المحامى العام؟" لم يكن لدى المحامى العام مخطط لهذا الموضوع، ولم يكن لدى بنسون كبير الأمناء أى شىء من هذا القبيل أيضًا - فى هذه اللحظة، فى

(*) الأونى Ooni عند الأجيبو الذين هم طائفة من اليوروبا، هو "الملك" والإنجليز يعادلون هذا اللقب بلقب "رئيس" Chief، (المترجم)

أضعف الأحوال (كان من عادة الحاكم أن يحضر الجلسات الرسمية فقط). قال ليتلتون: "لقد خاب أملي مرتين" - "أنا مندهش أيضًا. لابد أن تكون هناك بعض الأفكار حول هذا الموضوع، لدى أى أحد من الحاضرين"، ويتناول ليتلتون سيجاراً ويروح يبحث في جيبه عن كبريت، ويضع السيجار أمامه عمداً وراح ينظر حوله إلى كل من المؤتمرين، حيث كان عدد الأفارقة يفوق عدد المسئولين البيض وعدد المستشارين بنسبة أربعة إلى واحد. وكما حدث في البداية، لم يكن زعيم حزب أبى بكر تافاوا باليوا، هو الذى كسر حاجز هذا الصمت، وإنما كان أبو بكر نفسه هو الذى فعل ذلك عندما قال:

"سيدى، ينبغى ألا يخيب أملك ـ لقد طلبت المستحيل. حول هذا الموضوع الذى قلت عنه إنه غير مهم تمامًا ـ ربما لعدم أهميته ـ فإن موظفيك المعينين ليست لديهم أية فكرة عن هذا الموضوع. وعليه فإن هذا الموضوع غير المهم إلى حد ما يقف منه رجال الأقاليم الثلاثة الموقف نفسه الذى يقفه موظفوك المعينون، يتعين على أهل كل إقليم من الأقاليم الثلاثة أن يكون لديهم تشريع حول هذا الموضوع. قد يكون ذلك من قبيل النفوذ أو الوجاهة، لكن البعض منا يرى أن لهذا الأمر أهمية كبيرة. كيف لأحد من أصدقائنا المغتربين أن يقدم اقتراحًا أو مخططًا يبرزه عن بقية الناس الذين يعيش ويعمل بينهم؟ ربما لا يكون مفهومًا فى لندن كما هو مفهوم فى إفريقيا أن الفارق الرئيسى بين عضو وزارة المستعمرات البريطانية وأعضاء خدمات الأمم الأوروبية الأخرى، يتمثل فى أنه عندما يقوم موظف وزارة المستعمرات البريطانية بمهام وظيفته فيما وراء البحار، يتوقف عن الإحساس بأنه مواطن بريطانى فى المقام الأول: هذا يعنى أن الرجل يصبح

معنيًا بمصالح هؤلاء الناس ورفاههم ومظهرهم الذين يعيش ويعمل بينهم، كما يصبح معنيا أيضًا بأفكار هؤلاء الناس، وبذلك تصبح أفكار هؤلاء الناس، ومشكلاتهم هى أفكار مثل هذا الموظف ومشكلاته وعليه، يا سيدى، إن كنت قد استمعت إلى رأى يبدو محابيًا - لو افترضنا؟ -

للإقليم الشرقى، فلن يكون هناك أى فرق سواء أكان صاحب هذا الرأى إفريقيًا أم مقيمًا، أو أسود أو أبيض: إنه سيكون من الإقليم الشرقى، وعندها لن يكون لدى أى موظف من موظفيك رأى مختلف حتى يعبر عنه فى مثل هذا الحال - وسوف يستمر ذلك، فى أضعف الأحوال، إلى أن تتهيأ له فرصة التشاور مع إخوانه الشرقيين. أنت - ونحن فى الشمال، وأصدقائنا الغربيين - نتمنى أن يكون هناك خلاف، لكن الواقع غير ذلك. وعليه، أقترح يا سيدى، تأجيل هذا الأمر إلى اجتماع لاحق، حتى يمكن من خلال ترؤس الأمين العام، لمجموعة صغيرة من المندوبين، التوصل إلى شىء تجرى إحالته إلى الحاكم وبذلك يمكن التوصل إلى حل وسط على الطريقة البريطانية".

لم يحدث مطلقًا أن كان مقر الحكومة البريطانية مركزًا سياسيًا أو أكاديميًا الذى لم يفهم جيدًا مثل أبو بكر الروابط العاطفية التى تجعل النظرية المادية أمرًا تافهًا (قد تنقلب الفضيلة بطبيعة الحال إلى رذيلة إذا ما جرت ممارستها على نطاق ضيق للغاية: هذا يعنى أن المرض الذى يُعرف فى كينيا باسم مرض الماسايتز **Maasai-it is** يمكن أن يكون مرضًا سرطانيًا إذا ما حكم المصابون به على البلاد كلها من منظور التيف **Tiv** أو سكتو **Sokoto**، أبو بقاع التلال الهندية أو من منظور أبالاشيا **Appalachia**).

جرى اتخاذ كثير من القرارات وذلك على العكس من مسألة مراقبة الطقس. كان أول من تكلم فى هذا الاجتماع هو المستشار السياسى الرئيسى، تلاه الدكتور آزكوى، ثم أمين كانو، وبعده إيو **Eyo** إيتا **Ita**، ثم ملك **Ooni** الإيف ومن بعده إنديلى **Endeley**

وليس آوو Awo. كان حزب جماعة العمل قد كرر طلبه الذى تقدم به فى مؤتمر لندن حول حق الإقليم فى الانسحاب من أن يصبح نصًا دستوريًا رئيسيًا. وقد أورد الدكتور آزكوى الكثير من الحجج البحثية المؤيدة لذلك، وقد أخذ آزكوى هذه الحجج عن دانيال ويستر، وروبرت بايدلى، ودى مالبرج، وإبراهام لينكولن. وتلا أبو بكر الدكتور آزكوى فى الحديث متحدثًا بطلاقة ولباقة لكنه كان أقل حُجيَّة، وأوضح أوليفر ليتلتون، أن مثل هذا الانسحاب يمكن أن يصيب أية حكومة مركزية بالشلل، جراء وقوعها دومًا تحت تأثير التهديد بذلك الانسحاب. ويوافق الرئيس آولوو آسفًا على رفض أوليفر ليتلتون. كان الكاميرون الجنوبى قد تأكد وجوده على أنه أرض فيدرالية ذات مسئولية تنفيذية وتشريعية أمام الحاكم العام مباشرة. وجرت أيضًا الموافقة على التوصيات المرسلة من قبل السير لويس شيك Chick، المسئول المالى الذى جرى تعيينه فى لندن، والتى تقوم على الموازنة بين منشأ الإيراد مقابل الاحتياجات إلى الإيراد، على أن يكون ذلك فى شكل نسب ولا يمكن إقحامها على هذه الدراسة، أو تربك السواد الأعظم من المشاركين. وجرت أقلمة مجالس التسويق وتوزيع احتياطياتها (٤٦٪ للغرب، ٣٣٪ للشمال، ٢١٪ للشرق)، ولم يلاحظ كل الحاضرين أن السيد/ آولوو كان يلمح إلى إدراج الاحتياطيات التسويقية لزراع الكاكاو وضمن الإنفاق العام، واتُّفق أيضًا على أن تكون هناك هيئة مركزية تواصل الإشراف على معايير الجودة وتسويق سلع التصدير فيما وراء البحار.

على الرغم من المعارضة القضائية الموجودة فى ذلك الوقت، والمعارضة من جانب المحامين فى ليجوس، وعلى الرغم أيضًا من قوة تلك المعارضة فى بعض الأحيان، فقد تأكد إنشاء محاكم إقليمية عالية، وجرى تدريب الشماليين بصفة خاصة حتى يتأكدوا من عدم وجود أقسام قضائية شمالية أو مناطق قضائية يجرى الإشراف عليها من قبل المحاكم الموجودة فى إيبادان أو إينوجو، ويتأكدوا أيضًا من أن قضاءهم يجب أن يكون مكونًا من رجال يكون تعاطفهم مع عادات الشمال وأعرافه وتقاليده وأخلاقياته يفوق حبهم لقانونية المحاكم - وعلى حد قول البعض إن الشماليين كانوا يريدون "العدالة

البريطانية، وليس القانون الإنجليزى". وفيما يتصل بالمسائل القانونية يمكن استئناف أحكام المحاكم العالية أمام المحكمة الفيدرالية العليا (وأصبح لليجوس العاصمة الفيدرالية محكمتها العالية الخاصة بها). وأصدر المؤتمر تأكيدات جادة للخدمة المدنية، وهنا قُضى الأمر، هذا يعنى أن الشكل السياسى لنيجيريا قد تحدد، بالشكل الذى سيظل عليه طوال اثنى عشر عامًا، وأن الذين حددوا هذا الشكل هم النيجيريون أنفسهم. وإذا كانت مظاهرات كانو قد أنهت الدستور القديم، فقد حدث قدر كبير من التصالح المؤقت حتى يمكن للدخلاء والغرباء أن يتبينوا ذلك الذى كانت تدور من حوله كل هذه المشاجرات.

أبلغ أوليفر ليتلتون الصحافة أنه إذا ما أدت الظروف السياسية إلى دوام الحال (أى ظهور حزب واحد وتسوده للأمور كلها، أو لنقل ظهور رجل واحد كزعيم لأغلبية تبشر باستمرار الاستقرار)، فلن تكون هناك عقبة فى السماح برئيس للوزراء. كانت مسألة التلويح بالآمال أمام الزعماء مسألة فاضحة ومهمة فى آن واحد، وبخاصة أولئك الذين يستطيعون التوصل إلى حلول وسط حزبية. حظيت رئاسة أوليفر ليتلتون للمجلس بثناء واسع، على الرغم من أن البعض كانوا ينظرون إلى تلك الرئاسة باعتبارها نوعًا من المكر والخداع، وأنه جرى طرده بطريقة مفرحة ومبهجة. وقد اكتشف المتخصصون القانونيون المحترفون، الذى تعين عليهم فى ذلك الوقت ترجمة محاضر المؤتمر إلى أوامر مجلسية فى مقر الحكومة البريطانية، اكتشفوا أن النصوص كانت دقيقة، واكتشفوا أيضًا عدم وجود ثغرات فى منطقة هذه النصوص، واكتشفوا أيضًا أثر التعليم الليبرالى فى صياغة الدستور، والذين لا شك فيه أن الأفارقة أطلقوا على خلطتهم هذه اسم "دستور ليتلتون". تبقت بعد ذلك مجموعة صغيرة من النقاد الذين آثروا التفكير الذى مفاده أن الإدارة الشمالية نجحت إلى حد ما فى صياغة مؤامرة ميكيافيلية لكى تطيل أمد سلطاتها من خلال الانهيار الكاسح للأقاليم كلها. كان السواد الأعظم من الرجال مشغولين بالعودة إلى أعمالهم الحقيقية. كان على أبى بكر

تافاوا باليوا أن يوقِّع على ويكتب تصديراً لتقرير من التقارير السنوية (تقرير إدارة البحرية)، وكان عليه أيضاً أن ينضم إلى السير جون ماكفرسن فى وضع حجر أساس محطة إدُّو Iddo الجديدة فى ليجوس، والتى تعد نهاية الخط الحديدى النيجيرى الذى يمتد مسافة تقدر بحوالى ثلاثة آلاف كيلو متر.

لم تكن نيجيريا ممثلة تمثيلاً مباشراً فى اجتماع وزراء مالية الكمنولث الذى عقد فى سيدنى، والذين كانوا معنيين فى المقام الأول بمسألة تدعيم التقدم الاقتصادى فى منطقة الإسترلينى، لكن على الرغم من القيمة الإخبارية الكبيرة المعلقة على كل من ساحل الذهب، وقبرص، وكينيا، وروديسيا، فقد بدأ الكمنولث يدرك مؤخراً ويلاحظ حقيقة الملاحظة التى أبداها أوليفر ليتلتون والتى مفادها أن أكثر من نصف الرعايا الاستعماريين البريطانيين كانوا يعيشون فى نيجيريا، وأن إقليمها الصغير كان مزدحماً بالسكان مثل سائر المناطق الاستعمارية الأخرى. كان السير جون ماكفرسن قد أبلغ لندن، ولم يبلغ زملاءه، أنه كان لا يزال يفضل مركزاً قوياً، وأنه يحبذ تقسيم الشمال فى المستقبل - إذا ما استطاع أن يتخيل أو يتصور الطريقة التى يمكن أن يحدث بها هذا التقسيم والتاريخ أيضاً الذى يمكن أن يتم فيه مثل هذا التقسيم. كان جون ماكفرسن لا يزال على علم بما يدركه السيد/ أوبافيمى Obafemi آولوو، والذى كان الكثيرون غير مدركين أو واعين به، وهو أن فكرة إقليم "الغرب - الأوسط" الذى تسكنه الغالبية العظمى من معارضيه إذا ما أبعد عن سيطرة إيبادان Ibadan، قد يُمكِّنه ذلك من إثبات أن حكومة من حزب يضم كل الأفارقة يمكن أن تحكم البقية حكماً آمناً وناجحاً.

تقدم صائغوا الوثائق بسؤال كان يعرب عن المتاعب التى يمكن أن تترتب على الاستقلال المبكر. هل يتعين أن يكون للحاكم العام المنتظر سلطات تحفظية محددة تعطيه الحق فى التدخل فى المسائل الإقليمية وذلك من باب خدمة المصالح الفيدرالية ككل؟

جرى التعامل مع هذه المسألة بشكل نظرى تمامًا، فى ظل مُسلَّمة مفادها أن تعليمات ملكية تكميلية يمكن أن ترسل فى حال نشوب أى طارئ من الطوارئ، لكن لم يكن هناك إجماع على هذه الفكرة. كان السير كلم Clem بليس Pleass فى الغرب على يقين من أن السلطات التى من هذا القبيل يجب أن تكون من صلاحية الحاكم العام الذى يتصرف من منطلق مرئياته هو بدلاً من التصرف بناء على توصية أو نصح يصدر عن مجلس مستقبلى للوزراء. وكان توم Tom وليامسون Williamson وكل وزارة المستعمرات يرى، أن الرأى الأخير هو الأفضل بدلاً من تعطيل الدستور. واتفق الجميع على حتمية عدم إسناد مهام المدعى العام، فى تلك المرحلة، إلى أى وزير من الوزراء المنتخبين. ولم يكن أحد مقتنعًا أن مخاوف الشمال قد جرى تبديدها والتحوط لها، وذلك على الرغم من انقسام المؤتمرين حول مسألة الأسس المنطقية. لم يفكر أحد مطلقًا فى إرساء سوابق راسخة لبناء الاستقلال التام.

كانت تحدث فى باوتشى بعض الأمور التافهة. كان إرنست Ernest جون John بتلر Butler الضابط الزراعى المحلى (شقيق هربرت Herbert جورج أحد رجال التعليم)، ينفق قسمًا كبيراً من وقته فى النصح للمُعلم أحمد كارى Kari، ومساعدته، وإمساك دفاتره، والمعروف أن أحمد كارى كان محميًا من أبى بكر تافاوا باليوا وزوجًا لأخته، كان أحمد كارى يعمل كاتبًا فى المكتب المركزى فى مكتب باوتشى الرئيسى التابع للإدارة المحلية، لكنه التحق بعد الحرب بإدارة العمل لكى يعمل فى مجال إعادة توطين الجنود السابقين، وجرى تشجيع ذلك الرجل عن طريق القروض الحكومية، أن يصبح أول فلاح متعلم فى باوتشى يمتلك جراراً زراعيًا. أحس ضابط الحى الإدارى الذى حصل على لقب رئيس حى، بالحرج عندما اضطر إلى إثناء عزم المعلم عثمان Othman جعفر (عضو الجمعية العمومية)، عن الحصول على سلفة لشراء سيارة صالون أمريكى كبيرة قد يصعب عليه المحافظة عليها أو تمويلها، ونصحه بأن يرضى

بالسيارة الفلوكس. كان الرجل قد حصل على سلفة بالفعل لاستبدال سيارة عامله الصغيرة بسيارة صالون كبيرة كندية الصنع – وقد حرص أبو بكر تافاوا باليوا على أن يؤكد لأحمد كارى فى زيارته التالية: **"أولاً وقبل كل شيء، أنت لم تحصل على سيارتك على الفور!"** لكن رئيس الحى أحرج محاسب الخزانة المحلية، وهو (عضو مجلس المندوبين أو الممثلين)، الذى طلب توقيعه الذى يسمح له بشراء بنزين باوتشى بالأسعار السائدة فى ليجوس (وهذا امتياز من امتيازات العاملين فى التشريع والعاملين في الخدمة المدنية)، وجرى الحصول على هذا التوقيع غير المرغوب فيه، فى الهواء الطلق، ونظراً لعدم وجود طاولة للكتابة تجرَّأ الرجل من منطلق المعرفة الطويلة على أن يلعب دور الوغد ووقع الاستمارة وهو يسندها على ظهر عضو مجلس المندوبين أو الممثلين، الأمر الذى انشرح له صدر رئيس الحى، ورئيس الشرطة، ورئيس الحرس الذين كانوا جميعهم حاضرين. اتضح فيما بعد أن ابتسامات عضو مجلس المندوبين أو الممثلين كانت شيئًا مصطنعًا. وخلال الاجتماع الذى تلا ذلك، والذى عقدته جمعية الشمال العمومية فى كادونا، حدث قدر كبير من الهمهمات والغمغمات من قبل أعضاء حزب المؤتمر الشعبى الشمالى مفادها أنه كانت هناك ولا تزال طائفة من الموظفين الإداريين "من الدقة القديمة" الذين لا يقرون أو يعترفون بأن الدنيا قد تغيرت، وأن وحدات الإدارة المحلية بوسعها أن ترفض نصائحهم، أو (بالأحرى) لم يدركوا أن التشريعيين ينالون الاحترام نفسه الذى يحظى به الأمراء. قام وزراء حزب المؤتمر الشعبى الشمالى الذين كانوا داخلين فى صراع ضد كل من مساعد الحاكم والسكرتير المدنى حول مسألة البطء فى اختيار الشماليين لمنصب رؤساء الأحياء، قاموا بنقل الشكاوى إلى مقر الحكومة، الذى أصدر سيلاً من الخطابات السرية إلى الممثلين المقيمين، كما أرسل بصفة خاصة برقية مشفَّرة إلى القائم بعمل الممثل المقيم فى باوتشى تى إف جى هوبكنز Hopkins، يطلب منه تقريراً كاملاً عن الإهانة العامة التى ارتكبها ضابط الحى فى الميدان العام الموجود أمام كل من المسجد والسجن. وجرى التعامل مع هذا الأمر على أنه أمر مؤسف، لكنه كان خطأ بريئًا وغير مقصود،

لكن جرى التركيز على هذا الحادث على أنه أيضًا إشارة إلى اختلاف الأزمان وقد حدا ذلك برئيس الحى إلى المزيد من الحرص وألا يأخذ العلاقات الودية قضية مسلمًا بها، كان اختلاف الأزمان هذا يتمثل فى أن السير برايان Bryan شارود Sharwood – سميث أخبره بعد ذلك بعام أن المعلم أبا بكر تافاوا باليوا كان واحداً من وفد الاحتجاج لدى الحكومة وأنه كان واحدًا من أشد الأعضاء غضبًا. وقد أحس رئيس الحى بالهدوء أيضًا عندما علم أن تيرى Terry هوبكنز، كان هو الآخر ضمن هذه المجموعة الغاضبة، نظرًا لأن رئيس خدمة المدعو توماس Thoms، وهو رجل من الإيجو Ijo من سلالة سكان الروافد الضيقة، رفض إيقاظه من نومه عندما زاره شتيما Shetti-ma كاشيم فى الممثّلِيَّة ليطلب منه مساعدته فى رحلته التى يقوم بها من ميدورجورى Maiduguri إلى كادونا. حدث ذلك قبل سنوات كثيرة من علم رئيس الحى بأن كوامى نيكروما سبق أن كتب استقالته من منصب أمين عام اتفاقية ساحل الذهب المتحد، على ظهر زميله فى العام ١٩٤٩، وذلك على العكس مما ذهب إليه المحاسب أو أبو بكر فى اعتبار مثل هذا الأمر سابقة وثيقة الصلة بالموضوع.

نشب أيضًا صراع حول الوظائف العليا، والسبب فى ذلك أن الداخلين فى هذا الصراع كانوا يتطلعون إلى صخور ثابتة يقفون فوقها. كان مستشارا شارود ـ سميث الرسميان: مادوكس Maddoks (الذى هو قائم بعمل السكرتير المدنى فى الشمال) وجويلم Guillum سكوت Scott، يتطلعان إلى المستقبل عندما يستاء حاملوا الشهادات والدرجات العلمية من كونهم مرءوسين لأناس يحملون مؤهلات أدنى من مؤهلاتهم، وإصرارهما على "التشريف والتكريم"؛ كان مؤيداً المستشار السياسى الرئيسى Sar-dauna: موزّع المهام وعيسى كيتا، قد أشارا وأوضحا أن مداخل جماعة المقيمين الخاصة "بخدمة الحرب" قَيَّمتها آلية فيرس Furse على أنها تعادل مرتبة الشرف، ولكنهم منعوا من استكمال الدورة بسبب الطوارئ. لكن هذه الإشارة وذلك التوسط باءا بالفشل، وهنا غضب المستشار السياسى الرئيسى، واستخدم لغة عنيفة، وتزعم مسألة

الانسحاب من الاجتماع، ووصل الأمر إلى حد صفع الباب بعد الخروج منه :"أنا مستقيل، نحن كلنا مستقيلون، نحن عائدون إلى موطننا!" فى المساء التقى الوزراء ثانية فى ملعب لعبة الخماسيات بالقرب من مضمار السباق فى كادونا، ولاحظوا كلاً من الحاكم وكبير الأمناء، والأمين المالى فى اجتماع سرى وهم يستنشقون الهواء العليل. فى اليوم التالى تردد الحاكم على منزل كبير الوزراء، كما استدعى بقية الوزراء الإقليميين الآخرين، وجرى التوصل إلى اتفاق مفاده أنه لابد من التوصل إلى حل وسط بأى حال من الأحوال.

كان ذلك آخر اجتماع تشريعى شمالى، تكلم فيه المكرم المُعَلّم أبو بكر تافاوا باليوا باستفاضة وحكمة عن الشئون الإقليمية، وفى الكلمة التى ألقاها أبو بكر تكريماً لتيجر TIGER فيلبس نائب مدير التعليم فى الشمال بمناسبة تقاعده، أعرب الرجل عن أمله فى أن يستعمل هذا الإقليم خبرته ويستفيد منها، خصوصاً وأن الشمال مقدم على برنامج تعليمى كبير جداً، كان أبو بكر يتردد دومًا فى مقابلة أولئك المسئولين الذين احترمهم لأنهم رعوا الماشية دون أن يقيدوا حركتها. لكن أهم تدخل من جانب أبى بكر حدث فى المرحلة التى بدأت اللجنة عندها تتناول مسألة قائمة التخصيص النسبية، المتعلقة بالإدارة المحلية ورؤساء الأحياء. كان رئيس حى باوتشى مشغولاً انشغالاً كبيراً بمسألة إيجاد لوائح جديدة لتلك القبائل الوثنية، التى على الرغم من تمسكها بتقاليدها وأعرافها وأسلافها، ظلت تُدار على امتداد فترة طويلة، بواسطة إمارة باوتشى أو من خلالها، وبواسطة رؤساء أحياء مسلمين على اعتبار أن مناطق هذه القبائل تعد فى بعض أجزائها أو كلها جزءاً من ممتلكات هؤلاء الرؤساء، كان أبو بكر قد ناقش هذه المسائل من قبل مع تيجر فيلبس باعتباره مستشاراً للأمير من ناحية وصديقًا لأبى بكر من الناحية الأخرى. كان رئيس الحى هو الآخر قد جاء لتوه من زيارة منطقة مسلمة سبق أن عانت الكثير نتيجة الإشراف عليها من بعد، وكان بصحبته المعلم آدم جومبا مشرف الزراعة فى الإدارة المحلية واقترح ترسيما جديداً لحدود الحى. فى ذلك الوقت

كان ضباط الحى الإدارى، جيرالد Gerald سمرهيز Sammerhayes، يتحرى مشكلة أخرى تتعلق بجيران أبى بكر تافاوا باليوا أيام طفولته، هؤلاء الجيران هم من السّياوا Seyawa. وعلى هذه الخلفية نورد هنا ما قاله أبو بكر فى تلك المناسبة:

"أعتقد أن دوائرى الانتخابية ستسعد تمامًا بما سأقوله الآن.... استقبلت ممثلين جاءوا إلىّ من جماعات قبلية متباينة ... قد يعرف بعض أعضاء المجلس أنى ميّال إلى هذا الأمر إلى حد ما ... وأنا من حى ثلاثة أرباع سكانه عبارة عن مجموعة من هذه القبائل الصغيرة ... حاول الناس حوالى مرتين تعيين رئيس حى من قبيلة الأغلبية، ... وقد صادفنا بعض المتاعب فى مرتين أو ثلاث مرات ... وقد يكون من الأفضل لهؤلاء الناس أن نوليهم شيئًا من الاحترام التعاطفى ..... مشكلة تلك القبائل لا تتمثل فى رغبة هذه القبائل فى ترك الإقليم الشمالى، وإنما تتمثل فى أن هذه القبائل تود أن تختص بنفسها على المستوى المحلى. وأنا لا أعتقد أن الإدارات المحلية إذا ما قدر لها أن توافق على ذلك الذى تريده هذه القبائل - ألا وهو، رؤساء أحيائها أو بالأحرى أراضيها المحلية الفرعية - سيكون هناك كلام كثير عن تلك الفكرة الاصطناعية، فكرة إقليم الحزام الأوسط. وأنا أتكلم هنا من واقع الخبرة. لقد تعاملت كثيرًا فى الماضى مع القبائل التى على هذه الشاكلة، والناس عندما يتكلمون عن "الحزام الأوسط" ..... لن يستطيع أحد منهم تعريف ذلك الذى يعنيه هذا المصطلح .... نحن لدينا مشكلة واحدة فى المناطق التى فيها قبائل من هذا القبيل، لقد جرى تزويد هذه المناطق بأنواع خاصة من المحاكم الوطنية فى الوقت الحالى، لكن من سوء الطالع، أن السواد

الأعظم من هذه المحاكم ليست كفؤة، ونحن دائمًا نرى أنه ليس مفيدًا استبدال قضاة المحاكم بمحاكم أخرى محلية ..... وإذا ما عُين رئيس حي من بين هؤلاء الناس قد لا يستطيع تصريف أموره على النحو الذي يرضي الإدارة المحلية. هناك أيضًا صعوبة أخرى، وحتى فى المناطق التى تعيش فيها هذه القبائل، نجد جماعات كبيرة من هذه القبائل مبعثرة بالقرب من هذا المكان. وعلى سبيل المثال، نجد أن القرية "أ" ترفض دفع ضرائبها إلى القرية المجاورة، أو القبيلة الصغيرة "ب" ترفض الاعتراف بقبيلة أكبر منها. وهذا هو السبب وراء الحكمة من وجود رئيس حى مستقل فى المنطقة التى تكون من هذا القبيل. وأنا أرى أن صديقى المُعلّم دوا Dauda كواى Kwoi، هو وغيره من الذين يعيشون بين هؤلاء البشر يتعين عليهم أولاً جعل هذه القبائل تتفق فيما بينها".

كان المعلم إبراهيم إمام ، أمين عام حزب المؤتمر الوطنى الشمالى، الحرون بصفة دائمة، والذى ظنَّ البعض أنه كانورى Kanuri ينشد جمهورية مستقلة فى برنو Borno، كان قد ضايق مؤخرًا المعلم أبا بكر تافاوا باليوا بصيغة أو تعبير مسكوك عن الحرية وأنها غير قابلة للتحويل، والذى رد عليه أبو بكر متعجبًا "أنا لا أنكرها على أحد!" ويواصل المعلم إبراهيم إمام كلامه عن القراءة الثانية لتعديل قانون الإدارة المحلية وتدعيمه، الذى جُهزت مسودته حكومة المستشار السياسى الرئيسى Sardauna هى والسكرتير القانونى بناء على الحوار السابق الذى دار حول تقرير بوت ـ مادوكس Pott - Maddocks. أصر إبراهيم إمام على أن ذلك يعد خطأً تاريخيًا، نظرًا لأن هذا القانون يعتدى على وضع الأمراء سواء أكانوا أعضاء، "فى" المجالس أم "رؤساء" لها. وهنا نجد أبا بكر، من جديد وبصفته الرجل الذى عبأ الناس للإصلاح قبل أربع سنوات،

ينبرى للرد على هذا الغمز واللمز الذى مفاده أنه أصبح الآن مقيداً بالسلطة المركزية من ناحية بالبروتكول الحزبى من الناحية الأخرى، ويجىء رد أبى بكر هذه المرة دون وجود محرر على هذه الخلفية.

> **أود أن أوضح منذ البداية، دورى فى هذا المجلس .... أنا مجرد عضو، وأنا حر .... فى انتقاد الحكومة المحلية .... وقد أشار أحد الأعضاء بالأمس إلىّ بأنى رجل أناضل من أجل قضية الرجل العادى – فى الماضى! لكن يقال الآن إنى تخليت عن النضال من أجل قضية الرجل العادى. أنا نفسى لا أزال رجلاً عامًا، وسوف أواصل كفاحى من أجل الرجل العام .... المتحدث الأخير يتكلم دومًا عن هذه الكلمة المهمة "الديمقراطية" وأنا أجد من الصعب علىّ تفهم ذلك المقصود من هذه الكلمة "الديموقراطية". هذه الكلمة يمكن ترجمتها على أنها "ممارسة بواسطة مكان بعينه". فى أمريكا الناس يمارسون "الديمقراطية" ، وفى المملكة المتحدة "ديموقراطية". فرنسا هى الأخرى يا سيدى، "ديمقراطية" لكن هذه الديموقراطيات أنواع مختلفة. إذن يمكن أن تكون "ديموقراطيتنا" فى نيجيريا نوعًا مختلفًا من "الديموقراطية". أفضل أنواع الحكم فى أى بلد من البلاد هو الحكم الذى يرتضيه الناس ويتمتعون به، الحكم الذى يجعلهم يعيشون فى سلام وسعادة. درج الناس على القول إننا فى هذا الإقليم نود الاحتفاظ بعاداتنا وتقاليدنا الطيبة. وهنا نحن نتمنى أن تقترض من الخارج التقاليد الطيبة أو العادات الطيبة ـ تكلم أحد الأعضاء مستفيضًا عن شرور الحكم غير المباشر. وأنا شخصيًا لا أريد الحكم غير المباشر كله. لقد سبق أن قلت مرارًا**

إن نظام الحكم غير المباشر جلب على الشمال مزايا كثيرة. ولولا الحكم غير المباشر، لما استطعنا المحافظة على كثير من الأشياء الجيدة التي لدينا الآن، وأنا أحس دومًا، أننا إن قدر لنا أن ننمو ونكبر فإن ذلك يجب أن يكون على أساس من المبادئ والأسس الخاصة بنا. هذا لا يعني أني أعترض على إدخال مدخلات جديدة وأجنبية على أساليب حياتنا تفيدنا وتحسن من أحوالنا.

"وهذا عضو آخر راح يشير إلى غرب إفريقيا متناسيًا نيجيريا. وأنا أرى أننا عندما نناقش هذا القانون، نكون قد ابتعدنا تمامًا عن الموضوع إذا ما رحنا نشير إلى منطقة كبيرة مثل غرب إفريقيا. صحيح أننا كلنا هنا سياسيون، لكننا ينبغي علينا مواجهة الحقائق، وبخاصة إذا ما تعين علينا مناقشة أمور تؤثر تأثيرًا مباشرًا على ملايين البشر الذين نحن ممثلون لهم. كل عضو يتفق معي على أن هذا القانون يعد تحسينًا طرأ على ما كان سائدًا في الماضي. ترى ما هو الهدف من وراء الحكم المحلي في هذا الإقليم. الهدف هو أن نأتي إلى الناس بأفكار جديدة، وأن نهيئ لهم الفرصة كي يشاركوا في مناقشة أمورهم، وأن ندخل لهم التغييرات على نحو لا يؤدي إلى الإخلال بسعادتهم أو الإضرار بأمنهم أو سلامتهم أو راحة بالهم، إذا لم تكن تلك التغييرات جذرية وجوهرية.

"نحن ننظر دومًا إلى رؤساء الشمال باعتبارهم جماعة مميزة تمامًا، وننظر إليهم أيضًا باعتبارهم جماعة شبه منعزلة تمامًا عن الناس. وهذا خطأ بطبيعة الحال، نحن نهدف إلى أن يكبر الناس مع الرؤساء وأن تقدمنا سيكون مبنيًا على أساس الجمع

بين القديم والحديث. المشرعون الشبان بحاجة إلى خبرة الكبار. الإدراك العام، فى هذا الإقليم، لا يعنى القدرة على الوقوف فى الجمعية العمومية والتحدث إليها بلغة أنيقة أو التحدث باللغة الإنجليزية. أعضاء الجمعية يعلمون أن فى الشمال أناسًا كثيرين لا يستطيعون التحدث بالإنجليزية ولو كلمة واحدة فقط، لكن هؤلاء الناس حساسون وواعون من جميع النواحى الأخرى. ونحن جيل الشباب، إذا كنا قد أتيحت لنا فرصة تعلم الإنجليزية ومعرفة تاريخ أجزاء أخرى من العالم، فإن ذلك لن يكون عونًا لنا وحدنا وإنما للإقليم كله إذا ما حاولنا الاستفادة من تجربة الكبار وخبرتهم، ونحن يمكن لنا الاستفادة من هذه الخبرة إذا ما أظهرنا لهم احترامنا وتقديرنا إياهم، ونحن عندما نوليهم هذا الاحترام والتقدير، لا يخامرنى شك فى كسب تعاطف الجماهير وإشفاقها علينا. سيادة الرئيس، كثير من الناس فى هذا المجلس - حوالى متحدثيْن أو أربعة متحدثين - تكلموا عن الإنسان العادى. وأنا أود هنا الإشارة إلى بعض النقاط التى أتى عليها عضو محترم من هؤلاء الأعضاء، وأعتقد أن هذا العضو المحترم من الهضبة. وأنا آخذ كلام هذا العضو مأخذ الجد لأنى أحس أن العالم الخارجى أو الأجزاء الأخرى من نيجيريا لا يعرفون مدى احترام هذا العضو وتقديره تقديرًا كبيرًا. هذا العضو المحترم دأب على تكرار أن هذا القانون سوف يضر بالرجل العادى، لكنه لم يذكر لنا كيف سيكون هذا الضرر وما هى أسبابه، وقيل إن العضو المحترم كان يقتبس عن التاريخ تفاصيل وأقوال غير صحيحة. ونحن نقول إن تاريخ هذا العضو قد يكون تاريخًا معتدلاً - وأنا أتمنى على أعضاء المجلس عندما يتحدثون

أن يكونوا مستعدين لتدعيم مزاعمهم وأقوالهم. آخر المتحدثين أشار إلى الحزب الذى أنتمى إليه، أى حزب المؤتمر الشعبى الشمالى. وأنا لا أود أن أذكر اسم حزبى لكنى أرى أن من الضرورى أن أفعل ذلك. سياسة حزبى، التى يعرفها هذا العضو حق المعرفة، هى "أرض واحدة، وشعب واحد، بغض النظر عن القبيلة أو الملة". حزب المؤتمر الشعبى الشمالى يرى أن كل إنسان فى الإقليم سوف يتعاون لإنجاح هذا المشروع إلى أن يصبح قانونًا. أما فيما يتعلق برأى السكرتير العام والذى اقتبسه هذا العضو، فأنا أرى أن ذلك الرأى يعد رأيًا شخصيًا للأمين العام باعتباره مجرد عضو فى الحزب، يزاد على ذلك أن الأمين العام كان قويًا فى آرائه بالقدر الذى يعطيه الحق فى الإعراب عن هذه الآراء الشخصية والتعبير عنها.

"سياسة حزب المؤتمر الشعبى الشمالى معروف للجميع، وعندما يتكلم أى عضو نيابة عن الحزب، فإنه يتعين عليه التحدث فى إطار سياسة الحزب. سيدى، أشار أيضًا أعضاء كثر إلى الموظفين (الضباط) الإداريين. ولعلك تذكر أنى كنت واحدًا من بين أعضاء المجلس القديم الذين اعترضوا لا على عمل الضباط (الموظفين) الإداريين وإنما على الحقيقة التى مفادها أن هؤلاء الموظفين الإداريين فى الإقليم، فى ذلك الوقت، لم يكونوا يقومون بالعمل المطلوب منهم على أكمل وجه. كنت أعرف دومًا أن نجاح الحكم المحلى أو الإدارة المدنية يعتمد اعتمادًا كبيرًا على هؤلاء الناس. أنا أريد للموظفين الإداريين فى الشمال أن يخرجوا للمساعدة فى تنمية قرانا ومجالس أحيائنا، وأن ينوّروا الناس

ويعاملوهم كبشر، لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى ستجعل الناس على علاقة طيبة بهؤلاء الموظفين وتجعلهم أيضًا يفهمون مسئولياتهم ويدركونها. هناك شيء واحد مهم فى هذا الإقليم أنا أراه لكن يبدو أن الشبان يتجاهلونه وينسونه. صحيح أننا يجب أن نطالب بحقوقنا ونعلم الناس أنهم أيضًا عليهم واجبات.

" سيدى الرئيس، أخشى أن يكون شباب هذا الإقليم يحسبون أن القرويين فى هذا البلد قد وصلوا إلى مرحلة النمو والتطور السريع التى تدور بخلد هؤلاء الشبان. ويؤسفنى القول: إن القرويين فى هذا الإقليم لا يفهمون تمامًا، مضامين مختلف جوانب التقدم الذى نقوم به. لقد وصلنا حاليًا إلى مرحلة شديدة الصعوبة. وإذا كان الإقليم الشمالى يفضل السياسيين غير الأمناء، فذلك يعنى أننا مقدمون على أخطار كثيرة ستهددنا فى المستقبل القريب. ونصيحتى للمجلس، يا سيادة الرئيس، هى أن نلتزم الحرص الشديد فى تحركنا. نحن لا نكافح فقط من أجل تحسين مشكلاتنا داخل الإقليم، وإنما نكافح من أجل إنقاذ أنفسنا، من أخطار قد تنهال علينا من داخل نيجيريا نفسها، ومن الأقاليم الأخرى، كما نحاول فى الوقت نفسه، وضع أنفسنا على خارطة العالم الخارجى.

"المهمة المكلف بها أعضاء المجلس كبيرة جدًا، ونحن يتعين علينا أن نكون واقعيين، وأنا أتطلع أن يكون لدى كل واحد منا العزم والتصميم على أن يكون شجاعًا وعلى الملأ، لكى يساهم فى إقرار نصوص مشروع هذا القانون إلى أن يصبح قانونا.

سيدى، عضو آخر محترم أبدى ملاحظة مهمة جداً، يقترح فيها ترجمة مشروع القانون إلى اللغة العامية. وأنا أقول، يا سيادة الرئيس إن هذه الترجمة أمر مهم جداً، وأتمنى أن تأخذ الحكومة هذه الملاحظة مأخذ الجد."

لا يمكن لأى قارئ أن يتجاهل تكرار الإشارة إلى "سعادة وسلامة" القرويين على اعتبار أن هذه السعادة والسلامة أهم من طموحات الزعماء، والإشارة أيضًا إلى حتمية ألا يكون "التغيير" جذريًا وأن الواجبات لابد أن تتساوى مع الحقوق، ولا يمكن لأى قارئ أيضًا أن يتجاهل الإشارة باستخدام عبارة "الشبان من الناس". يزاد على ذلك أيضًا أن التحذير من "السياسيين غير الأمناء" كان قاسيًا أيضًا على نفوس الزملاء الإقليميين، هذا التعبير لم يكن مقصوراً فقط على الجنوبيين الذين يتدخلون فى أمور السياسة.

فى خطاب الحاكم المناب المعنون "خطبة من العرش" إلى الجمعية العمومية، والذى جرى تكراره وإعادته بصفة خاصة على مجلس الرؤساء، الذى كان يترأسه شارود سميث، ذكّر الرجل كل أعضاء مجلس الرؤساء أنه بصرف النظر عن حاجة الشمال لاثنين وتسعين عضواً تشريعيًا، كانت أمامه أيضًا مهمة كبيرة تمثلت فى إعادة تشكيل وإعادة توجيه الآلة الضخمة والمعقدة، ألا وهى الخدمة المدنية المحملة بالأعباء التى كان يتعين القيام بها فى ذلك الوقت. نادى شارود سميث بالوحدة النيجيرية (وهنا نلمس آثار بصمات جوك Jock ماكفرسن) – يحق للشماليين أيضًا أن يفخروا بوصلة سكة حديد إدّو Iddo والتوسع الذى طرأ على أرصفة التحميل فى ميناء أبابا Apapa كما أشار شارود ـ سميث أيضًا (والمؤكد أنه كان يتفكر مسالك الوزراء) إلى تأكيدات القادة السياسيين للموظفين المقيمين، وقوله أنه ينبغى دعم هؤلاء الموظفين من قبل أعضاء الحزب الكبار والصغار: هذا يعنى أن الاستقالات بدأت تُقدَّم بالفعل من قبل البريطانيين الذين لم يكونوا واثقين من مستقبلهم. كان هناك حوالى ستة وخمسين

مكانًا شاغرًا من الوظائف الإدارية، ولم يكن هناك سوى سبعة مرشحين فقط (لم يكن هناك مئات المتقدمين لكل وظيفة مثلما حدث قبل ثماني سنوات). ومع ذلك، استطاعت وزارة الحكم المحلى الجديدة إثبات ذلك التقدم السياسى على مستوى القسم، كما أنهيت أيضًا السلطات المحلية، وجرى أيضًا فصل السلطات عن طريق إبعاد القضاة عن مجالس الإدارة المحلية، كما جرى أيضًا إنشاء معهد جديد للإدارة. لم يشر الرجل إلى مشاعره الغامضة (ناهيك عن مشاعر أبى بكر) حول افتقار السياسيين الحاليين إلى التحمس للعمل فى سائر أنحاء ليجوس، فى ظل وجود مصادر السلطة فى يد مجموعة من الأفراد سيئى التنظيم فى كادونا.

سارع المعلم أبو بكر بالعودة إلى موطنه قبل العودة إلى ليجوس، واستطلع حال مزرعته الواقعة على الطريق إلى داس Dass التى أصبحت بمثابة هوايته المفضلة ومنتجعه المفضل أيضًا، ووبخ مستشارى الأمير توبيخًا شديدًا، الذين تأخروا فى تقديم موضوعاتهم فى اجتماع من الاجتماعات، كما وبَّخ الرجل أيضًا ضابط (رئيس) الحى، الذى قام بإحضار كل الملفات المتعلقة بجدول الأعمال، بدلاً من تمرير الملفات من خلال المستشارين الذين يمكنهم قراءة محاضر الهاوسا المكتوبة بالأحرف الرومانية والخاصة بموضوعاتهم (فى ذلك الوقت كان رئيس الحى يقوم بأعماله المكتبية ومكاتباته فى المكتب الرئيسى التابع للإدارة المحلية، وكان ذلك ينطبق أيضًا على الأعمال والمكاتب السرية). وبينما كان أبو بكر فى مزرعته زاره دان Dann بابا Bapa عضو مجلس الممثلين أو المندوبين فى كانو، والذى كان يتاجر فى الجلود والمصنوعات الجلدية وفى الفول السودانى والمنتجات الأخرى، ونظرًا لأن سياستهما كانت واحدة، فقد وجد الكثير من الموضوعات المشتركة التى سرهما الحديث عنها.

فى الاجتماع الذى عقده مجلس المندوبين أو الممثلين حول الميزانية الهزيلة، ظن الصحفيون أن أقوى خطاب كان هو خطاب المعلم أبى بكر تافاوا باليوا، لا من حيث المضمون وإنما لأن مخارج أصوات الرجل وموسيقى كلامه، كانت تجعل كل ما يقوله هذا

الرجل مهما حتى وإن كان تافهًا. وهاجم الرجل الدكتور أولورن Olorun نمبى Nimbe، مثلما هاجم إبراهيم إمام من قبل: "عندما كنت على الجانب الآخر، انتقدت الحكومة فى إنفاقها الذى لا مبرر له، وأنا الآن بصفتى عضو فى الحكومة يتعين على التأكد من أن الحكومة تنفق المال العام على أشياء معقولة. والطلب الآن على الحكومة يعد طلبًا غير معقول. يزاد على ذلك أن حركة المرور على الطرق وكذلك إعداد القطارات [التى يتكلم عنها العضو المحترم] التى تتجاوز المستوى لا تضمن توفير البوابة المطلوبة لذلك. وبذلك يكون الرجل قد كشف عن محتوى حقيبته الوزارية، وسهولة تقبله للملاحظات التى تأتيه من الصندوق الرسمى، وذلك عن طريق التعامل على أساس من المساواة فى لجنة المخصصات، فيما يتعلق بالمطارات، وجسر السكة الحديد فى جبًّا Jebba، والمسابك، وعمال قطر السفن، والمعدِّيات، وشروط الخدمة البحرية، ومدارس السياقة، وخطوط السكك الحديدية، واستطاع الرجل الاحتفاظ بهدوئه طوال الغوغاء التى صاحبت مناقشة التأجيل بسبب فضيحة مزعومة تدور حول خردة السكك الحديدية - كان عقد قد أُبرم مع المتقدم رقم ثمانية من قائمة المتقدمين، وذلك لأن السبعة الآخرين لم يتمكنوا من تخفيض تأميناتهم.

رد أبو بكر تافاوا باليوا على سؤال يتعلق بتقرير أعدته لجنة العمل الخاصة بالسكة الحديد، قائلاً: إن المؤسسات العامة يمكنها العمل بلا قيود من القوانين والقواعد القانونية باعتبارها مؤسسات مالية وأعمالية، وبذلك يمكنها تحقيق المزيد من المتحصلات وخلق الكثير من الفرص للنيجيريين كيما يشاركوا بصورة مباشرة فى إدارة سككهم الحديدية. كان العقيد رالف Raif إميرسون Emerson مستشارًا ومديرًا عامًا لمدة تزيد على ستة أشهر، وكانوا يتطلعون إلى التشريع لقيام مؤسسة لها رئيس مجلس إدارة مساهم ورئيس تنفيذى له مجلس يضم أعضاء يمثلون المستفيدين التجاريين من كل إقليم من الأقاليم، على أن يكون واحد من هؤلاء الممثلين "مؤهلاً أكاديميًا وعمليًا" فى العلاقات الصناعية، وأن يضم المجلس أيضًا ممثلين لهيئة الموانئ

الجديدة، ومجالس التسويق المركزية، والمصالح التجارية العامة، فضلاً عن عضوين آخرين. وتحتفظ الحكومة لنفسها بسلطة إصدار التوجيهات العامة الخاصة بالمصلحة العامة، أما فيما عدا ذلك فإن مهمة الوزارة تتمثل فى مفتش مستقل لديه خبرة لا تقل عن خمسة عشر عامًا فى منظومة كبيرة من منظومات السكك الحديدية. كانت هناك بعض التفاصيل الأخرى الخاصة بالأرض، والعلاقات المستقبلية مع مؤسسة من مؤسسات الفحم والموانئ، وحماية شروط الخدمة، وصناديق الادخار ـ كما أعلن الرجل أيضًا الطريقة التى سيتم بمقتضاها تأسيس هيئة الموانئ النيجيرية الأمر الذى حظى بتصفيق كبير (نظرًا لأن حركة السفن المقيمة، وإدارة العمالة فى أرصفة التحميل، وكذلك السيطرة على الموانى، كانت منذ زمن طويل مثارًا لكثير من التعليقات السياسية التى تعبر عن الاستياء والضيق)، يزاد على ذلك أن الرجل كان مؤدبًا فى رده على العضوين الخاصين السيد/ سى إم بوث Booth من غرفة ليجوس التجارية، والسيد/ جى سى لوكاز Lucas الذى تحدث نيابة عن المصالح الملاحية. لكن الرجل لجأ إلى التعميم، كما توسط فى موضع آخر على الموافقة على أن سن الثامنة عشر هو الحد الأدنى للمسئولية عن الجرائم الكبيرة، مشيرًا إلى أن فقهاء الإسلام الذين حددوا تلك السن بسن البلوغ، اكتشفوا فيما بينهم صعوبة التوصل إلى السن الحقيقية للحلم.

كان مؤتمر حزب المؤتمر الشعبى الشمالى الذى انعقد فى شهر أبريل من العام ١٩٥٤، مؤتمرًا موثقًا توثيقًا جيدًا فى المتأخرات، ومع ذلك كان لكل واحد ممن شاركوا فى هذا المؤتمر ذكريات مختلفة. كانت كل من كانو، وكادونا، وزاريا لا تزال أماكن مرموقة يمكن أن يتم فيها الاجتماع، لكن فى هذه المناسبة المهمة، وبالذات عندما كان الناس ينتظرون من الحزب استجماع كل قوته كيما يتحول إلى مؤسسة حديثة، رؤى التخلى عن هذه المدن سالفة الذكر، كان كل من أمين التنظيم نوح بأمالى، وأمين الشئون الإدارية جاربا Garba أبوجا يتطلعان إلى مكان الطعام فيه مناسب ورخيص، كان هناك أيضًا شخصيات أخرى وراء الكواليس، وكانوا يتطلعون إلى منفذ يكون

بعيداً عن تأثيرات الإمارة، أو أن تكون تلك التأثيرات منظورة ومرئية إن قُدِّر أن يكون للإمارة تاثير ونفوذ. وقع الاختيار على مدينة جوس Jos، تلك البلدة المهمة من بلاد الهضبة والتى يرعاها كل من حزبى الجنوب والحزام الأوسط، وجرى اختيار سينما ركس لتكون مكانًا لذلك الاجتماع. كان الهدف الرئيسى من ذلك الاجتماع دستورياً ويتعلق بانتخاب رؤساء المكاتب. لم يكن هناك شك فى أنه طبقًا لتسلسل القيادة الهرمى وفى ضوء المبادأة التى جاءت من كل من كانو، وبرنو، وكاتسنا وسكتو Sokoto تقرر إيفاد كل من رئيس حى زاريا هو وكبير قضاة زاريا إلى منظمى اجتماع الحزب لإبلاغهم أن كبار الرؤساء يودون أن يكون المستشار السياسى الرئيسى Sardauna هو رئيس الحزب، كان السواد الأعظم من الأمراء لا يزالون مترددين تمامًا فى رؤيتهم للتجار أو الأثرياء من عامة الناس يتمتعون بمراكز قوية، وهناك أسباب كثيرة تدعونا إلى الاعتقاد بأن أمير كانو أرسل بعض الناس عن طريق القطارات وعن طريق اللوريات ليقدموا للمستشار السياسى الرئيسى Sardauna كل ما يريده أو يبتغيه. واقع الأمر أن أمير كانو كان معينًا للمستشار السياسى الرئيسى (وقد حدث الشىء نفسه من جانب رئيس حى زاريا) أثناء المتاعب والاضطرابات التى واجهته فى سكتو قبل ذلك بعشر سنوات، كما أن المستشار السياسى الرئيسى كان يرتبط بصلة قرابة مع أمير كانو عن طريق الزواج. ومن سوء الطالع أن بعض استطلاعات الرأى هى والوعى العام أوضحا أن هناك غالبية كبيرة وقوية من أعضاء حزب المؤتمر الشعبى الشمالى ومنتسبيه، بل وربما بعض أعضاء المؤتمر (وأعضاء آخرين من خارج الشمال ومن خارج نيجيريا أيضًا)، كانوا يريدون أبا بكر تافاوا باليوا زعيمًا لهم. كان هناك أيضًا مجلس للحزب، أو إن شئت فقل مؤتمر حزبى، جرى عقده فى مقر إقامة المستشار السياسى الرئيسى وكان يضم المعلم أبا بكر نفسه، وموزّع مهام بطا Bida، ومحمد رباط، وشتيما كاشيم. وجرى على الفور مطالبة أبى بكر ألا يكون متخاذلا فى مسألة الإجراءات الرسمية، لكن الرجل بكل صراحة وبلا أية مواربة قال لهم إنه لا يتطلع إلى المنصب أو الجاه.

أرسل فى طلب المعلم نوح وحضر الرجل ليعرف ذلك المطلوب منه، لكن الرجل جاء ومعه أيضًا رسالة من المعلم إبراهيم إمام كان يتوقع فيها وقوع هذه الأحداث، لم يكن إبراهيم إمام يفكر مطلقًا فى أن يصبح زعيمًا لحزب المؤتمر الشعبى الشمالى بأى حال من الأحوال، لكنه يتعين عليه الآن الاستقالة من منصبه كأمين عام للحزب. أصر إبراهيم إمام فى رسالته على أن المستشار السياسى الرئيسى هو والزعماء الآخرين كانوا عبارة عن عملاء إمبرياليين رجعيين، يخشون حدوث تغيير راديكالى فى الشمال (أصبح إبراهيم بعد ذلك بفترة قصيرة زعيمًا للحزب، لكن تقرر أيضًا أن يكون إبراهيم إمام راعيًا لرابطة تخشين شباب برنو، التى استطاع تحويلها إلى حركة شباب برنو. فى البداية سأل كل من محمد رباط وشتيما كاشيم نوح بامالى عن عدد الوفود: وقيل لهما إن عدد الوفود يزيد على المئة، وأنه هو وجاربا Garba كانا لا يزالان يبحثان عن أماكن لتسكين هذه الوفود. وقيل لنوح بامالى ألا يشغل باله بمسألة النوم، وإنما يتعين عليه الذهاب إلى هذه الوفود كلها ويخبرهم أن "القيادة" وحدها هى التى تريد المستشار السياسى الرئيسى Sardauna رئيسًا لها، وإذا ما سأل سائل "لماذا لا يكون أبو بكر تافاوا باليوا هو الرئيس؟" قل له إن أبا بكر وافق على العمل مع المستشار السياسى الرئيسى فى موقع "الرجل الثانى". وهنا أعطاهما المعلم نوح بامالى رسالة إبراهيم إمام، التى أغضبت المعلم محمد رباط بصورة خاصة، الذى قال إن هذه الرسالة جرى إعدادها خصيصًا لعرقلة الحزب. أوضح نوح بامالى أن إبراهيم إمام له أتباع، وعليه إن قدر لأحد أن يطلب منه الانسحاب، فإن أفضل من يطلب إليه ذلك هو محمد رباط نفسه. وردت الجلسة بالموافقة على قبول الاستقالة، وعليه كان لابد لنوح بامالى من الانصراف لتوصيل هذا الكلام إلى الوفود. ومع طلوع النهار أصبح واضحًا أنه لا هذا الكلام الشفاهى أو التحذير الذى أطلقه أبو بكر فى الاجتماع الأخير للجمعية العمومية قد أقنعا المستمعين.

كان الهدف الرئيسى للاجتماع، وهو انتخاب الرئيس العام، قد تحقق بانتهاء الجلسات وأعمال المؤتمر. كان المعلم بللو دنداجو، قد تولى منصب الرئيس فى اليوم الأخير من أيام المؤتمر، الواقع أن ما أسماه المعلم بللو دانداجو القرار الحرج شارك فيه اثنان من المعينين الحقيقيين بالإضافة إلى الحاج ساندا Sanda الذى لم يكن ذائع الصيت - يزاد على ذلك أن أبا بكر هو وأحمد بللو (المستشار السياسى الرئيسى Sar-dauna) لم يحضرا هذه الجلسة الأخيرة لأنهما كانا يستعدان للعودة إلى ليجوس). وعلى العكس من طريقة التصويت السابقة جرى التصويت على هذا القرار برفع الأيدى بدلاً من التصويت بطريقة الأوراق. بعد إحصاء الأصوات الخاصة بالحاج ساندا، سمع المعلم عيسى كيتا، الذى كان يجلس فى المقدمة، المعلم بللو وهو يطلب ممن يؤيدون أو يصوتون لأبى بكر تافاوا باليوا، رفع أيديهم، وخطر ببال الرجل أنه شاهد الحاضرين كلهم وقد رفعوا أيديهم، وسمعه بعد ذلك وهو ينادى على من يصوتون لأحمد بللو (مستشار سكتو السياسى الرئيسى) بأن يرفعوا أيديهم، وشاهد بعض الأيدى وقد رفعت. وراح المعلم نوح بامالى يجادل هؤلاء الذين صوتوا لأبى بكر تافاوا باليوا بأن هذا الذى يصوتون له لم يود الدخول فى الانتخاب. وأعلن بللو دنداجو أن أحمد بللو، المستشار السياسى الرئيسى، قد فاز، وهنا بدأ الهتاف والتهليل، وبذلك ينهى الرجل الاجتماع بالانصراف من المسرح.

كانت هناك روايات أخرى لتلك المناسبة، وكان هناك كثيرون آخرون يتساءلون كثيراً عن عملية التصويت، لكن الجميع لا يختلفون حول الأرقام التى أعلنت مؤخراً (٧٥-٢٣٩-٣٧٣). كان أبو بكر يعرف أن المواقف التقليدية هى التى تتغلب دومًا على شعبية الفرد سريعة الزوال. كانت اللحظة سريعة على نحو يصعب معه تخيل أو تصور أن الفلاحين العاديين هم وعامة الناس يمكن أن يعترفوا بواحد من عامة الشعب فى منصب زعيم كبير، مثل هذا الشخص يمكن أن يكون زعيمًا، لكنه لا يمكن أن يكون

زعيمًا كبيرًا. هذه العظمة كانت لا تزال مقصورة على أفراد السلالة الملكية. وفى ضوء المصطلحات الهندية والمصطلحات الإنجليزية الخاصة بالطوائف الاجتماعية نجد أن الرئيس الذى من هذا القبيل بسبب شهرته الخاوية هى التى تجعل هذه الزعامة لا تدوم طويلاً. يزاد على ذلك أن الزعيم الذى يكون من هذا القبيل لم يسع قط إلى أى منصب من المناصب التى لا تفرض عليه بحكم الظروف أو التشجيع الفعال. هذا يعنى أن الرجل جرى انتخابه بواسطة الاجتماع، لكن واقع الأمر أن هذا الانتخاب جاء فى الاجتماع الأخير من اليوم الأخير من أيام المؤتمر، الذى ترأسه المستشار السياسى الرئيسى، حيث انتخب الرجل نائبًا للرئيس، وجرى انتخاب محمد رباط نائبًا ثان للرئيس، وجرى انتخاب موزع المهام فى بطا Bida، المعلم على، أمينًا للصندوق، وجرى انتخاب عيسى كيتا أمينًا للشئون المالية، فى حين كان شتيما كاشيم وأبا Abba حبيب مجرد مراقبين.

لم تكن مسألة أن يصبح الرجل نائبًا لزعيم الحزب الجديد فيها أى شىء من التذلل أو العبودية. قرأ أبو بكر (وفنّد بالتفصيل) استقالة إبراهيم إمام المسببة، وأصبح المعلم إينوا .Inuwa وادا سكرتيرًا عامًا (وقد أدى ذلك إلى تعيين إينوا وادا أول سكرتير برلمانى للشمال، للمستشار السياسى الرئيسى Sardauna، الأمر الذى حرم إينوا وادا من القوة التنفيذية، لكن من هذا المنصب أعطى الرجل قاعدة راسخة وممولة كادونا مكنته من أن يبدأ منها رحلته). لم تحدث انتخابات فى المؤتمرات التى تلت ذلك وقد بقى كل أصحاب المناصب فى مناصبهم فترة طويلة بلا تحد طوال بقاء الحزب على قيد الحياة - اللهم باستثناء محمد رباط الذى توفى فى منصبه بعد ذلك بأحد عشر عامًا - كان ذلك أول مؤتمرًا أو اجتماع لحزب المؤتمر الشعبى الشمالى، الذى ترك فيه بوكار Bukar سولوما Suloma دبشاريما Dipcharima، رئيس حى يروا Yerwa، فى برنو انطباعًا على الحاضرين. كان بوكار دبشاريما هو ذلك المدرس الشاب الميدوجورى الذى التحق بالجولة التى قام بها حزب الاتحاد الوطنى النيجيرى الكاميرونى فى العام

١٩٤٧ إلى بريطانيا، لكنه سارع بعد ذلك إلى اعتزال هذه السياسة ليصبح مديراً لمحلات جون هولت Holt، وها هو الآن يعود إلى حزب مختلف غير حزبه الأول.

بعد الموازنات وأحداث ما بعد الوفاة، حل السيد/ أوسيكا Awosika بصفة مؤقتة محل المعلم أبى بكر فى حقيبة الأشغال المركزية التى تولاها الرجل اعتباراً من وفاة بود Bode توماس المفاجئة. وقام الدكتور آزكوى هو والسيد/ أوجوكو Ojukwu صاحب شركة النقل فى شرقى البلاد، قاموا بجولة اقتصادية فى إنجلترا وأمريكا.

حدثت جلبة فى مجلس الوزراء حول مسألة إبعاد حى الفقراء عن ليجوس، ولما كان حزب جماعة العمل بحاجة إلى تأييد ملاك الأراضى الأقوياء، فقد ادعى آكنتولا أن الناس لا يريدون هذا الإخلاء، فى حين صمم كل من أبى بكر وامبادوى Mabadiwe على إثبات أن الناس أخطأوا فيما ذهبوا إليه. وفاجأ مجلس المنح الدراسية المتهكّمين بأن خصص مائة وثلاثة وستين منحة دراسية للجلسة التالية، من بينها ٨٩ منحة دراسية إلى الخارج، ٧٢ منحة إلى الكلية الجامعية التابعة لجامعة زاريا، والموجودة فى إيبادان. كان المعلم عمر جواندو، الأمين المساعد للمجلس التشريعى الشمالى قد سافر إلى بريطانيا لمدة ثلاثة أشهر يدرس خلالها الإجراءات البرلمانية فى مجلس العموم البريطانى. وتمكن السيد/ جورج George يورو Uru أوهكيرى Ohikere، أمين اتحاد إجبيرا القبلى، الذى حضر مؤتمر لندن بصحبة وفد حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، من الاحتفال بفوز حزبه فى أول انتخاب لمجلس محلى كله من الشماليين، وبعد ذلك بفترة قصيرة كان الطاهر Atta الإجبيرى Igbirra البالغ من العمر اثنين وستين عامًا ثانى الرؤساء الذين جرت الموافقة لهم على إعفائهم من مناصبهم.

كما قام السير جون ماكفرسن رسميًا بافتتاح كلية تدريب الكتبة فى زاريا، الذى أطلق عليه فيما بعد اسم معهد الإدارة، وقد تفاخر المستشار السياسى الرئيسى Sar-dauna بذلك المعهد نظراً لارتفاع مستواه إذ بدأ يتدرب فيه أيضًا كبار أعضاء هيئة كتبة المحاكم وكبار الموظفين الإداريين. وقام المعلم أبو بكر بافتتاح خط السكة الحديد

الرئيسى المتمثل فى محطة جوس، هذه الوصلة من الخط الجديدة تتباهى وتفخر بأن فيها قاطرة قطعت مسافة تزيد على ١,٢٠٠,٠٠٠ كيلو منذ العام ١٩١١، وأعلن أبو بكر تافاوا باليوا أن هناك اهتمامًا كبيرًا بتمديد خطوط السكك الحديدية، وبخاصة فى المنطقة الكبيرة من نيجيريا والتى تقع بين نهر بنيو Benue والحدود الشمالية. قام المستشار السياسى الرئيسى Sardauna برحلة إلى أوروبا، تمكن خلالها من التحدث إلى أعضاء البرلمان البريطانى وإلى اتحاد الطلاب النيجيريين عن المشكلات الخاصة بإقليمه. وبدأ السيد/ أوبافيمى Obafemi أولوو Awolowo وللمرة الأولى يعترف بل يقبل الدعوات إلى حضور المناسبات الاجتماعية الخاصة بالمسئولين البريطانيين. كان النيجيرى المدعو إيمانويل إفياجونا Ifeajuna قد حصل على الميدالية الذهبية فى فانكوفر، فى مهرجان الألعاب الإمبراطورية، لأنه حقق رقمًا قياسيًا إذ وثب مسافة قدرت بستة أمتار وتسع بوصات.

فى شهر يوليو حصل الطالب أُوجوكو Ojukwu الذى أتينا على ذكره فى الفصل الأخير، على درجة الليسانس من جامعة شيلدونيان فى حضور والده الذى كان يتباهى به، ورافق بيوس Pius أوكجبو Okjgbo، الباحث فى كلية أوكجبو Okjgbo، فى تلقى التهانى الخاصة بنيجيريا آخر يدعى تسليم Taslim إلياس، فى معهد دراسات الكمنولث الكائن فى - (١٠) كبل Kable رود Road. ورداً على الأسئلة الواضحة قال أوكوجو للآخرين: إنه لم يتخذ قراراً بعد (رغم انتخابه من قبل ليكون رئيسًا إداريًا للحى)، لكنه كان لا يزال يفكر فى ذلك الذى قاله جنرال بريطانى أمام اجتماع عقد مؤخرًا فى أحد النوادى. كان ذلك الجنرال قد حذر الأعضاء أن من بين الاحتمالات القوية، ظهور جيش، خلال مرحلة استقلال المستعمرات التى من قبيل ساحل الذهب أو نيجيريا، وعقب انسحاب البريطانيين واستيلائه على السلطة من الحكام الإمبرياليين الذين رحلوا عن البلاد، نظرًا لأن الاستقلال قد يكون قدرًا مشئومًا للسياسيين الوطنيين، الذين حصلوا عليه، ومن منطلق أن تَسوُد السلطة الاستعمارية لا يمكن

استبداله أو استعواضه بهذه الخفة وبهذه السهولة بهؤلاء المنظِّرين غير المجرَّبين أو ناقصى الخبرة. وقيل له إن والده (وهو شريك لشقيق إلياس، فى عمل تجارى فى ليجوس) لن يسمح لوارثه مطلقًا الذى سيكون عاهلاً، أن يكون جنديًا عاديا.

فى تلك الأثناء كان رئيس (ضابط) حى باوتشى قد قام بإجازة، فقد وصل إجمالى جولاته الثلاثة إلى ما يزيد على خمس سنوات فى محطة واحدة الأمر الذى جاء بمثابة الرقم القياسى فى المقاطعة، وكان رئيس بلدة ننجى قد جرى استبداله من خلال مساندة رئيس الحى هذا للاحتجاجات التى تقدم بها مدرس شجاع يدعى باراو Ba-rau، يضاف إلى ذلك أن تجمع سجلات القسم حول يعقوب Yakubu الثالث، منذ الأيام الأولى لروبرت رايت، بدأت تؤتى ثمارها. وقد لقى همفرى Humphery جيل Gill، الممثل المقيم، والذى يستلهم إلى حد ما انتقادات أبى بكر الصريحة والمتزايدة، تشجيعًا أيضًا من هجمات مساعد الحاكم على قصور السلطات المحلية. تناول شارود سميث هذه الأمور كلها مع كل من السلطان والمستشار السياسى الرئيسى Sardauna، كما كان يتناولها أيضًا مع المعلم أبى بكر كلما سمحت الظروف بذلك، لكن الرجل كان يؤكد تأكيداً شديداً على موقعه كممثل لصاحبة الجلالة ورئيس لمجلس الرؤساء وأن الرؤساء ينبغى عليهم النظر إلى القرار باعتباره قرارا صادرا عنه هو. كان الناس يعتقدون بشكل عام، كما سبق أن أوضحنا، أن المستشار السياسى الرئيسى Sardauna مقبول فقط بصفته وزيراً للحكم المحلى (أو بصفته زعيمًا لحزب المؤتمر الشعبى الشمالى) بحكم دمائه الملكية، وأن أبا بكر لا يمكن الموافقة عليه من الأقوياء، وزيراً للحكم المحلى أو ما يزيد على كونه رئيس وزراء إقليمى، على الرغم من أن السلطان نفسه هو الذى تقدم لمجلس الرؤساء باقتراح أدى إلى إلغاء السلطات المحلية المنفردة. وبعد أن أثر ذلك على أبى بكر تأثيراً كبيراً، جرى فى الحال استدعاء أمير باوتشى هو ومجلسه إلى كادونا من قبل كبير الأمناء بصفته الموظف المسئول عن إدارة الحكومة. كان الحزب يضم أيضًا آدم جومبا كبير المستشارين Waziri الذى جرت ترقيته مؤخراً، والذى كان

من قبل مشرفًا على الزراعة (والذى شغل منصب رئيس حى باوتشى وبصورة مؤقتة بعد أن دخل بارايا Baraya السجن).

كان يعقوب الثالث مثيرًا للإعجاب، واسع الأفق، بشوشًا ومحبوبًا من الفلاحين عن بعد. كان الرجل يترأس اللجنة الإقليمية المشتركة الدائمة الخاصة بالمالية، كما كان يترأس أيضًا مجلس تنمية الإنتاج الإقليمى من باب الاعتراف بوضعه وليس من باب الكفاءة والقدرة على المشاركة. لكن الرجل كان أيضًا من كبار الفسدة والمحابين البارزين فى المجتمع الذى يمكن فيه اكتساب هذه السمات بسهولة ويسر. كانت المشكلة تتمثل باستمرار فى العثور على الشهود والأدلة المادية، نظرًا لأن يعقوب نفسه كان يتمتع بقدر كبير من المهارة والدهاء. كان الرجل يتآمر على مجلسه، الذى كان يوجه إليه اللوم دومًا على أى قرار غير شعبى يتخذه هذا المجلس باسمه. ومع مجىء السلطات المدنية الجديدة أصبح هناك سلاح جديد ضد هذا الرجل: "لقد خسرت كلا من ثقة مجلسك وشعبك .... لقد عجزت عن إقناعك بتغيير أساليبك..... يجب أن تتقاعد أو ستواجه العزل رسميًا". كان يعقوب الثالث بعيدًا كل البعد عن المذنبين من كبار رؤسائه، لكنه رضى بمصيره شريطة أن يحصل على معاش تقاعد. كان تقاعد هذا الرجل عملية مستحيلة لولا إصرار كل من المعلم أبى بكر والمستشار أمين الخزانة المحلية، ومسئول الإدارة المحلية: هذا يعنى أنه لو أن الممثل المقيم ورؤساء الأحياء هم المدعون، ونائب الحاكم هو الجلاد فإن وزير النقل كان بمثابة الصوت المقنع والمحرض وراء هذه العملية. أصبح واضحًا أنه اعتبارًا من الآن فصاعدًا صار حضور يعقوب الثالث مجالس الأمير أمرًا جد نادر اللهم فى المناسبات المهمة والضرورية، وتوقفت أيضًا مشاركة الرجل العلنية، على الرغم من عدم استقالته.

وهنا يتعين علينا ألا ننسى أنه فى عصر دنيوى مثل ذلك العصر، فإن الأسباب نفسها التى جعلت الرجل جذابًا فى أعين كل من الفلاحين والمراقبين المستقلين الذين لم يقفوا على أى مظهر من مظاهر الصراع فى شخص الرجل، هى نفسها التى جعلت

يعقوب الثالث لا يفهم مطلقًا الأسباب التى أدت إلى إبعاده، شأنه فى ذلك شأن الرؤساء السابقين الذين جرى إبعادهم من قبل فى ذلك الوقت. السبب فى ذلك أن هؤلاء النبلاء، لولا هذا التفسير الذى لا معنى له للإجراء والممارسات البريطانية الجديدة، الخاصة بالدعارة والفاحشة أمام "العناصر" المتعلمة الجديدة والبذيئة، لما كان هناك مبرر مطلقًا لذلك التغيير الراديكالى: لقد شاهدت تلك العناصر الجديدة المتعلمة بأنفسها أن كل من كانوا فى السلطة كان كل واحد منهم يحاول الحصول على بعض المنافع الشخصية، وأن الفارق بينهم كان يتمثل فى مقدار الاستفادة. هذا يعنى أن الجماهير كلها أصبحت تشارك فى الرفاه الناتج عن الزراعة وتطوير الطرق، كل إنسان أصبح على وفاق مع متطلب المأكل والمسكن والملبس؛ يزاد على ذلك أن حتمية الموت، وأرجحية السعادة الدنيوية فى ظل وجود الله (س) جرى تعظيمها عن طريق تجنب خلق المتاعب لأولئك الذين يقومون على أمر السُّلطة - ترى هل التصويت لصالح أناس جدد حاملين للواء تغيير يقوم على الأفكار الغربية يمكن لهم تغيير أى شىء من هذه الأشياء، اللهم باستثناء تلك "العناصر" القليلة التى يمكن أن تتولى السلطة؟ كان الأمراء مرتاحين إلى أن إرادة الله الرحمن الرحيم يجب عدم الاعتراض عليها. أما الشباب الراديكالى فكانت راحته وسلواه من نوع آخر كانوا يرونه فى اضطراب الاستقرار فى كل أنحاء الدنيا: هذا هو الدكتور شدِّى Cheddi جاجان Jagan فى جيانا البريطانية، حكم عليه بالإعدام وأصبحت المستعمرة "منطقة حماية"، وهذه هى مدينة ديان بيان فو، المدينة الرئيسية فى الهند الصينية الفرنسية تسقط فى أيدى ألفيت Viet منّه Minh، وهذه هى حالة الطوارئ تسود كلا من بوجندا Buganda. وهذا هو حزب الدكتور نيكروما يكسب الانتخابات فى ساحل الذهب ويشكل حكومة جديدة فى شهر يونيو. وعبر القارة يوجد حزب سياسى جديد تأسس تحت قيادة المعلم جوليوس Julius نيريرى Nyerere، وهذا الحزب هو حزب الاتحاد الوطنى الإفريقى التنجانيقى.

كان هناك اجتماع أخير لمجلس المندوبين والممثلين عقد فى شهر أغسطس من العام ١٩٥٤، وقد انعقد هذا الاجتماع بصفة أساسية من أجل قانون الموانئ الصادر عن وزارة أبى بكر تافاوا باليوا. كان أبو بكر يعرف ذلك الذى يريده أفراد إدارته ووزارته. وجعل هو من هذه الرغبات أشياء تخصه هو فى ذلك الاجتماع الذى عقده المجلس.كان على أبى بكر إقناع المجلس، الذى كان قد قبل ووافق على الورقة البيضاء التى قدمت بخصوص السياسة. كانت هناك بالفعل سلطة موانئ ظلية قد تولت بالفعل أمر الإدارة البحرية والسيطرة العملية على أبابا Apapa، وبورت هاركورت، وخطّاف جمارك ليجوس، وكانت تلك السلطة تشتمل على تمثيل متساو للمصالح الملاحية والمصالح الاستيرادية والتصديرية، وهذا يعنى أن هيئة العاملين الحكوميين ستكون على المقياس نفسه، أى تساوى التمثيل (على الرغم من رفض الخزانة البريطانية، بعد الاستقلال، معاملة المقيمين ماليًا فى الشركات على قدم المساواة مع الموظفين الاستعماريين من أصحاب الخدمة المتصلة). هذا يعنى أن المسئول فى الوزارة، وليكن ذلك مثلاً مفتش السكك الحديدية المستقل، يمكن أن يظل سلطة قانونية طبقًا للقوانين المنظمة للنقل بالسفن، والملاحة، وتحطم السفن، والقوانين الخاصة بالتعويض، وبذلك يحق له استخدام هيئة العاملين بسلطة الموانى وكلاء له. هذا كله كان بعيدًا عن سفنَّاء(*) باوتشى، يزاد على ذلك أن الحمقى والمغفلين فى المجلس كانوا يبحثون عن التفاصيل السياسية - بمعنى أن رئيس الهيئة ينبغى أن يكون أحد أعضاء المجلس (أى سياسيًا معينًا)، وأن الوزير يتعين أن يراه الناس صاحب سلطة كاملة، وأن سجلات الهيئة ودفاترها ينبغى تدقيقها بواسطة لجنة الحسابات العامة .

"أحِسُّ إلى حد ما أن .... الأعضاء المحترمين يشبعون غرورى ... بإصرارهم على إعطائى المزيد والمزيد من السلطة. وأنا الآن

(*) السَّفنَّاء: أرض معشوشبة فى منطقة استوائية أو نصف استوائية وتشتمل على أشجار متناثرة. (المترجم)

لا أفهم الأسباب التى تجعلهم يقولون فى صوت واحد، إن الرئيس لديه سلطة كبيرة، ومن ثم يتحتم عليه اقتسام هذه السلطات مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين، كما أن وزير النقل يتعين عليه ألا يتشاور مع رفاقه فى المجلس .... والهدف الرئيسى [للوزير] من طرح هذه الأمور على مجلس الوزراء هو أنه يتحتم عليه الحصول على أكبر قدر ممكن من النصح من رفاقه .... مثل هذا الرئيس لابد أن تكون له معرفة خاصة بتشغيل الميناء لأنه يتحتم عليه القيام ببعض المهام التنفيذية .... وقد لا يكون بالإمكان الحصول على رجل من هذا القبيل من بين أعضاء المجلس".

بعد المناقشة التى دارت لاستبدال مسمى "الوزير" بمسمى "حاكم فى المجلس"، اختتم الرجل حديثه قائلاً:

"نحن موافقون على هذا، لكن نود أن نوضح لكم توضيحًا تامًا أننا يتحتم علينا التأكد من أن الوزير عندما يصدر هذه التعليمات لا يرجع إلى رفاقه فى مجلس الوزراء. نحن بوسعنا التوصل إلى ترتيب هذا الأمر بصورة أو بأخرى ..... [المراجعة البرلمانية للحسابات] وهذا يعنى بالتبعية تحويل هذه الهيئات المشاركة إلى إدارات حكومية، وهذا ليس هو المقصود. والحسابات ليست سرية. والفكرة الرئيسية من وراء ذلك كله هو إعطاء أكبر قدر ممكن من الاستقلال".

انتهز الدكتور آزكوى الفرصة ودعا وزراء الشمال ووزراء الشرق الفيدراليين لتناول الغداء، وليقول لهم إن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى هو وحزب المؤتمر الشعبى الشمالى ينبغى أن يساعد كل منهما الآخر. وهنا نجد أن أبا بكر يبادر

إلى القول – على الرغم من أكل العيش والملح مع الدكتور آزكوى - أنه لا يمكن أن تكون هنالك صداقة "حقيقية" أو تعاون، وكرر الرجل عن غير قصد تفسير السير جون ماكفرسن إلى الدكتور آزكوى، أنه لا يمكن الاحتفاظ بهذه الصداقة زمنًا طويلاً مادام أن حزب المجلس الوطنى النيجيرى الكاميرونى يؤيد ويساند حزب اتحاد العناصر الشمالية التقدمى. كان جون ماكفرسن قد حكم بأن الدكتور آزكوى يود من كل قلبه أن يُرَى مُنْفَكًا من منطلق أن الشمال سيكون منشغلاً تمامًا بمسألة الوصول إلى البحر، لكن مخاوف الرجل الحقيقية كانت تتمثل فى حدوث تحالف بين كل من حزب المؤتمر الشعبى الشمالى، وحزب جماعة العمل، وحزب الاستقلال الوطنى.

بعد ثلاثة أسابيع من ظهور أبى بكر تافاوا باليوا الأخير أمام الجمعية العمومية فى الشمال كانت أهم مساهمات هذا الرجل التى تمت بعد ذلك تتمثل من جديد فى المسائل الخاصة بالنظام والإجراءات، بما فى ذلك التحدى الذى لقيه الرجل بصفته رئيسًا لفرع رابطة الكمنولث البرلمانية فى نيجيريا، فى مسألة كفاية مقترح حكومة الشمال الذى مفاده أن المجلس التشريعى الإقليمى المستقبلى ينبغى أن ينضم إلى رابطة الكمنولث البرلمانية. ومع ذلك تقدم أبو بكر باقتراح ناجح مفاده أن مجلس التسويق الشمالى ينبغى عليه تمويل بنك الفلاحين التعاونى كيما يقدم يد العون لفلاحى محاصيل التصدير، وعندما اقترح المعلم إبراهيم إمام الاعتراف بالمعارضة الرسمية، طرح السؤال التالى بصفة محددة، "هل تسمحوا لى بتعرف شخصية الحزب الذى ينتمى إليه العضو المحترم؟"، وقيل له: "أنا سوف أجيب عن سؤال وزير النقل المحترم المكرَّم: وأنا فى الوقت نفسه "مستقل!" لكن مسألة تحدث إبراهيم إمام لزعامة حزب المؤتمر الشعبى الشمالى كانت شيئًا كبيرًا، بسبب افتقار هذه الزعامة إلى السياسة الواضحة، كما هو موضح فى التقديرات المختلفة: كانت هذه السياسة فى نظر إبراهيم إمام، وفى نظر الكثيرين، ناهيك عن أعضاء البرلمان البريطانى، تقوم على مشروعات اقتصادية محددة، وخطط للتنمية، وأرصدة للقروض، وتوسع فى الإدارات، وهذه

السياسة فى نظر كل هؤلاء لا تعد سياسة على الإطلاق، ما لم يكن هناك اضطراب فى البنى المصاحبة لهذه السياسة. وهنا نجد أبا بكر يقول:

"منذ أشهر قلائل فقط خرج العضو المحترم من الحزب، وأنا لا أظن أن أحدًا من الأعضاء حزن على غياب الرجل، فى السنوات القلائل الماضية كان العضو يحاول باذلاً قصارى جهده، أن يتبين أن حزبه ينفذ السياسة المرسومة. لقد اشتكى العضو المحترم مرات عدة من الاحتفاظ باحتياطيات خارج البلاد، وهو فى الوقت نفسه يتحدث عن الافتقار إلى رأس المال فى الإقليم. ونحن إذا كنا نود الصناعة وليس لدينا رأس المال المطلوب، ونحن إذا كنا سنسحب احتياطياتنا كلها من الخارج، فذلك يعنى أننا نضع كل ما لدينا من بيوض فى سلة واحدة. وهذا ليس من الحكمة أو العقل. يبدو أن العضو المحترم لا يعرف مدى ضرورة المحافظة على الاحتياطيات مطلقًا. لكن الرجل يتكلم عما يمكن عمله فى العام ١٩٥٦ عندما تتوقف أرصدة التنمية الاستعمارية وأرصدة الرفاه عن المجىء إلينا. حزب المؤتمر الوطنى الشمالى يرى أن أهم شىء هو المحافظة على استمرار التنمية فى البلاد".

يقف المستشار السياسى الرئيسى Sardauna، بطريقة تمثيلية مميزة، لكنها تتسم بالقيادة والرعاية إلى حد ما، ويلقى خطبة "أُحيِّى صديقى العزيز"، ومساعدى الأول، الذى رد على النقاط كلها والتى كانت تعتمل فى قلوب أعضاء الحزب الذى أتولى أنا زعامته. ونظرًا لأنى أعرف أن شعبى معرض دومًا للمعارك والخصام، فقد حتَّم ذلك علىّ أن أحيط نفسى بجنرالات يقومون بالدفاع عنى إلى آخر لحظة .... أنا لن أدخل فى مسألة جدلية مع أى عضو من أى حزب - أو العضو الذى انفك عن حزبى. أنا أترك الأمر برمته إلى اليعاقبة الشبان والسعادنة الشبان أيضًا، بل وإلى الصغار الآخرين لكى

يجيبوا عن هذه التساؤلات". وهنا صاح إبراهيم إمام، الذى كان مفروضًا عليه احترام أولئك الذين يختلف معهم: "وزير النقل ليس صبيًا صغيرًا!" لقد أوضح الرجل التناقض الواضح بين الزعامة عن طريق المنْزلة وعن طريق الجدل والحجج، والزعامة عن طريق المنزلة وما يعرف فى الوقت الحاضر باسم "سحر الشخصية القادرة على اجتذاب الناس إليها Charisma". وأوضح التناقض بين رجل لا يثق فى السلطة Power، لكنه كان مستعدًا لاستعمالها فى غرض يرى هو أن استعمال السلطة فيه يعد أمرًا حسنًا، ورجل يعتقد أن السلطة Power جاءته بفضل من الله ولم يتردد فى استعمالها فى تحقيق ما رآه على أن القدر والمصير.

كان مساعد حاكم الشمال، قد انتهى لتوه من قراءة كتاب فيليب Philip وودرف Woodruff الذى يحمل اسما مستعارًا هو فيليب Philip ما سوف، المعنون "الرجال الذين حكموا الهند" وكان قد تأكد من طباعة المجلد الثانى من هذا الكتاب والمعنون "الأوصياء" وتوزيعه على الضباط (الموظفين) الإداريين كلهم. وقام الرجل بإعارة نسخة من هذا الكتاب إلى أبى بكر تافاوا باليوا صاحب العقلية التاريخية. ودهش الاثنان من التناقض الظاهرى الذى أجراه وودرف Woodruf "بين الإمبراطورية الليبرالية المثالية فى الهند الموضوعة تحت الوصاية وبين واقع السلطة المستبدة المستخدمة من الناحية الأخرى بواسطة الأوصياء الأفلاطونيين لمصلحة النظام والهدوء"، كان شارود سميث يرى أن هدفى الوصاية والهدوء يمكن وضعهما بدون أى حل وسط فى أيدى ضباطه المفضلين، ووافق أبو بكر على أن ذلك يعد هدفًا مثاليًا، يجرى افتقاده فى معظم الأحيان، على الرغم من أن السواد الأعظم من الأهداف تعد أهدافًا شريفة ونبيلة. كان الجميع مثل السير جون ماكفرسن، لم يكتشفوا بعد الطلب الملح على قيام خدمة مدنية جلها من النيجيريين ألخلّص، وكانت الخدمة المدنية "المحلية" لا تزال تعنى السلطة التى لا تخضع لتوجيهات الحكومة البريطانية.

فى الاجتماع الأخير الذى عقده مجلس الوزراء القديم، أساء المعلم آكنتولا إلى المعلم أبى بكر وذلك عن طريق الابتعاد عن ربط نفسه بالتعبيرات المعتادة التى تعبر عن حسن النية تجاه الرئيس والزملاء الذين أصبح تقاعدهم أمرًا مرجحًا، فضلاً عن مقاطعة الرجل للاجتماع الأخير الذى عقده كبير الأمناء بنسون Benson فى فصل الربيع قبل سفره لتولى حكم روديسيا الشمالية. وفى اليوم الأول من شهر أكتوبر من العام ١٩٥٤ جرت إعادة تسمية وزارة المستعمرات باسم وزارة صاحبة الجلالة للخدمة المدنية فيما وراء البحار، وقبل مضى وقت طويل اندهش كثيرون ممن يُسَمَّوْن الأوصياء عندما جرت دعوتهم للمشاركة فى ذكرى تنصيبهم فى كنيسة وستمنستر). ومن باب المصادفة البحتة أن جرى فى الوقت نفسه العمل بدستور جديد فى نيجيريا التى كان يخدم فيها ما يزيد على نصف هؤلاء الأوصياء. فى ظل هذا الدستور، جرت صياغة اتفاق جديد، وبدأ الوزراء المعينون، فى نطاق المسئولية الجماعية، يمارسون مسئوليتهم الفردية فى توجيه وزاراتهم. وبدأ ماكفرسن يمدهم بالمعلومات الخاصة بالأمن التى كان يستقيها من التقارير الإدارية والتقارير الشرطية وتقارير فرع الاستخبارات الخاصة.

المؤلف فى سطور:

تريفور كلارك

مؤلف الكتاب ، رجل أسكتلندى تخرج فى جامعة أكسفورد ، وهو محام غير ممارس فى مدينة مدل تمبل . عمل هذا الرجل ضمن القوات البريطانية فى كل من سيراليون وجامبيا ، وبخاصة قوات الحدود الإفريقية الغربية الملكية ، فى فترة الحرب العالمية الثانية ، باعتبار هذه القوات جزءًا من الفرقة الحادية والثمانين المتمركزة فى وادى كالدان . بعد انتهاء حرب المحيط الهادى ، جرى إلحاق تريفور كلارك على الفرقة الثانية والثمانين فى رانجون عاصمة بورما برتبة رائد.

التحق تريفور كلارك بخدمة صاحبة الجلالة الإدارية فى نيجيريا فى العام ١٩٤٨، ومارس الرجل وظيفة رئيس حى مساعد ممارسة ناجحة . كان الرجل مساعداً الرئيس حى كاتاجوم فى بلده آزار ثم أصبح بعد ذلك رئيس حى الارى ، ثم بعد ذلك رئيسًا لباوتسى ، ثم أصبح بعد ذلك سكرتيراً منابًا للمجلس التنفيذى ، فى مكتب حاكم نيجيريا ، فى مجلس وزراء الشمال ، ثم أصبح رئيس حى أول فى بلدة إجبيرا فى أوكينى . وفى باوتشى تعرف تريفور على السير أبى بكر نافا واباليوا تعرف جيداً والتقاه بعد ذلك مراراً فى كادونا ، وأوكينى ، وليجوس .

تقاعد تريفور كلارك من الخدمة العسكرية فى العام ١٩٧٧ ، عين مستشار المدينة أدنبره ، فى أسكتلندة ، وأصبح عضواً فى لجنة أختبار كبار الموظفين .

المترجم فى سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجالات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل – الرياض – المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية – الرياض – المملكة العربية السعودية ، والمجلة العربية – الرياض – المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال – القاهرة – جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١ – التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف كرسيتوفرنوريس ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ – الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم ، دار المريخ .

٣ – الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه ، دار المريخ .

٤ – الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١ – الموظف المشاكس .

٢ – عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال . القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١ - هارون الرشيد ، تأليف : فيلبى .

٢ - الكاكائين والمرهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١ - حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية .

١ - سبعة أنماط من الغموض ، تأليف : وليم أمبسون .

٢ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف : بالجريف (جزءان) .

٣ - حركات التحرر الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ - سيرتى الذاتية ، تأليف : أحمد بللو .

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

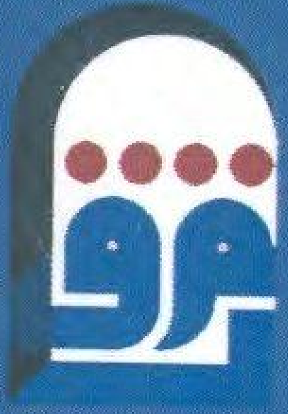
١ - سكين واحد لكل رجل .

٢ - نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية .

التصحيح اللغوى : **علا طعمة**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**



هذه هى السيرة الذاتية الأولى للحاج السير أبى بكر تافاوا باليوا، رئيس وزراء نيجيريا المستقلة. والكتاب يعد دراسة وافية لحياة الرجل وأزمانه، فضلاً عن كونه أيضا تبصرا جديدا فى تاريخ أكثر الدول الإفريقية سكانا فى القرن العشرين، وربما تكون أهم الدول الإفريقية، على حد قول البعض. الكتاب قصة فريدة لرجل فريد يرويها واحد من أولئك الذين يعرفون أبا بكر حق المعرفة.

عبد الحكيم صالح